هذا محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم

سيرته..

منهج حياة للسائرين إلى الله

www.almoslih.net

إصدار

المكتب العلمي

للدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ

حقوق الطبع محفوظة

هذا محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم

سيرته.. منهج حياة للسائرين إلى الله

تأليف

الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح

الأمين العام للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

برابطة العالم الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

إِهْـــدَاء

إلى . . .

- الذين أيقظوا الأيام، وأنقذوا الأمـل، وجددوا شباب الإسلام . .
- الذين حرروا عقولهم من قيود الآباء، وقلّبوا وجوههم في السـماء، حتى استجاب الله لهم الدعاء.
- إيفلين كوبلد . . . ومريم جميـلة . . . وصبورة أوريبة . . . وسلمى بوافير.
- جيفري لانغ . . . ومـراد هوفمان . . . ومحمّد صديق . . . ويوسف إسلام.
- آخرين لا نعلمهم، ولا ضير، فالله يعلمهم.

أسأل الله أن يذيقنا برد الرحمة التي ذاقوا لحظة نطقوا: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

المؤلف

المصلح

المُقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١].

أشهد هذه الشهادة العظيمة، فهي كلمة قامت بها الأرض والسماوات، وهي الحق الذي خلقت له الخليقة، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب، وبها يقع الثواب والعقاب يوم القيامة، وعليها أُسِّستِ المِلة، وهي حقّ الله على جميع العباد، فهي كلمة الإسلام،

ومفتاح دار السلام، وعنها يسأل الأولون والآخرون، فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجَبتُم المرسلين؟ فجواب الأولى بتحقيق «لا إله إلا الله» معرفة وإقرارًا وعملًا، وجواب الثّانية بتحقيق «أن محمَّدًا رسول الله» معرفةً وإقرارًا، وانقيادًا وطاعةً.

أما بعد، فإنه لم يكتب لأحدٍ من البشر من الأثر والخلود والعظمة ما كتب لصاحب الخلق الكريم محمد بن عبد الله ﷺ، لقد دونت في سيرته الكتب، ودبجت في مديحه القصائد، وعمرت بالحديث عنه المجالس، وبقيت عظمته قمة سامقة لا تنالها الظنون، تقلبت به صروف الحياة من حال الى حال، غنى وفقر، وكثرة وقلة، وظعن وإقامة، وحزن وسرور، فكان قدوة في ذلك كله، وحقق عبودية الموقف لربه كما ينبغي له.

ظل في مكة ثلاث عشرة سنة، وما آمن معه إلا قليل، فما تذمّر ولا ضجر، وجاءه أصحابه يشتكون إليه ويسألونه الدعاء والاستنصار؛ فحلف على نصر الدين وتمام الأمر، وأنكر عليهم أنهم يستعجلون[1] فكان الأمر كما وعد، علَمًا من أعلام نبوته، ونصرًا لأمر الله، لا للأشخاص. وكان من نصره أن تأتيه وفود العرب من كل ناحية مبايعة على الإسلام والطاعة؛ فما تغير ولا تكبّر، ولا انتصر لنفسه من قوم حاربوه وآذوه وعاندوا دينه.

هذا محمد ﷺ المنارة الساطعة التي تظهر معالم الحق، وتكشف المكنون من الأسرار، وتضع أبصار الناس وبصائرهم على طريق الهدى والنور. فسيرته ﷺ تجمع عدة مزايا تجعل من الوقوف في ظلها متعة روحية، وعقلية، وتاريخية.

(١) انظر صحيح البخاري/ كتاب المناقب باب علامات النبوة رقم (٣٦١٢) وفيه «والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

كما أن الوقوف على سيرته ﷺ ضرورة لعلماء الشريعة، والدعاة إلى الله، والمهتمين بالإصلاح بكافة أنواعه، ليضمنوا إبلاغ الشريعة إلى الناس، بأسلوب يجعلهم يرَون فيها المعتصم الذي يلوذون به عند اضطراب السبل، واشتداد العواصف، ولتفتح أمام الدعاة قلوب الناس وأفئدتهم، ويكون الإصلاح الذي يدعو إليه المصلحون أقربَ نجاحا، وأكثرَ سدادا.

تمتاز سيرة رسول الله ﷺ عن سائر الرسل والأنبياء والعظماء جميعهم بأن مصادرها تجمع بين الوحي الإلهي مما تضمنه القرآن الكريم، وما روي على لسان الحفاظ الثقات من المحدّثين، لذا فهي أصح سيرةٍ لتاريخ نبي مرسل، أو عظيم مصلح، فلم يتطرق إليها الشك، على عكس سير الرسل السابقين بعد أن حرفت كتبهم.

إن حياة رسولنا ﷺ واضحةٌ كلَّ الوضوح في مراحلها، منذ زواج أبيه من أمه، إلى وفاته ﷺ، وفي ذلك يقول أحد مفكري الغرب: «إن محمدا ﷺ هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس». وهذا ما لم يتيسر لأي نبي غيره[1].

كما أن سيرته ﷺ تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة، فلم تخرجه عن إنسانيته، ولم تلصق عليه الألوهية قليلا ولا كثيرا، فادعاء النصارى الألوهية لعيسى عليه السلام، جعله أبعدَ منالا من أن يكون قدوة نموذجية للإنسان في حياته الشخصية؛ إذ أنّى للبشر أن يقتدوا بالإله ـ تعالى الله عن قولهم ـ في كماله وجلاله؟! بينما ظل وسيظل هو ﷺ الأنموذجَ للإنسان الكامل، لكل من أراد أن يعيش سعيدا كريما في نفسه وأسرته وبيئته.

إن سيرته ﷺ شاملة لكل نواحي الإنسانية في الإنسان، فهي تحكي لنا سيرته طفلا يتيما، وصبيا مكفولا، وشابا مكافحا، قبل أن يكرمه الله بالرسالة، كما

(١) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ابن الديبع الشيباني، (ص٤٠).

www.almoslih.net

تحكي لنا سيرة الرسول الداعية الذى دعا إلى الله على بصيرة، كما تحكي لنا سيرة الرسول رجل الدولة الذي وضع لدولته أقوَمَ النظم وأصلحها.

وتحكي لنا سيرة الرسول الزوج والأب الحنون، كما تحكي لنا سيرة الرسول المربي المرشد الذي يُشرِف على تربية أصحابه تربيةً مثالية، ينقل لهم من روحه إلى روحهم، كما تحكي لنا سيرة الرسول الصدِيق والصاحب، الذي يقوم بكل واجبات الصداقة والصحبة، وتحكي لنا سيرة الرسول القائد العسكري، والمحارب الشجاع، والقائد المنتصر، والسياسي الناجح، والمعاهد الصادق، والمربي المرشد.

فسيرته بحق شاملة لجميع نواحي الإنسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الحسنة الصالحة لكل داعية، وكل قائد، وكل صديق أو صاحب، وكل مُرَبٍّ، وكل زوج، وكل أب، وكل سياسي، وكل رئيس دولة[١].

إن سيرة محمد ﷺ تعطينا الدليل الذي لا ريب فيه على صدق رسالته ونبوته، فهي سيرة إنسان سار بدعوته من نصر إلى نصر، لا عن طريق الخوارق والمعجزات فحسب، بل الأخذ بالأسباب، وإعداد الخطة والعدة، ثم التوكل على الله.

فلقد دعا فأوذي، وبلَّغ فأصبح له أنصار، واضطر إلى الحرب فحارب، وكان حكيما، موفقا في قيادته، وعند وفاته كانت دعوته تلفّ الجزيرة العربية كلها، عن طريق الإيمان، لا عن طريق القهر والغلبة، فإن نتائج الحروب التي حصلت في عهد النبي ﷺ كان عدد القتلى من المسلمين (٢٥٩)، وعدد قتلى المخالفين (٧٥٩) فيكون المجموع (١٠١٨).

وما وقع له ﷺ من معجزات لم تكن الأساس الأول الذي آمنت به العرب، إنه أساس عظيم للإيمان به، لكنّ هديه وخلقه كانا أعظم في هداية الناس.

---

(١) رحمة للعالمين/ محمد سليمان المنصور فوري/ (٢/ ٢٦١) ط ١، الدار السلفية بومباي ١٤١٠هـ.

وبحسبنا هنا أن نشير إلى أن رأس الأمر الذي سنركز عليه في تناولنا لسيرة محمد ﷺ يتمثل في تفسير لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] لأننا نكتب عن أسوة وإمام جليل، نصلي فنذكره لأنه يقول: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[١]، نحجّ فنذكره لأنه يقول: «لتأخذوا عني مناسككم»[٢]، في كل طرفة عين نذكره لأنه يقول: «من رغب عن سنتي فليس مني»[٣].

وفي كتابنا هذا، لا ندّعي أننا أتينا بما لم يستطع أن يأتي به السابقون، فشأن محمد ﷺ كبير، وتوضيح بعض معالم سيرته يحتاج إلى نفس أرقّ، وفقه أدقّ، وذكاء أكبر، وإيمان أعمق، كما لا ندّعي لعملنا هذا العصمة أو الكمال، ومن ظن أنه قد أحاط بالعلم، فقد جهل نفسَه.

ولله درُّ العماد الأصبهاني حين قال: "إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده، لو غير هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ كذا لكان يُستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر"[٤].

وأختم مقدمتي هذه راجيا من الله الكريم الثواب، وأن نحيا ونموت ونحن من أمته، متبعين لسنته، وأن يغفر الله لنا الذنوب، ويستر العيوب، ويكشف الكروب.

---

(١) صحيح البخاري (٦٣١).
(٢) صحيح مسلم (١٢٩٧).
(٣) صحيح البخاري (٥٠٦٣)، صحيح مسلم (١٤٠١).
(٤) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث للصلابي.

www.almoslih.net

هذا محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم

١

البِشَارَاتُ بِنَبِيِّنا ﷺ

المصلح

البِشَارَاتُ بِالرَّسُول ﷺ

لا شك عندنا ـ معشر المسلمين ـ أن محمدًا ﷺ قد ذُكر في الكتب السماوية السابقة، وبَشرت به الأنبياء قبله، إما بالنص صراحة على اسمه أو على صفته، كما جاءت بذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة:

بشارات التوارة:

من أسماء النبي ﷺ في اللغة العبرية (بِمادْماد) [١]، وكذلك (لغوي غدول) أي: محمد ﷺ.

فقد جاء في سفر التكوين قول الرب لإبراهيم عليه السلام:

"وَلْيَشْمعيل شمعتخ هَنِّى بريختي أتود هَفْرتي. أتو بماد ماد. شينم اساد نسى اِمْ يوليد. وأناتيتوا لغوى غدول" [٢].

وترجمته (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمِّره وأكثِّره كثيرا جدا، اثنى عشر رئيسا يلد، واجعله أمة كبيرة).

(١) القاضي عياض: الشفا بحقوق المصطفى: (١/ ٢٣٤)، المكتبة العلمية بيروت، بدون تاريخ.
(٢) سفر التكوين (١٧: ٢٠).

www.almoslih.net

وإذا أمعنّا النظر في هذه الترجمة نلاحظ الآتي :

١ أن لفظي (كثيرا جدا)، أو(جدا جدا) في بعض الترجمات هما ترجمة حديثة للكلمة العبرية (بمادماد).

٢ أن كلمتي "أمة كبيرة"، أو "شعبًا كبيرًا" هما ترجمة حديثة للفظ العبري (لغوي غدول).

وقد كانت هذه التسمية العبرية موجودة في بعض الترجمات العربية القديمة[(١)].

ومن خلال استقراء هذا الاسم (بمادماد) الذي ورد في هذا الموضوع على ضوء حساب الجمَّل[(٢)] عند اليهود، نجد أنه يساوي الرقم العددي اثنين وتسعين، وكذلك مجموع حروف اسم محمد ﷺ وذلك على النحو التالي[(٣)]:

ب= ٢، م=٤٠، أ=١، د=٤، م=٤٠، أ=١، د=٤، فيكون مجموع الناتج =٩٢

وكذلك مجموع اسم محمد على ضوء حساب الجمَّل حيث إن: م=٤٠، ح=٨، م=٤٠، د=٤، فيكون المجموع= ٩٢.

(١) المستشار الطهطاوي: البرهان بورود اسم محمد وأحمد في الأسفار، (ص ١٦ -١٩)، الطبعة الأولى ١٩٨١م، مطبعة التقدم/ القاهرة.

(٢) حساب الجمل: هو ضرب من الحساب يجعل فيه لكل حرف من الحروف الأبجدية عدد من الواحد إلى الألف على ترتيب خاص (المعجم الوسيط) وهي عملية قديمة، تتم على أساس أن لكلٍّ رقما معينا كما يلي: أ=١، ب=٢، ج=٣، د=٤، هـ=٥، و=٦، ز=٧، ح=٨، ط=٩، ي=١٠، ك=٢٠، ل=٣٠، م=٤٠، ن=٥٠، س=٦٠، ع=٧٠، ف=٨٠ ، ص=٩٠، ق=١٠٠، ر=٢٠٠، ش=٣٠٠، ت=٤٠٠، ث=٥٠٠، خ=٦٠٠، ذ=٧٠٠، ض=٨٠٠، ظ=٩٠٠، غ=١٠٠٠ الخ.

(٣) انظر ابن كثير: تفسير القران العظيم، (ج٣٨)، ط، أحمد حجازي السقار: البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل، (ص ١٣٦، ١٣٧)، دار البيان العربي، القاهرة ١٩٧٧م.

كما أن حروف (لغوي غدول) يساوي عددها بحساب الجمل الرقم العددي اثنين وتسعين، وهو نفس الرقم العددي لمجموع حروف اسم محمد ﷺ، وذلك كما يلي: اللام=٣٠، والغين=٣، علما بأنها في مقام الجيم فليس في اللغة العبرية حرف الجيم أوالصاد، والواو=٦، والياء=١٠، والغين الثانية=٣، والدال=٤، والواو=٦، واللام=٣٠، فيكون المجموع الكلي ٩٢، وهو نفس المجموع لحروف اسم محمد ﷺ[(١)].

ومن ثَمَّ فإن المنصفين من علماء اليهود أو النصارى يعترفون بأن هذين الاسمين هما علَمان على شخص محمد ﷺ، يتعرف عليهما من خلال حساب الجُمَّل الذي يستخدمه اليهود، ومن هؤلاء العلماء المنصفين: اليهودي الذي أسلم: السموأل بن يحيى رحمه الله حيث يقول عن هذه التسمية:

"فهذه الكلمة (بِمَادْمَادْ) إذا عددنا حساب حروفها بالجُمَّل وجدناه اثنين وتسعين، وذلك عدد حساب حروف (محمد) ﷺ أيضًا اثنان وتسعون. وإنما جعل ذلك في هذا النوع ملغزا، لأنه لو صرح به لبدلته اليهود، أو أسقطته من التوراة، كما عملوا في غير ذلك"[(٢)].

وقد أقام هذا الحبر المسلم الحجة والبرهان، وردّ على دعوى المنكرين أو المعارضين أمثال ابن كمونة القائل: "وأما ما استدل به صاحب كتاب (الإفحام)، بحساب الجُمَّل، فهو أركّ من أن يتكلم فيه.

(١) القرطبي: الاعلام، (٣/٢٦٦)، دار التراث، القاهرة ١٩٨٠م، تحقيق: د/أحمد حجازي السقار، دار التراث العربي، القاهرة ١٩٨٠م، تامر مير مصطفى: بشائر الأسفار بمحمد وإله الأطهار، (ص ٥٥ – ٦٥)، التوحيد للنشر طهران ١٩٩٤م.

(٢) السموأل بن يحيى: بذل المجهود في إفحام اليهود، تحقيق: د/الشرقاوي (ص١٥٥-١١٧) الطبعة الأولى، دار الهداية، القاهرة ١٩٨٦م.

www.almoslih.net

ومع ذلك فإن اللفظ الذي قد كملت حروفه بالجُمَّل اثنين وتسعين قد ورد في عدة مواضع، في غير حق إسماعيل، ولو فسرت الكتب النبوية بحساب الجُمَّل لخرجت النصوص عن ظواهرها، ولتوجه على المستشهد بها من الاعتراض أكثر مما يتوجه له»[1].

وقد تناسى (ابن كمونة) اليهودي أن يقيم الأدلة على دعواه لا أن يتبع الأسلوب العام، أو أن يردّ بالدليل العقلي أو النقلي على ما ذكره صاحب كتاب الإفحام: كما نسي أن هذه التسمية قد جاءت في معرض الوعد الإلهي عن البركة في حق إسماعيل عليه السلام وذريته.

ويجدر بالذكر، أن ترجمة الكلمة العبرية (بمادماد) (كثيرا جدا) أو (جدا جدا) هي ترجمة غير دقيقة أو غير أمينة، بل هي ترجمة خاطئة قصد بها التعمية أو التغطية على التسمية المحمدية، وذلك لما يلي:

أوَّلًا: أن التفسير لا يصح ولا يستقيم لأجل الباء المتصلة بهذه اللفظة، فإنه ليس من الكلام المستقيم أن يكون قول القائل «أنا أكرمك بجدا» فلما نقلت هذه اللفظة من التوراة الأزلية التي نزلت في ألواح الجوهر على موسى عليه السلام إلى اللغة اليونانية، وكانت تلك اللفظة فيها موصولة بالباء، علم بأن المراد غير ما ذهب إليه من قال هي بمعنى (جدا) إذ لا تأويل يليق بها غير لفظة (محمد).

ثانيًا: أن القول بأن (ماد ماد) يعني (كثيرًا جدًا) يناقضه رسم اللفظة نفسها، فإن (ماد) الأولى هي نفس (ماد) الثانية، فلماذا كانت ترجمة اللفظة الأولى (كثيرا)، وترجمة نفس اللفظة في المرة الثانية (جدا).

ثالثًا: إذا نظرنا في حروف (محمد) وحروف (ماد ماد) أو (ماذ ماذ) كما تكتب في بعض الأحيان، وجدت الكلمتين كلمة واحدة، فإن الميمَين

(١) ابن كمونة: تنقيح الأبحاث للملل الثلاث، (ص ٩٧)، دار الأنصار – القاهرة، بدون تاريخ.

فيها، والهمزة والحاء من مخرج واحد، والدال كثيرًا ما تجد موضعها ذالًا في لغة العبرانيين»[1].

يتضح مما سبق: أن المراد بهذين اللفظين (بمَادْ مَادْ)، و(لَغْوي غَدُول) شخص النبي ﷺ في التوراة، وما ذلك إلا ليتعرف عليه بنو إسرائيل فيؤمنوا به، ويستجيبوا له.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] إلا أن الترجمات العربية الحديثة حرّفها اليهود إلى قولهم (كثيرًا جدًا)، أو (أمة عظيمة).

بشارات الأناجيل:

من يستقرئ النصوص الواردة في الأناجيل، تجاه تسمية النبي الخاتم ﷺ، يتوقف على الكلمات التالية: «إيليا – يودوكيا – بركليتس» وهذه الكلمات تعني في لغات الأناجيل التي كتبت بها عبرية أو يونانية اسم النبي أحمد ﷺ.

أوَّلًا: إيلياء (أي: أحمد) ﷺ:

جاء في إنجيل متّى قوله على لسان المسيح عليه السلام:

«وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو (إيليا) المزمع أن يأتي، من له أذنان للسمع فليسمع»[2] وبهذا يشير المسيح ابن مريم إلى أن (إيليا) سيأتي من بعده.

فمن هو النبي إيليا؟ هو إلياس عليه السلام عند بني إسرائيل، ويعتقد اليهود أنه رُفع إلى السماء، وأنه سيعود إلى الأرض، وما زالوا ينتظرون مجيئه، ومع اعتقاد النصارى بأنه النبي إلياس عليه السلام، الذي عاصر الفترة (٨٧٤ – ٨٥٢

(١) المستشار الطهطاوي: البرهان بورود اسم محمد وأحمد في الأسفار، (ص ١٩، ٢١، ٢٣).
(٢) إنجيل متّى، (١١: ١٤- ١٥).

www.almoslih.net

ق.م) في مملكة إسرائيل الشمالية[١]. إلا أنهم يعتقدون أن يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) قد جاء بروح إيلياء الحقيقي كمقدمة لمجئ المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام[٢] علمًا بأن (يوحنا المعمدان) عليه السلام عندما سئل عن نفسه نفى أن يكون هو إيليا المنتظر أو نبي آخرِ الزمان، فقد جاء في إنجيل يوحنا قوله:

"وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة لاويين ليسألوه من أنت. فاعترف ولم ينكر، وأقرّ: إنِّي لست أنا المسيح، فسألوه: إذًا ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست أنا. النبيّ أنت؟ فأجاب: لا"[٣].

كما أن المسيح ابن مريم في الفقرة التي نحن بصددها يخبر بأنه لم يأت بعدُ "أو المزمع أن يأتي"، وفي موضع آخر من هذا الإنجيل يؤكد هذا بقوله:

"فأجاب يسوع، وقال لهم: إن إيليا يأتي أولاً، ويرد كل شيء"[٤].

ويوحنا المعمدان لم يرد أي شيء، لأنه لم يكن صاحبَ كتاب أو شريعة، وقد استشهد قبل أن يحدث للمسيح ابن مريم ما حدث له.

وقد جاء في سفر ملاخي: أن مجيء إيليا النبي يكون قبل يوم القيامة[٥] فإذا انتفى أن يكون المقصود (بإيليا) يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) فمن يا ترى؟ لا غرو، إنه النبِيّ الخاتم أحمد ﷺ، وذلك لما يأتي:

❶ لأنه هو الذي أتى بعد المسيح ابن مريم عليه السلام من حيث الزمانُ.

❷ قد ردّ كل شيء إلى حقيقته، خاصة ما ألصقه أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالمسيح وأمّه عليهما السلام.

(١) بطرس عبد الملك وآخرون نخبة من أساتذة اللاهوت: قاموس الكتاب المقدس، (ص ٢٤٤)، الطبعة التاسعة، دار الثقافة المسيحية، القاهرة ١٩٩٤م.
(٢) انظر: إنجيل متّى (١٧: ١٢-١٣). (٣) إنجيل يوحنا (١: ١٩- ٢١).
(٤) إنجيل متّى (١٧: ١١). (٥) سفر ملاخي (٤: ٥).

❸ أنه هو النبي الذي اقترن مبعثُه بقرب مجيء يوم القيامة، ففي الحديث الصحيح: «بعثت أنا والساعة كهاتَين»[٦] وقد أشار ﷺ بإصبعيه السبابة والوسطى.

❹ تطابق اسم (إيليا) مع اسم (أحمد) بمقتضى حساب الجُمّل؛ فكلاهما يساوي الرقم العددي ثلاثة وخمسين، وذلك كما يلي:

حرف الألف=١، والياء=١٠، واللام= ٣٠، والياء الثانية=١٠، والألف=١، والهمزة=١؛ فيكون المجموع=٥٣.

وكذلك تعداد حروف اسم (أحمد) من حيث حسابُ الجُمّل:

حيث إن حرف الألف=١، وحرف الحاء=٨، وحرف الميم=٤٠، وحرف الدال=٤؛ فتكون جملة الناتج=٥٣.

وهذا ما شهد به الباحث محمد زكي الدين ـ أحد النصارى الذين أسلموا ـ في كتابه (نور الأكوان) عن بشارة المسيح ابن مريم السابقة في إنجيل (متّى) حيث يقول:

"والمعنى إن أردتم أن تتبعوا فاتبعوا (أحمد) الذي سيبعث، لأن إيلياء حسابها بأعداد الجُمّل هو ٥٣، وهو تعداد جُمّل اسم النبيّ الكريم (أحمد) لأن تعداده أيضًا بحسابه الجُمّل هو ٥٣"[٧].

يتضح مما سبق: أن لفظ (إيليا) إشارة إلى النبي أحمد ﷺ، وإن حاول المترجمون إخفاء ذلك بكتابته بلفظ (إيليا)، بدون همزة مع تضعيف الياء الأخيرة.

(٦) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب قرب الساعة من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه – الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة ١٩٩١م.
(٧) نقلا عن المستشار الطهطاوي: البرهان بورود اسم محمد وأحمد في الأسفار، (ص ٣٧).

ثانيًا: يودوكيا (أي: أحمد ﷺ):

جاء في إنجيل (لوقا) قوله عن البشارة بقدوم المسيح عليه السلام: "وظهر بغتةً مع الملاك جمهور من الجند السماوىّ مسبّحين الله وقائلين: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرّة"(١) إيضاح هذه البشارة: حيث تجدر الإشارة إلى ما يلي:

١ أن هذه الأنشودة الملائكية كانت كلماتها مفهومةً للرعاة في بيت لحم، أي بلغتهم المحلية حسب مقتضى السياق.

٢ أنهم أعلنوا بعد الثناء على الرب سبحانه تحقق السلام في الأرض، وإشاعة الفرح والسرور بقدوم المولود الجديد.

علما بأن هذا السلام أو تحقق الأمن، وزوال الحرب لم يتحقق حتى في بني إسرائيل، لا في حياة المسيح ابن مريم، ولا مَن بعده، فالاضطهادات أو العداءات بين المسيحيين وبين غيرهم، أو بين الطوائف المسيحية أو المذاهب الدينية ظلت قائمة على امتداد التاريخ المسيحي حتى الآن.

كما أن هذه الفقرة تتناقض صراحة مع قول المسيح يسوع: "لا تظنوا أنّي جئت لألقي سلامًا على الأرض. ما جئت لألقي سلامًا، بل سيفا"(٢).

وفي إنجيل لوقا نقرأ قوله: "جئت لألقي نارًا على الأرض . . أتظنون أني جئت لأعطي سلامًا على الأرض. كلا بل انقساما"(٣).

ولهذا فإن الأصل اليوناني أو السرياني لكلمتي السلام والمسرّة في الفقرة السابقة، وهما: (إيريني) و(يودوكيا) يراد بهما الإسلام، ونبيّه أحمد ﷺ، أجل فقد قام الأب الذي أسلم عبد الأحد داود بدراسة مستفيضة لأصل هاتين الكلمتين،

(١) إنجيل لوقا (٢: ١٣، ١٤).
(٢) انظر إنجيل متّى (١٠: ٣٤-٣٦).
(٣) إنجيل لوقا (١٢: ٤٩-٥١).

والدلالة اللغوية لكل منهما، وقد أثبت أن (إيريني) باللغة اليونانية تعني الإسلام، مستدلًا على ذلك بالعقل والنقل والتاريخ(١).

وأن كلمة (يودوكيا) اليونانية تعني أفعل التفضيل من الحمد، أي: الأكثر حمدا، أو أحمد ﷺ(٢)، ومن ثم فالترجمة الصحيحة للنص السابق هي:

"المجد لله في الأعالي، وأوشك أن يجيء الإسلام للأرض يقدّمه للناس أحمدُ"(٣) يتضح مما سبق إشارة إنجيل (لوقا) إلى اسم النبي أحمد ﷺ (أي: يودوكيا)، حيث إن كلمتي (السلام، والمسرّة) رمزان لمجيئه ﷺ بدين الإسلام.

ثالثًا: بريكليتوس (أي: أحمد) ﷺ باليونانيّة، وتنطق بيرقليطس:

حيث جاء في إنجيل (يوحنا) هذا الاسم المبارك للنبيّ الخاتم ﷺ، ويظهر ذلك مما يلي:

أ قوله عن المسيح يسوع لتلاميذه:

"إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم مُعزِّيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله؛ لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه؛ لأنه ماكث معكم ويكون فيكم"(٤).

ب قوله في موضع آخر عن هذا المعزِّي:

"وأمّا المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي؛ فهو يعلّمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم"(٥).

(١) عبد الأحد داود: محمد في الكتاب المقدس، (ص ١٥١- ١٥٤)، ترجمة فهمي شما، الطبعة الثانية، دار الضياء، قطر.
(٢) المرجع السابق: (ص ١٥٥، ١٦١، ١٦٣).
(٣) السقار: البشارة بنبي الإسلام، (ص ٣٧١- ٣٧٢ ج٢)، الطهطاوي: البرهان (ص٣٦).
(٤) إنجيل يوحنا (١٤: ١٥ – ١٧).
(٥) إنجيل يوحنا (١٤: ٢٦).

www.almoslih.net

ج ونقرأ في موضع ثالث قول المسيح عنه :

"إن لي أمورا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن".

"وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجّدني لأنه يأخذ ممّا لي ويخبركم"[١].

يلاحظ على هذا الفقرات، ونحوها ما يلي :

١ أن هذه التعاليم كانت الوصايا الأخيرة من المسيح لتلاميذه.

٢ أن عبارة (الروح القدس) لم ترد في النصوص إلا في الفقرة رقم (ب)، مع أنها لم ترد في أقدم النسخ اليونانية لهذا الإنجيل، مما يؤكد أنها دخيلة وزائدة.

٣ أن عبارة (روح الحق) التي جاءت في الفقرة رقم (جـ) تشير إلى أن المسيح يتحدث عن مُعَزٍّ لم يأت بعدُ.

٤ أن هذا المعزِّي الآخر مثلُ المسيح عليه السلام يسمع ويتكلم[٢].

٥ هذه الصفات التي جاءت في هذه النصوص وهي روح الحق، مُعَزٍّ آخر، يعلّم كل شيء ويخبر به، يرشدكم إلى جميع الحق، لا يتكلم عن نفسه بل بما يسمع، يخبر بأمور آتية، يمجّد المسيح، ويشهد له، لا تنطبق كلية إلا على شخص النبيّ أحمد ﷺ[٣].

(١) إنجيل يوحنا (١٦ : ١٢-١٤).

(٢) تامر: بشائر الأسفار، (ص ١٩٦- ١٩٩)، الطبعة الأولى، التوحيد للنشر، طهران ١٩٩٤م.

(٣) للمزيد راجع: ابن تيمية الجواب الصحيح، (٤/ ١٠-١٨)، ابن القيم: هداية الحيارى (ص ١٢٨- ١٣٩)، عبد الأحد داود: محمد في الكتاب المقدس، (ص ٢٢٥- ٢٢٩)، أحمد ديدات: ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ؟، ترجمة وتحقيق إبراهيم خليل أحمد، (ص ٨٩- ٩١)، الطبعة الثانية، دار المنار، القاهرة ١٩٨٩م، بشائر الأسفار، (ص٢٠٧- ٢١٧).

ويبدو أن المسيح ابن مريم عليه السلام قد هيأ نفوس تلاميذه بمطلع هذه الفقرات، ثم بشرهم بقرب مجيء هذا النبي (المعزي)، مخبرًا إياهم عن اسمه، وما سيتحقق على يديه من إنجازات، وهذا لا شك من أنوار النبوة.

يعتقد المسيحيون أن المراد بالمعزي (البراكليت) الأقنوم الثالث، وهو الروح القدس، وأن هذه النّبوة تفيد الوعد بنزوله إلى الأرض بعد خمسين يومًا من تاريخ رفع المسيح يسوع، يقول الأنبا يوأنس: "كان الادعاء التقليدي أن الكلمة اليونانية براكليت تعني (المحمود) لكن هذا خطأ لغوي فاضح فكلمة (براكليت) لا تعني المحمود".

الكلمة اليونانية (براكليتوس) وردت في العهد الجديد خمس مرات. أربع مرات قيلت عن الروح القدس، ووردت في (يوحنا ص ١٤، ١٥، ١٦). وجاءت بمعنى (المُعزِّي أو المعِين)، وهو المعنى الأصلي للكلمة في اللغة اليونانية. وفي المرة الخامسة ذكرت عن المسيح بمعنى (الوكيل في القضاء، أو المحامي)، ووردت في (رسالة يوحنا الأولى ٢ : ١): "يا أولادي أكتب إليكم هذا لكي لا تخطئوا. وإن أخطأ أحد فلنا شفيع" إذن من أين نشأ هذا الخلط؟

هناك كلمة يونانية أخرى قريبة من (براكليتوس)، وهي (بريكليتوس) وهذه لم ترد في الإنجيل[١].

ثم حاول جاهدًا أن يثبت أن المراد بالمعزِّى الروح القدس[٢].

شأنه شأن الأب (تريكو) في معجمه الصغير للعهد الجديد[٣].

لقد تناول الأب المسلم عبد الأحد داود هذا اللفظ بالدراسة والبحث وقد خلص إلى أن الكلمة المرادفة للمُعزِّي يونانيًا هي كلمة (باراكالون) وليست كلمة (باراكليتوس)، كما أن المرادف لكلمة محام أو وسيط هي كلمة (باراكالون)،

(١) الأنبا يوأنس: كتابنا المقدس ومسيحنا القدوس، (ص ٧١).

(٢) المرجع السابق، (ص ٧٢-٧٣). (٣) بشائر الأسفار/ تامر (ص ١٩٦-١٩٧).

وليست (باراكليتوس)، وأن هذه الكلمة لا تعني في هذا الموضع المُعزِّي أو المحامي، بل تعني المنقذ من لعنة القانون[(١)].

«والواقع أن كلمة (باراكليتوس) قد جاءت تحريفًا للصيغة اليونانية الصحيحة التي هي (باراكليتوس) والتي تعني: الأشهر أو الجدير بالحمد».

وبعد أن حرف رجال الكنيسة اسم المبشر به في إنجيل يوحنا من (بريكليتوس)، أي: الجدير بالحمد، وهو أحمد أو محمد ـ إلى (باراكليتوس) أي: الشفيع والمُعزِّي ـ عمدوا إلى تحريفٍ من نوع آخر، وهو ادّعاؤهم بأن الباراكليتوس (المعرب إلى فارقليط)، هو (الروح القدس) الذي يطلقون عليه اسم (الأقنوم الثالث) الذي نزل على الحواريين بعد عدة أيام من موت عيسى المسيح بزعمهم.

وقد قام يوحنا صاحب الإنجيل المسمى باسمه بإعطاء تفسير لكلمة (فارقليط فقال في الفقرة ٢٦: إنه روح الحق[(٢)].

وسواء أكانت الكلمة التي ترجم عنها لفظ المعزي هي (بريكليتوس) وتنطق برقليطس أي: الجدير بالحمد أي: أحمد، أم كانت (باركليتوس) وتنطق عربيًا (بارقليطس) أي: المعزِّي والمحامي أو الشفيع، فالفرق بينهما استبدال حرف (o) مكان حرف (E)، ولا يستبعد هذا على النسّاخ، كما أن كلا اللفظين ينطبقان أو يصدقان على رسول الله ﷺ اسما في الأول، ووصفًا في الثاني[(٣)].

(١) عبد الأحد داود: محمد في الكتاب المقدس، (ص ٢١٦- ٢١٧).

(٢) تامر مير مصطفى: بشائر الأسفار، (ص ١٩٥- ١٩٦).

(٣) للمزيد انظر: الإمام ابن تيمية: الجامع الصحيح لمن بدل دين المسيح، (٤/ ١٥-١٦)، تقديم علي سيد صبح المدني، مصر ١٩٦٣م، إظهار الحق، (٤/ ١١٩٠-١١٩١)، عبد المجيد الجندي: ملكوت الله في النصرانية واليهودية والإسلام، (ص ٧٤-٧٦)، دار الدعوة للنشر، الإسكندرية ١٩٨٣م، تامر مير مصطفى: بشائر الأسفار، (ص ١٩٤-١٩٥)، سليمان شاهر مفسّر (القس): عيسي رسول الإسلام، (ص ٣٣)، ترجمة/ أبو إسلام أحمد عبد الله، الطبعة الأولى، بيت الحكمة للنشر القاهرة ١٩٩٣م.

ولا غرو، أن يكون لفظ المعزِّي ترجمة للكلمة اليونانية (بريكليت)، أو مقابل لها (يرقليط) أحمد عليه الصلاة والسلام، الذي سيعزِّي بني إسرائيل في فقدهم الملك والشريعة.

أما ما جاء في إنجيل (برنابا) عن التبشير باسم النبيّ الخاتم ﷺ فحدِّثْ ولا حرج[(١)].

من ذلك قوله عن المسيح ابن مريم: «ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس، تزال عنّي هذه الوصمة، وسيفعل الله هذا لأنّي اعترفت بحقيقة مسيّا الذي سيعطيني هذا الجزاء أي أن أعرف أنّي حيّ وأنّي بريء من وصمة تلك الميتة»[(٢)].

نستنتج مما سبق أن اسم النبي الخاتم ﷺ هو أحمد في الأناجيل المعتمدة لدى النصارى، سواء أجاءت هذه التسمية من خلال العبارة، كما في لفظي (يودوكيا)، برقليطس) أم الإشارة كما في لفظ (إيلياء).

وفي هذا حجة عليهم من جهة، وإعجاز للقرآن العظيم الذي أخبر عن بشارة عيسى عليه السلام قومه باسم النبيّ أحمد ﷺ من جهة أخرى. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصَّفّ: ٦].

وهكذا أخبر القرآن العظيم بما لدى النصارى من البشارة باسم النبي أحمد ﷺ، كما أنه خاطب اليهود بذكر ما عندهم من اسم محمد ﷺ، تاركًا لهم مهمة الإيمان به، وفرصة التعرف عليه ﷺ، دون خلط بين ما لدى هؤلاء وهؤلاء، وهو المتأخر عنهما من حيث الزمان.

(١) انظر إنجيل برنابا، الفصل (٤٤: ١-١١، ١٩-٣١)، الفصل (٩٧: ١٣-١٨، (١٩١: ٤-١٠)، (١٦٣: ٨-١١).

(٢) إنجيل برنابا، الفصل (١١٢: ١٧-١٨)، ترجمة خليل سعادة، المكتبة التوفيقية، القاهرة ١٩٠٨م.

www.almoslih.net

دروس وعبر

١ إن المراد بهذه البشارات هو محمد ﷺ، لا مسيّا اليهود المنتظر، ولا يسوع المسيح في مجيئه الثاني عند المسيحيين، ولو تدبر هؤلاء فيما بين أيديهم لعلموا أن هذا ما أدركه بعضهم، فأسلموا وحسن إسلامهم.

٢ إن العهد القديم والجديد حددا ملامح هذا النّبيّ، ورسما صورة لشخصه تمثلت عيانا في مبعث النبي محمد ﷺ، وفي ذلك تصديق الأنبياء السابقين الذين بشَّروا به ﷺ من جهة. وكذلك شهادة له ﷺ من جهة أخرى، قال تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧] ولولا مبعثه ﷺ لزال الصدق عنهم، وانتفى الوحي لهم فيما أخبروا به.

٣ إن أصابع التحريف قد لعبت دورًا كبيرًا في النصوص المتصلة بالنّبي ﷺ، من حيث التبديلُ للكلمات، أو التأويلُ للمعاني، ولم يستطع أهل الكتاب تحريفَ كل البشارات نظرًا لكثرتها، وقد فضحهم الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ...﴾ [المائدة: ٤١].

٤ إن هذه البشارات كانت دعوة من الأنبياء السابقين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]

فقد أخذ الله سبحانه العهد والميثاق على كل نبيّ في الإيمان بمحمد ﷺ وتصديقه، كما أُمِرَ بأن يأخذ الميثاق على أُمته في الإيمان بمحمد ﷺ وتصديقه، إذا بعث وهم أحياء.

٥ إن البشارات المحمديّة في الكتب السماوية تعدّ زادا للدعاة في المجادلة بالتي هي أحسن مع المخالفين بغية التذكير أو التفكير لعلماء أهل الكتاب، والتبصير أو التنوير لعامة أهل الكتاب، ثم التثبيت أو التأكيد لبني جلدتهم من المؤمنين، وذلك لتظل حجةُ الله قائمةً على هؤلاء وأولئك، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيَّ عن بيّنة.

www.almoslih.net

هذا محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم

المصلح

٢

حَاجَةُ العَالَمِ قُبَيلَ البِعْثَةِ
إِلَى الرِّسَالَةِ الخَاتِمَةِ

أَحْوَال الإِمْبَرَاطُورِيَّات القَدِيمَة

كانت حضارات العالم القديم كلها قبل البعثة قد انجرفت إلى تيارات مادية ووثنية مقيتة، وآذنت الدنيا بميلاد فجر جديد؛ وما ذلك إلا لأن الحضارات الكبيرة قد تهاوت في هذا المستنقع المادي الآسِن، وأكل بعضها بعضا.

وكانت ساحةُ الصراع هي هذا الشرقَ الأدنى القديم، ولم يكن هذا الصراع المرير يدور حول فكر أو طريق للنجاة، وخطةٍ للحياة الرغدة الخالية من قلق الروح، وإنما كان يدور حول الأسلاب والغنائم، وكانت الأسلاب والغنائم آنذاك هي أملَ هذا المجتمع البشري البائس، فهم السلعة المنهوبة، التي تسترقّ وتصبح عبيدا للغالب، فهم وقود الصراع الضاري.

ولم يكن لدى الغزاة شيء يفتحون به على أهل الأقطار المغلوبة، ولم يبق لدى المغلوبين شيء يقدمونه للغزاة. ولكن الصراع بين العمالقة الآريين الثلاثة، الفرس والإغريق والرومان، أو اختصارا بين الفرس والروم، لا ينفك يدور، لا تضع الحرب أوزارها إلا لالتقاط الأنفاس بضع سنين.

وهي حرب عبَثية، فالغالب اليوم مغلوب غدا، لا يعنيك أي الفريقين كانت له الدولة على الآخر، وعلى من كانت الدائرة في الحرب اليوم، فالدائرة

www.almoslih.net

على الجميع، إنهم يخربون بيوتهم بأيديهم، ويأتون على ما بقي من أطلال حضارتهم. فعلى الأنقاض سيبنى صرح جديد (١).

وسوف نوضح في السطور القادمة أهمَّ تلك الإمبراطوريات التي كانت آنذاك تملأ الدنيا ضجيجا وحياة على مسرح التاريخ.

(١) إمبراطورية الروم:

تزعمت الإمبراطورية الرومية جزءا كبيرا من العالم القديم، وكانت الحياة سجالا بينها وبين الإمبراطورية الفارسية، فجولة هنا وجولة هناك، كل يقاتل لأجل توسيع منطقة نفوذه، دون النظر إلى شيء آخر من الأخلاق والدين، فلا مجال لهذا في هذه الآونة.

وكانت النصرانية هي الديانةَ الرسمية لدولة الروم الثانية (البيزنطية)، ولكنها نصرانيةٌ مشوّهة، بعيدة عما جاء به المسيح عليه السلام من عند ربه، فقد أغارت عليها الوثنية وفتت عظامها.

فغيرت العقيدة وزيفت حقائقها الناصعة، حتى أحالتها إلى مِسْخٍ مشوّه، لا يمتّ إلى وحي السماء إلا من خلال أسماء الشخصيات والأسفار.

أما المضمون فقد تحول إلى ما يشبه الطلاسمَ والمعميات، بل أغار عليها الكهنة والرهبان، فجردوها من كل ما يربطها بوشائج السماء، كما تغير أسراب الجراد على حدائقَ ذاتِ بهجة فتحيلها قاعا صفصفا.

ومن هنا نستطيع أن نقرر: أن الدولة الرومية لم تحافظ على ما أخذت من وحي السماء بل أفسدته وشوهته، وأدخلت عليه أباطيلَ الوثنيين من أصحاب الملل والنحل التي سادت في مناطق انتشارها.

(١) انظر: رؤف أبو سعدة: من إعجاز القرآن، العلم الأعجمي في القرآن مفسرا بالقرآن، ط١، دار الميمان الرياض ١٤٣١ هـ ٢٠١٠م، ص ١٥٧"بتصرف".

وأعظم خرافة عقدية تم إدخالها على النصرانية هي خرافة الثالوث؛ حيث إنها قسمت ذات الإله إلى ثلاثة أبعاض متساوية، تسمى بالأقانيم الثلاثة، وجعلت لله صاحبةً وولدا، وعددت الآلهة فأصبحوا ثلاثةً، بدلا من الإله الواحد جل جلاله، حيث إن كل أقنوم من هذه الأقانيم يعدّ إلها منفصلا عن سواه.

وبناء على هذا فقد أغرقت النصرانية أتباعها بلون من الإشراك، قد يكون أرقى نسبيا مما ألفه الوثنيون الخُلّص من عبّاد النار والأوثان، فهو شرك مشوب بشيء من الدين، وملفوف بعباءة أحد الأنبياء الكبار.

وكان من نتيجة هذا الثالوث الشركي لديهم أن نشأت عدة طوائف نصرانية متصارعة، كلٌّ منها يرى أنه على الهدى والحق، ويرى غيره في ضلال واضح بيّن، واشتعل هذا الخلاف الطائفي، وقام على قدم وساق؛ بسبب الحديث عن طبيعة المسيح عليه السلام، فطائفة الملكانية(١) (الكاثوليك الآن) وهم أهل القسطنطينية وعلى رأسهم الإمبراطور، وبطارقة كنيسته يعتقدون بازدواجية طبيعة المسيح، أي أنه ذو طبيعتين الأولى بشرية والثانية إلهية، أما طائفة المونوفيزية(٢) (اليعقوبية وهم الأرثوذكس) وهم أهل مصر والحبشة فيعتقدون بطبيعة واحدة للمسيح، تجمع بين الطبيعتين السابقتين، حيث امتزج كل من الطبيعتين لتعطي في النهاية شيئا مكوّنا منهما(٣).

وتبعا لمنطق الحق مع القوة فقد لاقى المصريون وأهل الحبشة على يد الرومان تعذيبًا بشعًا، فكانوا يحرقونهم، ويغرقونهم أحيانًا أخرى، لأنهم كانوا

(١) طائفة الملكانية: الكاثوليك الآن.
(٢) طائفة المونوفيزية: اليعقوبية.
(٣) ابن البطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٥، (ص١١٧) وما بعدها. ول ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان (مج٣)، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٨٦، (ص ٢٠١)، وما بعدها.

على مذهب الأرثوذكسية. وقد ظلت هذه الخلافات العقائدية مستعرةً، حتى جاء الفتح الإسلامي لمصر، فشكل لأقباطها خلاصًا من اضطهاد الدولة الرومانية لهم[1].

وكان من بين مفاسد هذه الإمبراطورية في غيبة من الحق والهدى والدين القويم أنها مارست أبشع أنواع الظلم والجور على الشعوب التي حكمتها، وضاعفت عليها الضرائب بلا رحمة، بل إن هذه الضرائب المجحفة قد تجاوزت الأحياء ـ في سابقة تاريخية ليس لها نظير ـ إلى الأموات، فلم يكن يسمح بدفن الميت إلا بعد دفع ضريبة معينة، وثقلت الضرائب على الفقراء الأحرار فتحولوا إلى عبيد[2].

أضف إلى ذلك وجود التناقض الهائل في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين، فقد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم، وعمت الرهبانية، وشاعت في طول البلاد وعرضها، وأصبح الرجل العادي في البلاد يتدخل في الأبحاث الدينية العميقة، والجدل البيزنطي[3]، ويتشاغل بها، كما طبعت الحياة العادية العامة بطابع المذهب الباطني[4].

(١) انظر: الفريد. ج بتلر: فتح العرب لمصر، (١/ ٣٧، ٣٨)، ترجمة محمد فريد أبو حديد، سلسلة تاريخ المصريين، العددان (٢٧، ٢٨) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م.

(٢) انظر: أحمد شلبي: مقارنة الأديان، (٢/ ١٨٨)، القاهرة ١٩٨٠م. عفيف طبارة: روح الدين الإسلامي، (ص٢٧١). دار الكتاب العربي ١٩٨٨م.

(٣) الجدل البيزنطي: مصطلح يقصد به الجدل العقيم الذي لا طائل من ورائه إلا العبث والسفسطة، فقد كان البيزنطيون يختلفون حول جنس الملائكة، هل هم ذكور أم إناث؟ وإظهار القدرة: إثبات الفكرة ونقيضتها، وتقوم بينهم الخصومات والنزاعات الطاحنة، على مثل هذه القضايا التي فرّغوا أنفسهم لها، وتركوا العمل على نهضة الدولة، حتى بادت دولتهم.

(٤) المذهب الباطني: مذهب لتفسير النصوص المقدسة لا على أساس واقع تلك النصوص، ولكن على أساس تحريف المعاني وصرفها عن ظاهرها، واعتبارها رموزا وأقنعة لمعاني

وفي جانب آخر كانوا حريصين أشدَّ الحرص على التفنن في شتى أنواع اللهو واللعب، والطرب والترف، فقد كانت هناك ميادين رياضية واسعة تتسع لجلوس ثمانين ألف شخص، يتفرجون فيها على مصارعات بين الرجال والرجال تارة، وبين الرجال والسباع أحيانًا أخرى.

وقد كانوا يعشقون العنفَ والهمجيةَ، وكانت ألعابهم دموية ضارية في أكثر الأحيان، وكانت عقوبتهم فظيعة تقشعر منها الجلود، وكانت حياةُ سادتهم وكبرائهم ملأى بالمجون والترف، والمؤامرات والمجاملات الزائفة، والقبائح والعادات السيئة[1].

أما عن حال المرأة في ذلك المجتمع البائس، فحدث ولاحرج، فلم تكن أفضلَ حالا من العبيد. وكانت الروم ـ وهي صاحبة الشرع يومئذ وصاحبة الغلبة والسيادة ـ تجعل المرأة من الرجل في مكانة دون مكانة المرأة العربية من الرجل.

لقد كانت المرأة في شرائع الروم يومئذ تعتبر متاعا مملوكا للرجل، يتصرف فيه كيف يشاء، ويملك من أمرها ما يريد حتى الحياة والموت. وكانت تعامل معاملة الرق سواء بسواء، لا فارق بينها وبينه في نظر الشرع الروماني[2].

أخرى بعيدة غير مرادة، وقد ابتلي المسلمون برواج هذا المذهب بين طائفة من الشيعة الغلاة عرفوا باسم الشيعة الباطنية. وادعوا أن هذا المعنى الباطني لا يعرفه إلا الإمام المعصوم من آل البيت، وردّ عليهم: أن هذا المعنى الباطني الذي بينه الإمام لكم، له أيضًا معنى ظاهر، وآخر باطن، وأنكم لم تفهموا عن الإمام مراده. قالوا: كلا، إن كلام الإمام ليس له معنى باطن، بل كل كلامه ظاهر واضح. فقيل لهم: كلام الله تعالى أولى بذلك من كلام الإمام.

(١) انظر: أبو الحسن علي الحسني الندوي: السيرة النبوية، دمشق: دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦. (ص: ٣٢)، وما بعدها "باختصار".

(٢) انظر: هيكل: حياة محمد، ط٥، القاهرة ١٩٨٩. (ص ٢٢٠)، وما بعدها "باختصار".

وقبل أن نتجاوز الإمبراطورية الرومانية ينبغي أن نُلِمَّ بشيء كان له وجود فكري آنذاك، ألا وهو الوجود الفلسفي.

فقد عجَّ القرنُ الأول الميلادي وما تلاه بعد ذلك بالفكر الفلسفي اليوناني، وكانت الفلسفة الأفلاطونية الحديثة هي النغمةَ السائدة في تلك العصور، بهذه الآراء الفلسفية، التي تحلل الغيبيات على ضوء خافت من العقل، وتحاول أن تربط علاقات بين هذا الكون المنظور الذي تشاهده وتحسه، وبين تلك القوى الغيبية التي تحس بآثارها، ولا تدرك كنهها.

ولا شك أن العقل إذا لم ينطلق من خلال ثوابت ووحيٍ معصومٍ، فإنه سوف يَتيهُ في فضاء غيبي لا قِبَلَ له به، وفي النهاية لن يصل إلى شيء إلا الحيرة والأقوال المتضاربة التي لا تغني فتيلا.

وقد «ابتكر أفلوطين ـ وهو من مؤسسي الأفلاطونية الحديثة ـ مع معلمه آمون ساكاس ثالوثا من ثلاثة أقانيم ينبثق بعضها من بعض بالفيض الإلهي.

وقد سمى أفلوطين الأقنوم الأول باسم (الأول)، أو المطلق، أو الخير، ووصفه بالكمال، وأنه لا متناهي في عدم تحيّزه المكاني أو تحدده الكيفي.

أما الأقنوم الثاني فسماه (العقل الكلي)، وهو يصدر وينبثق من الأقنوم الأول كما يصدر شعاع الشمس منها، أو كما تنبعث الحرارة من النار، واستخدم أفلوطين لفظة (الكلمة أو اللوغوس) ليعبرَ عن هذا العقل فى علاقته بالأقنوم الأول.

أما الأقنوم الثالث فدعاه (بالنفس الكلية)، وهي عنده تنبثق من العقل»[1].

ومن خلال هذا التصنيف يتبيّن لك: مدى ما أخذته النصرانية منذ القرن الأول من هذه الفلسفة، لقد أخذت منها الأصول والأركان بأسمائها ووصفها، وكوّنت منها عقيدة جديدة، عرفت باسم النصرانية.

(١) انظر: بهاء النحال: تأملات في الأناجيل والعقيدة، (ص ١٢٣)، ط٢، ١٩٩٤م.

ولذا فإنك تجد السر في اهتمام النصارى القدامى بالفلسفة اليونانية، وأن أكثر منظّري النصرانية إن لم يكن جميعهم كان لهم سهم وافر في دراسة الفلسفة اليونانية خاصة الأفلاطونية الحديثة.

٢ إمبراطورية الفرس:

لم يكن الوضع في دولة الفرس أحسنَ حالا منه عند الروم، فقد كان وضعا مأساويًا بكل المقاييس؛ فقد كثرت عندهم الوثنيات بأشكالها المنحرفة، وانتشرت بيوت عبادة النار في طول البلاد وعرضها، وكانت لها آداب وشرائع دقيقة داخلَ المعابد، أما خارجهَا فكان أتباعها أحرارًا يسيرون على هواهم، لا فرق بينهم وبين من لا دينَ له.

كما عبدوا أيضًا عناصرَ الطبيعة؛ فقد كان واجبًا على طبقة رؤساء الدين أن يعبدوا الشمس أربع مرات في اليوم.

ويضاف إليها عبادة القمر والنار والماء، كما كانوا مكلفين بأدعية خاصة، عند النوم والانتباه، والاغتسال، ولبس الزنار، والأكل، والعطس، وحلق الشعر وتقليم الأظفار، وقضاء الحاجة وإيقاد السرج، وكانوا مأمورين بألا يدَعوا النار تنطفئ، وألا يمسَّ النارُ والماءُ بعضُهما بعضا، وألا يدَعوا المعدن يصدأ؛ لأن المعادن عندهم مقدسة[1].

وكان الفرس يستقبلون في صلاتهم النار، إلا أننا نجد (يزدجرد) آخر ملوك الساسانيين ـ قد حلف بالشمس مرة وقال: «أحلف بالشمس التي هي الإله الأكبر».

وقد دان المجوس الفرس بالثنوية في كل عصورهم وأصبح ذلك شعارًا لهم، فآمنوا بإلهين اثنين.

(١) انظر: السابق، (ص٢٧).

www.almoslih.net

أحدهما: النور أو إله الخير.

والثاني: الظلام أو إله الشر[١].

كما اعتنق الفرس بعضَ الديانات الوثنية الأخرى غيرَ عبادة النار كالزرادشتية، والمانوية، والمزْدكية، التي دعت إلى الإباحية، والشيوعية في المال والنساء؛ فأصبحت بلادهم أشبه بغابة يسودها الفتك والاغتيال، وفقد فيها الضعافُ نعمةَ الأمن والسكينة.

واعتبر الملوك أنفُسَهم من نسل الآلهة؛ فوضعوا أنفسهم فوق البشر، وأصبحت مواردُ البلاد ملكًا لهم، يتصرفون فيها ببذخ لا يتصور، وأثقلوا الفلاحين بالضرائب؛ فترك الفلاحون أعمالهم، ودخلوا المعابد فرارًا من الضرائب والخدمة العسكرية[٢].

واحتدم الصراع بين الفرس والروم على ما بقي من أطلال الشرق الأدنى القديم قرونا، بين كَرٍّ وفَرٍّ، ومن قبل، أثخن الروم ـ إغريقا ورومان ـ بعضهم في بعض، وأتى القوطُ والجرمان على القياصرة في روما، فارتحلوا شرقا إلى بيزنطة، قبل قرنين اثنين من ظهور الإسلام.

واختلط الحابل بالنابل في هذه المنطقة من العالم التي شهدت مولد حضارات البشر، ولم يعد هناك فكر جامع، تستند إليه حضارة جامعة، جديرة بالبقاء. لم تعد ثم ـ رغم ما قد تسمعه من شهيق وزفير ـ إلا حضارة ماتت أو أوشكت أن تموت.

ولم يعد ثَمَّ ـ رغم ما قد تسمعه بين الفينة والفينة من هدير وزئير ـ إلا أسد هرم، تسلّخ جلده، وتثرمت أسنانه، وعَشِيَ بَصَرُه، يرجو رحمة ربه في ضربة إجهاز تريحه من عذابه[٣].

(١) انظر: الندوي: السيرة النبوية، (ص٢٧) "بتصرف".
(٢) انظر: السابق، (ص٣١) "بتصرف".
(٣) انظر: رؤف أبو سعدة: مرجع سابق، (ص ١٥٨).

٣ إمبراطورية الهند:

كان هناك على هامش الخريطة البشرية للعالم القديم وجود بشري في منطقة الهند، وعلى الرغم من الوفرة العددية لهذا الوجود البشري إلا أنه لم يكن له أثر ملموس أو خفي في سير الأحداث في العالم آنذاك.

فقد "انقطع أهل الهند عن الدنيا، وانغلقوا على أنفسهم، وابتعدوا عن أحداث عالمهم في عزلة واضحة، يسيطر عليهم التزمُّتُ والتطرف في العادات والتقاليد، والتعصب الدموي والسلالي.

وهذا الجهل أضعفَ موقفَهم، فنشأ فيهم الجمودُ، وعمّتْ فيهم أماراتُ الانحطاط والتدهور، فانتشرت الخلاعة بينهم حتى في المعابد؛ لأن الدين أعطاها لونًا من القدس والتعبد.

وأما عن المرأة فقد كانت لا قيمة لها ولا عصمة، وكانت تُحرق إذا مات زوجها، وعلى الجملة، فقد كانت البلاد في حالة من الفوضى والتمزق، وانتشرت فيها الإمارات التي اندلعت بينها الحروب الطاحنة"[١].

ومن ناحية الديانة فقد كانت أحطَّ أقطار العالم ديانة؛ فالبرهمية هي دين الهند الأصلي، غير أن الهنود عُرفوا بتعدد المعبودات والآلهة، فاعتنقوا البوذية بعد أن تحولت من ديانة روحية إلى وثنية، تحمل معها الأصنامَ حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلّتْ ونزلت، كما عبدوا البقر والحجر والشجر والذكر[٢].

وانقسم المجتمع الهندي إلى أربع طبقات اجتماعية بعضها فوق بعض:

1. طبقة الكهنة ورجال الدين، وهم (البراهمة).
2. طبقة رجال الحرب والجندية وهم (شترى).

(١) الندوي: السيرة، (ص٣٨).   (٢) المرجع السابق، (ص٢٨).

❸ طبقة رجال الفلاحة والتجارة وهم (ويش).

❹ طبقة رجال الخدمة وهم (شودر).

وترتيب الطبقات الاجتماعي بحسب هذا الذي قدمنا، فالطبقة الأولى هي العليا، تليها الثانية حتى نصل إلى طبقة «شودر»، وهم المنبوذون، وهم أحط من البهائم، وأذل من الكلاب، فقد خلقهم خالق الكون ـ كما يزعمون ـ من أرجله، وليس لهم إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث والعمل على راحتها، ولا يستطيع أحد في أي طبقة من الطبقات أن يرتقي لطبقة أعلى من طبقته مهما اكتسب من علم أو مال أو جاه[(١)].

أما المرأة في المجتمع الهندي فقد قضت الشرائع الهندية القديمة: «أن الوباء والموت والجحيم والسُّمَّ والأفاعي والنار خيرٌ من المرأة»[(٢)]، وكان الرجل إذا قامر وخسر ماله، يقامر على امرأته وقد يخسرها فيأخذها الفائز.

كما كان من عادة الهنود أن يحرقوها مع زوجها عندما يموت ويدفنوها معه، وإذا لم تفعل المرأة ذلك تبقى أَمَةً في بيت زوجها الميت، وتصبح عُرضَةً للإهانات والتجريح كلَّ يوم إلى أن تموت[(٣)].

❹ اليهود:

انقسم اليهود على أنفسهم بعد وفاة نبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ وكانت لهم مملكتان في فلسطين، إحداهما مملكة يهوذا بالجنوب، وعاصمتها

(١) أحمد شلبي: مقارنة الأديان، الإسلام (٧٢- ٧٤).

(٢) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، (١/ ١٧٩-١٨٢)، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٣م.

(٣) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (٧٥- ٧٦)، ط مكتبة السنة، القاهرة، (د.ق.ت).

أورشليم. والأخرى مملكة إسرائيل بالشمال، وكانت عاصمتها السامرة، وهي التي قامت على أنقاضها مدينةُ نابلس.

وفي حوالي سنة ٧٠م، كان الرومان هم أصحاب النفوذ والسلطان، فاضطهد الرومان اليهودَ واشتدوا في تعذيبهم، فاضطروا إلى الهجرة، وهاموا على وجوههم في صحراء بلاد العرب، حتى استقروا في أماكن متفرقة من بلاد الحجاز[(١)].

ولجوارهم للأمم الوثنية تأثرت اليهودية بهذه الأمم التي جاورتها، وأخذت كثيرا من عاداتها وتقاليدها الوثنية الجاهلية، وقد اعترف بذلك مؤرخو اليهود، فقد قالت دائرة المعارف اليهودية:

«إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان يدل على أن عبادة الأوثان والآلهة، كانت قد تسربتْ إلى نفوس الإسرائيليين، ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد اعتقدوا معتقدات خرافية وشركية، كما شهد التلمود أيضًا بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود»[(٢)].

ولما جاءت رسالة المسيح عليه والسلام رفض اليهود مبكرا الامتثال لهذه النبوة وحاولوا قتله، وهو ما جاء إلا ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويضع عنهم الأثقال التي وضعوها على أنفسهم، لأنهم قد ضلوا الطريق من زمن بعيد، وتحولت دياناتُهم إلى مجموعة من الطقوس والتراتيل، والذبائح، التي تقدم للكهنة في المواسم، وابتعدوا بها عن الوحي المعصوم.

لقد تمركز اليهود في شمال المدينة المنورة، وكان المجتمع اليهودي قد وصل قبل البعثة المحمدية إلى درجة كبيرة من الانحطاط العقلي، وفساد الذوق الخلقي.

(١) محمد الطيب النجار: القول المبين في سيرة سيد المرسلين، (ص ٦٩، ٢٤١)، دار اللواء، الرياض، ١٩٨١م.

(٢) انظر أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية، (ص٢٠).

وكانوا كعادتهم ـ قومًا غِلاظَ الطباع، قساة القلوب، منحرفي الأخلاق، يعيشون على الرِّبا، وإشعال الفتن، والتكسب من بيع السلاح، وعلى إيقاع السادة في الفضائح الأخلاقية وتهديدهم بها، وعلى السيطرة على الجهال بكتبهم المحرفة وأفكارهم الضالّة[1].

ومن هنا كان النزاع دائمًا بين العرب واليهود، لأن اليهود كانوا يحاولون الاستيلاء على الأرض المجاورة للمدينة والاستئثار بزراعتها، ولكن الأوس والخزرج يحولون بينهم وبين هذا الغرض؛ مما أثار حقد اليهود ومؤامراتهم على هاتين القبيلتين، ولكن كانت الغلبة دائمًا للعرب على الرغم مما عرض لهم من تفرق الكلمة وتشقق الوحدة[2].

أما عن وضع المرأة في الديانة اليهودية، فنلمح ذلك من خلال حديث العهد القديم عنها، فقد وُصفت في التوراة المحرَّفة على هذا النحو: «درتُ أنا وقلبي لأعلمَ ولأبحثَ ولأطلبَ حكمةً وعقلًا، ولأعرف الشر أنه جهالة، والحماقة أنها جنون؛ فوجدتُ أَمَرَّ من الموت المرأة التي هي شِباكٌ، وقلبها شِراك، ويداها قيود»[3].

واقرأ معي هذه الأحكام المتعلقة بالمرأة: «وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دما في لحمها، فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من مسّها يكون نجسا إلى المساء.

وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجسا، وكل ما تجلس عليه يكون نجسا. وكل من مس فراشها يغسل ثيابه، ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء.

---

(١) صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، المنصورة: دار الوفاء: ٢٠٠٥م. (ص١٧١) بتصرف.

(٢) محمد الطيب النجار: مرجع سابق، (ص ٧٠).

(٣) سِفر الجامعة: الإصحاح السابع، الفقرتان: (٢٥، ٢٦).

وكل من مس متاعا تجلس عليه يغسل ثيابه، ويستحم بماء، ويكون نجسا إلى المساء.

وإن كان على الفراش أو على المتاع الذي هي جالسة عليه، عندما يمسه يكون نجسا إلى المساء. وإن اضطجع معها رجل، فكان طمثها عليه يكون نجسا سبعة أيام، وكل فراش يضطجع عليه يكون نجسا.

وإذا كانت امرأة يسيل سيل دمها أياما كثيرة في غير وقت طمثها، أو إذا سال بعد طمثها، فتكون كل أيام سيلان نجاستها ـ كما في أيام طمثها ـ نجسة.

كل فراش تضطجع عليه كل أيام سيلها يكون لها كفراش طمثها، وكل الأمتعة التي تجلس عليها تكون نجسة كنجاسة طمثها. وكل من مسهن يكون نجسا، فيغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسا إلى المساء.

وإذا طهرت من سيلها تحسب لنفسها سبعة أيام ثم تطهر. وفي اليوم الثامن تأخذ لنفسها يمامتين أو فرخي حمام، وتأتي بهما إلى الكاهن إلى باب خيمة الاجتماع، فيعمل الكاهن الواحد ذبيحة خطية، والآخر محرقة، ويكفر عنها الكاهن أمام الرب من سيل نجاستها»[1].

هذه بعض الأحكام المتعلقة بالمرأة في الديانة اليهودية، وتركنا الباقي اختصارا، وإلا فالأحكام الجائرة بحقوق المرأة كثيرة جدا، فلا عجب أن تكون المرأة في الديانة اليهودية مخلوقا من الدرجة الثانية.

وهكذا كانت المعمورة من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادي ترزح تحت أستار كثيفة من الظلمات الحالكة الحسية والمعنوية، وكأنما كانت المسيحية واليهودية والبوذية والبرهمية تتسابق في تعظيم الأوثان وتقديسها، وكانت كخيلِ رِهانٍ تجري في حلبة واحدة.

---

(١) انظر: سفر اللاويين الإصحاح، (١٥)، الفقرات من: (١٤ ـ ٣٠).

www.almoslih.net

ويلخص الأستاذ الندوي تلك الحال المزرية وقتذاك بقوله: "كانت الأوضاع الفاسدة، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السادس المسيحي أكبرَ من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ومعلمون في أفراد الناس".

فلم تكن القضيةُ قضيةَ إصلاح عقيدة من العقائد، أو إزالةِ عادة من العادات، أو قبولِ عبادة من العبادات، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يكفي لذلك المصلحون والمعلمون الذين لم يخل منهم عصر ولا مصر.

ولكن القضية كانت: قضيةَ إزالةِ أنقاض الجاهلية، ووثنية تخريبية، تراكمت عبر القرون والأجيال، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين، وجهود المصلحين والمعلمين، وإقامة بناء شامخ مشيّد البنيان، واسع الأرجاء، يسع العالَم كلَّه، ويُؤوي الأممَ كلَّها.

قضيةَ إنشاءِ إنسان جديد، يختلف عن الإنسان القديم في كلِّ شيء، كأنه وُلد من جديد، أو عاش من جديد. قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قضيةَ اقتلاعِ جرثومة الفساد واستئصال شأفة الوثنية، واجتثاثها من جذورها، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر، وترسيخ عقيدة التوحيد في أعماق النفس الإنسانية، وغرسِ الميل إلى إرضاء الله وعبادته، وخدمةِ الإنسانية والانتصار للحق.

وبالجملة: الأخذ بحَجُزِ الإنسانية المنتحرة التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدنيا والآخرة، والسلوكُ بها على طريق أولُها سعادة، يحظى بها العارفون المؤمنون، وآخرُها جنة الخلد التي وُعد المتقون.

ولا تصوير أبلغ وأصدق من قوله تعالى في معرض المَنِّ ببعثة محمد ﷺ(١)،

(١) انظر: سعيد حوى: الأساس في السنّة وفقهها، السيرة النبوية، دار السلام بمصر، ١٩٨٩م. (١/ ١٨٠، ١٨١)، "باختصار".

فقد قال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فهذا الضلال الطامس، والظلام الدامس، يحتاج إلى نور عُلْويٍّ وقبس إلهي حتى يمحو هذه الضلالاتِ، ويزيلَ تلك الظلماتِ، وظل البشر في ترقّب لهذا النور العلوي إلى أن أشرق ببعثة محمد ﷺ، وطهّر الله به الناس من أوحال الشرك وأقذار الوثنية إلى قدسية التوحيد وجلال العبودية.

وقد أشار إلى ذلك الحديثُ القدسي: «.. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطانا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»(١).

حنفاء: جمع حنيف، وهو المائل إلى طريق الحق عن طريق الباطل، واجتالتهم: استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه.

وقد بيّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث عمومَ هذا الفساد لجميع الأجناس وفي جميع المجالات، والحديث يوضح انحراف البشرية في جوانبَ متعددةٍ كالشرك بالله، ونبْذِ شريعته، وفساد المصلحين من حملة الأديان السماوية، وممالأتهم للقوم على ضلالهم.

(١) صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان الطبعة الثانية، ١٩٧٢م. كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (٢٨٦٥).

www.almoslih.net

ولله در شوقي في قوله:

أَتَيـتَ وَالناسُ فَوضـى لا تَمُرُّ بِهِمْ … إلا عَلـى صَنَـمٍ قَد هامَ فـي صَنَمِ
وَالأَرضُ مَملـوءَةٌ جَورًا مُسَـخَّرَةٌ … لِـكُلِّ طاغِيَةٍ فـي الخَلـقِ مُحتَكِمِ
مُسَـيطِرُ الفُـرسِ يَبغي فـي رَعِيَّتِهِ … وَقَيصَـرُ الـرومِ مِن كِبـرٍ أَصَمُّ عَمِ
يُعَذِّبـانِ عِبـادَ اللهِ فـي شُـبَهٍ … وَيَذبَحـانِ كَمـا ضَحَّيـتَ بِالغَنَـمِ
وَالخَلـقُ يَفتِكُ أَقواهُـمْ بِأَضعَفِهِم … كَاللَّيثِ بِالبَهْـمِ أَو كَالحوتِ بِالبَلَمِ

أَظلَمَ الشَـرقُ بَعـدَ قَيصَـرَ وَالغَر … بُ وَعَـمَّ البَرِيَّـةَ الإِدجـاءُ
فَالـوَرى فـي ضَلالِـهِ مُتَمـادٍ … يَفتِـكُ الجَهـلُ فيـهِ وَالجُهَـلاءُ
عَـرَّفَ اللهَ ضِلَّـةً فَهـوَ شَـخصٌ … أَو شِـهابٌ أَو صَخـرَةٌ صَمّـاءُ
وَتَوَلّـى عَلـى النُفـوسِ هَوى الأَو … ثـانِ حَتّـى انتَهَـت لَـهُ الأَهـواءُ
لَـم يُعـادِ اللهُ العَبيـدَ وَلَكِـن … شَـقِيَت بِالغَبـاوَةِ الأَغبِيـاءُ
وَإِذا جَلَّـتِ الذُنـوبُ وَهالَـت … فَمِـنَ العَـدلِ أَن يَهـولَ الجَـزاءُ
أَشـرَقَ النـورُ فـي العَوالِـمِ لَمّـا … بَشَّـرَتها بِأَحمَـدَ الأَنبـاءُ
بِاليَتيـمِ الأُمِّـيِّ وَالبَشَـرِ المو … حـى إِلَيـهِ العُلـومُ وَالأَسـماءُ

جَزِيرَةُ العَرَبِ

كان هناك وجود بشري آخر على هامش الخريطة البشرية في ذلك التاريخ، ألا وهو المجتمع العربي، وقد كان هذا التجمع البشري لا يقلّ سخافة وجهلا وفسادا ووثنية عن المجتمعات البشرية الأخرى، بل ربما كان أكثرَها نصيبا من هذا كله؛ فقد غرق العرب في جزيرتهم في برك آسنة من الانحطاط العَقَدي والخلقي والاجتماعي والفوضى السياسية والتشريعية.

وقد أدى هذا بالتبعية، أن قلَّ شأنهم، وصاروا يعيشون على هامش التاريخ، ولا يتعدَّون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين لإحدى الإمبراطوريتين الفرس والروم، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء والأجداد، واتباع ما كانوا عليه مهما كان فيه من الزيغ والانحراف والضلال، ومن ثم عبدوا الأصنام، فكان لكل قبيلة صنم.

فكان لهذيل بن مدركة: سواع، ولكلب: ود، ولمذحج: يغوث، ولخيوان: يعوق، ولحمير: نسر، وكانت خزاعةُ وقريشٌ تعبد إسافًا ونائلة، وكانت مناةُ على ساحل البحر، تعظمها العرب كافةً، والأوس والخزرج خاصةً، وكانت اللات في ثقيف، وكانت العزى فوق ذات عِرْق، وكانت أعظم الأصنام عند قريش[1].

(١) انظر: سلمان العودة: الغرباء الأولون، (ص٦٠، ١٧٨)، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٩٩١م. علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث، (١/ ٢٢)، ط ١: مؤسسة اقرأ، القاهرة، ٢٠٠٥م.

www.almoslih.net

وإلى جانب هذه الأصنام الرئيسة وجد عدد لا يحصى ـ كثرة ـ من الأصنام الصغيرة، والتي يسهل عليهم نقلُها في أسفارهم، أو وضعُها في منازلهم.

روى البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العُطاردي قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا آخر هو أَخْيَرُ منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به»(١).

وعرفت جزيرة العرب في بعض أطرافها ديانات أخرى غير الوثنية، فقد عَرَفت المسيحيةَ في نجرانَ والحيرةِ وغسانَ وتخومِ الحبشة، واليهوديةَ في يثرب وما حولها من مستعمرات يهود شمال الحجاز.

كما عَرفت أيضًا الصابئةَ عبدةَ النجوم والكواكب، وسمعتْ عن المجوسية بحكم اتصال إمارة المناذرة العربية بالفرس.

وتلاقت هذه الأديان الوافدة، مع الوثنية العربية، ومع نتف يسيرة أبقاها الزمنُ في ضباب الذاكرة العربية، من دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قاومت الضياعَ قرونا وأزمنةً عديدة، وتمثلت في قلة من الحنفاء، رفضوا عبادةَ الأوثان في أخريات الجاهلية، وقالوا نعبد إلهَ إبراهيم مع أنهم لا يعلمون عنه شيئا(٢).

وساد النظام القبلي في شبه الجزيرة العربية، حتى في الممالك المتحضّرة التي نشأت على أطراف الجزيرة العربية، كمملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي، ومملكة اليمن في الجنوب، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحداتٍ متماسكةً.

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، وفد بني حنيفة، (٥/١١٩). دار ابن كثير، ط٣، بيروت: ١٩٨٧م.
(٢) محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، (١/٨١). دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

والرابط الذي يربط بين أبناء القبيلة، ويجمع شمْلَها، ويوحّد بين أفرادها هو «الدم»، أي: النسبُ، والنسب هو القومية، وهو رمز المجتمع السياسي في البادية، والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفقهها الأعرابي، حيث لا يشاهد حكومة أخرى فوقها(١).

وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي، ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي(٢).

ويترأس هذا النظام القبلي شيخُ القبيلة، ويكون له بحكم الزعامة بعض الحقوق الأدبية والمادية.

فالأدبية أهمها: احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنزول على حكمه وقضائه.

وأما المادية: فقد كان له في كل غنيمة تغنمها:

- (المرباع): وهو ربع الغنيمة.
- (والصفايا): وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة.
- (والنشيطة): وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء.
- (والفضول): وهو ما لا يَقبل القسمةَ من مال الغنيمة(٣).

وعليه مقابل ذلك أن يتقدم الصفوفَ في القتال، ويعقدَ الصلح والمعاهدات بين القبيلة وغيرِها من القبائل.

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (٧/ ٣١٤).
(٢) محمد أبو شهبة: السيرة النبوية، (١/ ٦٠).
(٣) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ﷺ، (ص٣١).

وتحت هذا النظام القبلي سادت فيه أجواءُ العصبية والزهو المقيت بالعرق والهمجية القتالية، والانحرافات السلوكية، وساعد على انتشار هذه المفاسد السلوكية قلةُ الموارد والمراعي، وهي بيئة تعيش على الرعي والكلأ، ومن ثَمَّ كانت الحروب بين القبائل العربية على قدم وساق وطويلة الأمد، وصار من مبادئهم العامة في الحروب: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا».

كما قال شاعرهم دريد بن الصمة:

ومــا أنا إلا من غَـزِيَّـةَ إن غـوتْ   غـويـتْ وإن تَرشُـدْ غَزيةُ أرشُـدِ

وهذا على غرار ما قال الشاعر قريط بن أنيف:

لا يسـألون أخاهـم حيـن يندبهم   فـي النائبـات على ما قـال برهانا

وكانت تقع الغارات بين القبائل، وتكون أسبابُها شخصية أحيانًا، أو طلب العيش أحيانًا أخرى، إذ كان رزق بعض القبائل في كثير من الأحيان في حد سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقضَّ عليها قبيلةٌ أخرى في ساعة من ليل أو نهار؛ لتسلبَ أنعامَها ومؤنها، وتدعَ ديارها خاوية على عروشها كأن لم تَغنَ بالأمس[(١)].

وتفشّى الفساد في مجتمع الجزيرة العربية؛ فانتشر شرب الخمر والميسر، وتقطيع الأرحام، والسلب والإغارة، كما كان للزّنا وجود في المجتمعات العربية قبل الإسلام، فصواحب الرايات الحمر ينصبنها على بيوتهن، فيقصدهن من أراد المتعة المحرمة مقابلَ أموال زهيدة يدفعها إليهن.

أما عن وضع المرأة الحرة: فقد كان لها وضعُها الرفيعُ في المجتمع الجاهلي، غير أن بعض المؤرخين العرب زعموا: أن العرب كانوا يكرهون المرأة ويحتقرونها!

---

(١) المرجع السابق: (ص٣٣-٣٥).

واستدلوا على ذلك بعادةِ وأدِ البنات التي كانت موجودة لديهم[(١)]، والتي أشار قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

والواقع أن هذه العادة لم تكن منتشرة بين كل قبائل العرب، ولكنها كانت موجودةً في بني تميم وبني أسد، وهما قبيلتان اثنتان من أصل ثلاثمائة وستين قبيلة، ومعنى ذلك: أن الأكثرية الساحقة من العرب لم تكن فيها هذه العادةُ القبيحة.

والقرآن الكريم حينما يذكر هذه العادة فإنما يقصد هذا العدد القليل من القبائل، وهو في نفسُ الوقت يحذر سائر القبائل الأخرى، حتى لا تتأثر بها وتجاريها في هذا الشر والفساد.

على أننا نؤمن بأن وأدَ هاتين القبيلتين للبنات لم ينشأ عن بُغضٍ أو احتقار، وإنما نشأ عن غيرتهم الشديدة على المرأة، وخوفهم أن تنزلق إلى الشر بعد البلوغ، فيلحقهم العار والصَّغار، ومن أجل ذلك كانت تسوَدُّ وجوههم حينما يبشَّرون بالأنثى، وتحيط بهم الهموم والأحزان.

وحينما نتصفح الأدب العربي الجاهلي نراه حافلًا بتقدير الرجل للمرأة وحبه لها، ذلك بأنه كان يتحدث عنها باهتمام في أشعاره وخطبه، ويخاطبها دائمًا بما يدل على التعظيم والإجلال فيسميها: ربة البيت، وهي تسمية تنبئ عن تقدير وتكريم، ويقول في ذلك قائلهم:

يـا رَبَّةَ البيـتِ قومي غيـرَ صاغرةٍ   ضمّي إليـك رحالَ القـوم والقِرَبَا

---

(١) انظر: الآلوسي: روح المعاني في تَفْسِير القُرْآن العَظِيم والسبع المثاني، (٥٢/٣٠). إدارة الطباعة المنيرية بمصر (د.ت).

www.almoslih.net

وكان يخاطبها بالكنية فيقول لها: يا أمَّ فلان، ولا يذكرها باسمها المجرد، بل كان الوالد يستشير ابنته إذا أراد أن يزوجها، فلا يُرغِمها على ما تكره، وإنما ينفّذ لها ما تحب وترغب.

ومن ذلك ما وقع من أوس بن حارثة الطائي، فقد جاءه الحارث بن عوف المري خاطبًا إحدى بناته؛ فاستشار الكبرى والوسطى، فرفضتا. فاستشار الصغرى، فرضيت فزوجها.

وكان الرجل يرتبط مع المرأة بعقد زواج بعد رضاها ورضا أوليائها، وبعد أن يتفقوا على مهر معين، وكانوا يعددون الزوجات، ولم يكن هناك حد معروف لعددهن، وكانوا يطلّقون، فإذا أراد الرجل أن يطلّق زوجته يقول لها: الحقي بأهلِك، أو ما يماثل هذه الكلمة.

وفي بعض الأحيان يكون للمرأة الحق في أن تطلّق نفسها، وكان يعرف طلاق المرأة لنفسها، بأن تحوّل بابَ بيتها المصنوعِ من الشعر أو الوبر أو الجلد إلى جهةٍ مقابلة لجهتِها الأصلية، ولكن الغالبية من العرب كانت تجعل حقَّ الطلاق للرجل.

على أنه كانت توجد بين العرب في تلك الحقبة من الزمان عاداتٌ سيئة وأنكحة فاسدة.

ومنها: نكاح البغايا: وهو نكاح يبيح للمرأة أن تتزوج بأكثر من واحد. وقد يصل عدد أزواجها إلى عشرة، ويكونون معروفين لديها، كما أن بعضهم يعرف بعضا، فإذا ولدت طفلًا من هذا النكاح، وأرادوا معرفة أبيه كي ينسب إليه، جاء القائفُ وجمع الأزواج كلَّهم ونظر في أقدامهم، ثم قارنها بأقدام الطفل الوليد، فيعرف الوالد وينسب إليه ولده.

ومنها: نكاح الاستبضاع: وهو أن يقول الرجل لامرأته ـ أحيانًا ـ اذهبي إلى فلان فاستبضعي منه، ويمتنع عن القرب منها حتى تحمل من هذا الأجنبي، فيعود إلى الاتصال بها. وكانوا يفعلون ذلك رغبة في تحسين نسلهم. فيختار الرجل

لزوجته شخصًا قويًا نابهَ الذِّكرِ، حتى يكون الولد مشابهًا له[١].

وقد بيّنت أم المؤمنين عائشة ﵂ أنواع الأنكحة في الجاهلية حين قالت: «النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها.

ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهُرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجُها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاحُ نكاحَ الاستبضاع.

ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلُّهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر (ليال) بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبتْ باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل.

ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات، تكون علَمًا، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حَمْلَها جمعوا لها، ودعَوا لهم القافةَ، ثم ألحقوا ولدَها بالذي يرون، (فالتاطته) به ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد ﷺ بالحق، هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاحَ الناس اليوم»[٢].

---

(١) ومن ذلك نكاح الشغار، وهو أن يتزوج الرجل بنت الرجل أو أخته، على أن يزوجه الآخر ابنته أو أخته.
(٢) رواه البخاري رقم (٥١٢٧).

ومن ذلك يتبين لنا أن رباط الزواج المقدس كان موجودًا لدى العرب في العصر الجاهلي.

وأما ما كان يخالف ذلك من أنكحة فاسدة، وعادات شاذة، فلا يعتد به، وكان أصحاب هذه العادات السيئة الشاذة لا يُحترمون، بل يُوصَمون دائمًا بالعار والصغار.

وحينما جاء الإسلام نظر إلى هذا الأساس الموجود لدى العرب، فأزال اللَّبِنات الضعيفة منه، وأبقى اللَّبِنات القوية، ثم دعمها وأقام عليها بناءه الشامخ العظيم.

أما الناحية الاقتصادية عند العرب فكانت تعتمد على ركيزتين :

الأولى: الرعي، فقد كانوا يتنقلون من مكان لآخر بحثًا عن مواقع الكلأ والعشب، والحيوانات الرعوية التي يملكونها هي الإبل والبقر والغنم.

الثانية: التجارة، وقد مارسها العرب حتى كان لهم مركز ممتاز في التجارة، وقد أهّلهم الموقع الاستراتيجي للجزيرة العربية بين إفريقيا وشرق آسيا، لأن تحتلَّ جزيرتُهم مركزا متقدما في التجارة الدولية آنذاك.

وكان لهم بحكم كونهم أهلَ الحرم منزلةٌ في نفوس العرب، فلا يتعرضون لهم ولا لتجارتهم بسوء، وقد امتن الله عليهم بذلك في القرآن الكريم: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت : ٦٧].

وعرف بعضهم النشاط الزراعي، ولكنه مثّل جزءًا بسيطًا من نشاط عرب الجاهلية الذين استقروا في اليمن والشام، وبعض الواحات الأخرى المنتشرة في صحراء جزيرة العرب[١].

(١) انظر: منير الغضبان: فقه السيرة النبوية، (ص٦٠)، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث مكة المكرمة.

أما الاقتصاد الصناعي فلم يكن لهم نصيب منه، فكانوا يأنفون من الصناعة، وتركوا العمل فيها للأعاجم والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة استعانوا برجل قبطي نجا من سفينة غرقت بجدة، ثم أقام في مكة.

وكان من بين الآفات الاقتصادية الخطيرة في ذلك المجتمع انتشار التعامل بالربا، ولعل هذا الداءَ الوبيل سرى إلى العرب من اليهود القاطنين بجوارهم في يثرب، ولم ينجُ أحد من هذا الداء المدمِّر، فقد كان يتعامل به الأشراف وغيرهم، وكانت نسبة الربا في بعض الأحيان تصل إلى أكثرَ من مائة في المائة[١].

ولكن الجانب الأكثر إشراقا في حياة العرب كان الجانبَ الأدبي؛ فكان لهم أسواق أدبية مشهورة: عكاظ، ومجنّة، وذو المجاز، وكانوا يقيمون بعكاظ هلالَ ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مجنةَ بعد مضي عشرين يومًا من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا إلى ذي المجاز، فلبثوا فيها ثمانيَ ليال، ثم يذهبون إلى عرفة.

وكانوا لا يتبايعون في عرفة ولا في أيام منى حتى جاء الإسلام، فأباح لهم ذلك حين نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ...﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقد استمرت هذه الأسواق في الإسلام حينًا من الدهر، ثم دَرَست بعد ذلك، وكانت تقام فيها مسابقات للأدب والشعر والخطابة، حيث يجتمع فيها فحولُ الشعراء وفصحاء الخطباء، ويتبارَون فيها في ذكر أنسابهم ومفاخرهم ومآثرهم، وكان في ذلك ثروة كبرى للغة والأدب، إلى جانب كونها ثروة تجارية[٢].

ويجدر بالذكر أنّ العرب كانوا على جانب عظيم من مكارم الأخلاق التي بعث الله نبينا ﷺ لإتمامها، فقد كانوا يعنون بالجار، ويكرمون الضيوف ويتمدحون بالعفاف، وأشعارهم بذلك حافلة.

(١) انظر: محمد أبو شهبة: السيرة النبوية، (١/ ٩٨ ١٠١).

(٢) محمد أبو شهبة: السيرة النبوية، (١/ ١٠٢).

فهذا شاعرهم يقول:

ومستنبح يخشى القواء ودونه — من الليل بابا ظلمة وستورها
رفعت له ناري فلما اهتدى بها — زجرت كلابي أن يهر عقورها

وهذا عنترة يقول:

ما استمْتُ أنثى نفسَها في موطن — حتى أوفي مهرَها مولاها
وأغُض طرفي ما بدت لي جارتي — حتى يواري جارتي مأواها

وهذه الخنساء ترثي أخاها صخرا فتقول:

لم تره جارةٌ يمشي بساحتِها — لريبةٍ حينَ يُخلي بيتهُ الجارُ

مَكَّةُ وَالبَيتُ العَتِيق

انطفأت منارات الهدى قبل البعثة النبوية، فكانت الحاجة ماسة إلى بزوغ فجر جديد ينسخ ما تراكم على صفحة العالم من ظلمات ليل طويل، تاه الناس في ظلماته بعيدا عن الاستقرار الروحي، والعبادةِ الحقّةِ لله تعالى.

وكم يتساءل متسائل لماذا تختص أرضُ مكة بهذا النور الإلهي الجديد، وتكون مهدا لمبعث خاتم الأنبياء، على الرغم من كونها مركزَ الوثنية العربية، وكان أهلها على هامش التاريخ، لا يقام لهم وزن بين البشر، وليس لها في ظاهر الحال أولوية من بلاد أخرى شهدت رسالات دينية سبقت الإسلام، كبيت المقدس على سبيل المثال؟.

المسلمون لا يترددون في تلاوة قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولا يجدون حرجا في أن يتدبروا ـ كما أمرهم دينهم ـ حكمتَه تعالى في سننه، فهم يعرفون واقع الحياة قبل البعثة، ويعرفون أن موضع نزول الوحي كان حينذاك قاعا بلقعًا!.

لقد كانت جزيرة العرب في عزلة عن الصراعات والضلالات الحضارية والانحرافات الخلقية التي كان يعجّ بها العالم من حولها، وذلك بسبب بعدها عن المدنية وحياة الترف، مما قلل وسائل الانحلال الخلقي والطغيان العسكري والفلسفي في أرجائها.

فهي ـ وعلى ما كانت عليه من انحراف ـ كانت أقربَ إلى الفطرة الإنسانية، وأدعى لقبول الدين الحق، إضافةً إلى ما كان يتحلى به أهلُها من نزعاتٍ حميدة كالنجدة والكرم، والعفة والإباء، والأمانة والوفاء.

www.almoslih.net

هذا إلى جانب موقع جزيرة العرب المميز؛ إذ كان موقعها الجغرافي وسطا بين تلك الأمم الغارقة التائهة، فهذا الواقع والموقع جعلها مؤهلة لنشر الخير وحمله إلى جميع الشعوب بسهولة ويسر.

وبهذا تجلّت الحكمة الإلهية في اختيار العرب وجزيرتهم مهدا للإسلام، إذ كانت بيئة أميّة لم تتعقد مناهجها الفكرية بشيء من الفلسفات المنحرفة، بل كانت أقرب لقبول الحق، والإذعان له، إضافة إلى أن اختيار جزيرة العرب مهدًا للإسلام فيه دفع لما قد يتبادر إلى الأذهان من أنّ الدعوة نتيجة تجارب حضارية، أو أفكار فلسفية.

ولا بد من الإشارة إلى أن الله اختار العرب وفضلهم لتكون الرسالة فيهم ابتداء، وهذا تكليف أكثر مما هو تشريف؛ حيث إن من نزل عليه الوحي ابتداء مكلف بنشره وأخذه بقوة، وليس هذا أيضًا تفرقة بين العرب وغيرهم، بل كل الناس لآدم وآدم من تراب، وأكرم الناس أتقاهم لله، ولهذا كان في الإسلام بلال الحبشي، وسلمان الفارسي...الخ.

هذا بالإضافة إلى وجود البيت العتيق، الذي جعله الله أول بيت للعبادة، ومثابة للناس وأمنا، ووجود اللغة العربية وما تمتاز به من أساليب.

ولذا لا بد أن نرجع عبر الزمن لنطوي السنين طيا، ونعود إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، لنشاهد ذلك المشهد المهيب حيث قام الخليل عليه السلام بمعونة ولده إسماعيل عليه السلام ببناء بيت الله الحرام بناء على أمر الله لهما، وهو أول بيت وضع للناس كي يعبدوا فيه ربهم وحده لا شريك له.

ثم تلقى إبراهيمُ وإسماعيل عليهما السلام أمرَ ربهما بأن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وبأمر من الله تعالى، أذّن الخليل عليه السلام في الناس بالحج إلى هذا البيت المبارك، فأتوه رجالا وركبانا من كل فج عميق.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مكة حرمًا آمنا مقدسًا، يقصده الناس لحج بيت الله الحرام. ولكن البشر سرعان ما يصدق عليهم إبليس ظنه، وتجتالهم الشياطين عن طريق الحق.

فانقضّت الوثنية على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، حين قدم عمرو بن لحي بلادَ الشام، فرآهم يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله، فاستحسن ذلك وظنه حقًا، وكانت الشام آنذاك محلّ الرسل والكتب السماوية.

فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟

قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا.

فقال لهم: ألا تعطوني منها صنما، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنمًا يقال له: هبل، فقدم به مكة، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة؛ لأنهم ولاة البيت وأهل الحرمِ، حتى انتشرت الأصنام بين قبائل العرب(١).

ومن الإنصاف أن نقول: إن أهل مكة لم يستسلموا لعبادة الأصنام بسهولة، ولكنها وجدت مقاومة ومعارضة لم تلبث أن انهارت بقوة الحاكم وشدته، ومهد لذلك فسق جرهم وخروجها عن سبيل الحق.

ومما يشير إلى هذه المقاومة، ويدل على أن العربَ كانوا قبل خزاعة يدينون بالتوحيد، وما ورد في الشعر الجاهلي من نعي على عمرو بن لحي الخزاعي، وأسف على ما جلبه إلى مكة من الخطايا والآثام.. فيقول قائلهم:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة ... شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربٌّ واحد أبدًا ... فقد جعلتَ له في الناس أربابا
لَتعرفَن بأن الله في مَهَل ... سيصطفي دونكم للبيت حُجَّابا

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، (١/١٦٣) "بتصرف".

www.almoslih.net

وعلى الرغم من هذا، لم تستطع العرب قط أن تطوي تماما ذكريات ماضيها الديني، وتلقي به في متاهة النسيان، فأحيانا تهزّها رجفة الوعي، ويخامرها ريب في تلك الأوثان التي تكدست في حرم بيتها العتيق، فهي لم تنس بها خالقها، وإن أشركتها معه سبحانه وتعالى في التعبد ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وظل لمكة مركزها الديني لا تنازعها فيه بلدة أخرى، وبقيت مثابة حج العرب في الجاهلية الوثنية، على مر الحقب والدهور. وكأنما كانت الكعبة فيها، ذكرى شاخصة من عهد إيمانها القديم، يحميها بقايا ضمير استعصى على الشرك رغم طوفان الكفر الذي طم البقاع والتلاع، والوعي الكامن والغائر في عمق ضمير عبدة الأوثان، فكانت كالمخمور تزيد فترات سكره عن فترات وعيه، أو أشبه بالمحموم الذي غاب عنه رشده، فيهذي وهو لا يدري.

ونلمح بعضا من هذه البقايا الأصيلة من التوحيد، فيما كان العرب يناجون به ربهم ملبين، وهم يحجون إلى الكعبة في الموسم، يشوبها مسحة من الوثنية الشركية، كتلبية أهل فدك وهم يؤدون مناسك الحج، فيقولون:

لبيك إن الحمد لك ... والملك لا شريك لك
إلا شريك هو لك ... تملكه وما ملك
أبو بنات بفدك
ثانٍ حَتّى اِنتَهَت لَهُ الأَهواءُ

آه لو أنهم اقتصروا على بيتهم الأول، لكانوا على المحجة البيضاء، ولكن يأبى اللعين أبو مرة[1] أن يتركهم عبادا لله.

وانظر أيضًا إلى تلبية همدان في الجاهلية:

(١) أبو مرة: كنية إبليس اللعين.

لبيك رب همدان ... من شاحط ومن دان
جئناك نبغي الإحسان ... فَمِنَ العَدلِ أَن يَهولَ الجَزاءُ
نطوي إليك الغيطان ... بكل حرف مذعان

وكذلك قولهم:

لبيك مع كل قبيل لبوك ... همدان أبناء الملوك
تدعوك قد تركوا أصنامهم ... وانتابوك
فاسمع دعاء في جميع الاملوك[1]
بكل حرفِ مذعان

وهكذا نرى أن الفطرة العربية، لم تفسد كليا وإنما ألقت الوثنية غشاوة على بصيرة العربي، فتابع أباه على دينه تعصبا وتوقيرا، فهو لا يريد أن يتصور أن أسلافه الكرام كانوا جميعا على سفه وضلال.

ولكن بقي في أعماق روحه نوع من القلق الروحي، يتبعه تعطّش لميلاد جديد، يمزق الغشاوة، ويسقط أقنعة الزيف عن عقم الوثنية، ومهانة الشرك، وخلل الأوضاع.

وتراث العرب الأدبي شعرا ونثرا يؤيد هذه الحقيقة، ويشير إلى ما كان يجتاح الوجدان العربي من قلق وحيرة، وتطلع إلى هذا النور الجديد.

ودونك خطبة قس بن ساعدة الإيادي الذي وقف في سوق عكاظ بالموسم، ليهزّ الضمير العربي بحكمته ومواعظه، ويصيح فيهم مؤكدا على الحقيقة القائلة: إن كل شيء في الكون هادف؛ فلا بد من خالق قاصد مريد:

(١) تجد في (رسالة الغفران) نصوصًا مع هذه، من تلبيات العرب في الجاهلية: ص ٥٣٤ وما بعدها. ط خامسة، ذخائر العرب.

«أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعُوا. من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت.. آياتٌ محكمات، مطرٌ ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، ضوء وظلام، وبر وآثام، ولباس ومركب، ومطعم ومشرب، ونجوم تمور، وبحور لا تغور، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، وليل داج، وسماء ذات أبراج. مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم حبسوا فناموا».

وهو القائل لقومه من قبيلة إياد:

«يا معشر إياد، أين ثمود وعاد، وأين الآباء والأجداد. أين المعروف الذي لا يشكر، والظلم الذي لم يذكر، أقسم قس قسمًا بالله، إن لله دينًا هو أرضى له من دينكم هذا».

ثم أنشد :

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا ... يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنّي لا محالة ... حيث صار القوم صائر

ومن ذلك القلق الروحي والتطلع إلى فجر جديد، وغير ذلك مما كان يسيطر على نفوس كثير من العرب، ما ورد عن لبيد بن ربيعة:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الديار بعدنا والمصانع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رمادا بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يومًا أن ترد الودائع

وانظر إلى زهير بن أبي سلمى وهو يذكر ربه وعلمه بما تكنه النفوس، ثم يتبع ذلك بمجموعة من الحكم العربية التي تعد نموذجا أعلى للحكمة في التراث الإنساني كله، فيقول[١]:

فلا تَكتُمُن الله ما في نُفوسكم ... ليخفى، ومهما يُكتَمِ الله يعلَم
يُؤخَّرْ فيوضعْ في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فيَنْقَمِ
وأَعلَمُ علم اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلم
ومن يوف لا يُذْمَمْ ومن يهد قلبه ... إلى مطمئن البر لا يتجمجم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تَخفى على الناس تُعلم

وهذا قول (النابغة الذبياني) في اعتذاره للنعمان بن المنذر[٢]:

حلَفْتُ فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بُلِّغت عني وشاية ... لَمُبلغك الواشي أغشُّ وأكذب

وكانت حرمة البيت العتيق تفرض على العرب جميعا حرمة حِماه في أم القرى (مكة)، ورسخ في اعتقادهم أن مكة لا تُقِرُّ فيها ظلما ولا بغيا، ولا يبغي فيها أحد على أحد إلا أخرجته، ولا يريدها مَلِكٌ يستحل حرمتها إلا هلك مكانه، ويقال إنها ما سميت بكة، إلا لأنها كانت تبكُّ ـ تكسر ـ أعناقَ الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئا[٣].

(١) انظر: شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم الشنتمري، (ص ١٨)، وما بعدها، تحقيق: د/ فخر الدين قباوة، ط، دار الثقافة بيروت، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.
(٢) ديوان النابغة الذبياني، (ص ١٩)، تحقيق: حمدو طماس، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥ م.
(٣) أبو القاسم السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، (١/ ٢٧)، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، القاهرة: ١٩٦٧م.

www.almoslih.net

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

ومن تعظيم العرب للحرم ما أوصت به سبيعةُ بنت الأحبِّ ابنها حين قالت:

أَبُنَـيّ لَا تَظْلِـمْ بِمَكّـةَ ... لَا الصّغِيـرَ وَلَا الْكَبِيـرَ
وَاحْفَـظْ مَحَارِمَهَـا بُنَـ ... ـيّ وَلَا يَغُرّنْـكَ الغَرُورُ
أَبُنَـيّ مَـنْ يَظْلِـمْ بِمَكّةَ ... يَلْـقَ أَطْـرَافَ الشّـرُورِ
أَبُنَـيّ يُضْـرَبْ وَجْهُـهُ ... وَيَلُـحْ بِخَدّيْـهِ السّـعِيرُ
أَبُنَـيّ قَـدْ جَرّبْتُهَـا ... فَوَجَـدْتُ ظَالِمهَـا يَبُورُ
اللهُ أَمّنَهَـا وَمَـا ... بُنِيَـتْ بِعَرْصَتِهَـا قُصورُ
وَاللهُ أَمّـنَ طَيْرَهَـا ... وَالْعُصْـمُ تَأْمَنُ فِـي ثَبِيرِ
وَلَقَـدْ غَزَاهَـا تُبّـعٌ ... فَكَسَـا بَنِيّتَهَـا الحَبِيـرَ
وَأَذَلّ رَبّـي مُلْكَـهُ ... فِيهَـا فَأَوْفَـى بِالنّـذُورِ
يَمْشِـي إِلَيْهَـا حَافِيًـا ... بِفِنَائِهَـا أَلْفَـا بَعِيـرِ
وَيَظَـلّ يُطْعِـمُ أَهْلَهَـا ... لَحْمَ المَهَـارَى والجَزُورِ
يَسْـقِيهِمُ الْعَسَلَ الْمُصَفّى ... وَالرّحِيـضَ مِنَ الشّـعِيرِ
وَالْفِيـلُ أُهْلِـكَ جَيْشُـهُ ... يُرْمَـوْنَ فِيهَـا بِالصّخُورِ
وَالْمُلْكُ فِـي أَقْصَى الْبِلَا ... دِ وَفِي الأَعَاجِـمِ الْخَزِيرِ
فَاسْمَعْ إِذَا حُدّثْتَ وَافْهَمْ ... كَيْـفَ عَاقِبَـةُ الأمُـورِ

لذلك كله وغيره كان العرب أنسبَ قوم يكون بينهم النبي الخاتم، وكانت جزيرتهم أفضل مكان لتلقي آخر الرسالات السماوية، فالحمد لله الذي أكرم العرب بهذا الدين العظيم، وشرَّف جزيرتهم، فجعلها مهبط الوحي المبين.

وقد حدث في هذا البلد الحرام مجموعة من الأحداث التي تشير إلى قرب ظهور حدث آخر فريد تمهّد له تلك الأحداث، حتى تأتي متساوقة متناغمة مع جلال هذا الحدث لتكون خطوات على الطريق الذي سلكه الأنبياء من قبل.

وأهم هذه الأحداث ما يأتي:

١ إعادة حفر زمزم:

لقد نبعت مياه زمزم المباركة من تحت قدمي نبي الله إسماعيل عليه السلام، حين جاء جبريل عليه السلام؛ فبحث بعقبه أو بجناحه، وذلك عندما تركه أبوه مع أمه في ذلك المكان الموحش، وفي خضمّ صراعات العرب في الجاهلية وخلافاتهم القبلية ونزاعاتهم حول السدانة والسقاية، قام منهم من يُدعى مضاض ابن عمرو الجرهمي بردم البئر.

ومع تقدم الزمان نسي العرب مكانها، وكانوا على حنين دائم لمعرفة مكانها، وتمنوا لو أنها كانت باقية، فهي تذكرهم بهذا الحدث الجلل، والذكرى المهيبة.

وكان عبد المطلب الهاشمي بطبيعة مركزه أكثرَهم تفكيرا في هذا الأمر وأشدَّهم تمنيا أن يكون، وقد ألحّ الرجاء به حتى كان يهتف به الهاتف أثناء نومه يحضّه على أن يحفر البئر التي تفجّرت تحت أقدام جدّه إسماعيل عليه السلام.

وألح الهاتف يدلّه على مظانّ وجودها؛ وألحّ هو باحثا عن زمزم حتى اهتدى إليها بين الوثنين: إساف ونائلة. وجعل يحفر مستعينا بابنه الحارث، حتى نبع الماء، وظهرت غزالتا الذهب وأسياف مضاض الجرهميّ، وأرادت قريش أن تشارك عبد المطلب في البئر وفيما وجد فيها[1].

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/١٤٢-١٥٥)، دار الفكر، بدون تاريخ.

وما إن رأت قبائل قريش أن عبد المطلب الهاشمي قد عثر على بئر إسماعيل عليه السلام وما طمر بها من كنوز، إلا ودبّ الخلاف، كل يريد أن يكون له شرف السقاية، ونازعوه على الماء وعلى كنوز الكعبة، وبطبيعة الحال رفض زعيم بني هاشم ما كان يصبو إليه زعماء قريش من البطون الأخرى.

وبعد حديث ومساومات اتفق الفريقان على أن يضربوا عليها بالقداح، فيجعلوا للكعبة قدحين، ولعبد المطلب قدحين، ولقريش قدحين، فمن خرج قدحاه على شيء كان له، ومن تخلّف قدحاه فلا شيء له؛ فارتضوا رأيه.

وأعطوا القداح صاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل في جوف الكعبة، فتخلف قدحا قريش، وخرجت الأسياف لعبد المطلب، والغزالتان للكعبة، فجعل عبد المطلب الأسياف بابًا للكعبة، وجعل في الباب غزالتي الذهب حلية للبيت الحرام. وأقام عبد المطلب في سقاية الحاجّ بعد أن يسّرتها زمزم له [1].

وهذا أول حدث يدل على وصل ذلك الماضي البعيد الذي اتصل بدين إبراهيم عليه السلام بالحاضر المأمول، والفجر الجديد الذي يعيد البشرية إلى دين إبراهيم عليه السلام، وعبادة الله الواحد الأحد.

(٢) الذبيح الحبيب:

قد علمت ما كان من أمر قريش واعتراضها على عبد المطلب الهاشمي عندما مَنَّ الله عليه بمكان زمزم، وقد أجال عبد المطلب الأمر في نفسه، ونظر إلى قلة ما عنده من الذرية، فلم يكن له إلا ولد واحد وهو الحارث، أي أنه لا يغني عنه شيئا أمام هذا الطوفان البشري.

(١) انظر: ابن كثير: السيرة النبوية، (١/٣٠-٣٧). تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الطبعة الثانية، دار الفكر بيروت، لبنان ١٣٩٨هـ.

وعَلِمَ أن قريشا ما تجرأت عليه إلا لقلة ولده، ولو كان معه من يحميه ما فكر أحد في الاجتراء عليه، فنذر أنه إن ولد له عشرة بنين، ثم بلغوا معه أن يمنعوه، لينحرنّ أحدهم عند الكعبة قربانا لله [1].

وسرعان ما مرّت الأيام، وإذا به ينجب عشرة أبناء ذكور، وبلغوا الفتوة والشباب والمقدرة على أن يمنعوه من دهماء قريش؛ فكان لا بد من الوفاء بهذا النذر مهما كان، فدعا أبناءه وقص عليهم عزمه، فأجابوه إلى الوفاء بنذره.

وفي سبيل هذا الوفاء كتب كلُّ واحد من الأبناء اسمَه على قدح، وأخذها عبد المطلب وذهب بها إلى صاحب القداح عند هبل في جوف الكعبة. وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغرَ أبنائه وأحبّهم إليه، وجاءت القرعة على عبد الله، فأخذ عبد المطّلب الفتى بيده، وذهب به لينحره حيث كانت تنحر العرب عند زمزم بين صنمي إساف ونائلة [2].

وكان هذا الأمر غريبا على قريش، فاستفظعوا هذا الصنيع، وخشي العقلاء منهم أن تصبح سنة في العرب، أن كل من بلغ بنوه عشرة يذبح أحدهم قربانا، فقامت قريش كلها من أنديتها تهيب به أن لا يفعل، وتشاور القوم واستقرّ رأيهم على الاحتكام إلى عرّافة بيثرب لها في مثل هذه الأمور رأي.

فأغذّوا السير إليها ليرَوا ما عندها، فأشارت عليهم بأن يرجعوا إلى بلادهم، ثم يقرّبوا عشرا من الإبل، ثم يضربوا عليه وعليها بالقداح، فإن خرجت على الذبيح، فليزيدوا من الإبل حتى يرضى ربهم.

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، (١/١٤٢-١٥٥)، ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص٢٤، ٢٥)، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، طبعة أولى ١٩٧٨م. البيهقي في الدلائل، (١/٩٣-٩٥).

(٢) انظر: أبو فارس: السيرة النبوية، (ص١٠٢).

www.almoslih.net

كان في هذا الرأي إطلالة من الأمل في قلب عبد المطلب، وطوق نجاة لهذا الذبيح المنتظر، فقبله عبد المطلب، ونفذه كما أشارت عرافة يثرب كلمة كلمة، وجعلت القداح تخرج على عبد الله، فيزيدون في الإبل حتى بلغت مائة؛ عند ذلك خرجت القداح على الإبل.

وهنا حاولت قريش أن تستغلّ هذه الفرصة السانحة لتثني عزم عبد المطلب فقالت: قد رضي ربّك يا عبد المطلب، وقبل الفداء، وخرج السهم على الإبل. فقال عبد المطلب: لا والله، حتى أضرب عليها ثلاث مرّات.

إنها رجفات ناذر لا يرضى أن يفرّ من نذره تحت أول بارقة أمل، حتى لا يكون ذلك مصادفة، وبالفعل أعاد ضرب القداح ثلاث مرات، وفي المرّات الثلاث خرجت القداح على الإبل؛ فاطمأن عبد المطلب إلى رضا ربه، ونحرت الإبل، ثم تركت لا يصدّ عنها إنسان ولا سَبُع.

وكانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقا بالشاب الهاشمي الذى مست الشفرة منحره وهو صابر مستسلم، حتى إذا لم يبق بينه وبين الذبح إلا أن تتحرك الشفرة، أنقذه رب الكعبة بأغلى فدية عرفها العرب.

وأضيئت المشاعل في أم القرى، وسهرت مسامر البلدة المباركة تسترجع ذكرى قصة الذبيح الأول إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، حين مضى به أبوه إلى قمة الجبل لكي يذبحه طاعة وتعبدا، ففداه ربه بذبح عظيم بعد ذلك البلاء المبين(١).

إنها القصة التى تناقلتها العرب العدنانية، بنو إسماعيل، طبقة بعد طبقة، وجيلا بعد جيل، تعود فتتكرر على ساحة البيت العتيق الذى رفع القواعد منه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع والسجود.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ١٦٥)، الزبير: نسب قريش، (ص ١٤) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، (ص ١٢).

٣ عام الفيل والطير الأبابيل: (إرهاصات النبوة)

لقد كانت مكة محطّ أنظار العرب، وموضعَ التقديس والإجلال لكل القبائل العربية، وكانوا يسمّون أهلها بأهل حرم الله، فهم آمنون بأمان الله لهم، وذلك منذ أن بنى الكعبة فيها نبي الله إبراهيم عليه السلام إلى ظهور النبي الخاتم ﷺ.

وقد أدّى بلوغ مكة لهذه المكانة أن بعض العرب قد حسدها على هذا الشرف، ومقام بيتها الحرام، مما جعلهم يفكرون في إقامة المعابد والكنائس في بلادهم، لعلّها تصرف الناس عن مكة وعن بيتها؛ خاصة في البلاد التي دانت بالنصرانية.

وأقام أبرهة الأشرم كنيسة باليمن سماها القليس(١)، وجلب إليها الرخام المجزع والحجارةَ المنقوشة بالذهب، من بقايا قصر بلقيس، وكان على فراسخَ من موضع الكنيسة، وفيه البقايا من آثار مملكة سبأ. ونصب أبرهة الأشرم في كنيسته صلبانا من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والآبنس.

وكتب إلى مولاه نجاشي الحبشة: «إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْنَ مثلُها لمليك كان قبلَك. ولست بمنتهٍ حتى أصرفَ إليها حج العرب»(٢).

ودعا الناس إلى الحج إليها(٣) فغضب العرب وثار رجل من بني مالك بن كنانة وأقسم ليعبثن بهذه الكنيسة، وقدم إلى اليمن ودخل الكنيسة كأنه متعبد حتى إذا جاء الليل وخلا المكان قام يعبث بأثاث الكنيسة ويلطخ جدرانها بالقاذورات(٤).

(١) القليس: أي: الكنيسة.
(٢) السهيلي: الروض الأنف، (١/ ٣٠).
(٣) ابن هشام: السيرة، (١/ ٤٤)، البيهقي: دلائل النبوة، (١/ ١١٧)، السهيلي: الروض الأنف، (١/ ٦٣)، ابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ١٧٠).
(٤) وفي أكثر الروايات أنه قعد فقضى حاجته، فأحدث وبال، وهذا القول مروي عن ابن عباس وغيره، وهو الذي عليه الأكثر..

www.almoslih.net

ولما علم أبرهةُ في الصباح بما أصاب كنيسته وعرف أن أعرابيًّا كان يَبيت بها، وأنه المتهم بالعبث ببنائه المقدس، أقسم ليهدمَنَّ الكعبة، وجهز لذلك العدةَ والعديد(١) والبأس الشديد..

وأقبل جيش الحبشة من اليمن، فأشرف على مكة بعد أن تخطّى إليها التلال والنجاد، والهضاب والوِهاد، والصحراء القاسية المترامية، وبعد أن كاد يضلُّ في شعاب الجزيرة الشائكة ومسالكها المشتبكة، ثم استقر بمكان قريب من مكة يقال له: «المغمس»(٢).

وأرسل قائد الجيش رسولاً من قِبَلِه إلى مكة يدعى «حناطة الحميري» فقال له: سل عن سيد أهل هذه البلاد وشريفها، ثم قل له: إن الملك لم يأتِ لحربكم، وإنما جاء لهدم هذا البيت. فإن لم تَعرِضوا لنا دونه بحرب، فلا حاجة له في دمائكم، فإنْ هو لم يُرِدِ الحربَ فأتِ إليّ به.

فلما دخل حناطةُ مكة سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له: عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فأخبره بما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطلب: «والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ـ فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه». فقال حناطة: فانطلق معي إليه، فإنه قد أمرني بذلك.

فانطلق معه عبدُ المطلب ومعه بعضُ بَنيه، حتى أتى المعسكر ووقف بباب أبرهة، فقيل لأبرهة: إن عبد المطلب ببابك، فقال: من هو عبد المطلب؟ قيل: إنه سيد قريش، وصاحب عيش مكة، وهو الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤس الجبال. فأذن له أبرهة.

---

(١) فقيل: إنه بلغ عددهم ستين ألفًا.
(٢) وهذا الموقع يبعد عن مكة نحو ستة.

وكان عبد المطلب وسيمًا جميلاً شديدَ الهيبة والوقار. فلما رآه أبرهة، أجلَّه وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه. فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: سله عن حاجته: فسأل الترجمان؟ فقال: حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي.

فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قد كنتَ أعجبتني حين رأيتُك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلَّمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك وتتركُ بيتًا، هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: «إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه ويحميه».

فرد أبرهة قائلاً: ما كان ليمتنع مني. فأجابه: أنت وذلك.. فردّ أبرهة على عبد المطلب المائتي بعير التي أصابها.. وانطلق عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر(١)، ثم تعلق بحلقة الكعبة وأستارها في ضراعة الخائف الوجل وإنابة العائذ المستغيث، وأخذ يقول:

لا هـمّ إن العبـد يمـــ ـنع رحله فامنع رِحالَك(٢)
وانصر علـى آل الصليب وعابدِيـه اليـوم آلَـك
لا يغلبَـنَّ صليبُهـم ومحالهم أبدًا محالك(٣)
هم جرّدوا لـك جمعَهم والفيلَ كي يسبوا(٤) عيالَك

---

(١) انظر: ابن هشام السيرة النبوية، (١/ ١٦٩).
(٢) في أكثر المصادر «حِلالك» بكسر الحاء المهملة، والحلال جمع حلة وهي جماعة البيوت. فكأنه أراد البيت وما حوله...وقوله «لا همّ» أصلها: «اللهم» والعرب تحذف الألف واللام.
(٣) المحال، بكسر الميم القوة والشدة.
(٤) يسبوا: يسرقوا، وهذا البيت والذي بعده لم يقع في السيرة لابن هشام، ولا عند من نقل عنه ووقع في بعض الروايات اختلاف، وذكر بيوت لم تذكر هنا.

www.almoslih.net

عَمَدُوا حِماك بكيدهم جهلاً وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وقبـ ـلتنا فأمر ما بدا لك

ثم طاف بالبيت منشدًا والناس معه يرددون:

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا
امنعهموا أن يخربوا قراكا إن عدوّ البيت من عاداكا[1]

وهكذا لجأ عبد المطلب ولجأت معه قريش إلى الله يطلبون عونه وحمايته، ثم خرجوا من مكة لكي يتحرزوا في شعف الجبال والشعاب، وينتظرون عدل الله مع هؤلاء الطغاة الظالمين.. وترك البيت أمام المعتدي ليهدمه... لا أحدَ يدافع عنه.. ولكن كما قال عبد المطلب ـ للبيت رب يحميه..

وتحرك بعد ذلك جيشُ الأحباش مُدِلًّا بعظمته وكبريائه، يتقدمه الفِيَلَة بشكلها المهيب المخيف الذي لم تألفه العرب في حروبها، وكان عددهم ثلاثةَ عشرَ فيلًا توجهت جميعها في طريقها إلى الكعبة ما عدا الفيل الأكبر، فإنه ظل جامدًا في مكانه، فإذا وجهوه إلى اليمن أسرع وهرول، وإذا وجهوه إلى الكعبة وقف ولم يتحول، وكأن الله قد ألهم ذلك الحيوان الأعجم بما يخبئه الحدثان، وما ينتظر ذلك الجيش المعتدي من خسف ونكال وهوان...

وما كان مثلُ هذا الجيش القوي ليغلبَ أو يتراجعَ، لولا قدرة القوي القاهر التي تجلّت في هذه الآية الكبرى الباقية على الدهر، إذ أرسل الله إليهم طيرًا من البحر أمثالَ الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره وحجران في رجليه ـ أمثال الحمص والعدس ـ لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وليس كلهم أصابت[2].

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (١/ ٢٥٤).
(٢) ابن هشام: السيرة، (١/ ٥٤)، والسهيلي: الروض الأنف، (١/ ٢٧)، وأبو نعيم: دلائل النبوة، (١/ ١٤٩).

وذعر الأحباش واستولى عليهم الرعب والذهول، فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا، ويسألون عن الطريق إلى اليمن، فقال أعرابي[1] رآهم في هذه الحيرة، بعدما أنزل الله عليهم من نقمته:

أين المفرّ والإلهُ الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وجعلوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، وكلما سقطت أنملة خرج وراءها الدم والقيح الكثير، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطير، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يقولون[2].

وإلى هذا الحادث العجيب يشير الله تعالى بقوله في سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥].

وبذلك يتبين لنا مدى الخطأ الذي وقع فيه بعضُ من أنكروا الطير والحجارة، وقالوا إن الله ـ عز وجل ـ يريد بالطير الرياح المتجمعة، وبالحجارة ذراتِ التراب التي حملت ميكروب الجدري.

فإنه لم يعهد في لغة العرب أن يقال عن الرياح: إنها طير أبابيل أي جماعات من الطير، ولا ينبغي أن يقال ذلك إلا بطريق مجازي بعيد، ولا يصح أن يلجأ إلى مثل هذا المجاز ما دامت الحقيقة غيرَ مستحيلة على قدرة الله[3]، وكذلك

(١) هو نفيل بن حبيب، فيما ذكر ابن إسحاق: السيرة، (١/ ٥٤)، والبيهقي: دلائل النبوة، (١/ ١٢٢- ١٢٣)، وابن كثير: البداية والنهاية، (١/ ١٧٣).
(٢) انظر: أبو حاتم البستي: السيرة النبوية، (ص٣٤-٣٩)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ابن كثير: السيرة النبوية، (١/ص٣٠-٣٧).
(٣) ولأنه لا يجوز العدول عن ظاهر الكلام لمعنى مجازي إلا بقرينة، فكيف إذا كانت القرينة تمنع من ذلك؛ لأن المقام مقام إعجاز.

www.almoslih.net

الذرات من التراب، لا يقبل في لغة العرب أن يقال عنها حجارة من سجيل، أي من طين مطبوخ بالنار وهو الآجر.

وإذا كانت الريح قد حملت ميكروب الجدري، فلماذا هلك الأحباش وحدهم، ولم يهلك معهم العرب؟.

وإذا كان حادث الفيل قد وقع عامَ ميلاد الرسول ﷺ فمن المعقول[1] أن "سورة الفيل" قد نزلت على الرسول ﷺ في وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادثَ الفيل بأعينهم، وبعضهم من أعداء الرسول ﷺ، فلو لم تكن الطيورُ طيورًا حقيقية، والحجارةُ حجارةً حقيقية لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة، ويعلن ذلك على رءوس الأشهاد وينتهزها فرصة في الكيد لمحمد ﷺ والطعن عليه.

ولكن الواقع أن «سورة الفيل» قد نزلت، فتلقاها العرب بالقبول؛ لأنها تقرر حقيقة معروفة عندهم لا شك فيها، ولا يجرؤ أحد على إنكارها.

وعلى هذا، فالطير الأبابيل كما في الرواية: «عن عبيد بن عمير الليثي قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل، بعث الله عليهم طيرا نشأت من البحر كأنها الخطاطيف، بكفِّ كل طير منها ثلاثةُ أحجار مجزعة، في منقاره حجر، وحجران في رجليه، ثم جاءت حتى صفت على رؤوسهم ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما من حجر وقع منها على رجُلٍ إلا خرج من الجانب الآخر، إن وقع على رأسه خرج من دبره، وإن وقع على شيء من بدنه خرج من الجانب الآخر»[2].

(١) بل من المؤكد، وحتى لو لم يبق أحد ممن عاين الواقعة، كان يمكن أن يجابه بالتكذيب من أبناء من شهد؛ لأن هذا من غير شك يكون راسخًا عندهم عن طريق التواتر. والعرب ناقشت وراجعت النبي ﷺ فيما ليس لهم به علم، أفلا يراجعونه فيما علموا.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦/ ٦٧٤) وذكر أنه أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو نعيم والبيهقي معا في دلائل النبوّة.

وقد اعتدّ القرشيون بهذه الحادثة طويلا، وأرّخوا بها أحداثهم، وزاد هذا الحادث الفذّ العجيب في مكانة مكة الدينية، وتعظيم البيت الحرام وإجلاله، وزادت تبعا لذلك مكانتها التجارية، وزاد أهلها انصرافا عن التفكير في شيء غير الاحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة، ومحاربة من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها.

وكذلك استقلّت مكة بنفسها كما كانت تستقلّ قبائل العرب بنفسها، ولا ترضى لغيرها عليها سلطانا، ولا ترضى من استقلالها بديلا، ولا تعنى من الحياة بغير هذا الاستقلال في حمى أوثانها.

ولقد سجل العرب في شعرهم هذا الحادث العجيب، وتغنَّوا به أمام العصور والأجيال، ومن ذلك قول نفيل بن حبيب يصوّر ما وقع للأحباش في ذلك اليوم:

ألا حُيِّيتِ عنا يا رُدَيْنَا[1] ... نَعِمْناكم مع الإصباح عينا
حمدتُ الله إذ أبصرت طيرًا ... وخِفْتُ حجارة تلقى علينا[2]

وقول أمية بن أبي الصلت:

إن آياتِ ربنا ثاقباتٌ ... لا يماري فيهن إلا الكفورُ
حُبِسَ الفيل بالمغمس حتى ... ظل يحبو كأنه معقورُ[3]

(١) ردين، مرخم ردينة، وهو اسم امرأة.

(٢) وهذا يؤيد ما تقدم من أن الطير والحجارة كانت حقيقية، إذ يمتنع أو يستبعد أن يقع التشبيه المجازي بعينه لواصفين، لا سيما إذا كان ذلك من بعيد المجاز، وما لم يؤلف عند العرب.

(٣) زاد ابن هشام (١/ ٦٢) بينهما بيتًا، وبعدهما أبياتًا، ومما زاد بينهما:
ثم يجلو النهار رب رحيم ... بمهاة شعاعها مبثور.

وقول عبد الله بن قيس من قصيدة طويلة يذكر فيها قصة الفيل والطير والحجارة:

كاده الأشرم الذي جاء بالفـ ـل فولّى وجيشه مهزوم
واستهلت عليهم الطير بالجنـ ـدل حتى كأنه مرجوم[1]

والذي ينبغي أن نذكرَه هنا أن هذا الحادث ينبئُ عن حفظ الله عزوجل لبيته الحرام، ودفاعه عنه، وما من جبار قصده بسوء إلا رد الله كيده في نحره، وقد كان لهذه الحادثة أثرٌ قوي في تذكير العرب بحرمة البيت، واستحضار شخصية الخليل عليه السلام من أعماق التاريخ، وإرهاصة لظهور محمد ﷺ.

وغني عن البيان أن قريشا لم تستحقّ هذا التكريم، وهذه النعمةَ لإخلاصها لله أو لصالح أعمالها، وإنما لأنه كان مقررا، أن يولد فيهم نبي الله المختار ﷺ. فكانت هذه الكرامة وهذه النصرة، تبشيرا بمجيء النبي وإرهاصا لما ستكون عليه قريش من عزٍّ وسؤدد، لا في جزيرة العرب فحسب ولكن في الدنيا كلها، ببركة هذا النبي الذي يفرق بين النور والظلام، بين التوحيد والشرك[2].

ويؤكد هذا الرأي قول ابن تيمية رحمه الله: «وكان ذلك عام مولد محمد ﷺ، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان، ودين النصارى خير منهم، فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كانت لأجل البيت، أو لأجل محمد ﷺ الذي ولد في ذلك العام عند البيت أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته»[3].

(١) السهيلي: الروض الآنف، (١/ ٨١).
(٢) محمد الطيب النجار: القول المبين في سيرة خير المرسلين، (ص٣٣-٣٤).
(٣) ابن تيمية، الجواب الصحيح، (٤/ ١٢٢).

دروس وعبر

❶ عموم الفساد العقدي والأخلاقي الذي ساد العالم.

لقد طبق الفساد العقدي والأخلاقي العالم قبل البعثة النبوية؛ مما اقتضت الحكمة الإلهية علاجه بتعهّدهم برسالة نبينا ﷺ.

❷ خطر توقّف الدعوة على الناس، فما إن توقف إرسال الرسل عليهم السلام حتى عمّ تفشي الفساد في أتباعهم، وانتشر الانحراف.

❸ أنّ نصيب العرب من الانحراف كان أقلّ نسبيا، حيث بقيت فيهم بعض الأخلاق التي ورثوها من أبيهم إبراهيم عليه السلام.

❹ وجود متشبثين بالحق بين ركام من الباطل.

فقد كان الحنفاء قلةً من العرب بقيت متمسكةً ببعض ما ورثوه من دين إبراهيم عليه السلام، لكنّ طول العهد بهذا الإرث وهجمة المخالفين من المشركين قللت من تأثيرهم.

❺ تأثر أتباع الديانات السابقة بالفلسفة والشرك، وتأثر العرب لاحقا بذلك.

❻ أنّ الباطل لا يروج إلا إذا خلط بشيء من الحق.

ومن هنا نرى أنّ العرب في جاهليتهم وضعوا أصنامَهم في الكعبة التي هي من ميراث النبوة.

www.almoslih.net

هذا محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم

المصلح

٣

من المهد إلى البعثة

اليَتِيمُ الهَاشِمِيّ

نسبه ﷺ:

تبعث الرسل عليهم السلام في الذروة العليا من أقوامهم نسبا وشرفا، قال ﷺ: «رحمة الله على لوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد، قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] فما بعث الله بعده نبيا إلا في ذروة من قومه»[١].

فلا عجب إذن أن يكون رسولنا ﷺ أعرقَ قومه نسبا، وأكرمَهم أصلا، وأكملَهم خَلْقًا وخُلُقًا، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب[٢] بن هاشم بن عبد مناف[٣] بن قُصَيّ[٤] بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب بن فِهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدْرِكَة[٥] بن إلياس بن مُضَر بن نِزار بن مَعَدّ بن عدنان[٦].

(١) صحيح الجامع الصغير بتحقيق: الألباني، برقم (١٦٨٧)، وقال حديث صحيح.
(٢) اسم عبد المطلب: شيبة بن هاشم: ابن هشام: السيرة، (١/١).
(٣) اسم عبدُ مناف: المغيرة بن قُصي: ابن هشام: السيرة، (١/١).
(٤) اسم قصي: زيد: ابن هشام: السيرة، (١/١).
(٥) عامر بن إلياس: المغيرة بن قُصي: ابن هشام: السيرة، (١/١).
(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/١-٢). البخاري: الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ، رقم (٣٨٥١).

www.almoslih.net

ولا خلاف أن (عدنان) من ولد إسماعيل عليه السلام[١]. ولكن الخلاف فيما بين عدنان وإسماعيل، فلم يثبت من ذلك شيء، ولذا ورد عن عائشة رضي الله عنها: «ما وجدنا أحدًا يعرف ما وراء معد بن عدنان، ولا ما وراء قحطان، إلا متخرصًا»[٢].

يقول ابن القيم بعد ذكر النسب إلى عدنان: «إلى هنا معلوم الصحة، ومتفق عليه بين النسابين، ولا خلاف البتة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام»[٣].

نسب عليه مهابة وجلالة ... بالمصطفى خير الورى أقصى الأرب
نسب أضاء الأفق منه بنور من ... لولاه ما طلع الهلال ولا غرب
نسب رفيع ضم جامعُ شمله ... أعيانَ سادات الأعاجم والعرب

لو رجعنا إلى تاريخ أجداد الرسول ﷺ، لوجدناهم جميعا سلالة آباء كرام، فيهم السيادة والقيادة، والقوة والفداء، والحكمة والكرم، والشجاعة والإقدام.

فمنهم (معد): وهو صاحب حروب وغارات، ولم يحارب أحدا إلا رجع منتصرا وهو أبو العرب.

---

(١) صحيح سنن الترمذي، للعلامة الألباني، برقم (٢٥٦٦)، وقال: حديث حسن.

(٢) انظر: أبو محمد عبد الله بن وهب القرشي المصري: الجامع في الحديث، برقم (٩)، تحقيق: مصطفى حسن أبو الخير، ط، دار ابن الجوزي، الرياض ١٩٩٦م. الحديث فيه ابن لهيعة وهو مرمي بالضعف لاحتراق كتبه. قال ابن حجر: «لا بأس به في المتابعات». فتح الباري، (٤/ ٩٣).

(٣) ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، (١/ ٧١)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ـ عبد القادر الأرناؤوط، بيروت الكويت: مؤسسة الرسالة ـ مكتبة المنار الإسلامية ـ الطبعة الرابعة عشرة، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٦م.

ومنهم (نزار): وكان أرجح أهل زمانه عقلا، وأسمحهم وجها، وأجملهم صورة.

ومنهم (مضر): وكان جميلا لم يره أحد إلا أحبه، وكان حكيما، ومن حِكَمِه: «خير الخير أعجله، فاحملوا أنفسكم على مكروهها، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق»[١] وهو أول من حدا للإبل، وكان حسن الصوت.

ومنهم (إلياس): وهو في العرب مثل لقمان الحكيم في قومه. ومن مأثوراته: «من يزرع خيرا يحصد غبطة.. ومن يزرع شرا يحصد ندامة».

وأما (فهر) فإليه تنسب قريش، وكان مشهورا بالكرم، لا ينتظر صاحبَ الحاجة حتى يأتيه، وإنما كان يفتش عنه ويقضي حاجته.

ومنهم (كعب): وكانت تجتمع إليه قريش يوم جمعة، فيخطب فيهم ويعظهم ويذكرهم بمبعث محمد ﷺ، وينبئهم بأنه من ولده، ويأمرهم باتباعه.

ومنهم (مرة): وهو الجد السادس لرسول الله ﷺ، ولأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ومنهم (كلاب): واسمه حكيم، ولقّب بكلاب؛ لأنه كان كثير الصيد بالكلاب، وهو الجد السادس لآمنة أم الرسول ﷺ، فهو ملتقى نسب أبيه بنسب أمه.

ومنهم (قصي): واسمه مجمِّع جمع الله به القبائل من قريش بعد أن تفرقوا في الشعاب والجبال وأنزلهم بطحاء مكة، وقسم منازلهم، فسمي مجمّعا.

وهو أولُ من جدّد بناء الكعبة من قريش بعد بناء إبراهيم عليه السلام، وكان إليه حجابة البيت، وسقاية الحجيج وإطعامه، وكانت له الندوة، وهي مجلس الشورى، فلا يتم أمر إلا في بيته، ولا يعقد نكاح إلا في داره، ولا يعقد لواء حرب إلا عنده.

---

(١) صبر فواق: أي: الزمن بين الحلبتين، لأن الناقة تحلب ثم تترك لفصيلها لتدر، ثم تحلب.

www.almoslih.net

ومن كلامه: "من أكرم لئيما شاركه في لؤمه، ومن استحسن قبيحا تُرِكَ إلى قبحه، ومن لا تصلحه الكرامة أصلحه الهوان، ومن طلب فوق قدْرِه استحق الحرمان، والحسود هو العدو الخفي". ولما حضرته الوفاة، جمع بنيه ونهاهم عن شرب الخمر.

ومنهم (عبد مناف): وكان لشدة جماله وحسنه وبهائه، يقولون عنه: «قمر البطحاء»، كان اسمه المغيرة، وكان يسمونه الفياض، لشدة كرمه.

أما (هاشم) واسمه عمرو بن عبد مناف، ويقال له عمرو العلا؛ لعلوّ منزلته في قومه، ساد قومه بعد موت أبيه.

وقيل: إن سبب تسميته بهاشم: أن قريشا أصابتها مجاعة مُهلِكة لا زرع ولا ضرع، فخرج هاشم إلى الشام، واشترى دقيقا وكعكا، وقدم به مكة في الموسم، فهشم الخبز والكعك ونحر الإبل، وجعل كل ذلك ثريدا، وأطعم منه الناس حتى أشبعَهم، فسمي بذلك هاشما. وهو أول من سنّ رحلتي الشتاء والصيف[1].

وكان من شرف هذه النسبة أن جده (عبد المطلب) وكان مجاب الدعوة، في قلبه رقة ورحمة حتى بالحيوان، وبلغت به تلك العاطفة النبيلة أنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال، كان سيد قومه وحاكمهم، فكان موئل قريش في البلاء، ومفزعهم عند الكرب، وملجأهم في كل أمر، وكانت إليه الرفادة والسقاية وكان شريف الطبع، حسن الأخلاق، به كثير من صفات الفطرة السليمة.

فقد ورد في سيرته أنه كان ينهى قومه عن وأد البنات، ويمنع نكاح المحارم. كان دائما يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويدفعهم إلى مكارم الأخلاق، وينهاهم عن الخطايا ودنيات الأمور.

(١) عبد السلام بدوي: من أنباء الرسل، (٢/٢٢-٢٤) "بتصرف".

وكان أبيض مديدَ القامة، حسنَ الوجه، في جبينه نور النبوة، وعز الملك؛ رُزِقَ عبد المطلب جدُّ النبي ﷺ بعشرة من الولد؛ هم:

- الحارث: وهو أكبر ولده، وبه كان يكنى، ومن ولده وولد ولده جماعة لهم صحبة.
- وقُثَم: هلك صغيرًا، وهو أخو الحارث لأمه.
- والزبير بن عبد المطلب: وكان من أشراف قريش، وابنه عبد الله بن الزبير، شهد مع رسول الله ﷺ حنينًا، وثبت يومئذ، واستُشهد بأجنادين، ورُوي أنه وجد إلى جنب سبعة قد قتلهم وقتلوه.
- وضُباعة بنت الزبير، لها صحبة، وأم الحكم بنت الزبير، روت عنه ﷺ.
- وحمزة بن عبد المطلب: أسد الله وأسد رسوله، وأخوه من الرضاعة، أسلم قديمًا، وهاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا، وقُتل يوم أحد شهيدًا، ولم يكن له إلا ابنة.
- وأبو الفضل العباس بن عبد المطلب: أسلم وحسن إسلامه، وهاجر إلى المدينة، وكان أكبرَ من رسول الله ﷺ بثلاث سنين، وكان له عشرة من الذكور: الفضل، وعبد الله، وقثم لهم صحبة، ومات سنة اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه بالمدينة. ولم يسلم من أعمام الرسول ﷺ إلا العباس وحمزة.
- وأبو طالب بن عبد المطلب: واسمه عبد مناف، وهو أخو عبد الله ـ أبي رسول الله ﷺ ـ لأمه، وعاتكة صاحبة الرؤيا في بدر، وأمهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم. وله من الولد طالبٌ مات كافرًا وعقيل، وجعفر، وعلي، وأم هانئ لهم صحبة واسم أم هانئ: فاختة، وقيل: هند. وجمانة ذكرت في أولاده أيضًا.

- وأبو لهب بن عبد المطلب: واسمه عبد العزى، كناه أبوه بذلك لحسن وجهه، ومن ولده عتبة، ومُعتِّبٌ، ثبتا مع النبي ﷺ يوم حنين، ودرة، لهم صحبة. وعُتَيْبَةُ قتله الأسد بالزرقاء من أرض الشام بدعوة من الرسول ﷺ. وعبد الكعبة، وحِجْلٌ واسمه المغيرة، وضرار أخو العباس لأمه، والغَيْدَاق، وإنما سمي الغيداق لأنه أجود قريش، وأكثرهم طعامًا [1].
- وعبد الله: وقد كان أنموذجًا من أبيه عبد المطلب، يتّسم بالعفة والرزانة، وترك الفحش الذي كان موجودا في بيئته، ولما بلغ أشدّه رفع شعار: (أما الحرام فالممات دونَه). حيث قالها لامرأة كاهنة رأت بين عينيه نورا، فأرادت منه أن يدخل عليها دون إذن من أبيه وتعطيه مائة ناقة[2]؛ وهذا يدلنا على ما كان يتمتع به من طيب المعدن الذي يرفع صاحبه عن سفاسف الأمور ويجعله يهتم بمعاليها وفضائلها.
- وصفية بنت عبد المطلب: أسلمت وهاجرت، وهي أم الزبير بن العوام، توفيت بالمدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي أخت حمزة لأمه.
- وعاتكة بنت عبد المطلب: قيل إنها أسلمت، وهي صاحبة الرؤيا في بدر، وكانت عند أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ولدت له عبد الله، أسلم وله صحبة، وزهيرًا، وقُرَيبة الكبرى.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية (١/١٥٦)، وابن الأثير: الكامل في التاريخ (١/٣٦١)، (٥٤٨)، والطبري: تاريخ الأمم والملوك (١/٤٥٨).

(٢) انظر: الماوردي: أعلام النبوة، (ص ٢٣٣)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط دار الكتاب العربي، بيروت.

روى ذلك الحاكم من حديث أبي نوفل بن أبي عقرب، وقال: صحيح الإسناد، انظر حياة الحيوان الكبرى (١/ ٣).

- وأروى بنت عبد المطلب: كانت عند عمير بن وهب بن عبد الدار بن قصي، فولدت له طليب بن عُمير، وكان من المهاجرين الأولين، شهد بدرًا، وقُتِل بأجنادين شهيدًا، ليس له عقب.
- وأميمة بنت عبد المطلب كانت عند جحش بن رئاب، وولدت له عبد الله الذي استشهد بأحد، وأبا أحمد الأعمى الشاعر واسمه عبد، وزينب زوج النبي ﷺ، وحبيبة، وحمنة، كلهم لهم صحبة، وعبيد الله بن جحش أسلم ثم تنصر، ومات بالحبشة مرتدًا.
- وبَرَّة بنت عبد المطلب: كانت عند عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، فولدت له أبا سلمة، واسمه عبد الله، وكان زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ، وتزوجها بعد عبد الأسد أبو رهم بن عبد العزى بن أبي قيس، فولدت له أبا عبرة بن أبي رهم[1].
- وأم حكيم وهي البيضاء بنت عبد المطلب، كانت عند كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، فولدت له أروى بنت كُرَيْز، وهي أم عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وأما نسبه من جهة أمه فهو: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهو الجد الخامس للنبي ﷺ، وعلى ذلك يلتقي نسب أبيه وأمه.

وهذا النسب بهذه الصفة لا خلاف فيه بين العلماء، فجميع قبائل عرب الحجاز ينتمون إلى هذا النسب، ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]: لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ نسب يتصل بهم.

---

(١) ابن كثير: السيرة (١/ ١٦٨، ١٧٠). ابن كثير: البداية والنهاية (٢/ ٢٤٦).

وقال الرسول ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح؛ من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء»[١].

وثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت من خير قرون بني آدم؛ قرنًا فقرنًا؛ حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه»[٢].

وفي صحيح مسلم من حديث واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[٣].

«أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعله فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتًا فجعلني في خيرهم بيتًا، فأنا خيركم بيتًا وخيركم نفسًا»[٤]. صلوات الله وسلامه عليه دائمًا أبدًا إلى يوم الدين.

ونلمح في ذلك دليلا على أن الله سبحانه وتعالى قد ميّز العرب على سائر الناس، وفضّل قريشًا على سائر القبائل الأخرى، ومقتضى محبة رسول الله ﷺ، تقتضي محبة القوم الذين ظهر فيهم والقبيلة التي ولد فيها[٥]، وهي محبة تقدير للأصل النقي، والمعدن القادر على حمل الرسالة.

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل والطبراني في الأوسط (٤٧٢٨)
قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٨/ ٢١٧): وفيه محمد بن جعفر بن محمد بن علي، صححه الحاكم في المستدرك، وقد تكلم فيه، وبقية رجاله ثقات.
(٢) انظر صحيح البخاري مع الفتح (٦/٥٦٦) ح (٣٥٥٧).
(٣) مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي، (٤/١٧٨٢)، رقم (٢٢٧٦).
(٤) ابن كثير: صحيح السيرة (ص١٥).
(٥) انظر: أحمد فريد: وقفات تربوية مع السيرة، (ص ٤٦).

ولكن المحبة الشرعية لا تكون إلا بالإسلام، لأنه هو موضع الولاء والحب، وبغيره تنتفي هذه المزية، فقد قاتل رسول الله ﷺ قومه من قريش عندما كانوا على الشرك والوثنية.

خؤولته ﷺ من الأوس والخزرج:

أول روابط الخؤولة بين بني هاشم والخزرج، عندما تزوّج هاشم جدّ بني هاشم الأكبر من سلمى الخزرجية من بني النجار، فأنجبت له عبد المطلب، ومنه صار بنو هاشم، لذلك ربطت بني هاشم بالأنصار علاقة رحم ونصرة من اليوم الأول فكل بني هاشم من سلمى الخزرجية التي كانت سيدةَ الخزرج، وعمرو بن زيد بن لبيد النجاري من بني النجار هو والد سلمى أم عبد المطلب[١].

ومن أمهات النبي ﷺ العواتك والفواطم.

أما العواتك فهن:

- أم هاشم بن عبد مناف: هي عاتكة بنت مرة بن هلال من بني سليم.
- وأم رسول الله ﷺ هي آمنة بنت وهب، وأم وهب هي عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال من بني سليم. وأم عبد مناف هي عاتكة بنت فالج بن هلال من بني سليم.

وأما الفواطم:

- فأم عبد الله والدِه ﷺ، وهي فاطمة بنت عمرو بن عامر من بني النجار.
- وأم قصي جدّه ﷺ، هي فاطمة بنت عوف بن سعد بن الأزد.
- وأم آمنة وهي جدته ﷺ من قبل الأم فاطمة بنت عبد الله من بني مخزوم زوجة وهب بن عبد مناف من بني زهرة.

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب في تمييز الأصحاب (ج ٢/ باب الكاف).

- وأم خديجة زوجه ﷺ فاطمة بنت الأصم.
- ولحمزة سيد الشهداء ابنة يقال لها: فاطمة ويقال لها: أيضًا البيضاء.
- وفاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأم طالب وجعفر.

ومن خؤولته ﷺ من الخزرج عرفوا بنصرة بني هاشم منذ اليوم الأول، فعندما غصب أعمام عبد المطلب شيبة الحمد حقه في سقاية الحاج وسيادة قريش، طلب العون من أخواله من بني النجار، فجاءوا ونصروه خير نصرة حتى أُرجع إليه حقه.

وبقيت المودة بينهم وبني عبد المطلب حتى كثرت وبانت وتجلت بنصرة الأوس والخزرج لرسول الله محمد بن عبد الله ﷺ، إذ بايعوه على أن ينصروه بأموالهم وأنفسهم وأهليهم، فسميت تلك ببيعة العقبة.

عروس العرب:

غير مستغرب في مثل هذا المناخ الديني لأم القرى مكة المكرمة، أن تهفو قلوبُ نساء من قريش إلى عبد الله، وأن يلمَحْنَ على وجهه مخايل غَدِهِ الموعود، فيعرضن له في طريقه من الكعبة إلى بيت سيّد بني زهرة، وكل منهنّ تحاول أن تهبه نفسها أو أن تظفر به زوجا.

عرضت له بنت نوفل الأسدية القرشية، فقالت له: لك مثل الإبل التي نحرت عنك اليوم إن قبلت أن أهب نفسي لك.

وكذلك عرضت ليلى العدوية نفسها عليه، وهي تتحدث عن النور الذي في وجهه[1].

ودَعته فاطمة بنت مرّ الخثعمية إلى نكاحها، وكانت من أجمل النساء وأعفّهن، وفى بعض الروايات أنها كانت كاهنة من خثعم. وكانت قد قرأت فى الكتب، وكان

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ١٧٤).

شباب قريش يتحدثون إليها، فرأت نور النبوة فى وجه عبد الله، فقالت له: يا فتى من أنت؟ فأخبرها فقالت: هل لك أن تقع علي وأعطيك مائة من الإبل. فنظر إليها وقال:

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لا حلّ فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه

على أي حال فقد كان سن عبد الله آنذاك يسمح له بالزواج، فرأى أبوه عبدُ المطلب أن يزوّجه، فلما علمت العرب عزْمَ عبد المطلب على تزويج ولده فتى قريش، وموضع حديثها في مسامراتهم ولياليهم، تشوفت القلوب والأفئدة أن يتوجه عبد المطلب بولده ليخطب من بيوتات قريش.

فزوّجه آمنَةَ بنت وهب، وهي من بني «زهرة» وهي من أشرف قبائل قريش نسبا، ومن أوثقها قربًا وصلةً ومودةً ببني هاشم منذ عهد الأخوين العظيمين زهرة وقصي ابني كلاب ومرورا بالمنافين (عبد مناف بن قصي بن كلاب، وعبد مناف ابن زهرة بن كلاب)[1].

وقد كان أبو آمنة "وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي" سيّدَ بني زهرة شرفا وحسبا، وفيه يقول الشاعر:

يا وهبُ يا بن الماجد بن زهرة ... سُـدت كلابا كلهـا ابنَ مرة
بحسبٍ زاكٍ وأمٍّ بـرّة

ولم يكن نسب «آمنة» من جهة أمها، دون ذلك عراقة وأصالة، فهي ابنة برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب"... فتجمع في نسب «آمنة» عز بني عبد مناف حسبا وأصالة.

(١) ابن هشام، السيرة، (١/ ١٦٩) والبلاذري: أنساب الأشراف، (١/ ٧٩).

www.almoslih.net

ويؤكد هذه العراقة والأصالة بالنسب اعتزاز الرسول ﷺ بنسبه حيث قال: «...لم يزل الله ينقلني من أصلاب طيبةٍ إلى أرحام طاهرة، مصفّى مهذبا، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما»(١).

نسبٌ تحسب العلا بحُلاه ... قلدتـه نجومهـا الجـوزاء

حبـذا عقـدُ سـؤددٍ وفخار ... أنـتَ فيـه اليتيمـة العصماء

تزوج عبد الله من آمنة بنت وهب، وفي اليوم نفسه تزوج عبد المطلب من ابنة عمها هالة، فأولدها حمزة عمّ النبي ﷺ، وأقام عبد الله مع آمنة في بيت أهلها ثلاثة أيام، على عادة العرب حين يتم الزواج في بيت العروس.

وفي الخبر أن عبد الله مرّ بالنسوة اللاتي عرضن أنفسهن عليه، بعد أن تزوج آمنة بنت وهب فانصرفن عنه زاهدات فيه، فعجب لأمرهن وبدا له أن يسألهن فيه، فكان جواب بنت نوفل: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة.

وقالت فاطمة بنت مر: قد كان ذلك مرة، فاليوم لا. والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكني رأيت في وجهك نورا، فأردت أن يكون لي، فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد.

وردت ليلى العدوية: مررت بي وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت علي، ودخلت على آمنة فذهبت بها (٢).

وبعد قضاء الأيام الثلاثة، عاد العروسان إلى مكة يحملان في قلبيهما تطلعات الشباب للسعادة والمرح، والحياة الرغدة والأمل المشرق، ولكن الأقدار عادة تسبق الأحلام، فما قضى عبد الله مع عروسه إلا قليلاً، وإذ بداعي النفير للكدح

(١) انظر: أبو نعيم: دلائل النبوة، برقم (١٥).
(٢) ابن هشام: السيرة (١/ ١٦٥)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ١٧٤).

والعمل، والسفر للتجارة، فخرج العروس ليلبّي نداء المسؤولية الجديدة، ويلحق بالركب، وكانت القافلة متوجهة إلى الشام، وترك زوجه تنتظر مجيء الحبيب الغائب، ووضع معها أمانة غالية، إذ تركها حاملاً.

يـا بنت وهب أبشـري وتمتعي ... فلقد حملت بسـيد الأشـراف

ذاك الذي من شـاء يعرف قدره ... فعليـه بالأنفـال والأعـراف

خرج عبد الله إلى تجارته، وذهبت القافلة إلى الشام، وابتاع الناس وربح من ربح، وخسر من خسر، وآذنت القافلة بالرجوع، والفتى تغلبه أشواقه حنينا إلى عروسه وقومه، يعدّ الساعاتِ والأيامَ، وما كادت القافلة أن تدرك بيوت أخواله بالمدينة(١) حتى شعر عبد الله ببوادر المرض تنهك جسده، وتفتّ في عضده، فتخلف عن القافلة ليمرّض في بيوت أخواله، وحملت القافلة نبأ مرضه إلى أبيه وزوجه في مكة.

وما إن ترامت الأنباء إلى سمع عبد المطلب حتى أوفد الحارث أكبر بنيه إلى المدينة ليعود بأخيه بعد شفائه. ولكنه بلغ المدينة وقد فرغوا من دفنه بعد شهر واحد من مسير القافلة إلى مكة، فرجع أدراجه ينعي أخاه إلى أهله، ويثير في قلب عبد المطلب، وقلب آمنة همّا وشجنا. وقد رثت آمنة زوجها بأروع المراثي، قالت:

عَفَا جانبُ البطحاءِ من آل هاشم ... وجاور لَحْدًا خارجًا في الغَمَاغِم

دَعَتْـه المنايـا دعـوة فأجابهـا ... وماتركتْ في الناس مثل ابن هاشم

عشـية راحوا يحملون سـريره ... تَعَـاوَرَهُ أصحابـه فـي التزاحم

(١) كانت أم عبد المطلب وتدعى سلمى بنت عمرو من بني عدي بن النجار، في المدينة المنورة، ولذا كان بنو النجار أخوالا له ولبنيه من بعده على عادة العرب في التوسع في القرابة، ولعل في هذا النسب ما يمهد لارتباط مكة بالمدينة فيما بعد.

فـإن تك غالتــه المنايــا ورَيْبها   فقــد كان مِعْطاءً كثيــر التراحم

مات عبد الله في أول عهده بالشباب، ومن ثم فلم يخلف وراءه أكثر من خمسة من الإبل، وقطيعا من الغنم، وجارية تدعى أم أيمن، صارت ـ فيما بعد ـ حاضنة للنبيّ ﷺ.

وربما تلاحظ أن هذه الثروة لا تعدّ مظهر ثراء وسعة في تلك البيئة التي تعدّ فيها الثروة برؤوس الماشية؛ لكنها كذلك لم تكن تدلّ على فقر وحاجة، فقد خرج عبد الله لتوّه من تكاليف الزواج العربية، وما يساق فيها للعروس من مهر، كما أنه كان شابا في مقتبل عمره، فكان قديرًا على الكسب والعمل والبلوغ إلى السعة في المال؛ وكان أبوه ما يزال حيّا فلم يَؤُل إليه شيء من ميراثه.

لبست مكة ثوب الحداد على الفتى الهاشمي، وضحلت من النواح عليه حلوق بحّت من الهتاف له، حين احتفلت أم القرى بفدائه وعرسه، قبل شهرين أو ثلاثة، وترملت زهرة قريش: آمنة بنت وهب، ولما يزلْ في كفيها خضاب العرس، وانفضّ المأتم، لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوي في لحده بعيدا في ثرى يثرب.

من كان يظن، حين نحرت عنه الإبل المائة، أن المنايا واقفة بالمرصاد لهذا المفتدى؟ وخيف على آمنة من وطأة الحزن، وقد رفضت أن تقبل في فقيدها العزاء.

ولبثت مكة شهرا وبعض شهر، ترقب في قلق إلى أين ينتهي الحزن الساحق بالأرملة العروس.. حتى كانت ليلة من ليالي شوال، أحاط فيها العُوّاد من آل هاشم وبني زهرة بفراش آمنة، وهي لا تفتأ تسأل كل عائد منهم وعائدة: فيم كان فداؤه والموت منه وشيك؟ وفيم كان العرس المشهود ويد القدر تخط له لحده بيثرب، والمنايا تحث خطاها نحوه؟ وأغفت مجهدة من إعياء، وعيون الساهرين عليها.

ولم تطل غفوتها، أيقظتها منها انتفاضة مرهفة، وقد أحسّت خفقة حياة جديدة في أعماقها، فأشرق وجهها بنور الإلهام، وكأنها عرفت سرّ الذي كان: إن عبدالله لم يُفتدَ من الذبح عبثًا.

كانت مهلة، ما بين فدائه وموته، أودع فيها عروسه آمنة هذا الجنين الذى تحس نبض حياته في رحمها، والذي من أجله يجب أن تتجلد وتعيش.

ومن تلك اللحظة، أنزل الله سكينته عليها فطوت حزنها وشجنها، وبدأت تفكر في هذا الجنين الذي يعطي حادث الفداء تفسيره ومنطقه، ويجعل لوجودها بعد عبد الله، قيمة ومعنى.

مضت فترة الحمل والجزيرة العربية تموج بإرهاصات عن نبي منتظر حان زمانه، وما أَرتابُ في أن آمنة ألقت إليها كل سمعها وفكرها، فما نسيت قط أن زوجها هو الذي استُأثِر من دون بني عبد المطلب، صفوةِ العرب العدنانية، بمجد الفداء الذي لم يتكرر منذ افتدي جدهم الأعلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام.

وفي سمعها كذلك، صدى لم يغب من حكاية النساء اللائي عرضن أنفسهن على عبد الله يوم فدائه ـ وفيهن الكاهنة من خثعم، وأخت ورقة الذي قرأ الكتب وبشر بنبي منتظر ـ وكلامهن عن النور الذي انتقل من عبد الله إثر زواجه، والغرة التي ذهبت بها بنت وهب فلم تدع لغيرها من النساء في عبد الله مأربا.

ثم هي قبل هذا كله، سيدة من صميم البيت القرشي الذي يحظى بالسيادة في أم القرى، وينفرد بشرف الوظائف الدينية الكبرى في مثابة حج العرب ومهوى أفئدتهم.

ومن شأن النساء في هذه البيئة أن يرجون للأجنة في بطونهن، مجدا لم يكن لأحد من قبل، وعلى مدى شهور الحمل، لم تغب عن آمنة رؤاها فيما سيكون لابن عبد الله من شأن عظيم.

ولم تتخلّ عنها هواتف البشرى بأمومتها لهذا اليتيم الهاشمي، الذى لم يزل ينتقل من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا، وتلقى ميراث آبائه الهاشميين وأخواله الزهريين، واجتمع له عز المنافين (عبد مناف بن قصي) جده الثالث لأبيه، و(عبد مناف بن زهرة بن كلاب) جد أمه[1].

وكتاب السيرة النبوية ومؤرخو الإسلام الأولون، ينقلون أخبار تلك الهواتف والرؤى عمن لا يتهمون من الإخباريين والرواة.

وقد يشكك فيها بعض المحدثين، وقد يرفضها آخرون منهم رفضًا باتًا، فلا نجاول هؤلاء ولا هؤلاء، إلا أن يتكلموا باسم العصرية والعلم فيعدوها من الخرافات التى لا يقبلها.

ومن عجب أن ينكروا على آمنة، أم محمد، ما يجوز على سائر الأمهات من البشر، وكأن ليس من حقها أن تستشرف رؤاها لجنينها، حفيد المنافين وابن الذبيح المفتدى، إلى أقصى ما تسعف عليه بيئة يعرف تاريخُ العرب عزَّها وشرفها وعراقتها، وظروف فريدة حفت بهذا الجنين لم تعرف دنياه لها مثيلا.

وإنما الذي يرفضه العقل حقا، هو أن نجرد آمنة من بشريتها وأماني أمومتها، وكل الحوامل قبلها وبعدها عرفن ويعرفن الهواتف والرؤى في فترات الحمل، وإنما يتفاوت مدى الطموح فيها، بقدر ما تسعف عليه ظروف كل حامل، وتحتمله بيئتها وتستشرف إليه آمالها، من نبض حياته في كيانها، كانت تستمد طاقة الحياة، ومن هواتف البشرى في تأملاتها ورؤاها، كانت تجد ما يؤنس وحشتها ويهوّن عليها تجربة الحمل الأولى.

---

(١) نسب قريش: (١٤)، وجمهرة أنساب العرب: (١٢).

محمد ﷺ حملًا:

يقول ابن سعد فى طبقاته نقلا عن مصادره: كنا نسمع أن آمنة بنت وهب لما حملت برسول الله ﷺ كانت تقول: "ما شعرت أني حملت به، ولا وجدت له ثقلا كما يجد النساء، إلا أنى أنكرت رفع حيضتي، وربما كانت ترفعني ولا تعود.

وأتانى آت وأنا بين النائم واليقظان فقال: هل شعرت أنك حملت؟ فكأني أقول: ما أدري، فقال: إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها، وذلك يوم الاثنين، فكان ذلك مما عيّن عندي الحمل، ثم أمهلني حتى إذا دنا موعد ولادتي: أتاني ذلك الآتي، فقال: قولي أعيذه بالواحد الصمد من شر حاسد إذا حسد.

قالت: فكنت أقول ذلك لنسائي فقلن لي: علّقي (أي البسي) حديدًا في عضديك وفى عنقك، قالت: ففعلت، فلم يكن يترك علي إلا أيامًا ثم لا ألبث أن أراه قطع، فكنت لا أعلقه بعد ذلك"[1] .

وكان مما روي عن آمنة على ما جاء فى طبقات ابن سعد أنها أُمرت وهي حامل به ﷺ أن تسميه أحمد.

تقدّمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى. ولكن تذكر كتب السير والتواريخ أنها لم تكن تجد للحمل ثقلاً ولا وَحَمًا كبقية الحوامل. وفي ذلك تقول آمنة عن نفسها: "إني حملت به، فوالله ما حملت حملاً قط، كان أخفَّ عليّ منه، ولا أيسرَ منه، ثم أريت حين حملته خرج منّي نور أضاء منه أعناق الإبل ببصرى ـ أو قالت: قصور بصرى ـ ..."[2].

---

(١) معنى ذلك أن النسوة أشرن على آمنة، أن تتخذ ما اعتادوا اتخاذه من إجراءات ضد السحر كانوا يعلقوا حديدا على أذرعتهم، ولكن الله عز وجل كان يزيل هذا الحديد.

(٢) الهيثمي: مجمع الزوائد (٨/٢٢١)، ط دار الفكر، بيروت، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م. وأخرجه أحمد (١٧١٦٣) بلفظ «.... ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام» قال مخرجوها صحيح لغيره.

مولده ﷺ:

بعد طرد الأحباش أقبلت قريش على كعبتها المقدسة تطوف بها ملبية عابدة، وتجاوبت آفاق البلد الأمين بدعوات المصلين وتلبيات المحتفلين وأناشيد الشعراء. وآمنة في بيت عبد الله، تصغي إلى ما يبلغ سمعها من دعاء وهتاف، فتحسّ سكينة وغبطة: أن استجاب الله لها فلن تضع وليدها بعيدا عن الحرم الآمن.

بعد فترة قصيرة من هلاك أبرهة عامَ الفيل، ذاعت في أم القرى بشرى المولد. حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوما ـ وهو الأكثر والأشهر ـ [1]. واكتفى آخرون بأن المولد كان في عام الفيل.

جاءها المخاض في وقت السحر من تلك الليلة المقمرة، فأرهف شعورها بالترقب والتطلع، مع إحساس برهبة من تجربة الوضع التي طالما سمعت الأمهات يتحدثن عن آلامها ومخاطرها.

لكنها ما لبثت أن صرفت بالها كله إلى ما يغمر الدنيا حولها من نور بازغ، وصرفت سمعها كله إلى هواتف البشرى، فتجلدت للحظة الحاسمة. وما كاد نور الفجر يهل على الأفق، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل والدة من البشر. لكنه ﷺ «وقع معتمدًا بيديه على الأرض رافعًا رأسه إلى السماء»[2].

وأيا كان الحزن الذى حزنته آمنة على زوجها الذى لم تتمتع بصحبته إلا أياما معدودة، فلا بد أن يكون ميلاد هذا الصبي قد خفف أحزانها، وإذا كانت لم تحس إبان حمله بأيّ مشقة مما اعتاد النساء معاناته أثناء الحمل، فلا بد أن ولادته كانت أيسر من اليسر ذاته.

وكانت مكة حين ذاعت فيها بشرى مولد ابن عبدالله، ما تزال تحتفل بما أتاح

(١) الزرقاني: المولد: (١/ ١٣٠)، والنويري: نهاية الأرب (٦/ ٦٨) دار الكتب المصرية..

(٢) الهيثمي: مجمع الزوائد (٨/٢٢١)، ط دار الفكر، بيروت، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م.

الله لها من النجاة من أصحاب الفيل، من حيث لا تحتسب. فرأى القوم في مولد محمد آنذاك، آية تذكّر بأخرى، يوم اختير أبوه عبد الله قربانا لرب الكعبة، ثم افتدي بالإبل المائة.

وإن لم يتوقع أحد في مكة، أو في الدنيا كلها يومئذ، أن تلك الليلة المقمرة الغراء من ربيع الأول عام الفيل، التي ولد فيها ألوف وألوف من شتّى الأجناس والألوان، ومختلف الملل، والمذاهب ومتفاوت الطبقات والدرجات، قد خلدت وبوركت بمولد يتيم هاشمي في أم القرى، ابن امرأة من قريش تأكل القديد، يُصطَفى للنبوة فتكون رسالته ختام الأديان، وتغدو أقواله وأفعاله سنة وشريعة لملايين الناس على امتداد الزمان والمكان.

فلما تمّ لها الوضعُ بعثتْ إلى عبد المطلب عند الكعبة تخبره أنه ولد له غلام، وامتلأ قلب الشيخ سرورًا حين بلَغَه الخبرُ، فهذا الطفل الوليد يذكّره بولده الحبيب إلى نفسه، فنعم العوضُ هو عن أبيه، فأسرع إلى البيت ليطمئن على زوج ابنه، وأخذ طفلها بين يديه، وسار حتى دخل الكعبة، ورُوي عنه أنه أنشد أبياتا من الشعر جاء فيها:

الحمـد لله الـذي أعطانـي ... هـذا الغـلام الطيـبَ الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان ... أُعيـذه بالبيـت ذي الأركان
حيـن يكـون بُلْغَـة الفتيـان ... حـتى أراه بالـغ البنيان
أُعيـذه مـن كل ذي شـنان ... مـن حاسـد مضطـرب العنان
ذي همـة ليـس لـه عينـان ... حـتى أراه رافـع اللسـان
أنت الذي سـميت فـي القران ... في كتب ثابتة المثاني

أحمد مكتوب على البيان[1]

(١) الروض الانف (١/ ١٨٤).

هل قال عبد المطلب هذا الشعر حقا، أو وضعه على لسانه شاعر متأخر يحكي لسان حاله فى هذه المناسبة، مسألة لا تستطيع من امتحان النص أن تدفع نسبتها إليه، فأن يحمد الله فى أول الشعر فهو الذى سمى ابنه عبد الله، وأن يتمنّى للوليد الجديد الرفعة والسؤدد فذلك هو عين ما يُتوقع منه فى مثل هذا الظرف.

والأمر المحقق، أن عبد المطلب سعد بهذا المولود الجديد، ونحن نعلم كم يحب الأجداد فى الظروف العادية أحفادهم، حتى إنه لَيقولُ المثلُ: «أعَزُّ من الولد ولد الولد»، فما بالك إذا كان ولد الإنسان العزيز عليه قد فارق الحياة، وقد جاء هذا المولود يبعثه من جديد حيّا، الحق أن كل ما يقال وترويه كتب السيرة عن حب عبد المطلب له، هو من الحقائق التى تتفق وطبائعَ النفوس البشرية.

يكاد يُجمع المؤرخون: على أن ميلاد الرسول ﷺ كان في النصف الأول من شهر ربيع الأول، وفي عام الفيل، ويرجَّح أن ذلك كان في صبيحة الاثنين[(١)]،

(١) نقول: كونه يوم الاثنين لا شك في صحة ذلك. فقد أخرج مسلم في صحيحه، في كتاب الصيام رقم (١٩٧)، وأحمد: المسند (٥/ ٢٩٧)، والبيهقي: السنن الكبرى (٤/ ٢٩٣)، البيهقي: دلائل النبوة (١/ ٧١، ٧٢) وغيرهم عن أبي قتادة قال: جاء أعرابي فقال: يا رسول الله، ما تقول في صوم يوم الاثنين. فقال ﷺ: «ذاك اليوم الذي ولدت فيه، وأُنزل عليَّ فيه». وهذا كاف فلا نطيل. وكذا كونه عام الفيل، كما صح عن ابن عباس، وقيس بن مخرمة عند أحمد (٤/ ٢١٥)، والترمذي (٤/ ٥٨٩)، وابن هشام: السيرة (١/ ١٧١)، وابن كثير: البداية والنهاية (٢/ ٢٦١)، البيهقي: دلائل النبوة (١/ ٧٥)، وابن سعد: الطبقات (١/ ١٠١)، و«المستدرك» (٢/ ٦٠٣) وبمثل هذا جاء الحديث عن قبات بن أشيم، ومحمد بن جبر، وغيرهم، كما أخرج ذلك عنهم البيهقي: دلائل النبوة (١/ ٧٩). وأما الشهر، فهو ربيع الأول، على حد قول ابن إسحاق، كما عند ابن هشام: السيرة (١/ ١٧١). ولم نقف في ذلك على شيء صحيح مسند. ولكن تتابَعَ الناسُ عليه. ولذلك قال ابن الجوزي: اتفقوا على أن رسول الله ﷺ ولد يوم الاثنين في شهر ربيع الأول، عام الفيل. واختلفوا فيما مضى من ذلك الشهر لولادته على أربعة أقوال: أحدها: أنه ولد =

الموافق الثاني عشر من ربيع الأول قبل الهجرة النبوية بثلاثة وخمسين عامًا، وهو يوافق اليوم المكمل للعشرين من شهر نيسان إبريل سنة ٥٧٠ من ميلاد المسيح عليه السلام.

آيــات:

وقد صاحب هذا مجموعةٌ من الإرهاصات التي تشير إلى ما يكون من هذا الوليد بعد ذلك، وأهم ما ذكره أصحاب السير والتواريخ من هذه الأحداث:

١. تصدّع إيوان كسرى، وتساقط أربعَ عشرة شرفةً من شرفاته.
٢. انطفأت نيران الفرس التي يعبدونها، وكانت قد أوقد عليها ومنذ ألف عام لم تنطفئ.
٣. غاضت بحيرة ساوة، ولم يحدث لها هذا من قبل[(١)].

وقد يقف البعض من هذه الأمور موقع الشك، وهو موقف له وجاهته، وإن كان الذين يثبتونها لا يدّعون أنها حقائق، وإنما هي مرويات تاريخية، لا تؤخذ بصرامة منهج المحدثين، ثم إنه لا مانع عقلا منها، فأن يُكرمَ الله نبيَّه بإظهار أحداثٍ مصاحِبةٍ لميلاده أمرٌ ممكن.

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه فقه السيرة: إن هذا الكلام تعبير غلط عن فكرة صحيحة، فإن ميلاد النبي ﷺ كان حقًّا إيذانًا بزوال الظلم واندثار عهده واندكاك معالمه.

= لليلتين خلتا منه. الثاني: لثمان خلَوْنَ منه. الثالث: لعشر خلون منه. الرابع: لاثنتي عشرة خلت منه. ابن الجوزي: صفة الصفوة (١/ ١٢).

(١) ابن هشام: السيرة النبوية (ص١٦)؛ ابن كثير: البداية والنهاية (٢/٢٧٥).

وكان جند القرآن أعدلَ رجال وعاهم التاريخ، وأحصى فِعالَهم في تدويخ المستبدين وكَسْرِ شوكتهم، طاغيةً إثر طاغيةٍ، فلما أحبَّ الناسُ ـ بعد انطلاقهم من قيود العسف ـ تصويرَ هذه الحقيقة، تخيلوا هذه الإرهاصاتِ وأحدثوا لها الروايات الواهية، ومحمد ﷺ غنيٌّ عن هذا كله، فإن نصيبه الضخمَ من الواقع المشرف يزهّدنا في هذه الروايات وأشباهها[١].

ونحن نزيد على ما قاله الشيخ الغزالي فنقول: إن معظم الكتب الأصلية في التاريخ، والسيرة، وكتب السنة الصحيحة، لم تذكرْ هذه الإرهاصاتِ فيما ذكرت من سائر الإرهاصات والمعجزات التي رويت عن محمد ﷺ.

ومثل هذه الحوادث الخطيرة لا يمكن إغفالُها إذا وقعت، ولو أن أعداء الإسلام رأَوها لما أنكروها، بل كانوا يسجلونها في كتبهم التي أرّخوا فيها لتلك الفترة، ويقولون عنها: إنها ترجع إلى أسباب كونية وعواملَ طبيعية، ويحاولون أن يلتمسوا لها أيَّ تعليل يخرج بها عن إثبات الفضل لمحمد ﷺ ولدينه.

ولكن شيئًا من ذلك لم يكن، وبهذا يصبح واضحًا أن مثل هذه الروايات لا تحمل من أسباب القوة[٢]؛ ما يجعلنا نطمئن إليها، ونرجّح وقوعها.

وفي الأخير عندنا أن للمسلم، إذا كان ممن يؤمنون بما يروى عما حدث يوم ميلاد عيسى عليه السلام، وما صاحب غيره من الأنبياء والرسل والعظماء والأبطال، من خوارقَ وآيات، فإن كل ما يقال من هذا القبيل مصاحبا لميلاد الرسول ﷺ يجب أن يكون محل إيمانه وتصديقه.

فالرسول ﷺ هو أعظم الرسل والأنبياء بلا مراء، فإذا جاز أن يصحب ميلاد

---

(١) الغزالي: فقه السيرة، (٤٨).

(٢) نعم، لا تحمل أسباب القوة الإسنادية فنطمئن إليها، ولكن كذلك لا تحمل ما يجعلنا ننكرها، فليفهم.

أي منهم ظواهر وآيات خارقة للعادة، فإن نصيب الرسول ﷺ من ذلك يكون كبيرا وموفورا.

أما إن كان المسلمون، ممن يحبون أن يقيسوا الأمور على مألوف ما يعرفون فى أيامهم، فلا حرج عليهم، ولا تثريب إذا هم تحفظوا إزاء هذه الأقوال، فالقرآن لم يُشِرْ إلى شيء منها، ولم تأت بها الأحاديث الصحيحة المعتمدة.

تسمية المولود بمحمد:

كان لا بد لهذا المولود الجديد ـ كغيره من المواليد ـ من اسم، وتختلف الروايات فيمن أطلق على نبينا ﷺ هذا الاسم، ومن الذى سماه أحمد فقد مر بنا أن آمنة رأت فى منامها، أو لعلها سمعتْ هاتفا يهتف بها أن تسمي حملها حين يخرج إلى الحياة أحمد، وسنرى أن عبد المطلب هو الذى سيطلق عليه اسم محمد.

وقد ورد اسم أحمد فى القرآن مرةً واحدة فى سورة الصف، على لسان عيسى ابن مريم، إذ يقول: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

أما اسم محمد فقد ورد فى القرآن أربع مرات فى سورة آل عمران والأحزاب والفتح ومحمد:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[آل عمران: ١٤٤].

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾[الأحزاب: ٤٠].

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩].

﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢].

ونحن نرى فى تسمية الرسول ﷺ عند مولده بأحد هذين الاسمين أحمد ومحمد، ما يغني عن كل حديث آخر من حديث البشارات والإرهاصات أنه سيكون لهذا المولود الجديد دور عظيم فى حياة الإنسانية.

فقد سبق لنا أن ذكرنا: أن العرب قد اعتادوا أن يسمّوا أولادهم بأقسى الأسماء وأبغضها وأوحشها، أو أن تكون أسماءً تنسب إلى الأصنام، ولأول مرة في تاريخ العرب يسمعون باسم محمد. لقد حاول البعض أن يقولوا: إن ثلاثة غير سيدنا محمد قد سمّوا بهذا الاسم، وذكر بعضهم أنهم ستة.

وقد أنكرت قريش على عبد المطلب تسمية رسول الله بهذا الاسم الذي لا عهد لهم به وقالوا له: لم رغبت يا عبد المطلب عن أسماء أهل بيتك؟

فردّ عليهم عبد المطلب قائلا: أردت أن يحمده الله في السماء، ويحمده خلقه في الأرض.

وقد قال أهل اللغة في معنى محمد: كل جامع لصفات الخير، يسمى محمدا، قال بعضهم:

إليك أَبيتَ اللعنَ أَعْمَلْتُ ناقتي ... إلى الماجد القَرْمِ الكريم المحمد(١)

ونحن لا نملك أنفسنا من أن نقف كما قدمنا طويلا أمام هذه التسمية باعتبارها إلهاما لعبد المطلب أو لأمه آمنة لإطلاق هذا الاسم المشتق من الحمد على هذا المولود الجديد.

وهكذا يتوج اسمُ محمد هذا الحشدَ من الأسماء الكريمة غير العادية في البيئة العربية. فالأب عبد الله، والأم آمنة، والمرضعة حليمة السعدية، والحاضنة أم أيمن بركة.

وهكذا تتلاحق الصفات ابتداء من العبودية لله الحق والأمن والحلم واليمن والبركة، لتكون هي أخلاقَ النبوة وطابعَها وخصائصَها.

---

(١) نقلًا عن: إسلام محمود دربالة: رسول الإسلام محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، (ص٣١-٣٨).

وفي اليوم السابع لمولده ﷺ أمر جده عبد المطلب بجزور فنحرت، ودعا رجالا من قريش فحضروا وطعموا، وهنأوه بهذا المولود الجديد الذي يعيد ذكرى أبيه، ليكون نعم العوض والعون.

إلى بادية بني سعد:

جملة ما قيل: إنه أرضعه ﷺ تسعُ نسوة: أمه ﷺ آمنة، أرضعته سبعة أيام. وثويبة مولاة أبي لهب، أرضعته ساعةَ وُلدَ. وأرضعته امرأة من بني سعد غير حليمة. كما أرضعته ﷺ ثلاث نسوة من بني سليم مرّ عليهن، وأرضعته أم فروة. وقيل: إنه ﷺ قد رضع من خولة بنت المنذر(١).

ومن حاضناته: الفاضلةُ الجليلة أمُّ أيمن، وكان ﷺ قد ورثها من أبيه، وقيل أيضًا: إنها كانت دايته، وقد أسلمت أم أيمن ﵂ في أول ظهور الإسلام، وهاجرت إلى الحبشة، وإلى المدينة، وكان الرسول ﷺ يقول: «أم أيمن أمي بعد أمي» وزوّجها من حِبِّه زيدِ بن حارثة، فولدت له أسامة بن زيد ﵁.

تردد الطفل المبارك على المرضعات السابقات إلى أن تأتي المرضعات القادمات من البادية يلتمسن تربية أولاد الأشراف من قريش، والأعرابياتُ اللاتي يقصدن مكة لهذه الغاية هن طالبات رزق ويسار، وكان من عادة هؤلاء المرضعات أنهن يُعرضن عن اليتامى؛ لأنهن كنّ يرتجين البرّ والصلة من الآباء.

أمّا اليتامى فكان الرجاء فيهن قليلا؛ ولذلك لم تُقبِل واحدة من أولئك المراضع على محمد ﷺ، فزهِدْنَ فيه ليُتمه، ولم يكن ذا ثراء يكافئ نسبَه الشريف في البيت الهاشمي القرشي، وقد مات أبوه في مقتبل العمر قبل أن يتأثل لنفسه مالا،

---

(١) ابن سعد: الطبقات (١/ ١٠٨ ١٠٩) والبيهقي: دلائل النبوة (١/ ١٣١) وما بعدها، السهيلي: الروض الأنف (١/ ١٨٢) وما بعدها، والحلبي: السيرة الحلبية (١/ ١٣٩) وما بعدها، ابن كثير: البداية والنهاية (٢/ ٢٧٣) وما بعدها.

ولم يترك لولده اليتيم وأمه، سوى جاريته الحبشية بركة (أم أيمن) وقطعة يسيرة من الإبل والغنم.

وأحزن آمنةَ أن ترى المراضع يوشكن أن يعُدْن إلى البادية زاهداتٍ في وليدها الشريف اليتيم، مؤْثِرات عليه أطفالَ الأحياء ممن يرجى منهم الخير الوافر.

وكانت حليمة السعدية إحدى القادمات إلى مكة، تبتغي العودة برضيع، تستعين على العيش بحضانته، ولم يُرضِ طموحَها أولَ الأمر أن تأخذ طفلا يتيما، إلا أنها لم تجد طلبها، واستحيت أن تعود صِفْرَ اليدين، فرجعت إلى آمنة، وأخذته.

فما إن أخذت الطفل حتى تحوّل عجافُ سنيها إلى بركة، واستمِعْ إليها وهي تقول: «كل صواحبي أخذت رضيعًا، فلما لم أجد غيره، رجعت إليه وأخذته، والله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره.

فقلت لصاحبي: والله لآخذنّ هذا اليتيم من بني عبد المطلب، فعسى الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحبي ولا آخذ شيئًا، فقال: قد أصبت. قالت: فأخذته، فأتيت به الرَّحْل، فوالله ما هو إلا أن أتيت به الرَّحل، فأمسيتُ، أَقْبَلَ ثدياي باللبن، حتى أرويته، وأرويت أخاه.

وقام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها، فإذا هي حافل[1] فحلبها، فأرواني وروي، فقال: يا حليمة، تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمنّ، قالت: فبتنا بخير ليلة، شِباعًا، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا»[2].

(١) حافل: ضرعها ممتلئ باللبن.
(٢) في بعض المصادر: سنتيه، وفي بعضها سنًّا.

ولله در القائل:

فــازت حليمة من رضاع محمد ... خير الورى طــرًّا بأعظم مقصد
نالت من البركات حين مضت به ... والسـعد قارنها بطلعـة أحمد
قــد در منها الثدي حين رضاعه ... أَمِنَـتْ به مـن كل جهد مجهِد
وأتانُهـا للركب قد سـبقت بها ... فرحـا وتيها بالرسـول الأمجد
أغنامهـا صــارت شـباعا كلما ... سـرحت تجود لها بـدَرٍّ مزبد
ورأت من الخيرات وهي تحفّها ... والناس في مَحْـلٍ وعيشٍ أَنْكَدِ
نالـت بـه كلَّ المسـرة والهنا ... فهو الذي قد سـاد كل مسـوَّدِ

قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيرًا، حتى قدمنا والبلاد سنة شهباء[1]، ولقد كان رعاتنا يسرحون ثم يروحون، فتروح أغنام بني سعد جياعًا، وتروح غنمي بطانًا[2] حُفَّلًا[3] فنحلب، ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث ابن عبد العزى، وغنم حليمة تروح شباعًا حُفَّلًا، وتروح غنمكم جياعًا، ويلكم اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعًا كما كانت، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشبّ شبابًا ما يشبُّه أحد من الغلمان، يشب في اليوم شباب السنة، فلما استكمل سنتين أقدمناه مكة، أنا وأبوه، فقلنا: والله لا نفارقه أبدًا ونحن نستطيع، فلما أتينا أمه، قلنا: والله ما رأينا صبيًا قطُّ أعظمَ بركة منه، وإنا نتخوف عليه وباء[4] مكة وأسقامها، فدعيه نرجع به حتى تبرئي من دائك، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به[5].

(١) شهباء: أي مجدبة.
(٢) بطانا: الممتلئة البطون.
(٣) حفّلا: كثيرات اللبن.
(٤) الوباء: المرض.
(٥) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ٣٠٤).

www.almoslih.net

شق الصدر للمرة الأولى:

أقام محمد ﷺ في بني سعد إلى أن بلغ الخامسة من عمره، ينهل من هذا الجو الطلق روحَ الحرّية والاستقلال النفسيّ، ويتعلّم من هذه القبيلة لغة العرب نقية مصفّاة، حتى لقد كان يفخر بهذا بين أصحابه، فيقول: «أنا أعربكم، أنا قرشيّ واسترضعت في بني سعد بن بكر»[1].

وفي هذه الأثناء وقعت له حادثة «شق الصدر» ـ كان عمره ثلاث سنين وقيل أربعا ـ، وتحكي حليمة عن هذه الكرامة الإلهية لنبيّه ﷺ فتقول: "فبينا هو يلعب وأخوه يومًا خلف البيوت، يرعيان بُهْمًا[2] لنا إذ جاءنا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: أدركا أخي القرشي، قد جاءه رجلان فأضجعاه فشقا بطنه، فخرجنا نحوه نشتد، فانتهينا إليه وهو قائم منتقعٌ لونُه، فاعتنقه أبوه واعتنقتُه، ثم قلنا: مالك أي بني؟ قال: «أتاني رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعاني ثم شقا بطني، فوالله ما أدري ما صنعا».

قالت: فاحتملناه فرجعنا به، قالت: يقول أبوه: والله يا حليمة، ما أرى هذا الغلام إلا قد أُصيب، فانطلقي فلنردَّه إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف عليه. قالت: فرجعنا به إليها، فقالت: ما ردَّكما وقد كنتما حريصين عليه؟ قالت: فقلت: لا والله إنا كفلناه وأدينا الحق الذي يجب علينا فيه. ثم تخوفت الأحداث عليه، فقلت: يكون في أهله، قالت: فقالت أمه: والله ما ذاك بكما، فأخبراني خبركما وخبره.

قالت: فوالله ما زالت بنا حتى أخبرناها خبره، قالت: فتخوفتما عليه؟ كلا والله، إن لابني هذا لشأنًا، ألا أخبركما عنه؟ إني حملت به فلم أر حملاً قط كان

---

(١) انظر: أبو الربيع الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء (١/ ١٢٠).

(٢) البهم: الصغار من الغنم.

أخف ولا أعظم بركة منه، ثم رأيت نورًا كأنه شهاب خرج من حين وضعته، أضاءت لي أعناق الإبل ببصرى، ثم وضعته، فما وقع كما تقع الصبيان، وقع واضعًا يده بالأرض رافعًا رأسه إلى السماء، دعاه والحقا بشأنكما"[1].

وتركتْ هذه السنوات الخمس في نفسه أجملَ الأثر وأبقاه، كما بقيت حليمةُ وأهلها موضع محبّته وإكرامه طوال حياته، ولقد أصابت الناسَ سَنَةٌ بعد زواجه من خديجة بعامين؛ فجاءت محمدا ﷺ حليمةَ؛ فعادت من عنده ومعها من مال خديجة بعير يحملون الماء عليه، وأربعون رأسا من الغنم.

وكانت كلما أقبلت عليه مدّ لها طرف ردائه لتجلس عليه، تأدّبا معها واحتراما لأمومتها له، وكانت أخته الشيماء بين أسرى بني هوازن بعد حصار الطائف، فلما جيء بها إلى محمد ﷺ عرفها، وأكرمها وردّها إلى أهلها كما رغبت.

وتروي كتب السنة والسيرة تكرر وقوع هذه الحادثة للرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج. فقد روى الإمام أحمد والإمام مسلم، والبخاري[2] عن الرسول ﷺ أنه قال: «فُرِجَ سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريلُ ففرج صدري، ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بَطَسْتٍ من ذهب مملوء حكمة وإيمانًا، فأفرغه في صدري ثم أطبقه».

ويختلف رأي العلماء في معنى شق الصدر، فيذهب البعض منهم إلى أنه شق حقيقي، وأنه معجزة وقعت مرتين: مرة قبل البعثة، ومرة بعدها، فأما قبل البعثة

---

(١) أبو يعلى: مسند أبي يعلى برقم (٧١٦٣)، والهيثمي: مجمع الزوائد (٨/ ١٦٠)، وجاء صريحا في رواية أبي نعيم عند ابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٢٩٩)، وقال عنه الذهبي في سيرته، (ص ٤٨): وهو صحيح. وانظر دلائل النبوة (١/ ٣٦)، الحاشيتين (١، ٢)، وانظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان (٢٦١) وفيه: (قال أنس: وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره).

(٢) "صحيح البخاري" (١/ ٩٧، ٢/ ١٩١، ٤/ ١٦٥)، و"صحيح مسلم" كتاب الإيمان (٢٦٣)، "مسند أحمد" (٥/ ١٢٢، ٥/ ١٤٣).

فلكي تكون إرهاصًا للنبوة، وبشيرًا بما يُنتظر لمحمد ﷺ من مركز كبير ومقام كريم، وأما بعد البعثة فلِكَي تكونَ معجزةً تضاف إلى المعجزات الأخرى التي كرم الله بها نبيه ﷺ والتي تؤيد صدقه في دعواه[1].

ويذهب البعض الآخر إلى أن حادث شق الصدر لم يقع حقيقة، وإنما يقصد منه ما يفهم من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] فهي بذلك تكون إشارة إلى تطهير الرسول ﷺ من الشوائب التي توجد في نفوس الناس، والسموِّ به إلى درجة عالية من الطهارات النفسية والخُلُقية.

وممن يرون هذا الرأي ـ من علماء هذا العصر ـ الشيخ محمد الغزالي: إن بشرًا ممتازًا كمحمد ﷺ لا تدعُه العناية غرضًا للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس.

فإذا كانت للشر موجات تملأ الآفاق. وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها، فقلوب النبيين ـ بتوَلّي الله لها ـ لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها، وبذلك يكون جهد المرسلين في متابعة الترقي لا في مقاومة التدلي، وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطهر منه، فقد عافاهم الله من لوثاته[2].

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»[3].

(١) الصحيح أن شق الصدر حصل ثلاث مرات، كما جزم بذلك الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٧/ ٢٠٤).

(٢) الغزالي: فقه السيرة، (ص ٤٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في "صفات المنافقين" (٦٩)، وأحمد في "المسند" (١/ ٣٨٥)، (١/ ٤٠١)، وانظر أطرافه في: البيهقي: دلائل النبوة، (٧/ ١٠٠)، وابن كثير: البداية والنهاية (١/ ٥٢)، ابن كثير التفسير (٤/ ٣٦١)، وغير ذلك.

ثم يقول: ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التي أضفاها الله على محمد ﷺ فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الإنساني ومفاتن الحياة الأرضية.

وقد أورد الخازن في تفسيره القصة الأولى ـ أيام الرضاعة ـ عند تفسيره لقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٣].

وشرح الصدر الذي عنته الآيات ليس نتيجة جراحة يجريها ملك أو طبيب! ويحسُنُ أن نعرف شيئًا عن أساليب الحقيقة والمجاز التي تقع في السُّنّة.

عن عائشة قالت: اجتمع أزواج النبي ﷺ عنده ذات يوم قلن: يا رسول الله أَيُّنا أسرع بك لحوقًا؟ قال: «أطولكن يدًا، فأخذن قُصبًا فذرعناها، فكانت سودة أسرعَنا به لحوقا، فعرفنا بعدُ أنما كان طولُ يدها من الصدقة»[1].

ونحن نقول: إن محمدًا ﷺ لم تدعه العناية غرضًا للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس، وإنه لو لم يقم الملكان بشق صدره لما كان أبدًا غرضًا للوساوس، بل لكان مثله كمثل جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده وطهر قلوبهم من الوساوس دون أن تشق صدورهم.

وإنما أراد الله بهذه الحادثة الفريدة في نوعها أن تتوجه الأنظار والقلوب إلى محمد ﷺ في طفولته وبعد بعثته. ويعرف الناس عنه أن عناية خاصة تحيط به وتميّزه عن غيره.

أخرجه أحمد رقم (٢٤٨٩٩)، وأخرجه مسلم (٢٤٥٢) وفيه: (فكانت زينب أطولنا يدا لأنها كانت تعمل بيدها وتصدّق).

(١) رواه الإمام أحمد في المسند رقم (٢٤٩٤٣).

وأن العناية التي أحيت الموتى، وأبرأت الأكمه والأبرص على يدي المسيح عليه السلام هي العناية التي شقت صدر محمد ﷺ، ثم أرجعته في لحظات إلى حالته الطبيعية. وهذا شأن المعجزات التي لا تخضع ولا ترتبط بالأسباب العادية.

ولا ينبغي بأي حال أن تُحملَ القصة على أنها من الأساليب المجازية، لأن سياق القصة والتعبير بلفظ: «جاءني رجلان عليهما ثياب بيض»، وكلمة «فأضجعاني وشقّا بطني».

وفرار أخيه من الرضاعة فزعًا مما رأى، ومجيء حليمة هي وزوجها بعد أن أخبرهما ولدهما بما أصاب أخاه محمدًا ﷺ، ومقابلتهما له ﷺ وهو منتقع لونه، وحكايته للقصة مرة ثانية بنفس هذه الألفاظ، كل ذلك يجعل الحقيقة في هذه القصة واضحة لذي عينين، ويبعد بها عن الأسلوب المجازي بُعدَ المشرقين.

وإذا كان بعض المستشرقين ينكر هذه الحادثة؛ لأنها تعتمد على رواية طفلين لا يصح الأخذ بقولهما، فإننا نرى أن رواية الأطفال كثيرًا ما تكون بعيدةً عن الكذب والاختلاق أكثر من رواية الرجال.

ومع ذلك فقد تحدث الرسول ﷺ عن هذه الحادثة بعد البعثة، حينما كان يسترجع ذكريات الطفولة ويقصها على أصحابه، وأخبر عن المرة الثانية التي وقعت له في ليلة الإسراء والمعراج[1]. سيأتي الحديث عنها.

ومن المعلوم أنّ الصبي العادي يتحمّل الخبر صغيرا، فإن أدّاه كبيرا كفى ذلك في اعتبار ما يرويه، فكيف بصبي سيختاره الله بعد بلوغه أربعين سنة خاتم النبيين عليهم السلام.

(١) الغزالي: فقه السيرة، (ص ٤٩-٥٠).

وإذن فالرأي الذي نرتضيه هو أن حادث شق الصدر قد وقع بطريقة حسّية، وأنه من الإرهاصات التي تبشر بنبوة محمد ﷺ، وتسلط الأضواء عليه قبل النبوة، إذ ليس هناك ما يمنع من ذلك، ما دمنا نؤمن بالعناية الإلهية التي تصاحب الأنبياء، منذ فجر حياتهم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

أمضى محمد ﷺ طفولته كبقية الأطفال في البادية، إذا كان له عمل أو لهوٌ فهو في رعي الأغنام وغيرها.

يؤكد ذلك ما جاء في حديث عن النبى ﷺ قال فيه: «ما من نبي إلا وقد رعي الغنم، قال وأنا. فقال أصحابه: وأنت؟ قال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[1].

أما كيف أن إرضاع حليمة السعدية له من الحقائق التى لا يمارى فيها، فذلك لأنها ظلت على ظهر الحياة بعد أن كبر، فكانت تفد عليه فكان يكرمها على رؤوس الأشهاد، ويقول عنها: أمي، أمي.

جاء في طبقات ابن سعد: أن حليمة السعدية وفدت على رسول الله ﷺ بعد أن تزوج خديجة، فتشكّت جدب البلاد وهلاك الماشية، فكلم رسول الله ﷺ خديجة، فأعطتها شاة وبعيرا هادئا لتركب عليه وانصرفت إلى أهلها[2].

وروى محمد بن المنكدر أن امرأة استأذنت على النبي ﷺ، وكانت قد أرضعته، فلما دخلت عليه قال: أمي، أمي، وعمد إلى ردائه فبسطه لها فقعدت عليه[3]. وقد ظل مِن بعدِه أبو بكر وعمر يكرمانها، ويجزلان لها العطاء.

وأما أن رسول الله ﷺ قد أمضى طفولته بالفعل في قبيلة هوازن، أو بالأحرى في أحد فروعها (سعد بن بكر)، فسنجد تأكيد ذلك، عندما تحارب هوازن رسولَ الله ﷺ بعد فتح مكة، وتدور عليهم الدائرة كما سنرى.

(١) صحيح البخاري (٢٢٦٢).
(٢) طبقات ابن سعد (١/١١٣).
(٣) طبقات ابن سعد (١/١١٤).

فلا يجدون ما يستشفعون عنده به ليرد عليهم آلَهم وذويهم الذين وقعوا في الأسر، إلا أن يذكّروه بقرابتهم له في الرضاعة، ويستجيب الرسول ﷺ لندائهم، ويعاونهم على ردِّ نسائهم وأولادهم إليهم.

فلا مراء أو شبهة إذن، في واقعة ذهاب الرسول ﷺ في طفولته إلى البادية، وأن التي أرضعته هي حليمة السعدية، من قبيلة سعد بن بكر بن هوازن ـ ولا مراء أو شبهة، في أن ذلك كان مصدر خير وبركة لحليمة السعدية وقبيلتها، فقد ظلت هذا البركة تحوطها وترعاها.

والأثر الوحيد لإمضاء الرسول ﷺ أيامَ حياته الأولى في البادية يتجلى في الشيء الوحيد الذي يمكن لطفل أن يتعلمه ويعيه وهو اللغة، وقد كان رسول الله ﷺ يقول: «أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر»[1].

(١) جامع الأحاديث (٤٧٣٩) وقال: أخرجه ابن سعد عن يحيى بن يزيد مرسلاً.

ابتِـلاءٌ ومُعَـاناةٌ

كفالة جدّه عبد المطلب:

عاد محمد ﷺ إلى مكة بعد تلك الأعوام الخمسة التي قضاها في البادية في ديار بني سعد، فوجد أمّا كريمة حبست نفسها عليه، وجدًّا مَهيبا، يلتمس بطلعته العزاء والسلوى عن ابنه الذي مات شابا، ولكن شاء الله ـ ولحكمة يعلمها ـ أن يفتقد هذا الولد الحنان والعطف الذي كان يتلقاه منهما.

فما هو إلا عام واحد قضاه محمد ﷺ مع أمه آمنة، وبلغ السادسة من عمره، فرأت آمنة وفاء لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره وتزور أهلها، فأعدّت العدة، وأخذت معها طفلها وجاريتها أم أيمن التي خلّفها عبد الله.

وقامت بهذه الزيارة، وأعلمت وليدها الكريم البيت الذي مات أبوه فيه، والمكان الذي دفن به؛ فكان ذلك أوّل معنى لليُتم انطبع في نفسه، وهو في ذلك العمر الصغير.

وقد ظلت الزيارة لدى أخواله قريبا من قبر أبيه قرابة الشهر، ثم هموا بالعودة إلى مكة، فبينما هم في الطريق، وعند منطقة الأبواء توفيت آمنة وتركته وحيدا، ورجعت به أم أيمن إلى مكة حزينا لفقد أمه[1].

لقد كان منذ أيام قلائل يستمع إلى أمه، وهي تقص عليه زفرات الألم لفقد أبيه، وهو ما يزال جنينا، وتُريه قبر أبيه، وها هو ذا قد رأى بعينيه أمّه تذهب كما

(١) ابن هشام: السيرة (١/١٦٨).

www.almoslih.net

ذهب أبوه، وتدع جسمه الصغير يحمل همّ اليتم كاملا، ليعود وحده مع أم أيمن، لتكونَ له حاضنة بعد أمه آمنة، وكان ذلك في العام السادس من عام الفيل.

وانتقل إلى جده عبد المطلب الذي حباه ورعاه رعاية خاصة وكان يؤثره على بَنيه، لما كان يلمح فيه من أمارات العظَمة ودلائل النبوة، وبما كان لمحمد من جاذبية خاصة تدفع من يراه إلى حبه، وكانت هذه العظمة والجاذبية تزداد وضوحا كلما شب وترعرع.

وقد ثبت مما رواه الصحابة أن محمدا ﷺ كانت له جاذبية غريبة، فكانوا يحبونه حبا لا يستطيعون مقاومته، ولا يعصون له أمرا.

وقد روي: أن قريشا تتابعت عليها سِنُو جدب في حياة عبد المطلب، فارتقى هو ومن حضره من قريش جبل أبي قبيس ومعه ـ محمد ﷺ ـ فقام عبد المطلب واعتضده ـ ﷺ ـ فرفعه على عاتقه، وهو يومئذ غلام صغير، فقال: أيفع[1] أو قَرُبَ، ثم دعا، فسُقوا في الحال.

وكان عبد المطلب يأسى لمصير هذا الغلام كثيرا، فلم يتركه إلى وحدته، وشعر تجاهه بحنين خاص، فآثر أن يصحبه في مجالسه العامة.

ويذكر الرواة من مظاهر هذا العطف والحنان: أن عبد المطلب كان له فراش في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه، ولا يجرؤ أحد أن يجلس عليه إجلالًا له واحترامًا.

وكان محمد ﷺ يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عن فراش جده، فيقول عبد المطلب حين يرى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لشأنًا. ويجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسرّه ما كان يصنع[2].

(١) أيفع: أي ارتفع.

(٢) السهيلي: الروض الأنف (١/ ١٩٥)، وابن كثير: البداية والنهاية (٢/ ٢٨١).

ومعنى ذلك أن همة الرسول ﷺ ولدت معه يوم ولد، فمنذ طفولته ونفسه مهاجرة الى معالي الأمور ومكارم الخلق، لا يرضى بالدون ولا يهوى السفاسف، بل هو الطَّموح، والسبّاق المتفرّد، والمبرِّز المحظوظ.

ومع ذلك كله فقد بقيت ذكرى اليتم أليمة عميقة في نفسه ﷺ، حتى وردت في القرآن إذ يذكر الله نبيه بالنعمة عليه فيقول: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨].

وزاد الإحساس باليتم أكثر؛ فسرعان ما توفي جده عبد المطلب في العام الثامن من عام الفيل، فلم يعمر بعد وفاة آمنة أكثر من عامين، ومحمد ﷺ ما يزال في الثامنة، ويتجدد حزنه ﷺ، لموت جدّه ويشعر معه بحزن مضاعف، وفقد للرعاية[1].

وقد فزع ﷺ لفراق جده، وامتلأت نفسه بالحزن العميق حتى لقد لفَتَ هذا الحزن أنظار الناس، وهم يشيّعون عبد المطلب إلى مقره الأخير، حيث كانوا يرون محمدًا ـ وهو الطفل الصغير ـ يمشي في جنازة جده مطرِق الرأس، موزع الفكر، دائمَ البكاء[2].

ولكن الله ـ تعالت حكمته ـ أراد لمحمد ﷺ هذا اليتم المبكر، ليكون هو الذي يحوطه بعنايته، ويكمله بما يرضى له من الأخلاق والآداب؛ وليسبغ عليه من آيات فضله ما يجعله آية للناس، وأنموذجا حيا للبشر الكامل، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، وصنعه فأتقن صنعه، وأعده لما أراد به من الكرامة؛ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

(١) ابراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، (ص ٥٦).

(٢) أخرج ابن سعد من وجه ضعيف (١/ ١١٩) «أنه ﷺ سئل: أتذكر موت عبد المطلب؟ قال: نعم، أنا يومئذٍ ابن ثماني سنين». وقالت أم أيمن: رأيته يبكي خلف سرير عبد المطلب.

www.almoslih.net

في كفالة عمه أبي طالب:

في سنة ثمان من الفيل آلت كفالته ﷺ إلى عمه أبي طالب، فقد نظر إليه أبوه عبد المطلب، أنبل إخوته وأكرمهم وأقربهم إليه ﷺ، فقد كان ابنَ أخيه من أمه وأبيه، فأمهما هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية، وهي التي أنجبت أيضًا جميع عماته ﷺ.

أما بقية إخوته، فقد كانوا لأمهات أُخَر، فهم إخوة من الأب فقط، فعهد إليه عبد المطلب بكفالته من بعده[1].

وقد عطف أبو طالب على ابن أخيه اليتيم، وأحبه كحبّ عبد المطّلب له. وكان يجد فيه من النجابة والذكاء والبرّ وطيب النفس ما يزيده به تعلقا أحبّه حتى كان يقدّمه على أبنائه، فنشأ بينهم وكأنه منهم.

ووجد محمد ﷺ في عمه العوض عن جده وأبيه، ولا عوض عن الأم!، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه.

وصبّ به أبو طالب صَبابة لم يصبّ مثلها بشيء قط، وكان يخصه بالطعام، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعًا أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا.

فكان إذا أراد أن يغدِّيهم قال: كما أنتم حتى يحضر ابني، فيأتي رسول الله ﷺ، فيأكل معهم، فكانوا يفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك، وكان الصبيان يصبحون رمصًا شعثًا[2] ويصبح رسول الله ﷺ دهينا كحيلا[3].

(١) أبو فارس: السيرة النبوية، (ص١٠١).
(٢) الرمص: ما نسميه "العماص" وهو إفراز العين، الشعث: الوسخ.
(٣) دهينا: أي طيب الرائحة أكحل العينين.

روي أن أبا طالب قال لأخيه العباس: "ألا أخبرك عن محمد بما رأيت منه؟ فقال بلى.. فقال إني ضممته إلي، فكنت لا أفارقه ساعة من ليل ولا نهار، ولا أأْتمن عليه أحدا.. إني كنت أنوّمه في فراشي.

فأمرته ليلة أن يخلع ثيابه وينام معي، فرأيت الكراهة في وجهه، ولكنه كره أن يخالفني.. وقال ياعمّاه، اصرف وجهك عني حتى أخلع ثيابي، إذ لا ينبغي أن ينظر أحد إلى جسدي، فتعجبت من قوله، وصرفت بصري حتى دخل الفراش.

فلما دخلت معه الفراش إذ بيني وبينه ثوب، والله ما أدخلته الفراش، فإذا هو في غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غُمِسَ في المسك، فجهدت لأنظر إلى جسده فما كنت أرى شيئا.

وكثيرا ما كنت أفتقده من فراشي، فإذا قمت لطلبه ناداني: ها أنا يا عم فارجع، ولقد كنت كثيرا ما أسمع منه كلاما يعجبني، وذلك عند مضي بعض الليل.

وكنا لا نسمّي على الطعام والشراب، ولا نحمد بعده. وكان يقول في أول الطعام: باسم الله الأحد، فإذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله. فتعجبت منه. ثم لم أر منه كذبة ولا ضحكا ولا جاهلية ولا وقف مع صبيان يلعبون"[1].

أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: "قدمت مكة وهم في قحط شديد، فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادي وأجدب، فهلمّ فاستسق لنا، فخرج أبو طالب، ومعه غلام كأنه شمس ضحى، تجلّت من سحابة قتماء وحوله أغيلمة[2].

فأخذه أبو طالب وألصق ظهره إلى الكعبة، ولاذ الغلام بأصبعه[3] وما في السماء قزعة أي قطعة من السحاب ـ فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق

(١) راجع تفسير الفخر الرازي (٥٦٨/٦) وما بعدها.
(٢) جمع غلام صغير.
(٣) أي: أشار بأصبعه إلى السماء تضرعا.

واغدودق، وانفجر الوادي، وأخصب النادي»[١].

وبهذا يكون أبو طالب قد رأى آية الاستسقاء من محمد ﷺ، وهو غلام صغير، مرتين، مرةً في حياة أبيه عبد المطلب، وتلك المرة؛ مما أطلق لسانه بقصيدة تزيد على ثمانين بيتا من الشعر، في مدح محمد ﷺ. ذكرها ابن إسحق كاملة، ومنها:

وأبيضُ يُستسـقى الغمام بوجهه ... ثِمالُ[٢] اليتامى عصمةٌ للأرامل[٣]

يلوذ بـه الهُلّاك من آل هاشـم ... فَهُـم عنده في نعمـة وفواضل

وكان أبو طالب توضع له وسادة بالبطحاء مثنية يتكئ عليها، فجاء النبي ﷺ، فبسطها ثم استلقى عليها، قال فجاء أبو طالب فأراد أن يتكئ عليها فسأل عنها فقالوا: أخذها ابن أخيك، فقال: وصل البطحاء أن ابن أخي هذا ليحس بنعيم[٤]. أي سيكون له شأن[٥].

شق الصدر للمرة الثانية:

في العام العاشر من الفيل ولما كان محمد ﷺ ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر، فقد روى الإمام أحمد وابن حبان، والحاكم وابن عساكر عن أبيّ بن

(١) ابن عساكر: .
(٢) الثمال بكسر الثاء الغياث والملجأ.
(٣) ما نفهم منه الحاجة والضياع.
(٤) رواه أحمد (٢١٢٦١).
(٥) رواه أحمد (٢١٢٦١) قال مخرجوه: إسناده ضعيف، وأخرجه برقم (٢١٢٨٨) من حديث أبي في حادثة الإسراء والمعراج بلفظ آخر، قال مخرجوه: إسناده صحيح. ورواه جمع من أصحاب يونس عنه، فجعلوه من مسند أبي ذر .. أخرجه البخاري تعليقا (١٦٣٦) و(٣٣٤٢) ومسلم (١٦٣) .

كعب: أن أبا هريرة ﷺ، كان جريئا على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره قال: يا رسول الله، ما أول ما رأيت في أمر النبوة، فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال: «لقد سألتَ أبا هريرة. إني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهُر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ نعم.

فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إليّ يمشيان، حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مسًّا.

فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه.

فهوى أحدهما على صدري ففلقه، فيما أرى بدون دم أو وجع، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي خرج يشبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى.

فقال: اغدُ واسْلَمْ.

فرجعت بها أَغدو رقة على الصغير، ورحمة على الكبير».

حياة الكدح:

أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيمًا، تتولاه عناية الله وحدها، بعيدًا عن الذراع التي تُمعِن في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه، حتى لا تميل به نفسه إلى مجد المال والجاه، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة، فيلتبس على الناس قداسة النبوّة بجاه الدنيا، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول إلى الثاني[١].

وكانت المصائب التي أصابته ﷺ منذ طفولته، كموت أمه، ثم جدِّه، بعد أن حُرِمَ عطف الأب، وذاق كأس الحزن مرة بعد مرة.

(١) انظر: البوطي: فقه السيرة، (ص٤٦).

www.almoslih.net

كانت تلك المحن، قد جعلته رقيق القلب مرهف الشعور، فالأحزان تصهر النفوس، وتخلّصها من أدران القسوة والكبر والغرور، وتجعلها أكثر رقة وتواضعًا.

لقد كان أبو طالب مُقلاًّ في الرزق، فعمل ﷺ برعي الغنم مساعدةً منه لعمه، فقد أخبر ﷺ عن نفسه الكريمة، وعن إخوانه من الأنبياء: أنهم رعوا الغنم، أما هو فقد رعاها لأهل مكة وهو غلام وأخذ حقه عن رعيه.

ففي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبيا إلا راعي غنم. قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا؛ كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط. قال سويد: يعني كل شاة بقيراط»[١] وقيل: قراريطُ: جبلٌ بمكة.

ويقول: «بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد»[٢].

إن رعي الغنم كان يتيح لمحمد ﷺ الهدوء الذي تتطلبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصحراء، ويتيح له التطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل، وظلال القمر ونسمات الأشجار.

يتيح له لونًا من التربية النفسية من الصبر والحلم والأناة، والرأفة والرحمة، والعناية بالضعيف حتى يقوى، وزمّ قوى القوي حتى يستمسك للضعيف ويسيرَ بسيره، وارتيادَ مشارع الخصب والري، وتجنّبَ الهلكة ومواقع الخوف من كل ما لا تتيحه حياة أخرى، بعيدة عن جو الصحراء وهدوئها، وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف[٣].

(١) انظر: صحيح البخاري (٢٢٦٢)، ومسلم (٢٠٥٠)، وهذا لفظ ابن ماجه، انظر: صحيح ابن ماجه للعلامة الألباني رقم (١٧٤٥).
(٢) انظر: السلسلة الصحيحة للعلامة الألباني رقم (٣١٦٧).
(٣) علي الصلابي: السيرة النبوية (٤٦/١).

وتذكرنا رعايته للغنم بأحاديثه ﷺ التي توجه المسلمين للإحسان للحيوانات[١]، فكان رعي الغنم للنبي ﷺ دُرْبةً ومرانًا له على سياسة الأمم، لما يعوّده رعيها على تخلّقه بالصبر والحلم.

وحياة التفكير والتأمل وما يستريح إليه من عمل بسيط كرعي الغنم، ليست بالحياة التي تدرّ على صاحبها الرزق الوفير، أو تفتحُ أمامه أبواب اليسار.

وما كان يهتم لذلك أو يُعنى به، وقد ظلّ طول حياته أشدّ الناس زهدا في المادة ورغبة عنها، والذين يتوقون إلى المال ويلهثون في طلبه، إنما يبتغونه لإرضاء شهوات لم يعرف محمد ﷺ طوال حياته شيئا منها.

وكانت لذته الكبرى لذة الاستمتاع، بما في الكون من جمال ومن دعوة إلى التأمل، هذه اللذّة العظيمة التي لا يعرفها إلا الأقلّون.

رحلة الشام ولقاء الراهب بحيرى:

في العام الثاني عشر من الفيل بلغ رسول الله ﷺ الثانيةَ عشرةَ من عمره، خرج ﷺ في رحلته الأولى إلى الشام.

ومن المحقّقِ: أن القائمين بهذه الرحلة، لم يكونوا يصحبون معهم الصبيان عادة، إذ لا جدوى منهم ولا نفع، فضلاً عن أنهم يكونون عبئا في القافلة.

ولذلك فإن الروايات التي تتحدث عن هذه الرحلة، تقول: إن أبا طالب ـ وقد كان تاجرًا مثل بقية قومه ـ عندما قام بهذه الرحلة لم يفكر في اصطحاب محمد ﷺ معه، فقد كان لا يزال صبيا، ولكن الروايات تقول، إنه تعلق بعمه، وقال له: لمن تتركني يا عم، ولا أب أو أم، فرقّ قلب أبي طالب له ﷺ، وآلى على نفسه أن يصطحبه معه.

(١) أكرم ضياء الدين العمري: السيرة النبوية الصحيحة (١٠٦/١).

www.almoslih.net

صحب الغلام القافلة حتى بلغ بصرى في جنوب الشام، والتقى في هذه الرحلة بالراهب بحيرى بعد أن خرج لقافلة قريش، وكانوا قبل ذلك يسيرون، فلا يخرج إليهم ولا يلتفت[(١)].

وبينما يحل أفراد القافلة رحالهم أخذ بحيرى يمشي بينهم، كان بحيرى قد أعد لهم طعاما، فلما أتاهم به، وكان محمد ﷺ في رعاية الإبل قال: أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى ظل الشجرة، فلما جلس مال ظل الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى ظل الشجرة مال عليه.

نبـي بحيرا هـامَ فـي دُرِّ بحره   وفي الوصف من آياته حارت الفِكَر
نبـيٌّ أظلتـه الغمامة إذ مشـى   وعن أمره جاءت إلى نحوه الشجر
وخاطبـه ظبـيُ الفـلاة وضبُّها   ووافى إلى الظامي بدعوته المطر
عليه سـلام الله ما هبّـت الصَّبا   وما غرَّدَ القُمريُّ واتَّسَـقَ القمر

فأخذ بحيرى بيد محمد ﷺ وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له شيوخ القافلة القريشية: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة، أسفلَ من غضروف كتِفه، مثل التفاحة[(٢)].

قال: فبينما هو قائم عليهم، وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إذا عرفوه بالصفة يقتلونه، فالتفت، فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءنا أن هذا النبي خارجٌ في هذا الشهر، فلم يبق طريق

(١) البوطي: فقه السيرة النبوية، (ص٥٠ -٥١).
(٢) في صحيح البخاري (١٩٠٥) وصحيح مسلم (٢٣٤٥) سمعت السائب بن يزيد يقول: «.. فنظرت إلى خاتم النبوّة بين كتفيه مثل زرّ الحجلة»، ونحوه عن جابر وعبد الله بن سرجس في صحيح مسلم (٢٣٤٤) و(١١٠) و(٢٣٤٦).

إلا بعث إليه بأناس، وإنا قد أخبرنا خبره، بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟

قالوا: إنما اخترنا خيره لك لطريقك هذا، قال: أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه وأقاموا معه.

قال: أنشدكم الله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب[(١)].

ولعلنا نلاحظ أن رحلته ﷺ لم تكتمل، بل إن بحيرى الراهب أقنع عمه أبا طالب أن يعيد ابن أخيه، ولا يدخل به بلاد الروم، ففعل ذلك بعدما تخوف على ابن أخيه.

ولكن فريقا من المشككين والمستشرقين خاصة، يدندنون حول هذه الحادثة، ويرون أن ذلك الراهب قد علَّم محمدا علومَ النصرانية، وهو مصدر القصص الديني عن الأنبياء السابقين في القرآن.

وهذا محض افتراء، فلم تكن هذه المقابلة إلا مجردَ لقاء عابر، لم يستمر أكثر من عشية أو ضحاها، عاد بعدها محمد ﷺ إلى بلده ثانية، فماذا عساه أن يعلّم ذلك الراهب محمدا في تلك المدة اليسيرة؟ بل وماذا عساه أن يلقن صبيا في العاشرة أو الثانية عشرة من عمره في تلك اللحظات العابرة؟

وهنا نرى كيف تستولد النملة فيلا؟ فها هو ذا اجتماع بين راهب وصبي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، لا يستغرق أكثر مما يتطلبه الغداء وما يسبقه أو يلحقه من راحة، فيعتبر هذا الاجتماع هو الأساس لنبوة سيدنا محمد ﷺ، هذه النبوة التى أشرقت على العالم، بعد هذا الاجتماع العابر بنصف قرن من الزمان.

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٦٢٠)، وقال: حسن غريب. وقال عنه الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص ٥٨، ٥٩): صحيح.

في ثلاث ساعات أو دون ذلك، تعلم الصبي محمدٌ النصرانيةَ، بل وتعلم كيف يصلحها ويطورها، ويخلصها من شوائبها.

لو أن محمدا عليه الصلاة والسلام قد تأثر بمسيحية بحيرى، أما كان يجب أن يظهر أثر ذلك عليه؟، أما كان قومه وذووه يذكرون ذلك عنه؟.

يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

واليهود يعتبرون المسيح دجالًا، ويرمونه ويرمون أمه بأخس الصفات والنعوت، وتقرير القرآن الكريم عن المسيح بأنه نبي، هو شيء لم يقل به قائل قبل رسول الله، ولا بعده.

ولو كان محمد ﷺ تعلم شيئًا من بحيرى أثناء ذهابه في قافلة إلى الشام لشاع الخبر وتناقله الناس، وحينئذ يكون حجة لكفار قريش لرد رسالته والطعن في نبوته، إلا أن شيئًا من هذا لم يحدث، ولم تنقل كتب السير أن كفار قريش قالوا له أنت تلقيت هذه التعاليم من بحيرى.

لو فرضنا أنه ﷺ تعلم من بَحيرى أخبار السابقين، فماذا عن مئات الآيات التي نزلت بخصوص أحداث حصلت بعد وفاة بَحيرى بزمن طويل، فعالجها القرآن في حينها.

كسورة آل عمران التي تتعلق ثمانون آية منها بقدوم نصارى نجران، وستون آية أخرى بأحداث غزوة أُحد، وسورة التوبة التي تحدثت عن أحداث تتعلق بغزوة تبوك، وسورة الأحزاب التي تناولت أيضًا أحداث تلك الغزوة، ومثل هذا كثير لا يخفى.

ويلزم هنا التنبيه إلى أن لقيا محمد ﷺ الراهب بَحيرى إبَّان شبيبته ليس محل اتفاق المسلمين، فقد حسَّن رواية هذا الخبر بعض أهل العلم، وضعفها آخرون منهم الذهبي[(١)].

وأكد كل ما سبق توماس كارليل بقوله: "لا أعرف ماذا أقول بشأن الراهب النسطوري سرجياس (بحيرى) الذي قيل إنه تحادث مع أبي طالب، كم من الممكن أن يكون أي راهب قد علم صبيًا في مثل تلك السن، لكنني أعرف أن حديث الراهب النسطوري مبالغ فيه بشكل كبير، فقد كان عُمْرُ محمد ﷺ أربعة عشر عامًا، ولم يعرف لغةً غير لغته"[(٢)].

وعلى فرض صحة رواية لقيا الراهب للنبي ﷺ يوصلنا إلى نتيجة، أعرض عنها الطاعنون في القرآن الكريم، فقد قال الراهب الذي زعموا أن محمدا ﷺ تعلم منه:

"هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة"[(٣)].

---

(١) قصة لقيا النبي ﷺ بحيرى أخرجها الحاكم في مستدركه، (٢/ ٦٧٢)، قال: صحيح على شرط الشيخين، فتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: "أظنه موضوعًا، فبعضه باطل"، وأخرجه الترمذي حديث رقم (٣٦٢٠)، وقال: "حسن غريب"، وقال الألباني: صحيح. وأبو نعيم الأصفهاني في معرفة الصحابة ح (١٢٠٢)، والطبري في تاريخه (٢/ ٢٨٧)، ونقلها ابن هشام في تهذيبه للسيرة (١/ ١٨٠).

(٢) توماس كارليل، الأبطال، (ص ٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي ح (٣٦٢٠)، وقال: "حسن غريب"، وقال الألباني: صحيح.

هذا ولم تنقل الروايات أن محمدًا ﷺ جلس إلى بحيرى يتعلم منه أخبار السابقين أو غيرهم، بل ذكرت: أن بحيرى كان يسأل محمدا ﷺ عن أشياء من حاله ونومه وهيئته وأموره[١]، يستثبت فيها من كونه نبيُّ آخرِ الزمان، بما يعرفه من بشارات أهل الكتاب عنه، وقد قال أبو طالب:

و ما رجعوا حتى رأَوا من محمد ... أحاديث تجلو غم كل فؤاد
وحتى رأوا أحبار كل مدينة ... سجودًا له من عصبة وفراد
فقال لهم قولًا بحيرا وأيقنوا ... له بعد تكذيب وطول بعاد
فإني أخاف الحاسدين وإنه ... لفي الكتب مكتوب بكل مداد[٢]

وأقام ﷺ مع عمه أبي طالب في مكة قانعا بنصيبه، يقوم من الأمر بما يقوم به من هُمْ في مثل سنه. ويستمع معه إلى أقوال الشعراء والخطباء المتفاخرين، ويزن ذلك بميزان قلبه ولا يطمئن إليه، لأن الله عز وجل يوجه خاطره منذ نعومة أظفاره الوجهة التي تهيئه لذلك اليوم العظيم، يوم الوحي الأوّل حين دعاه ربه لتبليغ رسالته، التي فيها الهدى والحق للناس كافّة.

حرب الفِجار:

وكما عرف ﷺ طرق القوافل في الصحراء مع عمه أبي طالب، وكما استمع إلى الشعراء والخطباء مع ذويه في الأسواق حول مكة أثناء الأشهر الحرم، عرف كذلك حمل السلاح؛ إذ وقف إلى جانب أعمامه في حرب الفِجار.

وحرب الفِجار تلك كانت بعض ما يثور ويتصل بين قبائل العرب من الحروب. وقد سميت الفِجار؛ لأنها وقعت في الأشهر الحرم. وقد وقعت هذه الحرب

---

(١) انظر: تهذيب سيرة ابن هشام (١/ ١٨٠).
(٢) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر (٦٦/ ٣١١).

في شهر شوال سنة خمس عشرة من عام الفيل، واستمرت حتى سنة عشرين من عام الفيل[١].

لقد كانت حرب الفجار بالنسبة إلى قريش دفاعا عن قداسة الأشهر الحرم، ومكانة أرض الحرم، وهذه الشعائر هي بقية مما احترمه العرب من دين إبراهيم عليه السلام، وكان احترامها مصدر نفع كبير لهم، لانتظام مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية، فكان يتوقف أخذ الثأر خلالها.

ولكن ما لبث أن استباحها أهل الجاهلية، وكانت حرب الفجار بسبب هذه الاستباحة، فأحد العرب، ويدعى البرّاض بن قيس الكنانيّ لم يحترم هذه الحرمة، حيث غافل أثناءها عروة الرّحال بن عتبة الهوازنيّ وقتله.

وسبب ذلك أن النعمان بن المنذر كان يبعث كل عام قافلة من الحيرة إلى عكاظ، تحمل المسك، وتعود محمَّلةً بالجلود والحبال وأنسجة اليمن المزركشة، وتسمّى هذه القافلة باللطيمة.

فعرض البرّاض الكناني نفسه عليه ليقود القافلة في حماية قبيلته كنانة؛ وعرض عروة الهوازنيّ نفسه كذلك، وأن يتخطّى إلى الحجاز طريق نجد، واختار النعمان عروة؛ فأحفظ ذلك البرّاضَ، فتبعه وغافله، وأخذ قافلته وقتله[٢].

---

(١) هذا قول ابن هشام عن أبي عبيدة النحوي، عن أبي عمرو بن العلاء، (١/ ١٩٥)، ثم نقل عن ابن إسحاق (١/ ١٩٨) أن الحرب هاجت وللنبي ﷺ عشرون سنة. وانظر ابن كثير: البداية والنهاية (٢/ ٢٨٩). وقد أخرج ابن سعد (١/ ١٢٦ ١٢٧) من طرق واهية أنه كان ابن عشرين. ولعل الجمع أنه كان أول ما حضرها ابن خمسة عشر في أولها، فلما انتهت كان قد قارب العشرين، والله أعلم.
(٢) ابن حبيب: المقتفى من سيرة المصطفى ﷺ، (ص١٩)، تحقيق: د/ مصطفى محمد حسين الذهبي. الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

www.almoslih.net

ولم يلبث الخبر أن وصل إلى هوازن قوم القتيل، فعزموا على الأخذ بثأر قتيلهم من كنانة كلها، وعلمت بذلك كنانة فسارعت بالرحيل إلى الحرم كي تحتمي به، ولكن هوازن أدركتهم قبل أن يدخلوا البيت الحرام، فاقتتلوا إلى الليل.

ثم دخلت كنانة في الحرم، فتوقفت عنهم هوازن لحين الخروج وانتهاء الموسم، وعاونت قريش كنانة، وظلت المعركة بين كر وفر مدة أربع سنوات، انتهت بعدها بصلح عجيب.

حيث اتفق الفريقان أن يدفع من كانوا أقلّ قتلى يدفعون دية العدد الزائد على قتلاهم من الفريق الآخر، فدفعت قريش دية عشرين رجلا من هوازن، وذهب البّراض مثلا في الشقاوة.

وفي قتل عروة يقول لبيد بن ربيعة من أبيات:

وبلِّـغْ إن عرضـتَ بنـي ثمير ... وأخـوالَ القتيـل بنـي هـلال
بـأن الوافـد الرحّـال أمسـى ... مقيمـا عنـد ثيمـن ذي طلال

كان عمر محمد ﷺ أثناء حرب الفجار في التاسعة عشرة، وقد وقف إلى جانب أعمامه في حرب الفجار، وقيل: إنه ﷺ كان يجمع السهام التي تقع من هوازن، ويدفعها إلى أعمامه ليردّوها إلى صدور خصومهم، وأحيانا كان يرمي السهام بنفسه[١].

حلف الفضول:

بعد هذا الانتهاك الذي حدث من البّراض الكناني للأشهر الحرم والبيت الحرام، حدثت حادثة أخرى، وهي أن رجلا زبيديا، قدم مكة ببضاعة، فاشتراها

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية (٢٢١-٢٢٤)، الحلبي: السيرة الحلبية (١/١٢٧-١٢٩).

منه العاص بن وائل، ومنعه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة العاص وشرفه فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهر، وأهل المروءة ونادى بأعلى صوته:

يَـا آلَ فِهْـرٍ لِمَظْلُـومٍ بِضَاعَتُـهُ ... بِبَطْـنِ مَكّـةَ نَائِـي الـدّارِ وَالنّفَـرِ
وَمُحْرِمٍ أَشْـعَثٍ لَمْ يَقْـضِ عُمْرَتَهُ ... يَالَلرّجَالِ وَبَيْنَ الركن والْحِجْرِ وَالْحَجَرِ
إنّ الْحَـرَامَ لِمَـنْ تَمّـتْ كَرَامَتُـهُ ... وَلَا حَـرَامَ لِثَـوْبِ الْفَاجِـرِ الْغُدَرِ

فقام الزبير بن عبد المطلب وهو يقول: ما لهذا مَترك، ودعا قريشًا إلى الانتصاف له ونصرته.

وقد شعرت قريش بعد هذه الأحداث بأن شيئا أصابها، من تفرّق الكلمة، وحرص كل فريق على أن يكون صاحب الأمر، مما أطمع فيها العرب، بعد ما كانت أمنعَ من أن يَطمع فيها طامع، ففكرت في شيء آخر كي تعود لها هيبتها وللبيت الحرام والأشهر الحرم قدسيتها ومهابتها، فلا يمكن لأحد أن يستبيحه بعد ذلك.

فدعا الزّبير بن عبد المطّلب مجموعة من قبائل قريش، فاجتمع معه كلٌّ من بني هاشم، وزهرة، وتيم، في دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعاما، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله المنتقم ليكونن مع المظلوم، حتى يؤدّى إليه حقه ما بَلّ بحرٌ صوفةً، وما بقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما[١].

وقد وقع هذا الحلف في ذي القعدة سنة عشرين من الفيل[٢]. وكان ذلك عام ٢٠ من عام الفيل/ ٣٣ ق. هـ.

(١) ابن حبيب: المقتفى من سيرة المصطفى ﷺ، (ص ٢٧).
(٢) ابن حبيب: المقتفى من سيرة المصطفى ﷺ، (ص١٩).

www.almoslih.net

وقد حضر محمد ﷺ هذا الحلف الذي سمّاه العرب حلف الفضول وكان يقول: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا، لو دعيت به في الإسلام لأجبتُ، تحالفوا على أن يردّوا الفضول على أهلها، وأن لا يغزو ظالم مظلومًا»[1].

قـل لقريـش إن وردتَ حَيَّهـم   يـا أمـةً سـادوا بخير الرسـل
حلف الفضول منكمُ قد اغتدى   بسـيّد الكونين حلـف الفضل

ولننظر إلى بريق الفرح ـ بهذا الحلف ـ وهو يتهلل بين ثنايا الكلمات التي عبر بها رسول الله ﷺ عنه، فإن الوقوف ضد أي ظالم مهما عز، والانتصار لأي مظلوم مهما هان، هو روح الإسلام.

فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، والوقوف عند حدوده، ومحاربة البغي في سياسات الأمم، وفي صلات الأفراد على السواء، هي الدعائم التي تقوم عليها رسالة الإسلام.

وقال الزبير بن عبد المطلب في ذلك:

حلفـتُ لنعقـدَنْ حلفًـا عليهم   وإن كـنـا جميعـا أهـلَ دار
نسـمّيه الفضـولَ إذا عقدنـا   يعـزّ بـه الغريب لـذي الجوار
ويعلـم مَـن حوالي البيـت أنّا   أُبـاةُ الضيـم نمنـع كُلَّ عـار

وقال أيضًا:

إن الفضول تعاقـدوا وتحالفوا   ألّا يقيـم ببطـن مكـة ظالـم
أمـرٌ عليـه تعاقـدوا وتواثقـوا   فالجـار والمعتـرّ فيهم سـالم

(١) صحيح ابن حبان (١٠/ ٢١٨) عند التعليق على الحديث (٧٣٧٣) وفي السنن الكبرى (٦/ ٣٧٦/ ١٩٠)، والبيهقي: الدلائل (٢/ ٣٨)، ابن كثير: البداية (٢/ ٢٧٠)، ابن سعد: الطبقات (١/ ١٢٩). وانظر أحمد في المسند (١٦٥٥) و (١٦٧٧).

شابّ في ظلال الله:

نشأ محمد ﷺ في كنف الله وحفظه؛ فلم يسجد لِوَثن، ولم يخضع لصنم، ولم يكذب ولم يخن، ولم يُرَ قط في موقف مريب، ولم يُؤثر عنه قول معيب. وسُمي في شبابه الصادق الأمين.

كان مَثلا، ونعم المثل للشاب الطاهر الحيي، العفيف، لقد ظهر في رسول ﷺ كل دلائل الرجولة والفضل والكمال، وهو في سن يطيش فيه الشباب، وتزلّ فيه أقدام ذوي الألباب، وخاصة في الجاهلية وشركها، وفجورها وانحلالها وخمرها وميسرها، فلم يصبه من هذا كلّه شيءٌ.

لقد أجمع المؤرخون العرب منهم والغرب على أن محمدا ﷺ لم يكشف عورته قط، ولم يلعب الميسر، ولم يذق الخمر، وكان شربها أمرا عاديا منتشرا بين الشيوخ والشباب.

إلا أن تحريم الخمر لم يكن من خصائصه وحده في هذا الحين، فقد حرمه على نفسه كثير في الجاهلية بسبب آفاتها وسيئآتها، ودفعِها الإنسانَ إلى الشرور والآثام، أسوةً بجدّه عبد المطلب، وجدُّه قصي أول من حرمها على نفسه، ونهى أبناءه عن شربها لما حضرته الوفاة[1].

لكن الإسلام حرمها بعد ذلك تحريما عاما وسنّ عقوبة لشاربها.

كما أجمعوا على أنه كان يأبى أن يحضر مع قومه العيد الذي كانت تقيمه مكة لصنم يقال له "بوانة"، حتى غضب عليه عمه أبو طالب وعماته، وعلى أنه لم يذق لحما ذُبِحَ على الأصنام حتى أكرمه الله برسالته، وعلى أنه اعتزل الأوثان، ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية، ولم يشترك في لهو الجاهلية ومساخرها[2].

(١) سيديو: تاريخ العرب، (١/ ٥٨).
(٢) وليم موير: حياة محمد، (ص٢٠).

www.almoslih.net

روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة عن أبيه قال: «حدثني جار لخديجة أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: أي خديجة، والله لا أعبد اللات والعزى أبدًا»(١) وكان لا يأكل ما ذبح على النصب، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو ابن نفيل(٢).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمون به، إلا مرتين من الدهر، كلتيهما يعصمني الله منهما.

قلت ليلةً لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في أغنام أهله يرعاها: أبصر إليَّ غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة، كما يسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت.

فجئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناء، وضرب دفوف، ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوج فلانة، رجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا حر الشمس فرجعت، فقال: ما فعلت؟ فأخبرته.

ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت، فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئًا.

قال رسول الله ﷺ: فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية، حتى أكرمني الله بنبوته»(٣).

لقد أجمع الكل على أنه ﷺ كان مثالا يحتذى به في شبابه: خلُقا، وصدقا، وأمانة، ورجولة، وكرما، ونبلا، وشجاعة، وبعدا عن النقائص كلها، ونفورا

(١) البخاري، كتاب البيوع رقم (٢٠٧٢).
(٢) علي الصلابي: السيرة النبوية (١/ ٤٧).
(٣) إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، (ص٥٧).

من معايب الجاهلية ومثالبها، ولهذا كان يحترمه الكبير ويبجله الصغير، حتى أطلقوا عليه اسم "الصادق الأمين" لتلك الصفات التي لم تجمع لسواه.

وقد وردت عبارة "الصادق الأمين" في كتاب (رؤيا يوحنا الإنجيلي) المعتمد من الكنيسة، والموجود في الكتاب المقدس، وهي صريحة في التنبؤ به ﷺ.

ففي الإصحاح التاسع عشر من كتاب يوحنا الإنجيلي بالنص: ".. ثم رأيت السماء مفتوحة، وإذا فرس أبيض، والجالس عليه يدعى أمينا صادقا، وبالعدل يحكم ويحارب .. وعيناه كلهيب نار، وعلى رأسه تيجان كثيرة، وله اسم مكتوب ليس يعرفه أحد إلا هو"(١).

ومن الغريب أن المسيحيين يدعون أنه المسيح عليه السلام هو المقصود في رؤيا لا تنطبق على عيسى عليه السلام، لأنه لم يحارب، كما لا ينكرون أن محمدا ﷺ كان يدعى قبل البعثة الصادق الأمين، وهذا معروف ومشهور.

ولعل عبارة "وعيناه كلهيب نار" كانت من العلامات التي يعرفه بها اليهود، وعرفه بها بحيرى الراهب، فمن أوصافه ﷺ أنه أدعج العينين أي في بياضهما حمرة.

مع خديجة رضي الله عنها:

كانت خديجة رضي الله عنها مَثَلا طيبا للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم، إن أصحاب الرسالات يحملون قلوبا شديدة الحساسية. ويلقون غبنا بالغا عن الواقع الذي يريدون تغييره، ويقاسون جهادا كبيرا في سبيل الخير الذي يريدون نشره، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه والإدراك والمعونة! وكانت خديجة سبّاقة في هذه الخصال، وكان لها في حياته ﷺ أثر كريم.

(١) رؤيا يوحنا: (ص١٩/ ١١-١٢).

رحلة وزواج:

لما بلغ محمد ﷺ الخامسة والعشرين من العمر، قال له عمُّه أبو طالب: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتدّ الزمان علينا وهذه عير قومك[1] وقد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك في عيرها وتجارتها، فلو جئتها وعرضت نفسك عليها لتعمل في تجارتها لأسرعت إليك.

وبلغ خديجة ما كان من قول عمه له فأرسلت إليه تدعوه إلى السفر بتجارتها تلك إلى الشام، وقالت له أنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلا سواك، وكانت تعلم أمانته وصدقه وكماله.

وجاء في كتاب زاد المعاد لابن قيم الجوزية: «لقد أجر رسول الله ﷺ نفسَه من خديجة في سفرة بمالها إلى الشام، وإن كان العقد بينه وبينها مضاربة فالمضارب أمين ووكيل وأجير وشريك»[2].

وعن الربيع بن بدر عن أبي الزبير عن جابر قال: «أجر رسول الله ﷺ نفسه من خديجة بنت خويلد سفرتين إلى جَرَش[3] كل سفرة بقلوص[4]».

في السنة الخامسة والعشرين من عام الفيل، انطلقت القافلة في طريق الصحراء إلى الشام، مارّةً بوادي القرى ومدين وديار ثمود، بتلك البقاع التي مرّ بها ﷺ مع عمّه أبي طالب، وهو في الثانية عشرة من عمره[5].

ولما قدمت القافلة بصرى من الشام، نزل الرسول ﷺ في ظل شجرة وراّه أحد الرهبان ويدعى نسطور، فقال نسطور الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

(١) العير: الإبل التي تحمل التجارة.
(٢) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، (٥٧/١).
(٣) جرش بفتحتين: مكان بالشام.
(٤) القلوص: شباب النوق. أخرجه الحاكم في صحيحه.
(٥) انظر: عمر أحمد عمر: رسالة الأنبياء، (٢٧/٣).

ثم قال لميسرة: أفي عينيه حمرة؟ قال: نعم لا تفارقه.

قال: هو نبي وهو آخر الأنبياء.

ثم باع محمد ﷺ سلعته، فوقع بينه وبين رجل تَلاحٍ فقال له: احلف باللات والعزى، فقال محمد ﷺ: ما حلفت بهما قط، وإني لأومر فأعرض عنهما. فقال الرجل: القول، قولك. ثم قال لميسرة: هذا والله نبي يجده أحبارنا منعوتا في كتبهم.

وكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى غمامة تظل رسول الله ﷺ من الشمس، فوعى ميسرة ذلك كله. وكان الله قد ألقى عليه المحبة من ميسرة، فكان كأنه عبد له.

وباعوا تجارتهم وربحوا ضعف ما كانوا يربحون. فلما رجعوا فكانوا بمر الظهران، قال ميسرة: يا محمد، انطلق الى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك، فإنها تعرف لك ذلك.

فتقدم رسول الله ﷺ حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة، وخديجة في علّيّة لها (أي حجرة علوية)، فرأت رسول الله ﷺ وهو على بعيره وغمامة تظله فأرته نساءها، فعجبن لذلك. ودخل عليها رسول الله ﷺ، فأخبرها بما ربحوا في وجههم، فسرت بذلك.

فلما دخل ميسرة، أخبرته بما رأت فقال لها ميسرة، قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام، وأخبرها بما قال الراهب نسطور، وبما قال الآخر الذى خالفه في البيع، وقدم رسول الله ﷺ بتجارتها، فربحت ضعف ما كانت تربح، وأضعفت له ضعف ما سمت له[1].

(١) انظر: ابن هشام: السيرة ١(/ ١٩٩) بتصرف.

واستطاع محمد ﷺ بما يملكه من الشمائل الشريفة، وحسن المعاملة، أن يكسب محبّة ميسرة وإجلاله، وأجرى الله عز وجل الربح الوفير لخديجة على يديه، وأقبل ميسرةُ مِنْ بعدُ على خديجة، فروى لها عن محمد ورقة شمائله، وجمالِ نفسه، ما زادها علما به فوق ما كانت تعرف من فضله على شباب مكة.

وأدركت خديجة بحسّها المرهف، وعقلها الراجح، أن محمدًا ﷺ صنف آخر من الرجال، وأنه ليس مثل أولئك الذين تقدموا للزواج منها، يطلبونها للمال لا للنفس، وأن أبصارهم ترنو إليها بغية الإفادة من ثرائها، وإن كان الزواج عنوان هذا المطمع.

لكنها عندما عرفته ﷺ وجدت ضربًا آخر من الرجال، وجدت رجلاً لا تستهويه ولا تدنيه حاجة. ولعلها عندما حاسبت غيره في تجارتها وجدت الشح والاحتيال، أما محمد ﷺ فقد رأت رجلاً تقف كرامته الفارعة موقف النبل والتجاوز، فما تطلّعَ إلى مالها أو جمالها! لقد أدى ما عليه ثم انصرف راضيًا مرضيًا.

ووجدت خديجة ضالتها المنشودة. ولكن كيف السبيل إلى ذلك وأعراف القوم تأبى؟ ذهبت إلى إحدى صديقاتها نفيسة بنت منبه تبثّها ما في نفسها، وتطلب مشورتها.. فأشارت عليها أن تقوم هي بهذا الدور.

فذهبت نفيسة إلى سيدنا محمد ﷺ تتحسس رأيه، وتستطلع خبره، ودار بينهما الحوار التالي:

ما يمنعك أن تتزوج يا محمد؟ .

قال: ما بيدي ما أتزوج به.

قالت نفيسة: فإن كفيت ذلك، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف، ألا تجيب؟

فسأل محمد ﷺ: ومن هي؟

قالت نفيسة: خديجة.

قال: وكيف لي بذلك؟ .

قالت: قلت: عليَّ.

قال: فأنا أفعل.

ومن الحوار بينه ﷺ وبين نفيسة رسولة خديجة، إلى الحوار المباشر معها حين قالت له: يا محمد ألا تتزوج، قال: ومن؟ قالت: أنا.. قال محمد ﷺ: من لي بك، وأنت أيِّم قريش، وأنا يتيم قريش؟

قالت: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك، وأمانتك، وحسن خلُقك، وصدق حديثك[1].

وهكذا ترفض خديجة كبار شخصيات قريش.. وتُقبل على محمد ﷺ، ولم لا؟.. وهو كما وصفه عمه أبو طالب عندما جاء لخطبتها، قال: أما ابن أخي محمد فلا يوزن به رجل إلا رجحه شرفًا ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قُلٌّ، فإن المال ظِلٌّ زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة.. وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك.

ولم تبطئ خديجة رضي الله عنها أن حدّدت الساعة التي يحضر فيها ﷺ مع أعمامه، ليجدوا أهلها عندها، فيتم الزواج.

وهنا تبدأ صفحة جديدة من حياته ﷺ؛ تبدأ حياة الزوجية الموفَّقة الهنية من جانبه وجانب خديجة جميعًا، والأبوّة التي تعرف من الآلام لفقد الأبناء ما عرف محمد ﷺ في طفولته لفقد الآباء.

(١) انظر: الحلبي: السيرة الحلبية (١/ ٢٢٤)، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، (٢/ ١٦٥)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وزميله، ط دار الكتب بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

www.almoslih.net

تزوج محمد ﷺ من خديجة بعد أن أصدقها عشرين بكرة من الإبل. وانتقل إلى بيتها وأقام وقد أغناه الله بزواج خديجة، فجمع بين شرف نسبه الهاشمي، ومصاهرة بني أسد، وهم من أوسط قريش نسبًا أيضًا، كم أصبح في وفرة وسعة من المال، ينظر إليه أهل مكة جميعًا نظرة غبطة وإكبار[١].

وقد غمرته خديجة بالحب والدفء الذي عوضه عن فقد أبيه وأمه، وكانت نعم العونُ له على متاعب هذه الحياة، وعلى نصرته في دعوته ورسالته فيما بعد، فما كان أعظمَ أثرها في حياته ﷺ.

وإذا كانت العناية الإلهية قد هيأته ﷺ لدور كبير يقوم به في واقع الحياة البشرية، فيحوّلها من الظلمات إلى النور، فإن العناية الإلهية ذاتها، هي التي جاءت بخديجة الكبرى لتكون الزوجة العظيمة، التي ترعى الزوج: بحبها وحنانها وقلبها وروحها.

إن من يدرس سيرة هذه الأم العظيمة، لا بد أن يدرك، أنها جاءت على قدَرٍ، لتقومَ إلى جانبه ﷺ بأعظم وأنبل دور تقوم به امرأة.

لم يكن من أمره ﷺ بعد زواجه من خديجة ما يدلّ على إسرافه في مالها، كما يفعل النفعيّون الذين يتزوجون الثَّريّات، فلم يعمد إلي البذخ في مظهره بل كان متواضعًا عفيفًا، ولم يعمد إلى القصف مع أبناء المياسير إظهارًا لثرائه الطارئ.

ألم يستطع رسول الله ﷺ أن يعيش كما يعيش أحسن الناس في تلك القرية "مكة" فيكون من رجالها البارزين، وله مقعده في دار الندوة يرجعون إليه عند المشورة برأي، ولا يقطعون أمرًا دون الرجوع إليه.

ألم يكن زوجًا لثَرِيّة من كُبْرَيات أثرياء مكة، تسيّر القوافل صيفًا وشتاء لترجع بالخير الوفير، وهو جالس في الظل الوارف يجمع ثمار ماله، والقِيان يضربن له المعازف ويغنين شعرًا من قصائد فحول شعراء المعلقات.

(١) انظر: الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد (٢/ ١٦٥).

أو يروي جوفه الظامئ من الحرِّ اللافح بالخمر القراح ـ كما يفعلون ـ فيعبّ ويعب حتى الثمالة وحوله حاشيته وخدمه وجواريه.

ألم يكن له أن ينقلب على صفاته بعد ما أصبح السيد المطاع، المهيب الأركان، لِمَ لَمْ يتكبر ويتجبر؟، أليس هذا ما جبل الناس عليه إذا ما مستهم النعمة بعد الفاقة، والرخاء بعد الشدّة ؟.

لكنه ﷺ ازداد تباعده عن كل ألوان متاع الدنيا، وزاد زهده في الرخاء والترف وصار يقضي الكثير من وقته صائما معتزلًا للناس وحده في الجبل.

أولاده ﷺ:

تعاقبت السنون ومحمد ﷺ يشارك أهل مكة في حياتهم العامة، ويجد في خديجة خير النساء حقّا: الودود والولود التي وهبت نفسها له، والتي أنجبت له من الأبناء القاسمَ وعبدَ الله الملقبَين بالطاهر وبالطيب[١]، ومن البنات زينب ورقيّة وأم كلثوم وفاطمة.

أمّا القاسم وعبد الله، فلم يعرف عنهما إلا أنهما ماتا طفلين في الجاهلية، لم يتركا على الحياة أثرا يبقى أو يذكر؛ لكنهما من غير شك قد ترك موتهما في نفس أبويهما ما يتركه موت الابن من أثر عميق، وترك موتهما من غير شك في نفس خديجة ما جرح أمومتها جرحين داميين.

ولقد حزن ﷺ من بعدُ حين مات ابنه إبراهيم، فلا ريب أن في مصابه في بنيه ما هو جدير بأن يترك في حياته وتفكيره أثره.

وأما البنات فقد عني ﷺ بتزويجهن من أكفاء لهن: زوّج زينب كبراهن من أبي العاص بن الرّبيع بن عبد شمس، وكانت أمّه أختا لخديجة، وكان فتى مقدّرا

(١) انظر: الحلبي: السيرة الحلبية (١/ ٢٢٥).

من قومه لاستقامته ونجاح تجارته. وكان هذا الزواج موفقا على الرغم مما كان بعد الإسلام، حين أرادت زينب الهجرة من مكة إلى المدينة، من فرقة بينهما ـ سنرى من بعد تفصيلها ـ.

وزوّج رقيّة وأم كلثوم من عتبة وعتيبة ابني عمه أبي لهب. ولم تبق هاتان الزوجتان مع زوجيهما بعد الإسلام؛ إذ أمر أبو لهب ابنيه بتسريحهما، فتزوجهما عثمانُ واحدةً بعد الأخرى. وكانت فاطمة ما تزال طفلة فلم تزوج من عليّ إلا بعد الإسلام[١].

كانت حياته ﷺ حياة طمأنينة واستقرار في هذه السنين من عمره. ولولا فقده لبنيه لكانت حياة نعمة بمودّة خديجة ووفائها، وبهذه الأبوة السعيدة الراضية.

طبيعيّ لذلك أن يترك نفسه لسجيّتها، سجية التفكير والتأمل، وأن يستمع إلى قومه فيما كان حوارهم يقع عليه من أمور أصنامهم، وما كان النصارى واليهود يقولونه لهم، وأن يفكر ويتدبّر وأن يكون أشدّ من كل قومه تدبراً وتفكيرًا.

لقد ظهر التوازن الأخلاقي في شخصية الرسول ﷺ في أسمى غاياته عند فقد أبنائه، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله: "وأما بكاؤه فلم يكن بشهيق ورفع صوت، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا، ويسمع لصدره أزيز.

وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفًا على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحب للخوف والخشية .

ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه وبكى رحمةً له وقال: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

(١) انظر: هيكل: حياة محمد ﷺ،(٩٢) وما بعدها.

ولما كسفت الشمس يوم توفي ولده إبراهيم، فقالوا: كُسفت الشمس لموت إبراهيم، فجاء البيان النبوي الصادق: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تُكسفان لموت أحد»[١] فلم يشغله حزنه الكبير على وفاة طفله الصغير، عن تصحيح مفهوم خطأ عند الناس.

وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض، وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء وانتهى فيها إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. وبكى لما مات عثمان بن مظعون، وبكى لما كسفت الشمس وصلى صلاة الكسوف، وجعل يبكي في صلاته، وجعل ينفخ ويقول: «رب ألم تعدني ألا تعذبهم، وأنا فيهم، وهم يستغفرون، ونحن نستغفرك». وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته، وكان يبكي أحياناً في صلاة الليل"[٢].

لقد كان الرسول ﷺ ذا نفس سويّة، تتمتع بمثالية يدركها من له أدنى معرفة بالسلوك النفسي وأبعاده، فلم يكن ﷺ بالكئيب العبوس الذي تنفر منه الطباع، ولا بالكثير الضحك الهزلي الذي تسقط مهابته من العيون، ولم يكن حزنه وبكاؤه إلا مما يحزن ويبكي منه العقلاء، في غير إفراط ولا إسراف.

الكعبة:

لم ينقطع ﷺ عن مخالطة أهل مكة، والأخذ معهم بنصيب في الحياة العامة، فشاركهم الحزن عندما أصاب الكعبة سيلٌ عظيمٌ انحدر من الجبال فصدع جدرانها قبيل البعثة بسنوات قلائل.

(١) صحيح البخاري (١٠٤٢).
(٢) ابن القيم: زاد المعاد، الجزء الأول، بتصرف.

www.almoslih.net

وكانت قريش من قبل ذلك تفكر في أمرها، فهي لم تكن مسقوفة، وكانت لذلك عرضة لانتهاب السارقين ما تحتوي من نفائس، لكن قريشا كانت تخشى إن هي شيدت بنيانها ورفعت بابها وسقفَتْها أن يصيبها من ربّ الكعبة المقدّسة شرّ وأذى.

فقد كانت تحيط بها في مختلف عهود الجاهلية أساطير تخيف الناس من الإقدام على تغيير شيء من أمرها.

فلما طغى عليها السيل سنة خمس وثلاثين من الفيل[1] لم يكن لقريش بدّ من الإقدام على إعادة بنائها، فوزعوا الأعمال عليهم، لكل قبيلة جانب تقوم بهدمه وبنائه، حتى انتهى الهدم إلى حجارة خضر ضربوا عليها بالمعول فارتدّ عنها؛ فاتخذوها أساسا للبناء فوقه، وكان محمد ﷺ ممن اشترك ينقل معهم الحجارة[2].

وعن عمرو بن دينار: سمعت جابر بن عبد الله يقول: لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ والعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجار. ففعل ـ كان ذلك قبل أن يبعث ـ فخر إلى الأرض فطمحت عيناه إلى السماء فقال: إزاري إزاري. فشد عليه فما رؤي به عريانا[3].

ونقلت قريش الأحجار من الجبال المجاورة وبدأت في البناء. وما إن ارتفع البناء إلى ما يقارب قامة الرجل، وآن أن يوضع الحجر الأسود في مكانه من الجانب الشرقيّ، احتدم الصراع بين قبائل قريش أيهم يكون له شرف وضع الحجر في هذا المكان حتى كادت الحرب أن تنشب بسببه.

---

(١) ابن حبيب: المقتفى من سيرة المصطفى ﷺ، (ص ٢٩).
(٢) انظر: ابن كثير: السيرة النبوية (١/ ٢٦٨)، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد (٢/ ١٧٠).
(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري، (١/٣٧٧)، ومسلم، (١/ ١٨٤)، وغيرهما.

وتحالف بنو عبد الدّار وبنو عدي أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم؛ وأقسموا على ذلك جَهْدَ أيمانهم، حتى قرّب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما وأدخلوا أيديهم فيه توكيدا لأيمانهم، ولذلك سمّوا «لعقة الدم»[1].

كان هذا الحلف شرارة إنذار وفتيل معركة يوشك أن تستعر، فعندئذ رأى أبو أميّة بن المغيرة المخزوميّ وكان فيهم شريفا ذا رأي أن يحتكموا إلى أوّل من يدخل من باب الصّفا.

وهنا تدرك العناية الإلهية المجتمع القرشي آنذاك ليكون محمد ﷺ أول داخل عليهم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا بحكمه. ثم قصّوا عليه قصتهم، ورأى العداوة تبدو في عيونهم، ففكر قليلا، ثم قال: هلمّ إليّ ثوبا، فأتى به، فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه.

ثم قال: ليأخذ كبير كلّ قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب؛ فحملوه جميعا إلى ما يحاذي موضع الحجر من البناء، ثم تناوله ﷺ من الثوب، ووضعه في موضعه، وبذلك انحسم الخلاف وانفضّ الشرّ[2].

وقصرت النفقة الطيبة بقريش، فأخرجوا من الجهة الشمالية نحوًا من ستة أذرع، وهي التي تسمّى بالحِجْر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا.

وأتمّت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثماني عشرة ذراعا، وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفّين، وجعلوا في ركنها الشامي من داخلها درجا يصعد به إلى سطحها، ووضع هبل في داخل الكعبة، كما وضعت في داخلها النفائس التي كانت هدفا لمطامع اللصوص[3].

---

(١) انظر: ابن كثير: السيرة النبوية (١/ ٢٦٨).
(٢) انظر: الحلبي: السيرة الحلبية (١/ ٢٢٩).
(٣) انظر: الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد (٢/ ١٧٠).

إن الرضا بحكمه أوّل ما دخل من باب الصفا، وارتياحهم أن القاضي هو محمد ﷺ، يدلّ على ما كان له من مكانة سامية في نفوس أهل مكة، ومن تقدير جمّ لما عرف عنه من سمّو النفس ونزاهة القصد.

وقد اختلف في سنه آنذاك؛ فقيل: كان ابن خمس وعشرين، وقال ابن إسحاق: كان ابن خمس وثلاثين.

إن الحكم الذي حل به محمد ﷺ المشكلة، كان عادلا وأمينا، ورضي به الجميع وحُقنت به دماء كثيرة، وأوقفت حروبٌ طاحنة، وكان من عدل حكمه أن رضيت به جميع القبائل، ولم تنفرد بشرف وضع الحجر قبيلة دون أخرى، وهذا من توفيق الله لرسوله ﷺ وتسديده قبل البعثة .

إن دخول رسول الله ﷺ من باب الصفا كان قدرًا من الله، لحل هذه الأزمة المستعصية، التي حُلت نفسيًّا قبل أن تحلّ على الواقع، فقد أذعن الجميع لما يرتضيه محمد ﷺ، فهو الأمين الذي لا يظلم، وهو الأمين الذي لا يحابي ولا يفسد، وهو الأمين على البيت والأرواح والدماء[١].

وفي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب من أبيات:

فقمنا حاشدين إلى بناء   لنا منه القواعدُ والتراب
أعزَّ به المليك بني لؤي   فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عدي   ومرةُ قد تقدّمها كلاب
فبوأنا المليك بذاك عزا   وعند الله يُلتمسُ الثواب

نجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلهي، والتوفيق الرباني في سيرة رسول الله ﷺ، كما نلاحظ كيف أكرم الله رسوله بهذه القدرة الهائلة على

(١) انظر: علي الصلابي: السيرة النبوية (١/ ٩٦) .

حل المشكلات، بأقرب طريق وأسهله، وذلك ما نراه في حياتنا كلِّها وهو من معالم رسالته، فرسالته إيصال الحقائق بأقرب طريق، وحل المشكلات بأسهل أسلوب وأكمله![١].

كما كان من حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ في شبيبته عن أقذار الجاهلية وأدرانها ومثالبها ما وقع له عندما كان ينقل الحجر أثناء بناء الكعبة، ورفع إزاره على رقبته، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: «إزاري إزاري، فشد عليه إزاره فما رؤي بعد ذلك عريانا ﷺ»[٢].

"كما أن حادثة تجديد بناء الكعبة كشفت عن مكانة الرسول ﷺ الأدبية في الوسط القرشي"[٣] وقد حصل لرسول الله ﷺ في هذه الحادثة شرفان:

شرف فصل الخصومة ووقْفِ القتال المتوقَّع بين قبائل قريش.

وشرف تَنافَس عليه القومُ وادخره الله لنبيه ﷺ، ألا وهو وضع الحجر الأسود بيديه الشريفتين، وأخذه من البساط بعد رفعه ووضعه مكانه من البيت[٤].

وفي هذا دلالة واضحة أن رسول الله ﷺ ليس صفرا في مجتمعه، بل هو من أصحاب المشاركة الثابتة والمستمرة في كل شأن من شؤون هذا المجتمع.

ومن خلال هذه المشاركة الفعالة في كل أحداث المجتمع يرتفع قدر الداعية، ويعلو وقع كلامه على النفوس، فإذا تكلم سمع له، وإذا نصح أخذ بنصحه، وهو الحكم فيما يختلفون فيه من أمور دينهم ودنياهم، فما قيمة داعية لا يغادر جدران مسجده ولا يشارك في شؤون مجتمعه.

(١) سعيد حوى الأساس في السنة وفقه السيرة النبوية (١/ ١٧٥).
(٢) رواه البخاري كتاب الحج رقم (١٥٨٣).
(٣) أكرم العمري: السيرة النبوية، (١/ ١١٦).
(٤) محمد أبو فارس: السيرة النبوية، (ص١٢٥-١٢٦).

عند وضع الحل لم يقم محمد ﷺ بطرحه، وأخذ رأيهم فيه، بل باشر فعلا بالتنفيذ العملي، وهو يشرح ما سيفعل وهذا فقه للسلوك الأمثل في فض الفتن والمنازعات بإلزام الناس بالصواب.

كما في حادثة الخلافة في السقيفة، حيث قال عمر ﷺ: «امدُدْ يدك يا أبا بكر نبايعْك» وهو بذلك لا يجبرهم على حل لا يعجبهم، بل يضع الحل الأمثل وينبههم إلى أن الواجب هو مباشرة العمل لا كثرة الكلام.

علة قبول القبائل القرشية بحكم النبي ﷺ ليست أنه أول من دخل من باب الحرم، ولكن كونه الأمين الذي يأتمنونه على أموالهم وأعراضهم، والأمانة هي أول مقومات العدل وعلامة وجوده، ولذا كانت العبارة "هذا الأمين قد رضينا حكمه".

وهي إشارة للدعاة أن يحرصوا على سمعتهم في الأوساط الدعوية المختلفة، وألا تمسها شائبة، وهم مع ذلك مشاركون في أدوار مجتمعهم المختلفة.

وهذا مما يضمن لهم دورا في مواضع اتخاذ القرار ومشاركة فعالة من جانبهم، وانتظارا لمعرفة موقفهم من المستجدات في هذا المجتمع، فالقاعدة: "لا تأخذْ إلا بقدْرِ ما دفعت" فكم دفعت من الجهد والمشاركة في مجتمعك لتنال آذانا صاغية وقلوبا واعية.

مكة بين انحلال السلطة الوثنية وإيمان الحنفاء:

كان هذا الخلاف بين القبائل العربية القرشية، والتحالف الذي قام به لَعَقَةُ الدم، يدلّ على أنه لم تكن في مكة سلطة مركزية يحتكمون إليها، بل ولا سلطة عامة تجمع هذه القبائل وتوحّدها على كلمة، بل لم يبق لرجل منها ما كان لقصيّ ولا لهاشم ولا لعبد المطلب من سلطان وهيبةٍ عند الاحتكام إليه.

وكان هذا جديرا بأن يجرّ على مكة ويلات كثيرة، لولا ما كان لبيتها العتيق في نفوس العرب جميعا من تقديس، وقد ظلّت مكة بالفعل تنعم من وراء هذه المكانة بالرخاء واتصال التجارة، لكن ذلك لم يغير من زوال تقديس الأصنام في نفوس المكيّين.

لقد كان التنافس بين القبائل على النفوذ المادي والأدبي سمةَ مكة قبيل البعثة، فكانت كل قبيلة تجتهد في أن تكمل نفسها وتبسط نفوذها ولو على أنقاض غيرها من القبائل.

ومن هنا كانت تسود العداوة والبغضاء بين القبائل المختلفة، وتثور الحروب، وتنشب المعارك لأوهى الأسباب بينهم، ولكن كان أفراد القبيلة يتناصرون فيما بينهم. ويدافع كل فرد عن أخيه مهما نأى عن الحق وتشبث بالباطل، ومن أقوالهم: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا"[1].

وقد أدى ذلك إلى تفكك المجتمع العربي وعدم الترابط بين أجزائه، وهو تفكك كان يُنذر بالانحلال وسوء المآل.

على أن التفكك وعدم الترابط بين القبائل كان يزول في بعض الفترات؛ إذا ما تعرض العرب للغزو والعدوان الأجنبي.

حينئذٍ يقوم شيوخ القبائل، وينسون ما بينهم من نزاع وأطماع، وتنمحي على الفور عصبيتهم القبلية، وتنتقل إلى دائرة أوسع فتصبح عصبية عربية، تحقيقًا للمثل العربي القائل: أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب.

(١) وقد جاء الإسلام بهذه القاعدة أيضًا لكن على غير المفهوم الجاهلي الظاهر، ولذلك سأل الصحابة النبي ﷺ عن ذلك فقالوا: ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالما؟ قال: «تردوه عن غيه» أي: ظلمه. وانظر هذا الحديث في "صحيح البخاري" (٣/ ١٦٨، ٩/ ٢٨)، و"سنن الترمذي" (٢٢٨٢)، و"مسند أحمد" (٣/ ٩٩) و"سنن البيهقي الكبرى" (٦/ ٩٤)، و"حلية الأولياء" (٣/ ٩٤)، و"زاد المسير" (٢/ ٢٧٧)، و"صحيح ابن حبان" (١٨٤٧)، وغير ذلك.

ويظلون هكذا متماسكين متعاونين حتى تنجاب الغمة، ويزول الخطر الأجنبي. فيعودون إلى سيرتهم الأولى من التفرق والضعف والانحلال.

كانت الأوضاع الفاسدة، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السادس الميلادي أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ومعلمون في أفراد الناس.

فلم تكن القضية قضية إصلاح عقيدة من العقائد، أو إزالة عادة من العادات، أو قبول عبادة من العبادات، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يكفي له المصلحون والمعلمون الذين لم يخل منهم عصر ولا مصر.

ولكن القضية كانت قضية إزالة أنقاض الجاهلية، ووثنية تخريبية، تراكمت عبر القرون والأجيال، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين، وجهود المصلحين والمعلمين، وإقامة بناء شامخ مشيد البنيان، واسع الأرجاء، يسع العالم كله، ويؤوي الأمم كلها.

قضية إنشاء إنسان جديد، يختلف عن الإنسان القديم في كل شيء، كأنه ولد من جديد، أو عاش من جديد قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قضية اقتلاع جرثومة الفساد واستئصال شأفة الوثنية، واجتثاثها من جذورها، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر، وترسيخ عقيدة التوحيد في أعماق النفس الإنسانية، ترسيخًا لا يُتصور ترسيخٌ فوقه، وغرس مَيلٍ إلى إرضاء الله وعبادته، وخدمة الإنسانية والانتصار للحق، يتغلب على كل رغبة، ويقهر كل شهوة، ويجرف كل مقاومة.

وبالجملة الأخذ بحجز الإنسانية المنتحرة التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدنيا والآخرة، والسلوك بها على طريق أولها سعادة، يحظى بها العارفون المؤمنون، وآخرها جنة الخلد التي وُعد المتقون.

ولا تصويرَ أبلغَ وأصدقَ من قوله تعالى في معرض المَنِّ ببعثة محمد ﷺ[1]: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الحنفاء في مكة:

وقد حالت هذه الوثنية السخيفة بين العرب ومعرفة الله وتعظيمه وتوقيره والإيمان به، وباليوم الآخر، وإن زعموا أنها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله.

وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وجميع جوانب حياتهم، وضَعُفَ توقير الله في نفوسهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

ولكن بقيت بقية من العرب ترفض عبادة الأوثان، ورأت أن التوجه إليها سخافة عقلية، ولكنها لم تعرف الطريق إلى الله، فقالت إننا على دين إبراهيم.

فقد ذكر أصحاب السير[2] أن قريشا اجتمعت يوما لتُحْيي عيدا للعُزّى، فَتناجى أربعةٌ منهم وهم: زيد بن عمرو، وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش، وورقة بن نوفل؛ فقال بعضهم لبعض: "تعلموا والله ما قومكم على شيء وإنهم لفي ضلال.

فما حجر نطوف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضرّ ولا ينفع، ومن فَوقِهِ يَجري دم النحور! يا قوم التمسوا لكم دينا غيرَ هذا الدين الذي أنتم عليه"[3].

---

(١) انظر: سعيد حوى: الأساس في السنة وفقهها السيرة النبوية، (١/ ١٨٠- ١٨١).
(٢) انظر: الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد (٢/ ١٨١). أبو الربيع الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء (١/ ١٤٦)، وما بعدها. تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، ط عالم الكتب، بيروت ١٤١٧هـ
(٣) السابق (١/ ٢٢).

أمّا ورقة فدخل النّصرانية، وقيل: إنه نقل إلى العربية بعض ما في الأناجيل.

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى أرض الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة، فلما قدمها تنصر، وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانيا.

وخلفه رسول الله ﷺ بعده على امرأته أم حبيبة، وكان حين تنصّر يمرُّ بأصحاب رسول الله ﷺ، فيقول فقّحنا وصأصأتم، أي أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر، ولم تبصروا بعد [١].

وأما عثمان بن الحويرث، وكان من ذوي قرابة خديجة، فذهب إلى بيزنطية وتنصر، وحسنت مكانته عند قيصر ملك الروم ويقال: إنه أراد أن يُخضع مكة لحماية الرّوم، وأن يكون عامل قيصر عليها، فطرده المكيون فاحتمى بالغساسنة في الشام، وأراد أن يقطع الطريق على تجارة مكة، فوصلت إلى الغساسنة هدايا المكيين، فمات ابن الحويرث عندهم مسمومًا [٢].

وأما قُس بن ساعدة الإيادي، فقد كان خطيبًا، حكيمًا، عاقلًا، له نباهة، وفضل، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بشر بمحمد ﷺ.

فقد روى البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس قال: "إن قس بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عكاظ) فقال في خطبته: سيُعْلَمُ حقٌّ من هذا الوجه، وأشار بيده إلى مكة، قالوا: وما هذا الحق؟

قال: رجل من ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أني أعيش إلى مبعثه لكنت

---

(١) الكلاعي الأندلسي: مرجع سابق (١/ ١٤٦).

(٢) السابق (١/ ١٤٦) .

أولَ من يسعى إليه" وقد أدرك محمدًا ﷺ ومات قبل البعثة [١]. ومن شعره قوله:

فـي الذاهبيـن الأوليـ ـن من القـرون لنـا بصائر
لمّـا رأيـت مـواردا للمـوت ليـس لهـا مصادر
ورأيـت قومـي نحوهـا يمضـي الأصاغـر والأكابر
لا يرجـع الماضـي إلـيّ ولا مـن الباقيـن غابـر
أيقنـت أنـي لا محـا لة حيث صار القوم صائر [٢]

الرجل الأمة.. زيد بن عمرو بن نفيل:

سئل الرسول ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل، فقال: «يُبعث أمةً وحده يوم القيامة»؛ وكان يتعبد في الجاهلية، ويطلب دين إبراهيم عليه السلام، ويوحّد الله تعالى ويقول: "إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم" .

وكان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض كلأ، ثم تذبحونها على غير اسم الله تعالى؟ إنكارا لذلك وتعظيما له. وكان لا يأكل مما ذبح على النصب.

اجتمع رسول الله ﷺ بزيد بن عمرو مرة بأسفل بلدح [٣] قبل أن يوحى إليه ﷺ؛ فعن زيد بن حارثة ﷺ، قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ يوما حارا من أيام مكة ـ وهو مردفي ـ فلقينا زيد بن عمرو بن نفيل ـ فحيا كل واحد منا صاحبه، فقال محمد ﷺ: يا زيد مالي أرى قومك قد شَنِفُوا [٤] لك.

---

(١) البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

(٢) الكلاعي الأندلسي: مرجع سابق (١/ ١٤٦).

(٣) واد قبل مكة من جهة الغرب.

(٤) أي أبغضوك.

قال: والله يا محمد، إن ذلك لغير نائلة ترة[١] لي فيهم، ولكن خرجت أبتغي هذا الدين الذي أبتغي، فخرجت فقال لي شيخ منهم: إنك لتسأل عن دين ما نعلم أحدا يعبد الله به إلا شيخا بالحيرة.

قال: فخرجت حتى أقدم عليه، فلما رآني قال: ممن أنت؟ قلت: أنا من أهل بيت الله، من أهل الشوك والقَرَظ[٢]، قال: إن الذي تطلب قد ظهر ببلادك، قد بُعث نبي، قد طلع نجمه، وجميع من رأيتهم في ضلال. قال: لم أحس بشيء».

ثم قال زيد بن حارثة: ومات زيد بن عمرو، وأنزل على النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ في زيد: «إنه يبعث يوم القيامة أمة وَحْدَهُ».

وقال أبو بكر الصديق ﷺ يذكر اجتماعه بزيد بن عمرو بن نفيل: «كنت جالسا بفناء الكعبة، وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعدا، فمر به أمية بن أبي الصلت، فقال: كيف أصبحت يا باغي الخير؟ قال بخير، قال: هل وجدت؟ قال: لا، ولم آلُ من طلب، ثم قال:

كل دين يوم القيامة إلا ... ما قضى الله والحنيفة بور

أما أن النبي الذي ينتظر منا أو منكم أو من أهل فلسطين».

يقول أبو بكر الصديق ﷺ: «ولم أكن سمعت من قبل بنبي ينتظر أو يبعث، فخرجت أريد ورقة بن نوفل، وكان كثير النظر في السماء، كثيرَ همهمة الصدر، فاستوقفته ثم قصصت عليه الحديث.

فقال: نعم يا ابن أخي، أبى أهل الكتاب والعلماء إلا أنّ هذا النبي الذي يُنتظر من أوسط العرب نسبا، ولي علم بالنسب، وقومك أوسط العرب نسبا، قلت: يا عم، وما يقول النبي؟ قال: يقول ما يقال له أي يوحى إليه ـ إلا أنه لا ظلم ولا تظالم، فلما بعث محمد ﷺ آمنت وصدقت.

(١) ثأر. (٢) القرظ ـ بفتح الراء ـ ورق اللم يدبغ به كالشوك.

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق ﷺ: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيرا مسندا ظهره إلى الكعبة، وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحبّ إليك عبدتك به، ولكن لا أعلمه، ثم يسجد على راحلته[١].

وقال ابن إسحاق: حدثني بعض آل زيد بن عمرو، كان إذا دخل الكعبة قال: "لبيك حقا حقا تعبدا ورِقّا، عُذْتُ بما عاذ به إبراهيم". وكان يقول: "يا معشر قريش إياكم والرياءَ، فإنه يورث الفقر".

ومما كان ينشده من شعره:

أربًّا واحدًا أم ألف ربٍّ؟؟ ... أَدِينُ إذا تقسمت الأمورُ؟
عزلتُ اللات والعزى جميعًا ... كذلك يفعل الجَلد الصبورُ
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمَي بني عمرو أزورُ
ولا غنما أدين وكان ربا ... لنا في الدهر، إذ حلمي يسيرُ

إلى أن قال:

ولكن أعبد الرحمن ربي ... ليغفر ذنبيَ الربُّ الغفور[٢]

وكان الخطاب بن نفيل قد آذى زيد بن عمرو بن نفيل، حتى خرج أعلى مكة، فنزل حراء مقابل مكة، ووكل به الخطاب شبابا من شباب قريش وسفهاء من سفهائهم، فلا يتركونه حين يدخل مكة، وكان لا يدخلها إلا سرا منهم، فإذا علموا به آذنوا الخطاب، فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم، وأن يتابعه أحد منهم على فراقهم.

(١) السابق (١/ ١٤٦).
(٢) محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م. ١/ ٨١.

وقد شاء الله أن يموت زيد بن عمرو بن نفيل قبل البعثة النبوية بقليل. ورثاه ورقة بن نوفل، قائلًا:

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما ... تَجنَّبُ تنورا من النار حاميا
بدينك ربا...ليس رب كمثله ... وتركك أوثان الطواغي كما هيا
وقد يدرك الإنسان رحمة ربه ... ولو كان تحت الأرض ستين واديا

عَلى مَشَارِفِ المَدِينَة

كانت هناك بشارات ومقدمات دلت أهل الحجاز على قرُب زمان مبعث محمد ﷺ، وقد استفاضت بذلك الأخبار.

فمن حديث سلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه وكان من أصحاب بدر قال[1]: "كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يومًا من بيته قبل مبعث النبي ﷺ بيسير، فوقف على مجلس عبد الأشهل.

قال سلمة: وأنا يومئذ من أحدث من فيه سنًّا عليَّ بردة مضطجعًا فيها بفناء أهلي، فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار، فقال ذلك لقومٍ، وكانوا أهل شرك وأصحابَ أوثان، لا يرون أن بعثًا كائنٌ بعد الموت.

فقالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائنًا أن الناس يُبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، ويجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يُحلف به، ولوَدَّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور[2] في الدنيا يحمونه، ثم يدخلونه إياه، فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غدا.

قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليَّ ـ وأنا من أحدثهم سنًّا ـ فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه.

(١) إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، (ص٣١).
(٢) التنور: الفرن.

قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار، حتى بعث الله تعالى رسوله ﷺ، وهو حيٌّ بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر به بغيا وحسدا فقلنا: ويلك يا فلان: ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى: وليس به»(١).

ذكر ابن إسحاق قصة إسلام سلمان الفارسي ﷺ فقال: «عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَدَّثَنِي سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ حَدِيثَهُ مِنْ فِيهِ قَالَ: كُنْتُ رَجُلا فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ، مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا جَيٌّ، وَكَانَ أَبِي دِهْقَانَ قَرْيَتِهِ (٢).

وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ الله إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إِيَّايَ حَتَّى حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ، أَيْ مُلازِمَ النَّارِ، كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ، وَأَجْهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ حَتَّى كُنْتُ قَطَنَ النَّارِ(٣) الَّذِي يُوقِدُهَا لا يَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً.

وَكَانَتْ لأَبِي ضَيْعَةٌ(٤) عَظِيمَةٌ، قَالَ فَشُغِلَ فِي بُنْيَانٍ لَهُ يَوْمًا فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ فِي بُنْيَانٍ هَذَا الْيَوْمَ عَنْ ضَيْعَتِي فَاذْهَبْ فَاطَّلِعْهَا، وَأَمَرَنِي فِيهَا بِبَعْضِ مَا يُرِيدُ، فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ، فَمَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَى، فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ.

وَكُنْتُ لا أَدْرِي مَا أَمْرُ النَّاسِ لِحَبْسِ أَبِي إِيَّايَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا مَرَرْتُ بِهِمْ وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ أَعْجَبَنِي صَلاتُهُمْ وَرَغِبْتُ فِي أَمْرِهِمْ، وَقُلْتُ هَذَا وَالله خَيْرٌ مِنَ الدِّينِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ.

فَوَالله مَا تَرَكْتُهُمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَتَرَكْتُ ضَيْعَةَ أَبِي وَلَمْ آتِهَا، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَيْنَ أَصْلُ هَذَا الدِّينِ؟ قَالُوا: بِالشَّامِ.

---

(١) إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، (ص٣١).

(٢) أي رئيسها وحاكمها.

(٣) أي خادمها والمجوسية: دين المجوس وكانوا يعبدون النار.

(٤) أي بستان.

قَالَ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى أَبِي وَقَدْ بَعَثَ فِي طَلَبِي وَشَغَلْتُهُ عَنْ عَمَلِهِ كُلِّهِ، قَالَ فَلَمَّا جِئْتُهُ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! أَيْنَ كُنْتَ؟ أَلَمْ أَكُنْ عَهِدْتُ إِلَيْكَ مَا عَهِدْتُ؟ قَالَ قُلْتُ: يَا أَبَتِ! مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي كَنِيسَةٍ لَهُمْ، فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ، فَوَالله مَازِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْس.

قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ، قَالَ قُلْتُ: كَلا وَالله إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ دِينِنَا. قَالَ: فَخَافَنِي، فَجَعَلَ فِي رِجْلَيَّ قَيْدًا، ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ.

وَبَعَثْتُ إِلَى النَّصَارَى فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنَ النَّصَارَى فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ. قَالَ: فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنَ النَّصَارَى، قَالَ فَأَخْبَرُونِي بِهِمْ، قَالَ فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَضَوْا حَوَائِجَهُمْ وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلادِهِمْ فَآذِنُونِي بِهِمْ.

قَالَ فَلَمَّا أَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلادِهِمْ أَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَأَلْقَيْتُ الْحَدِيدَ مِنْ رِجْلَيَّ ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ، فَلَمَّا قَدِمْتُهَا قُلْتُ: مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ؟ قَالُوا: الأَسْقُفُّ فِي الْكَنِيسَةِ. قَالَ فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ أَخْدُمُكَ فِي كَنِيسَتِكَ وَأَتَعَلَّمُ مِنْكَ وَأُصَلِّي مَعَكَ، قَالَ: فَادْخُلْ.

فَدَخَلْتُ مَعَهُ، قَالَ فَكَانَ رَجُلَ سَوْءٍ، يَأْمُرُهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهَا فَإِذَا جَمَعُوا إِلَيْهِ مِنْهَا أَشْيَاءَ اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِهِ الْمَسَاكِينَ، حَتَّى جَمَعَ سَبْعَ قِلالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ، قَالَ وَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ.

ثُمَّ مَاتَ فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ النَّصَارَى لِيَدْفِنُوهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلَ سَوْءٍ، يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُكُمْ فِيهَا فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا. قَالُوا: وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ؟ قَالَ قُلْتُ: أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزِهِ. قَالُوا: فَدُلَّنَا عَلَيْهِ.

www.almoslih.net

قَالَ فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ، قَالَ فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرِقًا، قَالَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا: وَاللهِ لا نَدْفِنُهُ أَبَدًا. فَصَلَبُوهُ ثُمَّ رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ، ثُمَّ جَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ فَجَعَلُوهُ بِمَكَانِهِ.

قَالَ يَقُولُ سَلْمَانُ: فَمَا رَأَيْتُ رَجُلا لا يُصَلِّي الْخَمْسَ أَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ وأَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَلا أَرْغَبُ فِي الآخِرَةِ وَلا أَدْأَبُ لَيْلا وَنَهَارًا مِنْهُ. قَالَ فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مَنْ قَبْلَهُ، وَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَانًا.

ثُمَّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ! إِنِّي كُنْتُ مَعَكَ، وَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مَنْ قَبْلَكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَى مِنْ أَمْرِ اللهِ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! وَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، لَقَدْ هَلَكَ النَّاسُ وَبَدَّلُوا وَتَرَكُوا أَكْثَرَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ إِلا رَجُلا بِالْمَوْصِلِ وَهُوَ فُلَانٌ، فَهُوَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَالْحَقْ بِهِ.

فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ الْمَوْصِلِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ! إِنَّ فُلَانًا أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَى أَمْرِهِ. قَالَ فَقَالَ لِي: أَقِمْ عِنْدِي. فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ عَلَى أَمْرِ صَاحِبِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ.

فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ! إِنَّ فُلَانًا أَوْصَى بِي إِلَيْكَ وَأَمَرَنِي بِاللُّحُوقِ بِكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مِنَ اللهِ مَا تَرَى، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! وَاللهِ مَا أَعْلَمُ رَجُلًا عَلَى مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ إِلا بِنَصِيبِينَ، وَهُوَ فُلَانٌ، فَالْحَقْ بِهِ.

فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ نَصِيبِينَ، فَجِئْتُهُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِي وَمَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبِي، قَالَ: فَأَقِمْ عِنْدِي. فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ عَلَى أَمْرِ صَاحِبَيْهِ، فَأَقَمْتُ مَعَ خَيْرِ رَجُلٍ، فَوَاللهِ مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ.

فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ! إِنَّ فُلَانًا كَانَ أَوْصَى بِي إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! وَاللهِ مَا نَعْلَمُ أَحَدًا بَقِيَ

عَلَى أَمْرِنَا آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إِلا رَجُلا بِعَمُّورِيَّةَ، فَإِنَّهُ بِمِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَأْتِهِ، قَالَ: فَإِنَّهُ عَلَى أَمْرِنَا.

قَالَ فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ عَمُّورِيَّةَ وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي، فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي. فَأَقَمْتُ مَعَ رَجُلٍ عَلَى هَدْيِ أَصْحَابِهِ وَأَمْرِهِمْ، قَالَ وَاكْتَسَبْتُ حَتَّى كَانَ لِي بَقَرَاتٌ وَغُنَيْمَةٌ، قَالَ ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللهِ.

فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ! إِنِّي كُنْتُ مَعَ فُلَانٍ، فَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ، وَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي؟

قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! وَاللهِ مَا أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظَلَّكَ زَمَانُ نَبِيٍّ، هُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ، يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ مُهَاجِرًا إِلَى أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ(١)، بَيْنَهُمَا نَخْلٌ، بِهِ عَلَامَاتٌ لا تَخْفَى: يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ وَلا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ فَافْعَلْ.

ثُمَّ مَاتَ وَغُيِّبَ، فَمَكَثْتُ بِعَمُّورِيَّةَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ أَمْكُثَ، ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْبٍ تُجَّارًا، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَحْمِلُونِي إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ وَأُعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وَغُنَيْمَتِي هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

فَأَعْطَيْتُهُمُوهَا وَحَمَلُونِي، حَتَّى إِذَا قَدِمُوا بِي وَادِي الْقُرَى ظَلَمُونِي فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ مِنْ يَهُودَ عَبْدًا، فَكُنْتُ عِنْدَهُ، وَرَأَيْتُ النَّخْلَ، وَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ الْبَلَدَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، وَلَمْ يَحِقْ لِي فِي نَفْسِي.

فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَابْتَاعَنِي مِنْهُ، فَاحْتَمَلَنِي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلا أَنْ رَأَيْتُهَا فَعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي، فَأَقَمْتُ

(١) الحرة: الأرض ذات الحجارة السود.

www.almoslih.net

بِهَا، وَبَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ فَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ، لا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرٍ مَعَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرِّقِّ.

ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ وَسَيِّدِي جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ فُلانُ: قَاتَلَ اللهُ بَنِي قَيْلَةَ، وَاللهِ إِنَّهُمْ الآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ.

فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذَتْنِي الْعُرَوَاءُ[1] حَتَّى ظَنَنْتُ سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي، قَالَ: وَنَزَلْتُ عَنْ النَّخْلَةِ فَجَعَلْتُ أَقُولُ لابْنِ عَمِّهِ ذَلِكَ: مَاذَا تَقُولُ مَاذَا تَقُولُ؟ قَالَ فَغَضِبَ سَيِّدِي فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً ثُمَّ قَالَ: مَا لَكَ وَلِهَذَا ؟! أَقْبِلْ عَلَى عَمَلِكَ. قَالَ قُلْتُ: لا شَيْءَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَثْبِتَ عَمَّا قَالَ.

وَقَدْ كَانَ عِنْدِي شَيْءٌ قَدْ جَمَعْتُهُ، فَلَمَّا أَمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِقُبَاءَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُو حَاجَةٍ، وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ، فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ، قَالَ فَقَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: كُلُوا. وَأَمْسَكَ يَدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ.

قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي هَذِهِ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ عَنْهُ فَجَمَعْتُ شَيْئًا، وَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ جِئْتُ بِهِ، فَقُلْتُ إِنِّي رَأَيْتُكَ لا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا، قَالَ فَأَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهَا، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ.

قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي هَاتَانِ اثْنَتَانِ، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ، قَالَ: وَقَدْ تَبِعَ جَنَازَةً مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ شَمْلَتَانِ لَهُ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ هَلْ أَرَى الْخَاتَمَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي.

---

(١) برد الحمى.

فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ اسْتَدَرْتُهُ عَرَفَ أَنِّي أَسْتَثْبِتُ فِي شَيْءٍ وُصِفَ لِي، قَالَ فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ فَانْكَبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: تَحَوَّلْ. فَتَحَوَّلْتُ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ حَدِيثِي كَمَا حَدَّثْتُكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، قَالَ فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ»[1].

وفي إسلام سلمان الفارسي الكثير من الأدلة الناطقة والبراهين الصادقة على صدق نبوة الرسول ﷺ.

ومن ذلك إخبار أحبار اليهود ورجالاتها بقرب مبعثه عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك قصة ابن الهيبان الذي خرج من بلاد الشام، ونزل في بني قريظة، ثم توفي قبل البعثة النبوية بسنتين.

فإنه لما حضرته الوفاة قال لبني قريظة: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير[2] إلى أرض البؤس والجوع[3]؟ قالوا: أنت أعلم، قال: إني قدمت هذه البلدة أتوكف[4] خروج نبي قد أظل زمانه، وكنت أرجو أن يبعث فأتبعه.

وقد شاع حديث ذلك، وانتشر بين اليهود وغيرهم، حتى بلغ درجة القطع عندهم، وبناء عليه كان اليهود يقولون لأهل المدينة: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم[5].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/٤٤١-٤٤٤)، قال شعيب الأرنؤوط، وحسين الأسد في تحقيق سير أعلام النبلاء للذهبي (١/٥١١): رجاله ثقات وإسناده قوي.

(٢) أرض الخمر والخمير: الشام.

(٣) أرض البؤس والجوع: الحجاز.

(٤) أتوكف: انتظر.

(٥) انظر: محمد قلعجي، دراسة تحليلية، (ص١٠٧).

www.almoslih.net

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وكان ذلك الحديث سببًا في إسلام رجال من الأنصار وقد قالوا: "إنما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه، لما كنا نسمع من رجال اليهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قَتْلَ عادٍ وإرم"[١].

وقد قال هرقل ملك الروم عندما استلم رسالة محمد ﷺ: "وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم"[٢].

وكان لأحبار اليهود الذين عرفوا صفة الأرض التي يهاجر إليها نبي آخرِ الزمان وهي يثربُ[٣] دَورُهم في رَدِّ تُبّع عنها ـ تبع أحد ملوك اليمن واسمه: تبان أسعد من أبناء سبأ، غزا الأنبارَ والحيرةَ والتركَ، وغزا الصين، حتى هابته الملوكُ وأهدتْ له الهدايا، كان وثنياً، ثم دخل اليهودية، وأدخلها إلى اليمن.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تبعا، فإنه قد أسلم»[٤] وذلك عندما غزا الحجاز، وأراد الهجومَ على المدينة، فخرج إليه حَبْران من أحبار اليهود حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلِها، فقالا له: أيها الملك لا تفعلْ، فإنك إن أبَيتَ إلا ما تريد حِيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك. فقال لهما:

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/٢٣١) .
(٢) انظر: إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية (ص١٤٦).
(٣) يثرب: المدينة.
(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (ح/١٤١٩)، وقال عنه الألباني في سلسلة الصحيحة: صحيح بشواهده . وانظر تاريخ الطبري (١/٣٣١).

ولم ذلك؟ فقالا: هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان، تكون داره وقراره.

فتناهى عن ذلك، ورأى أن لهما علما، وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما[١].

ولمعرفتهم بزمان خروجه ومكانه، كان هناك من يقدم إلى المدينة قبل الإسلام بسنين قلائل، منهم رجل من أهل الشام يقال له ابن الهيّبان قدم المدينة قبيل الإسلام بسنين، فسكنها وظهرت عليه علاماتُ الصلاح، فلما حضرته الوفاةُ وعرف أنه ميت، قال: أيا معشر يهود! ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ فقالوا: إنك أعلم.

قال: فإني إنما قدمت هذه البلدةَ أتوكف ـ يعني أنتظر ـ خروج نبي قد أظل زمانُه، وهذه البلدةُ مهَاجره، فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تُسبقُنَّ إليه يا معشر يهود.

وكان ممن شهد قصة ابن الهيبان ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، من بني قريظة، فلما بعث رسول الله ﷺ وحاصر بني قريظة بعد نقضهم العهد الذي كان بينهم وبينه، قال هؤلاء الفتية وكانوا شبابا أحداثا: يا بني قريظة! والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان. قالوا: ليس به. قالوا: بلى، والله إنه لهو بصفته. فنزلوا وأسلموا وأحرزوا دماءهم و أموالهم وأهليهم[٢].

وكان سماع أهل المدينة من الأوس والخزرج للبشائر بخروج النبي ﷺ من اليهود أمرًا متكررًا، فمن ذلك، ما رواه حسان بن ثابت رضي الله عنه قال: والله، إني لغلام يفعة ابنُ سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديا يصرخ

(١) ابن هشام: السيرة النبوية (١/١٣٣).
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية (٢/٤٠).

بأعلى صوته على أُطُمِه[١]: يا معشر يهود! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك! مالَكَ؟ قال: طلع الليلةَ نجم أحمد الذي ولد به.

قال ابن إسحاق: فسألت سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فقلت: ابن كم كان حسان بن ثابت مقدمَ رسول الله ﷺ المدينة؟ فقال: ابن ستين. وقدمها رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين[٢].

ولم تقتصر البشائر على المدينة فحسب، بل كانت في مكة أيضًا، فكان في مكة يهودي يتجر بها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، قال في مجلس من قريش: يا معشر قريش! هل الليلة مولود؟ فقالوا: والله ما نعلمه.

قال: الله أكبر، أما إذا أخطأكم فلا بأس، فانظروا، واحفظوا ما أقول لكم، ولد هذه الليلة نبيّ هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات، كأنهن عرف فرس، لا يرضع ليلتين، وذلك أن عفريتا من الجن أدخل أصبعه في فمه، فمنعه الرضاع.

فتصدع القوم من مجلسهم وهم متعجبون من قوله وحديثه، فلما صاروا إلى منازلهم، أخبر كل إنسان منهم أهلَه، فقالوا: قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلامٌ سمَّوه محمدا.

فالتقى القوم، فقالوا: هل سمعتم حديث اليهودي، وهل بلغكم مولد هذا الغلام؟ فانطلقوا حتى جاءوا اليهودي، فأخبروه الخبر. قال: فاذهبوا معي حتى أنظر إليه.

فخرجوا حتى أدخلوه على آمنة، فقال: أخرجي إلينا ابنك، فأخرجته، وكشفوا له عن ظهره، فرأى تلك الشامة، فوقع اليهودي مغشيا عليه، فلما أفاق قالوا:

(١) أطمه: حصنه.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية (١/٢٤٩).

ويلك! ما لك؟ قال: ذهبتْ والله النبوةُ من بني إسرائيل، فرحتم به يا معشر قريش، أما والله ليسطونّ بكم سطوة يخرج خبرُها من المشرق والمغرب[٣].

وكان لمعرفتهم بزمن خروجه أثرُه في ترقبهم هجرتَه إلى المدينة، فهذا رجل من اليهود يصعد فوق حصن له في الأيام التي كان المسلمون في المدينة يترقبون وصول محمد ﷺ إليهم بعدما سمعوا بخروجه مهاجرا إليهم، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب ـ وفي رواية: يا بني قيلة[٤] هذا جدكم الذي تنتظرون. فثار المسلمون، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة[٥].

وروي عن ابن عباس أن نساء أهل مكة احتفلن في عيد كان لهنّ في رجب، فلم يتركن شيئا من إكبار ذلك العيد إلا أتينه، فبينما هن في عيدهن تمثّل لهن رجل، فلما صار منهن قريبا نادى بأعلى صوته: يا نساء مكة إنه سيكون في بلدكنّ نبي يقال له أحمد، يبعث برسالة الله، فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجا فلتفعل، فحصبته النساء وقبحنه وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله، ولم تعرض له فيما عرض فيه النساء[٦].

ولعل العرب من كثرة ما سمعوا عن قرب ظهور النبي ﷺ على لسان الكهان والرهبان، وكان بعض هؤلاء يذكره باسمه محمدا. وهو اسم جديد بين العرب لم يسموا به من قبل، دفع بعض العرب على أن يسمى ابنه محمدا، أملا في أن يكون هو النبي المنتظر.

(٣) روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، وأخرجه الحاكم عن ابن إسحاق (٤١٧٧)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري (٦/٥٨٣).
(٤) بنو قيلة: يعني الأوس والخزرج.
(٥) رواه الإمام البخاري (٣٩٦٤).
(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى (١٥/ ٧)، ابن حجر: الإصابة (٦٠/ ٨).

فسمّي به قبل مبعث النبي صلوات الله وسلامه عليه على ما ورد في طبقات ابن سعد: محمد بن خزاعة بن حزابة، من بني ذكوان من بني سليم، طمعا في النبوة.. فأتى أبرهة في اليمن واعتنق دينه، وعنه يقول أخوه قيس بن خزاعي:

فذلكُـمُ ذو التـاج منكم محمدُ ورايتُه في حومة الحرب تخفق

وسمي به أيضًا في بني سواءة محمد الجشعي، وكذلك محمد الفقمي، ومحمد الأسيدي، كلهم سمي بهذا الاسم طمعا في النبوة ولم يكن هذا الاسم معروفا بين العرب قبل هذا الحين، مما يدل دلالة ملموسة على صدق نبوته ﷺ.

هذا وقد كانت إرهاصات سبقت بدء الوحي تمهيدا من الله عز وجل لرسوله ﷺ، ومن ذلك ما يلي:

أ تسليم الحَجَر على النبي ﷺ قبل النبوة، فعن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»[١].

ب الرؤيا الصادقة، وقد كانت أول ما بدئ له من الوحي، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فلقِ الصبح كما صح بذلك الحديث[٢].

وقد حبب إليه ﷺ العزلة والتحنث (التعبد) فكان يخلو في غار حراء وهو جبل يقع في الجانب الشمالي من مكة، ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشرا، وتارة أكثرَ من ذلك إلى شهر، ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلا حتى يتزودَ من جديد لخلوة أخرى، ويعود الكرَّة إلى غار حراء، وهكذا إلى أن جاءه الوحيُ وهو في إحدى خلواته تلك[٣].

(١) مسلم في الصحيح، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه قبل النبوة رقم (٢٢٧٧).
(٢) البخاري، كتاب بدء الوحي (رقم ٣).
(٣) انظر: البوطي: فقه السيرة النبوية، (ص٦٠).

لقد أتيح لمحمد صلوات الله عليه وسلامه من خديجة الولد، وأتيح له معها الأمن والدَّعة. ولكنه في ذلك الطَّور من أطوار حياته ظهرت فيه خصال، لم تكن مألوفةً في شباب قريش: فهو شديد النُّفرة من اللهو وشديد النفرة من اللغو أيضًا؛ وهو أبعد الناس عن التكلف وأقربهم إلى الإسماح واليسر؛ وهو أبغض الناس لهذه الأوثان التي كان قومه يعبدونها مخلصين أو متكلفين.

وهو أصدق الناس إذا تكلم وأوفاهم إذا عامل وأبعدهم من كل ما يزري بالرجل الكريم، وهو بعد ذلك أوصل الناس للرحم وأرعاهم للحق وأشدهم إيثارًا للبر.

على أنه قد أخذ يميل إلى العزلة شيئًا فشيئًا، ثم اشتد عليه حب العزلة فجعل يترك مكة بين حين وحين ويمضي وقد تزود لعزلته حتى إذا بلغ غار حراء، وهو ما سنعرفه في الفصل القادم بإذن الله.

على أي حال فقد كانت الفترة التي عاشها الرسول ﷺ قبل البعثة تشكل ثلثي عمره، فهي فترة مهمة تتجلى فيها العناية الإلهية بنبي الرحمة، وإعداده للقيام بالرسالة الخالدة للبشرية جميعًا.

كما أن هذه العناية الإلهية والأخلاق الربانية تترك آثارًا في مجتمع مكة، فإن شخصًا قد نال هذه العناية لا يمكن أن يكون مغمورًا أو عاديًا، بل يشار إليه بالبنان لما فيه من السمو والرحمة والطهر والأمانة والصدق.

وكل هذه الصفات مهدت للرسالة، فلم يستنكر العقلاء حينما سمعوا بنبوته وبعثته بل دخلوا في الإسلام، أو أخذوا يمهدون لذلك مع أقوامهم، ويفكرون بالدخول عاجلًا أم آجلًا.

www.almoslih.net

دروس وعبر

❶ ضرورة أن يتحلى الإنسان بالأخلاق الصالحة حتى مع المفسدين، فإن الفضائل الأخلاقية وحُسْنَ المعاملة والصدق والأمانة والعفاف، كلها من الأمور التي يتفق عليها جميع العقلاء من بني آدم، في كل التجمعات البشرية، وثنية وغير وثنية.

❷ أراد الله عز وجل بحكمته أن يبعث الأنبياء من بيئة حسيبة نسيبة في أقوامهم؛ لأن ذلك أدعى إلى استماع الناس لهم، لأنه من عادة البشر ـ خاصة في البيئات المترفة والمتعنتة ـ أن يزدروا بالمصلحين والدعاة، إذا كانوا من بيئة مغمورة، أو نسب وضيع...

صحيح أن الإسلام لا يقيم وزنا لشرف الأنساب تجاه الأعمال، ولكن هذا لا يمنع أن يكون الذي يجمع بين شرف النسب وشرف الفعل، أقرب نجاحًا وتأثيرًا في قلوب الجماهير، ولعل هذا المعنى يلمح من قوله ﷺ وهو يجيب أصحابه عن معادن العرب: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[1].

❸ ضرورة أن ينخرط الإنسان في الحياة الاجتماعية لقومه وأن يختار منها الجوانب الإيجابية ليشارك فيها، ويبتعد عن الجوانب السلبية، وأن يمتلأ قلبه بالعواطف الإنسانية النبيلة التي تجعله يشعر بآلام الضعفاء والبائسين، وأن يشارك عمليا في تقديم الحلول لكل ما يصيب مجتمعه من أزمات.

(١) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٩) كتاب التفسير، باب لقد كان في يوسف .. إلخ.

ويدخل تحت هذا البند في تعاملاتنا المعاصرة التعرف على عادات الناس وأوضاعهم ومشكلاتهم من الداخل، لما في ذلك من الأثر الكبير على التوجيه والفهم الدقيق لطبيعة المشكلة.

فمن أراد أن يصلح المتدينين عليه أن يعيش معهم في مساجدهم ومجالسهم، ومن أراد أن يصلح حال العمال والفلاحين عليه أن يعيش معهم في قراهم ومصانعهم، ويتحدث إليهم في مجتمعاتهم، ومن أراد أن يصلحَ المعاملاتِ الجاريةَ بين الناس، عليه أن يختلط بهم في أسواقهم ومتاجرهم.

ومن أراد أن يصلح الأوضاع السياسيةَ، عليه أن يختلط بالسياسيين وتنظيماتهم، ويقرأ لهم برامجهم وأحزابهم، والثقافةَ التي نهلوا منها، والاتجاهَ الذي يندفعون نحوه، ليعرف كيف يخاطبهم بما لا تنفر منه نفوسُهم، وكيف يسلك في إصلاحه لهم بما لا يدعوهم إلى محاورته عن كُرْهٍ نفسي واندفاع عاطفي.

❹ لا بد أن يتمتع المتصدر للإصلاح الاجتماعي والديني بدرجة عالية من الذكاء والقدرة على القيادة والتوجيه، وسلامة المنطق والتفكير، أما الأشخاص العاديون فهم أبعدُ الناس عن جدارة القيادة الروحية والفكرية.

بل إن من الضرورةَ الاجتماعية القصوى ألّا يتمكن الأغبياء والمضطربون في تفكيرهم والشاذّون في آرائهم من القيادة في أية ناحية من نواحي الحياة، إذ سرعان ما يهوون بمجتمعاتهم إلى الحضيض من شتى النواحي الفكرية والاقتصادية والأخلاقية.

❺ كلما كانت البيئة التي يعيش فيها الإنسان أقربَ إلى الفطرة والنقاء، وأبعدَ عن الحياة المعقدة، كان ذلك أدعى أن يكون أهلُها أقربَ إلى صفاء الذهن وقوة العقل والجسم.

ولذلك لم يختر الله العربَ لأداءِ رسالة الإسلام صدفةً ولا عبثًا، بل لأنهم كانوا بالنسبة إلى من يجاورهم من الأمم المتمدنة أصفى نفوسًا، وأسلمَ تفكيرًا،

وأقومَ أخلاقًا، وأكثرَ احتمالًا لمكاره الحروب في سبيل دعوة الله، ونشر رسالته في أنحاء العالم.

٦ يعد عمل الرسول ﷺ بالرعي والتجارة دعوةً للفقراء إلى العمل، ونبذَ البطالةِ والكسلِ، حتى لا يكونوا عالةً على المجتمع، وسوسًا ينخر في عظامه، وبهذا العلاج القوي الفعال يمكن أن يستأصل ذلك الداء.

إذ تجتمع ضده قوتان، ويهاجَم من ناحيتين، ويقع فريسةً بين عدوين: الأموال التي ينفقها الأغنياء في سبيل الله، وكفاح الفقراء وعملهم في سبيل الحياة، فلا يلبث الفقر أن يزمع الرحيل إلى غير مآب، تاركًا وراءه مجتمعًا نظيفًا قويًا. ينعم بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

٧ إن الأمانة والصدق أهمُّ مواصفات التاجر الناجح، وصفة الأمانة والصدق في التجارة في شخصية النبي ﷺ، هي التي رغبت خديجة في أن تعطيه مالها ليتاجرَ به ويسافرَ به إلى الشام، فبارك الله لها في تجارتها، وفتح الله لها من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم.

٨ إن التجارة موردٌ من موارد الرزق التي سخرها الله لرسوله ﷺ قبل البعثة، وقد تدرب النبي ﷺ على فنونها، وقد بين النبي ﷺ أن التاجر الصدوق الأمين في هذا الدين يُحشر مع الصديقين والشهداء والنبيين.

وهذه المهنة مهمة للمسلمين، ولا يقع صاحبها تحت إرادة الآخرين واستعبادهم وقهرهم وإذلالهم، فهو ليس في حاجة إليهم، بل هم في حاجة إليه، وبحاجة إلى خبرته وأمانته وعفته.

٩ ذاق محمد ﷺ مرارةَ فقْدِ الأبناءِ، كما ذاق من قبلُ مرارةَ فقد الأبوين، وقد شاء الله ـ وله الحكمة البالغة ـ ألا يعيش له ﷺ أحد من الذكور، حتى لا يكونَ مدعاة لافتتان بعض الناس بهم، وادعائهم لهم النبوة.

فأعطاه الذكور تكميلا لفطرته البشرية، وقضاء لحاجات النفس الإنسانية، ولئلا ينتقص النبي ﷺ في كمال رجولته شانئ، أو يتقوّل عليه متقوِّل، ثم أخذهم في الصغر.

وأيضا ليكون ذلك عزاءً وسلوى للذين لا يرزقون البنين، أو يرزقون ثم يموتون، كما أنه لون من ألوان الابتلاء، وأشد الناس بلاء الأنبياء، وكأن الله أراد للنبي ﷺ أن يجعل الرقة الحزينة جزءًا من كيانه؛ فإن الرجال الذين يسوسون الشعوب لا يجنحون إلى الجبروت، إلا إذا كانت نفوسُهم قد طُبعت على القسوة والأثرة، وعاشت في أفراح لا يخامرها كدر، أما الرجل الذي خبِرَ الآلام، فهو أسرع الناس إلى مواساة المحزونين ومداواة المجروحين.

١٠ وفي زواج النبي ﷺ من خديجة ﵂ ما يلجم ألسنة وأقلام الحاقدين على الإسلام وقوة سلطانه، من المستشرقين وعبيدهم العلمانيين، الذين ظنوا أنهم وجدوا في موضوع زواج النبي ﷺ مقتلا يصاب منه الإسلام، وصوروا النبي ﷺ في صورة الرجل الشهواني الغارق في لذاته وشهواته.

فنجد أن النبي ﷺ عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئة جاهلية، عفيفَ النفس، دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج حوله.

كما أنه تزوج من امرأة لها ما يقارب ضعف عمُره، وعاش معها دون أن تمتد عينه إلى شيء مما حوله، وإن من حوله الكثير، وله إلى ذلك أكثرُ من سبيل، إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب، ثم الكهولة، ويدخل في سن الشيوخ.

وقد ظل هذا الزواج قائما حتى توفيت خديجة ﵂، عن خمسة وستين عاما، وقد ناهز النبي عليه الصلاة والسلام الخمسين من العمر، دون أن يفكر خلالها بالزواج بأيِّ امرأة أخرى، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء، والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية.

هذا محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم

٤

بِدَايَةَ الوَحْيِ والدَّعْوَةِ السِّرِّيَّةِ

نُزُولُ الوَحيِ

في غار حراء:

لو أن رجلًا غيرَ نبينا ﷺ تزوج من خديجة الجميلة الغنية لأقبل على الدنيا، ولكان همه أن ينمي ثروتها ليربو حظُّه من الحياة المادية، ولغشي مجالس مكة، حيث تدورُ الكؤوس الباعثة للنشوة في الرؤوس، وحيث تسمع أحلى الأحاديث وأجمل الدعابات، وأطلى الأقاصيص.

ولكن هَوَتْ نفس محمد الزكية صلوات الله وسلامه عليه إلى أن يخلوَ بها تأملا في ملكوت السموات والأرض.

وعلى بعد فرسخين[1] شمالَ مكة يوجد جبل يسمى جبل حراء، ويوجد بأعلى الجبل بعيدا عن ضجّة الناس وضوضاء الحياة غار يحتاج الصعود إليه جهدا ومشقة؛ مما يزهد الناس من الصعود إليه؛ وهذا خير مكان يصلح للانقطاع عن الناس، والتفكّرِ في ملكوت السموات والأرض.

ولذلك وجد فيه النبي ﷺ خير مكان يمكّنه من الإمعان فيما شُغلت به نفسُه من تفكير وتأمل، كما وجد فيه طمأنينة نفسه، وشفاء شغفه بالوحدة، يتلمس

(١) الفرسخ: يساوي (١٢،٠٠٠) ذراع، أو ما يساوي ثمانية أكيال.

أثناءها الوسيلةَ إلى ما يشتد إليه ضميرُه، وفكره من رغبة صادقة في استلهام ما في الكون من حقائق.

ولذا كان ﷺ يذهب إليه قبل البعثة، طوال شهر رمضان من كل عام[1]، يقيم به مكتفيا بالقليل من الزاد، ويظل ممعنا في التأمل والتدبر، ملتمسا الحق، فإذا انقضى زاده أو كاد ينقضي عاد إلى أهله فتزود من جديد، ورجع إلى غاره فأوى إليه ومكث فيه ما شاء الله أن يمكث.

وكانت خديجة رضي الله عنها تؤمّن للرسول ﷺ الهدوء الشامل، والاستقرار الكامل، تأخذ له الطعام إلى الغار إذا أبطأ عنها، وتكلأه بحبها إذا حضر إليها، كانت مقتنعة بعمله، مدركة بفطرتها السليمة أن لزوجها شأنا عظيما، كانت خديجة رضي الله عنها له ردءا وعونا وحصنا يعتصم به من عوادي الدهر، يستلهم منها الأمن عند الخوف، ويستمد منها القوة عند الضعف، ويجد فيها السكينة عند القلق والاضطراب[2].

ما بين السابع والثلاثين والأربعين من عام الفيل كان محمد ﷺ قد ابتدأ الاعتزال عن الناس والصعود إلى غار حراء. وكان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة، حتى لقد كان ينسى نفسه، وينسى طعامه، وينسى كل ما في الحياة؛ لأن مظاهر الحياة من حوله تضج بالأباطيل والزيف، والإخلاد إلى المتع الحسية الفانية، والقتالِ من أجل ناقة، أو لأتفه سبب، وعبادةِ أحجار لا تضر ولا تنفع... إلخ مما كان يرى في حياة الناس، فكان يقلّب كل هذا في فكره النقي فيزداد بعدا وازورارا عما اعتاده الناس من ألوان الزيف والطيش والسخافة.

ولم يكن النبي ﷺ يطمع في أن يجد فيما حوله من أوضار الوثنية والديانات المنحرفة الحقَّ الذي يُنشدُ، بل في هذا الكون المحيط به، فعليه أن يتدبر في خلق

(١) انظر: ابن حجر: الفتح (١/ ٢٣)، ابن هشام: السيرة (١/ ٢٥٢) أبو نعيم: دلائل النبوة، رقم (١٦٣).

(٢) أمين دويدار: صور من حياة الرسول، (ص٩٠).

السماء ونجومها وقمرها وشمسها، وفي الأرض بما فيها من ألوان الحياة وإبداع الخلق الذي يدل على الخالق العظيم سبحانه.

وفي كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وإبداعه ودقة خلقه، ومعرفة خالقه العظيم سبحانه وتعالى.

ففي هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا، وكان ابتغاء إدراكها يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتّصل بهذا الكون، وليخترق الحجب إلى مكنون سرّه[1].

وكان تفكيره يملأ نفسه وفؤاده وضميره، وكل ما في وجوده، ويشغله لذلك عن هذه الحياة وصبحها ومسائها. فإذا انقضى شهر رمضان عاد إلى خديجة رضي الله عنها، وبه من أثر التفكير ما يجعلها تسائله، تريد أن تطمئنّ إلى أنه بخير وعافية.

والسؤال هنا: هل لو عرض أي منا لنفسه من تحول لغنى بعد فقر، وامتلك ما امتلك، أن يرضى بالغار وظلمته، ووحدته، وبعده، وعلوه، ومشقة الوصول إليه؟

ماذا لو كرر أحدنا الفعل في عصرنا لاحتاج لسيارة مكيفة، وغار مكيف ومصعد سريع، ويبقى هناك قرابة الساعة مع أصدقاء يأنس بهم مخافة الوحدة والملل، ولن يكررها مرة أخرى، وهنا أشهد بأنه ﷺ معجزٌ لنا حتى في عصرنا هذا وكل العصور، وهو لم يصبح بعد نبيا رسولا.

الرؤيا الصادقة:

ظل محمد ﷺ على حاله مع زوجته ومع نفسه ومع ربه حتى أتم الأربعين من عمره، وعلى رأس هذا العام الجديد ـ تمام الأربعين ـ في شهر ربيع الأول الذي ولد فيه، وهو رأس الكمال أحس محمد ﷺ في نفسه أمرا غريبا، فكان يرى في نومه ما سيحدث في غده، فكانت الرؤيا تأتيه كفلق الصبح.

(١) انظر: إبراهيم العلي: صحيح السيرة (ص٦٧) "بتصرف".

www.almoslih.net

وتحدثنا عائشة رضي الله عنها عن ذلك فتقول: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا»(١).

فكانت تنبلج أثناءها أمام باصرته أنوارُ الحقيقة التي ينشد، ويرى معها باطلَ الحياة وغرور زخرفها. إذ ذاك آمن أن قومه قد ضلوا سبيل الهدى، وأن حياتهم الروحيّة قد أفسدها الخضوع لأوهام الأصنام، وما إليها من عقائدَ متصلة بها ليست دونها ضلالاً(٢).

وعندما شارف النبي ﷺ الأربعين، وذهب كعادته إلى غار حراء ليتحنثَ، وقد امتلأت نفسُه بكثير من التأملات فيما يرى ويسمع، وفيما يفكر ويتدبر من أمر هذا الكون.

وزاده تأملا وتفكرا أمرُ تلك الرؤى الصادقة التي يراها، فكان يرهف ذهنه وقلبه، ويطيل الصوم، وطالت به الحال ستة أشهر، حتى خشي على نفسه عاقبةَ أمره.

فأسرّ بمخاوفه إلى خديجة وأظهرها على ما يرى، فطمأنته الزوج المخلصة الوفيّة، وإن لم يَدُرْ بخاطرها ولا بخاطره أن الله يهيئه بهذه الرياضة الروحية إلى اليوم العظيم؛ يومِ الوحي الأول، ويهيئه بها إلى عبء الاضطلاع بمهام جسيمة، وإخراج العباد من دنس الشرك والوثنية إلى طهارة التوحيد وعز العبودية لله الخالق الرازق مالك الملك، وملك الملوك.

(١) البخاري برقم (٣) كتاب بدء الوحي، باب كيف بدأ الوحي.
(٢) انظر: أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٢٥).

نزول ضيف حراء:

حل رمضان من العام الأربعين من الفيل، وخرج محمد ﷺ إلى الغار كعادته في شهر رمضان «بينما كان العالم كلُّه في غفلة عن ذلك الرجل الذي يأوي إلى غار حراء متوحِّدًا في سبيل التوحيد، وكانت ساعاتٌ يرتبط بها تاريخ أحقاب ودهور، فلما انقضت مدتها لم يبق في الأرض المعمورة غافل عن ضيف ذلك الغار، ولم يبق جاهل بآثار تلك الساعات التي كان يقضيها فيه بالليل والنهار..» (١).

وبينما كان ﷺ مستغرقا في تأملاته، يلتمس في عتمة غار حراء شعاعا من نور الحق، وقد هجع الناس، لا يلقون بالا لهذا المختلي في غار حراء، وقد ألفت أن تراه ينسحب من زحام المجتمع المكي، وقبل أن يطلع فجر هذه الليلة من رمضان، وينشر نوره البهي على القمم والسفوح والأودية والقيعان، فيضيء الظلمة الداجية، ظهر نور من نوع جديد؛ إنه نور الوحي الإلهي.

في غار حراء، ذاك الغار الشاهق الذي يقع على الطريق ما بين السماء والأرض، وفي ليلة يوم الاثنين السابع عشر من رمضان وكانت سن محمد ﷺ في تلك الليلة المباركة أربعين سنة قمرية وستة أشهر وأيام، تم اللقاء بين محمد القادم من الأرض حاملاً ضراعتها، وبين جبريل القادم من السماء حاملاً رسالتها، ودارَ الحوارُ:

الملك جبريل: اقرأ.

النبي محمد ﷺ: ما أنا بقارئ.

فهو لم يتعلم القراءة قط، وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه، فكان جوابه البدهي: "ما أنا بقارئ"، ولكن جبريل يضمه إليه ويعاود الطلب: "إقرأ"، فيتكرر الجواب، ثلاث مرات.

(١) عباس العقاد: الإسلام دعوة عالمية، (ص ٩٩).

فيقول له جبريل ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾[العلق: ١-٤].

إنها الآيات الأُوَلُ التي نزلت على النبي ﷺ، فكانت بداية كتاب معجز، وبرهانَ نبوة، ولواءَ عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان، وصنعت أمة وقادت حضارة، وبدأ بها تاريخ جديد، ليس لمكة فحسب، بل للعالم أجمع.

وبدأ بها صراع ما زال مستمرا منذ تلك اللحظة المباركة إلى يومنا هذا، وسوف يظل باقيا إلى أن يأتي أمر الله، لأنه صراع أبدي، إنه تاريخ الإيمان والكفر، والحق والباطل، إنه تاريخ العبادة الحقيقية لله، والتعبدِ لغيره مما يقترفه البشر الآثمون.

الكلمات الأولى من مطلع سورة العلق هي بسملة سعادة الإنسان، وهي الأشعة الأولى لأنوار القرآن، يا لها من براعة استهلال لمقاصد الرسالة.

من تحت سـنـا القلم ... أبصرتُ بعث الأمم
(اقرأ) تلاها المصطفى ... فكان جيل الأرقم[1]

وهناك نص في سفر أشعياء يصور اللقاء الأول بين أمين وحي السماء وبين أمين الأرض محمد ﷺ أدقَّ تصوير، حيث يقول وهو يقرّع بني إسرائيل على إعراضهم عن الله: «لأن الرب قد سكب عليكم روح سبات، وأغمض عيونكم، الأنبياء ورؤساؤكم الناظرون غطاهم، وصارت لكم رؤيا الكل مثل كلام السفر المختوم الذي يدفعونه لعارف الكتابة قائلين: اقرأ هذا، فيقول لا أستطيع لأنه مختوم، أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له اقرأ هذا فيقول لا أعرف الكتابة»[2].

(١) عبد المعطي الدالاتي: ربحت محمدا ولم أخسر المسيح، (ص١٢)، دمشق ٢٠٠٣م.
(٢) عباس العقاد: الإسلام دعوة عالمية، (ص ٩٩).

وهنا نشير إلى موضع من مواضع التلاعب والتزييف في الأناجيل، فالفقرة الأخيرة من البشارة توجد في الترجمات القديمة هكذا: «ويقال له: اقرأ. فيقول: لا أعرف القراءة». وهذا يتماشى مع سياق الكلام، فصاحب النبوة لم يتعلم القراءة والكتابة فعندما يدفع إليه الكتاب، ويقال له: اقرأ. يكون الرد المنطقي: أنا لا أعرف القراءة.

وهو كذلك في الترجمات العالمية سوى العربية، حتى لا يقع جرس الكلمة في سمع القارئ العربي؛ فيفطن إلى هذا المعنى، وهذه الفقرة إشارة دقيقة للحظة نزول الوحي على نبي الإسلام ﷺ، كما وردت في المصادر الإسلامية متواترة.

وما أصدق قول الشاعر المعاصر:

هـذا حـراء سائلوه يجبكُـمُ ... فلعله سفر من الأسفار
واستلهموه مواقفَ الوحي التي ... شعّ الهدى منها على الأقطار
وسلوه ماذا قد أقلّ من البطو ... لة والحِجى؟ أعظِم به من غار
أخلِقْ بغار حراءَ أن يزهى على ... الأهرام والإيوان والآثار
كم بين صاحبه وبين بناتها ... من فارق أربى على الأقدار
شتان بين محرر الأقوام وال ... مستعبدين سلائل الأحرار[1]

سماء العزة في قلب النبي ﷺ:

ها هنا في قلب الغار اختُصر تاريخ الإنسان، فيا له من مكان غمر في جوفه الزمان، ولقد تكون بعض الأحداث في التاريخ أكبرَ من التاريخ نفسه!! ويوم حراء أكبر وأخلد من التاريخ. وأكرِم بيوم تم فيه اللقاء بين أمين الأرض وأمين السماء!

(١) الأبيات للأستاذ السيد أحمد العربي، انظر: محمد الطيب النجار: القول المبين في سيرة سيد المرسلين، (ص٤٥): دار الندوة الجديدة بيروت - لبنان.

لقد خرج النبي ﷺ من هذا الغار حقيقة نقية كالسماء الصافية، خرج قانونًا من قوانين الله التي تُسيِّر الشمسَ والقمر، وتُمسكُ السماء والأرض، يمضي قُدمًا إلى الغاية المقدورة مُضيّ النجوم في حُبكها والشمس في فلكها، هبط الرسول من حراء وقد حمل أمانة الرسالة، فليت شعري أهَبط ونفسه قريرةٌ كما ينزل النور من الشمس والقمر؟ أم نزل ونفسه جائشةٌ كما ينزل الغيث بين الرعد والبرق؟!

ما هي المشاعر والأفكار التي كانت تجول في قلبه وقد حمل "قولًا ثقيلًا" لينقذ به العالمين من الظلمات إلى النور؟! لست أدري، ولكنه نزل دينًا جديدًا، وعصرًا وليدًا، وتاريخًا مديدًا، وإصلاحًا شاملًا وهدى كاملًا، ورحمةً للعالمين[(١)].

أيها الغار: يا مأوى محمد ﷺ، ويا مطلع النبوة، ويا بوابة السماء! كم فجّر الله فيك من ينابيع هدى، ومن شلالات سناء؟

أبشر يا محمد:

وبعد هذه الحادثة النورانية، واللحظة المباركة، خرج النبي ﷺ من الغار، واتجه نحو بيته، ونور هذه الكلمات ملء فكره وسمعه. ولكنه في حيرة من أمره، يأخذه من هذا السر الذي تجلى له ما يشبه الدوار، فيكاد لفرط انبهاره لا يدري ما إذا كان في وعي يقظته أم تلك رؤيا بصيرة أرهفها طول التأمل في آيات القدرة، وطول التطلع إلى معرفة أسرار هذا الكون وخالقِه؟

وتحت وطأة هذا العبء الثقيل الذي يجهده ويرهقه، ما بلغ بيته حتى بدا مكدودا مرتعدا شاحبا، كأنه عائدٌ من سفر طويل أو مهمة شاقة، وما كادت عيناه تقع على زوجه خديجة ﵂، تلك التي كانت له على مدى خمسَ عشرةَ سنةً زوجا وأمّا، وكانت له منذ تزوَّجها ملاذا وسكنا، فقال على الفور: زمّلوني زمّلوني.

(١) عبد الوهاب عزام: رحلات، (ص ٣٢٧-٣٣٠)، "بتصرف".

فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت قولتها المشهورة: "أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ"[(١)]. فنفذ صوتها الواثق إلى قلبه، وأحس راحة الأمن والطمأنينة.

لقد نظرت خديجة ﵂ بهذه الكلمات المخلصة الصادقة التي تدل على وعي كامل بما يحيط بها من إرهاصات، بمجرد أن سمعت خبر زوجها.

فما كانت خديجة وهي من صميم قريش ليفوتها شيء مما ماجت به بيئتها قبيلَ المبعث، من تطلعاتٍ إلى تحوّل خطير رنا إليه حكماء العرب وحنفاؤهم وشعراؤهم، وما يتناقله الأخباريون والقُصّاص عن رهبان النصارى في الشام ونجران، وأحبارِ يهود في يثربَ وشمال الحجاز عن قرب مجيء نبي، ومن إرهاصات تلوح في الأفق عن موضع ذلك النبي الجديد الذي حان مبعثه.

وقد كانت مكة على الخصوص المركزَ الذي تتلاقى فيه تلك التطلعات والإرهاصات، وتتجمع روافدها من هنا وهناك، لتصب حول البيت العتيق، مثابة الحج والعبادة.

وليست خديجة ﵂ أيضًا بالتي يفوتها أن تربط ما بين محمد بن عبد الله، وإسماعيل بن إبراهيم، برباط أراد الله بلطفه ورحمته أن يعبر على مدى قرون، وهي تسترجع حادثة الفداء، وتربطها بما آنست من شمائل زوجها، وما رأت من ميل زوجها إلى التأمل والخلوة في غار حراء، وما عرفت من رفضه الأصنام، التي تكدست في الحرم.

جمعت خديجة ﵂ كل هذه المعطيات في ذهنها، ليس هذا فحسب، بل أرادت الاستيثاق والتثبت مما يدور برأسها، وانظر إلى بقية الرواية، وهي تضع تلك اللمساتِ الإنسانيةَ على هذا الحدث.

(١) البخاري، برقم (٣)، كتاب بدء الوحي.

فتقول عائشة وهي تكمل القصة: «فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ ابْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ.

فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ الله عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ»[1].

إن ورقة بن نوفل ذلك الرجل العربي المتحنِّف، الذي ترك عبادة الأصنام، وطلب المعرفةَ الحقيقية؛ فقرأ التوراةَ والإنجيل في لغتهما الأم العبرانية والسريانية، وكان يعلم بحكم هذه الثقافة الكتابية أن قد قرُبَ زمانُ مبعثِ نبي، تنتظره جميع أمم الأرض.

فبمجرد سماعه لهذه الكلمات من ذلك الصادق الأمين استيقن حقيقةَ الوحي، وعلم أن ما حدث لمحمد ﷺ هو الناموسُ الذي نزل على الأنبياء السابقين، وتمنى أن يكون فيها شابا عندما يؤمر هذا النبي بالبلاغ، ودعوةِ الناس إلى عبادة الله عز وجل.

ومن أشعار ورقة التي تدل على انتظاره لمبعث النبي ﷺ قوله[2]:

لَجِجت وكنت في الذكرى لجوجًا ... لِهَـمٍّ طالما بعـث النَّشـيجا

(١) البخاري، برقم (٣)، كتاب بدء الوحي.
(٢) ابن هشام: السيرة، (١/١٩١، ١٩٢).

ووصفٍ من خديجة بعد وصفٍ ... فقد طـال انتظاري يـا خديجا
ببطـن المكّتَيـن[1] على رجائي ... حديثـك أن أرى منـه خروجا
بمـا خَبَّرتنـا مـن قـول قَـسٍّ ... مـن الرهبـان أكـره أن يعوجا
بـأن محمـدًا سيسـود فينـا ... ويَخْصُم من يكـون له حجيجا

ومن عظيم الحكمة هنا بروز دور المرأة من أول وهلة في الإسلام، فلا يتبادر إلى الذهن قلة الرجال أو انعدامهم في ذلك الوقت، بل أثبت التاريخ أن الرجال كانوا كثرًا، وكانوا على درجة عالية من المعرفة والحكمة، وكانوا فعلاً مؤهلين ليكونوا في موضع الأولية في الخطاب بالدعوة أمثال أبي بكر رضي الله عنه.

ومع ذلك كانت حكمةُ الله ومشيئته وقدرتُه أن تكون أولية الخطاب بالدعوة موجهةً لامرأة، وتمثّل ذلك في شخص أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، لما جاءها الرسول ﷺ يرجف فؤادُه من غار حراء، ودخل عليها وهو يقول: «زملوني زملوني» فزملته [أي لفّته] حتى هدأ روعه واطمأنت نفسه.

هنا بدأت اللحظةُ الحاسمة في الدعوة لما أخبرها الخبر، وهو نزول الوحي عليه، لقد كان من الممكن أن يقابل الرسول ﷺ في طريق عودته أيَّ إنسان؛ فيبث له ما بداخله من خوف، ولكن أراد الله، أن تكون أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها أولَ مَن يقابل الرسول ﷺ بعد تعرضه لهذا الموقف، وهذا لأجل أن تكون المرأة في موضع التكريم، وموضوع الأولوية في الدعوة.

وما دمنا نتحدثُ عن الأوليات في المخاطبة والإيمان بدعوة محمد ﷺ فلا بأس بالإشارة إلى أوّلية ثانية تمثلت في أن المرأة هي أولُ مَنْ ناصر الدعوة ودافع عنها.

(١) المكتين: جانبا مكة، أو بطاحها وظواهرها.

وقد تحقق هذا أيضًا في قصة رسول الله ﷺ مع أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها لما أتاها زوجُها محمد ﷺ في حالة ذعر مما رأى، فأحسنت استقباله ومحادثته وطمأنته بحفظ الله له، وأقسمت عَلَى ذلك وهي البارّة الصادقة: أنّ الله لن يخزيَه أبدًا.

ثم راحت تعدد صفاته النبيلة الحميدة التي من تحلى بها فلن يخزَى ولن يَذِل أبدًا "إنك لتَصِلُ الرحِمَ، وتصدق الحديثَ، وتحملُ الكَلَّ، وتُقري الضيف، وتُكسب المعدومَ(١)، وتُعين عَلَى نوائبِ الحق".

فقد كان معلومًا عند أهل الجاهلية أنّ المرء الذي تجتمع فيه هذه الصفات النبيلة محمودٌ عند الله تعالى، لأنّ كل النفوس مجبولة على أنّ الله سبحانه وتعالى عَدلٌ كريمٌ يُجازي الإنسَان من جنس ما يعمل.

فهذه صورة من صُوَرِ النصرة والتأييد والوقوف مع الرسول ﷺ في أول خطوة من خطوات الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ولم تكتف أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بالنصر القولي، بل نصرت الرسول ﷺ عمليًا بأن أخذته إلى ورقَة بن نوفل، وليجد الرسول ﷺ الطمأنينة والوعد بالنصر من الله سبحانه وتعالى.

وهكذا نلحظ هذا السبقَ العظيم لهذه المرأة التي أصبحت أولَ مَن نصر الرسول ﷺ قولًا وعملًا، نصرًا سبقت به الرجال، وتقدمت عليهم، فكما كانت المرأةُ أولَ مخاطبة وأول مستجيب، كانت أيضًا أولَ نصير لهذا الرسول العظيم ﷺ.

فُتور الوحي:

لقد أخذت النبي ﷺ في المرة الأولى للوحي رعدةٌ شديدة، ولما انفصم عنه، وهدأ روعه كان يريد المزيد من تلك الهداية الربانية، والمتعة الروحية بسماع جبريلَ عليه السلام، ولكن لأمر يعلمه الله جل وعلا، يفتر الوحي!.

(١) المعدوم، أو المعدم: الفقير.

حتى يشتاقَ إليه ﷺ شوقا شديدا، بل تحول الشوق إلى خوف وتوجّس من أن يكون الله عز وجل قد قلاه، وتملك هذا الشعور قلبه، فأخذ ينقطع في حراء، ويرتفع بكل نفسه ابتغاء وجه ربّه ليسأله؛ لم قلاه بعد أن اصطفاه؟

حتى تمنى الموت صادقا؛ فإذا كان الله عز وجل قد قلاه، فأي خير في الحياة بعد ذلك، فهذا أكبر أمله فيها يذوي وينقضي! وبينما هو كذلك تساوره هذه المخاوف إذ جاءه الوحي بعد طول فتوره.

عن جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَجَئِثْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُونِي فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَٱهْجُرْ﴾». قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَالرِّجْزَ الأَوْثَانَ، ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ(١).

ونزل عليه قوله تعالى مطمئنا له: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحَى: ١ – ١١].

يا لجلال الله! أيّة سكينة للنفس، وغبطة للقلب، وبهجة للفؤاد! انجابت مخاوفُ النبي ﷺ وزال كلُّ رَوعه، وارتسمت على ثغره ابتسامة الرضا، وافترّت شفتاه عن معاني الحمد وآي التقديس والعبادة، لم يبق لما كانت تخشى خديجة من أن الله قلاه، ولم يبق لفزعه موضع، بل تولاّه الله و تولاها برحمته، وأزال كل خشية أو ريبة من نفسه.

(١) البخاري، برقم (٤٩٢٦)، كتاب التفسير، باب قوله: والرجز فاهجر.

لا انتحار إذًا، ولكن حياة ودعوة إلى الله، وإلى الله وحده. إلى الله العليّ الكبير تعنو له الجباه، ويسجد له مَن في السموات والأرض جميعا. هو وحدَه الحقُّ، وكل ما يدعون من دونه الباطل. إليه وحده يتوجّه القلب، وبه وحدَه يجب أن تتعلق النفسُ، وفيه وحده يجب أن تفنى الرّوح، وللآخرة خير لك من الأولى:

الآخرة التي تحيط فيها النفس بكل الوجود في كمال وحدته، والتي يتناهى إليها المكان والزمان، وتنسى فيها اعتبارات هذه الحياة الوضيعة الأولى.

الآخرة التي يصير فيها الضحى ولألاء شمسه الباهرة، والليل ودجاه الساجي، والسماوات والكواكب والأرض والجبال كلّا واحدا تتصل به الروح الراضية المرضية.

هذه هي الحياة التي يجب أن تكون إليها الغاية من سفر هذه الحياة. هذا هو الحق وكل ما دونه صور منه لا تغني عنه.

هذا هو الحق الذي أضاء بنوره روحُه ﷺ، والذي ابتعثه من جديد ليفكر في الدعوة إلى ربّه. وللدعوة إلى ربه يجب أن يطهر ثيابه، وأن يهجر المنكر، وأن يصبر على ما يلاقي من الأذى في سبيل الدعوة إلى الحق، وأن ينير للناس سبيلَ العلم بما لم يكونوا يعلمون، وألّا ينهر من أجل ذلك سائلا، ولا يقهر يتيما.

حسبه اختيارُ الله إياه لكلمته فليتحدث عنها. وحسبه أن الله وجده يتيما فأواه في كفالة جدّه عبد المطلب وعمه أبي طالب؛ وأنه وجده فقيرا فأغناه بأمانته ويسّر له خديجة شريكةَ صباه، شريكةَ تحنثه، شريكةَ بعثه، شريكةَ المحبة، الناصحة الرؤوم؛ وأنه وجده ضالا فهداه برسالته.

حسبه هذا. ولْيَدعُ إلى الحق جاهدا ما استطاع. ذلك أمر الله إلى نبيه الذي اصطفاه، وما ودّعه وما قلاه.

هكذا، انكشفت الغمة، وأضاء الحق بنوره روحَ محمد ﷺ، وتعد هذه الآيات أولَ أمر بتبليغ الدعوة، والقيام بالتبعة، وقد أشارت هذه الآيات إلى أمور هي خلاصة الدعوة الربانية، والحقائق الإسلامية التي بني عليها الإسلام كله.

وهي الوحدانية، والإيمان باليوم الآخر، وتطهير النفوس، ودفع الفساد عن الجماعة، وجلبُ النفع، إنها معالم العقيدة وأنوار الشريعة، إنها معالم عالم الغيب وعالم الشهادة [١].

أهليته ﷺ لتحمل الرسالة:

لقد بُعث محمد ﷺ عندما بلغ الأربعين من عمره، وفي هذا العمر تظهر أوصافُ الإنسان بوضوح، من أجل ذلك أَذْكُر ما وصفه علي بن أبي طالب رضي الله عنه [٢] وأنسُ بن مالك رضي الله عنه [٣] خادمُ رسول الله ﷺ، فقد حظيا بصحبته الكريمة ومعرفة أوصافه الجميلة.

فقد كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس وجهًا، أبيض اللون بياضًا مزهرًا، مستدير الوجه، مليحَهُ، واسعَ الفم، طويلَ شِقّ العينين، رَجِلَ الشعر ـ بين الجعودة والسَّبَط ـ يصل إلى شحمة أذنيه، وأحيانًا بين أذنيه وعاتقه، وقد يمتد حتى منكبيه أحيانًا أخرى.

ولم يشب شعره الأسود إلا اليسير منه، حيث قدر شيبه في أواخر عمره بعشرين شعرة موزعة في الرأس وتحت الفم والصدغين، ويميل اللون إلى الحمرة في بعض شعره من أثر الطِّيب، وكانت رائحتُه أطيبَ من رائحة المسك، وكان إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر.

---

(١) انظر: كامل سلامة: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، (ص١٨١).
(٢) مسند الإمام أحمد (٤٢٩/٢)، حديث رقم (١٣٠٠).
(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ ح (٣٥٤٨)، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب صفة شعر النبي ﷺ ح (٢٣٣٨).

www.almoslih.net

وكانت تحت شفته السفلى شعراتٌ بيض، وكان متوسطَ القامة، متوسطَ الوزن، ليس بالنحيف ولا الجسيم، عريضَ الصدر، ضخمَ اليدين والقدمين، مبسوطَ الكفين، كفّاه لينتان، قليلَ لحم العقبين، يحمل في أعلى كتفه اليسرى خاتمَ النبوة، وهو شعرٌ مجتمعٌ كالزِّرِّ.

وصحَّ عن البراء ﷺ أنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس وجهًا، وأحسنه خلقًا، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير[١].

وصحَّ عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: «كان النبي ﷺ أشدَّ حياء من العذراء في خدرها»[٢]، والحياء من الإيمان.

وهذه الصفات الجسمية تدل على جمال المظهر، واكتمالِ الجسم وقدرته على النهوض بالواجبات العظيمة التي أُنيطت به، فلم ير أعداؤه في مظهره ما يعيبونه عليه، أو يلقبونه به على سبيل الانتقاص. وإضافة لحسن خلقته الجِبلّية، وسلامة حواسه وأعضائه، فقد اعتنى بمظهره من النظافة وحسن الهيئة والتطيب بالطيب[٣]. كما تميز بسلامة الصدر، وطيبِ النفس، ولين القلب.

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ ح (٣٥٤٩).
(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ ح (٣٥٦٢).
(٣) أغلب هذا الوصف الميسر ساقه مؤرخ السيرة أ.د أكرم بن ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة (١/٨٨-٨٩)، وأصول هذه الروايات في صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ من حديث رقم (٣٥٤٥-٣٥٥٦)، والبيهقي: دلائل النبوة (١/١٩٤-٣٠٧).

الدَّعوةُ الإِسْلَامِيَّةُ في خُطُوَاتِها الأُولَى

شعر محمد ﷺ بثقل ما ألقي عليه، وطفق يفكر كيف يدعو قريشا إلى ما آمن به وهو يعلم أنهم أحرص ما يكونون على باطلهم، حتى ليقاتلون في سبيله ويقتلون، وهم من بعد أهله وعشيرته الأقربون، إنهم في ضلال، وإن ما يدعوهم إليه هو الحق.

فهو يدعوهم إلى الارتفاع بقلوبهم و بأرواحهم لتتصل بالله الذي خلقهم وخلق من قبلَ آباءهم، ليعبدوه مخلصين له الدين طاهرة نفوسهم.

وهو يدعوهم ليتقرّبوا إلى الله بالعمل الصالح، وإيتاء ذي القربى حقّه وابن السبيل، ولينبذوا عبادة هذه الأحجار التي اتخذوا منها أصناما، يزعمون أنها تغفر لهم ما يتمتعون فيه من لهو وفسوق، ومن أكل الرّبا ومال اليتيم، فإذا عبادتها تحيل نفوسهم وقلوبهم أشدّ من الأصنام تحجرا وقسوة!

وهو يهيب بهم أن ينظروا إلى ما في السموات والأرض من خلق الله لتمتثل نفوسُهم ذلك كله، و تدرك ما له من خطر و جلال، فتعظم بإدراكها سنّة ما في السموات وما في الأرض، ثم تعظم بعبادتها خالق الوجود كله وحده لا شريك له، وتسمو لذلك عن كل وضيع، وتتعالى عن كل دون، وتأخذها الرحمة بكل من لم يهده الله وتعمل لهدايته، وتكون البرّ لكل يتيم ولكل بائس أو ضعيف.

نعم! إلى هذا أمره الله أن يدعوهم. لكن هذه القلوب القاسية، وهذه الأرواح الغِلاظ، قد يبست على عبادة ما كان يعبُدَ آباؤها. ووجدت فيه تجارةً تجعل مكة

مركز حجيج عبدة الأصنام! أفيتركون دين آبائهم ويعرّضون مكانة مدينتهم لما قد تتعرّض له، إذا لم يبق على عبادة الأصنام أحد؟!

ثم كيف تطهرُ هذه القلوب، وتتخلصُ من أدران شهواتها، والشهوة تهبط بها إلى إرضاء بهيميّتها، في حين هو ينذر الناس أن يرتفعوا فوق شهواتهم وفوق أصنامهم؟ وإذا هم لم يؤمنوا به. فماذا عسى أن يفعل؟ هذه هي المسألة الكبرى؟

على أي حال طفق ﷺ يفكر كيف يدعو قريشا إلى ما آمن به، وهو يعلم أنهم أحرص ما يكونون على باطلهم، حتى ليقاتلون في سبيله ويقتلون.

وصدر الأمر الإلهي الأول لنبيه ﷺ بالدعوة إليه والقيام بهذه المهمة الجسيمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر: ١-٤].

وقد كانت هذه الآيات المتتابعة إيذانًا للرسول ﷺ بأن الماضي قد انتهى بمنامه وهدوئه، وأنه أمامه عمل عظيم، يستدعي اليقظة والتشمير، والإنذار والإعذار، فليحمل الرسالة، وليوجه الناس، وليأنس بالوحي، وليقوَ على عنائه، فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته[1].

فقد كلفه الله عز وجل بترك الراحة والفراش ليفكر في الدعوة إلى ربّه، ويقومَ بعبء البلاغ عن الله، ولذا يجب أن يمتثل لما تمليه عليه الآيات من الطهارة وهَجْرِ المنكر، والصبرِ على الأذى في سبيل الدعوة إلى الحق.

وأن ينير للناس سبيل العلم بما لم يكونوا يعلمون، وألّا ينهر من أجل ذلك سائلا، ولا يقهرَ يتيما، وليُدعُ إلى الحق جاهدا ما استطاع إلى ذلك سبيلا، امتثالا لأمر الله تعالى ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾.

(١) انظر: محمد الغزالي: فقه السيرة، (ص٩٠).

وقام حينئذ رسول الله ﷺ في الرسالة أتمَّ القيام، وشمر عن ساعد العزم، ودعا إلى اللهِ القريبَ والبعيدَ، والأحرارَ والعبيدَ[1].

السابقون الأولون:

خديجة رضي الله عنها:

حمل النبي ﷺ عبءَ البلاغ عن الله، ومسؤوليةَ الدعوة إلى دينه، ولم يكن على وجه الأرض كلها من يَدين بالإسلام، غيرُ النبي ﷺ صاحب الرسالة، وزوجُه خديجة بنت خويلد، أمُّ المؤمنين الأولى، ولقد أسرعت السيدة خديجة إلى الإيمان به، لِمَا جرّبت عليه طوال حياته معها من الأمانة والصدق، وعلوّ النفس وحب البر والرحمة.

ولما شاهدته من حاله في صحوه ومنامه، وهدوئه وغضبه، وما علمته من تحنثه، وكيف شغل نفسه بالحق وحدَه، كما رأت كيف كان حالُه أولَ عوده من حراء بعد البعث، وهو في أشد الحيرة من أمره وكلام ورقة عنه.

خديجة رضي الله عنها أول من صلى لله من المؤمنين:

كانت الصلاةُ أولَ شيء فرضه الله عز وجل[2] بعد التوحيد وإعلان الخضوع لله، وقد جاء في الحديث أن أولَ إنسان يقيم الصلاة مع النبي ﷺ كان خديجة.

فقد ورد في حديث تعليم الرسول ﷺ زوجَه خديجة الوضوء والصلاة، حين افترُضت على رسول الله ﷺ؛ أن جبريل أتاه وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه

(١) ابن كثير: السيرة النبوية (١/ ٤١٤).

(٢) كانت هناك صلوات مفروضة في بداية الدعوة كقيام الليل كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾، ولكن ذلك كله نسخ بعد ذلك، بفرض الصلوات الخمس بهيأتها الحالية، في حادث الإسراء والمعراج، وأصبح قيام الليل سنة لا فرضا.

في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل عليه السلام، والرسول ﷺ ينظر ليريَه كيف الطهور للصلاة.

ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل توضأ، ثم قام جبريل عليه السلام فصلى به وصلى النبي ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل عليه السلام.

فجاء رسولُ الله ﷺ خديجةَ رضي الله عنها فتوضأ لها، يريها كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل عليه السلام، فتوضأت كما توضأ رسول الله ﷺ، ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به جبريل عليه السلام[(١)].

وأخرج أحمد وابن سعد عن عفيف الكندي قال: جئت في الجاهلية إلى مكة، وأنا أريد أن أبتاع لأهلي من ثيابها وعطرها، فنزلت على العباس بن عبد المطلب، قال: فأنا عنده، وأنا أنظر إلى الكعبة، وقد حلقت الشمس فارتفعت، إذ أقبل شاب حتى دنا من الكعبة، فرفع رأسه إلى السماء فنظر، ثم استقبل الكعبة قائما مستقبلها، إذ جاء غلام حتى قام عن يمينه، ثم لم يلبث إلا يسيرا حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما، ثم ركع الشاب فركع الغلام وركعت المرأة، ثم رفع الشاب رأسه ورفع الغلام رأسه ورفعت المرأة رأسها، ثم خر الشاب ساجدا وخر الغلام ساجدا وخرت المرأة.

قال: فقلت: يا عباس إني أرى أمرا عظيما. فقال العباس: أمر عظيم، هل تدري مَن هذا الشاب؟ قلت: ما أدري، قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي، قال: هل تدري من هذا الغلام؟ قلت: لا ما أدري، قال: هذا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن أخي، قال: هل تدري من هذه المرأة؟ قلت: لا ما أدري. قال: هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي هذا.

(١) انظر: الماوردي: أعلام النبوة (ص٢٧٥)، وابن هشام: السيرة: (١/٢٤٤)، صالح الشامي: من معين السيرة (ص٤١).

إن ابن أخي هذا الذي ترى، حدثنا أن ربه ربَّ السماوات والأرض أمرَه بهذا الدين الذي هو عليه، فهو عليه، ولا والله ما علمت على ظهر الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة. قال عفيف: فتمنيت بعد أني كنت رابعَهم[(١)].

وعودة إلى نفس القصة، وهي قصة رسول الله ﷺ مع أم المؤمنين خديجة ﵂ في بدء الوحي، قلنا إن إخبارَ رسول الله ﷺ خديجة بالخبر هو بدايةُ الخطاب بالدعوة، وكان موجهًا لامرأة.

ثم بعد ذلك من خلال ردة فعل خديجة ﵂ لهذا الخبر يقدم لنا الإسلام تكريمًا آخر للمرأة يتمثل في إنصاتها لرسول الله ﷺ، ومبادرتها السريعة إلى الاستجابة، حتى أصبحت أمُّ المؤمنين خديجة ﵂ أولَ من آمن وصدّقَ بالرسول ﷺ واتبعه.

فهذا تكريم ثان للمرأة بعد التكريم الأول الذي أشرت إليه، فالمرأة أول من خوطب بالدعوة في هذه الأمة، والمرأة أول من استجاب للدعوة.. فهل فوق هذا التكريم تكريم آخر للمرأة؟

علي بن أبي طالب ﵁:

إن النبي ﷺ حفظ جميل عمه أبي طالب عندما كفله صغيرا، على الرغم من أنه كان فقيرا ذا عيال، فبعد أن تزوج النبي ﷺ زواجَه من خديجة واستقرت حياتُه المادية، أشار على عمه أن يضم إليه عليَّ بن أبي طالب كي يكفلَه ليخفف العبء عليه.

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي: رواه أحمد وغيره ورجاله ثقات، الزوائد، (٩/٢٢٣)، ورواه ابن سعد في الطبقات، (٨/١٧)، والطبراني عن ابن مسعود، كنز العمال، (١٣/٤٦٧)، ورواه ابن عبد البر في الإستيعاب، (٣/١٦٣).

كما أشار على عمه العباس أن يضم إليه أحدَ أبناء أبي طالب للسبب ذاته، فوافق عمُّه أبو طالب، وطابت نفسه أن يذهب ولده علي مع ابن عمه محمد ﷺ، وأن يذهب ولده جعفر مع عمه العباس ليكون في كفالته ورعايته.

ومن تلك اللحظة كفل النبي ﷺ ابنَ عمه عليَّ بن أبي طالب، وأسبغ عليه من رعايته وحنانه ما لم يحظَ بمثله أحدٌ من إخوته.

وما إن رأى ذلك الصبي ـ وقد بلغ السنوات العشر[1] ـ رسولَ الله ﷺ وزوجه يصليان لله، فوقف ينظر إليهما حتى أتمّا صلاتهما؛ ثم سأل الرسول ﷺ عن هذا الذي رآه فقال له الرسول ﷺ: "هذا دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله؛ فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته، وأن تكفر باللات والعزى".

فقال علي: هذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم؛ فلست بقاض أمرا حتى أحدّثَ فيه أبا طالب. فكَرِهَ الرسول ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره. فقال له: "يا علي، إذا لم تسلم فاكتم علي هذا الأمر ولاتحدث به أحدا".

فمكث عليّ تلك الليلةَ يفكر فيما رأى وما سمع من الرسول ﷺ، فأوقع الله في قلبه الإسلام، فأصبح غاديا على الرسول ﷺ حتى جاءه.

فقال: ماذا عرضت علي يا محمد؟ فقال ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد والشركاء» ففعل عليّ كما علمه الرسول ﷺ، وكتم إسلامه فلم يظهره، ومكث يأتي الرسول ﷺ على خوف من أبي طالب.

وكان الرسول ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيا من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه، وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا فمكث على ذلك ما شاء أن يمكثا.

(١) هذا هو الراجح في عمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين إسلامه، انظر: ابن هشام (٢/٢٤٥). محمد أبو شهبة: السيرة النبوية (١/٢٨٤).

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان، فقال لرسول ﷺ: يا ابن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال ﷺ: «يا عم، هذا دين الله وملائكتِه، ودينُ رسلهِ، ودينُ أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولا للعباد. وأنت يا عم أحق من بذلت له ودعوته إلى الهدى، وأحقُّ مَن أجابني إليه وأعانني عليه».

فقال أبو طالب: يا ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه؛ ولكن، والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت..ثم قال لعلي: إنه لم يدعك إلا إلى خير، فالزمه[1].

وانضم بذلك علي بن أبي طالب إلى قافلة المؤمنين ليكون له في الدعوة والإسلام شأن عظيم.

زيد بن حارثة رضي الله عنه:

إن قصة زيد بن حارثة جديرة بالتأمل والتدبر؛ لما فيها من روائع السلوك النبوي في معاملته ﷺ للآخرين قبل بعثته وبعدها، وما فيها من الرعاية والعناية لكل من تحت يده، حتى لو كان عبدا مملوكا أو خادما، حتى ليبلغ به ذلك أن يفضل ذلك العبد حياة العبودية في كنفه ورعايته على حياة الحرية مع أبيه وقومه، ولو كانوا كراما أشرافا من ذوي المكانة والسؤدد، وهذا هو الاختيار الصعب، الذي يدل على روعة الرجال.

لقد خرجت أم زيد بن حارثة بولدها صبيا لتزور أهلها، ولكنه ضل منها في الطريق، فالتقطه نفر من المارة وباعوه في إحدى أسواق العرب على أنه عبد لهم، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي لعمته خديجة، فطابت لزيد الحياة في البيت الكريم، ثم أهدته خديجة لزوجها محمد ﷺ.

(١) انظر: ابن هشام: السيرة (١/٢٤٦).

وكان أبوه حارثة بن شرحبيل الكلبي يَنشد ولدَه في كل مكان، وجزع عليه جزعا شديدا وبكى عليه حين فقده، وما زال يبحث حتى علم أنه في مكة عند رجل يقال له محمد بن عبد الله، فجاء ليعرض عليه فكاك ولده بما شاء من مال، وهنا يفوض النبي ﷺ الأمر كله لزيد: «إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق مع أبيك. فقال: بل أقيم عندك»(١).

وفي رواية أنه قال له: ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، وأنت مني بمنزلة الأب والعم، فقال له والده وعمه: ويحك تختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: نعم، وإني رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا(٢).

كان هذا حدثا فريدا من نوعه، وأول من استغربه هم أهل زيد أنفسهم، وهم وجهاء بني كلب، كيف يأبى ولدهم أن يكون حرا شريفا ليعيش مع محمد ﷺ تحت قيد العبودية، ونظرا لهذا الاختيار الكريم من زيد؛ فإن النبي ﷺ قد كافأه عليه، وقابله وفاء بوفاء، فانطلق به إلى الملإ من قريش، وأشهدهم على أن زيدا ولده بالتبني.

"ولم يزل [زيد] عند رسول الله ﷺ حتى بعثه الله فصدقه وأسلم وصلى معه فلما أنزل الله عز وجل: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٥] قال: أنا زيد بن حارثة"(٣).

بنات النبي ﷺ:

بنات النبي ﷺ الأربع: زينب، وأم كلثوم، وفاطمة، ورقية، سارعن إلى الإسلام، فلم تشذَّ واحدةٌ منهن، فقد تأثرن قبل البعثة بأخلاق أبيهن ﷺ،

(١) ابن هشام: السيرة (١/ ٢٤٧).
(٢) محمد قلعجي: دراسة تحليلية لشخصية الرسول (ص١٩١).
(٣) ابن هشام: السيرة، (١/ ٢٤٧).

فأسرعن إلى الإيمان به، وبذلك أصبح بيت النبي ﷺ أولَ أسرة مؤمنة بالله تعالى منقادة لشرعه في الإسلام.

ولهذا البيت النبوي الأول مكانة عظمى في تاريخ الدعوة الإسلامية، لما حباه الله به من مزايا، وخصّه بشرف الأسبقية في الإيمان وتلاوة القرآن وإقام الصلاة(١).

وبذلك فقد كان هذا البيت قدوة، وحقّ له هذا، وحقّ لربته أن تكون مثالًا ونموذجًا حيًّا لبيوت المسلمين ولنسائهم ورجال المؤمنين كافة، فالزوجة فيه طاهرة مؤمنة، مخلصة، وزيرة الصدق والأمان، وابن العم المحضون والمكفول، مستجيب ومعضد ورفيق، والمتبنى مؤمن صادق مساعد ومعين، والبنات مصدقات مستجيبات مؤمنات ممتثلات(٢).

إن تلك المبادئ الأخلاقية والسلوكية في بيت النبي ﷺ لتشير بقوة إلى ضرورة الاهتمام بالأسرة، وأهمية تنشئتها على طاعة الله عز وجل من أجل بناء المجتمع الفاضل المنضبط بضوابط الشرع الحنيف.

فالأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، وكلما كثر عدد الأسر الصالحة، فهذا دليل على صلاح المجتمع، ومن ثَمَّ فهناك ارتباط وثيق بين إصلاح الفرد لنفسه وأسرته وصلاح المجتمع بشكل عام.

ومن هنا كان لزاما أن يبدأ الإنسان الصالح من بيته وعشيرته، ثم المجتمع كله من بعد، ليتجه المجتمع كله إلى الصلاح والإصلاح.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

يرجع نسب أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى بني تيم بن مرة بن كعب، فرع من قريش، وكان سنة بعثة النبي ﷺ يقارب عمره الثامنة والثلاثين، وكان قد أخذ

(١) انظر: محمد أبو شهبة: السيرة النبوية، (١/ ٢٨٤).
(٢) انظر: عصمة الدين كركر: المرأة في العهد النبوي (ص٤٣).

مكانته في المجتمع المكي القرشي، باعتباره سيّدا مهيبا وقورا، مشهودا له بالفضل والمروءة ودماثة الطبع ورجحان العقل.

وكان عالما بأنساب العرب، حتى عُدّ أنسب قريش لقريش وأعلمَها بأخبارها، كما كان ملمّا بأخبار الناس وحوادث الدهر.

وكان رجلا تاجرا يطوف بتجارته في الآفاق، فزادته التجارة والسياحة في البلدان علما وتجربة، ومعرفة بأحوال القبائل وعادات الأمم، فكان مجلسه مجلس أنس وتسلية وعلم، وكان حلو الحديث لطيف المعشر.

وكان رجلا محببا في قريش، يألف الناس ويألفونه، ويجتمعون عنده فيستمعون إلى حديثه ومجلسه.

كما كان يحب الرسول ﷺ حبا شديدا، وكانت تجمعه به جامعة قوية من المحبة والثقة والإخلاص، وصدق الصحبة. فما كاد الرسول ﷺ يعرض عليه الإسلام حتى أسلم؛ وكان إسلامه إسلام الواثق المطمئن إلى صدق ما جاء به صاحبه.

وبالتالي فقد كان لإسلام أبي بكر شأن آخر في المجتمع المكي، إذ إنه ليس من عشيرة الرسول ﷺ ولا ذوي قرباه، ولا كان في ريعان الصبا كعلي وزيد، وإنما هو أحد رجالات مكة وتجارها المرموقين المشهورين بالفضل والخلق الحسن وسداد الرأي، ولذا توقعت قريش أن هذا الأمر له ما بعده[1].

وقد صح ما توقعته قريش، فقد استطاع أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يسخِّر جاذبية شخصيته، وقوةَ منطقه، وسدادَ رأيه وما لَهُ مِنْ جاه في قريش في خدمة الدين الجديد، وأن يضم إلى صفوف هذا الدين خمسة من رجال قريش الأعلام في فترة وجيزة، وهم: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس،

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية (١/٣٧١).

والزبير بن العوام الأسدي المخزومي، وعبد الرحمن بن عوف الزهري، وسعد بن أبي وقاص الزهري أيضًا، وطلحة بن عبيد الله التيمي[1].

ومن هؤلاء النفر الذين حملوا لواء الحق، وصدقوا بالوحي الذي تنزل على رسول الله ﷺ، وآمنوا بالله ورسوله ﷺ تأسست اللبنة الأولى لحزب الله في مستهل الدعوة، لتبقى العصبة الباغية من المشركين وحزب الشيطان، في صراع مرير بين الحق والباطل، وبدأ بهم الإسلام خطوته الأولى على الطريق الطويل.

ولنا أن نأخذ من موقف الصديق درسا عميقا في ضرورة العمل لأجل الدعوة إلى الله تعالى، فإنه يضرب لنا مثلا رائعا للإيمان بهذا الدين، ويعطي صورة صادقة للمؤمن الحقيقي الذي يتحمل همَّ الدعوة وأمانةَ التبليغ.

فلا تهدأ نفسه حتى يجمعَ لها الأتباع الجدد الذين ينجو بهم من ظلمات الشرك إلى أنوار التوحيد؛ فلم «يكن أبو بكر أسرع الرجال إلى الإيمان بالله ورسوله فقط، وإنما أصبح جنديا من جنود الله المخلصين الذين كرسوا كلَّ وقتهم وجهدهم إلى الدعوة لدين الله»[2].

وهكذا بدأ الإسلام في الانتشار، بالدعوة الفردية الخاصة لتكوين أكبر قدر من الأتباع عن طريق الإقناع، والحديث الشخصي المباشر، وبالتالي فقد كانت تعتمد على الانتقاء واختيار العناصر التي تتمتع بذكاء وسلامة قلب ورجاحة عقل، واستعداد فطري لقبول الحق والإذعان له.

ومن هنا فقد لاحظ البعض أن أصحاب الجاه كان لهم أثر كبير في كسب أنصار للدعوة، ولهذا كان أثر أبي بكر رضي الله عنه في الإسلام أكثر من غيره[3].

(١) انظر: منير الغضبان: التربية القيادية، (١/١١٥).

(٢) انظر: دراسات في السيرة النبوية وعصر الخلفاء الراشدين (لجنة من جامعة الأزهر) (ص: ٦٥)، ط١، جامعة الأزهر ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

(٣) انظر: يحيى اليحيى: الوحي وتبليغ الرسالة (ص٦٢).

ونظرا لما يعلمه هؤلاء بما تضمره قريش من عداوة لكل خارج على أوثانها، فقد كانوا يستخفّون بعبادتهم، وكان أحدهم إذا أسلم ذهب إلى النبي ﷺ فأعلن إليه إسلامه وتلقّى عنه تعاليمه، كما كانوا إذا أرادوا الصلاة انطلقوا إلى شعاب مكة وصلوا فيها، وكان هذا الأمر سببا في إسلام رجل عظيم آخر من عظماء الإسلام وهو عبد الله بن مسعود.

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

يحكي عبد الله بن مسعود سبب إسلامه فيقول: "كنت في غنم لآل عقبة بن أبي معيط، فجاء رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر بن أبي قحافة، فقال النبي ﷺ: هل عندك لبن؟ فقلت: نعم، ولكني مؤتمن. قال: هل عندك من شاة لم ينز عليها الفحل؟ قلت: نعم، فأتيته بشاة شصوص[١] لا ضرع لها.

فمسح النبي ﷺ مكان الضرع، فإذا ضرع حافل مملوء لبنا فأتيت النبي ﷺ بصخرة منقورة، فاحتلب النبي ﷺ فسقى أبا بكر وسقاني ثم شرب، ثم قال للضرع: اقلص. فرجع كما كان.

قال ابن مسعود: فلما رأيت هذا من رسول الله ﷺ، قلت يا رسول الله علمني فمسح رأسي وقال بارك الله فيك فإنك غلام معلم"[٢].

وفي رواية الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "كنت غلاما يافعا أرعى غنما لعقبة بن أبي معيط، فجاء النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه وقد فرّا من المشركين، فقالا: يا غلام هل عندك من لبن تسقينا؟ قلت: إني مؤتمن ولست ساقيكما.

فقال النبي ﷺ: هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل؟ قلت نعم، فأتيتهما بها. فاعتقلها النبي ﷺ ومسح الضرع ودعا، فحفل الضرع، ثم أتاه أبو بكر رضي الله عنه

(١) الشصوص: التي ذهب لبنها.
(٢) انظر: السيرة الحلبية (١/ ٤٤٩)، ط دار المعرفة بيروت ١٤٠٠هـ.

بصخرة منقعرة، فاحتلب فيها فشرب، وشرب أبو بكر، ثم شربت، ثم قال للضرع: اقلص، فقلص.

فأتيته بعد ذلك فقلت: علمني من هذا القول. قال: «إنك غلام معلم». قال ابن مسعود: فأخذت مِنْ فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد[١]. وإلى ذلك أشار السبكي في تائيته بقوله[٢]:

ورُبّ عَناقٍ ما نزا الفحل فوقها ... مسحتَ عليها باليمين فدرّتِ

السرّية التامة:

وظل الأمر يتداول بين المسلمين الأوائل سرا ثلاث سنوات تقريبا، ازداد الإسلام فيها انتشارا بين أهل مكة، خاصة بين ذوي الإنصاف والعقول الراجحة في مكة، الوجهاء منهم والضعفاء، ونزل على النبي ﷺ فيها من الوحي ما زاد المسلمين إيمانا وتثبيتا.

ولا شك أن ضرورة الحال وطبيعة الدعوة كانا يحتّمان على الصحابة أن يتخيروا من يريدون دعوته للإسلام، حتى لا تضيع جهودهم سدى، وكي يضمنوا عدم الوقوع في فخ العداوات المبكرة التي لا داعي لها في تلك المرحلة المتقدمة من عمر الدعوة، وأيضا لتحقيق السرية المطلوبة لهذه الدعوة الوليدة، وهذا من شأنه أن يجنبهم المفاجآت غير المتوقعة.

فالحكمة تقول[٣]: "إذا عرفت العدو وعرفت نفسك، فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مائة معركة، وإذا عرفت نفسك، ولم تعرف العدو فإنك ستواجه الهزيمة في كل معركة".

(١) مسند أحمد برقم (٤٤١٢)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.
(٢) السيرة الحلبية (١/ ٤٤٩).
(٣) انظر: سلمان العودة: الغرباء الأولون، (ص٣١١).

وقبل انتهاء السنوات الثلاث الأولى كان رصيد هذه الدعوة الجديدة من المؤمنين أكثرَ من أربعين رجلًا، تعددت طبقاتهم ومكانتهم في المجتمع، فمنهم ذوو المكانة والشرف والجاه في مكة، ومنهم الفقراء والمستضعفون الذين رأوا في الدين الجديد خلاصَهم مما هم فيه من شقاء وبؤس، ومنهم الأعاجم مثل: صهيب الرومي وبلال الحبشي. وغيرهم من القبائل الأخرى مثل أبي ذر الغفاري، وأخيه أنيس، وأمهما.

يقول ابن إسحاق: «ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به»[١].

ومن الجدير بالذكر هنا أن ننوّه أن هؤلاء السابقين الأولين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم عقلا وأسدهم رأيا، ولم يكونوا من أراذل الناس وسوقتهم، أو عبيدهم الذين أرادوا استعادة حريتهم أو ما شابه ذلك؛ كما رماهم بهذا الإفك فريق من الباحثين في السيرة محاولا التقليل من شأنهم.

بل إنهم أسلموا يومئذ ولم يكن يدفعهم دافع دنيوي، وإنما هو إيمانهم بالحق الذي شرح الله صدورهم له، ونصرة نبيه ﷺ، يشترك في ذلك الشريف والرقيق، والغني والفقير، ويتساوى في هذا أبو بكر وبلال وعثمان وصهيب[٢].

ولكن الذي ينبغي علينا أن نلاحظه أن أهمَّ سمات هذه المرحلة ومعالمها، هو جو الكتمان والسرية التامة الذي أحيط بهذه الدعوة في تلك الفترة الأولية العصيبة.

فقد «كان النبي ﷺ يعلم تمام العلم عناد قريش وكبرياءها وإصرارها على التمسك بالقديم، ولذلك فهي لن تذعن له بسهولة، بل سوف تقاومه حتى آخرِ سهم في جعبتها.

---

(١) ابن هشام: السيرة (١/ ٣٨٠).

(٢) انظر: صالح الشامي: من معين السيرة (ص ٤٠) «بتصرف».

خصوصا أن الإسلام سوف يهدد مصالح الطبقة المسيطرة المستعلية المستغلة، التي نشأت على نظام الطبقات والامتيازات الأُسرية، واستمرأت حياة الأرستقراطية والسيادة والاستعلاء على الضعفاء والفقراء، فلم يكن هيّنًا على هؤلاء أن يقبلوا دينا يسوي بين أغنيائهم وفقرائهم، وبين سادتهم وعبيدهم»[١].

وبدأ الصحابة ينتظمون في مجموعات صغيرة، مكونة من رجلين أو ثلاثة أو أربعة يلتقون عند أحدهم ممن به قوة وسعة من المال، ومن حفظ منهم شيئًا من القرآن علّم من لم يحفظ، ومن تعلم حكما شرعيا عن النبي ﷺ يعلمه لمن لم يعلم، وبذلك ينتشر العلم بينهم مع الود الكامل والأخوة الدينية.

وعلى سبيل المثال فقد كانت فاطمة بنت الخطاب أختُ عمر بن الخطاب وزوجها ابن عمها سعيد بن زيد، في أسرة واحدة مع نُعَيْم «النَّحَّام»[٢] بن عبد الله بن أسيد، وكان معلمهم خباب بن الأرت، وكان اشتغالهم بالقرآن همَّهم الأول، دراستُه وفهمه، ومعرفةُ أمره ونهيه والعمل به[٣].

لقد شاءت حكمة الله تعالى أن يكونَ رابط العقيدة ورابط أخوة الإيمان بين المجموعة المسلمة الأولى، بين النواة الرئيسة التي تكونت منها الأمة المسلمة، من مختلف قبائل العرب ومن مختلف قارات العالم، ومن مختلف أطياف وألوان البشرية.

فلقد جمعت فيهم: أبا بكر العربي من بلاد العرب، وبلال الحبشي من بلاد إفريقيا، وصهيبًا الرومي من بلاد الروم، وسلمان الفارسي من بلاد فارس، وجمعت فيها سائر بطون قريش وقبائل العرب، وعشائر الناس.

---

(١) انظر: دراسات في السيرة النبوية وعصر الخلفاء الراشدين (لجنة من جامعة الأزهر) (ص ٦٦).

(٢) سمي النَّحَّام لأن النبي ﷺ قال: «دخلت الجنة فسمعت نحمة من نُعَيْم فيها والنحمة السعلة»، ابن سعد: الطبقات الكبرى، (٤/ ١٠٢).

(٣) انظر: عبد الغفار محمد عبد العزيز: الدعوة الإسلامية، (ص٩٦) «بتصرف».

شاءت حكمة الله تعالى ذلك ليكون هذا أقوى إعلان يعرض، وأصدق لافتة ترفع، وأحسن حديث يقال؛ ليعبر عن الرابط العقدي والإيماني الذي أراده الله سبحانه ليكون الجامع الأول لهذه الأمة، وليكون رسالة واضحة لكل العالم الذي حولهم:

أن هذه المجموعة الأولى التي تمثل الإسلام وجوهر رسالته، وعقد أمته وبذور حملته، ها هي ظاهرة أمامكم على أرض الواقع، لا يجمعها إلا أخوّةُ العقيدة والإيمان بالله العظيم وملتحمة متعاضدة فيما بينها، قد ذابت فيها وانتهت من بينها كلُّ الروابط الأرضية التي يتقاسم عليها غيرُهم من الناس المصالح، ويتفرقون عليها ويتقاتلون بسببها، لا مكان لها اليوم في جمع الصحابة هذا، ولا في مجتمع محمد ﷺ.

أرادها الله أن تكون ردًّا واضحًا على كل دعوات الروابط الأرضية، إنكم قد فشلتم وعجزتم أن تجمعوا الناس على غير رابطة القبيلة أو المصلحة المادية، بل وعَدَدْتم ذلك مستحيلًا، فها هو الإسلام يجمعهم جَمْعَةً لا مثيل لها، ويربطهم برابط لا شبه له، إنه رباط الأخوة في الدين، مهما اختلفت الأقطار، أو تباعدت الديار.

مَدرَسَـةُ دَارُ الأَرقَمِ

دار الأرقم مركز للدعوة:

رغم سرّية الدعوة تسربت أنباؤها إلى قريش، فأخذوا يراقبون النبي ﷺ وأصحابه ليعرفوا خبرهم، ويعرفوا حقيقة ذلك الذي يجتمعون له، ويتخافتون به، ويعتزلون القوم من أجله.

يقول ابن إسحاق: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم.

فبينما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلّون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلًا من المشركين بلَحي[1] بعير فشجه، فكان أولَ دم أُهريق في الإسلام»[2].

لذا حرص الرسول ﷺ أن يتجنب مواقف الصدام بينه وبين قومه، فبحث عن مكان منعزل له ولأصحابه بعيدا عن الناس، كما رأى بثاقب بصره أن كل جماعة وليدة لا بد لها من قيادة، ولا بد للقيادة من مركز يجتمع فيه الأتباع، ويلتقون بقائدهم يتعلمون منه معالم الطريق، ويدرسون ذلك الدين الجديد وتعاليمه، ويحددون المسار الذي تتجه إليه الدعوة بعد ذلك.

(١) لَحي: عظم من عظام الفك.
(٢) انظر: الحلبي: السيرة الحلبية (١/ ٤٥٦)، ابن كثير: السيرة النبوية (١/ ٤٨، ٤٥٥).

www.almoslih.net

ونظرا لأن عدد الأتباع الجدُدِ كان في ازدياد مطّرد فقد كانت الحاجة ماسة لمكان جديد يكون مركزا عاما لتدريس تعاليم هذا الدين الجديد، بخلاف بيت خديجة رضي الله عنها فلم يعد يتسع لمزيد من الأتباع.

وبعد تفكير وقع الاختيار على دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وكان الأرقم آنذاك صغير السن في السابعة عشرة من عمره.

واختار النبي ﷺ هذه الدار بالذات ـ في مرحلة الدعوة السرية ـ لعدة عوامل أهمها:

- أن هذه الدار لفتًى صغيرٍ ـ هو الأرقم ـ وهو من قبيلةٍ معاديةٍ للإسلام ـ هي بنو مخزوم ـ، وهي قبيلةُ أبي جهل، أشدُّ القبائل عداوة لبني هاشم، فلم يكن أحدٌ يتوقع أن تكون الاجتماعات السرية للمسلمين في دار لفتى من أغمار المسلمين، حيث تكون الأنظار على رجالات الدعوة الكبار، ولم يكن لأحد أن يُفتش عن لقاءات محمد ﷺ في بيوت أعدائه [1].

وإذا ما عرفنا أن الأرقم كان عند إسلامه ما زال شابّا صغيرا، لا يجاوز السابعة عشرة من عمره [2]، ويوم تفكر قريش بالبحث عن محمد ﷺ وأصحابه فلن تبحث عنه في بيوت الشباب الصغار، بل تتجه إلى بيوت كبار الصحابة أو في بيت رسول الله ﷺ نفسه [3].

(١) انظر: ابن هشام، السيرة، (١/ ٢٥٣، ٣٤٥)، ابن حجر: أسد الغابة، (١/ ٦٠). المقريزي، إمتاع، (ص ١٨ ٢٠).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة، (١/ ٣١٦). الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨)، السيرة النبوية، تحقيق: حسام الدين القدسي، (ص ٩٣، ٩٤)، بيروت، دار الهلال ١٩٢٧م. ابن سيد الناس، فتح الدين بن محمد بن محمد (ت ٧٣٤ هـ)، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، (١/ ١٤٠)، ط ١، بيروت، دار الافاق ١٩٧٧م.

(٣) توفي الأرقم سنة (٥٣ هـ) وقيل (٥٥ هـ)، وهو ابن ثلاث وثمانين سنة، وأسلم الأرقم في أوائل البعثة، فيكون عمره يوم إسلامه سبع عشرة سنة. انظر: ابن حجر، أسد الغابة، =

- أضف إلى ذلك أن دار الأرقم كانت في مكانها تعدّ آمنة إلى حد بعيد، فقد ذكر ابن سعد أن دار الأرقم كانت قريبة من الصفا؛ أي أنها مقابل دار الندوة [1].

وهذا يبعد الشك عنها؛ إذ لا يمكنهم أن يفكروا بأن محمدا ﷺ يجلس بأصحابه في دار قريبة منهم؛ ولهذا فلم نسمع أبدا أن قريشا داهمت هذا المكان وكشفت مكان اللقاء، إنما كان أقصى ما وصلت إليه هو شكها أن يكون اللقاء عند الصفا، فقد قال الرجل لعمر بن الخطاب عندما أراد أن يسلم: «اذهب إلى محمد في دار عند الصفا» [2].

وهذا الأمر يدلنا على خطورة دور الشباب، وأهمية البحث عن النابهين منهم، وإعطائهم ما يستحقون من الشرف والمكانة، لأنهم قادة الأمة في المستقبل ورجالها الواعدون، وهم الذخيرة التي تعدها الأمة لتبني بها مستقبلها الحضاري والدعوي على السواء.

إن هذا الشاب صغير السنِّ تحمل مسؤولية دعوية يعجز عنها الكثير من الرجال، فقد كان قومه من بني مخزوم من أشد أعداء النبي ﷺ، ولو حدث وانكشف أمره لتعرض إلى وابل من العذاب الأليم ربما أودى بحياته كلها، ولكنه تحمل هذه المسؤولية غير مُبال بما يكون بعد ذلك؛ ولذا كان أهلا لهذا الشرف العظيم؛ ففي داره وفق الله تعالى رسوله إلى تكوين الجماعة الأولى من الصحابة، حيث قاموا بأعظم دعوة عرفتها البشرية.

= (١/ ٦٠). الهندي، كنز العمال، (١٥/ ٢٤٠). الشنتناوي، دائرة المعارف، (١/ ٦٣). الزركلي، الأعلام، (١/ ٢٨٨).

(١) منير محمد الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، (ص ٤٩)، ط١، الزرقاء، مكتبة المنار: ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

(٢) ابن سعد، الطبقات، (٣/ ٢٤٣).

على أي حال، فقد أحيَتْ دار الأرقم البيوتات والدُور. دارٌ نثرت في ربوع العالم الحضارة والنور. دارٌ تَخرّجَ فيها سادة العالم، وأنتجت للدنيا العلماء والفقهاء والأدباء والمجاهدين والمجددين.

فهي مَنْبَعُ السُّؤددِ والمجدِ، ومنشأ العلم الراسخ، والفتح المنيف الباذخ. فهي أحقُّ دارٍ بأن تدعى مباركةً؛ دارٌ جلس فيها أعظم الأنبياء إلى أعظم الأتباع لِيعدَّهم أعظم أمةٍ أُخرجت للناس.

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي هي أولَ مؤسسة تربوية في تاريخ الإسلام، وقد كان محمد ﷺ يجتمع فيها بأصحابه يتلو عليهم القرآن الكريم، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وكان لا بد من أن يجتمع المربي بتلاميذه، والقائد بأمرائه، وكان لا بد من مَقرٍّ يجتمع فيه العاملون للدعوة، حيث تُفَصّلُ فيه الآيات، وتُشرح فيه الدروس، وتُحلل فيه الأحداث، وهي أمور تضيق بها الخطب العامة، واللقاءات العابرة.

إذًا كان لا بد من هذه المؤسسة التي تَفْصِل بين العمل الدعوي العام ـ الموجه للناس كافة ـ والعمل التربوي الخاص ـ الموجه لرجال الدعوة خاصة ـ، وهذا الأخير؛ إذا نجح، نجح العمل العام، فهو كالسراج كلما اشتد وهجه اشتد أثره.

وكلما كانت الجرعة التربوية مُرَكزة كلما مُحقتْ الشبهاتُ الفكريةُ التي تدور على رؤوس الشباب الأحداث في الدين، كالسراج ـ أيضًا ـ كلما قَويت شُهبُهُ كان أبصر للناس إذا ادلهمّتْ الظُلَمُ.

فهذا الذي يشتكي كثرة القلاقل الفكرية في رأسه؛ إنما يشتكي ضعف التربية في نفسه، والذين جاهدوا أنفسهم في الله هداهم سبله.

وحافَظَ المسلمون على سرية مقرهم ـ حتى لا يُفسده المشركون ولا يلاحقوا المسلمين من وقت لآخر، كما يفعل جلاوزة الليل مع الدعاة ـ.

ولا أدلّ على ذلك من قصة أبي بكر ﷺ، التي وقف فيها خطيبًا في المسجد الحرام، يدعو الناس إلى الله فقاموا إليه وضربوه ضربًا شديدًا حتى فقد وعيه، ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، وحُمل أبو بكر إلى بيته، ولا يشك الناسُ في موته، ثم استفاق وسأل عن محمد ﷺ فلم يجبه أحد.

وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل محمد ﷺ؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه. فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟

فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفًا، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟

قالت: هذه أمك تسمع.

قال: فلا شيء عليك منها.

قالت: سالمٌ صالحٌ.

قال: أين هو؟

قالت: في دار ابن الأرقم.

قال: فإن لله على أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ(١).

(١) انظر: ابن كثير: السيرة، (١/٤٣٩).

"فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجل، وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليها حتى أدخلتاه على النبي ﷺ، فأكب عليه رسول الله ﷺ يقبله، وأكب عليه المسلمون، ورق رسول الله ﷺ رقة شديدة"(١).

يا لروعة فعل أم جميل ﵂، إذ أنكرت معرفتها بالنبي ﷺ وبأبي بكر، ولم تخبر أم أبي بكر بمكان النبي ﷺ، حتى إذا دخلت أم جميل على أبي بكر تعوده وسألها عن مكان النبي ﷺ، أنكرت عليه، وهي تقول: "هذه أمك تسمع"، أي كيف أخبرُكَ وهذه أمك تسمعنا وهي ليست منّا. فلما طمأنها بقوله: "فلا شيء عليك منها"، قالت: سالم صالح في دار ابن الأرقم.

وإمعانًا في المحافظة على سرية دار الأرقم؛ خرَجنَ به بعد أن "هدأت الرِّجل، وسكن الناس". وكل هذه الاحتياطات الذكية إنما هي ثمرة التربية الأمنية التي تقتضيها هذه المرحلة، والتي يحتاج إليها أصحابُ الدعوات لا سيما في أوقات المحن.

واستمر رسول الله ﷺ في إحياء هذا المحضن التربوي، ولم ينقطع عن فعاليته في أغلب فترات المرحلة المكية، وفي ثنايا ذلك شَهدتْ الدارُ قصة إسلام عمر ﵁، وخرَج أربعون مسلمًا من دار الأرقم متوجهين نحو المسجد؛ في قَومةٍ مُتفقة، بقلوب متعاضدة، وأيادٍ متأيدة، في صفوف متسقة ـ كأنها تظاهرة شِبه صامتة ـ لممارسةِ العبادات الإسلامية علنًا عند الكعبة.

وهذه الانفراجة لم تُعطل ما شرعه محمد ﷺ في دار الأرقم، ولم يتوقف المشروع التربوي الكريم الذي خلّدَ ذِكرَ هذه الدار التي صارت من معالم مكة ردحًا من الزمن.

واستمرت دارُ الأرقم حية بإحياء شباب مكة وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ويفدُ إليها العربُ من خارج مكة ـ سرًا ـ كأبي ذَرٍ الغفاري وغيره فيخرجون من الثبور إلى الحبور، ولم يُذكر أنها توقفت اللهم إلا في سفرة محمد ﷺ

(١) أبو نعيم: معرفة الصحابة، برقم (٧٢٧٤).

إلى الطائف في العام العاشر من البعثة.

وربما لم تتوقف، وهذا في الغالب، فلعل قُرّاء الصحابة كانوا يجتمعون بالمسلمين الجدد فيها وفي بيوتهم، في نظام أشبه بالأُسر التربوية أو الحِلق التعليمية؛ لكلِّ أسرةٍ معلم، ولكل مجموعة نقيب.

ومثالُ ذلك ما أبانته قصة إسلام عمر ﵁، إذ لما دخل بيت ختنه وابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو [زوج فاطمة بنت الخطاب]؛ فُوجِئ بخباب بن الأرت ومعه صحيفة فيها سورة طه يقرئهما إياها .. ويظهر من ذلك أن علماء الصحابة في هذا الوقت كانوا يتعهدون البيوتَ سرًا لتعليم المسلمين.

إذًا، كانت دار الأرقم هي مقر العمل التربوي الدعوي، وما عداها من دور فتابعٌ لها، إذ كانت هذه الدار تُخرِّجُ الصحابةَ فتنثرهم في بيوت مكةَ دعاةً إلى الله هنا وهناك..

التلاوة، التزكية، التعليم .. كانت هذه الثلاثية التائية هي مهام محمد ﷺ في هذه الدار، وهي المهام التي حددها الله تعالى لـمُعِدي الأمم والحضارات.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

أما التلاوة، فقد كانت هي المهمة الأولى: ﴿ٱقْرَأْ﴾، وكانت هي التكليف الأول: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وكانت هي الوسيلة الأولى لتبليغ رسالات الله ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

www.almoslih.net

فالقراءة المستمرة لهذا الكتاب هدفٌ رئيسي للدعاة، وتكليف منوط بهذه الأمة المكلفة بتبليغ هذا الدين للناس ...

لقد كتب الله أن يُرَتلَ هذا الكتابُ إلى قيام الساعة؛ فلن يتوقف ترتيله ما دام الليل والنهار، ليكون ـ دومًا ـ البلاغ الماثل، والبث المستمر، والكتاب المفتوح الدائم المهيمن.

وأما التزكية فهي التربية، وهي المهمة الثانية للنبي ﷺ وأتباعه من المربين والدعاة، فإذا قَرأ عليهم القرآن؛ تهيأتْ نفوسُهم بعد ذلك لتلقي الدروس التربوية ومكابدة الصعاب في سبيل تطهير النفس وتحليتها بمكارم الأخلاق.

ولا حراك لنهضة لا تقوم على التربية، ولا فكاك لوطن ـ من الاحتلال ـ دون تربية، ولا دولة دون تربية، ولا خلافة دون تربية ..التربية هي الطريق.

وهكذا نصَّ القرآنُ الكريم على المهمة التربوية لمحمد ﷺ، ليكون في ذلك درسٌ لأصحاب الدعوات الإسلامية.

وكانت المادة الدراسية التي يعلّمها محمد ﷺ لتلاميذ دار الأرقم منحصرة في فرعين:

الأول: الكتاب وهو القرآن الكريم.

الثاني: الحكمة، وهي كل علم نافع، وفكر ناجع، وهي كل مَثل وقصة وموعظة ونصيحة تحمل خيرًا، وهي كل فعل أو قول أو تقرير ورد عن محمد ﷺ.

لقد كانت المادة الدراسية في دار الأرقم هي الكتاب والحكمة، وكان الصحابة يتلقون دروس القرآن وتعاليم الحكمة؛ غضة طرية، سهلة لينة، من صاحب الخُلق العظيم في ظلال المعايشة التربوية في دار الأرقم. وكانت مفاتيح دار الأرقم: التاءات الثلاث: التلاوة، التزكية، التعليم؛ فاجعل لنفسك منهن منهلًا .. وافتح ديوان نفسك، وكن رقيب أمرك.

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

❶ وفي هذا الحادث العظيم (أعني بَدْء الوحي) تظهر مكانة ومنزلة العلم في الإسلام، فأول كلمة في النبوة تصل إلى رسول الله ﷺ هي الأمر بالقراءة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العَلَق: ١].

وما زال الإسلام يحث على العلم ويأمر به، ويرفع درجة أهله، ويميزهم عن غيرهم، قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجَادلة: ١١].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩].

كما أن مصدر العلم النافع من الله عز وجل، فهو الذي علم بالقلم، وعلم الإنسان ما لم يعلم، ومتى حادت البشرية عن هذا المنهج، وانفصل علمها عن التقيد بمنهج الله تعالى رجع علمها وبالًا عليها وسببًا في إبادتها.

❷ إن ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسنن والقوانين الطبيعية، حيث تلقى النبي ﷺ كلام الله (القرآن الكريم) بواسطة جبريل عليه السلام؛ وبالتالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام أو التأمل الباطني، أو الاستشعار الداخلي، بل إن الوحي يتم من خارج ذات النبي ﷺ، وتنحصر وظيفته بحفظ الموحى وتبليغه، وأما بيانه وتفسيره فيتم بأسلوب النبي ﷺ، كما يظهر في أحاديثه وأقواله ﷺ.

كما أن حقيقة الوحي، هي الأساس الذي تترتب عليه جميع حقائق الدين، بعقائده وتشريعاته وأخلاقه، ولذلك اهتم المستشرقون والملاحدة من قبلهم، بالطعن والتشكيك في حقيقة الوحي.

وحاولوا أن يؤولوا ظاهرة الوحي ويحرفوها عن حقيقتها عما جاءنا في صحاح السنة الشريفة، وحدثنا به المؤرخون الثقات، فقائل يقول: إن محمدا ﷺ تعلم القرآن ومبادئ الإسلام من بحيرا الراهب، وبعضهم قال إن محمدًا كان رجلاً عصبيًا أو مصابًا بداء الصرع.

❸ إن العلم والفقه الصحيح الكامل في العقائد والشرائع، والآداب وغيرها لا يكون إلا عن طريق الوحي المنزل، قرآنًا وسنة؛ والتزام الدليل الشرعي هو منهج الذين أنعم الله عليهم بالإيمان الصحيح قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

لقد كان الصحابة ﷺ أعظم من غيرهم انتفاعا بالدليل والوحي، وتسليمًا له، لأسباب عديدة، منها:

❶ نزاهةُ قلوبهم، وخلُوها من كل ميل أو هوى غير ما جاءت به النصوص، واستعدادُها التام لقبول ما جاء عن الله ورسوله، والإذعان والانقياد له انقيادا مطلقا، دون حرج ولا تردد، ولا إحجام.

ب معاصرتهم لوقت التشريع ونزول الوحي، ومصاحبتهم للرسول ﷺ، ولذلك كانوا أعلم الناس بملابسات الأحوال التي نزلت النصوص فيها، والعلم بملابسات الواقعة أو النص من أعظم أسباب فقهه وفهمه وإدراك مغزاه.

ج وكانت النصوص ـ قرآنًا وسنة ـ تأتي في كثير من الأحيان لأسباب تتعلق بهم ـ بصورة فردية، أو جماعية ـ فتخاطبهم خطابًا مباشرًا، وتؤثّر فيهم أعظم التأثير؛ لأنها تعالج أحداثًا واقعية، وتعقب

في حينها، حيث تكون النفوس مشحونة بأسباب التأثر متهيئة لتلقي الأمر والاستجابة له.

فكانوا إذا سمعوا أحدا يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارهم، كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما.

❹ لقد كان الصحابة يتعاملون مع العلم الصحيح ليس كحقائق علمية مجردة يتعامل معها العقل فحسب، دون أن يكون لها علاقة بالقلب والجوارح، فقد أورثهم العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله: محبتَه والتألهَ إليه، والشوقَ إلى لقائه، والتمتعَ بالنظر إلى وجهه الكريم في جنة عدن.

وأورثهم تعظيمه، والخوفَ منه، والحذرَ من بأسه وعقابه، وبطشه ونقمته وأورثهم رجاء ما عنده، والطمع في جنته ورضوانه، وحسن الظن به، فاكتملت لديهم بذلك آثار العلم بالله والإيمان به.

وهذه المعاني الوجدانية هي المقصود الأعظم في تحصيل العلم، وإذا فقدت، فلا ينفع مع فقدها علم، بل هو ضرر في العاجل والآجل.

وقد كان الصحابة فرسانًا بالنهار، ورهبانا بالليل، لا يمنعهم علمُهم وإيمانُهم وخشوعهم لله من القيام بشؤونهم الدنيوية، من بيع، وشراء، وحرث، ونكاح، وقيام على الأهل والأولاد وغيرهم فيما يحتاجون.

❺ كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أعظمَ مدرسة للتربية والتعليم عرفتها البشرية، كيف لا، وأستاذها هو رسول الله ﷺ أستاذ البشرية كلها، وتلاميذها هم الدعاة والهداة، والقادة الربانيون، الذين حرروا البشرية من رق العبودية وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، بعد أن رباهم الله تعالى على عينه تربية غير مسبوقة ولا ملحوقة.

ففي دار الأرقم وفق الله تعالى رسوله إلى تكوين الجماعة الأولى من الصحابة، حيث قاموا بأعظمِ دعوة عرفتها البشرية.

❻ إن بناء الدول وتربية الأمم، والنهوض بها يخضع لقوانين وسنن ونواميس تتحكم في مسيرة الأفراد والشعوب والأمم والدول، وعند التأمل في سيرة محمد ﷺ نراه قد تعامل مع السنن والقوانين بحكمة وقدرة فائقتين.

كما أن السنن الربانية هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون، وعلى الإنسان في كل زمان ومكان، وهي كثيرة جدًا، والذي يهمنا منها في هذا الكتاب ما يتعلق بحركة النهوض تعلقًا وثيقًا.

❼ رَبَّى رسول الله ﷺ أصحابه على تزكية أرواحهم وأرشدهم إلى الطريق التي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب من خلال القرآن الكريم ومن أهمها:

أ التدبر في كون الله ومخلوقاته، وفي كتاب الله تعالى.

ب التأمل في علم الله الشامل وإحاطته الكاملة بكل ما في الكون، بل ما في عالم الغيب والشهادة.

ج عبادة الله عز وجل، من أعظم الوسائل لتربية الروح وأجلها قدرا، إذ العبادة غاية التذلل لله سبحانه ولا يستحقها إلا الله وحده.

والعبادات التي تسمو بالروح وتطهِّرُ النفسَ نوعان:

النوع الأول: العبادات المفروضة كالطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج وغيرها.

النوع الثاني: العبادات بمعناها الواسع، ويشمل كل شيء يُتَوَخّى به التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فهو عبادة يثاب صاحبُها، وتُرَبَّى روحه تربية حسنة.

إن تزكية الروح بالصلاة وتلاوة القرآن الكريم، وذكر الله تعالى، والتسبيح له سبحانه أمر مهم في الإسلام، فإن النفس البشرية إذا لم تتطهر من أدرانها وتتصل بخالقها لا تقوم بالتكاليف الشرعية الملقاة عليها، والعبادة والمداومة عليها تعطي الروح وقودًا وزادًا ودفعًا قويًّا إلى القيام بما تؤمر به.

❽ جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس، ومعرفة المحِقِّ منهم والمبطل؛ وذلك لأن المرء قد لا يُكشف في الرخاء، لكنه تكشفه الشدة، قال تعالى:
﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العَنكَبُوت: ٢].

كما أنه الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة، التي تحمل هذه الدعوة وتنهض بتكاليفها، طريق التربية لهذه الجماعة، وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال، وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف، والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة.

ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودًا، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها، إذن بالصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون.

❾ اتخاذ الأسباب الدنيوية في الوصول إلى الغايات، وعدم العجلة في تحقيق الأهداف الكبيرة، فقد ظلت الدعوة الإسلامية سرية ثلاث سنوات كاملة، ولم يتجاوز عدد المؤمنين الأربعين إلا قليلا، ولكن كان الواحد منهم ثابت الإيمان ثبات الجبال الراسيات.

❿ العمل على التوازن بين حفظ الدين وحفظ النفس، إذا غلب على الظن أن هناك خطرا محدِقا يكاد يستأصل نفوس المسلمين، أو يجعلُهم من الضعف بحيث لا تقوم لهم قائمة، وكان ذلك في بداية العهد المكي، وبزوغ الدعوة إلى الله لحماية هذه الكوكبة التي ستبنى على كاهلها أمة.

أما يومَ أن استقر هذا الدين، وعلا شأنه وقامت قواعده ورجالاته وحماته، فإن الحفاظ على الدين هو المهمة الأولى والقاعدة الأولى من القواعد الخمس التي أقام عليها هذا الدين بناءَ مجتمعه العظيم، وهو ما يعرف بالضروريات الخمس وهي: حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل التي اتفقت الديانات السماوية على الحفاظ عليها؛ لأنّ الحياة الإنسانية لا تقوم بدونها.

١١ ضرورة تضافر جميع جهود أبناء الدعوة الواحدة في سبيل نصرتها، بلا فارقٍ بين امرأة ورجل، ولا شاب وشيخ، فقد رأينا دور المرأة الصالحة ممثلا في السيدة خديجة، وأثره الواضح في نجاح الدعوة، كما رأينا دور الشباب ممثَّلا في الصحابي الجليل الأرقم بن أبي الأرقم في نصرة الدعوة واحتضانها.

هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

٥

الدَّعوَةُ العَلَنِيَّةُ والهَجمَةُ الوَثَنِيَّةُ

فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ

رغم سرية الدعوة في مرحلتها الأولى تسربت أنباء هذا الدين الجديد إلى مسامع العامة والخاصة في مكة؛ مما جعل كثيرا من أهل مكة في حيرة من أمرهم، وهم يتباحثون في شأن محمد ودعوته.

فمثّل هذا الجدل قبولا وردا يفيدان الدعوة من طرف خفي، حيث يجعل كثيرا من العقلاء يفكرون في الأمر بروية، خاصة وأن صاحب الدعوة لم يناصب أحدا العداء، ولا يمثل خطرا على المجتمع.

ولهذا السبب، فإن الملأ من قريش لم يناصبوا الدعوة العداء، لأنهم لم يروا فيها خطرا على أنفسهم، ولا أموالهم، ولا مكانتهم الاجتماعية في الأعم الأغلب.

فقد كانت الدعوة سرية، واستجاب لها نفر قليلون إذا ما قيسوا بعدد قريش، فلا يمثلون نسبةً تذكر في المجتمع.

وفي الغالب فإن صناديد قريش لم يقدّروا الأمر حق قدره، وتصوروا أن هذا الدين الجديد لن يزيد على حديث الرهبان والحكماء أو الحنفاء أمثال: قس بن ساعدة وسويد بن عامر، ووكيع بن سلمة بن زهير الأيادي، وعامر بن الظرب العدواني، وعلاف بن شهاب التميمي، والمتلمس بن أمية الكناني، وزهير بن

www.almoslih.net

أبي سلمى، وأبي قيس صرمة بن أبي أنيس، وورقة بن نوفل وغيرهم، وأن أتباعها لا يمثلون خطرا على دين آبائهم وأجدادهم.

وبدأ القرشيون يتساءلون عن حقيقة هذا الدين الذي يدعو إليه الرسول ﷺ، وكان من أولهم عمُّه أبو طالب الذي نازعته قريش نزاعًا طويلاً في أمر ابن أخيه، حيث قال أبو طالب للرسول ﷺ: "يا ابنَ أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟

قال: أي عمِّ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم أو كما قال ﷺ بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أيْ عمِّ أحقُّ مَن بذلتُ له النصيحة، ودعوتُه إلى الهدى، وأحقُّ مَن أجابني إليه وأعانني عليه أو كما قال.

فقال أبو طالب: أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلصُ إليك بشيء تكرهه ما بقيت"[1].

كان أبو طالب رفيقًا بابن أخيه؛ إذ كانت علاقتهما طيبة منذ أن ضم محمد ﷺ إليه عليًّا ليربيّه عنده لفقرٍ أصاب عمَّه، حتى أسلم عليٌّ صبيًا ولم يعنفه أبوه أو يحاولْ ردَّه عن دينه.

وفي هذا المشهد السابق نجد علامات ذلك الرفق بين أبي طالب ومحمد ﷺ فأبو طالب يسأل ابن أخيه ليفهمَ حقيقة ذلك الدين، فيرد عليه النبي ﷺ برفق وأدب: أيْ عمِّ، وهو من أدب الحوار الجميل، ثم يبين له حقيقة تلك الرسالة التي أكرمه الله بها، ويدعوه إليها صراحة، ولكن الرجل يأبى ويعدُ ابن أخيه بالحماية.

ولكن هذه المرحلة السرية، وهذه الهدنة لم تدم أكثرَ من ثلاث سنين حتى أمر الله رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه من الحق وأن يدعو الناس علانية، وأن يبدأ بعشيرته الأقربين.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ١٦٨).

فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢١٦].

ولقد كان من الطبيعي أن يبدأ محمد ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ إن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدأ الدعوة بالعشيرة، التي قد تُعين على نصرته وتأييده وحمايته.

كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد أن يكون له أثر خاص، لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجَلْبُها إلى حظيرة الإسلام لا بد أن يكون له وقع كبير على بقية القبائل[1].

وامتثل النبي ﷺ لهذا الأمر وتلطف في دعوته لهؤلاء الأقربين وأمر عليا رضي الله عنه أن يصنع لهم طعاما، وقد كانوا نحوا من أربعين رجلا من رجال بني هاشم يزيدون رجلا أو ينقصونه[2]، ودعاهم إلى بيته.

وكان فيهم عمُّه عبد العزى بن عبد المطلب، وكان يدعى أبا لهب، وكان سَريا من سراة قريش، كثير المال مسموع الكلمة؛ وكان شديد التعصب لِدين قريش وتقاليدها، حريصا أشد الحرص على أن يظل هذا الدين مرعي الجانب موفور الكرامة.

وكانت فيه حدة وسفاهة، واندفاع مع الغضب إلى غير حد؛ وكان أشد ما يسوءه أن تمس قداسة الآلهة، أو تمتهن كرامة الآباء، فيثور لذلك أعظم ثورة، ولا يبالي أن يعادي في سبيل ذلك أقرب المقربين إليه.

وكان محمد ﷺ يعرف منه ذلك، ويخشى أن يُفسِدَ عليه أمرَه بما فيه من حمْق وجهالة؛ فجعل يفكر في الوسيلة التي يستطيع بها أن يدعو عشيرته الأقربين

(١) عماد الدين خليل: دراسات في السيرة، (ص٦٦).
(٢) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٢/ ٣٢٤).

www.almoslih.net

إلى الإسلام، بحيث يتقي فيها شر هذا العم الجهول، ويأمن أثر نفوذه القوي على بني هاشم؛ فصنع لهم طعاما، ودعاهم إليه فحضروه، وكانوا نحو الأربعين رجلا.

فلما انتهوا من طعامهم تأهب الرسول ﷺ لعرض دعوته عليهم، فبادره أبو لهب بقوله: هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك، فتكلم ودع الصبأة[(١)].. فلا تخرج على دين قومك، ولا تعرضهم لغضب العرب، فإن قومك لا يستطيعون مقاومة العرب قاطبة، وليس لهم بحربهم طاقة..

وقد علم قومك بما تريد أن تبدع في دينهم، ولم يخف عليهم أمرُك وما تدعو إليه من الصبأة، والخروج على تقاليد الآباء..فاربع[(٢)] على نفسك وبني أبيك، واعلم أن العرب لن يتركوك، ولن يشق عليهم أن يثبوا بك فيقتلوك..

فارجع إلى دين آبائك وأجدادك خيرا لك، وإلا حبسناك حتى تشفى من مرضك الذي أنت فيه، وحتى نَحُولَ بين العرب وبينك..فنحن أولى بتأديبك حتى يثوب إليك رشدُك، وتبرأ من علتك..

فإن بني أبيك أولى بتأديبك، وأحقُّ من أخذك فحسبك، إن قمت على ما أنت عليه؛ فهذا أيسر عليك وعليهم من أن تثب بك بطون قريش وتمدها العرب. فما رأيت أحدا جاء على بني أبيه بِشَرٍّ مما جئتَهم به[(٣)].

وكان ثائرا مهتاجا، يلقي بالكلام في عنف وشدة، ويشير بيديه مهددا متوعدا، وقد جحظت عيناه، واصطبغ وجهه بحمرة قانية، كأنما يتفجر بالدم. فلما سكت لم يسكت عنه الغضب؛ فجعل جسمه ينتفض كالمحموم، وجعلت عيناه ترسلان الشرر في كل ناحية، حتى لتكاد تحرق من تقع عليه من القوم.

(١) الصبأة: هي الخروج على دين الآباء وتقاليدهم.

(٢) احذر واحترس.

(٣) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد (٢/ ٣٢٤-٣٢٥) "بتصرف".

ونظر الرسول ﷺ، فإذا القومُ سكوتٌ، وإذا الجوُّ كله وجوم وكآبة؛ فعلم أن الفرصة لم تحِنْ بعدُ، وأن الجو غير ملائم للكلام، فسكت ولم يتكلم في هذا المجلس.

وتلبث محمد ﷺ أياما، ثم أعد وليمة أخرى. وتقول الرواية التاريخية إن بعض عماته ﷺ أشرن عليه ألا يدعو عمه أبا لهب؛ ولعله كان راغبا في ألا يدعوه كذلك، ثم رأى أن يدعوه اتقاء لشره، أو أملا في أن يكتب الله له الهداية فيهتدي.

ومهما يكن من شيء، فقد حضر أبو لهب هذه الدعوة، كما حضر التي قبلها.. فما إن فرغ القوم من طعامهم حتى بادرهم الرسول ﷺ قائلا:

"الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. أما بعد، فإن الرائد[(١)] لا يكذب أهله، ولو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم.. والله الذي لا إله إلا هو، إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة.. وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الميزان: شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله..! والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا. وإنها لَجَنَّةٌ أبدا أو نار أبدا..!

يا بني عبد المطلب، والله لا أعلم شابا جاء به قومه بأفضلَ مما جئتكم. إني جئتكم بخير الدنيا والآخرة.. فمن يجيبني إلى هذا لأمر، ويؤازرني على القيام به؟"

فتكلم عمه أبو طالب كلاما لينا، واعتذر اعتذارا لطيفا، فقال: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك! وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون

(١) الرائد: الذي يرسل في طلب الكلأ. وهو الطليعة الذي يستطلع القوم فيما يهمهم.

وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ماتحب. فامض لما أُمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك[١].. غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

أما أبو لهب فقد ثار ثائره، وعاد إليه حمقه وجهله، وقال: هذه والله السوءة[٢].. خذوا على يديه، قبل أن يأخذ على يديه غيركم؛ فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم، وإن منعتموه قُتلتم.

وحاولت أخته صفية ـ إحدى عمات الرسول ﷺ ـ أن تهدأ من ثورته فقالت: أيحسن بك خذلان ابن أخيك؟ ألا يسرك أن يخرج من ضئضىء[٣] عبد المطلب نبي؟

فصاح بها ثائرا: هذا ـ والله ـ الباطل والخبال، وكلام النساء في الحجال[٤]..! فإذا قامت بطون قريش وقامت العرب معها، فما قوتنا بهم؟ فما نحن إلا أكلة رأس[٥]..! فقال أبو طالب: والله لنمنّعه ما بقينا..

ونظر القوم إلى أبي طالب فإذا هو مصمم يعني ما يقول؛ فرأوا من العار أن يتخلوا عن ابن أخيهم، فانحازوا إلى أبي طالب. وخرج أبو لهب خزيان مخذولا، يُنذر ويتوعّد، ويقسم باللات والعزى: ليبذلن دمه وماله في حرب هذه الدعوة، وليحولن بين هذا الصابئ وبين ما يريد من تبديل دين قريش..! [٦].

---

(١) أحميك.

(٢) العار.

(٣) ضئضى المرء: أصله.

(٤) يعني هذا ليس من شأن النساء، إنما شأنهن أن يتزين بالخلاخيل وغيرها.

(٥) كناية عن قلة عددهم. يعني أن واحدة من الغنم تشفي لإشباعهم جميعا.

(٦) محمد الطيب النجار: القول المبين، (ص ١١٤).

ومنذ ذلك اليوم دبت العداوة بين أبي لهب وبين بني هاشم، فوقفوا كلهم صفًّا وراء الرسول ﷺ يحوطونه ويمنعونه، ووقف هو مِنْ دونهم صفًّا يحارب الرسول ﷺ ويناوئه، ويحاول جهده أن يصرف الناس عن دينه.

ومن محاولات أبي لهب وغيره لصد الناس عن السماع لرسول الله ﷺ، ما أخرج ابن إسحاق عن ربيعة بن عبّاد رضي الله عنه قال: «إني لغلام شاب مع أبي بمنى ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: يا بني فلان! إني رسول الله إليكم آمرُكم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني حتى أبيِّنَ عن الله ما بعثني به.

قال: وخلفه رجل له غديرتان عليه حلة عدنية. فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل: يا بني فلان! إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا عنه.

فقلت لأبي: يا أبت، من هذا الرجل الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب»[١].

وأخرج أحمد عن رجل من بني مالك بن كنانة، قال: «رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» قال: وأبو جهل يحثي عليه التراب، ويقول: لا يغوينكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى، وما يتلفتُ إليه رسول الله».

وبرغم هذا التحدي، بقي محمد ﷺ مستمرًا في عملية التبليغ على وتيرة واحدة وبدأب متواصل، رغم هذه الظروف غير المواتية، والتي تجعل الإنسان العادي ييأس أو يفتر.

---

(١) الطبراني: المعجم الكبير، (٨١٧٥)، الدارقطني: السنن، (٣/ ٤٤).

ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، فلولا أنه رسول الله حقًا يقوم بهذا كله إيمانًا بالله وتنفيذًا لأمره وتصديقًا بوعده وخوفًا من وعيده لما أمكنه الاستمرار وتجاوز شيء من هذا.

الدعوة العامة وإزالة العراقيل:

انتقل الرسول ﷺ بعد هذه الصدمة العنيفة من قومه وعشيرته إلى الدعوة العامة للناس جميعا، فقد كُلِّف من الله تعالى بالجهر بالدعوة والإعراض عن المشركين، فقال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحِجر: ٩٤].

وهنا أسرع محمد ﷺ إلى تلبية أمر ربه، فصعد على جبل الصّفا وكانت الصيحةُ الأولى بالخطر الذي يتهدد البشرية:

«يَا صَبَاحَاه!!»(١). ولم تكن صيحة تنذر بجيش غازٍ، أو عدو زاحف؛ إنما كانت صيحةً تحذر من الخطر الماحق المحدق بالإنسانية؛ وتنذر بالطريق المظلم الذي سلكته البشرية ـ وهي في أحط عصورها ـ من فساد طال المعتقدات والأخلاق والسلوك والمعاملات، وقد أوشكت البشرية أن تغرق في طوفان لا نجاء منه إلى قيام الساعة.. لولا وثبة الداعي، وصيحة الحق: «يَا صَبَاحَاهْ !!».

وعلى جبل الصفا؛ بدأت الدعوة العلنية صافية ـ ومن حُسْنِ الطالع أن تبدأ صافية على جبل اسمه الصفا ـ جلية لا لبس فيها ولا غبش، واضحة سهلة محددة: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»(٢).

(١) البخاري برقم (٤٧٧٠) باب ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

(٢) البخاري برقم (٤٧٧٠) باب ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وعلى جبل الصفا، كانت البداية، لِيَعْرف فضلها كلُّ ساعٍ وزائر، وليذكر أهميتها كل حاج ومعتمر، وفضل الوقفة الصلبة في وجه الباطل، وفضل الكلمة الصادقة في وجه الكذب، وفضل كلمة الحق التي قد تفعل ما لا تفعله الطائرات والدبابات.

هذه الوقفة الشجاعة التي وقفها سيد الشجعان؛ لتترنَحَ حولها مناقب السادة والقادة من الشجعان على مر التاريخ، إنها وقفة لا يدرك كنهها سوى الدارس المتبصر لطبيعة المجتمع القرشي في جاهليته.

هذا اليتيمُ الذي وقفَ ينادي على أهل بيته وقومه على حد سواء، ويهتف فيهم بهتاف يزلزل معتقدات باطلة، وعادات فاسدة؛ توارثها القومُ جيلاً بعد جيل، وتأصلت فيهم هذه الثقافات؛ حتى أصبحت مصادر أرزاقهم من هذه الأوثان المتراصة حول البيت الحرام.

ثَبتَتْ قدمُه ﷺ وهو ينفض هذه الجاهليات عن كاهل البشر، ويعتلي هذه الربوة بخطوات واثقة؛ ربيط الجأش، يتأبط التوكل، فلم يهتز ولم يتلجلج؛ فأثار انتباههم في بادىء الأمر ـ وأشهدهم على أنفسهم ـ بما عُرف به من الصدق ـ فقال: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟».

هكذا نبه شعورهم، وأيقظ أفئدتهم، وهيأها وفرش لها ليلقي عليهم الكلمة الحقة التي لن ينسوها.

وقد قالوا جميعًا ولم يتردد أحدٌ فيها: "مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا"، فتاريخه أصفى من الشهد، وسيرته خير سيرة، وبره أحسن بر، ومجده أعظم مجد، هكذا عرفوه في شبابه، ولقّبوه بالأمين، هو الذي حقن دماءهم يوم الحجر الأسود، ووَحّدَ صفهم؛ وقد أوشك الناسُ على الاقتتال، وهم الذين ارتضوه حكمًا بينهم في هذا النزاع الخطير.

وقد جعل بيته خزانة لأماناتهم؛ فلا تطمئن قلوبهم على أموالهم حتى تكون في بيت محمد ﷺ، فتقر نفوسهم ويهدأ بالهم، وكأنما ألقوا أموالهم في حصن منيع، أو بئر حفيظ.

فلما كانت هذه شهادتهم فيه، قال قولته؛ يعرّف بنفسه ورسالته في أوجز جملة: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

وسكتَ الناسُ، وكأنما على رؤوسهم الطير، ووقفوا مليًا يفكرون في هذه الكلمة، وصمتوا ولم يؤيدوا على التو خشيةَ الصناديد الطغاة، وصمتوا حتى يسمعوا ردة فعل السادة الكبار.

وبالفعل لم يُسمع سوى صوت الصنديد أبي لهب يمثل الهيئة الرسمية الحاكمة في مكة، فكان الرد القوي الذي يريد أن يربو ويتطاول ليدفع شيئًا مما أحدثته كلمة الصدق: "تبًّا لَكَ! مَا جَمَعْتَنَا إلا لِهَذَا ؟".

كلمة حق قوية خرجت لها كلمة باطل عتية، فكان الرد الإلهي الشديد، الخالد السديد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[المَسَد: ١-٣].

هكذا كان الانطلاق بالقرآن، والدفاع بالقرآن.

ولم يعبأ محمد ﷺ بكلمة أبي لهب اللاهبة الباطلة، ولم يعبأ بمكان عمه ولم يَرُدَّ عليه، وواصل محمد ﷺ كلامه مستفيدًا من فرصة حضور الناس، الذين جاءوا إليه من كل البطون. فأخذ ينادي عليهم بطنًا بطنًا:

«يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ!

يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ!

يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ!

يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ!

يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ!

يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ!

يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ ـ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا»[1]. أي سأصلها، شبّهت قطيعة الرحم بالحرارة، ووصلها بتبريدها.

وسَوّى نداءُ الإسلامِ بين البعيد والقريب، والوضيع والحسيب .. وكان النداء على أهل البيت وأهل الوطن على حد سواء.

إن مسؤولية المسلم عن أهله أمام الله بادية بينة من أول يوم بدأت فيه الدعوة الجهرية، وذلك حتى لا يحدث ذلك الفصام؛ وهو ذلك السلوك النكد الصادر من بعض الأدعياء حينما يأمرون بأمر ولا يأتمرون به؛ ولا سيما على نطاق أُسَرِهم.

وتشهد هذه الواقعة ببعد نظر النبي ﷺ، فقد رأى بحكمته أن يعرف رأيهم فيه، وظنهم به قبل أن يفاجئهم بأمر رسالته، وفي جو صاف خالص من الكدرات، بعيد عن الشوائب صارحوه وأجابوه على الفور ما جربنا عليك إلا صدقًا.

إن هذا المشهد يفيض جلالا وبهاءً، فمحمد ﷺ يقيم الحجة على أهل مكة جميعا، وهم يعلمون منه صدقه وأمانته، ويلزمهم بتصديقه، فلما أن أقروا له بالصدق، وأنهم ما جربوا عليه كذبا قبل ذلك، كان من المتوقع أن يُذعنوا له، أو على الأقل أن يناقشوا هذا الإنذار الشديد، ويتدبروا الأمر بعقولهم في هدوء وأناة.

ولكن الهمج والرعاع دائما ما يضيعون على الأمم فرص النجاح، بما يتسمون به من صلف وغوغائية، ومقدرة على الكيد والتشويش والدس والتلبيس، ومواجهة الحق وتلبيسه بالباطل من أجل مآرب دنيوية رخيصة.

(١) مسلم برقم (٢٠٦) واللفظ له، والبخاري برقم (٤٧٧١)، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

فكثيرا ما يكون الحق واضحا جليا من الذين يُخلِصون النصح، ولكن أهل الباطل بكيدهم وضلالهم يخادعون الناس، ويخافون على مصالحهم وكراسيهم وسلطانهم وجبروتهم، فيصيحون في وجه الحق ليُضلوا الناس عن سواء الصراط.

وكثير من الناس أيضًا يضيعون على أنفسهم فرصة النجاة، باستماعهم إلى أقوال المجرمين الذي يجادلون بالباطل، ويخدعون أنفسهم بتصديق أمثال هؤلاء، وهم في قرارة أنفسهم يعلمون إنهم لكاذبون، ولكنه الركون للدعة، وعدمُ حمل النفس على اختيار الطريق الصحيح؛ لأن تكاليفه كبيرة، وبالتالي تسفل بهم هممهم إلى تلك الوهدة الطينية وشهوات الدنيا الزائلة.

وهذا ما حدث بالضبط مع الرسول ﷺ في هذا الموقف، حيث قام أبو لهب ـ وهو عمُّه وأقرب أهل مكة إليه ـ فصاح: تبّا لك يا محمد سائر هذا اليوم! ألهذا جمعتنا!

إنه الكِبْر والعنجهية التي تفتك بأصحابها، والذين ينخدعون بما يرددون من أباطيل، فسولت لأبي لهب أن يكون عدوًا لهذا الدين الجديد، على الرغم من أنه سيكون أسعدَ الناس بابن أخيه لو أنه آمن بما قال.

ولكن كيف بهذا الشيخ أن يتبع فتى في سن أبنائه أو أقل، يأتمر بأمره وينتهي بنهيه؟، فأتبع نفسَه هواها، وأعلن العداوة له من اللحظة الأولى؛ فما لبث أن جاء الوحي بقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[المسد: ١-٣].

وانفضَّ الموقف على ذلك، وكان الأمر صدمة لعبّاد الأوثان من سادة قريش وصناديدها، وكأن ورقة حين قال للنبي ﷺ: والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولتكذَّبَنَّ ولتؤذَيَنَّ ولتخرَجَنَّ. وكأنه كان خبيرا بالأمم وأحوالها، ينطق بما عرف من تاريخ الأديان والرسل أنه لم يأت رجل قط بمثل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ، إلا عودي.

والعرب كغيرها من الأمم عنادا وتمسكا بدين الآباء، ولعلها أكثر من الأمم في هذا الصدد، نظرا لما لبيئتها القاسية التي أورثتها عنادا وغرورا.

انفض الموقف نعم، ولكن الدعوة لم تنفض، وما دار في الموقف من حوار لم ينفض، فقد كان ذلك هو الحجرَ الأول الذي أُلقي في عقول مكة الراكدة لتثير الاضطراب والجدل، وصار الأمر حديث الساعة في مجالس قريش وأنديتها.

وجعلت نفوس مكة تتهيأ لهذا الأمر؛ فأخذوا يتساءلون فيما بينهم: ما هذا الدين الذي يدعو إليه محمد؟: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

فأما الذين كتب الله لهم السعادة، فقد جعلوا يتسللون تباعا إلى النبي ﷺ، يستوضحونه أمر هذا الدين الذي يدعو إليه، فيشرحه لهم فيسلمون.

وأما الذين كتب عليهم الشقاء فقد أعرضوا عنه، وعميت بصائرهم أن تستضيء بنوره، وكانوا في ذلك فريقين:

فريق وقف موقف الموادعة والمسالمة، فلم يقاومها ولم يعرض لها بسوء.

وفريق وقف منها موقف العداء والمحاربة، فجعلوا همهم أن يقاوموها وأن يقضوا عليها.

وكان جل هؤلاء ـ بل كلهم ـ من الزعماء والسادة، الذين رأوا في هذه الدعوة قضاءً على سيادتهم، وخطرا على مصالحهم؛ وكان أشدَّهم عداوة وأعنفَهم حربا للرسول ﷺ ودعوته، أبو جهل عمرو بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، وعقبةُ بن أبي معيط.

والذين أعرضوا عن ذكر الله من قريش نظروا إلى جهر الرسول ﷺ بالدعوة نظرة ريبة، وبدأوا يقدرون خطورة الموقف، فقد انتقلت الدعوة من البيوت المغلقة إلى الجهر بها على الجبال المرتفعة، والدعوة إليها على مشهد من الناس أجمعين.

أدرك النبي ﷺ أن دعوته بدأت تدخل مرحلةً حرجة، تستدعي مزيدا من الصبر وضبط النفس، ولابد من اتخاذ كل الوسائل للحفاظ على علاقة الود بينه وبين قومه.

ولكن قريشا شعرت أن الدعوة الجديدة تعني إحداث تغير كامل في بنية التنظيمات القائمة، وإحداث خلخلة كاملة لكل معتقدات قريش وموروثاتها الدينية والاجتماعية والإدارية. وهنا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين الحق والباطل، حان الحديث عنها.

الصِّدَامُ مَعَ الجَاهِلِيَّة

الإسلام والحرية:

لم يَحُلْ غضبُ أبي لهب ولا خصومةُ غيره من قريش دون انتشار الدعوة إلى الإسلام بين أهل مكة. فلم يكن يوم إلا أسلم فيه بعضُهم للّه وجهه. وكان الزاهدون في الدنيا أشدَّ على الإسلام إقبالا. أولئك لا تُلهيهم التجارة ولا يلهيهم البيع عن التأمل فيما يدعوهم الداعي إليه.

وهم قد رأوا محمدا ﷺ في غنى من مال خديجة وماله، وها هو ذا مع ذلك لا يعبأ بهذا المال ولا بالمزيد عليه والإكثار منه، ويدعو إلى الحب والعطف والمودّة والتسامح.

بل ها هو ذا يجيئه الوحي بأن في الإكثار من الثورة لعنة للروح. أليس يقول؟:
﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١-٨].

وأي شيء خير مما يدعو إليه محمد ﷺ! أليس هو يدعو إلى الحرية! إلى الحرية العزيزة على نفس العربي عزة حياته عليه! نعم! أليس يُطلِقُ الناسَ من التقيّد بأية عبادة غير عبادة الله وحده! أليس يحطم كل ما بينهم وبينه من أغلال! لا هبل ولا اللات ولا العزّى ولا نار المجوس ولا شمس المصريين ولا نجوم عبّاد النجوم ولا الحواريين، ولا أحد من الإنس أو من الملائكة أو من الجان يحجب بين الله والإنسان.

وأمام الله، أمامه وحده لا شريك له، يسأل الإنسان عما قدّم من خير أو شر. وأعمال الإنسان هي وحدها شفيعُه. وضميره هو الذي يزن أعماله، وهو وحده صاحب السلطان عليه، وبه يحاسب يوم تجزى كلّ نفس بما كسبت.

أيّة حرية أوسع مدى من هذه الحرية التي يدعو محمد ﷺ إليها؟! وهو يدعو أبا لهب وأصحابه إلى شيء من مثلها؟! أم هم يدعون الناس لتظل نفوسهم في رقّ وعبودية بما تكدّس عليها من خرافات حجبت عنها نور الحق أو ضياء الهدى؟

على أن أبا لهب وأبا سفيان وأشراف قريش وأصحاب أمجادها، وأشراف المال وأصحاب أمجاد اللهو، بدؤا يشعرون بما في دعوة محمدﷺ من خطر على مكانتهم، فرأوا بادئ الرأي أن يحاربوه بالحط من شأنه، و بتكذيبه فيما يزعم من نبوّته.

وكان أوّل ما صنعوا من هذا أن أغروا به شعراءهم: أبا سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وعبد الله بن الزّبعرى، يهجونه ويقارعونه. وتولّت طائفة من شعراء المسلمين الردّ على هؤلاء من غير أن يكون محمد ﷺ في حاجة إلى مساجلتهم.

وجدت قريش في أمر هذه الدعوة أنها تمثل خطرا على سادتها وكبرائها، فهي دعوة تسوي بين السادة والعبيد، دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهي دعوة تجعل الناس جميعا أمام الله سواء، دعوة ترفض الربا والخنا، والفحش والفجور، وكل هذا يمثل خطرا داهما على أصحاب المطامع من السدنة والسادة وكهنة الأصنام... إلخ. فشرعوا في معاداته وإبعاد الناس عنه، عبر الوسائل التالية:

١ الاتهام بعدم الأهلية:

إن منطق الجاهلية يظن أن النبوة لا بد أن تأتي على أمزجة هؤلاء القوم من المترفين الذين يعبوّن من متاع الحياة الدنيا عَبًّا، ولكن الله عز وجل أعلمُ

حيث يجعل رسالته، وبدأت حرب التقليل والتحقير من شأن النبي ﷺ، لصرف الناس عنه.

فكانوا يتشككون بمثل قولهم:

أينزل هذا القرآن على محمد من بيننا، ولا ينزل على رجل عظيم من أصحاب الثراء والعدد والجاه والنفوذ، في مكة أو في الطائف؟

وهذا ما قاله الوليد بن المغيرة المخزومي: "أينزل القرآن على محمد، وأُترك وأنا كبير قريش، ويُترك أبو مسعود عمرو بن عمير سيدُ ثقيف، ونحن عظيما القريتين؟"[1].

وقد انطلقت هذه الكلمة في أرجاء البلدتين حتى تركت الناس في حيرة شديدة بين مصدق ومكذب، ولكن مقاييس العظمة هي التُّقى والصلاح لا الغنى والنسب فقط.

وينزل القرآن الكريم رادًّا على هؤلاء بقوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٩-٣٢].

إن محمدا قد مات أولاده الذكور، فلا قوة له، ولا تدري ما دخل ذلك في اصطفاء الله عز وجل له بالرسالة، ويعيّرونه بأن ذريته كلها من البنات، وكان ذلك فيهم عارا.

إنه النكران لنعم الخالق على عباده، فهم يستبعدون أن يصطفي الله عز وجل أحدا من خلقه لهذا الشرف، ويظنون بعقولهم القاصرة أن مقياسهم الدنيوي

(١) ابن كثير: تفسير ابن كثير، (٤/١٢٦، ١٢٧).

www.almoslih.net

البغيض يصلح أن يكون مقياسا للنبوة والرسالة التي يصطفي الله عز وجل لها من يشاء من عباده.

فيريدون بمنطق الجاهلية أن يكون النبي متمتعا بالثراء العريض، ولو كان فاجرا فاسقا من أمثالهم، وأن يكون كثير الولد ليكونوا له قوة ومنَعةً يفاخر بهم قومه الذين يفخر بعضهم على بعض بكثرة الولد، ولا يعلمون أن ذلك بتقدير الله لهم.

وهناك أيضًا أمية بن الصلت ذلك الشاعر الثقفي الذي رأى نفسه أهلا لهذا الاصطفاء! في أُخريات الجاهلية، وكان يعلم عن طريق رحلاته إلى الشام أن هناك نبيًّا سوف يبعث من أرض العرب، فتمنى أن ينال هذا الشرف، وترك عبادة الأوثان، وأكثر من ذكر الله ووحدانيته في شعره، ولكن الله يصطفي من رسله من يشاء.

فما إن علم بظهور النبي ﷺ حتى ناصبه العداء، ونكص على عقبيه، وظاهر الوثنية القرشية ضده، وبقي على ذلك حتى مات على الكفر.

(٢) الحرب الاجتماعية:

كان الرسول ﷺ حين بعث قد زوج ثلاثا من بناته الأربع، بل كن حديثات عهد بعرس، فبنته الكبرى زينب تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى حفيد قصي، الجد الرابع للرسول ﷺ.

وابنتاه رقية وأم كلثوم تزوجتا عتبة وعتيبة ابني عم الرسول ﷺ عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم (أبو لهب). أما الرابعة فهي فاطمة، فقد كانت صغيرة لم تبلغ سن الزواج بعد.

وكما علمنا أن بنات الرسول ﷺ أسلمن جميعهن، وقد كان أزواجهن الثلاثة على الشرك، وهنا وجدت قريش الفرصة سانحة لتؤذي الرسول ﷺ في بناته؛

وتجرب معه حربا دنيئة من نوع آخر؛ فقال بعضهم لبعض: "قد كَفيتم محمدا أمرَ بناته؛ فتفرَّغَ لما ترون، فتعالوا نمشي إلى أصهاره حتى يطلقوا بناته فمشَوا إليهم"[١].

فقام ابنا أبي لهب فطلقا رقية وأم كلثوم، بإلحاح من أمهما أم جميل بنت حرب، أخت أبى سفيان. وقال عتيبة بن أبي لهب، وزوجُ أم كلثوم للرسول ﷺ: كفرت بدينك وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه، فقال رسول الله ﷺ: «أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبا من كلابه».

فخرج عتيبة مع نفر من قريش، حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ليلا، فأطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أمي، هو والله آكلي كما دعا محمد عليّ، قتلني ابن أبي كبشة، وهو بمكة وأنا بالشام، وانصرف الأسد، ونام القوم، وجعلوا عتيبة في وسطهم، فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأسه، فعوى عليه الأسد من بين القوم، وأخذ برأسه فضغمه ضغمة فذبحه[٢].

أما أبو العاص بن الربيع، فأبى أن يفارق زوجه زينب بنت محمد ﷺ ورد على من كلموه في فراقها بقوله: والله ما أحب أن لي بها امرأة أخرى من قريش.

وما ظنت قريش أنه إشغال لرسول الله ﷺ، وإيذاء له كان على عكس ما يرون، فهو منة من الله عز وجل، فلم يشغل الرسول ﷺ بناته عن الدعوة، بل إن الله أراد بهما وأبيهما خيرا، فنجاهما من معاشرة ابني أبي لهب، ومحنة العيش مع امرأته حمالة الحطب، وتزوجهما بعد ذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه، أحدُ السابقين الأولين إلى الإسلام، واحدةً تلو الأخرى حيث تزوج أولًا رقية، فلما توفيت تزوج الأخرى؛ ولذا سمي بذي النورين.

---

(١) الأصبهاني: دلائل النبوة، (ص ٧٠).

(٢) محمد أبو شهبه: السيرة النبوية، (١/ ٢٨٤) "بتصرف".

www.almoslih.net

كما تعمد بعض المشركين من قريش أن يؤذوا رسول الله ﷺ بدنيًا، ومن ذلك ما كان من أبي لهب وعقبة بن أبي معيط، وقد كانا جارين لرسول الله ﷺ يؤذيانه أشد الأذى.

وفي ذلك يقول ﷺ فيما روت عائشة: «كنت بين شر جارين: بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط؛ إن كانا ليأتيان بالفروث[1] فيطرحانها على بابي، حتى إنهم ليأتون ببعض ما يطرحون من الأذى[2] فيطرحونه على بابي، فيخرج به ﷺ، فيقول: يا بني عبد مناف، أي جوار هذا؟..ثم يلقيه بالطريق».

٣ التشهير والسب:

التشهير والكذب والسخرية والاستهزاء هي سلاح السفلة من الناس في كل زمان ومكان، ولا عجب في ذلك، فإنهم لا يعرفون الخصومة الشريفة.

فاجتمع الملأ من قريش بعد ما بدأ الشعور بالخطر على المكانة الاجتماعية يتسلل إلى نفوسهم، واتفقوا على الحط من شأنه وتكذيبه، ليس هذا فحسب، بل لجأوا إلى سلاح التكسير المعنوي؛ فأغروا به شعراءهم لهجوه، وإلصاق كل مثلبة به وبدعوته، وأعلنوها حربا دعائية ضروسا، وأشاعوا أنه ساحر مرة، وكذاب أخرى، ومجنون مرة ثالثة، وشاعر رابعة... إلخ.

قاد الوليد بن المغيرة كفار قريش في حربهم الإعلامية ضد الرسول ﷺ في تشويه صورته، حيث اجتمع مع نفر من قومه، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر موسم الحج فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضا.

---

(١) الفروث: ما يخرج من كرش الذبيحة.
(٢) الأذى: لعل المقصود منه هو البراز وما يماثله من النجس.

فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيًا نقول به.

قال: بل أنتم قولوا أسمع.

فقالوا: نقول كاهن.

فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة[1] الكاهن وسجعه.

فقالوا: نقول مجنون.

فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو تخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته.

فقالوا: نقول شاعر.

فقال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول ساحر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثه، ولا عقده.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق[2] وإن فرعه لجناة [3]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحر، فقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته [4].

---

(١) الزمزمة: كلام خفي لا يسمع.
(٢) العذق: النخلة.
(٣) الجناة: ما يُجنى من الثمر.
(٤) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص١٥٠، ١٥١).

www.almoslih.net

وعجبًا لهؤلاء المبطلين يبذلون جهدًا كبيرًا في إنتاج الشائعات حول النبي ﷺ، فدخلوا على أسن رجل في قريش وبحثوا أنسب الشائعات، ففكَّرَ وَقَدَّرَ، ثم فكر وقَدَّرَ، ثم فكر وقَدَّرَ، وكل ذلك للوصول إلى فرية محكمة، ثم نظر وتأمل؛ فالأمر جد صعب مع صاحب الخلق العظيم، ثم عبس؛ فهم يواجهون دعوة صادقة، ثم بسر؛ فقد أعيتهم الحيل.

ثم رجعوا إلى أنسب الحلول المقترحة على فسادها، ومع علمهم بفسالتها وهشاشتها، فقالوا: ﴿.. إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤-٢٥]. المهم أن تتفق الكلمة على مصطلح محدد.

هذا يبين لنا جَلَد الفاجر في فجوره، وحماسة المبطل في باطله، وكيف يمكر بدعوة الله الماكرون، ويبيتون يترصدون لها أنجح الطرق لمحاربتها، فضلاً عن انتظار طامة أو مصيبة خارجية قد تقضي ـ بزعمهم ـ على الدعوة والداعية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

ليعلم الدعاةُ، أن سهام الباطل لا تستهدف سوى الدعوة الصادقة الناجحة؛ خاصة ما إذا كان لها حضورٌ بين الناس، فالظالمون لا يستهدفون الدعوات النائمة أو المذاهب التي عفا عليها الزمن، إنما يستهدفون الجماعات الحية العاملة، كما السرطان يستهدف الخلايا الحية.

ومن هذا المشهد يتضح لنا أن الحرب النفسية المضادة للرسول ﷺ لم تكن توجَّه اعتباطًا، وإنما كانت تُعَدُّ بإحكام ودقة بين زعماء الكفار، وحسب قواعد معينة، هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النفسية في العصر الحديث.

كاختيار الوقت المناسب، فهم يختارون وقت تجمع الناس في موسم الحج، والاتفاق وعدم التناقض، وغير ذلك من هذه الأسس حتى تكون حملتهم منظمة، وبالتالي لها تأثير على وفود الحجيج، فتؤتي ثمارها المرجوة منها، ومع اختيارهم للزمان المناسب، فقد اختاروا أيضًا مكانـًا مناسبًا حتى تصل جميع الوفود القادمة

إلى مكة[١].

بل إنهم لجأوا إلى أساليب رخيصة في الكيد والدس، وتفزيع الناس منه، وهذه ضريبة الصدق والإخلاص في الدعوة يبتلي بها الله عباده الصالحين ليرفع بذلك درجتهم.

وها أنت ترى أن لا فرق بين ما كان يصنعه المجتمع المكي بالدعوة في عهد النبي ﷺ، وما يفعله العلمانيون في زماننا هذا، وإن اختلفت الوسائل، وذلك بمحاولاتهم الدؤوبة أن يصنعوا من الدعاة الصادقين فزاعات للمجتمع، ويرمونهم بشتى التهم عدوانا وظلما، بلا وازع من ضمير أو خلق، فيرمونهم بالتخلف والرجعية والجمود والجهل والسطحية والانغلاق الفكري، والانعزالية... إلخ.

ويتضح من هذا الخبر عظمةُ النبي ﷺ وقوته في التأثير بالقرآن الكريم على سامعيه، فالوليد بن المغيرة كبيرُ قريش ومن أكبر ساداتهم، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبر والتعاظم فإنه قد تأثر بالقرآن، ورقَّ له، واعترف بعظمته ووصفه بذلك الوصف البليغ[٢] وهو في حالة استجابة لنداء العقل.

ومثال آخر للحرب الدعائية ضد الرسول ﷺ ما قام به النضر بن الحارث أحد شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قَدِمَ الحيرة، وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسبنديار.

فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فذكّر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب مَن قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلم إلي، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني.

---

(١) انظر: عبد الوهاب كحيل: الحرب النفسية ضد الإسلام، (ص١٠٣).
(٢) انظر: عبد العزيز الحميدي: التاريخ الإسلامي، (١/١٢٣).

فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق، وعرفوا صدقه فيما حدث، وموقع نبوته فيما جاءهم من علم الغيوب، حين سألوه عما سألوا عنه، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتّباعه وتصديقه.

فعتوا على الله وتركوا أمره عيانًا، ولجّوا فيما هم عليه من الكفر، فقال قائلهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] أي اجعلوه لغوًا باطلًا واتخذوه هزوًا، لعلكم تغلبونه بذلك، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يومًا غلبكم.

فقال أبو جهل يومًا وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق: يا معشر قريش! يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشرة، وأنتم أكثر الناس أعدادًا، وكثرة، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم.

فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١] .. إلى آخر القصة.

فلما قال ذلك بعضهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلي فيتفرقون عنه، ويأبون أن يستمعوا له، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي، استرق السمع دونهم، فَرَقًا منهم.

فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه، ذهب خشية أذاهم، فلم يستمع، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته، فظن الذي يستمع أنهم يستمعون شيئًا من قراءته وسمع هو شيئًا دونهم، أصاخ له ليستمع منه.

تصور حرب الدعاية الفظيعة التي لجأوا إليها، وهم قريش موطن ثقة العرب، والذين تأتيهم العرب سنويًا للحج، فهم يشوهون اسمه عامًا بعد عام، ويحاولون أن يحاربوه بكل سلاح من أسلحة القول، والعربي لا تسمح نفسه أبدًا أن يقف موقف المتهم.

ومع ذلك بقي رسول الله ﷺ صابرًا على هذه الحرب الدعائية الفظيعة، هذه المدةَ الطويلة، ثلاثة عشر عامًا، وما وَنَى وما كَلَّ، وهو يقوم بعملية التبليغ المستقيمة النظيفة.

إن استمرار الرسول ﷺ في مثل هذا الجو المحموم، دليل على صدقه فيما يدعو إليه، وإلا فكيف نعلل استمراره ﷺ في دعوة يلاقي ما لاقى، مع العرض عليه كل متاع الدنيا، ثم لا يرضى إلا بحمل الناس على دعوته.

إن هذا لا يُعلّل إلا بصدقه في دعوته، وأنه يبلغها مأمورًا من الله عز وجل، وقد وضح له أن النكوص عن طريقه وراءه ما وراء الذي يَعصِي أمر الله من عقاب الله.

على أي حال لم تستطع تلك الحرب الإعلامية المنظمة أن تحاصر دعوة رسول الله ﷺ، بل استطاع محمد ﷺ أن يخترق حصار الأعداء، الذين لم يكتفوا بتنفير ساكني مكة من رسول الله ﷺ، وتشويه سمعته عندهم، بل صاروا يتلقون الوافدين إليهم ليسمّموا أفكارهم، وليَحُولوا بينهم وبين سماع كلامه، والتأثر بدعوته.

فقد كان رسول الله ﷺ عظيم النجاح في دعوته، بليغًا في التأثير على من خاطبه، حيث يؤثر على من جالسه بهيئته وسمته ووقاره، قبل أن يتكلم، ثم إذا تحدث أَسَرَ سامعيه بمنطقه البليغ المتمثل في العقل السليم، والعاطفة الجياشة بالحب والصفاء، والنية الخالصة في هداية الأمة، بوحي الله تعالى[1].

من أبرز الأمثلة على قوته في التأثير بالكلمة المعبرة والأخلاق الكريمة، وقدرته على اختراق الجدار الحديدي الذي حاول زعماء مكة ضربه عليه، ما كان من موقفه مع عمرو بن الطفيل الدوسي، وعمرو بن عَبَسة، والحصين وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين. وإليك عرضًا لإسلام أحد هؤلاء العظام:

(١) انظر: عبد العزيزالحميدي: التاريخ الإسلامي، (١/١٢٣).

الطفيل بن عمرو بين إصلاح نفسه ودعوة غيره:

قدِمَ الطفيل بن عمرو إلى مكة، فمشى إليه رجال من قريش، يتلقفونه بنفث سمومهم الفكرية في عقل الطفيل، و«تحصينه» من الدعوة الإسلامية.

فقالوا له: «يَا طُفَيْلُ، إنّك قَدِمْتَ بلادَنَا، وَهَذَا الرّجُلُ الّذِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَدْ أَعْضَلَ بِنَا، وَقَدْ فَرّقَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتّتَ أَمْرَنَا، وَإِنّمَا قَوْلُهُ كَالسّحْرِ يُفَرّقُ بَيْنَ الرّجُلِ وَبَيْنَ أَبِيهِ، وَبَيْنَ الرّجُلِ وَبَيْنَ أَخِيهِ، وَبَيْنَ الرّجُلِ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ، وَإِنّا نَخْشَى عَلَيْك وَعَلَى قَوْمِك مَا قَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا، فَلا تُكَلّمَنّهُ، وَلا تَسْمَعَنّ مِنْهُ شَيْئًا»[(١)].

قال الطفيل محدثًا عن حاله معهم: «فَوَاللهِ مَا زَالُوا بِي، حَتّى أَجْمَعْتُ أَنْ لا أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا، وَلا أُكَلّمَهُ، حَتّى حَشَوْتُ فِي أُذُنَيّ ـ حِينَ غَدَوْتُ إلَى الْمَسْجِدِ ـ كُرْسُفًا، فَرَقًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَنِي شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ، وَأَنَا لا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَهُ»[(٢)].

وهكذا تأثير الإعلام، الذي يفعل الأفاعيل بالعقول، فبمثل هذا الطرح يتحول الحق إلى باطل في نظر الناس، ومن خلال وسائل الإعلام يرى الناس الفيل بحجم النملة، والنملة بحجم الفيل.

وإذا أُحسن استخدام وسائل الإعلام؛ فهي كالشمعة في يد العاقل يضيء بها، وإذا أُسيء استخدام وسائل الإعلام فهي كالشمعة ـ أيضًا ـ ولكن في يد المجنون يحرق بها.

ومن ثم فإن على الجماعة المسلمة أن تصبر وأن تثبت، وأن تحسن التصرف في مواجهة الإعلام الـمُضَلِّل، وأن تحسن التعامل مع ضحايا هذا الإعلام.

فالساذج الأخرق الذي ينظر إلى الجماعة المسلمة على أنها عصابة متطرفة إرهابية .. ينبغي أن نتعامل معه على أنه ضحية من ضحايا وسائل التشويه، فلنحسن

---

(١) ابن هشام: السيرة، (١/ ٣٨٢).

(٢) المصدر نفسه.

التعامل معه، ولنتخلق معه بأحاسن الأخلاق، وأكارم الفعال، لعل الله أن يمسح على قلبه فيزيل وحلة الإعلام المفسد، وينقذه من بين عجاجتي الإعلام الفاسد والوعي الغائب.

قَالَ الطفيل بن عمرو: «فَغَدَوْت إلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ يُصَلّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ. فَقُمْت مِنْهُ قَرِيبًا فَأَبَى الله إلا أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ. قَالَ فَسَمِعْتُ كَلامًا حَسَنًا، قَالَ: فَقُلْت فِي نَفْسِي: ثكلتني أُمّي! وَالله إنّي لَرَجُلٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ، مَا يَخْفَى عَلَيّ الْحَسَنُ مِنْ الْقَبِيحِ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرّجُلِ مَا يَقُولُ فَإِنْ كَانَ الّذِي يَأْتِي بِهِ حَسَنًا قَبِلْتُهُ وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا تَرَكْتُهُ»[(١)].

وهنا نرى قدر الله، وكيف يفتح الله مغاليق القلوب بيديه، وهي القلوب التي خلقها ويقلبها كيف يشاء، وقد شَعُرَ الرجل بهذه القدرة الربانية تتسلل إلى قلبه رويدًا رويدًا تسلل النور في حالك الظلمات، فقال: «فَأَبَى الله إلاّ أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ».

ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويرسل أشعة الإسلام إلى قلوب غبَّرتها وسائل التضليل، وإلى نفوس تَربّت ردحًا من الزمان على مناهج الفساد والإفساد، وإلى أجساد كَبُرتْ وشابت بين ظهراني المضللين والأفاكين.

وكم نرى من شباب قد انغمسوا في حمأة الضلال حتى ظن العدو أنه أعدَّهُم معاولَ هدم في بناء الإسلام، وإذا بيد الله الرحيمة تأخذ بهم وتحملهم حملاً إلى ركب الدعوة ليكونوا عوامل بناء فيها.

وكم نرى وسائل الإعلام الغربية تستهدف بعض بلدان العالم الإسلامي، لمحاولة إفساد المرأة المسلمة وتجريدها من أخلاقها وحجابها.

---

(١) ابن هشام: السيرة، (١/ ٣٨٢-٣٨٣).

ولكن يأبى الله إلا أن يقيض لهذه البقعة رجالًا ـ اصطنعهم الله لنفسه ـ فَيَجُبّوا ما صنعه الإعلام الغربي، وينفوا عن البلد الإسلامي ما نفثه الإعلام الصهيوني، وتبقى الصحوة الإسلامية زاحفة كالفيلق الدارع، تنشر نور الله في كل مكان.

قال الطفيل: «فَمَكَثْت حَتّى انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ إلَى بَيْتِهِ؛ فَاتّبَعْتُهُ حَتّى إذَا دَخَلَ بَيْتَهُ؛ دَخَلْتُ عَلَيْهِ؛ فَقُلْت: يَا مُحَمّدُ إنّ قَوْمَك قَدْ قَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا، لِلّذِي قَالُوا، فَوَاللهِ مَا بَرِحُوا يُخَوّفُونَنِي أَمْرَك حَتّى سَدَدْت أُذُنَيّ بِكُرْسُفٍ[1] لِئَلا أَسْمَعَ قَوْلَك، ثُمّ أَبَى الله إلا أَنْ يُسْمِعَنِي قَوْلَك، فَسَمِعْتُهُ قَوْلًا حَسَنًا، فَاعْرِضْ عَلَيّ أَمْرَك»[2].

وهكذا، كما ترى، يدفع الله بهؤلاء إلى باب الداعية، ويقوم الطفيل بنفسه بالذهاب إلى بيت رسول الله ﷺ ليناقشَ ـ أمر الدعوة ـ بطريقة عقلانية موضوعية، على الطريقة المعهودة عند الأدباء العقلاء والشعراء الحصفاء.

أما ترى أن مجهودات المشركين الإعلامية قد ذهبت أدراج الرياح، وقد تلقف الداعية هذه الثمرة الحلوة سهلة، إنها عناية الله أهدتها إلى الداعية المخلص!

إن قارورة الصَّبغ لا تصبغ البحر، ونفخات البشر لا تحرك القمر، ومهما نفخوا في أبواق (إعلامهم) فإن الدائرة عليهم!

وإن نَبْأَةَ الحق لا بد أن تُسمع!

وإن منهج الله لا بد أن يعود، ويسود، ويقود.

قال الطفيل: «فَعَرَضَ عَلَيّ رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ الإِسْلام وَتَلا عَلَيّ الْقُرْآنَ، فَلا، وَالله! مَا سَمِعْتُ قَوْلًا قَطّ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَلا أَمْرًا أَعْدَلَ مِنْهُ».

---

(١) أي: بقطن.
(٢) ابن هشام: (١/ ٣٨٢، ٣٨٣).

إنه حسُّ الأديب الهِزبري المصقَع، يميز جيدًا بين حلو الكلام ومرِّه، وبين زَين الأدب وشَينه، وبين سلامة البيان وركاكته.

لقد استمع إلى القرآن الكريم، ثم أنصت إليه، ثم عايشه بقلبه، وفي مجلس واحد، وفي ساعة واحدة، حَكم حكمه البلاغي وكأنما أخذته نشوة الناقد الأدبي، فقال: «مَا سَمِعْتُ قَوْلًا قَطّ أَحْسَنَ مِنْهُ».

إن جزالة النظم وحلاوة العرض وسمو البيان قد ملكت عليه لُبّه، فهام الأديب في حُب القرآن، وتالله! ما رأيتُ أديبًا لبيبًا إلا وله مع القرآن ألفة، وحب لا يضاهيه حب، وإن الأدباء الأتقياء ليتلذذون بالقرآن وكأنما هم العبّاد المتحنثون في صوامعهم.

وما انتفاع أخي الدنيا بناظرِه ... إذ استوت عنده الأنوار والظلَمُ

وبعد أن تأمل الطفيلُ نظمَ القرآن وبيانه وبلاغته، نراه أيضًا يتأمل المعاني، فالشعراء على ثلاثة: شعراء ألفاظ، وشعراء معان، وشعراء ألفاظ ومعان، ويبدو أن الطفيل أراد أن يجمع بين النظرتين بناظريه، فنظر نظرة في الألفاظ، وقد كانت، ونظر نظرة في المعاني فهذه التي قال فيها: «وَلا أَمْرًا أَعْدَلَ مِنْهُ».

فقد شدته تلك التعاليم الإسلامية الرفيعة، ومكارم الأخلاق التي يدعو إليها الإسلام، الأمر الذي غاير الصورة التي وصلته عن الإسلام عندما تلقفه مشركو مكة.

قال الطفيل: «فَأَسْلَمْتُ وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الْحَقّ .. وَقُلْتُ: يَا نَبِيّ الله، إنّي امْرُؤٌ مُطَاعٌ فِي قَوْمِي، وَأَنَا رَاجِعٌ إلَيْهِمْ وَدَاعِيهِمْ إلَى الإِسْلامِ، فَادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَ لِي آيَةً تَكُونُ لِي عَوْنًا عَلَيْهِمْ فِيمَا أَدْعُوهُمْ إلَيْهِ. فَقَالَ: اللّهُمّ اجْعَلْ لَهُ آيَةً.

قَالَ: فَخَرَجْت إلَى قَوْمِي، حَتّى إذَا كُنْت بِثَنِيّةٍ تُطْلِعُنِي عَلَى الْحَاضِرِ، وَقَعَ نُورٌ بَيْنَ عَيْنَيّ مِثْلُ الْمِصْبَاحِ، فَقُلْت: اللّهُمّ فِي غَيْرِ وَجْهِي، إنّي أَخْشَى، أَنْ يَظُنّوا أَنّهَا

www.almoslih.net

مُثْلَةٌ وَقَعَتْ فِي وَجْهِي لِفِرَاقِي دِينَهُمْ .. فَتَحَوّلَ فَوَقَعَ فِي رَأْسِ سَوْطِي .. فَجَعَلَ الْحَاضِرُ يَتَرَاءَوْنَ ذَلِكَ النّورَ فِي سَوْطِي كَالْقِنْدِيلِ الْمُعَلّقِ، وَأَنَا أَهْبِطُ إلَيْهِمْ مِنَ الثّنِيّةِ، حتّى جِئْتُهُمْ فَأَصْبَحْتُ فِيهِمْ»[1].

وهكذا يستشعر المسلمُ مسؤولية التبليغ من أول يوم يدخل فيه عضوًا في الصف الإسلامي، وكأنه أراد أن يرسل جذوة النور التي ألقاها الله في قلبه؛ أشعةً إلى الناس في كل مكان.

أسلَم، وبلّغ . . أصلحَ نفسه، وأصلح غيره .. تعلمَ، وعلّمَ..

هكذا المسلم، يعيش للإسلام، متعلمًا ومعلمًا، صالحًا ومصلحًا، ينهل من الخير وينشره، ويعمل على تأديب نفسه وتزكيتها ويعمل ـ كذلك ـ في تأديب غيره وتزكيته.

انتقل الطفيل فور إسلامه إلى قومه يدعوهم، فلم يمكث إلى جوار رسول الله ﷺ السنين الطوال، يحفظ المتون الطوال، أو تَنَقّلَ من حلقة علم إلى حلقة علم، ومن مسجد إلى مسجد، ومن شيخ إلى شيخ، وقد تلهى بذلك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح الأهل والمجتمع! ولا نقصد بذلك التقليل من أهمية العلم وحلقه، وإنما قصدنا ضرورة أن يصاحب العلم العمل.

قال الطفيل: «فَلَمّا نَزَلْتُ[2] أَتَانِي أَبِي، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، فَقُلْت: إلَيْك عَنّي يَا أَبَتِ فَلَسْتُ مِنْك وَلَسْتَ مِنّي، قَالَ: وَلِمَ يَا بُنَيّ؟ قُلْت: أَسْلَمْتُ وَتَابَعْت دِينَ مُحَمّدٍ ﷺ قَالَ: أَيْ بُنَيّ فَدِينِي دِينُك؟

فَذَهَبَ فَاغْتَسَلَ وَطَهّرَ ثِيَابَهُ. ثُمّ جَاءَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، فَأَسْلَمَ.

(١) ابن هشام: (١/ ٣٨٢، ٣٨٣).
(٢) أي: دوسًا.

ثُمّ أَتَتْنِي صَاحِبَتِي، فَقُلْت: إلَيْك عَنّي، فَلَسْتُ مِنْك وَلَسْت مِنّي، قَالَتْ: لِمَ؟ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي! قلتُ: قد فَرّقَ بَيْنِي وَبَيْنَك الْإِسْلَامُ، وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمّدٍ ﷺ؟ قَالَتْ: فَدِينِي دِينُك.

قُلْت: فَاذْهَبِي إلَى حِمَى ذِي الشّرَى فَتَطَهّرِي مِنْهُ.

وَكَانَ ذُو الشّرَى صَنَمًا لِدَوْسٍ، وَكَانَ الْحِمَى حِمى حَمَوْهُ لَهُ، بِهِ وَشَلٌ[1] مِنْ مَاءٍ يَهْبِطُ مِنْ جَبَلٍ.

قالت: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي، أَتَخْشَى عَلَى الصّبِيّةِ مِنْ ذِي الشّرَى شَيْئًا؟

قُلْت: لا، أَنَا ضَامِنٌ لِذَلِكَ.

فَذَهَبَتْ فَاغْتَسَلَتْ ثُمّ جَاءَتْ فَعَرَضْتُ عَلَيْهَا الإسلام فَأَسْلَمَتْ»[2]..

وهكذا بهذه الصراحة والوضوح بدأ الطفيل في دعوته، فلم يتلوّن، ولم يتشكل، ولم يمتطِ الرُّخَصَ من هنا وهناك، بل أخذ بعزيمة النفس متوكلاً على الله، فإذا به يجهر بين ظهراني أهله بقولة الحق وبمنهج الحق، ليبنيَ البيت المسلم الجديد على أنقاض بيت وثني عتيد.

وإن وضيع العزم، ضعيف الحزم، لا مساك له في أمر الدعوة، ولا فلاح له في تقويم بيته، وأسْلَمَةِ داره.

ألا حبـذا قـومٌ ندامـى هـم القنا ... يسـقونها ريًـا وسـاقيهم العـزم

قال الطفيل: «ثُمّ دَعَوْت دَوْسًا إلَى الإسلام، فَأَبْطَأوا عَلَيّ! ثُمّ جِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ بِمَكّةَ فَقُلْت لَهُ: يَا نَبِيّ الله إنّهُ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى دَوْسٍ الزنا، فَادْعُ الله عَلَيْهِمْ.

فَقَالَ: «اللّهُمّ اهْدِ دَوْسًا.. ارْجِعْ إلَى قَوْمِك فَادْعُهُمْ وَارْفُقْ بِهِمْ»[3].

(١) الوشل: الماء القليل.
(٢) ابن هشام: السيرة، (١/ ٣٨٣).
(٣) المصدر السابق نفسه.

فبعد أن أعد الطفيل ـ ذلك الفرد المسلم ـ البيت المسلم الجديد، خرج على التو إلى المجتمع لبناء المجتمع المسلم، فقال: «ثُمَّ دَعَوْت دَوْسًا إِلَى الإِسلام».

ومثل هذه الأولويات لا بد أن تكون واضحة في ذهن المسلم، فلا يليق به أن ينشغل بالمجتمع ويترك بيته دون تربية ودعوة، فلا بد أن ينطلق المسلم إلى المجتمع من أرضية قوية هي البيت المسلم، وغالبًا لا نرى ثمرة ولا فقها لهؤلاء الدعاة الذين انشغلوا بدعوة المجتمع وبيوتهم خربة، إذ كيف يبني بيوتًا مسلمة في المجتمع، وقد فشل في تقويم بيته، وكيف يستقيم الظل والعود أعوج.

ثم إن الطفيل، كان في احتياج إلى جرعة تربوية في الصبر على المجتمع. إذ غلبه فسادُ المجتمع. واشتكى الطفيل أن الزنى منتشرٌ بشكل مريع، ولا شك أن الزنى إذا انتشر في قوم فإنما هو الموت ينتشر فيهم.

كما أن الشباب الغارق في الفاحشة، وهو شبابٌ في السن، كهلٌ في الجسم، سقيم في الروح، وترى الواحد منهم قد التاث بلوثة الميوعة، وانغمس في وحل الخنى، يقطع سَرَاةَ نهاره في كل ما يؤجج الشهوة، ويثير الغريزة، وأمثال هؤلاء أشباه أحياء أو أشباه أموات. ولا قوام لأمة داعرة، ولا مساك لدولة فاجرة!

ذهب الطفيل متغيظًا على قومه، يستنزل العقاب عليهم، فقد أكلتهم الفواحش، فقال: «يَا نَبِيّ الله إِنَّهُ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى دَوْسٍ الزِنَا، فَادْعُ الله عَلَيْهِمْ».

فيرسل رسول الله ﷺ دعاء ربانيًا، ودرسًا تربويًا. أما الدعاء: «اللّهُمّ اهْدِ دَوْسًا..» . وأما الدرس: «ارْجِعْ إِلَى قَوْمِك فَادْعُهُمْ، وَارْفُقْ بِهِمْ».

إنه درس الصبر على المجتمع والرفق بالمجتمع، فالداعية العامل في المجتمع يطير بجناحي الصبر والرفق، ينشر الهداية والنور، ولن ترى داعيةً ناجحًا في مجتمع إلا بصبر ورفق.

قال الطفيل: «فَلَمْ أَزَلْ بِأَرْضِ دَوْسٍ أَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسلام، حَتّى هَاجَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَمَضَى بَدْرٌ وَأُحُدٌ وَالْخَنْدَقُ، ثُمّ قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ بِمَنْ أَسْلَمَ مَعِي مِنْ قَوْمِي، وَرَسُولُ الله ﷺ بِخَيْبَرَ. حَتّى نَزَلْتُ الْمَدِينَةَ بِسَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ بَيْتًا مِنْ دَوْسٍ، ثُمّ لَحِقْنَا بِرَسُولِ الله ﷺ بِخَيْبَرَ فَأَسْهَمَ لَنَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ»(١).

فلما صبر الطفيلُ وترفق، فتح الله له المجتمع، وأراه الله ثمرة عمله وصبره ورفقه، فقدِمَ إلى محمد ﷺ بعد عقد من الزمان بسبعين أو ثمانين عائلة من عائلات «دَوْس».. أي بمئات الرجال .. جاء بهم مسلمين لينهلوا من النبع العذب الذي ارتشف منه سيدهُم في الجاهلية والإسلام (الطفيل).

وقد أسهم لهم رسول الله ﷺ في غنيمة خيبر، فجمع الله لهم غنيمة الإسلام وغنيمة الغنى وغنيمة الصحبة الميمونة. فهنيئًا لكم تلاميذَ الأديب المصلح!

وفي عام فتح مكة، قال الطفيل: «يَا رَسُولَ الله ابْعَثْنِي إِلَى ذِي الْكَفّيْنِ صَنَمِ عَمْرِو بْنِ حُمَمَةَ حَتّى أُحْرِقَهُ، فأذن له، ففعل»(٢).

وهكذا نجح هذا المسلم في بناء المجتمع المسلم. ثم توج الله تعالى رحلة الطفيل الجهادية بأن رزقه الشهادة يوم اليمامة. فنعم البداية ونعم النهاية!

٤ التعنت والتعجيز:

لم تفلح هذه الدعاية الكاذبة في صد الناس عن الدعوة والإيمان بها، وبدأت الأعداد تزداد شيئا فشيئا، وكل يوم يمر تخسر قريش مجموعة من الأتباع الجدد، فيضعف صفها، وتتقوى جبهة النبي ﷺ.

وهنا لجأت قريش إلى تحدي النبي ﷺ بطلبات تعجيزية على سبيل السخرية مرة، وعلى سبيل التعجيز أخرى.

(١) ابن هشام: (١/ ٣٨٣، ٣٨٤).
(٢) ابن هشام: السيرة، (١/ ٣٨٥).

www.almoslih.net

وفي سيرة ابن هشام قال: "اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان ابن حرب، والنضر بن الحارث بن كلدة أخو بني عبد الدار، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جـهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، وأمية بن خلف أو من اجتمع منهم اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة.

ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداءٌ، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم.

حتى جلس إليهم فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلًا من العرب أدخلَ على قومه مثل ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمت الآباء، وعِبْتَ الدِّينَ، وشتمت الآلهة وسفّهت الأحلام وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك ـ أو كما قالوا له ـ.

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوِّدُك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيًا تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن رئيًا ـ فربما كان ذلك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلّغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلدًا ولا أقل ماءً ولا أشدَّ عيشًا منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسيّرْ عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصيّ بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولًا كما تقول.

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبرْ لأمر الله تعالى حتى يحكمَ الله بيني وبينكم..

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك: سل ربَّك أن يبعث معك ملكًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم وتلتمس المعاش منا كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا ـ أو كما قال ـ فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقِطِ السماء علينا كسفًا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل؛ فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

قال: فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل.

قالوا: يا محمد أفما علم ربك أنّا سنجلس معك، ونسألُك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذ لم نقبل منك ما جئتنا به؟

إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذَرْنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نُهلكَك أو تُهلكَنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلًا»[(١)].

في هذا المشهد حوار طويل نخلص منه بعدة حقائق وآداب كثيرة منها:

١ استمرار حيرة الملأ من قريش في أمر محمد ﷺ، ودعوته التي تلاقي نجاحًا كلَّ يوم، رغم العداوة والدعاية القوية التي تبديها قريش.

٢ استمرار الملإ من قريش في المنهج نفسه الذي اتبعوه من قبل في عرض الإغراءات المادية المتنوعة على النبي ﷺ، ليرجع عن رأيه ويترك دعوته، وهم يقدمون لعرضهم ذلك بمقدمة استباقية فيها لوم للنبي ﷺ على ما أحدثَتْ فيهم دعوتُه من فرقة وخصام بين فريقي الإيمان والكفر، وجدال داخلي بين فريق الكفر نفسه لا ينقطع حولها.

٣ ردّ النبي ﷺ عليهم بأحسن جواب، فلم يجادلهم فيما عرضوا عليه، أو يفنّد أقوالَهم، فهو يعلم سلفًا أنهم قوم خصمون مجادلون، ولكنه يجيبهم من أيسر طريق وأوضح مسلك: ما بي ما تقولون! ثم ينفي عن نفسه طلب الدنيا ويبين حقيقة دعوته وأنها من عند الله، ولا يملك هو نفسه شيئًا إزاء هذا الأمر فهو مكلف بإبلاغه لهم، شاءوا أم أبوا.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/ ١٩٤) وما بعدها.

ويقطع النبي ﷺ أملهم في إغرائه بشيء من متاع الدنيا بقوله: «ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم».

٤ عند ذلك احتد الحوار فصار جدالًا وطلبًا للمعجزات المادية التي يلجأ إليها الضعفاء عادة لتعجيز المحاور وتحديه فيما يقول، وهنا نستذكر أن المسائل التي طلبوا من النبي ﷺ الإتيان بها سجلها القرآن في آياته المنزلة على رسوله، ومن ذلك:

ا طلب تفجير الأنهار وسعة الرزق.

ب طلب ملك أو ملائكة مصدقين شاهدين لمحمد ﷺ فيما يخبرهم به.

ج طلب الجنّات والقصور لصاحب الدعوة؛ لأنه مثلُهم يمشي في الأسواق ويطلب الرزق لنفسه مما لا يليق ـ في زعمهم ـ بمقام النبوة.

د طلب إنفاذ الوعيد بإسقاط السماء عليهم كسفًا.

هـ رفض الإيمان بالرحمن.

و ادعاؤهم عبادة الملائكة.

ز رفض الإيمان حتى يروا ربهم وملائكته.

٥ والنبي ﷺ في هذا كله يجيبهم بجوابه السابق، وفي هذا بيان لثباته ﷺ على مبدأ واحد لا يحيد عنه، ولا تصرفه عنه معارضة قريش القوية، ولا دعايتها المغشّية الطاغية.

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم حول هذه المسائل، حيث يذكر الله تعالى قولهم ثم يردُّ عليه، ونكتفي هنا ببعض أمثلة لذلك:

www.almoslih.net

- ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١].
- ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].
- ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾ [الفرقان: ٥-١٠].

❻ تفرق القوم عن رسول الله ﷺ فما عنفهم، وما لامهم، ولا دعا الله عليهم، بل إن المعلوم من سيرته ﷺ أنه كان يكثر الدعاء لقومه لكي يسلموا.

وفيه أدب ينبغي أن يتحلى به المسلم في كل زمان، وهو أن يتمنى لغير المسلم أيًا كان أن يسلم، ويدعو الله لغير المسلمين بالهداية إلى الإسلام، وقد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لعليٍّ يَوْمَ خَيْبَرَ: «فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[١] والدعاء من أسباب الهداية.

(١) طرف من حديث رواه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٦٢٢٣).

وهذا الحوار يعطينا درسا بليغا وهو أن هناك أقواما لا يقبلون الحق مهما تبين لهم من الآيات البينات، ومهما سطعت أمامهم البراهين، فقد مردت قلوبهم على العناد، وأُشربوا الكِبْر والعلوَّ في الأرض، وأمثال هؤلاء لا أمل في صلاحهم ولا إصلاحهم.

وهم الذين قال الله عز وجل في أمثالهم: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾[البقرة: ١٠] فلا ينبغي على الإنسان أن يكثر التعب معهم.

لقد كان الصراع أحيانًا يتم على المستوى الفردي بين الابن وأبيه، أو بين الأب وولده، أو بين المرأة وزوجها، أو الصديق وصديقه.. وكان هنالك الصراع بين الجماعتين: المؤمنة والكافرة، واتخذ ذلك ألوانًا متنوعة من الأذى البدني والنفسي للمسلمين، والتكذيب لرسول الله ﷺ.

ومن ذلك الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ، وأبيِّ بن خلف «جاء أبيُّ بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ، وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار».

ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٧٧] [١].

❼ في هذا الحوار نجد استمرار تحدّي قريش لما جاء به النبي ﷺ، وهم في ذلك لا يألون في ضرب الأمثلة المادية التي تغري العامة من الناس وتستميلهم، وهذا أبي بن خلف يجادل النبي ﷺ في شأن بعث الموتى بعد أن تفتت عظامهم، وتذروها الرياح وتدوسها الأقدام.. فينزل القرآن بجوابه الشافي.

(١) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: (٣/٧٦١)، ابن هشام: السيرة النبوية: (١/٢٤٣).

٨ وفي الحوار معجزة لرسول الله ﷺ حيث توعّد أُبيًّا بالنار، ومات الرجل كافرًا محادًّا لله ورسوله كما هو معلوم، وصدقت نبوءة النبي ﷺ.

٩ لقد كان هدف زعماء قريش من تلك المطالب، هو شن حرب إعلامية ضد الدعوة والداعية، والتآمر على الحق، كي تبتعد القبائل العربية عنه ﷺ؛ لأنهم يطالبون بأمور يدركون أنها ليست من طبيعة هذه الدعوة؛ ولهذا أصروا عليها، بل لقد صرحوا بأن لو تحقق شيء من ذلك فلن يؤمنوا أيضًا بهذه الدعوة، وهذا كله محاولة منهم لإظهار عجز الرسول ﷺ واتخاذ ذلك ذريعة لمنع الناس عن اتّباعه.

١٠ إن الحكمة في أنهم لم يُجابوا لما طالبوا، لأنهم لم يسألوا مسترشدين وجادّين، وإنما سألوا متعنتين ومستهزئين، وقد علم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما طلبوا لما آمنوا، وللجُّوا في طغيانهم يعمهون، ولظلوا في غيّهم وضلالهم يترددون.

قال سبحانه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠ ۞وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١١].

ولهذا اقتضت الحكمة الإلهية والرحمة الربانية ألا يجابوا على ما سألوا؛ لأن سنته سبحانه أنه إذا طلب قوم آيات فأجيبوا، ثم لم يؤمنوا، عذّبهم عذاب الاستئصال كما فعل بِعادٍ وثمودَ وقومِ فرعون.

من هذه القصص قصصِ الإيذاء الرهيب نعرفُ ما لاقى الرسول ﷺ وهو الشريف الهاشمي ذو النفس الأبيّة، ابنُ الأشراف ومع ذلك تحمّل واستمرّ وليس

بيده ألا يستمر، وكما أوذي هو أوذي أتباعه كذلك وقتل بعضهم، ومع ذلك صبروا وثبّتهم على الصبر.

وهذا شيء يجرح الضمير أن يرى الإنسان الناس يعذّبون بسبب دعوته، لولا أن ذلك هو الحق الذي لا ريب فيه، وأن الإنسان ليس مخيّرًا في سلوكه، بل هو الذي لا بد منه للقيام بحق الله وإنها لرسالة الله.

العَرَبُ أَمَامَ مُعجِزَةِ القُرآنِ الكَرِيم

لقد جاء الرسول ﷺ العرب بكتاب من جنس تخصصهم وتحداهم بأن يأتوا بسورة أو آيات من مثله وعجزوا.. بل وتنبأ بعجزهم قبل أن يعجزوا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٢٣-٢٤].

نادى عليهم بالعجز قبل المعارضة، وبالقصور عن بلوغ تحديه في المناقضة، صارخا بهم على رؤس الأشهاد بهذا التحدي، ولم يستطع أحدهم قبول التحدي، مع وفر دواعي البلاغة على ألسنتهم، وكثرة وسائل الفصاحة في لغتهم.

لقد تحداهم أن يفعلوا وقال لهم: (لن تفعلوا) ولم يفعلوا أليس في ذلك عجب؟

عجب لأن من عاداتهم المساجلة والمعارضة. فلم يساجلوا هنا ولم يعارضوا.

وعجب لأنهم أمة البيان وبُهتوا أمام البيان.

وعجب لأنهم فعلوا كلَّ شيء من أجل القضاء على الدعوة الجديدة، وسكتوا عن أبسط الأشياء وهو الكلام.

وعجب أن وارثي الكلام من شعرائهم وأئمة البيان عندهم. أصبحوا مسلمين كحسان والخنساء وبجير وكعب والحطيئة ولبيد. وهم الأعلم باللغة والأبصرُ فيها، ولبعضهم لسان أشدُّ من السيف، ومع ذلك كان موقفهم السكوت ثم التسليم.

أليس عجبًا أن تجد الخنساء الشاعرة وهي التي قالت لحسان بن ثابت في سوق عكاظ حين أنشدها:

لنا الجفَنات الغُرُّ يلمعن في الضحى ... وأسـيافُنا يقطـرْنَ من نجـدة دما
ولدنـا بني العنقـاء وابـنَ محرّقٍ ... فأكـرِمْ بنـا خـالًا وأكرم بنـا ابنما

«ضَعّفْتَ افتخارَك وأبرزتَه في ثمانية مواضع، قال: وكيف؟

قالت: قلت لنا الجفَنات، والجفَنات ما دون العشر. ولو قلت: الجِفان لكان أكثرَ.

وقلت: الغرّ. والغرة البياض في الجبهة. ولو قلت: البيض لكان أكثر اتساعًا.

وقلت: يلمعن، واللمع شيء يأتي بعد الشيء، ولو قلت: يشرقن لكان أكثر؛ لأن الإشراق أدومُ من اللمعان.

وقلت: بالضحى، ولو قلت: بالعشي لكان أبلغ في المديح؛ لأن الضيف في الليل أكثر طروقًا.

وقلت: أسيافنا، والأسياف دون العَشر، ولو قلت: سيوفنا كان أكثر.

وقلت: يقطرن، فدلّلت على قلة القتل. ولو قلت يجرين لكان أكثر: لانصباب الدم.

وقلت: دمًا، والدماء أكثر من الدم.

وفخرت بمن ولدتَ، ولم تفتخر بمن ولدوك»[1].

هذه نفسها النقادة الشاعرة التي ملأت الدنيا نحيبًا على أخيها صخر، تفقد أولادها الأربعة في الإسلام في معركة واحدة، فلم تذرف دمعة بل تحمد الله، لقد آمنتْ بالقرآن، وغيّر القرآن أعماقها.

(١) انظر: الرافعي إعجاز القرآن الكريم.

www.almoslih.net

لقد شعر العرب الأقحاح يوم تنزّل القرآن أن هذا القرآن الكريم الذي يسمعونه لم يخرج من بشر، كانوا يحسون هذا في أعماقهم سواء في ذلك مؤمنهم وكافرهم.

وروي أن الوليد بن المغيرة المخزومي جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا ليعطوكه لئلا تأتي محمدًا لتعرض لما قاله.

فقال الوليد: قد علمت قريش أني من أكثرها مالًا.

قال أبو جهل: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنك كاره له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منّي، ولا برَجَزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله حلاوةً وإن عليه لطلاوةً، وإنه لمثمر أعلاه مغدِقٌ أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: "هذا سحر يؤثر" يأثره عن غيره.

وهكذا. فما أعجب، أن يتحداهم القرآن، فتنعقد ألسنتهم، وتجمد قرائحهم، وتحصر عقولهم، ويعلنوا عجزهم ويقروا به ويتواصوا فيما بينهم، أن يضعوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يستمعوا إليه، وأن يشوّشوا عليه ليَحُولوا بين الآخرين والاستماع إليه، حتى لا يُفتنوا بما فيه من سحر وبلاغة.

وقد سجل عليهم القرآن هذا الموقف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

إن عبارة واحدة من كلام الله تعالى كانت كافية لهداية قلب إلى الإيمان، وانشراح صدر للإسلام.

فمثلا كان ضماد بن ثعلبة الأزدي، رجلا يتطبب ويرقي، ويطلب العلم، فسمع سفهاء مكة يقولون: بأن محمدا صلوات الله عليه وسلامه مجنون، وكانت تربطه برسول الله ﷺ صداقة في الجاهلية، ولم يكن ضماد قد أسلم، فلما سمع هذا القول من السفهاء، جاءه وقال له: يا محمد إني راقٍ كما تعلم، فهل بك من شيء فأرقيَك؟

فأجابه رسول الله ﷺ بقوله: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد».

قال: فقال: أعد عليَّ كلماتِك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر[1]، فقال لرسول الله ﷺ: "هات يدَك أبايعْك على الإسلام" قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك»، قال: وعلى قومي.

وعندما قامت دولة الإسلام في المدينة، وكانت سرايا رسول الله ﷺ تبعث، فمروا على قوم ضماد، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئا؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة، فقال: ردوها. فإن هؤلاء قوم ضماد[2].

أحس فصحاء العرب هذا الإعجاز، عندما سمعوا القرآن الكريم وتذوقوه، وأقرت به مشاعرهم، واختلجت به أحاسيسهم، وتيقنته قلوبهم، ولكنه الكبر قد غشى أبصارهم، ووقر في أذانهم، وجعل بين قلوبهم وبين النور حجابا سميكا.

---

(١) قاموس البحر: معناه وسطه، أو لجته أو قعره الأقصى.

(٢) مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم(٨٦٨).

عرض عتبة بن ربيعة بن عبد شمس على كفار قريش أن يمنحوه تفويضا بإجراء بعض العروض مع محمد ﷺ؛ لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيّها شاء، ويكف عنهم، فوافقوا على ذلك، وتلك العروض هي في حقيقة الأمر مساومات.

وقام عتبة حتى جلس إلى الرسول ﷺ، فقال له: أنت خير أم عبد الله؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت النبي ﷺ، تأدبًا وإعراضًا عن الجاهلين!.

فواصل عتبة قائلًا: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عِبْتَ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فقل يسمع لقولك، لقد أفضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى[1].

فلما عاين عتبةُ هذا الأدب الجم من محمد ﷺ، خفف من حدة الحديث، فقال له متلطفا متوددا: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكان في النسب. وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرْتَ به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرضْ عليك أمورا، تنظرُ فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال عليه الصلاة والسلام: «قل يا أبا الوليد، أسمع».

فقال عتبة: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالا. وإن كنت تريد به شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطعَ أمرا دونك. وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (١/٤٥٦).

ولا زال عتبة يتحدث إلى محمد ﷺ، بهذا الحديث الذي لا يخلو من التعريض أو من التجريح، ومحمد ﷺ في إنصات واستماع بكل احترام للشيخ..

فلما فرغ عتبة بن ربيعة من عرضه، سأله الرسول ﷺ: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟».

قال: نعم.

قال النبي ﷺ: «فاسمع مني»، وتلا عليه الصلاة والسلام من سورة فصلت: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[فصلت: ١-٦].

وكان عتبة ينصت لها وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع من الرسول ﷺ. فلما انتهى ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[فصلت: ٣٧].

سجد النبي ﷺ، ثم قال لعتبة: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك».

وفي رواية أخرى: أن عتبة استمع حتى إذا بلغ الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[فصلت: ١٣] قال: حسبك، حسبك، ووضع يده على فم رسول الله ﷺ، وناشده بالرحم أن يكف، وذلك مخافة أن يقع النذير.

وانصرف عتبة وقد دهش بما سمع، حتى إذا اقترب من مجلس أصحابه ونظروا إلى وجهه عرفوا أنه جاء بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم سألوه: ما وراءك يا أبا الوليد؟

www.almoslih.net

قال: ورائي أني قد سمعت قولا، والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعدَ الناس به.

قالوا جميعا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

فقال عتبة: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[1].

وبقي عتبة، مع كل ذلك، على الشرك والوثنية حتى مات يوم بدر قتيلا بيد المسلمين.

في هذا المشهد حقائق وآداب كثيرة منها:

١- حيرة قريش في أمر النبي ﷺ وعجزها عن مواجهته بالحجة.

٢- لجوء قريش إلى وسائل الإغراء الدنيوية من المال والجاه والملك، وإعراض النبي ﷺ عن كل ذلك، مما يزيد من حيرة قريش.

٣- بدء الوليد حواره بالحسنى كذلك رغم شركه؛ لأنه إنما جاء عارضًا ما عنده راغبًا في إقناع النبي ﷺ به.

٤- حسن مقابلة النبي ﷺ له، وعدم تعنيفه أو إسماعه ما يكره ابتداء، بل قال له: قل يا أبا الوليد أسمع، وفي هذا غاية الإكرام بأن كنّاه وسمع منه بأدب وإنصات.

(١) انظر: الحلبي: السيرة الحلبية، (١/ ٤٨٧)، والأصبهاني: الدلائل، (١٩٤)، وابن كثير: السيرة، (١/ ٥٠٢)، وما بعدها.

٥- استفهام النبي ﷺ له عن انتهائه من الكلام بقوله: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ وهذه من نوادر آداب الحوار التي يعزّ وجودها في عالم التحاور، إذ غالبًا ما يكتفي المتحاورون في مثل ذلك بقرائن سياق الحال الدالة على أن المحاور أنهى حديثه وينتظر الرد.

٦- لم يجبه النبي ﷺ بكلام من عنده، بل آثر اختصار الطريق، لأن بعضًا مما سيقوله ويردُّ به، لا شك أن حوارات قد دارت حوله من قبل مراتٍ ومراتٍ، فالكلام سيكون بعضه معادًا، ولهذا آثر النبي ﷺ هذا الاختيار المبارك، فقرأ عليه صدر سورة فصّلت، وهي آيات في ذروة البلاغة والحكمة وإصابة الهدف من أقصر طريق.

ولهذا لم يملك عتبة إزاء سماعها من النبي ﷺ إلا أن يلقي يديه خلف ظهره ساكنًا منصتًا لهذا الكلام العجيب الذي يأخذ بمجامع القلوب والعقول والنفوس.. بل تقشعر منه جلود أهل الحق.

٧- ومما يدل على تأثر عتبة بما سمع أن النبي ﷺ استرسل يرتل عليه حتى انتهى إلى موضع السجدة من السورة، وهي عند نهاية الآية الثامنة والثلاثين، وهو مقطع طويل من السورة لم يكن منتظرًا من رجل كعتبة أن يستمع إليه كاملًا، لكن الرجل استمع حتى سجد النبي ﷺ.

٨- أنهى النبي ﷺ حواره بكلام رقيق بلا جدال أو تعنيف، بل بكلام فيه الإرشاد والتخيير لمن عنده عقل: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

٩- إن هذا كله كان كافيًا أن يؤثر في عتبة، لولا عصبيةُ الجاهلية، وحلف الأشقياء الذين أرسلوه نائبًا عنهم لمفاوضة النبي ﷺ، فعاد الرجل إلى قومه مصرًّا على كفره وعناده.

www.almoslih.net

10 ومع هذا لم يستطع عتبة أن يخفي بعضًا مما أثاره القرآن الكريم فيه ببلاغته وحكمته وإعجازه، وبدا ذلك على وجهه حتى قال أصحابه حين رأوه عائدًا إليهم: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به!!

على أي حال، جلس كفار قريش بِسُبُلِ القبائل العربية التي تأتي لموسم الحج، لا يمر أحد إلا حذروه من السماع للقرآن الكريم الذي يتلوه محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

فمن ذلك ما روي عن طارق المحاربي أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في السوق يقول: «أيها الناس: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقد أدمى عقبه، ويقول: لا تطيعوا محمدًا فإنه كذاب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد وعمه أبو لهب[(١)].

ولكن النتيجة جاءت على عكس ذلك، فقد انتشر ذكره ﷺ في بلاد العرب.

فقد أسلم كثير من شباب العرب، فلما أسلم فتيان بني سلمة، قال والد عمرو بن الجموح له: أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرجل.. فقرأ عليه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ١-٥]. فقال عمرو ما أحسنَ هذا وأجملَه، أَوَ كلُّ كلامه مثلُ هذا؟ قال: يا أبتِ، وأحسنُ من هذا.

فالقرآن الكريم هو المعجزة الكبرى في الوجود كله من غير شك، فهو أقوى في الإعجاز والإقناع من سائر المعجزات التي أخرجها الله عز وجل على أيدي رسله الكرام، فكلها مؤقتة في زمانها.

(١) أخرجه أبو نعيم: جامع المسانيد والسنن، (٦/ ٤٧٦)، ابن حبان: صحيح (٦٥٦٢)، والحاكم: المستدرك، (٢/ ٦١١) وغيرهم وهو حديث حسن صحيح.
وانظر "مجمع الزوائد" (٦/ ٢٣)، و"المطالب العالية" (٤٢٧٧). وقد عزاه لابن أبي شيبة و"دلائل النبوة" (٥/ ٣٨٠) للبيهقي. والنسائي في "القسامة" (٨/ ٥٥).

فموسى عليه السلام يجب الإيمان بأنه نبي؛ لأنه فلق البحر، وحوّل العصا إلى حية تسعى، وحوّل ماء النيل إلى دم، وغمر مصرَ بالضفادع والقمل.. الخ.

فإذا قال معترض: وما هو الدليل على أن موسى فلق البحر وأنه حول العصا إلى ثعبان؟.

الرد: أن هكذا قال سادتُنا الأقدمون.

فإذا قال قائل: ولكن الأقدمين قالوا الكثير مما لا يقرّه عقل، ولا يؤيده الواقع، فالتجربة العملية تثبت أن البحر لا ينقسم بمجرد ضربة بعصا، وأن العصا الخشبية لا تتحول إلى حية تسعى.

لا يكاد هذا الإنكار يقوم حتى تسقط المعجزة التي قامت عليها العقيدة من أن موسى نبي الله.

فالأديان كلها تقوم على وجوب التسليم بأن ما ترويه كتبها من وقوع معجزات هو حق لا يقبل الجدل أو الشك. أما الإسلام، فهو يعلن أن المعجزة الخارقة له هي القرآن الكريم، والقرآن كلام عربي يفهمه كل ناطق بالعربية.

الجدير بالذكر أنه في العهد المكي كان التنزيل القرآني يركز على تثبيت الإيمان، وبيان ثمرته، والاعتبار بالأمم السابقة، من خلال قصص الأنبياء وصبرهم على أُممهم ورحمتهم بهم، ونصرهم على أعدائهم، كل ذلك كان يرتله الرسول ﷺ على أسماع أصحابه رضوان الله عليهم بتلك القراءة المفسرة، وقراءته كانت بتدبر ولهذا كانت السورة عندما يرتلها تطول.

فقد أخرج مسلم بسنده عن حفصة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ صلى في سبحته قاعدًا حتى كان قبل وفاته بعام، وكان يصلي في سبحته قاعدًا، وكان يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها[(١)]. فتنزل السكينة والرحمة.

(١) صحيح مسلم ـ كتاب صلاة المسافرين باب جواز النافلة قائمًا و قاعدًا، ح (٧٣٣).

www.almoslih.net

وفي ذلك تعليم وتطبيق عملي للتلاوة والتدبر، ورصيد من الثواب الجزيل، وهذه القراءة المتأنّية التي تطول بها السورة ساعدت على مزيد من الفهم ثم العمل، وقد وصفت أُم سلمة رضي الله عنها قراءته كانت مفسِّرة حرفًا حرفًا[(١)]، وأنه كان يقطّع قراءته آية آية[(٢)]. قال الإمام النحاس: ومعنى هذا الوقف على رؤوس الآيات[(٣)].

وفي رواية عن أُم سلمة ﷺ كان رسول الله ﷺ يقطّع قراءته، يقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم يقف ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١-٢] ثم يقف[(٤)]. فهذه القراءة المرتلة التي تمسُّ شغاف القلب كان لها الأثر الفاعل في تعليم الصحابة رضي الله عنهم أجمعين علمَ التفسير، وعلمَ التدبر، ولا شك أن هذه السورة قد قرأها عليهم في مكة مرات كثيرة.

بل لقد بلغ من أمر إعجاز القرآن الكريم الذي ينزل على الرسول ﷺ ما هو أعظم من هذا، بدأ أشدّ قريش خصومة يسائلون أنفسهم: أحقّا أنه من كلام رب العالمين، وأن ما يعدهم وما ينذرهم هو الصحيح؟

(١) أخرجه الترمذي ـ السنن ـ باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي، (١٨٢/٥) ح (٢٩٢٣)، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الحروف والقراءات، ح (٤٠٠١) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ح (٣٣٧٩).

(٣) القطع والائتناف، (ص ٨٧).

(٤) أخرجه الترمذي،السنن، كتاب أبواب القراءات عن رسول الله ﷺ، ح(٣١٠٧) وصححه الألباني، صحيح سنن الترمذي، ح (٢٣٣٦). وقال القرطبي: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: قول أُم سلمة: كان يقطع قراءته: يدخل في جميع ما كان يقرؤه عليه السلام من القرآن، وإنما ذكرت "فاتحة الكتاب" لتبيّن صفة التقطيع، أو لأنها أُم القرآن، فيغني ذكرها عن ذكر ما بعدها، كما يغني قراءتها في الصلاة عن قراءة غيرها لجواز الصلاة بها، وإلا فالتقطيع عام لجميع القراءة، لظاهر الحديث. وتقطيع القراءة آية آية أولى عندنا من تتبع الأغراض والمقاصد والوقوف عند انتهائها، لحديث أُم سلمة رضي الله عنها. التذكار في أفضل الأذكار، (ص١٤٠).

خرج أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والأخنس بن شريق ليلةً؛ ليستمعوا إلى محمد ﷺ وهو في بيته، فأخذ كلّ منهم مجلسا يستمع فيه، وكلّ منهم لا يعلم بمكان صاحبه. وكان محمد ﷺ يقوم اللّيل إلا قليلا يرتل القرآن في هدوء وسكينة، ويردّد بصوته العذب آياته القدسيّة على أوتار سمعه وقلبه.

فلما كان الفجر تفرّق المستمعون وهم عائدون إلى منازلهم؛ فجمعهم الطريق، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا! فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم ولَنَصَر محمدا عليكم.

فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم، في مثل الموعد الذي ذهب فيه أمس، كأنّ رجليه تحملانه من غير أن يستطيع امتناعا ليقضي ليله حيث قضاه أمس، وليستمع إلى محمد يتلو كتاب ربه.

وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر، وتلاوموا من جديد، فلم يحل تلاومهم دون الذهاب في الليلة الثالثة.

فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف، تعاهدوا ألا يعودوا لمثل فعلتهم، وإن ترك ما سمعوا من محمد ﷺ في نفوسهم أثرا، جعلهم يتساءلون فيما بينهم عن الرأي فيما سمعوا، وكلهم تضطرب نفسه، ويخاف أن يضعف، وهو سيد قومه فيضعف قومه ويتابعوا محمدا ﷺ معه.

إذًا، كيف يطلبون إلى الرسول ﷺ المعجزات وهذا الكتاب الذي يوحى إليه، والذي يهدي إلى الحق، معجزة المعجزات؟! وما لهم يطلبون إليه إثبات رسالته بالخوارق ليتردّدوا من بعد ذلك، ويقولوا كما قال من قبلهم من الأمم: إنه سحر قوي، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

إن حجة القرآن الكريم القاطعة التى يفحم بها العرب من حيث إن القرآن الكريم وحيٌ أُوحيَ به إلى الرسول ﷺ هو أنه أمّي لا يعرف القراءة والكتابة، فمن أين له وهذا شأنه أن يؤلف مثل هذا الكتاب؟

تلك هي حجة القرآن الكريم التى ساقها للرد على مزاعم قريش، والحجة فوق أنها تحمل في طياتها التسليم بأنه لو كان الرسول ﷺ يعرف القراءة والكتابة لجاز أن يؤلف القرآن، فإنها صرحت بهذا المعنى بطريقة صريحة وذلك بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. وهذا قول صريح في أن الرسول ﷺ لا يعرف القراءة والكتابة.

ولو أن الرسول ﷺ كان يعرف لجاز للمبطلين أن يتشككوا ويرتابوا في أن يكون قد تعلمه من غيره ونقله عن كتبهم، فأما وهو لا يعرف القراءة والكتابة، فلم يعد من الجائز الارتياب أو التشكك.

لماذا كل هذا التعنت من قِبَل الكفار؟

تكمن الإجابة عن هذا السؤال إذا ما علمنا أنه عندما يفلح الشيطان، في قطع علاقة الإنسان بربه، يفلح ـ بعد ذلك ـ في مسخ الإنسان مسخا فيأخذه في توجيهه، على النحو الذي يريده، ويسير الإنسان وراء شيطانه أعمى وأصمَّ، معتقدا أنه يسلك خير السبل.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٢-١٠٤].

ويكون منطقيا ـ وقد تم مسخ الإنسان مسخا ـ أن يتخذ الإنسان لنفسه إلها، يكون هو قد صنعه بيديه، وليكن هذا الإله صنما شكلته يد بشرية، وحملته ونقلته وتصرفت فيه، أو يكون مالا جمعه، أو مركزا سياسيا، أو ليكن غانية فتنته بجمالها.

وهذه الخلقيات تبدو منطقية في عقل الكافر، بعد أن استطاع الشيطان مسخ عقله، فصار عقل حيوان، أو عقل دون عقل هذا الحيوان، وعندما ينحط عقل الإنسان إلى هذا الدرك تكون غشاوة كثيفة، قد وضعت بين هذا الإنسان، وبين الحقيقة، فلا يمكنه أن يراها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦-٧].

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فالكفار: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]. على حد التعبير القرآني السابق، يحسبون أنهم على الحق، وأن غيرهم على الضلال، وأكثر من ذلك أنهم يعلنون الحرب على هذا (الغير) بسبب وبدون سبب.

ولا يفسر هذا الموقف الغريب من الكفار، سوى أنه لون من ألوان مركّبات النقص، التي تستبد بهم، فتدفعهم إلى محاولة السيطرة على غيرهم والاستبداد بهم، كهذا الهوان الذي يحسّون به، نتيجة لسيطرة غيرهم عليهم، واستبداد الغير بهم.

ونتيجة لذلك، نجد أولئك الكفار والمضللين، يقفون من الرسل موقفا، فيه تشدد وفيه تكبر، وفيه عنف، وقد يكون ذلك نتيجة المصالح المكتسبة المهددة بسبب الدعوة الجديدة، وقد يكون نتيجة من نتائج الإحساس بالهوان، وفساد الرأي، دفع صاحبه إلى المكابرة.

فتراهم يخافون من الدين الجديد أن يجني على مالهم أو جاههم أو سلطانهم، وهم لا يعرفون غير هذه الحياة حقائق ملموسة. كل ما سوى هذه حقّ: إذا هو أدّى إلى مزيد منها، باطل: إذا بعث إلى أصحابها أيسر ظلّ من الريبة إزاءها.

ربّ المال يرى أن الفضيلة حق: إذا زادت في ماله، باطل: إذا حرمته إياه. وأن الدّين حق إذا عرف كيف يسخّره لشهواته، باطل: إذا وقف في وجه هذه الشهوات وحطمها، ورب الجاه ورب السلطان في ذلك كربّ المال سواء.

وهؤلاء في خصومتهم لكل جديد يخافون منه، يستَعْدُون السواد الذي يفيد منهم رزقه على المنادي بهذا الرأي الجديد، وهم يستَعْدُون السواد بتقديس الصروح القديمة التي نخر السوس فيها بعد أن فرّ الروح منها.

وهم يقيمون هذه الصروح هياكل من الحجر ليزعموا للسواد البريء أن الروح المقدّس، الذي لفوه هم في أكفانه، ما برح في جلاله بين محبس هذه الهياكل.

والسواد ينصرهم أكثر الأمر؛ لأنه ينظر قبل كل شيء إلى رزقه، ولا يسهل عليه أن يدرك أن أية حقيقة لا تطيق أن تبقى حبيسة بين جدران معبد من المعابد بالغا ما بلغ جماله وجلاله.

وأن في طبع الحقيقة أن تكون حرة طليقة تغزو النفوس وتغذوها، لا تفرّق فيها بين نفس سيد ونفس عبد، ولا يقف نظام من النظم في سبيلها بالغة ما بلغت قسوته وبطش أصحابه في حمايته.

فكيف تريد من هؤلاء الذين كانوا يتسللون لواذا يستمعون إلى القرآن أن يؤمنوا به، وهو يؤاخذهم في كثير ممّا يرتكبون، وهو لا يفرّق بين الأعمى ومن استغنى بكثرة المال إلا بطهارة النفس، وهو ينادي الناس جميعا: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

ونضرب لهؤلاء الكفار بعض الأمثلة، فمن ذلك: لما استمع أبو سفيان وأبو جهل والأخنس إلى القرآن الكريم ثلاث ليال متتابعة في القصة التي رويناها، ذهب الأخنس إلى أبي جهل في بيته فسأله: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعنا من محمد؟

فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطَوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسَي رِهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع به أبدًا ولا نصدقه. فقام عنه الأخنس بن شريق[1].

أراد الأخنسُ أن يفهم تفسير ما حدث لهم، من عشق لا إراديٍّ لسماع القرآن، فهداه بحثه إلى سماع الاعتراف الصارخ الواضح الصادع من فرعون هذه الأمة.

وكانت الحقيقة؛ أن محمدًا ﷺ هو النبي الصادق، وكتابه هو كلام الله حقًا. وكانت تبريرات أبي جهل سفِهة ضحلة؛ قائمة على التعصب الأعمى للقبائل والعائلات، بُغية الحفاظ على السلطة والوجاهة بين الناس. وهذه الأباطيل والأضاليل هي التي صرفته عن سواء السبيل.

وكان أميّة بن أبي الصّلت ممن حدّثوا عن نبيّ يقوم في العرب قبل ظهور محمد ﷺ، حتى طمع هو في النبوّة؛ وأكلت قلبَه الغيرةُ حين لم ينزل الوحي عليه، فلم يرض أن يتابع من ظنّه منافسَه مع غلبة الحكمة على شعره، حتى قال ﷺ يوما، وهذا الشعر يروى أمامه: «أميّة آمن شعره وكفر قلبه».

وكان الوليد بن المغيرة يقول: أينزَّل على محمد، وأُترَكُ أنا كبير قريش وسيدها، ويُترَكُ أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفيّ سيدّ ثقيف، ونحن عظيما القريتين، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الزخرف: ٣١- ٣٢].

هذا هو نمط الناس الذين لم يؤمنوا بالقرآن، ليس لهم عذر ولا مستمسك، وأنى يكون لهم عذر، وتحدي المعجزة يقرع آذانهم وهم صامتون؟.

(١) ابن هشام: السيرة، (٢/ ١٥٦- ١٥٧).

www.almoslih.net

فإذا ظل أبو جهل وأمية بن أبي الصلت والوليد بن المغيرة وأبو لهب وزوجته ومن معهم على دين آبائهم فليس ذلك إيمانا منهم به أو بحق يحتويه، بل هو حرص على نظام قديم أقامه، ثم أفاء الحظّ عليهم في ظلّه من بسطة المال والجاه والسلطان ما يحرصون عليه ويحاربون الحياة كلها دونه.

ولكن الذي لا شك فيه، هو أن أسباب هذا الكفر البواح، تحتشد جميعا، تحت سبب واحد كبير، هو الذي أشرنا إليه من قبل، وهو أن هؤلاء الكفار، يداورون بتشددهم هذا، ذلك الضعف الذي يحسون به، أمام التقاليد، وأمام الشيطان ـ باختصار ـ مهما كان الشكل، الذي يتسرب من خلاله الشيطان، إلى نفس هذا الكافر، فيسيطر عليها.

إن العالِمَ يرى، وطالب الحق يرى، أما المتكبر، والحاسد، وطالب الدنيا، والظالم، وأعمى القلب المظلم البصيرة، كل هؤلاء لن يروا، لأنهم ليسوا أهلاً للرؤية.

وفي حقهم قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥ – ٤٦].

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

إن مثل هذا النوع من البشر الذي يجحد، وقلبه مستيقن يمنعه من الإقرار الكبر والبطر، ليس لك إلى مناقشته سبيل، إذ الحجة وعدمها معه سواء.

يقول الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].إذ ليس سبب إنكاره عدم الحجة، بل السبب في ذاته هو، وإن الذين عانى منهم رسول الله ﷺ وكلُّ رسولٍ هم من هذه الطبقة العاتية، وليسوا من أولئك الذين يبحثون عن الحق حتى إذا وجدوه عرفوه وقبلوه واعتنقوه، ومثل هذا النوع من الكفار يقول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

مُسَاوَمَاتٌ قُرَشِيَّةٌ

المساومات مع عمه أبي طالب للتخلي عنه:

ما زالت قريش تتخبط في التعامل مع هذا الدين الجديد الذي يقضُّ مضاجعها ويسفِّه أحلامها، ويكشف زيفَ ما هم عليه من الفحش والباطل، فهي لا تعي حتى الآن أن هذه الدعوةَ الجديدة سوف تغير وجه الدنيا كلها، لا تدرك حقيقة الموقف وحقيقة الدعوة، فهي تظن أنها مجرد نزوة عقلية لأحد فتيان قريش، تهدد أمنها واستقرارها.

وأخذت الدعوة منحى جديدا، فقد بدأ الرسول ﷺ بالسخرية من هذه التي يزعمونها آلهتهم بأنها ليست إلا حجارة، أو خشبا مسنّدة، أو أنصابا قائمة في عرض الفلاة، لا تملك لهم نفعا ولا ضرًّا.

وهم مع ذلك يعبدونها، دون أن يطلبوا إليها ما يثبت ألوهيتها؟! ولو أنهم طلبوه لظلّت خشبا أو حجارة لا حياة فيها ولا حركة لها، لا تستطيع لنفسها ضرّا ولا نفعا، ولا تستطيع إذا حطمها محطِّمٌ عن نفسها دفعا.

وبادأهم محمد ﷺ بذكر آلهتهم، وكان من قبلُ لا يذكرها، وعابها، وكان من قبل لا يعيبها. هنالك عظم الأمر على قريش وحزّ في صدورهم؛ وبدأوا يفكرون التفكير الجدّ في أمر هذا الرجل وما هو لاق منهم وما هم لاقون منه.

لقد كانوا إلى يومئذ يسخرون من قوله، وكانوا إذا جلسوا في دار النّدوة أو حول الكعبة وأصنامهم؛ فجرى ذكره على ألسنتهم لم يُثِرْ أكثرَ من ابتسامات استخفافهم و استهزائهم.

أمّا وقد حقّر من شأن آلهتهم وسخر مما يعبدون وما كان يعبد آباؤهم، ونال من هُبلَ، ومن اللات، والعزّى، ومن الأصنام جميعا، فلم يبق الأمر موضع استخفاف وسخرية، بل أصبح موضع جدّ وتدبير.

أو لو أتيح لهذا الرجل أن يؤلب عليهم أهلَ مكة، وأن يصرفهم عن عبادتهم فماذا تؤول إليه تجارة مكة؟ وماذا يكون مقامها الديني؟

لذا قام كفار قريش بإرسال وفد إلى عمه أبي طالب شيخِ بني هاشم، للضغط عليه؛ كي يحمِلَ ابنَ أخيه على أن يكف عن دعوته التي فرقت كلمتَهم، ومزقت شملهم.

ومشى وفدهم إلى أبي طالب فقالوا في تودد: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفَّه عنا وإما أن تخلِّي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه وهم يرجون أن ينتهي هذا الأمر الذي أرقَّ ليلهم وشغل نهارهم[1].

ولكن النبي ﷺ لا يلتفت إلى هذه المهاترات، فقد أرسله الله عز وجل بدين ليغير به الوجود أجمع، ليُخرِجَ الناس من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد، فالأمر أبعدُ من قريش وتخوّفاتها، فمضى النبي ﷺ في طريقه لا يَثنيه شيء عن الدعوة إلى دين الله عز وجل.

فأعاد القرشيون الحديث مع عمه فقالوا: يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفّه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلكَ أحدُ الفريقين[2].

(١) إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، ، (ص٧٨).
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (٣/٤٨).

فأرسل عمه إليه ليحضر اجتماع ذلك الوفد من صناديد قريش: فقال أبو طالب: يا ابن أخي هؤلاء أشرافُ قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك.

فقال رسول الله ﷺ: نعم، كلمةً واحدةً تعطونيها، تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم.

فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات.

قال: تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه.

قال: فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا، إن أمرك لعجب، قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون، فانطلِقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكمَ الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا[1].

وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص: ١ –٨].

وعظم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتُهم، ولم تطاوعه نفسُه على خذلان ابنِ أخيه، فقال له بعد خروجهم: يا ابن أخي، أَبقِ عليَّ وعلى نفسِك، ولا تُحملني من الأمر ما لا أطيق.

(١) ابن هشام: السيرة، (٢/ ٢٦٥).

قال النبي ﷺ لعمه: «ياعمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»(١).

إن هذا الإصرار العجيب قد اهتزّ له وجدان هذا الشيخ الكبير عند ما سمعه، بل إنه وقف مشدوهًا أمام هذا الجواب الذي يدل على عقيدة راسخة، وإيمان لا تحركه الأعاصير، وإرادة حقيقية لإخراج الناس من الشرك والجهل إلى دين الله القويم.

فقال العم له: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبدا! وجمع حوله بني هاشم لنصرته من اعتداءات قريش عليه، وطلب إليهم أن يمنعوا محمدا؛ فاستجابوا له جميعا إلا أبا لهب فإنه صارحَهم بالعداوة، وانضمّ إلى خصومهم عليهم.

وفي ذلك يقول أبو طالب من قصيدة طويلة:

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهمُ ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل(٢)

إن من مميزات المكان الذي اختاره الله تعالى لنبيه أنه لم تكن فيه سلطة سياسية مهيمنة، تستطيع القضاءَ على الدعوة الناشئة، بقواتها المنظمة المدربة على القتال، كما كان الحالُ في بلاد فارسَ والرومِ، أما في مكة فقد كان توازن القوى بين بطون قريش يَحُول دون ذلك، ولهذا ذهبت قريش إلى أبي طالب أقربِ الناس إلى رسول الله ﷺ لتشكوه إليه.

(١) البيهقي: دلائل النبوة، (٢/ ١٨٧)، ابن كثير: البداية والنهاية، (٣/٤٨).
(٢) ابن هشام: السيرة، (١/٢٨١-٢٨٦).

والذي يَعرفُ عادةَ العرب، في احترام الأكابر منهم، وطاعتهم لأمرائهم ومشايخ بيوتهم، يدرك مدى الأثر النفسي الكبير الذي يحدثه تدخلُ أبي طالب شيخ بني هاشم نتيجةَ ضغطِ قومه عليه.

ومحمد ﷺ الحيِيُّ المهذب ما كان ليخالفَ أمرَ عمه ورغبته لو كانت المسألةُ مسألةً شخصية، ولكنَّ الأمر أكبرُ من ذلك.

إنه أمر الله الذي هو أكبرُ من كل عرفٍ، ومن كل اعتبار، ومن كل ضغط. وفي ذلك شهادةٌ كاملة لمن عرف عاداتِ القبائل العربية على أن محمدًا رسولُ الله ﷺ.

وهنا نجد الإصرار النبوي على المضيِّ في الدعوة مهما حاولت قريش، والنبي ﷺ يحاور عمه بالحسنى، ويبين له حقيقة الدعوة، وأنها ماضية ولن يتوقف عنها حتى تنتصرَ أو يموتَ دونها، وفي هذا قطع لمحاولات رده عن دعوته، وقطعٌ لآمال قريش في إخماد نورها.

ولم تكن العصبية القبلية وحدها هي الدافعَ الرئيس لوقوف بني هاشم تجاه النبي ﷺ؛ بل كان موقفُ محمد منهم، وسيرته فيهم، وشدّةُ إيمانه بينهم، ودعوتُه الناسَ بالحسنى إلى عبادة الواحد الأحد، وما كان شائعا يومئذ بين قبائل العرب جميعا، من أن للّه دينا غير دينهم الذي هم عليه؛ ممّا جعلهم يرون حقّا لابن أخيهم محمد أن يجاهر الناس برأيه.

كما كان يفعل أميّة بن أبي الصّلت وورقة بن نوفل وغيرهما، فإن يكن محمد على الحق ـ وذلك ما لا ثقة لهم به ـ فسيظهر الحقُّ من بعدُ، وسيكون لهم من مجده نصيب، وإلّا يكن على الحق فسينصرف الناس عنه، كما انصرفوا من قبلُ عن غيره، ثم لن يكون لدعوته من الأثر أن يخرجوا على تقاليدهم وأن يسلموه لخصومه كي يقتلوه(١).

(١) انظر: البوطي: فقه السيرة النبوية، (ص١٨٤).

لقد وصل كفارُ قريش بأعلى المطامع في الخط البياني لبني البشر، بينما ارتفع محمدٌ ﷺ بقسمه بأعلى من الخط البياني الذين ظنوا هم أن لا شيءَ يعلوه بمقياسهم المادي، إذ كان قسمه ساميا يماثل سموَّ وعلوَّ رسالته، وبُعدًا بالخط البياني إلى السماء، فيما لم ولن يستطيعوا مجتمعين الوصول إليه، ولو أرادوا إلى الشمس والقمر.

وهما آيتان من آيات الله، وهو تحدٍّ معجزٌ لهم، استحالة تنفيذِه تُنبِئُ عن استحالة تركه لأمر الدعوة، مُصَعِّبًا على القوم المهمة، رادعًا إياهم لكيلا يمارسوا معه مثلَ هذه الإغراءات التي تغري غيره.

أدرك كفار قريش أن محمدا ﷺ لن ترهبَه القوة مهما بلغت، ولن يخدعَه الإغراء مهما عظُم، فأرادوا أن يأتوه عن طريق التعجيز والتحدي، لعلهم بذلك يستطيعون أن يثبِّطُوا همته، أو يكشفوا عجزه للناس فينصرفوا عنه وعن دعوته.

فليطالبوه إذًا بالمعجزات، وليتحدّوه أن يقدم لهم برهانا على صدق نبوته كما فعل غيرُه من الرسل والأنبياء.

لقد أتى موسى قومه بالمعجزات، وأتى عيسى قومه بالمعجزات، وأتى كل رسول قومه بمعجزة دلت على صدقه فيما يدعيه عن ربه؛ فإن كان محمد رسولا حقا ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء:٥]؛ فإن عجز عن تقديم هذا الدليل فقد انكشف أمره للناس، وتبين لهم أنه دجال يفتري على الله الكذب.

مساومة هزلية:

إن هول الصدمة التي تلقتها قريش من الدعوة الجديدة قد شلَّ قدرتَها على التفكير المنطقي السليم، ومن ثم كانت تهذي ببعض العُروض التي تدل على ما بلغت من سفاهة عقلية تحت تأثير تلك الصدمة التي حركت عقولها الراكدة.

وفي فورة هذا الغضب العام فكرت أن تساومَ أبا طالب على ابن أخيه، وتعطيه فتى من فتيانها بديلا عنه ليكون ابنا له؟ وليكن هذا البديل عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي، زين شباب بني مخزوم فتوةً وعقلًا، وقبل عمارة، رجاء أن تنحسم به الفتنة التي مزقت قومه قريشا، وبقي أن يرضى أبو طالب!

إن مثل هذه الطريقة في التفكير تدل على شلل تام في القوى العقلية لتلك النخبة التي تسود المجتمع، وقد سفهت نفوسها، وبالفعل أقبلوا على أبي طالب بهذا العرض السخيف، ومشوا إليه بعمارةَ بنِ الوليد فقالوا: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهدُ فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذْه ولدًا فهو لك، وأسلِمْ إلينا ابنِ أخيك هذا الذي قد خالف دينك، ودين آبائك، وفرَّقَ جماعة قومك وسفَّه أحلامَهم، فنقتله فإنما هو رجُل برجُل.

وما كادت تلك السخافات تُعرضُ على أبي طالب حتى لفظها على الفور وهو يقول: والله لبئس ما تساومونني، أتعطونني ابنَكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدا.

وهنا يقوم أحدُ المساومين وهو المطعمُ بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ليقولَ لأبي طالب: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومُك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا.

ورد أبو طالب على المطعم، حفيد عبد مناف بن قصي: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرةَ القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك[1]؛ فانصرف القوم على يأس.

هذه إحدى نماذج من قرارات القوم بشأن اغتيال الرسول ﷺ. وبذلك فالفترة التي قضاها رسول الله ﷺ في مكة لم تكن فترةَ أمن من كل الجوانب.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، (٣/٤٨).

www.almoslih.net

ومع هذه التهديدات المتواصلة وهذا الجو الذي يحطم الأعصاب. نجد رسول الله ﷺ ما انقطع فترةً عن القيام بعملية التبليغ والجهر بها، ومجابهة الناس بما يدعو له، إن هذا كلَّه ليس عاديًا في بيئة عربية، وعلى النفسية العربية، لولا أن المسألةَ مسألةُ وحيٍ من الله وأمرٍ.

ومثل هذا الموقف يدلُّك إلى أي مدى يرتكب الإنسان كثيرا من الحماقات والسخافات التي تبدو للعيان، ولا صلة لها بالعقل، ولا المنطق إذا ما أتبع نفسَه هواها، وترك الحق عن عمد ومعرفة، ليسخر منه العقلاء من بني آدم، وهو يظن أنه يبحث عن حلول ناجعة.

الاضطِهَادُ وَالتَّنكِيلُ

لم يترك المشركون أي نوع من أنواع الأذى، سواء أكانت نفسيةً أم جسديةً، دون أن يلحقوها بالنبي ﷺ وأتباعه، منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم، فهم لم يقتصروا على ما قد سبق بيانُه من ألوان الإيذاء المعنوية، بل تجاوزوها إلى الإيذاء الجسدي أيضًا، له ولأتباعه، بل إن أتباعه تعرضوا للتنكيل والاضطهاد، فضربوا أعظم المثل في الصبر والثبات على الإيمان وكلمة التوحيد.

وكانت الآيات تتنزل عليه تحثُّه على الصبر، وتقصُّ عليه تجارب الأنبياء السابقين عليهم السلام، وأحوالهم مع أممهم، ليتسلى بها، وليعلم أنه ليس بدعا من هؤلاء، وهذه الآيات الكثيرة التي نزلت في حث النبي ﷺ على الصبر تدل على مبلغ هذا الأذى في نفسه.

وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠].

وقوله: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾[فصلت: ٤٣].

بل إن رسول الله ﷺ كان يَذكُر لأصحابه ما عاناه في مكة من أذى قريش؛ ويثبت أصحابه ليكون لهم قدوة فيقول: «لقد أُخِفْتُ في الله عز وجل وما يَخافُ

أحدٌ، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»[١].

الإيذاء الجسدي الذي لحق بالرسول ﷺ:

ومن أمثلة ما تعرّض له الرسول ﷺ من الإيذاء:

❶ كان أُبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط، صديقَين متصافيين، وكانا من ألد أعداء محمد ﷺ، وكانا أكثر الناس إيذاءً لمحمد ﷺ.

وفي يوم، أراد عقبة بن أبي معيط أن يجلسَ إلى محمد ﷺ بين الصحابة، ليسمع منه وينظر، فقد كان مجلس محمد ﷺ مجلسَ أدبٍ وأخلاق، وعذبِ حديثٍ، وجمالِ بيانٍ، وعبرٍ وعبرات..

ولا زال عقبة يجلس في مجالس النفحات النبوية، حتى أوشك على الدخول في الإسلام، وظن الناس أن بشاشة الإيمان في طريقها إلى قلب "عقبة"؛ فتكسب الدعوة قائدًا من قادات مكة.

وترامت الأخبار إلى مسامع صديق العُمر "أُبي"، فأتى "عقبة" فقال له في حسم وحزم: "ألم يبلغني أنك جالست محمدًا وسمعتَ منه!؟ وجهي من وجهك حرام أن أكلمك (واستغلظ من اليمين) إن أنت جلستَ إليه أو سمعتَ منه، أو لم تأته فتتفلَ في وجهه"[٢]..

فغَرِقَ "عقبةُ" لحظات سريعة في صراع نفسي، بين طريق محمد ﷺ وطريق أُبي بن خلف..

(١) سنن الترمذي، برقم (٢٤٧٢)، وابن ماجه، برقم (١٥١)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٠٠١).

(٢) ابن هشام: السيرة، (١/٣٦١).

وكان لزامًا عليه الاختيار، إما الإسلام ويخسر الصديق، وإما الصديق ويخسر الإسلام، ولكن شيطان عقبة قد أرداه خسيرًا خسيئًا، فذهب إلى مجلس محمد ﷺ بوجهٍ حديدٍ وبقلبٍ عتيدٍ، وخُلق عنود، ونفس خائبة مهزومة، أمام سلطان الصداقة النكدة، فبزق عدوُ اللهِ في أكرم وجه سجد لله، وأطهر وجه طلعت عليه الشمس، وزاد الفاجر في جُرمه، فسب رسول الله سبًا شنيعًا، في مجلس الطهر والإيمان بين ظهرانَي المؤمنين المستضعفين.

وأمعن في بغيه، ليسمعَ السامع، وليشهد الغائب، ولتتحدث مكة عن تلك التفلة التي طاب بها قلب "أُبيِّ بن خلف".

ولما جُرحت مشاعر النبي الكريم؛ إثر هذا الموقف المخجل، والإهانة الوقحة، من رجل يعدُّه بعضُ الناس من جلساء محمد ﷺ، أراد الله جل في علاه أن يطيب بوجدان الرسول المكسورِ، وأن يمسح على جراحات نفسه بيدٍ حانية، مع كلمات مواسية، فيجلو القلب المكلوم، فتزول آثار الألفاظ النابية، والأفعال الجارحة: فنزل قول الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٩][١].

"مشهد الظالم يعض على يديه من الندم والأسف والأسى، ويصمت كل شيء من حوله؛ ويروح يمد في صوته المتحسر، ونبراته الأسيفة؛ والإيقاعُ الممدود يزيد الموقفَ طولاً، ويزيدُ أثرَه عمقًا. حتى ليكادَ القارئ للآيات، والسامعُ يشاركان في الندم والأسف والأسى.

ولا تكفيه يد واحدة يعضُّ عليها. إنما هو يداول بين هذه وتلك، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل في عضه على اليدين. وهي حركة

(١) انظر تفاصيل القصة: الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٣٧٤).

www.almoslih.net

معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية فيجسمها تجسيمًا»[١].

إذ يومَ القيامة يكون الندم المرير على صحبة صالحة تركها المرء إلى صحبة طالحة، وماذا تراه يقول عن صحبة الصلاح والخير التي كانت فيها النجاة، لقد قال ما قصه الله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، في صحبة المؤمنين، وخلة الصالحين، ولكن هيهات هيهات!

كان عقاب الآخرة لأصحاب السوء كما رأيت في آيات الله التي نزلت، تصف حالهم يوم القيامة، ذلك اليوم الرهيب الذي يتحول فيه البشر إلى خصوم وأعداء بعضهم لبعض[٢].

إلى هذا الحد بلغ الاستهزاء بهذا الدين الجديد الذي جاء ليُخرِجَ العالَم من الظلمات إلى النور، وبهذه الأعمال الصبيانية والتحقير من العظماء والسخرية منهم، يحاول زعماء مكة أن يحاربوا هذا الدين الجديد.

وكان الذي تولّى كِبَرَ هذه الحادثة على ما بينته الروايات الصحيحة الأخرى أن الذي رمى الفرث عليه هو عقبة بن أبي معيط، وأن الذي حرضه هو أبو جهل[٣]، وأن المشركين تأثروا لدعوة الرسول ﷺ، وشقَّ عليهم الأمرُ؛ لأنهم كانوا يرون أن الدعوة بمكة مستجابة[٤].

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، سورة الفرقان، الآيات (٢٧-٢٩).
(٢) البخاري، برقم (٥٢٠) كتاب بدء الوحي، ومسلم، برقم (٤٧٥٠) باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين.
(٣) صحيح مسلم، حديث رقم (٤٧٥١).
(٤) انظر: أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة، (١/١٤٩).

حقا إن صداقة السوء، نهايتها سوء، وخيرُ ما نمثل به نهايةُ عقبة بن أبي معيط يومَ بدر، حيث أمر رسولُ الله ﷺ بقتله من دون الأسرى مع النضر بن الحارث، وذلك لشدة عداوتهما للإسلام، وما فعلاه بالمسلمين والمسلمات أيام الاستضعاف في مكة.

فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «أن عقبة لما قُدِّم للقتل نادى: يا معشر قريش مالي أُقتل من بينكم صبرًا، فقال له النبي ﷺ بكفرك وافترائك على رسول الله».. وفي لفظ «ببزاقك في وجهي»[١].

❷ كان النبي ﷺ يصلي في فناء الكعبة، فنظر إليه المشركون من أشراف قريش ولم يرق لهم هذا المنظر، فتجاذبوا أطراف الحديث، فقالوا: "ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط؛ سفه أحلامنا وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم.

فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا ـ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ـ فيقول: «نعم، أنا الذي أقول ذلك»، ثم أخذ رجل منهم بمجمع ردائه، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨][٢].

وقد بينت رواية البخاريِّ بعضَ التفاصيل الأخرى في هذه القصة وشخصية المجرم إذ جاء فيها عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨][٣]».

(١) السيرة الحلبية، (٢/٣٧٤).
(٢) انظر: إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، (ص٩٦).
(٣) البخاري، برقم (٤٨١٥) كتاب بدء الوحي.

www.almoslih.net

أما أبو جهل فكثيرًا ما أساء إلى الرسول ﷺ، وقد ألقى عليه مرة أثناء صلاته رحم شاة مذبوحة، فتحمل الأذى، وذهب إلى بنته فاطمة ﵂ ـ فأزالت عنه النجاسة والأقذار[1]، ونهى الرسولَ ﷺ عن الصلاة في البيت الحرام. فلما لم ينته، تعرَّضَ له بالمنع. فقابل الرسولُ ﷺ عملَه بالشدة وهدده.

فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي ناديًا ومنزلًا؟

فرد الله تعالى عليه تهديدًا ووعيدًا: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٥-١٩].

ولكن مثل هذه الأحداث الوضيعة لم تؤثر في النبي ﷺ، ولم تثن عن عزمه تجاه دعوته، لأن أصحاب الدعوات العظيمة لا يتأثرون بهذه السخافات التي يتعرضون لها من سفهاء الناس الذين لا يجيدون إلا الإيذاء.

٣ وكان أبو لهب عم النبي ﷺ من أشد الناس عداوة له، وقد بلغ من أمر أبي لهب أنه كان يتبع رسول الله ﷺ في الأسواق والمجامع، ومواسم الحج ويكذبه[2]. ومعه كانت امرأته أم جميل حمالة الحطب إذ كانت تسعى بالإفساد بينه وبين الناس بالنميمة، وتضع الشوك في طريقه، والقذَرَ على بابه.

فلا عجبَ، أن نزل فيهما قولُ الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥].

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١٠٦)، ومسلم (ص١٤١٩).
(٢) انظر: محمد أبو شهبة: السيرة النبوية، (١/ ٢٩٣).

فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن الكريم أتت رسولَ الله ﷺ وهو جالسٌ عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه. ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: لقد أخذ الله ببصرها عني، وكانت تنشد:

مذممًا قلَينا[1] *** ودينَه أبَينا[2] *** وأمرَه عصَينا

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

وكان رسول الله ﷺ يضحك؛ لأن المشركين يسبون مذممًا، يقول: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذممًا ويلعنون مذممًا وأنا محمد»[3].

لقد كانت أم جميل زوجة أبي لهب تحمل في صدرها من الضغن على رسول الله ﷺ أضعافَ ما كان يحمل زوجُها، وكانت ترتكب من الحماقة ما لا يتفق مع مكانتها في قريش، وتأتي من الأمور ما يهبط بها إلى درك السفلة الأوغاد.

لقد كانت تُعيِّر الرسولَ ﷺ بالفقر حينًا، وبموت البنين حينًا، وحينًا تضع في طريقه الشوك والقذر، وكان دأبُها أن تثيرَ الفتن بينه وبين عشيرته، وأن تسعى لدى القوم بالنميمة لتفسد عليه قلوبهم.

حتى وصفها الله أشنع وصف فسماها ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ وهي صفة النمامة الواشية، التي تشعل نار الفتن بين الناس، فتحرق ما بينهم من صلات الود

(١) كرهناه وأبغضناه.
(٢) أبينا الدخول فيه.
(٣) ابن حجر: فتح الباري، (٦/ ٥٥٤، ٥٥٥).

والتراحم، وهبط بها إلى أسفل درك حين صورها في صورة الحطّابة، التي لا تكاد تمشي إلا و﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ تلم فيه الحطب من هنا وهناك، ثم تحمله إلى كوخها لتشعل به نارها.

ولعل أم جميل كانت مدفوعة إلى هذه العداوة الشديدة، بعاطفة العداوة القديمة بين بني هاشم قوم رسول الله ﷺ، وبين قومها بني أمية بن عبد شمس، فقد كان بين الفريقين نزاع دائم، وتنافس على مناصب الشرف والزعامة في قريش، منذ عهد قصي بن كلاب؛ وقد ظلت الأجيال تتوارث هذه العداوةَ جيلا بعد جيل، فكان لها في الجاهلية وفي الإسلام تاريخٌ طويل، خضبت صفحاته بالدماء الغزيرة، وامتلأت بالخطوب الجسام.

ولعلها كانت مدفوعة إلى هذه العداوة، بعاطفة البغض الطبيعي بين الحماة وزوجة الابن، فوجدت في خروج الرسول ﷺ على دين قومه فرصة للتنفيس عن نفسها، والجهر بما تكنّ في صدرها من الحقد والكراهية للرسول ﷺ وآل بيته. وقد بلغ من حقدها وكراهتها أن أثّرَتْ في نفس ولديها فطلقا زوجتيهما، نكاية في رسول الله ﷺ وحقدًا عليه.

صور من إيذاء قريش للمسلمين الأولين:

كان المسلمون الأولون إذا أرادوا الصلاة تحاشَوا الكعبة، وتحاشوا كذلك أن يصلّوا في بيوتهم، وذهبوا في الشعاب فاستخفَوا بصلاتهم عن قومهم، إذ كانوا قلة، وفي بيوتهم من لا يدينون بغير ما وجدوا عليه آباءهم.

لكن أمر الإسلام لم يكن بحيث يخفى طويلا بعد أن فشا، وتلقى الرسول ﷺ أمر الله سبحانه [1] فجهر بالدعوة وبادأ قومه بها، ولعلهم استخفوا به أول الأمر،

(١) في سورة المدثر، رابعة السور في ترتيب النزول، على المشهور. وانظر ابن هشام: السيرة: (١/ ٢٨٠)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (٢/ ٢٣٠).

وكبر عليهم أن يظهروا غيظهم منه حتى ذكر الرسول ﷺ آلهتَهم وعابها، فناكروه وأجمعوا خلافَه وعداوتَه، إلا القلة التي ترددت فيه.

ماذا تستطيع قريش، لمن آمنوا بالرسول ﷺ، من صميم بيوتها وسادة عشائرها؟ لئن أعياها أن تثبَ عليهم أو تنالَهم بأكثر من السخرية والمقاطعة والوعيد، فقد بقي الموالي المستضعفون تنفِّسُ فيهم عن قهرها وغيظها، وتتسلط عليهم بأبشع ضروب التعذيب والفتنة.

ولم يفتها وهي ترى مواليها يسارعون إلى الاستجابة للإسلام، أن تلمح ما وراء هذه البادرة من خطر يهدد الوضع الطبقي الذي قامت عليه حياةُ قريش جيلا بعد جيل؛ كما لم يفتها أن تدرك ما يتطلع إليه الأرقّاء من خلاص بهذا الدين الجديد الذي يقرر أن الناس جميعا إخوة، ويبطل عبودية البشر لغير خالقهم.

وقامت قائمة قريش، وائتمروا فيما بينهم، فوثب كل حي من أحيائها على مَن فيه من الموالي الذين أسلموا، وحسبنا ما روي عن بلال بن رباح رضي الله عنه، فقد لاقى من أمية بن خلف أنواعًا من الأذى، وألوانًا من التعذيب لا يصبر عليها إلا مؤمن قوي الإيمان.

فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه سيده على وجهه وظهره، ثم يضع حجرًا على صدره، ويقول له: ستظل هكذا حتى تكفر بمحمد وتؤمنَ باللات، ولكنه احتمل كلَّ هذه الآلام، وصبر على الأذى والنكال، وكلما التمسوا منه جوابًا، لا يرد عليهم إلا بتلك الكلمة التي ملكت نفسه ومشاعره: «أحد أحد»[1].

وقد رآه أبو بكر يومًا يقاسي أشد العذاب. فقال لسيده أمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ فقال: أنت أفسدته وفتنته عن دين آلهتنا وعبادة أصنامنا، فعرض

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، (٣/ ٢٣٢).

www.almoslih.net

عليه أبو بكر ثمنًا له، وما زال يساومه حتى اشتراه وأعتقه في سبيل الله بعد أن خلصه من تعذيب سيده[(١)].

وفي هذا نزل قول الله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٤-٢١].

والمقصود بكلمة الأشقى في الآية الكريمة هو أمية بن خلف، والأتقى هو أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه[(٢)]. واستدلّ بلفظة الأتقى على أنّ أبا بكر الصديق هو أفضل الصحابة.

في الخبر أن رسول الله ﷺ مرّ بآل ياسر وقد أخرجهم سادتهم من بني مخزوم إلى بطحاء مكة، وتفننوا في تعذيبهم، فلم يستطع عليه الصلاة والسلام أن يدفعَ البلاء عن هذه الأسرة المؤمنة، وقال مواسيا: «صبرا آل ياسر» وصبروا حتى استشهدت سمية ﵂ وهي تأبى إلا الإسلام[(٣)].

وفي استشهاد سمية ﵂ تكريم للمرأة يأتي في سلّم أولوياتها وهو أن النصرة لم تكن بالقول فقط، بل كانت هناك نصرة فعلية، حيث جادت المرأة بنفسها في سبيل هذه الدعوة بأن كانت أول شهيدة في الإسلام، لتكون بذلك أول من مات في سبيل هذا الدين لتسبق الرجال جميعًا إلى هذا الشرف العظيم، فالمرأة هنا لم تكن شهيدة، بل كانت أول شهيد في هذا الدين، وهذا سبقٌ للمرأة تقدمت فيه على الرجال.

---

(١) ابن هشام: السيرة، (٣١٨/١)، ابن عبد البر: الاستيعاب (٢٣/٢)، وابن سعد: الطبقات الكبرى، (١٦٥١١/٣).

(٢) الدر المنثور، (٦٠٧/٦).

(٣) ابن هشام: السيرة، (٢٦٨/٢).

وذكر ابن هشام في السيرة النبوية: أن أبا بكر مرّ بجارية لبني عدي بن كعب، وعمر بن الخطاب ـ قبل إسلامه ـ يعذبها على جمر الصخور الملتهبة بالقيظ ليفتنها عن دينها، فما زال يضربها حتى ملَّ، فكف عنها وهو يقول لها: إني أعتذر إليك، فلم أتركك إلا عن ملالة! وألح أبو بكر على عمر، حتى باعه إياها، فأعتقها لوجه الله كما أعتق عددا غيرها من المستضعفين بعد أن اشتراهم.

قال له أبوه قحافة يحاوره: إني أراك يا بني تعتق رقابا ضعافا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت، أعتقتَ رجالا أشداء يمنعونك ويقومون دونك؟

رد الصديق أبو بكر: يا أبَتِ، إني إنما أريد ما أريد لوجه الله[(١)].

وممن عذب من الموالي خبابُ بن الأرت، وهو من خزاعة، سُبِيَ في أيام الجاهلية، وبِيعَ بَيعَ الرقيقِ في مكة، وكان مولى لامرأة يقال لها: أم أنمار الخزاعية، ثم حالف بني زهرة، وعندما أظهر إسلامه، لاقى صنوفًا شتى من العذاب في المال والنفس.

ومما روي في ذلك أنهم كانوا يأخذون بشعر رأسه، فيسحبونه به، ويلوون عنقه بعنف، وأضجعوه مراتٍ عديدةً على صخور ملتهبة، وأوقدوا نارًا ووضعوه عليها فما أطفأها إلا شحم ظهره، حتى بردت النار، كما ذكر خباب ذلك عن نفسه وقد كشف ذلك للنبي ﷺ.

وكانوا يضجعونه على الرضف وهي الحجارة المحماة، ومع ذلك لم ينالوا منه ما أرادوا من الردة، وأعيا قريشا أن تفتنه عن دينه.

وكان من أمهر الموالي الصنّاع، يعمل السيوف بمكة للسادة القرشيين، وقل أن يجدوا من يدانيه حذقا للصنعة وتواضعا في الأجر، واحتاج في محنة الفتنة والاضطهاد، إلى مال يفتدي به نفسَه، فذهب إلى العاص بن وائل السهمي ـ أحد سادات مكة ـ يتقاضاه أجر سيوف كان قد عملها له.

---

(١) ابن هشام: السيرة، (٣٤١/١).

فنظر إليه العاص بن وائل ذاك السيد الشريف مليا، ثم قال يسأله ساخرا: أليس يزعم محمد صاحبُكم، هذا الذي أنت على دينه، أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب وفضة؟

رد خباب وهو لا يدري وجه السؤال: بلى.

قال العاص بن وائل: فأمهلني إلى يوم القيامة يا خباب، حتى أرجع إلى تلك الدار الآخرة فأقضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك محمد يا خباب، آثرَ عند الله مني ولا أعظمَ حظًّا من ذلك[1].

وانصرف خباب، وعوضه على الله سبحانه، ولم يمض وقت طويل حتى كان الرسول ﷺ يتلو في مكة من وحي ربه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٧-٧٨].

ولقد اشتكى إلى الرسول ﷺ مما يقاسيه في سبيل الله طالبًا منه التوجه إلى الله؛ لكي يكشف عن المسلمين هذا الكرب والبلاء، فضرب له الرسول ﷺ مثلًا مما كان يصيب المؤمنين السابقين، وطمأنه على مستقبله ومستقبل المسلمين.

وفي ذلك يقول خباب: شكَونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردةً في ظل الكعبة فقلنا: يا رسول الله، ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤتى بالرجل فيُحفرُ له حفرةٌ فيُجعلُ فيها، ثم يُؤتى بالمنشار فوق رأسه، فيجعلُ نصفين، ويُمشطُ بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموت، لا يخشى إلا الله، والذئبَ على غنمه، ولكنّكم تستعجلون»[2].

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٣٨٣)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، (٢/٤٧٩).
(٢) رواه البخاري في صحيحه، (٨/٣٢٧). وغيره. وانظر ابن كثير: البداية والنهاية، (٣/٥٩-٦٠)، وتعليق الحافظ ابن كثير على هذا الحديث.

بل لقد كان ممن أوذي في الله، أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، على الرغم من مكانته في قريش، فقد وَجّه إليه المشركون كثيرًا من الأذى والعنَتِ، حتى خرج مهاجرًا إلى الحبشة، فلقيَه ابنُ الدغنة وهو من سادات العرب، فسأله: إلى أين يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي. وإني أريد أن أسيح في الأرض وأعبدَ ربي.

فقال: مثلُك يا أبا بكر لا يخرج، وأنت في جِواري وحِماي.

فرجع مع ابن الدغنة، وعرفت قريش أن أبا بكر في جواره وحِماه، فطلبت قريش من حامي الصدّيق أن يأمره بعبادة ربه في داره، ولا يجهر بصلاته وقراءاته، وقالوا: إنا نخشى أن يَفتن نساءنا وأبناءنا.

فلبث أبو بكر في داره يعبد ربه، ثم بدا له أن يبني مسجدًا بفناء داره، فبناه وكان يصلي ويقرأ القرآن، فيهرع إليه نساء المشركين وأبناؤهم ينظرون إليه ويستمعون إلى ما يقرأ ـ وكان أبو بكر رجلًا بكّاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ـ فأفزع ذلك أشرافَ قريش، فأرسلوا إلى ابن الدغنة وقالوا له: إن أبا بكر قد أخلَّ بالشروط، فابتنى مسجدًا، وأسمع الناس صلاته وقراءته، وقد خشينا الفتنة على نسائنا وأبنائنا. فأتى ابنُ الدغنة أبا بكر وقال له: إما أن تلتزم شرطَ الجوار وإما أن تُرجِعَ إليَّ ذمتي.

فقال أبو بكر: إني أردُّ عليك جوارك، وأرضى بجوار الله، وكان ذلك سببًا في أن لحق بأبي بكر الكثير من الأذى والاضطهاد.

هذا إلى جانب ما كانوا يسمعونه من فحش القول واللّغو من الكلام أينما كانوا، فلم يزدهم إلا استمساكًا بدينهم وحرصًا على عقيدتهم، ولا غروَ، فهم لم يدخلوا في دين الله لغرض دنيوي يرجون حصوله، بل شرح الله صدورهم للإسلام، وخالطت بشاشتُه قلوبهم.

كانت خطة النبي ﷺ في هذه المرحلة ألّا يصطدم أصحابُه مع مشركي مكة، ونزلت الآية القرآنية تؤيد هذا الاتجاه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]، وربما كانت الحكمة في ذلك أن هذه الفترةَ كانت فترة تربية وإعداد، ومحاولةِ تربية نفس العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادةً من الضيم يقع على شخصه أو من يلوذ به، وكذلك فإن الدعوة السليمة كانت أشدَّ أثرا في مثل بيئة قريش.

والتي قد يدفعها القتال إلى زيادة العناد، وإلى نشأة ثارات دموية جديدة، وتجنب إحداث مذبحة ومقتلة في داخل كل بيت؛ إذ لم تكن هناك سلطة نظامية تعذّب المؤمنين وتفتنهم، إنما كان ذلك موكولا إلى أولياء أمورهم.

وإذا ما عرفنا أن النخوة العربية في بيئة قَبَلية من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يتحمل الأذى، ولا يتراجع، وأن أعداد المسلمين حينذاك كانت قليلة، وانحصارَهم في مكة يعني أن الصِّدام يؤدي إلى إفناء الجماعة [١] المسلمة والقضاء عليها.

عندما نعلم كم كانت هذه الخطة ناجحة في تجنب الوقوع في مثل هذه الإرباكات لدعوة ما زالت وليدة، لم تعمق جذورها في الأرض، ولم تخرج فروعها في السماء.

لقد تعرَّضَ المؤمنون لأشد أنواع الابتلاء والأذى، وكان ذلك مدعاة إلى أن يشكوا أمرَهم إلى رسول الله غيرَ مرة، فيروي لنا البخاري شكوى خباب ابن الأرت [٢]، ويروي لنا النّسائي بعضَ هذه الشكاوى حين قال هؤلاء لرسول الله: «إنّا كنّا في عز ونحن مشركون، فلما آمنّا صرنا أذلة»، فقال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا» [٣].

(١) سيد قطب، في ظلال القران، (١٢/٤٥٢-٤٥٤).
(٢) البخاري، الصحيح، (٥/٥٦، ٥٧). وانظر: البلاذري، أنساب، (١/١٧٦).
(٣) النّسائي، السنن، شرح الحافظ جلال الدين السيوطي، (٦/ ٣) . ط ١، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب مكتبة المطبوعات الإسلامية ١٩٨٦م.

وقد استمرت هذه المرحلة على مدار العهد المكي، أي طيلةَ ثلاثَ عشرةَ سنة، ذاق المسلمون فيها شتى ألوان التضييق والاضطهاد والإيذاء. «وكان الصحابة يراجعون فيها النبي ﷺ ليستأذنوه بردّ الظلم عنهم فيمنعهم عن ذلك، ويأمرهم بالصبر وباستكمال مراحل التربية الإيمانية الواجبة في الطلائع الأولى من حملة الدعوة» [١].

وعن الحكمة من الأمر بالكف عن القتال خلال هذه الفترة هناك مجموعة من الأسباب الوجيهة والحِكَم الجليلة بشأنها. نذكر منها بإيجاز ما يلي:

١. أن المرحلة مرحلة تربية وإعداد.
٢. نجاعة الدعوة السلمية، خاصة في بيئة قريش ذات الكبرياء والعنجهية.
٣. الحفاظ على سمعة الإسلام أمام الرأي العام، فلو أذن بالقتال في تلك الفترة؛ لانتشر القتل في كل بيت لعدم وجود سلطة نظامية عامة.
٤. فتح فرصة أمام من يعلم الله أنهم سيكونون من جند الإسلام بعد أن كانوا من جند الكفر.
٥. الاعتماد على النخوة العربية التي تدعو إلى نصرة المظلوم، خاصة إذا كان من كرام الناس مثل ما فعل ابن الدَّغِنَةِ مع أبي بكر الصديق. على أن لا يكون في ذلك الاعتماد ما يضر بالدعوة.
٦. قلة المجموعة المسلمة بحيث لو شرع قتال لأدّى إلى استئصالها ليخلو الجو للكفر.

إن في هذه السياسة النبوية لَدَرْسًا لأصحاب الرسالات الربانية! فينبغي تفادي الصدام المبكر مع أصحاب النفوذ قدر الإمكان، حتى لا تتحرك الدعوة في أجواء الإكراه والاضطهاد في وقت مبكر، الأمر الذي يُعيق سيرها، ويُوفر فرصة الانقضاض عليها..

(١) انجوغو صمب: أروع القيم الحضارية، (٢٣).

وليس معنى ذلك أن موقف محمد ﷺ كان سلبيا، بل تحرّك ﷺ لحماية أصحابه في عدة محاور، فوجَّه بعضَ الأغنياء من الصحابة لشراء بعض هؤلاء العبيد المستضعفين وإعتاقِهم، وبالفعل فقد أعتق أبو بكر الصديق وحده سبعةً من هؤلاء [1]، وكانت هناك محاولات لحماية المؤمنين عن طريق دخولهم في جوار بعض زعماء المشركين، فدخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، ودخل أبو بكر في جوار ابن الدَّغِنَةِ ثم رده عليه [2]، ولكن الإجراء الكبير الذي قام به النبي ﷺ لحماية أصحابه هو أن يهاجروا إلى الحبشة، وهو ما يتناوله الفصل القادم.

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٣١٧-٣٢١). ابن سعد، الطبقات، (١/٢٠٣). الطبري، تاريخ، (٢/٣٢٨،٣٢٩)، ابن الأثير، الكامل، (٢/٦٦-٧٣). ابن عبد البر، نظم الدرر، (ص٥٠). الساعاتي، الفتح الرباني،(٢٠/٢٢٠-٢٢٢).
(٢) ابن هشام، السيرة، (١/٣١٧-٣١٩). البلاذري، أنساب، (١/١٩٤، ١٩٥، ١٩٦).

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

١ إن أول مقياس يقاس به صدق صاحب الرسالة هو مبلغ إيمانه بها متى امتحنته الخطوب ولقي في سبيلها العنتَ والبلاء والاضطهاد.

٢ إن الرسالة التي تسير بصاحبها على مهاد من الورود، ويكون هدفها الغُنْمَ له أو لذويه لا تدل على إيمان، بل على أنانية وطمع أو طموح.

٣ الموقف السلبي لبعض أفراد عشيرة الرسول ﷺ في هذه الفترة فيه الرد القاطع على من يحاولون تصوير هذا الدين بأنه ثمرة من ثمار القومية، ويدّعون أن الرسول ﷺ كان يمثل بدعوته آمال العرب ومطامحهم في ذلك الحين.

٤ تباطؤ الناس في الدخول في الإسلام دليل على مدى قوة وتغلغل التقاليد في المجتمعات، وهو وضع يواجهه الدعاة في كثير من المجتمعات حتى في الشعوب الإسلامية التي تكون بعيدة عن المنهج الحقيقي للإسلام، فتنتشر فيها البدع والخرافات، ويصعب على الدعاة انتشالهم منها، وهذا يعطي درسا للداعية في ضرورة الصبر والأناة في التعامل مع الآخرين، وتحمّل ما يبدر منهم من أذى وصدود.

٥ أن في خصوصية الأمر بإنذار العشيرة إشارة إلى درجات المسؤولية التي تتعلق بكل مسلم عمومًا والدعاة خصوصًا.

www.almoslih.net

❻ لا يخلو زمان ومكان من أهل المروءة، وعلى الدعاة أن يسعوا دائمًا إلى الاهتمام بمن يتوسمون فيهم هذه الخصلة الحميدة؛ للاستفادة منهم في أوقات الشدة.

❼ إن أعداء الله في كل زمان ومكان يلجؤون إلى استخدام سلاح محاربة الدعاة في أرزاقهم؛ ليستكينوا ويرجعوا عما يدعون إليه.

❽ إن ما أصاب النبي ﷺ من ابتلاءات عزاءٌ لكل مؤمن فيما يصيبه في هذه الحياة من بلاء ومصائب.

❾ لا تكاد تخلو جاهلية من قِيَمٍ يمكن الاستفادة منها، فقد ضحى بنو هاشم تضحيات كبيرة في سبيل قيمهم الجاهلية الخاصة بحماية القريب، واستفاد الإسلام من هذه التضحيات، فإذا وجدت قيم في مجتمعنا المعاصر فلا ضير في الاستفادة منها، كما استفاد المسلمون الأوائل من مؤازرة بني هاشم في حصار الشعب.

❿ صناعة الشُبهة، أو اختلاق الفِرْية، أو إنشاء الشائعة، هو ابتكار فكرة باطلة تتّحد حولها الآراء.

فإذا ما نطق شخصٌ وقال كذبًا: إنّ الداعية الفلاني أخلاقه سيئة مثلًا، ثم تلقف هذه الكذبة شخصٌ آخر ساذج، ثم نقلها الساذج إلى الآخرين على سبيل الخبر المشكوك فيه، ثم نقلها الآخرون إلى غيرهم على سبيل الخبر الـمُرجّح صحته، ثم ينتقل الخبرُ هنا وهناك وقد صار حقيقة لا مراء فيها.

وهكذا تظل الشائعةُ تنتقل من الألسن إلى الآذان حتى تصل إلى صاحبنا الذي أطلقها وأنشأها؛ فيصدقها ويقع في نفس الفخ وهو لا يدري.. وذلك لسببٍ وحيد: أن الجميع يرددها!

⓫ ليعلم الدعاةُ، أن سهام الباطل لا تستهدف سوى الدعوة الصادقة الناجحة؛

خاصة إذا كان لها حضورٌ بين الناس، فالظالمون لا يستهدفون الدعوات النائمة أو المذاهب التي عفا عليها الزمن، إنما يستهدفون الجماعات الحية العاملة، كما السرطان يستهدف الخلايا الحية.

وهذه الافتراءات والشبهات والشائعات لن تضر الصادقين إلا أذىً؛ إنما وليهم الله الذي تكفل بحفظ دعوتهم، وإن تحولوا هم عنها إلى غيرها وصاروا حربة عليها.

إنما تحوم الافتراءات حول حمى الدعوة ومنهجها؛ تسعى حثيثًا أن تجد ثغرة تجعل منها جيبًا، ثم تجعل من الجيب فِرقة، ثم من الفرقة جماعة تحارب الجماعة، ثم ينقضُّ الباطلُ على الجميع بعدما أثخنتهم جراح الطعن والتجريح.

⓬ ولما كانت الفرية تحوم حول الدعوة كالطيور الجارحة الجائعة؛ كان على أهل الدعوة أن يحكموا بناء أخوتهم، وأن يوثقوا عرى جماعتهم، وأن يثقلوا جدار الدعوة بالحصون تلو الحصن، من برامج تربوية، ودورات علمية شرعية، وندوات فكرية تحصينية.

فإذا تحصنت الدعوة حقَّ التحصين؛ فعليها أن تبادر إذًا بزعزعة الباطل، ومذاهبه ورجاله، وأن يبادر المؤمنون الواثقون بفضح مخططات المذاهب المعادية؛ لينشغل أهل الباطل بأنفسهم، ولينشغلوا عن أعراض المؤمنين.

⓭ قد شرع الإسلام الرخص لرفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة لفقدان المصالح الضرورية. ورَفْعُ الحرج مقصدٌ من مقاصد الشريعة وأصلٌ من أصولها، فإن الشارع لم يكلف الناس بالتكاليف والواجبات لإعناتهم أو تحصيل المشقة عليهم. وقد دل على ذلك القرآن والسنة وانعقد الإجماع على ذلك.

المصلح

www.almoslih.net

هذا محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم

٦

اغتراب السالكين وابتلاءاتهم

هِجرتان إلى الحَبَشة

الهجرة الأولى:

قدّمنا من قبلُ بعضا من أصناف التعذيب والنكال التي نالت أتباع هذا النور الجديد من أصحاب رسول الله ﷺ، وفي السطور القادمة نتكلم عن اغترابهم ونزوحهم خارج أوطانهم، فرارا إلى الله بدينهم.

فقد كان أهل مكة تثور ثائرتهم كلما سمعوا بشريف من أشراف العرب يدخل في دين الله عز وجل، ويتبع محمدا ﷺ، فيبالغون في إيذاء الضعفاء الذين لا ناصر لهم، ويستخدمون أشد الأساليب خسة وعنفا، كالتعذيب والضرب والتجويع.. إلخ ليفتنوهم عن دينهم.

فمنهم من كان يفتتن بلسانه تحت وطأة التعذيب، وقلبُه مطمئن بالإيمان، ومنهم من يثبت قلبه ولا يزيده التنكيل إلا صلابة في الدين وثباتا عليه.

فلما رأى النبي ﷺ ما يلاقيه أصحابُه من البلاء والعنت، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه، ولا يصد عنهم من إيذاء أهل مكة، أشار عليهم بالتحول عن تلك القرية الظالمِ أهلُها؛ فقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرضُ صدقٍ حتى يجعل لكم فرجا مما أنتم فيه»[1].

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/٤١٣).

www.almoslih.net

ولعلنا في هذه العبارة نستطيع أن نحدد أسباب اختيار الحبشة بالذات، لتكون مهاجَر الصحابة الأوائل، وهي أرض العدل والصدق، وهما الخلّتان اللتان يحتاج إليهما الدعاة إلى الله في كل مكان، العدل في المعاملة وعدم الظلم، والصدق في اللهجة والحديث، وعدم المحاباة.

وبهذه الصفات استحق النجاشي ثناء رسول الله ﷺ، بل إن صدقه وعدله جعلاه يدخل في دين الله عز وجل، فقد صدق مع نفسه، فصدقه الله ومَنَّ عليه بالهداية والإسلام فيما بعد.

في العام الخامس للبعثة خرج الفوج الأول من مهاجِرة الحبشة، وكان بينهم رقية بنت محمد ﷺ، مع زوجها عثمان بن عفان، وابن خالها الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي... وغيرُهم من المستضعفين الذين فروا بدينهم[(١)].

وفصل الركب من أم القرى مودعا مغاني الصِّبا، وديارَ الأهل والعشيرة، وأخذوا طريق الجنوب، وقد هوّن عليهم مشقةَ الاغتراب وشجَنَ الفراق، أن هاجروا في سبيل عقيدة آمنوا بها، والتمسوا العوض عمن فارقوا من أهل وأحباب، في هؤلاء الصحب الكرام، رفاق السفر والإخوة في الدين والهجرة.

وما هي إلا أيام قلائل ثم استقبلت الحبشة أفواجا جديدة من الصحابة المؤمنين، خرجوا فارّين إلى الله بدينهم، ووجد هؤلاء المهاجرون في الحبشة ملاذا آمنا من جبروت مكة وطغيانها، حتى تَناشَدَ المسلمون في ذلك الأشعارَ، ومن ذلك قصيدة عبد الله بن الحارث بن قيس التي يقول فيها[(٢)]:

يـا راكبـا بلّغَـنْ عنـي مغلغلـة ... مـن كان يرجـو بـلاغ الله والدين
كل امـرئ مـن عبـاد الله مضطهدٌ ... ببطـن مكـة مقهـورٌ ومفتـون

(١) ابن سعد: الطبقات، (١/ ٢٠٣ - ٢٠٤).
(٢) البلاذري: أنساب، (١/ ١٩٨ - ١٩٩).

أنّـا وجدنـا بـلاد الله واسـعة ... تنجي من الـذل والمخزاة والهون
فلا تقيمـوا علـى ذل الحياة وخز ... يٍ في الممـات وعيبٍ غير مأمون

ولم يكن الفرار بالدين هو الفائدة الوحيدة من هجرة المسلمين إلى الحبشة، بل صاحبَتْها فوائدُ أخرى، كما يرى بعض الباحثين.

ومن أهمها: إتاحة الفرصة للدعوة الجديدة أن تعيش في بيئة جديدة، علّها أن تكتسب أنصارا جددا في تلك البيئات الجديدة، كي تكون قاعدة إيمانية، وذخيرة للمسلمين عند الحاجة.

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ سيد قطب: «كان الرسول ﷺ يبحث عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدةٍ تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح فيها أن تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة، وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة.

وهذا في تقديري كان هو السببَ الأول والأهمَّ للهجرة، ولقد سبق الاتجاه إلى الحبشة، حيث هاجر إليها كثيرٌ من المؤمنين الأوائل.

القول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قوية، فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقلُّ الناس وجاهة وقوة ومنعة من المسلمين.

غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصبّ عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا، إنما هاجر رجال ذوو عصبيات، لهم من عصبيتهم في بيئة قبلية ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين»[(١)].

ويؤيد الأستاذ الغضبان هذا القول بقوة فيقول مدعما له: «وهذه اللفتة العظيمة لها في السيرة ما يعضدها ويساندها، وأهم ما يؤكدها في رأيي هو الوضع العام

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، (١/ ٢٩).

الذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة، فلم نعلم أن رسول الله ﷺ قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة حتى مضت هجرة يثرب، وبدر وأحد والخندق والحديبية.

لقد بقيت يثرب معرضة لاجتياح كاسح من قريش خمس سنوات، وكان آخرها هذا الهجوم والاجتياح في الخندق، وحين اطمأنّ رسول الله ﷺ إلى أن المدينة قد أصبحت قاعدة أمينة للمسلمين، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين، عندئذ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة»[(١)].

إسلام حمزة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما:

إن المنح الإلهية التي يُعِزُّ الله بها الإسلام كثيرة ومتنوعة، فمن بين ركام هذه الابتلاءات والمحن المتتالية على أتباع الدين الجديد الأوائل تولد منحة جديدة من الله يعز بها الدين الجديد.

وكانت هذه المنح هذه المرة ممثلة في إسلام كل من حمزة بن عبد المطلب عمّ النبي ﷺ، وعمر بن الخطاب العدوي رضي الله عنه، وكان إسلامهما في العام السادس للبعثة.

أما فيما يتعلق بحمزة، فقد كان في رحلة صيد، وعندما أقبل الفارس عائدا من رحلة صيده. قد توشح قوسه وأطلق عنان فرسه، حتى إذا دنا من البيت الحرام ترجّل إجلالًا للكعبة، ثم انطلق متمهلًا في شموخ وزهو، وفي طريقه إلى بيته، مرّ بأندية قريش يتلقى حيثما سار تحيةَ الإعجاب بفتوته وفروسيته، وازدهاه أن ترى قريش فيه: حمزة بن عبد المطلب الهاشمي، أعز فتى فيها، وأشدها شكيمة.

قرب الصفا، استوقفته مولاة لعبد الله بن جدعان التيمي، فتمهّل ملقيا إليها بعض سمعه، وفي ظنه أن الفتاة مأخوذة ببهاء فتوته، قالت ـ وهي تسدد إليه نظرة

(١) المنهاج الحركي للسيرة، (١/ ٦٧)، وما بعدها «بتصرف»، وانظر لنصرة هذا القول كلا من: محمد عزة دروزة، سيرة الرسول، (١/ ٢٦٥)، سليمان العودة، الهجرة الأولى في الإسلام، (ص٣٤).

ثاقبة ـ: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابنُ أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام؟ وَجَدَهُ هاهنا جالسا فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف لم يكلمه محمد،.. ولم يرد عليها الفارس بكلمة.

لوى عنان فرسه وقد احتمله الغضب، فلم يتوقف حتى بلغ البيت العتيق، ولمح أبا جهل بن هشام جالسا هناك بين القوم، يتشدق بما آذى به النبي ﷺ.

فشقّ حمزة طريقه إليه صامتا لا يتكلم، إلى أن قام على رأسه، فرفع قوسه وشجه بها شجة منكرة، وهو يقول متحدّيا: أتشتم محمدا وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعت! وغشي القومَ دوارٌ، ما كادوا يفيقون منه حتى أدركوا أن السهم قد نفذ! أسلم حمزة، وكان حتى تلك اللحظة على دين آبائه[(١)].

وعرفت قريش أن محمدا ازداد به عزا ومنعة، فلن يلبث حمزة أن دخل المعترك بينه وبين المشركين، فارسا لا يلحق به غبار، وأسدا لا يغلب، وأوى حمزة إلى بيته فبات ليلته مؤرقا، يدعو الله أن يشرح صدره للدين الجديد الذي أعلن دخوله فيه، مدفوعا بمروءته وشهامته ونجدته، حتى تنفس الصبح.

فغدا حمزة إلى الكعبة، فما استقبلها إلا وقد اطمأن قلبه، وتفتح لنور الحق، وسعى من فوره إلى بيت ابن أخيه محمد ﷺ فبايعه، ثم خاض معه معركته الباسلة، أسد الله وأسد رسوله[(٢)].

ومنذ أن أسلم حمزة علمت قريش أن الدين الجديد يزداد كل يوم قوة، ويضم إليه الكثير من الأتباع من أهل الشرف والوجاهة والعقل. «وعرفت أن رسول الله ﷺ قد عَزَّ وامتنع، فكفّوا عما كانوا يتناولون منه»[(٣)].

(١) ابن هشام: السيرة، (١/ ٣١٢)، البيهقي: دلائل النبوة، (٢/ ٢١٣).
(٢) الحاكم: المستدرك، (٣/ ١٩٢-١٩٣).
(٣) ابن كثير، السيرة النبوية، (١/ ٤٤٦).

ويأتي مدد آخر لهذا الدين ليسلم عمر بن الخطاب ﷺ، هذا الخبر زلزل أحياء مكة، وهزّ مضاجع الغافين، وأطار النوم من عيونهم، ومزّق أحلامهم بددا، واسترابوا في يقظتهم تحت صدمة المباغتة، فخيّل إليهم أن ما يسمعون عن عمر بن الخطاب، لا يعدو أن يكون من أضغاث الهواجس وهذيان الوهم.

أيمكن أن يسلم عمر؟ لا بد أن من نقل الخبر وهِمَ فيه، كما وهمت أم عبدالله ابن عامر حين مرّ بها عمر بن الخطاب، وهي وأهلُها يترحلون إلى أرض الحبشة، وقد خرج زوجها عامر بن ربيعة في بعض حاجاتهم.

قال لهم عمر: إنه للانطلاق يا أم عبدالله؟

فردت عليه وقد ذكرت ما كانوا يلقون من البلاء والأذى: نعم والله، لنخرجَنَّ في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجا.

فما زاد عمر على أن قال: صحِبَكم الله! فأحسنت منه رقة، لم تكن تراها من قبل، وتحدثت بذلك إلى زوجها عامر حين عاد، وقالت فيما قالت: يا أبا عبدالله، لو رأيت عمر آنفا، ورقّته وحزنه علينا؟

سألها زوجها مستخفّا بسذاجتها وطيب قلبها: أطمعت في إسلامه؟ أجابت: نعم.

قال عامر: فلا يسلم الذي رأيتِ حتى يسلم حمار الخطاب![1] وتناقل المشركون كلمته، وما منهم إلا وهو على رأي عامر بن ربيعة، يأسًا من إسلام عمر بن الخطاب، لما كان يرى من غلظته وشدة قسوته على الإسلام.

وما كان الذي ظنته أم عبدالله بن عامر من رقته إلا وهما، أو هذا هو ما تعلل به المشركون، وهم يسمعون ما أنكرت آذانهم من القصة الغريبة عن إسلام عمر بن الخطاب.

---

(١) الألباني: صحيح السيرة النبوية، (ص ١٩٠).

خرج متوشحا سيفه، وأخذ مسراه إلى الصفا وفي عينيه بريق يتوهج، فهناك عند الصفا دار الأرقم، سمع أن محمدا ﷺ يجتمع فيه مع رهط من صحابته، نحو أربعين، ليعبدوا رب محمد ﷺ.

وفي طريقه إلى هذا البيت عند الصفا، لقيه نعيم بن عبدالله، فسأله: أين تريد يا عمر؟ أجاب: أريد محمدا هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها، فأقتله.

قال له نعيم: غرتك نفسك يا عمر! أترى بني عبد مناف تاركِيكَ تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ سأله عمر مستريبا: وأي أهل بيتي؟ قال نعيم: صهرك وابن عمك، سعيد بن زيد بن عمرو، وزوجه فاطمة بنت الخطاب.. أختك.. فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما.

وصك الخبر مسمع عمر، فعدل عن طريق الصفا، وانطلق إلى بيت صهره وابن عمه، يهدر بالغضب والوعيد، فلما دنا من البيت، توقف يصغي إلى تلاوة خافتة، ثم اقتحم الباب فلمح أخته فاطمة تخفي صحيفة معها.

سأل وهو ينقل بصره بينها وبين زوجها سعيد: ما هذه الهينمة التي سمعت؟ لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه.. وبطش بابن عمه سعيد بن زيد، فقامت فاطمة لتكفه عن زوجها فضربها فشجها، وعندئذ قالا معا، في تحدّ وإصرار: نعم لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

وفجأة تراخت قبضة عمر عن سعيد، وكأنما أُخذ بإيمانهما، أو كأنه ندم حين رأى دم أخته يتدفق من أثر شجته..

قال لها مسترجعا: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون منها آنفا، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وأقسم لها بآلهته، ليردّنّ الصحيفة إليها بعد أن ينظر ما فيها.

لكنها أبت عليه أن يمسّها حتى تطهّر، فأعطته إياها وفيها سورة ﴿طه﴾، وقرأها عمر فبدا عليه الخشوع وقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! وعاد الساري فأخذ طريقه إلى الصفا(١).

طرق باب البيت على الرسول ﷺ وصحابته، فقام رجل منهم فنظر من خلل الباب، ثم أقبل الرجل على الرسول ﷺ، وهو فزع ليقول: يا رسول الله، هذا عمر ابن الخطاب متوشحا السيف!! فعندما أذن له ﷺ بالدخول نهض إليه فلقيه في الحجرة وسأله: «ما جاء بك يا ابن الخطاب، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة؟».

فأجاب عمر: جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله.

في هذه اللحظة كبّر الرسول ﷺ تكبيرة عرف منها أهل البيت من الصحابة أن عمر قد أسلم.

أرأيت كيف سعد المسلمون بخبر إسلام عمر ﷺ، ولسوف يكون لهذا الحدث ما بعده، فلقد تردد الخبر في أحياء مكة، فهزّ مضاجع الغافين، وأطار النوم من عيونهم ومزّق أحلامهم بددا، واسترابوا في يقظتهم تحت صدمة المباغتة، فخيّل إليهم أن ما يسمعون عن عمر بن الخطاب لا يعدو أن يكون من أضغاث الهواجس وهذيان الوهم، أيمكن أن يسلم عمر؟ لا بد أن من نقل الخبر وهم فيه (٢).

ومنذ اليوم الأول لعمر في الإسلام أعلن ولاءه التام لهذا الدين الجديد، ووضع نفسه وقوته تحت خدمة هذه الدعوة، وأعلن البراءة من الشرك وأهله على مرأىً ومسمع من المجتمع المكي كله.

(١) الألباني: صحيح السيرة النبوية، (ص١٩٠).
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، (١/٣٦٥).

وانظر إلى ذلك الخبر الذي أورده ابن إسحاق عن نافع عن عبد الله بن عمر قال(١):

«لما أسلم عمر قال: أيُّ أهلِ مكة أَنْقَلُ للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، فغدا عليه. قال عبد الله: وغدوت أتبع أثره، وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت، ودخلت في دين محمد ﷺ؟.

قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر واتبعته أنا حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش ـ وهم في أنديتهم حول الكعبة ـ ألا إن ابن الخطاب قد صبأ.

قال: يقول عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم.

قال: وطلح [تعب] فقعد وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش ـ عليه حلة حِبَرَة وقميص موشّى ـ حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: صبأ عمر، قال: فَمَهْ، رجل اختار لنفسه أمرا، فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يُسلمون لكم صاحبكم هكذا؟ خلّوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه».

بهذا الثبات واليقين والإيمان الراسخ والصرامة في الحق كان إسلام عمر فتحا للإسلام والمسلمين.

ولم يقتصر عمر في صرامته على هذا الموقف الشخصي على سبيل الاستعراض لقوته وشدة تحمله، بل إنه أشار على النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله إني لا أدع مجلسا جلسته في الكفر إلا أعلنت فيه الإسلام، فأتى المسجد وفيه بطون قريش متحلقة فجعل يعلن الإسلام، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله..."(٢).

(١) الألباني: صحيح السيرة النبوية، (ص١٩٠).
(٢) السابق، (ص١٩٣).

علاوة على ذلك فإنه عمل على عزة الإسلام والمسلمين وعدم الاستخفاء بالصلاة، بل الجهر بها في جوف الكعبة نكاية بالمشركين، وإعلانا لكلمة التوحيد، وإعزازا لدين الله عز وجل.

فعن ابن عباس قال: «سألت عمر بن الخطاب: لأي شيء سميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام ـ ثم قص عليه قصة إسلامه. وقال في آخره: قلت ـ أي حين أسلمت ـ: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده، إنكم على الحق وإن متم وإن حييتم.

قال: قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجَنَّ، فأخرجناه في صَفَّين، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرتْ إليّ قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلُها، فسماني رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ»[(١)].

ولخطورة هذا الأمر وأهميته في نفوس المسلمين؛ يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[(٢)]: "إن إسلام عمر كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا وما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلّينا معه".

مهاجرو الحبشة وإسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما:

وصلت أنباء إسلام عمر وحمزة رضي الله عنهما، إلى المسلمين المهاجرين في الحبشة، ففرح المسلمون بها، واستشعروا في أنفسهم أن الفرج قريب، وأن العودة إلى الوطن باتت وشيكة، كما ترددت هناك بعض الأخبار الكاذبة التي تشيع أن قريشا قد أسلمت، وتبعت محمدا ﷺ على دينه.

---

(١) المباركفوري: الرحيق المختوم، (ص٨٩).

(٢) الألباني: صحيح السيرة النبوية، (ص١٨٨).

وكان لهذا كله أثر كبير في الشعور بالحنين إلى مكة ثانية، ظنّا منهم أن الحال قد تغير، وأن وطأة قريش قد خفّت على رسول الله ﷺ، ومع هذا الشعور المتدفق بالحنين إلى الوطن، وتحت إلحاح الشوق إلى حرم الله وبيته العتيق، فإن كثيرا من هؤلاء المهاجرين قد عاد إلى مكة بسبب هذه الأخبار الجديدة المتفائلة.

ولكنهم فوجئوا بأن الأمر كما هو عليه بل أشد، إذ إن قريشا وقد جنّ جنونها بتقدم الدعوة الإسلامية واكتسابها لرجال جدد من أشراف مكة؛ بل كان إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما مما زادها جنونا وهمجية.

يقول الدكتور الطيب النجار: "ولكن قريشا واجهت إسلام حمزة وعمر بتدبيرات جديدة يتجلى فيها المكر والدهاء من ناحية، والقسوة والعنف من ناحية أخرى.

فزادت في أسلحة الإرهاب التي تستعملها ضد محمد ﷺ وأصحابه سلاحًا قاطعًا وهو سلاح المقاطعة الاقتصادية، وكان من جراء ذلك الموقف العنيف أن رجع المسلمون إلى الحبشة مرة ثانية، وانضم إليهم عدد كبير ممن لم يهاجروا قبل ذلك"[(١)].

الهجرة الثانية:

بعد أن عاد بعض الذين هاجروا إلى الحبشة وظلوا مع النبي ﷺ في مكة قرابة العام، ووجدوا أن الحرب على الإسلام وأتباعه لا هوادة فيها، وأن أهل الباطل مصرّون على باطلهم. وتبين لهم أن إسلام حمزة وعمر قد زاد من حقد المشركين وطغيانهم.

نظرا لهذا كله، فقد "فكر كثير ممن هاجر إلى الحبشة في المرة الأولى أن يعودوا مرة ثانية، كما رغب غيرهم في مرافقتهم، وعلى الأخص حينما علموا من إخوانهم بما فعله الأحباش معهم من إعزاز وتقدير، وما قاموا به نحوهم من تكريم.

---

(١) الطيب النجار: القول المبين، (ص١١١). الهجرة في القرآن الكريم، (ص٣٠٢).

www.almoslih.net

وقد رسم المسلمون لأنفسهم خطة السير إلى الحبشة، واستعدوا إلى الرحلة، لإقامة كريمة ينعمون فيها بعبادة الله وحده، آمنين حتى يأتي نصر الله، ويعمَّ نور الإسلام»[١] وكانت الهجرة الثانية أواخرَ العام السادس للبعثة.

ولقد كانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها، بيد أن المسلمين كانوا أسرع، ويسّر الله لهم السفر، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا، وكان عددهم هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلا وثماني عشرة امرأة[٢].

وكانت هذه الهجرة دليلا قاطعا على دقة تخطيط النبي ﷺ وإدارته لدعوته بنجاح، فهو ﷺ يدرس الموقف جيدا، ويعلم أن الحبشة فيها ملك لا يظلم[٣].

ويبدو أن هذه الخطوة قد آتت أُكُلَها في خلخلة الصف المكي، فقد أحدثت هزة عنيفة في أوساط البيوت الكبيرة من قريش، وهم يرون أبناءهم الكرام يهاجرون بعقيدتهم من مكة في بيئة قبلية تهزها هذه الأمور هزًا عنيفا[٤].

ولعلنا ندرك أيضًا المعنى الآخر الذي أراده النبي ﷺ في كسب تأييد النجاشي المعنوي لهؤلاء النفر، فكتب كتابا إلى النجاشي يقول فيه: «.. وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرا ونفرا معه من المسلمين جاؤوك فأقرهم..»[٥].

---

(١) الطيب النجار: القول المبين، (ص١٤٤).
(٢) انظر: السهيلي: الروض الأنف، (٢٢٨/٣).
(٣) ابن هشام، السيرة، (١/ ٣٢١، ٣٢٢). ابن سعد، الطبقات، (١/ ٢٠٣، ٢٠٤). البلاذري، أنساب، (١/ ١٩٨، ١٩٩). ابن حبان، كتاب الثقات، (١/ ٥٧، ٥٨)، ط١، حيدر أباد، المطبعة العثمانية ١٣٩٧هـ. الطبري، تاريخ، (٢/ ٣٢٨، ٣٢٩). الزرقاني: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، (٢٧١/١). ط ١ القاهرة، المطبعة الأزهرية: ١٣٢٨هـ.
(٤) ابن هشام، السيرة، (٣٢٢/٢). البلاذري، أنساب، (٢٠٥/١، ٢٠٦).
(٥) البيهقي: دلائل النبوة، (٢٠٩/٢). القلقشندي، صبح الأعشى، (٣٧٩/٦).

أما الجانب الإعلامي لهذه الخطوة فقد كان مقصودا، فقد جعل القبائل في مكة وخارجها تحاول أن تتعرف على هذا الدين الجديد، الذي يدفع أصحابه إلى الهجرة، مما أخرج الدعوة من إطارها المحلي إلى إطار أوسع يشمل الجزيرة العربية كلها.

ويفترض أن تكون مكة قد شعرت بخطر هذا على سيادة قريش وسمعتها؛ مما جعلها تسارع في إرسال وفد يحمل الهدايا إلى النجاشي لرد هؤلاء المهاجرين إلى ديارهم مرة ثانية.

فقد أفزعهم هذا العدد الكبير الذي هاجر إلى الحبشة، ورأوا فيه خطرا كبيرا يهدد الكيان القرشي كله، فأخذت الظنون والوساوس الشيطانية تلعب بعقولهم، ففكروا في سد هذا الطريق على المسلمين[١]، فلعلهم ينشرون دعوتهم خارج مكة، ويتقوّون بأتباعهم الجدد، ثم يعودون وقد كثروا وعزّوا.

ولقد أعد أهل مكة لهذا الأمر عدته، وفكروا جيدا فيما يقدمون عليه، وندبوا لهذا الأمر رجلين من دهاة العرب، وأذكاها مكرا وكيدا، هما عبد الله بن ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وكانا ما زالا على كفرهما، وقاموا بجمع كثير من الهدايا والأموال؛ ليقدموها رشوة للنجاشي وحاشيته من البطارقة، ليكون المال وسيلة لتعزيز موقفهم[٢].

ولقد أفزع هذا الخبر أبا طالب عمَّ النبي ﷺ، فهو يعلم مدى ما يتمتع به عمرو ابن العاص وزميله من مكر ودهاء وخدعة، وقد كان في هؤلاء المهاجرين ولده جعفر، وولدا بنتيه برة وأميمة، وحفيدةُ أخيه عبدالله رقيةُ بنت محمد، وابنُ عمه مصعب بن عمير، فأنشد شعرا رجا أن يبلغ سمع النجاشي:

---

(١) الطبري: تاريخ، (٣٣٤/٢-٣٣٥). ابن الأثير، الكامل، (٨٤/٢)، الساعاتي، الفتح الرباني، (٢٢/٢).
(٢) ابن هشام: السيرة، (٣٢١/١-٣٢٢).

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفر ... وعمرو، وأعداء العدو الأقارب
وهل نال أفعال النجاشي جعفرا ... وأصحابه، أو عاق ذلك شاغب
تعلّم أبيت اللعنَ أنك ماجدٌ ... كريم فلا يشقى لديك المجانب
وأنك فيض ذو سجالٍ غزيرةٍ ... ينال الأعادي نفعُها والأقاربُ

فهزت قريش رؤوسها لما سمعت نداءه، وقال قائلها مستهزئا: ما يبلغ صوت الشيخ أبي طالب من مكيدة عمرو وصاحبه؟ وما يجدي الشعر مع الهدايا التي حملاها من مكة رشوة إلى النجاشي وبطارقته؟

الهجرة .. والجهاد الدبلوماسي:

سعت قريشٌ للوقيعة بين النجاشي والمسلمين، وأرسلت وفدًا دبلوماسيًا إلى النجاشي لتسليم المسلمين إليها، كما تفعل دول الظلام مع الدعاة في عصرنا، وكان الوفد يتألف من رجلين من دهاة العرب: عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ـ قبل إسلامه ـ؛ وحُملت معهما الهدايا، ورشّوا هداياهم على البطارقة وبطانة الملك، ثم كلَّما النجاشيَّ، بعد أن منحاه هديةً، وطلبا أن يلقي القبض على أفراد الجالية الإسلامية[1].

ولننصتْ لدهاء عمرو، وطرحه وتحليله العجيب:

قال: «أيّها الْمَلِكُ إنَّهُ قَدْ ضَوَى إلَى بَلَدِك مِنّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِك، وَجَاءُوا بِدِينِ ابْتَدَعُوهُ لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْت، وَقَدْ بَعَثَنَا إلَيْك فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إلَيْهِمْ فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ»[2].

تحليلٌ أثقب من المثقاب!

(١) الطبري: تاريخ الرسل، (٢/٣٢٨-٣٢٩).
(٢) ابن هشام: السيرة، (١/٣٣٤).

لكنّ هذا الدهاء لم يحل دون غضبة الملك الكريم. ولم تحل أيضًا شفاعة البطارقة الذين قبضوا الهدية وقالوا: «صَدَقَا أَيّهَا الْمَلِكُ! قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَأَسْلِمْهُمْ إلَيْهِمَا فَلْيَرُدّاهُمْ إلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ»[1].

قال النجاشي ـ وقد أغضبته هذه الكلمات ـ وهي في ظاهر الأمر حسنة جزلة فصيحة جدًا:

«لاهَا الله! إذَنْ لا أُسْلِمُهُمْ إلَيْهِمَا، ولا يُكَادُ قَوْمٌ جَاوَرُونِي، وَنَزَلُوا بِلادِي، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ، حَتّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ عَمّا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولانِ أَسْلَمْتهم إلَيْهِمَا، وَرَدَدْتُهُمْ إلَى قَوْمِهِمْ وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي»[2].

هذا درسٌ في السلطانيات؛ إذ لا غنى للحُكم عن الحكمة، ولا غنى للمُلك عن الفطنة، ولا قوام لدولة غادرة، ولا بقاء لزعيم خائن. وليس فوق الحاكم العادل منزلةً إلا نبيٌّ مرسل، أو مَلَكٌ مقرّب.

إن السلطان الصالح مثل الرياح المباركة التي يرسلها الله ـ سبحانه ـ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، فيسوق بها الغمام، ويجعلها لقاحًا للزرع، وسقاء للضرع، وحياةً للعبد.

وأرسل النجاشي إلى أصحاب محمد ﷺ، فَلَمّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرّجُلِ إذَا جِئْتُمُوهُ، قَالُوا: نَقُول ـ وَالله ـ مَا عَلِمْنَا، وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيّنَا ﷺ كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ. فَلَمّا جَاءُوا، وَقَدْ دَعَا النّجَاشِيّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ؛ سَأَلَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ: مَا هَذَا الدّينُ الّذِي قَدْ فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا دِينِي، وَلا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْمِلَلِ[3]؟.

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٣٣٤).
(٢) ابن هشام: السيرة، (١/٣٣٤).
(٣) ابن هشام: السيرة، (١/٣٣٥).

فَكَانَ الّذِي كَلّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (رِضْوَانُ الله عَلَيْهِ)؛ فطرح عليه الإسلام في كلمات دقيقة معدودة، فبدأ بذكر مساوىء الجاهلية، ثم ذكر صفات محمد ﷺ في سطر واحد، ثم عدّد له فضائل الإسلام ومحاسن تعاليمه، ثم أوضح له الإيذاء الذي تعرض له المسلمون، ولم ينس استمالة النجاشي ومدحه بما هو أهله..

قال جعفر: «

❶ أَيّها المَلِكُ، كُنّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيّ مِنّا الضّعِيفَ، فَكُنّا عَلَى ذَلِكَ..

❷ حَتّى بَعَثَ الله إِلَيْنَا رَسُولاً مِنّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ..

❸ فَدَعَانَا إِلَى الله لِنُوَحّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ الله وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصّلاةِ، وَالزّكَاةِ، وَالصّيَامِ...

فَصَدّقْنَاهُ وَآمَنّا بِهِ وَاتّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الله؛ فَعَبَدْنَا الله وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرّمْنَا مَا حَرّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلّ لَنَا..

❹ فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ الله تَعَالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلّ مَا كُنّا نَسْتَحِلّ مِنْ الْخَبَائِثِ، فَلَمّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا...

❺ خَرَجْنَا إِلَى بِلادِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ؛ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيّهَا الْمَلِكُ[1].

(١) ابن هشام: السيرة، (١/ ٣٣٥).

هكذا اختار جعفر بن أبي طالب كلماته، وعرف كيف يُعرّفُ بدينه، وكيف يشرح منهجه في كلمات قليلة، خاصة أمام النجاشي صاحب السطوة والسلطان.

إن حسن البيان عن الإسلام يرفع قدره، ويُعلي ذكره، ويعظم خطره، ويدل على فضل النبي ﷺ.

هذا الدين احتاج منه إلى الإيجاز في شرحه، والتبسيطِ في طرحه، بحيث لم يأخذ من النجاشي وقتًا يدفعه إلى الملالة والانصراف عنه إلى غيرهم.

وقد رأينا كيف شرح جعفرٌ القضيةَ في دقائق قليلة.

ذلك بأن المكثار كحاطب الليل؛ لا يأمن العقرب والحية، وأفصح الناس من زيّن المعنى العزيز باللفظ الوجيز. وأوّل العيّ الاختلاط والاضطراب، وأسوء القول الإفراط في الإطناب، ومن أكثر أهجر. وإذا كثر الكلام اختل، وإذا اختل اعتل، وخير الكلام ما قل ودل، ولم يطل فيمل.

فَقَالَ لَهُ النّجَاشِيّ: هَلْ مَعَك مِمّا جَاءَ بِهِ عَنْ الله مِنْ شَيْءٍ؟

فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ سورة مريم .. فَبَكَى ـ وَالله ـ النّجَاشِيُّ حَتّى اخْضَلّتْ لِحْيَتُهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتّى أَخْضَلوا مَصَاحِفَهُمْ حِين سَمِعُوا مَا تَلا عَلَيْهِمْ.

ثُمّ قَالَ النّجَاشِيّ: إنّ هَذَا وَالّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى؛ لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ[1]!

هكذا القرآن الكريم، إذا وقع على القلوب الصادقة؛ سكن بها، وشرح صدرها، وأسال دمعتها، وحرّك وجدانها.

هكذا الآية المناسبة في الموقف المناسب، والسورة الكريمة في الموضوع المناسب، إنها سورة مريم بين أقوام يحبّون مريم، وآيات كريمة تتحدث بأدب جَمٍّ عن ولادة المسيح، وتحكي عن زكريا ويحيى، وتتلو دعاء خاشعًا خاضعًا...

هنا سالت المدامع، واهتزت الأضالع، وزفرت الأنفاس، وهمدت الحواس، ولهثت ألسنة البطاركة بالتسابيح والدعاء: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١) ابن هشام: السيرة، (١/ ٣٣٥).

ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

محاولة أخرى:

وهكذا هُزِم وفد قريش في الجولة الأولى، فقال عمرو: وَاللهِ لَآتِيَنَّهُ غَدًا عَنْهُمْ بِمَا أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ..

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ: لا نَفْعَلُ فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا؛ قَالَ: وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ مِنْ الْغَدِ فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَسَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ.

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ لِيَسْأَلَهُمْ عَنْهُ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ ـ وَاللهِ ـ مَا قَالَ اللهُ وَمَا جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنَا، كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟

فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنَا: هُوَ عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ. فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ بِيَدِهِ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ مَا عَدَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ!!

فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ..

فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللهِ! اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ شُيُومٌ بِأَرْضِي ـ وَالشُّيُومُ الْآمِنُونَ ـ مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا مِنْ ذَهَبٍ[(١)]، وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ، رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا، فَلا حَاجَةَ لِي بِهَا، فَوَاللهِ مَا أَخَذَ اللهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ

(١) الدَّبْرُ بلسانهم الجبل، وفُسِّرَ الدَّبْرَى بالجبل قال ابن الأثير: هو بالقصر اسم جبل. [لسان العرب، (٤/٢٦٨)].

مُلْكِي، فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ.

قَالَتْ أم سلمة ـ راوية القصة ـ: فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ، مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ[(١)]!

يا لله! كلما أوقدوا نارًا للحرب؛ أطفأها الله، كلما خطّوا خطة على الإسلام؛ ردها الله في نحورهم، كلما مكروا؛ مكر الله بهم.. إنه دين الله تكفل بحفظه، يكلؤه بعنايته، إن تَنَمْ عنه عيونُ المسلمين فعين الله لم تنم.

إنَّ الحبشة بالرغم من حفاوة الاستقبال وسماحة ملكها إلّا أنّها لم تكن هي الأرض المناسبة لنشر الدعوة، واستقرارها، وذلك لأسباب أهمها:

١. أنّ الدعوة الإسلامية جاءت باللغة العربية؛ ونزلت في أرض العرب، وتناسبت وثقافتهم، وهذا لا يحدث في الحبشة، إذ إن الأحباش بمختلف قبائلهم لا يتكلمون العربية، وبالتالي فإن نشر الدعوة يواجه مشكلة في تلك البقعة، لأن النشر يعتمد على الاتصال الذي تعتبر اللغة وسيلته.

٢. أنَّ الحبشة بعيدة عن مكة المكرمة، والهجرة إليها تستغرق وقتًا وجهدًا، وقد يهلك بعض الناس دون الوصول إليها، إذ فيهم كبير السن، والمرأة، والطفل.

فضلًا عن هذين السببين؛ فإنَّ الهجرة إلى المدينة كانت بتوجيه إلهي، وقد مهّد لها الرسول ﷺ ببيعتي العقبة الأولى والثانية.

(١) ابن هشام: (١/ ٣٣٧، ٣٣٨).

ثُلاثيَّةُ الخطَر

اغتاظت قريشٌ، إذ نجح المسلمون في رحلة الحبشة، وصارت لهم عند النجاشي قوة ومنَعَة. ومما زاد غمَّهم؛ غمًّا إلى غم؛ أن أسلم عمر، وأسلم حمزة. إضافة إلى بدء انتشار الإسلام في القبائل خارج مكة، مثل غفار ونجران وأزد شنوءة وغيرها من القبائل.

فاجتمع قادة مكة بدعوة من أبي جهل على كتابة وثيقة، يَتَعَاقَدُونَ فِيهَا عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطّلِبِ، ونصت الوثيقةُ على:

❶ أَنْ لا يُنْكِحُوا إِلَيْهِمْ، ولا يُنْكِحُوهُمْ.

❷ وَلا يَبِيعُوهُمْ شَيْئًا، وَلا يَبْتَاعُوا مِنْهُمْ.

❸ وَلا يُكَلّمُوهُمْ.

❹ وَلا يُجَالِسُوهُمْ.

❺ حَتّى يُسَلّمُوا إِلَيْهِمْ رَسُولَ الله ﷺ[1].

وتعاهدوا على ذلك، وتواثقوا على هذا الظلم، ثم عَلَقُوا الصّحِيفَةَ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، كما يصنع أرباب أنظمة الظلم حينما يُضفون الجانب الديني على أحكامهم الظالمة.

أو كما فعل زعيمٌ حينما حكم بالإعدام على أحد علماء المسلمين، ثم استصدر الطاغيةُ فتوى من جهة دينية تابعة له، تبيح دم الشيخ الذي طالب بتطبيق

(١) زاد المعاد، (٣/٢٠)، ابن هشام: السيرة، (١/٣٥٠).

الشريعة، وقد صُدّرتْ فتوى إباحةِ دم الشيخ بالآية:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

فلما شرعتْ قريش في تنفيذ الوثيقة الجائرة، انحازت بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطّلِبِ إلَى أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ في تضامن عائلي عجيب مع صاحب الرسالة ﷺ.

ورفضوا تسليم النبي ﷺ إلى قادة قريش، وقد كان هذا هو مطلب قريش الوحيد لإبطال الصحيفة وفكّ الحصار.

والتفّ أبناءُ هاشمٍ وأبناءُ عبد المطلبِ ـ مسلمهم وكافرهم ـ حول النبي ﷺ.

فدخلوا جميعًا في شِعب أبي طالب ـ وهو مكان بين جبلين متصل بجبل أبي قبيس ـ، وقد تَقَرّشَت[1] عائلةُ أبي طالب في هذا المكان الضيق، فتحوّل بسبب الحصار إلى سجن كبير.

وقد تضامنت العائلة عن بكرة أبيها مع صاحب الدعوة ـ حاشا أبي لهب ـ فقد ظاهر على أهله، وانضم إلى قريش.

واجتمع على المسلمين الأوائل؛ المقاطعة الاجتماعية، والسجن العسكري، والحصار الاقتصادي ـ في آن واحد، وقد استمرت هذه الثلاثيةُ الظالمة من المحرم من العام السابع للبعثة، وحتى المحرم من العام العاشر للبعثة ـ وهو عام الحزن..

مقاطعةٌ اجتماعية: فلا صلة ولا مناكحة ولا كلام!

وسجنٌ عسكري: حيث أُغلق عليهم الشّعب؛ فصار سجنًا حقيقيًا.

(١) تقرشت: أي: تجمعت، ومنه سميت قريش، (انظر اللسان: ٦/٣٣٤).

وحصارٌ اقتصادي: مَنَع المشركون فيه وصول الطعام والشراب إلى المسلمين، وشددوا على ذلك، بل أمر أبو لهب برفع الأسعار على المسلمين دون غيرهم، فقال:

«يَا مَعْشَرَ التّجّارِ! غَالُوا عَلَى أَصْحَابِ مُحَمّدٍ؛ حَتّى لا يُدْرِكُوا مَعَكُمْ شَيْئًا، فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالِي وَوَفَاءُ ذِمّتِي، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لا خَسَارَ عَلَيْكُمْ»[1].

فيأتي المسلمُ إلى تجار مكة يبتاع منه ما يسدّ رمق أولاده، فيمنعونه أو يُعطونه السلعة بأضعاف قيمتها. فيعود إلى بيته أسيفًا لا يجد ما يسدّ جوعة أولاده، كل ذلك وهم صابرون محتسبون، قد اشترَوا جنة الله، وتاجروا مع الله، وسلكوا طريق الله غير عابئين بالجوع أو التجويع.

وقد تواصى المشركون بمنع أيِّ معونات غذائية عن المسلمين، وكان أبو جهل يترصّد أيَّ حركة دعم للمنكوبين في الحصار.

بين شهم ولئيم:

وفي مثل هذه الأجواء تظهر معادن الرجال، ويمتاز الشهم من اللئيم، وقد كشفتْ لنا هذه المحنةُ عن أسماء الشرفاء: أمثال: هِشَام بْن عَمْرِو بْنِ رَبِيعَةَ، وزهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وزمعة بن الأسود، وأبي البختري بن هشام..

... وقد حدث أن أبا جهلٍ ضَبَطَ حكِيمَ بْنَ حِزَامِ بْنِ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ، مَعَهُ غُلامٌ يَحْمِلُ قَمْحًا، يُرِيدُ بِهِ عَمّتَهُ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ، وقد كانت مع رَسُولِ الله ﷺ فِي الشّعْبِ، فَتَعَلّقَ بِهِ، وَقَالَ: أَتَذْهَبُ بِالطّعَامِ إلَى بَنِي هَاشِمٍ؟ وَاللهِ لا تَبْرَحُ أَنْتَ وَطَعَامُكَ حَتّى أَفْضَحَكَ بِمَكّةَ!

فَجَاءَ أَبُو الْبَخْتَرِيّ بْنُ هِشَامٍ، فَقَالَ: مَا لَكَ وَلَهُ؟

(١) الروض الأنف، (٢/١٥٩).

فَقَالَ: يَحْمِلُ الطّعَامَ إلَى بَنِي هَاشِمٍ.

فَقَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيّ: طَعَامٌ كَانَ لِعَمّتِهِ عِنْدَهُ؛ بَعَثَتْ إلَيْهِ فِيهِ؛ أَفَتَمْنَعُهُ أَنْ يَأْتِيَهَا بِطَعَامِهَا؟ خَلّ سَبِيلَ الرّجُلِ[1]!

«فَأَبَى أَبُو جَهْلٍ حَتّى نَالَ أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ فَأَخَذَ، أَبُو الْبَخْتَرِيّ لَحْيَ بَعِيرٍ[2] فَضَرَبَهُ بِهِ فَشَجّهُ، وَوَطِئَهُ وَطْئًا شَدِيدًا، وَحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ قَرِيبٌ، يَرَى ذَلِكَ، وَهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ وَأَصْحَابَهُ فَيَشْمَتُوا بِهِمْ، وَرَسُولُ الله ﷺ عَلَى ذَلِكَ يَدْعُو قَوْمَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرّا وَجَهَارًا، مُبَادِيًا بِأَمْرِ الله لا يَتّقِي فِيهِ أَحَدًا مِنَ النّاسِ»[3].

واشتد الحصار يومًا بعد يوم، واشتد المشركون في المنع والحظر؛ حتى اضطر المسلمون إلى أكل ورق الشجر.

وقد كان المشركون يسمعون أصوات الأطفال وزفرات العويل من وراء الشِّعب، فلا مغيث ولا حُرٌّ شريف إلا مَن ذكرنا.

وانطلقت قصائدُ أبي طالب تجوب القبائل؛ تندد بهذا الظلم الفادح، تستنكر على الذين يتشدقون بأنهم حماة الحرم، أعلام المروءة والكرم؛ ثم هم لا يرعوُن من تطبيق هذه الصحيفة الفاجرة في بلد الله الحرام.

الحق؛ أن هذه القصائد أبانت للعرب حال بني هاشم والمطلب وما يُعانون منه من قطيعة وسجن وتجويع!

الحق؛ أن صورة قريش قد اهتزت، وتحرّكت في نفوس الشرفاء دماءُ المنعة والشهامة؛ لإنقاذ المسلمين من هذا العدوان البغيض.

الحق؛ أن سلاح الإعلام كان له دور تمهيدي لفكّ الحصار، وإنّ من البيان لسحرا.

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٣٥٢).
(٢) العظم الذي تنبت عليه الأسنان.
(٣) ابن هشام: السيرة، (١/٣٥٢).

قال أبو طالب في قصيدته البائية بعد ما تعاقدت قريش في أمر الصحيفة:

أَلا أَبْلِغَا عَنّي عَلَى ذَاتِ بَيْنِنَا ... لُؤَيّا وَخُصّا مِنْ لُؤَيّ بَنِي كَعْبِ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنّا وَجَدْنَا مُحَمّدًا ... نَبِيّا كَمُوسَى خُطّ فِي أَوّلِ الْكُتْبِ
وَأَنّ عَلَيْهِ فِي الْعِبَادِ مَحَبّةً ... وَلَا خَيْرَ مِمّنْ خَصّهُ الله بِالْحُبّ
وَأَنّ الّذِي أَلْصَقْتُمُ مِنْ كِتَابِكُمْ ... لَكُمْ كَائِنٌ نَحْسًا كَرَاغِيَةِ السّقْبِ
أَفِيقُوا أَفِيقُوا قَبْلَ أَنْ يُحْفَرَ الثّرَى ... وَيُصْبِحَ مَنْ لَمْ يَجْنِ ذَنْبًا كَذِي الذّنْبِ
وَلَا تَتْبَعُوا أَمْرَ الْوُشَاةِ وَتَقْطَعُوا ... أَوَاصِرَنَا بَعْدَ الْمَوَدّةِ وَالْقُرْبِ
وَتَسْتَجْلِبوا حَرْبًا عَوَانًا وَرُبّمَا ... أَمرّ عَلَى مَنْ ذَاقَهُ جَلَبُ الْحَرْبِ
فَلَسْنَا وَرَبّ الْبَيْتِ نُسْلِمُ أَحْمَدًا ... لِعَزّاءِ مِنْ عَضّ الزّمَان وَلا كَرْبِ
وَلَمّا تَبِنْ مِنّا وَمِنْكُمْ سَوَالِفُ ... وَأَيْدٍ أُتِرّتْ بِالْقَسَاسِيّةِ الشّهْبِ
بِمُعْتَرَكٍ ضَيْقٍ تَرَى كسرَ الْقَنَا ... بِهِ وَالنّسُورَ الطّخْمَ يَعْكُفْنَ كَالشّرْبِ
كَأَنّ مُجَالَ الْخَيْلِ فِي حَجَرَاتِهِ ... وَمَعْمَعَةَ الْأَبْطَالِ مَعْرَكَةُ الْحَرْبِ
أَلَيْسَ أَبُونَا هَاشِمٌ شَدّ أَزْرَهُ ... وَأَوْصَى بَنِيهِ بِالطّعَانِ وَبِالضّرْبِ
وَلَسْنَا نَمَلّ الْحَرْبَ حَتّى تَمَلّنَا ... وَلا نَشْتَكِي مَا قَدْ يَنُوبُ مِنَ النّكْبِ
وَلَكِنّنَا أَهْلُ الْحَفَائِظِ وَالنّهَى ... إذَا طَارَ أَرْوَاحُ الْكُمَاةِ مِنَ الرّعْبِ[١٩]

بداية الانفراجة:

ولما كان رأس ثلاث سنين من ضرب الحصار على المسلمين، والمشركون يمكرون بالمسلمين كل مكر؛ مَكَرَ اللهُ لدينه وحرّك النخوةَ في قلوب أناس من أشراف قريش لنقض هذه الصحيفة والانقلاب على سلطان أبي جهل وعائلته؛ إذ تسببوا في تشويه سمعة قريش، ومارسوا ظلمًا بائنًا على الأبرياء في بلد الله الحرام.

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٣٥٢).

وكان هشام بن عمرو هو زعيمَ هذا الانقلاب ومحرّكَه، ذلك الرجل الشهم الذي كان يأتي في جنح الليل بالبعير ـ وقد أوقره طعامًا ـ فيدفعه نحو فم الشِّعب، فيغيث الضعفاء، ويدعم المنكوبين، ولن تعدم الخير في بشَر، وإنْ كَفر.

ومشى هشامٌ، «إلَى زُهَيْرِ بْنِ أَبِي أُمَيّةَ المخزومي، وَكَانَتْ أُمّهُ عَاتِكَةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطّلِبِ، فَقَالَ: يَا زُهَيْرُ، أَقَدْ رَضِيتَ أَنْ تَأْكُلَ الطّعَامَ، وَتَلْبَسَ الثّيَابَ، وَتَنْكِحَ النّسَاءَ، وَأَخْوَالُك حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ؛ لا يُبَاعُونَ وَلا يُبْتَاعُ مِنْهُمْ، ولا يَنْكِحُونَ ولا يُنْكَحُ إلَيْهِمْ؟ أَمَا إنّي أَحْلِفُ بِالله أَنْ لَوْ كَانُوا أَخْوَالَ أَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ، ثُمّ دَعَوْتَهُ إلَى مِثْلِ مَا دَعَاك إلَيْهِ مِنْهُمْ مَا أَجَابَك إلَيْهِ أَبَدًا!!

قَالَ: وَيْحَك يَا هِشَامُ فَمَاذَا أَصْنَعُ؟ إنّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَالله لَوْ كَانَ مَعِي رَجُلٌ آخَرُ لَقُمْت فِي نَقْضِهَا حَتّى أَنْقُضَهَا.

قَالَ: قَدْ وَجَدْت رَجُلًا!

قَالَ: فَمَنْ هُوَ؟

قَالَ: أَنَا!

قَالَ: لَهُ زُهَيْرٌ: أَبْغِنَا رَجُلًا ثَالِثًا»[١].

«فَذَهَبَ هشامُ إلَى الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيّ، فَقَالَ لَهُ: يَا مُطْعِمُ أَقَدْ رَضِيتَ أَنْ يَهْلِكَ بَطْنَانِ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَنْتَ شَاهِدٌ عَلَى ذَلِكَ مُوَافِقٌ لِقُرَيْشٍ فِيهِ، أَمَا وَالله، لَئِنْ أَمْكَنْتُمُوهُمْ مِنْ هَذِهِ لَتَجِدُنّهُمْ إلَيْهَا مِنْكُمْ سِرَاعًا!

قَالَ: وَيْحَك فَمَاذَا أَصْنَعُ إنّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ!

قَالَ: قَدْ وَجَدْت ثانيًا!

قَالَ: مَنْ هُوَ؟

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٣٧٥).

www.almoslih.net

قَالَ: أَنَا، قَالَ أَبْغِنَا ثَالِثًا!

قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ!

قَالَ: مَنْ هُوَ؟

قَالَ: زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ!

قَالَ: أَبْغِنَا رَابِعًا»(١)!.

«فَذَهَبَ إِلَى الْبَخْتَرِيِّ بْنِ هِشَامٍ فَسَأَلَ لَهُ نَحْوًا مِمّا قَالَ لِلْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ، فَقَالَ: وَهَلْ مِنْ أَحَدٍ يُعِينُ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ مَنْ هُوَ؟ قَالَ: زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، وَالْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ، وَأَنَا مَعَك، قَالَ: أَبْغِنَا خَامِسًا»(٢)!!.

«فَذَهَبَ إِلَى زَمْعَةَ بْنِ الأَسْوَدِ بْنِ الْمُطّلِبِ بْنِ أَسَدٍ، فَكَلّمَهُ وذَكَرَ لَهُ قَرَابَتَهُمْ وَحَقّهُمْ. فَقَالَ لَهُ: وَهَلْ عَلَى هَذَا الأَمْرِ الّذِي تَدْعُونِي إلَيْهِ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ ثُمّ سَمّى لَهُ الْقَوْمَ»(٣)!!

«فَاتّعَدُوا خَطْمَ الْحَجُونِ لَيْلاً بِأَعْلَى مَكّةَ، فَاجْتَمَعُوا هُنَالِكَ. فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَتَعَاقَدُوا عَلَى الْقِيَامِ فِي الصّحِيفَةِ حَتّى يَنْقُضُوهَا، وَقَالَ زُهَيْرٌ: أَنَا أَبْدَؤُكُمْ فَأَكُونُ أَوّلَ مَنْ يَتَكَلّمُ. فَلَمّا أَصْبَحُوا غَدَوْا إلَى أَنْدِيَتِهِمْ وَغَدَا زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيّةَ عَلَيْهِ حُلّةٌ فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، ثُمّ أَقْبَلَ عَلَى النّاسِ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ مَكّةَ؟ أَنَأْكُلُ الطّعَامَ وَنَلْبَسُ الثّيَابَ وَبَنُو هَاشِمٍ هَلْكَى لا يُبَاعُ ولا يُبْتَاعُ مِنْهُمْ، وَاللهِ لا أَقْعُدُ حَتّى تُشَقّ هَذِهِ الصّحِيفَةُ، الْقَاطِعَةُ الظّالِمَةُ»(٤)!!

«قَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَكَانَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ: كَذَبْتَ وَاللهِ لَا تُشَقّ!.

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٣٧٥).

(٢) ابن هشام: السيرة، (١/٣٧٦).

(٣) ابن هشام: السيرة، (١/٣٧٦).

(٤) ابن هشام: السيرة، (١/٣٧٦).

قَالَ زَمْعَةُ بْنُ الأَسْوَدِ: أَنْتَ وَاللهِ أَكْذَبُ، مَا رَضِينَا كِتَابَهَا حَيْثُ كُتِبَتْ! قَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيّ صَدَقَ زَمْعَةُ، لا نَرْضَى مَا كُتِبَ فِيهَا، ولا نُقِرّ بِهِ!

قَالَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيّ: صَدَقْتُمَا وَكَذَبَ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ، نَبْرَأُ إلَى اللهِ مِنْهَا، وَمِمّا كُتِبَ فِيهَا.

وقَالَ هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو نَحْوًا مِنْ ذَلِك.

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَذَا أَمْر قُضِيَ بِلَيْلٍ، تُشُووِرَ فِيهِ بِغَيْرِ هَذَا الْمَكَانِ»(١)!!

المعجزة:

في هذه الأثناء، دخل عليهم أبو طالب قائلًا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنّ ابْنَ أَخِي أَخْبَرَنِي أن الله قَدْ سَلّطَ الأَرَضَةَ (٢)عَلَى صَحِيفَةِ قُرَيْشٍ، فَلَمْ تَدَعْ فِيهَا اسْمًا هُوَ لِلّهِ إلا أَثْبَتَتْهُ فِيهَا، وَنَفَتْ مِنْهُ الظّلْمَ وَالْقَطِيعَةَ وَالْبُهْتَانَ، فَهَلُمّ صَحِيفَتَكُمْ فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ ابْنُ أَخِي فَانْتَهُوا عَنْ قَطِيعَتِنَا، وَانزِلُوا عمّا فِيهَا؟ وَإِنْ يَكُنْ كَاذِبًا دَفَعْت إلَيْكُمْ ابْنَ أَخِي، فَقَالَ الْقَوْمُ: رَضِينَا، فَتَعَاقَدُوا عَلَى ذَلِكَ ثُمّ نَظَرُوا، فَإِذَا هِيَ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فَزَادَهُمْ ذَلِكَ شَرّا (٣).

فعند ذلك نقضوها وكان أول من نقضها المطعم بن عدي.

وخرج المسلمون وقد نجحوا في الامتحان، ولم يعطوا الدنيّة، ولم يخضعوا للوثنية، بل خرجوا كأنشط ما كانوا عليه، وخرج محمد ﷺ يمارس الدعوة بهمّة أعلى، ودليل ذلك؛ رحلته في هذا العام إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإسلام.

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٣٧٦).

(٢) أي: العثة.

(٣) ابن هشام: السيرة، (١/٣٧٧).

www.almoslih.net

الجزاء من جنس العمل:

وذاقت قريش من نفس الكأس، ونزلت سورة الدخان تبشر بمجاعة تعم أهل مكة، وقد دعا عليهم النبي ﷺ: "اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ"[(١)].

فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ؛ فَحَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْجُلُودَ، حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ دُخَانًا مِنَ الْجُوعِ[(٢)]. قال تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠-١١].

فسبحان الله! كما تدين تُدان. ولا يحيق المكر السيّء إلا بأهله. وذهب المسلمون بالأجر جزاء صبرهم على الحصار الذي جعلوا منه محضنًا تربويًا، ومعسكرًا إيمانيًا؛ تعلموا فيه الصبر والثبات، وكابدوا الجوع والأزمات. وذهب المشركون بالوبال والخيبة؛ ساءت سمعتهم، وباءوا بالمجاعة والقحط، ودارت عليهم سنة الله تبارك وتعالى.

التفاعل مع السياسة الدولية:

في العام الثامن للبعثة، وفي معركة طاحنة؛ هُزم البيزنطيون، من الفرس، قرب البحر الميت هزيمة منكرة؛ وظن الناسُ ساعتها أن الإمبراطورية البيزنطية لن تقوم لها قائمة بعد اليوم، وكان بطل هذا النصر هو "كسرى أبرويز"، وعلى إثر هذا النصر؛ استولى الفرس على مصر.

فحزن المسلمون لأن الروم أهل كتاب، وفرح المشركون لأن الفرس أهل أوثان، وهم عبّاد ملوك ونيران.

واستغل المشركون هذا الحادث العالمي في طعن الإسلام، فقالوا للمسلمين: "الروم أهل كتاب وقد غلبتهم الفرس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبون بالكتاب الذي

---

(١) أخرجه البخاري، (٤٤٣٥).

(٢) أخرجه البخاري، (٤٤٣٥).

أنزل على نبيكم، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم"[(١)].

فنزلت سورة الروم، تبشر المؤمنين: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ١-٤].

كانت مفاجأة؛ أن تنزل آيات كريمة تتفاعل مع الأحداث الدولية الجارية. ليعلم الناس أن هذا الكتاب إنما نزل للواقع العملي .. ولم ينزل فقط للتلاوة والترتيل والتعبد بقراءته.

نزلت الآيات متفاعلة مع الواقع، إنه القرآن؛ يتجاوب مع مشاعر المسلم الصادق، ويدور مع عواطفه، ويسير مع أحزانه، ويخفف من آلامه، ويبشّر بموعود الله، والهدف: أن يفرح المؤمنون.

باتت الفرحة التي ترتسم على وجه المؤمن؛ هدفًا قرآنيًا كريمًا.ومقصدًا؛ تتنزل الآيات لتحقيقه، ومحورًا دارت عليه آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، وقوله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ﴾ [التوبة: ١٥].

ومن فرط فرحة أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ الله عَنْهُ خرج يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ١-٤].

قال نِيَارُ بْنُ مُكْرَمٍ الأَسْلَمِيُّ: "فَقَالَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لأَبِي بَكْرٍ: فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، زَعَمَ صَاحِبُكَ أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِسَ فِي بِضْعِ سِنِينَ؛ أَفَلا نُرَاهِنُكَ عَلَى ذَلِكَ؟

قَالَ: بَلَى!

---

(١) السيوطي: الخصائص الكبرى، (٢٣٤).

وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرِّهَانِ، فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ، وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانَ، وَقَالُوا لأَبِي بَكْرٍ: كَمْ تَجْعَلُ الْبِضْعَ، ثَلاثَ سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ، فَسَمِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ!

فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ، فَمَضَتْ السِّتُّ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ رَهْنَ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا دَخَلَتْ السَّنَةُ السَّابِعَةُ؛ ظَهَرَتْ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ، فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: فِي بِضْعِ سِنِينَ، وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ»[١].

وكان من تقدير الله أنَّ يوم انتصار الرومان كان يوم بدر كما في حديث أبي سعيد قال: «لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين»[٢] ـ فكانت فرحة فوق فرحة للمؤمنين، وترحةً فوق ترحة في قلوب المشركين.

ويظهر من مرويات كتب السُّنة والسيرَ أن حماسة أبي بكر يوم نزول الآيات دفعته إلى عقد رهان مع أمية بن خلف، وقد كان الرهن «خمس قَلائِص»[٣].

ودفعته فرحته العارمة أيضًا ـ رضوان الله عليه ـ أن يتحجر واسعًا في شأن تحديد السَّنة المعقود عليها الرهان؛ فاختار مجتهدًا العام السادس، رغم أن الْبِضْعِ، ثَلاثُ سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ، «فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: فِي بِضْعِ سِنِينَ».

وذكرت بعض المرويات أن المشركين سألوا ما على أبي بكر من حق الرهان؛ حينما جاء العام السادس ولم ينتصر الرومان؛ فذكر ذلك الصحابةُ للنبي ﷺ فقال:

(١) أخرجه الترمذي، (٣١١٨) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي، (٢٨٥٩) وصححه الألباني.

(٣) ابن كثير: السيرة، (٢/٩١)، والقلوص: هي الناقة الطويلة القوائم، وهي الشابة القوية.

«لم يكونوا أحقاء أن يؤجلوا أجلا دون عشر فإن البضع ما بين الثلاث الى العشر، فزايدوهم ومادّوهم في الأجل ففعلوا»[١].

ثم جاء العام السابع وكان عام بدر وانتصر الرومان في ١٧ رمضان من العام الثاني للهجرة، فذاع النبأ، وعرف الناس صدق القرآن، وخبر سورة الروم؛ فَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ كما أخبرت الرواية الصحيحة التي أوردناها.

وإذا كان نصر الرومان قد حدث يوم بدر؛ فهذا يعني أن هزيمتهم هذه كانت أيام حصار الشِّعب، وبالتحديد في العام الثامن من البعثة، ولا يخفى عليك المعاناة التي عالجها المسلمون في هذه المحنة؛ إلا أن هذا الحصار لم يمنعهم من متابعة هذا الحدث الدولي الهام والتفاعل معه.

إن هزيمة الروم من الفرس ثم انتصارهم عليهم فيها دلالات تربوية وفكرية كثيرة؛ نذكر منها ما يلي:

أوَّلًا: **الوعي السياسي عند الصحابة**: هذا الحدث أظهر متابعة المسلمين لأحداث الصراع الدولي القائم في زمانهم، وهذا في حد ذاته يشير إلى وعي سياسي تمتع به الصحابة ﵃ ولم يكن شأنهم شأن بعض أهل التديّن المغشوش في زماننا، من التزامٍ ببعض واجبات الدين، ثم وقوفِ موقفَ الأعمى الأصم من أحداث البيئة المحيطة بهم.

ثانيًا: **التحليلات السياسية الفاسدة**: أظهرت القصة أن المشركين استغلوا انتصار الفرس على الرومان استغلالًا فكريًا وإعلاميًا ـ في محاولة منهم للطعن في الإسلام والمسلمين ـ بزعم أن الرومان قد انهزموا وهم أهل كتاب...

(١) البيهقي، (٦١٩).

وهذا يظهر لنا السعي الحثيث الدؤوب الذي يبذله المشركون في ترصّد أحداث الواقع، وليِّ أعناق المواقف، في تحليلات سياسية مريضة؛ لخدمة أهدافهم، أو للطعن المباشر في المنهج الإسلامي.

ثالثًا: **التعامل المباشر مع الشارع**: أظهرت هذه القصة؛ أن أبا بكر مشى يتلو هذه الآيات من سورة الروم؛ بل «يصيح بها» ـ كما ورد في حديث نِيَارِ بْنِ مُكْرَم ـ؛ يجهر بهذه البشارة بين ظهراني الناس في نواحي مكة.

وفي ذلك درسٌ للمسلم الذي يستحي من إعلان الحق، ودرسٌ للداعية الذي يستحي من إظهار دعوته؛ واضحة، جلية، بين الناس، في الشوارع والأزقّة والمقاهي والأندية. درسٌ في التعامل الإعلامي المباشر مع الرأي العام؛ والجهاد بالكلمة في سبيل ترجيح كفّته نحو الحق.

رابعًا: **التضامن مع الكافر المسالم**: لقد تضامن القرآن مع الرومان ضد الفرس، وسمّى نصر الرومان على الفرس «نصر الله»؛ بل جعل هذا النصر بشارة قرآنية خالدة؛ أفرد لها سورة سُميت باسم الروم..

وهذا يبين أن الإسلام يفرّق بين الكافر المسالم، والكافر المحارب، ويتضامن مع أهل الكتاب في حربهم ضد الوثنية، ويشارك في الأحداث الدولية بفعالية وإيجابية؛ فيدعم الحق ضد الباطل، والضعيفَ ضد القوي، والمظلومَ ضد الظالم ـ مهما كانت عقيدة الحق، ومرجعيةُ الضعيف، ومذهبُ المظلوم.

وهكذا الإسلام يدعم الشرفاء في كل مكان.. وإنه للمجد بعينه؛ أن تساند دولةُ الإسلام دولةً مظلومة أو شعبًا مسكينًا في أطراف الأرض... «وَمَنْ يَسْتَبِحْ كَنْزًا مِنَ المَجْدِ؛ يَعْظُمِ».

إن دفع عدوان الأعداء المحاربين واجبٌ شرعي، والعمل على إضعافهم واجبٌ شرعي كذلك، ودعم كل من يحاربهم واجبٌ شرعي؛ وإن حاربهم كفارٌ أمثالهم يختلفون عنهم في درجة عدائهم للإسلام.

عامُ الحُزن

لم ينعم رسول الله ﷺ بعد خروجه من الحصار الاجتماعي والاقتصادي في شعب أبي طالب فترة طويلة، بل إن الأحداث داهمته فلم يشعر بطعم الراحة أو الطمأنينة، إذ لم يمض على حادث المقاطعة وتمزيق الصحيفة سوى أشهر قليلة، لم تتجاوز الستة، ثم تعرّض النبي ﷺ إلى حادثين اهتز لهما قلبه ووجدانه، وأثرّا فيه تأثيرا عميقا.. هما:

أولًا: موت عمه أبي طالب في رجب من السنة العاشرة من البعثة، وكان يومئذ قد نيّف على الثمانين. وعلى الرغم من أنه كان مُشرِكًا إلا أنه كان حائط صدٍّ منيع لهجمات المشركين على النبي ﷺ، بل إنه لم يتخلّ عن حمايته حتى في أحرج الظروف وأعنف الأزمات.

ولقد ظل أبو طالب على عهده في رعايته لابن أخيه، وعدم إخفار الوعد الذي قطعه على نفسه حتى الرمق الأخير من حياته، حتى قال الرسول ﷺ في حقه: «والله ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب»[1].

وقد عرفت قريش خطورة الموقف إذا مات أبو طالب، وترك محمدا مع من أسلم من أشراف قريش ليجاهروا بدعوتهم ويسفّهوا عقول المشركين، وأيقنوا بأن الصدام قادم لا محالة، فذهبوا إلى أبي طالب ثم حضر الرسول ﷺ فقال لعمّه الذي يحتضر: يَا عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إلا الله، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله.

(١) السهيلي: الروض الأنف، (٢/ ٢٢٣).

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله..»[١].

في هذا المشهد ابتدأ النبي ﷺ حواره مع عمه بالكلمة الجامعة، والمدخل الأول والوحيد إلى ساحة الإسلام، شهادة أن لا إله إلا الله التي بدونها لا يكون المرء مسلمًا، والنبي ﷺ يطلبها من عمّه ليشفع له بها عند الله، فقدم له عرضين بلفظ موجز: لا إله إلا الله، تتبعها الشفاعة.

ولكن رفقة السوء وجلساء السوء الذين نُهينا نحن المسلمين عن مجالستهم تلاقوا عند أبي طالب في تلك الساعة الفاصلة، لم يفتح النبي ﷺ الكلام معهم لظروف المقام، إذ كانت ساعةَ احتضار أبي طالب، ولكنه تشبّث بعمّه يلحُّ عليه إلحاحًا، كما جاء في الرواية «فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضُها عليه ويعيد لـه تلك المقالة».

ها هنا نجد التكرار بل الإلحاحَ في الحوار، ذلك أنها لحظات حاسمة، إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولكن أبا طالب والقوم من حوله لا يدركون خطرها.

إن قدَر الله تعالى كان قد سبق، ولكن النبي ﷺ اجتهد وسعه، ليعلمنا بذلك: ألا نخلد إلى الدعة والهدوء تاركين عبء الدعوة ومشقتها، وقد حزن النبي ﷺ لذلك فواساه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

مات أبو طالب إذًا، وترك ابن أخيه وجهًا لوجه أمام هجمات المشركين، والأمر بينهما على شرّ ما يمكن من الاضطهاد والتعذيب والمطاردة.

ورغم ذلك لم تأخذ النبي ﷺ في قول الحق لومةُ لائم، ومثال ذلك موقفه ﷺ من عمه أبي لهب الذي أخذته حمّية العصبية، والقرابة العائلية، فتدخّل لحمايته

(١) طرف من حديث رواه مسلم واللفظ له، (١٣٢)، والبخاري، (١٣٦٠).

بعد وفاة أبي طالب، فساء ذلك قريشًا، ورتبت خطة أنهت بها تلك الحماية بإيقاع النبيّ ﷺ في موقف حرج.

إذ ذهب عقبة بن أبي معيط وأبو جهل بن هشام إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟ فقال له أبو لهب: يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟ قال: مع قومه، فخرج أبو لهب إليهما فقال: قد سألته فقال مع قومه، فقالا: يزعم أنه في النار، فقال: يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟

فقال ﷺ: «نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار»، فقال أبو لهب: والله لا بَرِحْتُ لك عدوًا أبدًا، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار! فاشتد عليه هو وسائر قريش[١].

الحادث الثاني: لم يمر على موت أبي طالب أكثرُ من ثلاثة أيام، ولم تلبث خديجة أن مرضت، واشتد بها المرض.. ورسول الله ﷺ إلى جانبها يمرّضُها ويقوم على خدمتها، ويظل النبي ﷺ إلى جانب خديجة، يخفف عنها ويذكّرها بما وعدها الله به في الجنة من نعيم وما أعده لها من قصر من قصب لا نصب فيه ولا صخب حتى فاضت روحها بين يديه ﷺ.

ويفجع قلب النبي ﷺ في زوجه الودود الحنون، السيدة خديجة رضي الله عنها، التي كانت نعم السند له، بما توليه له من حبها وبرها، ومن رقة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانها[٢]. ولقد حزن الرسول ﷺ لفقدها حزنًا شديدًا؛ لما كان لها من بالغ الأثر في نصرة الإسلام، ومؤازرة رسوله ﷺ بمالها، والدفاع عنه ضد أعدائه.

وإذا كان إلى جانب كل رجل عظيم امرأة يعتمد عليها في جهاده، وفي الوصول إلى أهدافه، فقد كانت خديجة تلك السيدة العظيمة التي ناصرت النبوة، وعاونت على رفع راية الإسلام، وجاهدت في سبيل الدعوة الإسلامية.

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، (١/ ٢١١).

(٢) أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة، (١/ ١٩٥).

www.almoslih.net

لم تخذل زوجها يوما من الأيام، بل كانت الأولى في كل شيء، في سماحة الخلق، وجمال الطلعة، ووفاء الزوجة، وشرف، وكرم المحتد، والإيمان الثابت، والنفس المخلصة، والقلب السليم.

فقد النبي ﷺ بذلك نصيرين مهمين فأحيا موتهما ما مات من أمل المشركين في النصر بعد تهاوي الحصار، فعادت وطأة الاضطهاد إلى أشد ما كانت عليه قبل (عام الحزن).

وأحسّ النبي ﷺ وحشة الغربة في بيته وأرض مبعثه، واشتدت عليه وطأة الحزن لفقدهما، حتى خيل لأعدائه أن النصر عليه جد بعيد، ما دروا أن الظلمة تشتد قبيل الفجر! أدرك عليه الصلاة والسلام أن الموقف لا بد أن يتخذ متَّجها آخر. وراح يمد بصره إلى ما وراء مكة، يستوعب أبعاد الرؤية لما يحتمل من متجه الأحداث.

ولما مات العم، نالت قريشٌ من النبي ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيهٌ من سفهاء المشركين، فنثر على رأسه ترابًا، ودخل ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب، وهي تبكي، وهو ﷺ ـ يقول لها: "لا تبكي يا بنية فإن الله مانعٌ أباك"[1].

وليس أوجع على النفوس الحرة، وذوي العواطف المرهفة من أن تسمع بكاء الأبناء، وأوجع منه أن تسمع بكاء البنات. كل دمعة ألم تسيل من مآقي البنت قطرة حمم تهوي على قلبنا، فينقبض انزعاجا، حتى لنكاد من شدة الانزعاج أن نصيح ألما.

وكل أنة حزن تثير في الحشا وفي الكبد أنّات ما أقساها، تختنق لها حلوقنا، وتكاد تهمي بالدمع من وقعها عيوننا. وقد كان ﷺ أبرّ أب ببناته وأحناه عليهن. فماذا تراه صنع لبكاء هذه البنت التي فقدت منذ قريب أمها، ولبكائها هي من أجل ما أصاب أباها؟ لم يزده ذلك كله إلا توجُّهًا بقلبه إلى الله وإيمانا بنصره إياه.

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٤١٦).

قال لابنته وعينها تهمي بالدمع: لا تبكي يا بنية! فإن الله مانعُ أباك. ثم كان يردد: والله ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب.

المشهد: سفيه . . وتراب . . ونبي!

أما السفيه: فما أكثر السفهاءَ الذين يعترضون دعوة الحق ورجال الحق! هذا السفيه لم يحركه سفهه إلى ذلك الصنيع الوضيع إلا لمجرد رؤيته لشخص الداعية، وكأن صورة النبي ﷺ وهيئة الرجل الصالح أمامه تثير غضبه الأهوج، وتستفز مشاعره الخبيثة؛ التي تتمخّض عن قبح الفعال وسوء المقال.

إن شأن السفهاء لن يتغير في مجابهة الدعوة، وهم الذراع اليمنى لمعسكر الباطل، فكم لاقى النبي ﷺ من سفهاء قريش!.

ووَيحَ السفهاء! مع وضاعة أنفسهم، ونذالة قدرهم، تراهم أشد الناسِ كبرًا، وأقواهم في غمط الناس، وغمص إنسانية الإنسان، قال محمد ﷺ: "إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَازْدَرَى النَّاسَ"[1].

وهم دومًا قواد الحملات الإعلامية ضد الحق، فيشوّهون معالم الجادة، ويضلون الناس عن المحجة: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًا﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وأما التراب: فهو وسيلة الإيذاء، وتُصنع من التراب كل وسائل الإيذاء، ففي وقت تكون الوسيلة حجارة ـ وهي من التراب ـ تنزل على جسد الداعية كما حدث لخير البرية في رحلة الطائف، وقد تكون الوسيلة سياطا ـ هي من نبت الأرض ـ، تتنقل بين أيادي الظالمين عبر قنوات الأزمنة، مثل أُبي بن خلف، وقد تكون وسيلة ضرب الدعوة حصار ـ هو من التراب ـ مثل حصار النبي ﷺ وقومه في الشعب.

(١) أخرجه أحمد، (٨/٣٨٩)، وصححه الألباني في السلسة، (١٦٢٦).

قال الله وهو يحكي ما يقوله أهل الباطل: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

فقال أهل الحق بكل ثبات: ومالنا لا نسجنه في الدنيا بسجن الآخرة و"الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ" ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وأما النبي: فهو بطل الصراع في الدنيا والآخرة، أكرِم به رفعة! فما أعظمَه، وهو يواجه جحافل الباطل، ثابتًا راسخًا، قائلاً في ثقة: "إن الله مانع أباك"!

إن تراب الدنيا لو اجتمع فلن يطمر نور الشمس، وإن وسائل الإيذاء لو اجتمعت فلن تُطفئ دعوة الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

يأبى الله .. فالصبر الصبر! والثقةَ الثقةَ!

ما لبث النبي ﷺ بعد أن فقد هذين النصيرين أن رأى قريشا تزيد في إيذائه، وكان من أيسر ذلك أن اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فرمى على رأسه ترابا، فدخل إلى بيته والتراب على رأسه؛ فقامت إليه فاطمة ابنته، وجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي.

وكما اشتد إيذاء أهل مكة على النبي ﷺ بعد وفاة عمه اشتد تنكيلهم أيضًا بأصحابه، حتى عزم رفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه على الهجرة عن مكة، فخرج حتى بلغ بِرْك الغِمَاد، يريد الحبشة، فأرجعه ابن الدُّغُنَّة في جواره، ولكل هذه الآلام التي تعرّض لها النبي ﷺ في هذا العام سمي بعام الحزن.

أبو جهل يحاول اغتيال النبي ﷺ:

لما قام رسول الله ﷺ عن جمع قريش، خاطبهم أبو جهل في كبريائه وقال: يا معشر قريش، إن محمدًا قد أبى إلّا ما ترون من عيب ديننا، وشتْم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا.

وإني أعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبدًا، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرًا كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، فقام يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل.

فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا ممتقعًا لونه، مرعوبًا قد يبست يداه على حجَره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟

قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فَحْلٌ من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هَامَتِه، ولا مثل قَصَرَتِه ولا أنيابه لفحل قط، فَهَمَّ بي أن يأكلني.

قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: "ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه"(١).

(١) ابن إسحاق: السير والمغازي، (١٧٢).

النبي ﷺ بين عقلية النصارى واليهود

حتى عام الحزن، كانت نجران ويثرب تبدوان بعيدتين عن مسرح الأحداث. وفي نجران مركز النصرانية في بلاد العرب. وفي يثرب وما حولها من شمال الحجاز، تجمعات يهودية.

وقد يظن ألا يختلفَ موقف نصارى نجران من الإسلام عن موقف يهود الشمال، وهؤلاء وأولئك أهل كتاب يتلون التوراة والإنجيل ويصدقون برسالات الله.

لكن موقفهما في الواقع التاريخي كان جدَّ مختلفٍ: نصارى نجران: عرب مؤمنون، فيهم رهبان بررة، كانوا هناك ملءَ القلوب والأسماع، إخلاصا في العبادة، وعزوفا عن الشهوات، وبُعْدًا عن أعراض الدنيا.

ويهود يثرب: أجانب طارئون دخلاء، يدّعون الموسوية ذريعة إلى استغلال الناس، وفيهم أحبار ذوو عدد، شُغلوا عن الدين بالدنيا.

نصارى نجران:

بعث النبي ﷺ، ونجران على نصرانيتها. وكان نصاراها بشهادة مؤرخي الإسلام: «أهلَ فضل وتقوى واستقامة» وقد سمعوا بأخبار المبعث من جيرانهم وأهل ملتهم نصارى الحبشة، وتوقعوا أن يكون ليهود دور خبيث مع الدين الجديد، وإن لم يكن هذا الدور قد بدأ بعدُ.

وكان لا بد لنصارى نجران من أن يطمئنوا إلى رأي في الإسلام ونبيه العربي الأمي، وذلك ما لا سبيل إليه في دوّامة الأخبار والشائعات التي تتعثر وتضطرب

في طريقها إليهم، فتأتيهم مشوّشة مختلطة. فقرروا إرسال وفد منهم إلى مكة، يأتيهم بالخبر اليقين عن هذا الدين الجديد، ليكونوا منه على بينة.

أخذ الوفد طريقه شمالا إلى مكة، عشرون رجلا من أهل الرأي والعلم فيهم، يلتمسون أن يلقَوا نبي الإسلام ويكلموه وينظروا فيما جاء به، بعد ستة قرون وبعض قرن، من ميلاد المسيح عليه السلام.

وفي الحرم المكي، كان اللقاء. دنوا من الرسول ﷺ، وقد أخذ مجلسه عند الكعبة، فسألوه في دينه، وحدثهم ﷺ، فعرفوا أنه الحق من ربهم، وتلا عليهم القرآن، ففاضت أعينهم من الدمع خشوعا، وتفتحت قلوبهم المؤمنة لتلك الكلمات تخشع لها صمّ الجبال، واستجابوا لله.

وفي طريقهم من مجلس الرسول ﷺ، عرض لهم أبو جهل بن هشام في نفر من طواغيت قريش، شق عليهم أن يصدق هؤلاء النصارى، وهم أهل كتاب، بنبوته ﷺ، فيوقعوا الريبة في نفوس العرب، من تكذيب المشركين من قريش.

قالوا لهم: خيّبكم الله من ركب! بعثكم مَن وراءكم مِن أهل دينكم، ترتادون لهم؛ لتأتوهم بخبر الرجل، فلم يطمئنَّ مجلسُكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال. ما نعلم ركبا أحمقَ منكم.

رد المؤمنون: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسنا وقومنا خيرا [1] ويروى أن هذه الآيات، من سورة المائدة، نزلت فيهم: : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٤].

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (٣٢/٢).

www.almoslih.net

يهود يثرب:

لكن ماذا عن موقف عصابات يهود في يثرب من رسول الإسلام الذي طالما بشروا بمبعثه، مصدقا لما معهم من التوراة والإنجيل، وما عرفهم التاريخ إلا قتلَةَ الأنبياء وأعداءَ كلِّ دين؟

كمنوا هناك في مستعمراتهم بالشمال الحجازى، يرصدون المواجهة الأولى بين الإسلام والوثنية، وأسماعهم مشدودة إلى مكة، تلتقط أنباء الصراع الدائر هناك.

وفى حسابهم أن قريشا سوف تتكفل بالقضاء على الدعوة الجديدة في مهدها، فتريح اليهود الذين ما هدأ لهم بال منذ نزلت الكلمات الأولى من القرآن الكريم، خوفا من أن يكشف عما زيفت يهود من الديانة الموسوية، وما حرّفت من التوراة التي اتّجروا بها، وراحوا يمنّون على العرب الأميين بأنهم أهل كتاب.

وإن مثلهم فيما حملوا من التوراة ثم لم يحملوها: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٥].

وإذ ألقت قريش بكل ثقلها في مقاومة الإسلام، توارت يثرب عن مسرح الأحداث، حتى كانت أم القرى هي التي اتصلت بها، والجولة المكية في عنفوان احتدامها: لقد راب قريشا في أمر الدين الجديد الذي تصدّت لمقاومته في بغي وعناد، ثباتُ النبي ﷺ والذين معه في وجه الوثنية الطاغية، وتفانيهم في سبيل عقيدتهم، لم يردَّهم عنها أذى مهلك ولا حصار منهك، ولم تفلح معهم مساومة ولا مفاوضة.

ولقد جاوزت قريش المدى في اضطهاد الدعوة، والمسلمون يزدادون مع الأذى صمودا واستبسالا، وإن أحدهم ليلقى الموت في سبيل دينه، ووجهه يتألق بنور الإيمان والغبطة والرضا.

أفيمكن أن يكون هذا كله، في سبيل دعوة كاذبة ورسالة مفتراة!؟ وما الذي يَعِدُ به محمدٌ أصحابَه؟ إنه لا يملك أن يردّ عن نفسه أذى قريش إلا أن يشاء ربُّه، فضلا عن أن يردّه عمن اتبعوه وآمنوا برسالته.

وهو قد باع الدنيا ليدعو إلى ربه، فليس لديه مال يعوّض به الذين أوذوا في سبيل دعوته، وخرجوا من ديارهم وأموالهم مهاجرين بدينهم من الفتنة والبلاء. إنما يعدهم محمد ثواب الآخرة، ويبشرهم برضوان من ربه.

وغاظ اليهود أن تشتد وطأة قريش على المسلمين؛ فلا ينفد لهم احتمال، ولا يغلب لهم صبر!

كما غاظهم أن يطول صبر قريش على الموقف، فتلجأَ إلى المساومة والمفاوضة، وإلى الإيذاء والاضطهاد، ثم إلى المقاطعة والحصار، دون أن تتجاوز بالموقف حافة الحرب!

فمتى يفلت الزمام من أيدي المكيين فتخرج السيوف من أغمادها؛ لتنهي الصراع الذي طال سنين؟

في مثل هذا كانت يهود تفكر، حين جاءها خبر من مكة عن تشاور قريش في إرسال وفد منها إلى يثرب، يستفتي لها أحبار يهود في أمر النبي، بما لديهم من علم الكتاب.

واستعدّ اليهود للفرصة المواتية: شهدتْهم مستعمراتُهم في يثربَ وتيماءَ وخيبر وفدك ووادي القرى. يجتمعون إلى أحبارهم ويتدارسون.

وتذاكروا فيما بينهم أنهم الذين روّجوا في العرب لبشرى نبي حان مبعثُه، وأنهم كذلك، طالما منّوا على العرب الأميين بأنهم أهل كتاب ودين، وهذا النبي العربي يدعو إلى دين مصدّق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، فكيف السبيل إلى تكذيب اليهود بمن بشروا بمبعثه؟

www.almoslih.net

ومن أي طريق يُظاهرون عبدةَ الأوثان على داعٍ إلى عبادة الله، ربِّ موسى وعيسى، وإبراهيم وإسحق وكل الأنبياء المرسلين؟

الموقف بالغ التعقيد والحرج، ولكن هل يخونهم دهاؤهم فلا يسعفهم بما يحتالون به عليه؟ إنها فرصة سانحة للكيد للإسلام وقريش معا، لو تركوها تفلت منهم لعقوا دماءهم.

من هنا التشاور والمدارسة والتواطؤ، احتيالا على الموقف الصعب والتماسا لمخرج منه، وإعدادا للفتوى يقدمونها إلى وفد قريش المنتظر.

تسامع بنو هاشم بما عزمت عليه قريش من استفتاء يهود يثرب في نبوة محمد ابن عبدالله، فتوجسوا شرا من هذه العصابة الخبيثة، واسترجعوا ذكرى بعيدة للعم أبي طالب بن عبدالمطلب، حين مر بالراهب بحيرى في طريقه إلى الشام في رحلة صيف.

وكان قد صحب معه ابنَ أخيه محمدا، غلاما لم يبلغ العاشرة بعد. فلما رآه الراهب بحيرى توسم فيه مخايل غد موعود، ونصح لعمه أن يعود به إلى بلده، وأن يحذر عليه شرَّ يهود [1].

وقد مر على ذلك التحذير نحوُ أربعين سنة، نسي فيها بنو هاشم ما كان، وغاب صوت الراهب التقي العابد في ضجيج الأحداث وكَرِّ السنين، حتى بدا لقريش أن تستفتي في أمر محمد، هؤلاء اليهود الذين ذكرهم الراهب بحيرى لعمه أبي طالب، وحذره على ابن أخيه من شرهم.

وإذ لم يكن في استطاعة بني هاشم أن يردّوا قومهم قريشا عما أرادوا، وقد فسد ما بينهم منذ انحازوا إلى أبي طالب في منع الرسول ﷺ من قريش، لم يبق إلا أن ينتظروا وتنتظر مكة كلها، ما يكون من فتوى يهود.

(١) ابن هشام: السيرة، (١/ ١٩١).

أخذ النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط طريقهما إلى يثرب، موفَدين من قريش إلى أحبار يهود، التماسا لرأيهم في أمر محمد ودعوته.

وكانت يهود قد استعدّت للقائهما وأعدّت فتواها. أسعفها مكرها فلم تفجأ قريشا بجحدٍ صريحٍ لنبوة طالما بشرت بها، ولا بإنكار مباشر لدين يرفض عبادة الأوثان، ويدعو إلى عبادة رب موسى وسائر الأنبياء.

وآثرت أن تشغل القوم بمسائل تبلبل أفكارهم، وتُعْنِتُ نبي الإسلام، فكانت فتوى الأحبار للنضر وعقبة، أن يعودا إلى قومهم فليسألوا هذا الداعي عن ثلاث.

قالوا: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب.

وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟

وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم [1].

وعاد الرجلان إلى مكة، فاتجها فور وصولهما إلى منتدى قريش، فأبلغاهم فتوى أحبار اليهود، وعجلوا إلى النبي الأمي ﷺ يُعنِتُونه بالمسائل الثلاث، فما درى ﷺ بم يجيب عنها، وما كان يتلو من قبل القرآن من كتاب ولا يخطّه بيمينه.

واستمهلهم في الجواب عما سألوا عنه، عسى أن يتلقى الوحي بما يقول فيها، لكنهم ألحوا عليه بإعناتهم، وقد عرفوا ألا جواب لديه عما يسألون من فتوى أحبار يهود، حتى نزل قوله تعالى في الروح: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وبعدها نزلت سورة الكهف، وفيها الخبر عن أمر الفتية أصحاب الكهف: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى

(١) ابن هشام: السيرة، (١/ ٣٢١).

ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ
فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ
نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ٩-١٣].

ومعها الآيات عن ذي القرنين الطواف: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ
عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا
﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا
ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٣-٨٦]، إلى آخر الآيات
من سورة الكهف.

وخاب مكر يهود وحبِط سعْيُهم، وصدق الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم
بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ
صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾
[الكهف:١٠٣-١٠٦].

البَحثُ عَن أنصَار

رحلة الطائف:

بعد عقد من الزمان أمضاه النبي ﷺ في دعوة الوثنيين في مكة، وكانت سنواتٍ حافلةً بالإيذاء والتعذيب والسجن، و أيقن ﷺ أن الملأ من قريش سيظلون فيما هم فيه من عناد وكفر، وأنهم لن يؤمنوا حتى يأتيهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين.

فتولى عنهم وانتظر قضاء الله فيهم، وعزم أن يتوجه بدعوته إلى غيرهم، خاصة بعد أن رفض أهلُ مكة بذرة التوحيد، فحاول ﷺ أن يجد لها تربة أخرى، عسى أن تَقبَل منه ﷺ هذه البذرة المباركة فتؤتي ثمارها بإذن ربها.

وكان على النبي ﷺ أن يبحث عن أفضل الأماكن لتقبل تلك البذرة، فتابع النبي ﷺ دعوته عارضا ذلك على القبائل في المواسم[(١)]، ولم يكن هذا العرض بطريقة عشوائية؛ بل كان بعد دراسة متأنية وفاحصة لأمر كل قبيلة ومدى مؤهلاتها.

فكان النبي ﷺ يذهب إلى القبائل ومعه أبو بكر الصديق، فيقول: "مِمَّن القوم؟ فيقولون: من بني فلان. ويبدو أن هذا السؤال كان يقصد به التعرف على القبيلة، وعددَها، ومدى قدرتها على مجابهة قريش والخروج على سلطانها [(٢)].

لذلك فإن النبي ﷺ سأل إحدى القبائل فقالوا: نحن بنو شيبان.

(١) ابن هشام: السيرة، (٣٧٥/١، ٣٧٦). ابن سعد: الطبقات، (٢١٠/١). البلاذري: أنساب، (٢٣٥/١١-٢٣٦).

(٢) ابن إسحاق: المغازي، (ص٢١٥-٢١٩)، ابن هشام: السيرة، (٤٢٢/١- ٤٢٥).

فقال أبو بكر: «أليس بعد هؤلاء عز في قومهم»[١].

فسألهم النبي ﷺ: «كيف العدد فيكم؟».

فقالوا: نزيد على الألف، وما تُغلب ألف من قلة.

قال: «فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟».

فقالوا: مرة يُدال لنا، ومرة يُدال علينا، والنصر من عند الله[٢].

في شوال من العام العاشر للبعثة، رأى النبي ﷺ وأحسَّ من قومه الصدود، وبعد دراسة أحوال القبائل جميعا رأى أن أقوى القبائل العربية وأعزها بعد قريش[٣]. هي قبائل الطائف: ثقيف، وهوازن، وهاتان القبيلتان تحملان لواء التنافس مع قريش، وقامت بينهما حروب كثيرة نتيجة لذلك؛ ففكر النبي ﷺ بالخروج إلى الطائف[٤].

ولو أنها أسلمت لأصبحت قوة ورصيدا لهذه الدعوة يمكن أن تحميَها، وتدافعَ عنها، وتصدَّ أذى أهل مكة وغيرهم من العرب، فسار النبي ﷺ على قدميه إلى الطائف وحيدا، وبينها وبين مكة قرابةَ ستين ميلا، فما كان يملك راحلةً يركبها، خرج يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه.

فالطائف فضلا عن أنها كانت مصيفَ أهل مكة لجمال جوّها وحلو أعنابها، قد كانت مستقر عبادة اللات، وكان لها هناك صنم يُعبد ويُحَجُّ إليه. فلو أنّ ثقيفا تابعت محمدا لفقدت اللات مكانتها، ولقامت بينها وبين قريش خصومةٌ، تترك لا ريب أثرَها الاقتصادي في موسم الاصطياف.

(١) ابن سعد: الطبقات، (١/٢١٦).

(٢) ابن هشام، السيرة، (١/٤١٩-٤٢١). ابن سعد، الطبقات، (١/٢١٢). البلاذري: أنساب، (١/٢٣٧). الطبري: تاريخ، (٢/٣٤٤،٣٤٥).

(٣) ابن هشام: السيرة، (١/٤٢١). ابن سعد: الطبقات، (١/٢١٢).

(٤) انظر ابن سعد: الطبقات، (١/٢١٨). البلاذري: أنساب، (١/٢٣٩).

علاوة على أن الطائف تمثّل عمقا استراتيجيا لملإ قريش، بل كانت لقريش أطماع في الطائف، ولقد حاولت في الماضي أن تضم الطائف إليها، ووثبت على وادي وج، وذلك لما فيه من الشجر والزرع، حتى خافتهم ثقيف وحالفتهم، وأدخلت معهم بني دوس.

وقد كان كثير من أغنياء مكة يملكون الأملاك في الطائف، ويقضون فيها فصل الصيف، وكانت قبيلةُ بني هاشم وعبد شمس على اتصال مستمر مع الطائف، كما كانت تربط بني مخزوم مصالح مالية مشتركة بثقيف.

فإذا اتجه الرسول ﷺ إلى الطائف، فذلك توجّهٌ مدروس، وإذا استطاع أن يجد له فيها موضعَ قدم، وعصبةً تناصره، فإن ذلك سيفزع قريشًا، ويهدد أمنها ومصالحها الاقتصادية تهديدًا مباشرًا، بل قد يؤدي لتطويقها وعزلها عن الخارج.

وهذا التحرك الدعوي السياسي الاستراتيجي، الذي يقوم به الرسول ﷺ يدل على حرصه في الأخذ بالأسباب، لإيجاد دولة مسلمة أو قوة جديدة، تطرح نفسها داخل حلبة الصراع؛ لأن الدولة أو إيجاد القوة التي لها وجودها، من الوسائل المهمة في تبليغ دعوة الله إلى الناس.

ويلاحظ في هذا الخروج: أن النبي ﷺ يفكر لأول مرة في نشر الدعوة خارجَ مكة، وتغير مركز الانطلاق.

وقد كان أشراف ثقيف يومئذ عبد ياليل، وحبيب ومسعود بن عمرو، فلما أتاهم رسول الله ﷺ دعاهم إلى الله:

فقال أحدهم: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟.

وقال الآخر: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.

وقال الآخر: إن كان كما تقول، ما ينبغي لي أن أكلمك إجلالا لك، وإن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك[(١)].

فقام رسول الله ﷺ وقد سمع ما يكره، ولم يستجب له أحد منهم ورجع منهم بشرّ جواب.

وهنا يطلب منهم النبي ﷺ، ألا يذكروا من استنصاره بهم شيئا؛ حتى لا يشمت به قومه. ولكن هذا الطلب أيضًا لم يجد آذانا مصغية، بل وقع على قلوب قاسية، لا تعلم للرفق ولا للإنسانية معنى.

فلم يسمعوا له، وزيادة في نكايته أغروا به سفهاءهم وصبيانهم يسبّونه ويصيحون به، بل ويرجمونه بالحجارة، حتى فر منهم إلى ظل بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فاحتمى به، فرجع السفهاء عنه[(٢)].

فلما اطمأن رفع عليه السلام رأسَه إلى السماء ضارعا في شكاية وألم وقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، وأنت ربي. إلى من تكِلُني! إلى بعيد يتجهّمني، أو إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبَك، أو تُحلّ عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى؛ ولا حول ولا قوة إلا بك»[(٣)].

---

(١) ابن حبان: السيرة النبوية، (ص٦٩) .

(٢) انظر: السهيلي: الروض الأنف، (٢/ ٢٢)، ابن سعد: الطبقات، (١/ ٢٢١).

(٣) ذهب إبراهيم العلي إلى صحته، وبين أن للحديث شاهدًا يقويه ولذلك اعتبره صحيحًا وذكره في كتابه صحيح السيرة النبوية، (ص١٣٦)، وذهب الدكتور العمري إلى تضعيف الحديث في كتابه السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٨٦) وذهب الدكتور عبد الرحمن عبد الحميد البر مدرس الحديث وعلومه في جامعة الأزهر إلى أن الحديث بطريقيه قوي مقبول، وخرج طرقه في كتابه الهجرة النبوية المباركة، (ص٣٨).

لقد كانت إصابته النفسية كبيرة، إلى الدرجة التي نراه لأول مرة يشكو إلى الله قلة حيلته، وضعف قوته، وهوانَه على الناس.

«اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو».

صلى الله عليك، علمتنا أن الشكاية واللجوء إنما يكون إلى الباري جل في علاه، يجيب المضطر، ويكشف الضر، ويشفي السقيم، ويقضي الحاجات: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

«إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي، وَقِلّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ».

كلا! أنت الأقوى بين بني البشر! وأنت الأعلى وأنت الأعظم بين البرية، يا خير الورى، صلوات الله وسلامه عليك.

بل هم أهل الهوان؛ إذ هانوا على أنفسهم، وكذبوا دعوتك، وحجبوا عن قلوبهم نورك. هم الأهون والأذل، والله ليردنك الله إلى ثقيف وأنت العزيز وهم الإذلاء، حتى إذا قهرتهم في غزوة حنين في العام الثامن من الهجرة، وقتلت منهم وأسرت، جاءوا إليك معتذرين، يطلبون سباياهم، فتفك نساءهم من الأسر وأولادهم من الرق، وتعفو وتصفح الصفح الجميل، فيدخلوا في الإسلام وافرين:

زانتك في الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهن ويولع الكرماء
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى ... وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادرا ومقدرا ... لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أمٌّ أو أبٌ ... هذان في الدنيا هما الرحماء
بك يا ابن عبدالله قامت سمحة ... بالحق من ملل الهدى غراء

«يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ! أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي».

سينصرك الله نصرًا عزيزًا، وينصر جنودك وأتباعك وتلاميذك إلى قيام الساعة، ستنكشف الغمة، وتفيق الأمة، سيندمل الجرح يا رسول الله، وسيمكن الله لدعوتك، ويستخلف الله عباده المستضعفين، فيرفعوا رايتك، ويطبقوا شرعتك ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩].

«إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي».

لا تبال! إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ.

لا تحزن! سيفتح الله لك قلوب الأبعدين، وسيمكنك الله من رقاب العَدُوِّين، فلا يتجهمك الأول ولا يملك أمرك الثاني، بل ستملك زمامهما رغبًا أو رهبًا، وَلَنْ يَجْعَلَ الله لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً.

«إِنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيَّ غَضَبٌ فَلاَ أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي»..

ما أعظمَ نفسَك الكريمة! تتهم نفسك بالتقصير، وما قصرت قيد أنملة، لا تبال! فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر!

«أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سُخْطُك».

تسأل ربك أن يعيذك بوجهه الكريم من غضبه وسخطه! فكيف بنا وكلنا ذنوب!

لا تبال، قد أعاذك ـ ولله الحمد ـ بنور وجهه الكريم، الذي أشرقت له الظلمات من غضبه، فاللهم لا تغضب علينا.

قد أعاذك ولله الحمد بنور وجهه الكريم الذي صلح عليه أمر الدنيا والآخرة من سخطه، فاللهم ارحمنا وارض عنا.

«لَك الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى».

تتحبب إلى ربك، وتتلطف إليه، وتتودد، وتؤكد على غايتك الكريمة، وهي رضا مولاك، فله أن يعاتبك حتى يرضى عنك. لا يضيرك شيء ما دام الله راضيا عنك، لا يحزنك شيء طالمًا الربُّ يحبك.

«وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلّا بِك».

تتبرأ من كل حول، ومن كل طَوْلٍ، ومن كل قوة إلا قوة الله وحوله وطوله، أنت لا تعترف بأي قوة إلا قوة الله، فأنت قوي بالله، ولن يخزيك أرحم الراحمين.

قَالَتْ عائشة ﵂ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِك، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ(١)، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ.

فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ(٢)، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِك لَك وَمَا رَدُّوا عَلَيْك، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْك مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ.

فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِك لَك، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّك إِلَيْك لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِك فَمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الأَخْشَبَيْنِ»(٣)(٤).

(١) ابن عبد ياليل بن كلال من أكابر أهل الطائف من ثقيف. الفتح، (٦/٣١٥).
(٢) موضع بالقرب من مِنَى بمكة كانت الثعالب تأوي إليه، الفتح، (٣/٣٨٥).
(٣) الاخشبان: هما جبل أبي قبيس وامتداده الى الخندمة، وجبل قعيقعان وامتداده إلى جبل الهندي المقابل له، وفي قول: أبو قبيس والجبل الاحمر، (اطلس الحديث النبوي، شوقي أبو خليل، (ص ٢٦).
(٤) مسلم، (٣٣٥٢).

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

نسمات إيمانية من الطائف:

جلس النبي ﷺ إلى ظل البستان، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ينظران إليه يرقبانه من بعيد، ويريان ما هو فيه من شدة الكرب.

وبينا هو كذلك إذ «تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما يقال له: عداس، فقالا له: خذ له هذا القطف من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه. ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له: كل.

فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال: بسم الله. ثم أكل، فنظر عداس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.

فقال له رسول الله ﷺ: ومن أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصراني وأنا من أهل نينوى.

فقال رسول الله ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى.

قال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ والله لقد خرجت منها ـ يعني من أهل نينوى ـ وما فيها عشرة يعرفون ما يونس بن متى؟، فمن أين عرفت أنت يونسَ بن متى، وأنت أميّ وفي أمّة أمّية؟.

قال رسول الله ﷺ: ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي. فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك! ما لك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

قال: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا الرجل، لقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبي. قال: ويحك يا عداس لا يصرفنَّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه»[(١)].

لقد أيقن عداس بنبوة رسول الله ﷺ، وتبين له صدقه، ويدل على ذلك ما قاله لسيدَيه عتبةَ وشيبةَ ابني ربيعة لما أرادا الخروج إلى بدر، وأمراه بالخروج معهما، حيث قال لهما: قتال ذلك الرجل الذي رأيت في حائطكما تريدان؟ فوالله لا تقوم له الجبال، فقالا: ويحك يا عداس قد سحرك بلسانه[(٢)].

كما كان في قول عداس: والله ما على الأرض خير من هذا، مواساة عظيمة، فلئن آذاه قومُه، فهذا وافد من العراق، من نينوى، يكبُّ على يديه ورجليه ويقبلهما، ويشهد له بالرسالة، وإن هذا لَقَدَرٌ رباني، يسوق من نينوى من يؤمن بالله ورسوله، حيث كان الصد من أقرب الناس إليه.

ولقد كانت هذه الرحلة تعلق كثيرا في ذاكرة النبي ﷺ نظرا لما تعرض فيها من الأذى وبعد السفر.

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سألت رسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدَّ من يوم أحد؟

قال: «لقد لقيت من قومِكِ ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت.

فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد: الصالحي الشامي، (٢/٤٣٩)، ابن حبان: السيرة النبوية، (ص٦٩).

(٢) انظر: ابن كثير: السيرة، (٢/١٥١)، ابن هشام: السيرة (٢/٢٦٩).

www.almoslih.net

فناداني ملك الجبال، فسلم عليَّ ثم قال: يا محمد فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين». فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشركُ به شيئًا»(١).

هكذا كانت رحمته ﷺ حتى بأعدائه وذرياتهم، وكانوا إذا طلبوا منه الاستسقاء فإنه يدعو الله تعالى لهم بذلك ويستجيب له(٢).

وهكذا كانت رحمته ﷺ في الإحسان مع المشركين، ولقد آتت ثمارها بأن رأوا صِدْقَ هذا النبي ﷺ ولطفه بهم وحنانه عليهم، مما جعل الكثير منهم يعلنون كلمة التوحيد الخالدة، وغدوا قادة الأُمم بنعمة هذا الدين.

كل ذلك بفضل القيام بحق الناس من الدعوة، وطلب الخير من الله تعالى حتى ولو كانوا مشركين، وقد كان دعاء النبي ﷺ تطبيقًا عمليًا لهذا الحق الذي ترك أثره في النفوس، وأبرز معجزة نبوية في جلب الخير ودفع الشر.

وفي هذا العمل يبرز حكم شرعي في جواز الاستسقاء للمشركين من أجل الدعوة إلى الله تعالى.

من خلال هذه الرحمة نتخيل لو كان حيًا بين ظهرانينا، فماذا يصنع بهؤلاء الذين تكلموا فيه؟ فهو لم يرضَ أن يعاقب أولئك الذين آذوه باللسان والسنان وبالأقوال والأفعال! لا شك أنه سيبلِّغهم الدعوة، وإذا استجابوا فإنه سيشفع لهم عند الله تعالى ليدخلوا جنة عرضها السموات والأرض!

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، حديث رقم (٣٢٣١)، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم (١٧٩٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الدخان، حديث رقم (٤٨٢١).

إسلام الجن:

لقد حققت رحلة النبي ﷺ إلى الطائف بعضَ الانتصارات الدعوية فقد أتت ببعض الثمار، التي منها إسلام عداس النصراني ﷺ، كما أنه بعد عودته من الطائف هبّتْ نسمات إيمانية أخرى، فهذه المرة لم يسلم البشر بل أسلم مجموعة من جن نصيبين(١)، وانطلقوا إلى قومهم منذرين حينما سمعوا صلاة النبي ﷺ.

يقول ابن هشام: «ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعا الى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلّي، فمرَّ به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم فيما ذكر لي سبعة نفر من جنِّ أهل نصيبين، فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٠]»(٢).

وأصبح اسم محمد ﷺ تهفو إليه قلوب الجن، وليس قلوب المؤمنين من الإنس فقط، وأصبح من الجن حواريون، حملوا راية التوحيد، ووطنوا أنفسهم دعاة إلى الله. ونزل في حقهم قرآن يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها(٣).

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ

(١) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام، (معجم البلدان: ٥/٣٣٢).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، (٢/٢٦٩).

(٣) الصلابي: السيرة النبوية، (ص١٩١).

﴿وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا
مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ
شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا
مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا
وَلَا رَهَقًا﴾[الجن: ١-١٣].

أنزل الله سبحانه وتعالى سورة الجن إثر سورة نوح تبكيتا لقريش والعرب في كونهم تباطأوا عن الإيمان، إذ كانت الجن خيرًا منهم، وأسرعَ إلى الإيمان، هذا وهم من غير جنس رسول الله ﷺ، ومع ذلك فعندما سمعوا القرآن استعظموه، وآمنوا به للوقت، وعرفوا كونه معجزا، وهم مع ذلك مكذبون له ولمن جاء به بغيًا وحسدًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده[1].

وبعد عدة أشهر من لقاء الوفد الأول من الجن برسول الله ﷺ جاء الوفد الثاني متشوقًا لرؤية الحبيب المصطفى ﷺ والاستماع إلى كلام رب العالمين.

فعن علقمة قال: سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا: استُطِير أو اغتيل، قال: فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم.

فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا شر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن».

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (١٩٧/٢).

قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»[1].

كان هذا الفتح العظيم والنصر المبين في عالم الجن إرهاصًا وتمهيدًا لفتوحات وانتصارات عظيمة في عالم الإنس، فقد كان اللقاء مع وفد الأنصار بعد عدة أشهر.

لما انصرف الرسول ﷺ عن أهل الطائف، ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه من تصديقه ونصرته سار إلى حراء، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف والحليف لا يجير. فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال: إن بني عامر لا تجير على بني كعب.

فبعث إلى المطعم بن عدي فأجابه إلى ذلك، ثم تسلح المطعم وأهل بيته وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل فدخل رسول الله ﷺ، فطاف بالبيت، وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله[2] ليعود إلى الكفاح من جديد، وليستأنف تبليغ الدعوة في هذا الجو العاصف المليء بالأخطار والمخاوف.

عرفت قريش ما أصاب محمدا ﷺ من أذى ثقيف، وما صنعته به من تسليط السفهاء والصبيان عليه، ورجمه حتى دميت قدماه، فشجعها ذلك على أن تزيد في إيذائها له ﷺ ولأتباعه، ظنا منها أنه سوف يلين يوما ما ويترك دعوته خاصة بعد أن رجع ﷺ من الطائف ـ من وجهة نظرها ـ بخفي حنين.

وبناء على هذه النظرة استمر الإيذاء والتنكيل والعداوة لهذا الدين الجديد، ولقد كان النبي ﷺ يزداد إصرارا على تبليغ دعوة ربه كلما ازداد إيذاء قريش له،

(١) مسلم، كتاب الصلاة، (٣٣٢/١) رقم (١٥٠).
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (١٧/٣).

www.almoslih.net

فلم يصرفه شيء عن الدعوة إلى دين الله، وأخذ يبحث عن طرق أخرى يدعو فيها إلى الله عز وجل.

فرأى أن العرب يحجون ويعتمرون إلى بيت الله باستمرار، فوجدها فرصة سانحة للدعوة، وطريقا لا بد أن يسلك عسى أن يكون فيه الخير الذي يرجوه، وكان ذلك في ذي القعدة السنة العاشرة من البعثة [(١)].

بين خيام الحجيج:

يقول ابن إسحاق: قدم رسول الله ﷺ مكة ـ أي بعد عودته من الطائف ـ وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه، وفراق دينه إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به، فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه به الله[(٢)].

أقدم النبي ﷺ في موسم الحج على ست وعشرين محاولة، أي قابل ستا وعشرين قبيلة يجلس مع كل واحدة يعرض فكرته والإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، وقوبل ﷺ بأشكال شتى من ردود الأفعال.

ومن هذه المحاولات نتعلم نحن عدم اليأس، ويتعلم كل من يمر بظروف يائسة سواء كان أبًا أو أمّا، أو طالبًا فشل مرة في دراسته ويتوق إلى النجاح، أو رجلًا يخطط لحياته أو من هو عاطل عن العمل، أو من يمر بمشكلة عائلية، فالنبي ﷺ ذاته مر بست وعشرين محاولة.

لقد رسم النبي ﷺ من مخاطبة القبائل هدفا واضحًا في ذهنه، فكان يريد الخروج من مكة إلى قبيلة تحميه كي يبلغ رسالة الله تعالى، فلنستعرض ردود أفعال القبائل المختلفة:

(١) ابن سعد: الطبقات، (١/٢١٨). البلاذري: أنساب الأشراف، (١/٢٣٩).
(٢) ابن هشام: السيرة، (٢/٢٧٠).

قام النبي ﷺ يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الحق، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدّقوه، غير أن عمه عبد العزى بن عبد المطّلب أبا لهب لم يكن يدعه، بل كان يتبعه أينما ذهب ويحرّض الناس ألا يستمعوا له.

ولم يكتف ﷺ بعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج بمكة، بل أتى كندة في منازلها، وأتى كلبا في منازلها، وأتى بني حنيفة وبني عامر بن صعصعة، فلم يسمع منهم أحد، وردّوه جميعا ردّا غير جميل، بل ردّه بنو حنيفة ردّا قبيحا[(١)].

ونعرض هنا نموذجا من عرض النبي ﷺ نفسه على قبائل العرب، حتى تتبين ما كان يعانيه النبي ﷺ من قومه ومن القبائل الأخرى، من صلف ومعاندة.

وكانت له مقابلة تاريخية ـ أطنب فيها الباحثون ـ مع قبيلة بني شيبان، تلك القبيلة العربية التي حالفت الفرس، على ألا يؤووا مُحْدثًا.. تلك القبيلة العربية القوية التي احتضنت ثلة من نوابغ العرب كانوا من أبنائها، أمثال: المثنى بن حارثة الشيباني، وهانئ بن قبيصة، وكان من نسل هذه القبيلة فيما بعد الإمام أحمد بن حنبل ـ إمام أهل السنة ـ ويزيد بن مزيد وغيرهم من العلماء والقادة..

إذنْ نقف وقفة إكبار وإجلال عند حصافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ـ نسَّابة العرب ـ عندما اقترح على محمد ﷺ أن يعرض الدعوة على بني شيبان.

فقال أبو بكر للنبي ﷺ:

«بأبي وأمي، هؤلاء غُرَر الناس، وفيهم (مفروق) قد غلبهم لسانًا وجمالًا»[(٢)].

أي: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ـ صلى الله عليك ـ هؤلاء بنو شيبان من أكابر العرب وأحسنهم، وزعيمهم «مفروق» يفضلهم حكمة وجمالًا.

(١) الطبري: تاريخ الرسل، (٢/٣٥٤)، ابن الأثير، الكامل، (٢/٩٥، ٩٦).
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (٣/١٤٣).

www.almoslih.net

ومن ثم توجه أبو بكر برسول الله ﷺ إلى مخيم بني شيبان في عرصات الحج. ودار هذا الحوار الممتع:

تقدم أبو بكر فسلم فقال: من القوم؟

قالوا: شيبان بن ثعلبة.

فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟

فقال مفروق: إنا لا نزيد على الألف ولن تُغلبَ ألف من قلة.

فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟

فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى. وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله يديلنا مرة، ويديل علينا أخرى .. لعلك أخو قريش؟

فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله ﷺ فها هو ذا!

فقال مفروق: إلام تدعونا يا أخا قريش؟

فقال رسول الله ﷺ: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني عبد الله ورسوله، وإلى أن تُؤووني وتنصروني، فإن قريشًا قد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد».

فقال مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلامًا أحسن من هذا.

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك..

ثم رد الأمر إلى هانئ بن قبيصة فقال: وهذا هانئ شيخنا، وصاحب ديننا.

فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى تركنا ديننا، واتباعَنا دينك لِمجلسٍ جلستَ إلينا، لا أولَ له ولا آخرَ لَذلٌّ في الرأي، وقلةُ نظر في العاقبة أن الزلة مع العجلة، وإنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقدًا، ولكن نرجع وترجع، وننظر..

ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا!

فقال المثنى ـ وأسلم بعد ذلك ـ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة، في تركنا ديننا ومتابعتنا دينك وإنا إنما نزلنا بين صَرَيَين أحدهما اليمامة والآخر السَّمامة!

فقال له محمد ﷺ: «ما هذان الصريان»؟؟

قال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، أن لا نحدث حدثًا ولا نؤوي محدثًا، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكره الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب، فعلنا.

فقال محمد ﷺ قولته التي أبان فيها سمة أساسية من سمات منهج الله، وعمدةً عميدة من عماد النظام الإسلامي، أنه شاملٌ لكل مجالات الحياة، وأنه جزء واحد لا يتجزء: «ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلًا حتى يورثكم الله تعالى أرضهم، وديارهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبّحون الله وتقدسونه؟» فقال النعمان بن شريك: اللهم فلك ذاك[1].

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، (١٤٣/٣-١٤٥).

لماذا رفض ﷺ هذه الفرصة؟

إنها فرصة بكل المقاييس، أن يرى المستضعفون أنصارًا لهم على أتم الاستعداد أن يدفعوا عنهم ظلم ظالميهم من العرب، علمًا بأن المستضعفين لا يشغلهم أمر الفرس في الوقت الراهن على الأقل.. ألف فارس عربي من بني شيبان الأبطال في تمام التجهيز، في أتم الاستعداد لضرب قريش!

ولكن لماذا رفضتَ يا رسول الله؟

لا شأن لنا الآن بفرس أو كسرى، وعدونا في واقع الأمر هو ذلك الوثني القابع في مكة، الصادّ عن سبيل المؤمنين، الذي ألهب ظهور المسلمين، وحرّق جلود المستضعفين في ساحات مكة، وقتل الضعفاء أمثال سمية وياسر، وهجّر الموحدين إلى أفريقيا..!

ولِـمَ لا نرحل إلى بني شيبان، فنهاجرَ إليهم حتى إذا قويت شوكتنا على العرب، أو كره الفرس مقامنا بين إخواننا من بني شيبان، انتقلنا إلى ركن آخر ركين، فنجونا من سياط العرب وأعددنا العدة!!!

من الطبيعي أن تدور هذه التساؤلات بخلدنا!

والحق أن رسول الله ﷺ رفض عرض بني شيبان لعدة أسباب:

❶ أنه لا أنصاف حلول في الأصول، فالإسلام نظام شامل، لا يقوم إلا شاملًا، فمن ينصره على العرب لا بد أن ينصره على العجم، وإلا فلن ينتصر أبدًا، ويصير بددًا!

❷ أن الجهاد الصادق المتجرد، جزء لا يتجزء من الإسلام، فكما لا يصح إسلام قوم تعاقدوا على صلاة الظهر دون العصر، فكذلك لا يصح إسلام قوم تعاهدوا على الجهاد في وجه دون آخر .. فالصلاة وحدة واحدة لا تتجزأ، وكذلك الجهاد..

❸ أن الحصافة السديدة وبعد النظر، يقتضيان رفض عرض بني شيبان، فلقد قالوا بصريح العبارة إنهم على استعداد أن يقفوا في وجه العرب لحماية النبي ﷺ بيد أنهم لا يستطيعون ذلك مع الفرس.

فلعل الدائرة تدور، فينتقل المسلمون من جحيم العرب إلى جحيم الفرس، فيستغيث المسلم بالنار من الرمضاء .. فيجمع المسلمون على أنفسهم عدوين، إذ كيف يكون الحال لو طلب كسرى من بني شيبان "تسليم محمد"؟!

مَن حاطه من جميع جوانبه؟

إذن؛ .. من الذي سينصر دين الله؟ ومن الذي سيقيم نظام الإسلام في الأرض؟ ومن الذي سيطبّق الشرع الإسلامي السمح؟ ومن الذي سينصر الإسلام؟

نعم .. "من حاطه من جميع جوانبه"!

فكل فرد حاط الإسلام من جميع جوانبه، عقيدةً، وعبادةً، ومعاملاتٍ، وأخلاقًا، وفكرًا، وحركةً، ودعوةً، وجهادًا ـ فهو ناصر لدين الله، قائم على شرعه، وهو أحق الناس بالتمكين.

وكل دولة حاطت الإسلام من جميع جوانبه، في العقيدة والعبادة، في الأخلاق والمعاملات، في السياسة والسلطة، في الرحمة والعدل، في العلم والقضاء، في التجارة والاقتصاد، في الجهاد والجيش..

ولم تفصل بين الإسلام والسياسة ـ فالسياسة جزء من الإسلام ـ.

ولم تفصل بين الإسلام والاقتصاد ـ فالاقتصاد جزء من الإسلام كذلك ـ.

ولم تفصل بين الإسلام والتربية ـ فالتربية جزء من الإسلام أيضًا ـ....

ولم تفصل الإسلام عن الحياة، أو الحياة عن الإسلام، فالإسلام منهج الحياة، والحياة لا تصلح دون الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

"إن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه".

فلا فائدة من تلك الدعوات الجزئية، والحركات المختلة، التي اجتزأت الإسلام، فتشبثت بجزء من الإسلام ونامت عن جزء، أو أحيت جزءًا وأماتت جزءًا آخر، فهذه الدعوات أفادت وأضرّت، وأصابت وأخطأت، وقدمت وأخرتْ، وذلك لأنها لم تُحِطْ بالإسلام من جميع جوانبه.

فمن هذه الدعوات من جعلت من الإسلام مجرد تعاويذَ وتصوفٍ.

ومن هذه الدعوات من جعلت من الإسلام هجرة وانقلابًا، وتكفيرًا وتفسيقًا.

ومن هذه الدعوات من جعلت من الإسلام متونًا تُحفظ، وكتبًا تُدرس، ولا اجتهاد، وأخذت تَحفَّظ الناس: لم يُبقِ الأولُ شيئًا للآخر، وكل شر في اتباع من خلف.

ومن هذه الدعوات من جعلت الإسلام فِرَقًا ومذاهب، وفتنًا وملاحم، وليس لنا من الأمر شيء سوى انتظار المهدي المنتظر، والمجدد المعتبر، وما علينا من واجب سوى أن نعض بجزع شجرة، ونعتزل الناس والفجرة، فالعالم يموج بفتن عمياء، وحرب صماء، وقصور مشيدة وآبار معطلة، ونساء عاريات، وليال ماجنات ..

كانت السنوات الثلاثة الأخيرة في المرحلة المكية؛ تكاد تكونُ موجهةً لتحقيق هدف واحد، هو، البحثُ عن وطن جديد؛ تنطلق منه الدولةُ والدعوة.

واشتد الأذى الإعلامي من الوثنية، وطفق أبو لهب يتتبع خطوات النبي ﷺ في مواسم الحج؛ يسفهه ويحذر القبائل منه. وكان يقول للناس: "لا تصدقوه أنا عمه وأدرى به، هذا مجنون"، وكان أبو لهب غنيًا جدًا ومعروفًا بين الناس فيقولون: "عمه أدرى به".

أما هو، فلم يتعب ولم يملّ. عرض نفسه على قبيلة بني عامر؛ فأبوا. عرض نفسه على قبيلة غسان؛ فرفضوا. عرض نفسه على بني فزارة؛ فأعرضوا، التَقَى بني مرة، والتقى بني حنيفة، والتقى بني سليم .. وبني عبس، وبني نصر، وثعلبة بن عكابة، وكندة، وكلب، وبني الحارث بن كعب، وبني عذرة .. قابل هؤلاء وغيرهم؛ فأبوا أن ينصروه، بل منهم من ضربه، ومنهم من نَهَرَه. فلله درها من هِمة! ولله دره من قلبٍ حي لا ينام عن طلب المعالي:

وهؤلاء الذين دعاهم ﷺ تملصوا منه على طرائق شتى؛ فمنهم من تهربوا وتعللوا بمواثيق ومعاهدات ـ مثل شيبان ـ كما أشرنا.

ومنهم من ساوموه؛ أن يجعل السلطان فيهم من بعده، مثل كندة. وقد قالوا له: إن ظفرت تجعل لنا الملكَ من بعدك؟ فقال ﷺ: «إن الملك لله يجعله حيث يشاء»[1].

وقد قالت له بنو عامر ـ أيضًا ـ نحو ذلك؛ فقال: «الأَمْرُ إِلَى اللهِ، يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، فقال كبيرهم ـ وهو فِرَاسُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: "أَفَتُهْدَفُ نُحُورُنَا لِلْعَرَبِ دُونَكَ، فَإِذَا أَظْهَرَكَ اللهُ كَانَ الأَمْرُ لِغَيْرِنَا؟ لا حَاجَةَ لَنَا بِأَمْرِكَ!"[2].

وهؤلاء طلاب مُلكٍ لا طلاب رسالة؛ وإنما كان ﷺ يبحث عن رجال يُضحّون، لا جباةٍ يأكلون. كان يبحث عن دعاة لا جباة!

فهذه الدعوة لا يفلح فيها طلاب الدنيا، فالشخص النفعي لن يبذل معونته للدعوة؛ إلا إذا أحس بالمنفعة المادية من وراء هذه الدعوة. والتجرد، سمةٌ رئيسية وصفةٌ أساسية لأبناء هذا الدين. ذلك ليعلم المسلمُ أن الأرض لله، والملك لله، والسلطان لله، يجعل أيًا من ذلك حيث يشاء، والعاقبة للمتقين.

(١) ابن كثير: السيرة، (١٥٩/٢).
(٢) ابن هشام، (٤٢٥/١).

www.almoslih.net

ثم رأينا أن النبي ﷺ لم يعدهم ويمنّيهم بشيء، ولو كان من الملوك أو من قادة الثورات النفعية؛ لطاوعهم فيما يطلبونه ولو بالكلام، حتى يتم له ما أراد، ثم يخلف وعده بعد ذلك حينما يتمكن من رقابهم. كشأن قائدٍ من قادات الثورات الحديثة؛ لما نصره إخوانُه؛ غدر بهم، وأخذ يُعمل فيهم القتل، ليستبد له الأمر.

أما النبي ﷺ فجلّاها بوضوح من أول يوم: أن الأمر لله، يضعه حيث يشاء، هكذا صادقة نقية لا ترى في عقيدتها عوجًا ولا أمتا.

وقد التقى ﷺ بآحاد الأشراف؛ فتصدّى لسويد بن الصامت ـ وكان من أكابر يثرب، من الأوس، من بني عوف ـ وكان رجلًا مفكرًا مثقفًا، يحفظ طرفًا من حِكم لقمان، فدعاه ﷺ إلى الإسلام؛ فقال سويد بلسان العلماء الظرفاء: "فَلَعَلّ الّذِي مَعَك مِثْلُ الّذِي مَعِي!".

فقال الداعيةُ الحكيم ـ دون حَجْرٍ على فكر أو ازدراء لرأي ـ:

«وَمَا الّذِي مَعَك»؟

قال سويد: "مَجَلّةُ لُقْمَانَ ـ يَعْنِي حِكْمَةَ لُقْمَانَ".

فقال صاحب الأدب الرفيع: «اعْرِضْهَا عَلَيّ».

أنصتَ له النبي ﷺ وهو الذي يأتيه الوحيُ من السماء. ثم قال ـ بلسان الناقد المنصف البصير: «إنّ هَذَا لَكَلامٌ حَسَنٌ! وَالّذِي مَعِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؛ قُرْآنٌ أَنْزَلَهُ الله تَعَالَى عَلَيّ هُوَ هُدًى وَنُورٌ»[(١)].

فتلا عليه القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد، وأسلم بعد ذلك قبيل مقتله؛ وكان مقتله قبيل يوم بعاث؛ وهذا يعني أن محمدا ﷺ قابل هذا الرجل قبل العام الثامن من البعثة.

(١) ابن هشام: السيرة، (٤٢٧/١).

ومن ثَمّ لا مكان لهذه القصة في أحاديث العقبة، بيد أن أدباء السير يكتبون هذه القصة في معرض الحديث عن بدء إسلام الأنصار، وبالفعل بدأ إسلام الأنصار بإسلام هذا الرجل الحكيم الأديب.

زواج وخطبة:

لقد زاد عناد هذه القبائل مزيد عزلة، كما زاد النبي ﷺ إمعان قريش في أذى أصحابه ألما وهمّا.

وبعد وفاة السيدة خديجة ﵂، فكر في أن يتزوّج؛ لعلّه يجد في زوجه من العزاء ما كانت خديجة تأسو به جراحه؛ فرأى أن يزيد الأواصر التي تربط بينه وبين السابقين إلى الإسلام لتزداد متانة وقربا، وجاءت خولة بنت حكيم السلمية إلى النبي ﷺ تعرض عليه أن يتزوج، ويقول رسول الله: ومن بعد خديجة..؟

وتقول خولة: عائشة بنت أحب الناس إليك، تخطبها اليوم ثم تنتظر حتى تنضج، وسودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس، وأذن لها رسول الله ﷺ في خطبتهما.

أوّلًا: زواجه من سودة بنت زمعة:

تزوّج النبي ﷺ من سودة بنت زمعة، وكانت سودة ﵂ أرملة مسنة في العقد السادس من عمرها، وزوجها هو السكران بن عمرو من بني عامر بن لؤي، هاجر إلى الحبشة في المرة الأولى، ثم عاد إلى مكة فمات بها إثر عودتهما من تلك الرحلة.

فتزوجها النبي ﷺ[(١)] حماية لها وجبرًا لخاطرها بعد وفاة زوجها ورعاية لأبنائها الذين مات عائلهم، وليخفف عنها بعض ما تقاسيه من اضطهاد أهلها؛ لأنهم كانوا على الكفر، فاجتمعت عليها كل هذه العوامل القاسية، فتزوجها النبي ﷺ.

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، (٣/٨).

ولكن هل تستطيع سودة أن تملأ من فؤاد النبي ﷺ وأبنائه وبيته ما كانت تشغله خديجة..؟

لم يتصور ذلك أحد، فقد كانت امرأة مسنة في نحو ست وستين سنة، ولكنها من المؤمنات المهاجرات الهاجرات لأهليهن خوف الفتنة، ولو عادت إلى أهلها لأكرهوها على الشرك، أو عذبوها عذابا نكرا ليفتنوها عن دينها، فاختار النبي ﷺ كفالتها.

ولقد قابل الناس هذه الالتفاتة من الرسول الكريم ﷺ بالإعجاب والثناء، وخفف قومها بنو عبد شمس ـ أعداء الرسول وأعداء بني هاشم ـ من غلوائهم في عداوة صاحب الدعوة ومخاصمته، وأُنقذت هي مما كان ينتظرها من الضياع.

لقد كانت سودة تدرك تماما، أنما حظها من رسول الله ﷺ برٌ ورحمةٌ وإكرامٌ، وقبلت الدور، فحسبُها أن رفعها رسول الله ﷺ إلى تلك المكانة، وأن جعل منها أمّا للمؤمنين.

وقدمت سودة كل ما في وسعها لخدمة النبي ﷺ، والسهر على راحته، ورعاية أبنائه ليتفرغ هو إلى جهاده وأداء رسالته، وعمّرت سودة بعد وفاة النبي سنين عدّة.. حتى وافاها أجلها فلقيت ربها راضية مرضية[1].

ثانيًا: **خطبته لعائشة:**

أخرج الطبراني عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما توفيت خديجة رضي الله عنها قالت خولة بنت حكيم رضي الله عنها: يا رسول الله ألا تتزوّج؟ قال: ومن؟ قالت: إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا، قال: فمن البكر؟ قالت: ابنة أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر. قال: فمن الثيب؟ قالت: سودة بنت زمعة. قال: فاذهبي فاذكريهما عليّ.

(١) محمد محمود الصواف: زوجات النبي الطاهرات، (ص ٢٥).

فجاءت فدخلت بيت أبي بكر فوجدت أمَّ رومان أمَّ عائشة رضي الله عنهما، فقالت: "يا أم رومان ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة! أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قالت: وددت، انتظري أبا بكر فإنه آت، فجاء أبو بكر فقالت: يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة! أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، فقال: هل تصلح له؟ إنما هي بنت أخيه. فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال: ارجعي إليه فقولي: أنت أخي في الإسلام وأنا أخوك، وابنتك تصلح لي، فأتت أبا بكر فقال: ادعي لي رسول الله ﷺ فجاء فأنكحه.

وكل ما نعلمه عن عائشة يومذاك أنها بنت ست سنين أو سبع، وأنها كانت قد خطبت لجبير بن المطعم بن عدي، وأن أبا بكر وعده، فلما طلبها رسول الله ﷺ، ذهب أبو بكر إلى المطعم ليكلمه بشأن هذه الخطبة فوجد عنده امرأته أم جبير، فبادرت أبا بكر وقالت: لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى تصبيه (فيرتد عن دينه) وتدخله في دينك الذي أنت عليه، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه على المطعم، وقال له: ماذا تقول أنت؟ فقال: إنها لتقول ما تسمع. فخرج من عنده واعتبر هذا الكلام يحلّه من وعده السابق، فدعا إليه النبي ﷺ وزوجه عائشة رضي الله عنها.

عندما يمعن الإنسان الحصيف النظر في سيرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها يجد كيف أنها شهدت المواقع كلها، وكيف أعدّها القدر على عينه لتصبح في بيت أبيها الصديق أو بيت زوجها النبي ﷺ، إحدى شاهدات العصر الإسلامي في مراحل قوته وضعفه، وفي مرحلة انبساطه وانكماشه، وفي مرحلة فتنه وعطائه.

دروس وعبر

❶ اعتبار رابطة الديانات السماوية أقوى من رابطة النسب والوطن المخالفين في المعتقد، ومن ثم أمر الرسول ﷺ أصحابه رضي الله عنهم بالهجرة أولًا وثانيا إلى الحبشة، مما يدل على أن رابطة الدين بين المتدينين، وإن اختلفت دياناتهم هي أوثق وأقوى من رابطتهم مع الوثنيين والملاحدة.

فالديانات السماوية متفقة فيما بينها في الأهداف الاجتماعية الكبرى، كما أنها متفقة في الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذا ما يجعل وشائج القربى بينها أوثق من أي وشيجة من قرابة في الدم أو موطن مع الإلحاد والكفر بالله.

❷ على الداعية أن يختار كلماته، وليتقن المسلمُ كيف يُعرّفُ بدينه، وكيف يشرح منهجه في كلمات قليلة، خاصة أمام أصحاب السطوة والسلطان.

❸ إن حسن البيان عن الإسلام يرفع قدره، ويعلي ذكره، ويعظم خطره، ويدل على فضل نبيه ﷺ.

❹ الإسلام يحتاج منا في هذا العصر إلى الإيجاز في شرحه، والتبسيطِ في طرحه، بحيث لا نأخذ من وقت السامع وقتًا يدفعه إلى الملالة والانصراف عنك إلى غيرك.

❺ قد يكون الحق في صفك؛ ولكنك تضيعه بسوء تصرفك. وهذا هو عجز الثقة. وقد يكون الباطل في جانبك؛ ولكنك تثبته، وتزخرفه، فتجعل منه

حقًا وحقيقةً؛ بالقول البرّاق، والطرح المنمَّقِ، واللسان المجادِل العليم. وهذا هو جلد الفاجر.

❻ على الداعية أن يتزين لدعوته، ويجوّد خطبته، ويحبر كلمته، فأهل الباطل يسهرون آناء الليل يبتكرون، ويبدعون أنجع الطرق في حبكة لنشر الباطل.

❼ إن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر، فهم كلما أخفقت لهم وسيلة من وسائل المقاومة، والقضاء على دعوة الحق، ابتكروا وسائل أخرى.

❽ الحزن على القريب لدعوة الحق غير المؤمن بها، وعلى فقد الزوجة المؤمنة المخلصة، حزن تقتضيه طبيعة الإخلاص للدعوة، والوفاء للزوجة المثالية في تضحيتها وتأييدها، ولذلك ظل الرسول ﷺ طيلة حياته يذكر فضل خديجة رضي الله عنها، ويترحّم عليها ويبر صديقاتها.

❾ توجه الرسول ﷺ للطائف بعد أن أعرضت عنه مكة، دليل على التصميم الجازم في نفس الرسول ﷺ على الاستمرار في الدعوة، وعدم اليأس من استجابة الناس لها.

❿ في إغراء ثقيف صبيانها وسفهاءها لإيذاء الرسول دليل على أن طبيعة الشر واحدة أينما كانت، وهي الاعتماد على السفهاء في إيذاء دعاة الخير.

⓫ لا ينبغي على الداعية أن يقتصر على دعوة الناس إلى الخير في مجالسه وبيئته فحسب، بل يذهب إلى كل مكان يجلس فيه الناس.

⓬ لقد كان النبي ﷺ يقتدي بالأنبياء والمرسلين الذين سبقوه في الدعوة إلى الله، فهذا نوح لبث في قومه داعيًا: أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فكانت هذه الأعوام الطويلة عملًا دائبًا، وتنويعًا متكررًا، ومع امتداد الزمن الطويل،

www.almoslih.net

ما توقف عن الدعوة، ولا ضعُفت همته في تبليغها، ولا ضعُفت بصيرته وحنكته في تنويع أوقاتها وأساليبها.

فكان النبي ﷺ ينوع ويبتكر في أساليب الدعوة، ودعا سرًا وجهرًا، وسلمًا وحربًا، وجمعًا، وفردًا، وسفرًا وحضرًا.

كما أنه عليه الصلاة والسلام قص القصص، وضرب الأمثال، واستخدم وسائل الإيضاح بالخط على الأرض وغيره، كما رغب وبشر، ورهّب وأنذر، ودعا في كل آنٍ، وعلى كل حال، وبكل أسلوب مؤثر فعَّال، فها هو عليه الصلاة والسلام ينتقل إلى الطائف، ثم يتردد على القبائل، ثم يهاجر ويستمر في دعوة الخلق إلى الله تعالى.

١٣ إن الدعاء من أعظم العبادات، وهو سلاح فعال في مجال الحماية للإنسان، وتحقيق أمنه، فمهما بلغ العقل البشري من الذكاء والدهاء، فهو عُرْضةٌ للزلل والإخفاق، وقد تمر على المسلم مواقف يعجز فيها عن التفكير والتدبير تمامًا، فليس له مخرج منها سوى أن يجأر إلى الله بالدعاء، ليجد فرجا ومخرجًا.

فعندما لحق برسول الله ﷺ من أهل الطائف الأذى والطرد والسخرية والاستهزاء، وأصبح هائما على وجهه، لجأ إلى الله بالدعاء، فما إن انتهى من الدعاء حتى جاءت الإجابة من رب العالمين مع جبريل وملَك الجبال.

١٤ كان مقترح ملَكِ الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين، وهو يدخل تحت أسلوب الاستئصال، وقد نفذ في قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، ولكن النبي ﷺ رفض منهج الاستئصال، لأن الله تعالى يقول عنه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧].

هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

٧

نَفَحاتٌ قُدسِيَّةٌ لِنُصرَةِ خَيرِ البَرِيَّةِ

مُمَهِّدَاتٌ عَلىٰ الطَّرِيقِ

كانت المحن التي تعرّض لها النبي ﷺ وعرضناها سابقًا كثيرة ومتنوعة، ما بين إيذاء نفسي وبدني وتنكيل بأصحابه وصد عن الدعوة، وحصار اجتماعي واقتصادي، ووفاة السند والنصير، ومحنة الطائف، والرفض التام لبذرة التوحيد من جانب القبائل العربية، كانت كل هذه المحن قد بلغت الذروة مما لا يستطيع أن يتحمله البشر عادة.

ولكن الله عز وجل يمتحن المؤمنين بمثل هذه الفتن، ويعرّضهم لكل هذه الابتلاءات والمحن، ليستخرج منهم الصفوة التي تصبر على مشاقّ الدعوة، ويتخذَ منهم شهداء، ليكونوا المثَلَ والقدوة لكل سالك في طريق اليقين.

فالدعوات الكبرى تحتاج إلى أن تستخلص أتباعها؛ لتخرج الصفوة المؤمنة الثابتة ثباتَ الجبال الراسيات، التي تصلح لاجتياز الصعاب والعراقيل، مهما بلغت درجتها من المشقة والعسف، ومهما تعرضوا للجور والظلم، حتى تتهيأ هذه العُصْبَةُ لحمل تكاليف الجهاد في المرحلة الصعبة، التي تنتظر الإسلام في دار هجرته.

ولذا فإن "السنوات العشر الأولى من المبعَث مضت تمتحن المسلمين الأولين بالفتنة والأذى والاضطهاد، وقد تأخر الإذن لهم في القتال، ريثما تتم عملية الامتحان والتمحيص، فكان الثبات لوطأة الفتنة وجهد الحصار، يستصفي للإسلام جنده المخلصين"[(١)].

ولكن شدة العناء، وكثرة الصعاب، وتوالي المصائب والهموم، كل هذه العوامل مجتمعةً كفيلةٌ بأن تملأ قلب صاحبها بالصراعات الداخلية، بل إنها لو حدثت لأي بشر من غير الأنبياء، مهما أوتي من القوة والجلَد؛ لكانت كفيلة بأن تجعل منه إنسانا محبَطا مكتئبا، ينظر إلى المجتمع البشري كله نظرة رِيبة، بل قد ييأس من صلاحهم، وما هكذا تكون الأنبياء.

وهذه الهموم والصراعات الداخلية والخواطر، وما يترتب عليهما من أحزان ومشاعر سلبية، قد تكون عائقًا في طريق الدعوة، فلا بد والحالة هذه من تجديد النشاط الإنساني بنفحات علْوية، من رب البرية جل وعلا.

فمن رحمة الله بعباده أنه مِنْ رَحِمِ المحن تتولد المِنَحُ، فبعد هذا العناء والحزن، تأتي نفحة قدسية من نفحات رب العالمين لنبيه ﷺ لتكون عونا له على تجاوز هذه الآلام التي من شأنها أن تفت في عضده، فكأنه سبحانه يقول له: إذا كان أهلُ الأرض قد آذوك ورفضوك، فإن أهل السماء يرحبون بك، ويسرّون بلقائك ويجلونك.

ويا لها من حكمة بالغة، تجعل القلب يتزود بشحنات إيمانية يضمحلّ خلالها أيُّ شعور بالعناء أو الهموم، بل إن أذى الناس جميعا في رحاب هذه الحضرة القدسية وتلك المنة الإلهية لأمر يسير، بل لا يعد شيئا مذكورا.

فإذا شعرت بمعية الله لك هانت عليك الدنيا وأهلها.

---

(١) بنت الشاطئ: مع المصطفى، (ص١٣١).

وإذا غمرتك رحمات ربك فلا عليك من إيذاء الخلق.

وإذا رغب فيك أهل السماء فلا تبتئس إذا ابتعد عنك أهل الأرض.

وإذا شعرت بنعيم الروح فلا عبرة بعناء الجسد.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: "لم يكن الإسراء مجرد حادث فردي بسيط رأى فيه رسول الله ﷺ الآيات الكبرى، وتجلى له ملكوت السماوات والأرض مشاهدة وعيانًا، بل زيادة على ذلك، اشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية على معانٍ دقيقة كثيرة، وشارات حكيمة بعيدة المدى.

فقد أعلنت السورتان الكريمتان اللتان نزلتا في شأنه: أن النبيّ ﷺ هو نبيّ القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله، وإمام الأجيال بعده، فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى، وصلّى بالأنبياء خلفه، فكان هذا إيذانًا بعموم رسالته وخلود إمامته وإنسانية تعاليمه، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزمان.

وأفادت هذه السورة الكريمة تعيين شخصية النبي ﷺ، ووصف إمامته وقيادته وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها وآمنت به، وبيان رسالته ودورها الذي ستمثّله في العالم، ومن بين الشعوب والأمم"[(١)].

واختار الله عز وجل وقت الليل ليسري فيه بالنبي ﷺ لحِكَمٍ عالية، حاول بعضُ العلماء ذكرها، قال ابن المنير رحمه الله تعالى[(٢)]: "وإنما كان الإسراء ليلا؛ لأنه وقت الخلوة والاختصاص عرفا، ولأنه وقت الصلاة التي كانت مفروضة عليه في قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل:٢]، وليكون أبلغَ للمؤمن في الإيمان بالغيب، وفتنةً للكافر".

---

(١) انظر: الندوي: الأساس في السنة، (١/٢٩٢) "بتصرف".

(٢) انظر: الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٣/١٧٤).

وزاد الصالحي[١]: ﴿ليزداد الذين آمنوا إيمانا بالغيب، ويفتتن الذين كفروا زيادة على فتنتهم، وأنه وقت الخلوة والاختصاص عرفا، فإن بين جليس الملك نهارا وجليسه ليلا فرقا واضحا، والخصوصية لليل، ورحم الله من قال:

اللـيـل لي ولأحبابـي أنادمهم ... قد اصطفيتهم كي يسمعوا ويعوا﴾

شق الصدر للمرة الثالثة:

في العام الحادي عشر للبعثة تم شق صدر النبيّ ﷺ للمرة الثالثة، ولا بد لهذا الحادث العظيم، وتلك المعجزة الباهرة من مقدمات، فكان أن أرسل الله جبريل في ثلاثة نفر من الملائكة، ومعهم طست من ذهب، وماء من زمزم، ليشقوا صدره ﷺ للمرة الثالثة ويغسلوه ويحشوه حكمة وإيمانا.

ففي الصحيحين: «عَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِ الله أَنَّهُ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ مَالِكٍ يَقُولُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِرَسُولِ الله ﷺ مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ أَنَّهُ جَاءَهُ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ وَهُوَ نَائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَقَالَ أَوَّلُهُمْ: أَيُّهُمْ هُوَ؟ فَقَالَ أَوْسَطُهُمْ: هُوَ خَيْرُهُمْ. فَقَالَ آخِرُهُمْ: خُذُوا خَيْرَهُمْ. فَكَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمْ يَرَهُمْ حَتَّى أَتَوْهُ لَيْلَةً أُخْرَى فِيمَا يَرَى قَلْبُهُ، وَتَنَامُ عَيْنُهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ، وَكَذَلِكَ الأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ، وَلاَ تَنَامُ قُلُوبُهُمْ، فَلَمْ يُكَلِّمُوهُ حَتَّى احْتَمَلُوهُ فَوَضَعُوهُ عِنْدَ بِئْرِ زَمْزَمَ فَتَوَلاَّهُ مِنْهُمْ جِبْرِيلُ فَشَقَّ جِبْرِيلُ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَى لَبَّتِهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَدْرِهِ وَجَوْفِهِ، فَغَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ بِيَدِهِ، حَتَّى أَنْقَى جَوْفَهُ، ثُمَّ أُتِيَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ تَوْرٌ مِنْ ذَهَبٍ مَحْشُوًّا إِيمَانًا وَحِكْمَةً، فَحَشَا بِهِ صَدْرَهُ وَلَغَادِيدَهُ ـ يَعْنِي عُرُوقَ حَلْقِهِ ـ ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»[٢].

(١) انظر: الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (١٧٥/٣).

(٢) البخاري، برقم (٧٥١٧) باب قوله: وكلم الله موسى تكليما، وانظر أيضًا مسلم، برقم (٤٣٢) باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات.

وهي عملية تهيئة لتحمّل وطأة رحلة الإسراء والمعراج، كما هيأه اللهُ من قبل في صغره بحادثين مماثلين، هما حادثا شق الصدر.

وقد رأى بعض الصحابة ﷺ أثر المخيط في صدره الشريف، يقول أنس بن مالك ﷺ: «وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ»[١]. مما يدل دلالة قاطعة على أن الشق كان شقا فعليا ترتبت عليه آثار مادية محسوسة، ويرد هذا القول على منكري ذلك الحدث المعجز المشرّف للنبي ﷺ، كما يردّ على تأويل الذين زعموا من بعض مفكري عصرنا أنه كناية عن شرح الصدر، وعدم الشعور بالضيق، أو التطهير المعنوي من اقتراف الذنوب والآثام.

الإسراء والمعراج:

قبل الهجرة كانت رحلة الإسراء، وقد اقترب أوان التحرك إلى موقع جديد، بعد أن بلغت الجولة المكية ذروة تعقّدها. واحتاج مثل ذلك التحوّل الخطير إلى عملية امتحان قبله، تستخلص الصفوة المؤمنة التي تصلح لاجتياز معبر التحوّل، وتقدر على حمل تكاليف الجهاد في الجولة الصعبة التي كانت تنتظر الإسلام في دار هجرته.

وفي الواقع التاريخي، أن السنوات العشر الأولى من المبعث، مضت تمتحن المسلمين الأولين بالفتنة والأذى والاضطهاد. وقد تأخر الإذن لهم في القتال، ريثما تتم عملية الامتحان والتمحيص، فكان الثبات لوطأة الفتنة وجهد الحصار، يستصفي للإسلام جنده المخلصين. ثم جاءت آية الإسراء، تتمة حاسمة لهذا الاستصفاء.

لم تكد الليلة في أولها، تختلف عن ليال سابقات تتابعت على مدى سنين، من ليلة المبعث: طواغيت المشركين من قريش مجتمعون في دار الندوة، يحورون

(١) مسلم، برقم (٤٣١) باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات.

ويدورون في حلقة مفرغة، التماسا لوسيلة أو ثغرة ينفذون منها عبر الطريق المسدود.

والنبيّ ﷺ، قد أقام صلاة العشاء فيمن كان معه من آله وصحبه، وأوى إلى خلوته يتعبد ويتهجد كعادته في كل ليلة، وما من أحد يتوقع أن يأتي الفجر القريب بجديد غير المعهود المألوف في أم القرى.

وبزغ نور الفجر، والرسول ﷺ حيث تركه آله وأصحابه بعد صلاة العشاء، وقام ﷺ فصلى بمن معه، ثم جلس فيهم بعد الصلاة يحدثهم أنه قد أُسري به في ليلته تلك، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

واشْرأَبّتْ إليه قلوبهم، وشُدَّت أسماعهم إلى حديث الإسراء، ولو استطاعوا لأمسكوا أنفاسهم المبهورة، لكي يخلص إليهم صوت نبيهم في أنقى صفائه وتفرده.

وانتهى الحديث، وران عليهم صمت خاشع، أخذهم فيه العجب كلَّ مأخذ، وهم يستعيدون فيما بينهم وبين أنفسهم حديث الإسراء، ويحاولون أن يستوعبوا أبعاد رؤياه الباهرة، ويتمثلوا مشاهده المثيرة.

ولعلهم ما كانوا ليجرحوا هذا الصمت، لولا أن رأوه ﷺ يقوم من مصلاه، آخذا طريقه إلى حيث كان أهل مكة قد بدأوا حركتهم اليومية مع مشرق الصبح.

عندئذ قامت أم هانئ بنت أبي طالب فتشبثت بابن عمها محمد ﷺ، تضرع إليه ألا يحدثَ الناس بما رأى، لئلا يكذبوه.

وتلبث ﷺ يسمع ما تقول بنت عمه، وقد أدرك ما يساورها من قلق وخوف. ثم استأنف سيره ليلقى القوم، مسلمين ومشركين، بحديث الإسراء.

ماذا قال ﷺ عن مسراه في تلك الليلة؟ وما الذى نزل في الإسراء من آيات القرآن؟

في صحيح الحديث تفصيل لرحلة الإسراء من بدئها في المسجد الحرام: جاء (جبريل) أمين الوحي، ومحمد ﷺ نائم.

فأيقظه من نومه «ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ، وَفَوْقَ الْحِمَارِ ... يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ، فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ»[1].

هكذا خلق الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ حيوانًا مخصوصا، بمواصفات مخصوصة، لرحلة مخصوصة، وهو من باب التكريم؛ فكما يحمل المضيف ضيفه على مركب كريم، كان الله ـ وله المثل الأعلى ـ هو الكريم إذْ حمل نبيه على هذا المركب النوراني العجيب؛ الذي لم يُخلق مثله من قبل!.

السماء الدنيا ولقاء آدم:

«فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ! فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ، فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ!»[2].

قلتُ: وتبدأ سلسلة سباعية في الترحيب من الملائكة الكرام، وقد كانوا في انتظار مبعثه، وكأنما جبلهم الله على حبه ﷺ، فهو في الأرض أحمد، في السماء محمد؛ عند الملائكة الكرام معروف محبوب .. والتقى النبي الأول بالنبي الخاتم، وهكذا تفتخر البشرية به ﷺ افتخارًا وتكريمًا جاء على لسان أبي البشر آدم: «مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ» .. فنِعْمَ الابن هو! ونعم النبي هو!.

---

(١) البخاري: (٣٥٩٨).

(٢) المصدر السابق نفسه.

السماء الثانية ولقاء يحيى وعيسى:

«ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ! فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ، إِذَا يَحْيَى وَعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ، قَالَ: هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى، فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، فَسَلَّمْتُ، فَرَدَّا، ثُمَّ قَالا: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»[(١)].

وتواصلتْ مسيرةُ التكريم، كلما دخل على رهط من الملائكة، قالوا: «مَرْحَبًا بِهِ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ!» .. سعدتْ به السماء، وضاقت به الأرض، احتفى به أهل السماء، وتبرم له أهل الأرض..

والتقى بيحيى وعيسى عليهما السلام، وكان الترحاب والسلام، ثم تجاوزهما إلى السماء الثالثة.

السماء الثالثة ولقاء يوسف:

«ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ! فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ؛ إِذَا يُوسُفُ، قَالَ: هَذَا يُوسُفُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»[(٢)].

وتواصلتْ الرحلة... ولا زالت فعاليات حفل التكريم مستمرة!

السماء الرابعة ولقاء إدريس:

«ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ!

(١) البخاري: (٣٥٩٨).
(٢) المصدر السابق نفسه.

فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ! فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِلَى إِدْرِيسَ؛ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»[(١)].

رتبة فوق رتبة، فقد تجاوز مَن رفعه الله مكانًا عليًا!

السماء الخامسة ولقاء هارون:

«ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ! فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا هَارُونُ، قَالَ: هَذَا هَارُونُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»[(٢)].

تاقت إليه السماء.. ولكأنما كانت في انتظاره منذ أن خلقها الله!

السماء السادسة ولقاء موسى:

«ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قال: مَرْحَبًا بِهِ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ! فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ، بَكَى، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لأَنَّ غُلامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي!»[(٣)].

وبكاء موسى كان من باب التنافس في الخير، كان من باب علو الهمة وقوة العزم، وطموح النفس إلى المحل الأعلى، والمجد الأسمى، والمكان الأرفع،

(١) البخاري: (٣٥٩٨).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.

والرتبة الأنجع، ولا أعظم من ميدان الدعوة إلى الله؛ خير ميدان للتنافس وخير حلبة للتسابق، وكان بكاؤه ـ أيضًا ـ من باب التعجب من فضل الله تعالى على النبيّ ﷺ، رغم أن موسى كان كليم الله، وعاش ١٢٠سنة، وكان شيخ أنبياء بني إسرائيل.

السماء السابعة ولقاء إبراهيم:

«ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ! فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ: هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلامَ، قَالَ: مَرْحَبًا بالابن الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»[١].

وهكذا التقى النبيّ ﷺ بجده، شيخ التوحيد، كاسر الأوثان، مكرم الضيفان، خليل الرحمن.

إلى سدرة المنتهى:

«ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ الْمُنتَهَى، فَإِذَا نَبْقُهَا[٢] مِثْلُ قِلالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيَلَةِ، قَالَ جبريل: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى»[٣].

وهكذا يتواصل التكريم؛ ويرى النبيُّ ﷺ هذه الشجرة العجيبة التي لم يرها إنسٌ قط ولا جان.

شجرة عظيمة أنبتها الله بالكيفية التي شاء، حية قائمة شامخة كما أراد، ولم يتمكن ﷺ من وصفها لعظم بهائها وجمالها، وهو الذي أُوتي جوامع الكلم،

(١) البخاري: (٣٥٩٨).
(٢) النَّبِق ثمر السِّدْر، والنَّبِقُ والنَّبَق والنِّبْق والنَّبْقُ مخفف حمل السِّدْر الواحدة من جميع ذلك بالهاء، الجوهري: نَبِقة ونَبِق ونَبِقات مثل كَلِمة وكَلِم وكَلِمات. لسان العرب، (١٠/٣٥٠).
(٣) البخاري: (٣٥٩٨).

والذي قدر عليه من وصفها أنه أشار إلى أن ثمارها يشبه القلال الضخمة التي كانت تُصنع في البحرين في زمنه ﷺ، وأن ورقها تشبه في رسمتها آذان الفيلة..

وقد قال الله تعالى فيها: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٤-١٧].

أربعة أنهار:

«وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ؛ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ، قَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ»[١].

البيت المعمور:

«ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ»[٢].

وهو بيت عبادة الملائكة في السماء، كما أن الكعبة بيت عبادة البشر في الأرض، ولذلك ورد في الصحيح أنه بيتٌ "يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ"[٣]، لاشك .. يتعبدون فيه لله تعالى لا يفترون.

إناء من لبن:

«ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ؛ فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ: هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ»[٤].

هي الفطرة التي امتن الله بها على هذه الأمة؛ أنْ أنزل لهم شريعةً صافية صفاءَ اللبن لا غبش فيها ولا تحريف، وفيه بشارة من الله تعالى أن هذا المنهج العظيم لن ينحرف عن الفطرة ما دامت السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

(١) البخاري: (٣٥٩٨).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) مسلم: (٤٢٩).
(٤) البخاري: (٣٥٩٨).

فرض الصلاة:

«ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ، قلت: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي ـ وَاللهِ ـ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ»[(١)].

وكان فرض الصلاة هو ذروة التكريم، فُرضت بعد سدرة المنتهى، وبعد البيت المعمور، وبعد حفلات الاستقبال الملائكية..

ليعود رسول الله ﷺ من رحلة المعراج بنفحة من المعراج؛ نفحة يعرج فيها المؤمنون إلى الله ربهم في اليوم خمسَ مرات.

وكانت النصيحة من موسى بالذات لمكانته وقرب عهده؛ فشريعته هي الشريعة التي سبقت الإسلام مباشرة، وهو النبي الذي عالج أقسى النفوس.

فإذا هو ـ عليه السلام ـ ينبري في إيجابية؛ لينصح أخاه خاتم الأنبياء؛ وكان في كل مرة يقول له: «إِنِّي ـ وَاللهِ ـ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ».

التخفيف:

«فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ، فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ، فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ.

فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ،

(١) البخاري: (٣٥٩٨).

وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ؛ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ! قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنِّي أَرْضَى، وَأُسَلِّمُ ... فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»[(١)].

وكلٌّ من تقدير الله، فالرحلةُ رحلةُ رحمةٍ له ﷺ ولأمته.

وهذا ليعرف المسلم فضل الصلاة، وأهمية الصلاة؛ إذ فرضت في السماء وسواها في الأرض، وفرضت في المرحلة المكية وسواها في المدنية.

هي الركن الذي إذا أضاعه المسلم ضاع معراجه، وحبله، وغذاء روحه، وشفاء نفسه.

هي الركن الذي يفرّق بين المسلم وغيره، والدين وغيره، والبيت وغيره، والمجتمع وغيره، والبلد وغيره.

فلا يكون المسلم مسلمًا دون صلاة، ولا يكون الدين قائمًا دون صلاة، ولا يكون البيت مسلمًا دون صلاة، وكذا المجتمع والحكومة والدولة.

وقد قال النبي ﷺ في أئمة الجور، عندما قال الصحابة:

«أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟»

قَالَ ﷺ: «لا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلاَةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ، وَلا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»[(٢)].

نفحات أخرى:

«وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[(٣)].

(١) البخاري: (٣٥٩٨). (٢) مسلم: (٣٤٤٧).
(٣) مسلم: (٢٣٤).

قال ابن مسعود: «فَأُعْطِيَ رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِالله مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُقْحِمَاتُ»(١).

أي: مَنْ لَقِيَ الله لا يُشرك به شيئًا غفر له المُقْحِمات، أي الذنوبَ العِظامَ التي تُقْحِمُ أصحابها في النار.

العودة:

وعاد رسولُ الله ﷺ من هذه الرحلة الكريمة؛ نشيطَ النفس، شاكرًا متحمسًا، يخبر قومه بما شاهده؛ فكذبوه، وطالبوه أن يصف لهم المسجد الأقصى، فأظهره الله لنبيه كما تظهر الوقائع بالبثّ المباشر! قال النبي ﷺ:

«لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلَا الله لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ؛ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»(٢).

وزاده اللهُ من فضله أنْ أظهر له علائم أخرى على صدقه؛ مثل إخباره ﷺ عن حال عير قادمة من الروحاء، وأخرى قادمة من الأبواء، فأقام عليهم الحجة البيضاء.

ومع ذلك جحدوا، وكفروا كفْرَةً حمقاء، وتنكروا لهذه الآيات؛ التي لو جاء بها نبيٌّ لكفى بها دليلا على صدق نبوته. ومع ذلك كذّبوا وقالوا: سحر مستمر، كما كان حالهم في معجزة كبيرة أخرى حصلت في المرحلة المكية جديرةٍ بالدراسة؛ هي معجزة انشقاق القمر له ﷺ حينما طلبوا منه ذلك، ونزلت سورة القمر لذلك.

وهو أمرٌ يبين لك أن الجاحدين لن يقبلوا الدين مهما سُقت لهم من أدلة. كما قال الفراعنة لموسى عليه السلام: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

(١) مسلم: (٢٥٢).
(٢) البخاري: (٣٥٩٧).

وكان ما أراد الله للإسراء برسوله، من فتنة للناس، وابتلاء لمن آمنوا منهم، وللذين أسلموا ولم يدخل الإيمان في قلوبهم.

وقد يكفي لبيان ما كان من فتنة الإسراء، أن نقرأ ما نقل ابن هشام رواية عن ابن إسحاق: «فلما أصبح ﷺ، غدا على قريش فأخبرهم الخبر. فقال أكثر الناس: هذا والله العجب البين. والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة، وشهرا مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة، ويرجع إلى مكة؟».

فارتد كثير ممن كان أسلم.

وذهب الناس إلى أبي بكر ـ ولم يكن قد سمع بعدُ حديثه ﷺ عن الإسراء ـ فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيتَ المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة!.

فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه.

قالوا: بلى، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس.

قال أبو بكر: والله لئن كان قاله، لقد صدق. فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني أن الوحي ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه(١).

وغير بعيد من رواية السيرة ما نقله الطبري في تفسيره: "قال المشركون من قريش: تعشّى ـ فينا بمكة ـ وأصبح فينا، ثم زعم أنه جاء الشام في ليلة ثم رجع! وايم الله إن الحدأة لتجيئها في شهرين: شهرا مقبلة وشهرا مدبرة.

ما كان محمد لينتهي حتى يأتي بكذبة تخرج من أقطارها.

فأتوا أبا بكر فقالوا له: هذا صاحبك يزعم أنه أتى الشام في ليلته فصلى ببيت المقدس ثم رجع! فردّ أبو بكر: أو قد قال ذلك؟ والله لئن كان قاله لقد صدق.

(١) ابن هشام: السيرة، (٢/ ٣٩).

www.almoslih.net

فلما جادلوه فيه، قال: أصدقه بخبر السماء ـ وحيا ـ والسماء أبعد من بيت المقدس، ولا أصدقه بخبر بيت المقدس؟.

"ثم أقبل أبو بكر حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فسأله: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال عليه الصلاة والسلام: نعم.

فسأله أبو بكر أن يصفه له، فجعل رسول الله يصفه لأبي بكر، فكلما وصف منه شيئا قال أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله.

قال عليه الصلاة والسلام لصاحبه: وأنت يا أبا بكر الصديق"[1].

الحكمة من وراء فتنة الإسراء:

إن الرسول ﷺ كان مُقدمًا على مرحلة جديدة، مرحلة الهجرة، والانطلاق لبناء الدولة، يريد الله تعالى لِلَّبِنَات الأولى في البناء أن تكون سليمة قوية متراصة متماسكة، فجعل الله هذا الاختبار والتمحيص، ليخلّص الصف من الضعاف المترددين، والذين في قلوبهم مرض، ويثبّت المؤمنين الأقوياء الخلّص الذين لمسوا عيانا صدق نبيهم بعد أن لمسوه تصديقًا، وشهدوا مدى كرامته على ربه.

فأي حظ يحوطهم، وأي سعد يغمرهم، وهم حول هذا النبي المصطفى ﷺ، وقد آمنوا به، وقدموا حياتهم فداء له ولدينهم، كم يترسخ الإيمان في قلوبهم أمام هذا الحدث الذي تم بعد وعثاء الطائف، وبعد دخول مكة بجوارٍ وبعد أذى الصبيان والسفهاء[2].

إن شجاعة النبي ﷺ العالية تتجسد في مواجهته للمشركين بأمرٍ تُنكره عقولهم، ولا تدركه في أول الأمر تصوراتهم، ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم، وتلقي نكيرهم واستهزائهم.

(١) تفسير الطبري: الجزء الخامس عشر (سورة الاسراء).

(٢) انظر: التربية القيادية، (١/٤٥١).

فضرب بذلك ﷺ لأمته أروع الأمثلة في الجهر بالحق أمام أهل الباطل، وإن تحزبوا ضد الحق وجندوا لحربه كل ما في وسعهم، وكان من حكمة النبي ﷺ في إقامة الحجة على المشركين بأن حدثهم عن إسرائه إلى بيت المقدس، وأظهر الله له علاماتٍ تلزم الكفار بالتصديق، وهذه العلامات هي:

- وصف النبي ﷺ بيت المقدس، وقد أقروا بصدق الوصف، ومطابقته للواقع الذي يعرفونه.
- إخباره عن العير التي بالروحاء.
- إخباره عن العير الثانية.
- إخباره عن العير الثالثة التي بالأبواء، وقد تأكد المشركون؛ فوجدوا أن ما أخبرهم به الرسول ﷺ كان صحيحًا، فهذه الأدلة الظاهرة كانت مفحِمة لهم ولا يستطيعون معها أن يتهموه بالكذب.

كانت هذه الرحلة العظيمة، تربية ربانية رفيعة المستوى، وأصبح ﷺ يرى الأرض كلها، بما فيها من مخلوقات، نقطةً صغيرة في ذلك الكون الفسيح، ثم ما مقام كفار مكة في هذه النقطة؟ إنهم لا يمثلون إلا جزءًا يسيرًا جدًا من هذا الكون.

فما الذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه، وخصه بتلك الرحلة العلية الميمونة، وجمعه بالملائكة، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وأراه السماوات السبع وسدرةَ المنتهى، والبيتَ المعمور، وكلّمه ـ جل وعلا[1].

يظهر إيمان الصديق ﷺ القوي في هذا الحدث الجلل، فعندما أخبره الكفار قال بلسان الواثق، لئن كان قال ذلك لقد صدق، ثم قال: إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، وبهذا استحق لقب الصديق، وهذا منتهى الفقه واليقين، حيث وازن بين هذا الخبر ونزول الوحي

(١) الحميدي: التاريخ الإسلامي، (٣/٤١-٤٢).

من السماء، فبيّن لهم: أنه إذا كان غريبا على الإنسان العادي فإنه في غاية الإمكان بالنسبة للنبي ﷺ(١).

إنّ شرْبَ رسول الله ﷺ اللبن حين خُيِّر بينه وبين الخمر، وبشارةُ جبريل عليه الصلاة والسلام: هُدِيتَ للفطرة، تؤكد أن هذا الإسلام دين الفطرة البشرية التي ينسجم معها.

فالذي خلق الفطرة البشرية شرع لها هذا الدين الذي يلبي نوازعَها واحتياجاتِها، ويحقق طموحاتِها ويكبح جماحَها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

إن صلاة النبي ﷺ بالأنبياء دليل على أنهم سلّموا له بالقيادة والريادة، وأن شريعة الإسلام نسختْ الشرائع السابقة، وأنه وسع أتباع هؤلاء الأنبياء ما وسع أنبياءهم أن يسلموا بالقيادة لهذا الرسول ولرسالته التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

إن على الذين يعقدون مؤتمرات التقارب بين الأديان أن يدركوا هذه الحقيقة، ويدعوا إليها، وهي ضرورة الانخلاع عن الديانات المنحرفة، والإيمان بهذا الرسول ﷺ ورسالته، وعليهم أن يدركوا حقيقة هذه الدعوات المشبوهة، التي تخدم وضعًا من الأوضاع أو نظامًا من الأنظمة الجاهلية.

وحقق الإسراء آيته: فتنة وابتلاء وتمحيصا: نحّى عن حزب الله مَن رابهم أمرُ الإسراء، وليس أعجب من الوحي يأتيه من الله سبحانه.

واستصفى للإسلام جنده المخلصين، ممن صح إيمانهم وصدقت عقيدتهم.

وصدق الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠].

(١) الحميدي: التاريخ الإسلامي، (٣/٤٣).

بَشَائِرَ النَّصرِ مِنَ الأَنصَار

بُشريات من يثرب:

قلنا من قبلُ: إن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج؛ لعله يجد آذانا مصغية، وقلوبا واعية، تتلقى هذا النور الذي كرم الله عز وجل البشرية كلها به.

وفي أحد هذه المواسم، وعلى التحديد في موسم حَجِّ العام الحادي عشر للبعثة، وجدت الدعوة الإسلامية تربة جديدة، سرعان ما تقبلت بذرة التوحيد؛ لتكون بحق أولَ حاضن لهذا الدين، وليتغير مسار التاريخ البشري كله، من جرّاء احتضان هذه الدعوة، والدفاع عنها بالنفس والنفيس.

ومن رحمة الله عز وجل بالبشرية أنه يقيّض البَرَّ والفاجر؛ لنصرة الحق ورفع لوائه، حتى يأتي النصر من أبعد طريق من الممكن أن يتخيله الإنسان.

وهكذا كان تدبير الله لهذا الدين، فقد كان اليهود يسكنون المدينة وهم أهل كتاب، وَرَدَ ذكرُ النبي ﷺ في كتبهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

وكانوا إذا ما نشبت المواجهات الحربية بين اليهود وقبائل الأوس والخزرج، وكثيرا ما كان يحدث ذلك، نظرًا للتطاحن الشديد الذي كان بين قبيلتي الأوس والخزرج، واليهود يؤججون هذا الصراع، ويتحالف بعضهم مع الأوس وبعضهم مع الخزرج، وكانوا يعزون أنفسهم إذا أصيبوا، وفي الوقت ذاته يهددون الفريق الآخر بقولهم:

"إن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتْلَ عادٍ وإرم"(١)، ومن ثم كان أهل يثرب على ذكر من هذا النبي ﷺ، ومعرفةٍ ببعض صفاته.

وعلى الرغم من كل هذا فقد كفر به اليهودُ حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، ودخل أهل المدينة في دين الله، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٨٩].

وسوف نعرض في هذا الفصل بدء إسلام الأنصار، واحتضانهم لهذه الدعوة الجديدة، ومبايعتهم للنبي ﷺ على نصرته وحمايته، وهجرة النبي ﷺ إلى يثرب (المدينة المنورة).

١ النصير الصغير القادم من يثرب:

بدأ يبحث عن قرية أخرى، وهنا تبدأ حواراته مع بعض أهل يثرب الذين يفِدون إلى مكة. ثم كانت المقابلة العابرة لبني عبد الأشهل ـ من الأوس ـ، وكان قد قدِم الزعيمُ اليثربي "أَبُو الْحَيْسَرِ أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ" مَكَّةَ، ومعه ثلة من رجاله، فِيهِمْ "إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ" يَلْتَمِسُونَ إبرام تحالف مع قريش ضد الخزرج.

فسمع رسول الله ﷺ بهم؛ فَأَتَاهُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُمْ ـ بلسان الناصح ـ: "هَلْ لَكُمْ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ؟". قَالُوا: وَمَا ذَاكَ، قَالَ: "أَنَا رَسُولُ الله بَعَثَنِي إِلَى الْعِبَادِ، أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا الله لَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ كِتَابٌ".

ثُمَّ ذَكَرَ الإِسْلَامَ وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ ـ وكَانَ غُلَامًا حَدَثًا: أَيْ قَوْمِ! هَذَا، وَالله، خَيْرٌ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ! فَأَخَذَ أَبُو حَيْسَرٍ حَفْنَةً مِنَ التراب فرماه بها، فقام رسول الله ﷺ عنهم ـ ربما لسوء أدبهم ـ.

(١) البيهقي: دلائل النبوة، (٢/ ٧٦).

ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن مات، ولم يزل قومه يَسْمَعُونَهُ يُهَلِّلُ الله، وَيُكَبِّرُهُ، وَيَحْمَدُهُ، وَيُسَبِّحُهُ، حَتَّى مَاتَ، فَمَا كَانُوا يَشُكُّونَ أَنْ قَدْ مَاتَ مُسْلِمًا(١).

إن هذا الغلام صدح بالحق بين ظهراني الرجال وهم يصدفون عنه. فكان أنْ كتب اللهُ له حسْنَ الخاتمة؛ جزاءَ نصرته، ولقاءَ وقفته.

آه يا أخي من تلك المواقف، تلك التي تكون فيها لحظةُ صدق، أو وقفة حق، أو كلمة طيبة؛ يدخل الإنسانُ على أثرها جنةَ الخلد.

وكم تمرّ بنا تلك الفرص في حياتنا اليومية، فيُبتلى المرءُ بموقف يجد نفسه فيه بين أضراس الباطل؛ ولا معين للحق في هذا المشهد، ومطلوبٌ من الإنسان أن يقف فيها وقفةً إيجابيةً، يُفَرِّقُ فيها بين الحق والباطل، ولكن، سرعان ما يحتويه الشيطان، ولا يُري المرءُ ربَّه من نفسه خيرًا، فيسكت عن الحق، أو يخوض مع الخائضين.

في هذا المشهد المبارك دعوة لطيفة بالحسنى لهؤلاء الغرباء، وقد بين لهم النبي ﷺ حقيقة دعوته، واستعان في بيانه ذاك بآيات القرآن الكريم التي ترق لها القلوب، والقوم عرب فصحاء، ولا شك أن القرآن الكريم سيجد طريقه إلى قلوبهم، بفصاحته وحلاوته وأسلوبه المميز، وما فيه من حقائقَ ووعدٍ ووعيد.

ولئن كان القوم في عجلة من أمرهم، وجاءوا لالتماس الحلف من قريش، فإن الحوار معهم سيُنقل إلى المدينة، ويصير حديثًا من أحاديث نواديها، وسيعاود الناس السؤال عن ذلك الأمر الجديد، الذي تتحدث به مكةُ ليلَ نهارَ، وسنرى في المشهد التالي أثر ذلك كله، حين يعود بعض أهل المدينة إلى مكة ثانية.

٢ مصابيحُ ستة تضيء المدينة:

ولا زال هكذا؛ صلوات الله عليه، يدور على القبائل في مواسم الحج؛ يصدع فيهم بكلمة الحق، حتى أذن الله تبارك وتعالى أن يمنّ على الأوس والخزرج بهذه النعمة العظيمة؛ نعمة النصرة.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (٢/٣٥٢-٣٥٣).

www.almoslih.net

فبينا هو عند العقبة ـ بمنى ـ لقي جماعة من الخزرج؛ ـ وكانوا ستة، منهم أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ ـ فطلب ﷺ أن يجلس إليهم يكلمهم؛ فأذنوا له، وقد سألهم عن موطنهم، فأخبروه، وقال: «أَمِنْ مَوَالِي يَهُودَ؟»، قالوا: نعم.

وبذلك عرف خلفيتهم الثقافية، وعلم من أين سيبدأ الحوار، وقد كانت اليهود في المدينة تبشّر بمقدم نبي آخرَ الزمان.

جلس ﷺ إلى هؤلاء الشباب؛ فعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن؛ فعرفوا صدقه، فآمنوا، ودار بين محمد ﷺ وبين هؤلاء النفر الستة الحوار التالي:

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: من موالي اليهود؟ أي حلفائهم.

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟.

قالوا: بلى، فجلسوا معه.

فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، ودعاهم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن.

فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم، إنه لَلنبيُّ الذي تَوعَّدكم به يهودُ، فلا تَسبقنَّكُم إليه، فأسرِعوا إلى إجابة دعوته، وأسلَموا»[١].

كان إسلام هؤلاء الشَّبَبَةِ سهلاً سريعًا، للخلفية الدينية التي زرعتها يهود. وللفتن والهزات التي طحنت الجميع.

(١) البيهقي: دلائل النبوة، (٢/٤٣٤)، الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/١٥٩)، ابن كثير: السيرة النبوية، (٢/١٧٦)، ابن هشام: السيرة النبوية، (٢/٢٧٦).

ثم إن هؤلاء من الخزرج؛ الذين هم أرقّ أفئدةً، وأطيب قلوبًا، إذ أصولهم ترجع إلى اليمن، وقد تبوأوا دار المدينة من قبل، وقد قال ﷺ في أهلها: «جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ! هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً. الإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْفِقْهُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ»[١]. هؤلاء صفتهم في القرآن.

لم يقتصر الأمر على إعلان الإسلام فقط، ولكن انظر إلى مدى ما يتمتعون به من رجاحة في العقل، وسلامة في التفكير، عندما يعلنون للنبي ﷺ قولهم: «إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك. فسنقدم عليهم؛ فندعوهم إلى أمرك: ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجلَ أعزُّ منك. ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا»[٢].

وقد صدق هؤلاء النفر ما وعدوا به، فرجعوا إلى بلادهم وقد سيطر هذا الدين الجديد على نفوسهم، وأخذ بمجامع قلوبهم، فحملوا دعوته إلى أقوامهم، فنشروا الإسلام بين أقوامهم وذويهم حتى إنه لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ.

ودخل هذا النور في كثير منها ليضيء قلوب المؤمنين به، وليعود هؤلاء النفر إلى النبي ﷺ في الموسم التالي بعرض جديد ووافدِين جُدُدٌ، ليكونوا مصابيحَ هداية على طريق الدعوة.

في هذا المشهد المبارك نلتمس الحقائق الآتية:

١ من هداية الله تعالى وتوفيقه لرسوله ﷺ أن يلتقي ثانية بجماعة من أهل المدينة أراد الله بهم خيرًا، وفي هذه المرة لم يكونوا في عجلة من أمرهم، بل جاءوا للحج، فهم يلتمسون بذلك القربى إلى الله، ولكنها قربى على طريقة أهل الجاهلية.

(١) أخرجه البخاري، (١٩١).

(٢) انظر: البيهقي: دلائل النبوة، (٢/ ٤٣٤).

www.almoslih.net

ب دعاهم النبي ﷺ بأسلوبه الجميل وبيانه اللطيف، واستعان بآيات القرآن الكريم في ذلك، كما كان دأبُه في محاوراته ودعوته إلى الله.

ج كان أولئك النفر من الخزرج يعيشون مع اليهود في المدينة، ويتسمّعون منهم الأخبار عن قرب ظهور نبي يتبعه اليهود؛ فيظهرون به على العرب.. وهنا وافقت هذه المعلومات حقيقةَ ما وجدوه في مكة، فتظاهرت الدلائل عندهم على صدقه ﷺ فيما دعاهم إليه، ورجَوا أن يكونوا من السابقين إلى ذلك الخير.

د أسلم أولئك الكرام، ثم تذكروا قومهم، وما بين الأوس والخزرج من عداوة وثارات، فرجوا أن يكون الإسلام مخلِّصًا لهم من ذلك كله، ومما هو أكبر منه، من الشرك بالله عز وجل... وهنا وعدوا الرسول ﷺ بأنهم سيدْعون قومهم إلى الإسلام.

وهذه الخطوة الكبيرة تُعدّ أولَ سابقة مبشرة بانتشار الإسلام خارج مكة، وسوف تتلوها خطوات تفضي في النهاية إلى هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

٣ بيعة العقبة الأولى:

ذكرنا أنه ﷺ في موسم الحج عام ١١ من البعثة، اجتمع بجماعة من الخزرج ـ وكانوا ستة، منهم: أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ ـ وقد تمخض الاجتماع عن إسلام هذا الوفد المبارك، والعودة إلى المدينة لدعوة أكبر عدد ممكن للدِّين الجديد، والحضور إليه ﷺ في موسم الحج القادم (سنة ١٢ من البعثة)؛ ليلتقي بنخبة من الأوس والخزرج. وقد كان.

وجاء في هذا الموسم اثنا عشر رجلًا فيهم خمسة من الستة الذين جاءوا في العام السابق، وهذا يعني أن كل رجل من الستة دعا رجلًا مثله ـ تقريبًا ـ، وهاكم رهطَ العقبة الأولى جميعًا ـ الداعين والمدعوين:

الداعون:

وهم الذين حضروا في العامين الماضي والحالي [عدا جابر بن عبد الله بن رئاب؛ فإنه تغيب عن هذه البيعة، وهو من أكابر الصحابة وقد شهد بدرًا وأُحدًا]:

1. أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ بْنِ عُدسَ ـ وَهُوَ أَبُو أُمَامَةَ ـ من بني النجار.
2. عَوْفُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ رِفَاعَةَ ـ وقد قتل في بدر ـ وهو من بني النجار.
3. رَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ الْعَجْلانِ ـ من بني زُرَيْقٍ.
4. قُطْبَةُ بْنُ عَامِرِ بْنِ حَدِيدَةَ ـ من بني سلمة.
5. عُقْبَةُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نَابِي ـ من بني حرام بن كعب.
6. جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ رِئَابِ – من عبيد بن غنم.

وهؤلاء من الخزرج جميعًا .

المدعوون:

وهم الذين استجابوا لدعوة إخوانهم الستة.

1. معاذ بن الحارث، ابن عفراء ـ أخو عوف بْنِ الْحَارِثِ ـ من بني النجار [من الخزرج].
2. ذَكْوَانُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ ـ من بني زُرَيْق ـ قُتل في أحد ـ. [من الخزرج].
3. عُبَادَةُ بْنُ الصّامِتِ بْنِ قَيْسٍ ـ من بني عوف ـ وهو من علماء الصحابة، وكان نقيبًا ومعلمًا لأهل الصُّفة ـ[من الخزرج].
4. يَزِيدُ بْنُ ثَعْلَبَةَ بْنِ خَزَمَةَ ـ من بني عوف ـ قُتل يوم أُحد[من الخزرج].
5. الْعَبّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ ـ من بني سالم [من الخزرج].

❻ أبو الهَيْثَم بن التَّيِّهَان من بني عبد الأشهل [من الأوس].

❼ عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ ـ من بني عمرو[من الأوس].

التقى ﷺ بهؤلاء الرجال، فبايعهم البيعة الأولى، وكانت بنودها على النحو الذي رواه عبادة بن الصامت، فعن عبادة بن الصامت ﷺ أن محمدا ﷺ قال لهم عند العقبة: «تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى:

❶ أَنْ لا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا.

❷ وَلا تَسْرِقُوا.

❸ وَلا تَزْنُوا.

❹ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ.

❺ وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُم.

❻ وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ.

فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ الله؛ فَأَمْرُهُ إِلَى الله إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ»(١).

هذه هي الآفات الست: الشرك، والسرقة، والزنى، والوأد، والكذب، والعصيان.

تلك الآفات التي أراد ﷺ أن يمحوها، وأن يطهر الوطن الجديد منها.

إن الدولة النظيفة، لا تقوم إلا على مجتمع نظيف. والدولة الأخلاقية أحرى بالبقاء والتمكين، والدولة الماجنة الفاجرة أحرى بالزوال والانزواء، وإن كانت الأولى تعد في المسلمين، والثانية تعد في الكافرين.

فالأخلاق عماد الحضارات، فإن غابت الأخلاق فيها أشرفت على الهلاك.

لذا قيل: إن الدولة تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام.

(١) أخرجه البخاري، (٣٦٠٣).

هاكم فحوى البنود:

البند الأول هو التوحيد، فهو عماد دولة الإسلام، وهو حق الله على العباد، والتوحيد: هو مرجعية الدستور، والحاكم والمحكوم، والتوحيد: هو أساسُ عادات وتقاليد وثقافات الشعوب الإسلامية؛ فلا تشريع يخالف الأصول الإسلامية، ولا عادةً، ولا تقليدًا، ولا فكرًا يخالف العقيدة الإسلامية.

﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

البند الثاني، هو تحريم السرقة، فمتى تفشّت السرقة في مجتمع تفشّت مظاهر الظلم الاجتماعي. وحيثما تجد السرقة، تجد بناتها: الخمور والمخدرات والفواحش، وغيرها من مساوئ الأخلاق.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[المائدة: ٣٨].

البند الثالث، هو تحريم الزنى، فهو أس الخراب الأخلاقي، وهو عمدة اليباب بين الشباب، وطريق الهلاك بين البيوت، والزنى والموت صنوان، وما فشا الزنى في مجتمع إلا فشا فيه الموت والأمراض المعدية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

البند الرابع، **هو تحريم قتل الأولاد**، ولفظة «أولاد» هنا تنسحب على الذكور والإناث، ويشتمل هذا البند على تحريم وأد البنات أو قتلهن خشية إملاق أو فقر.

وعجبا! هذا النبي الكريم ﷺ حارب وأد البنات، ونجح في القضاء على هذه العادة إلى الأبد ـ ثم يأتي بعد ذلك أناسٌ يتهمون الإسلام بظلم المرأة!

لقد كان البند الرابع في البيعة التأسيسية لدولة الإسلام منوطًا بإنقاذ المرأة، وإنقاذ البنات، في وقت كان الشرق والغرب يمارسون على البنات أشنع التعذيب والتنكيل.

وقد كانت الفلسفة الأوربية في هذا الوقت ترى: أن المرأة كائن شرير، دون الإنسان، وفوق الحيوان، كان هذا الكلام يصدر من (علماء) أوربا في هذا الوقت، ذلك الوقت الذي كان فيه ﷺ يشترط على الأوس والخزرج ويبايعهم على تحريم قتل البنات..

(وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ)

البند الخامس، الذي قال فيه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٣١]. وهذا البند يحرم البهتان الذي هو ابن الكذب، ويقال: بهت الرجلُ صاحبه يبهته بهتًا وبهتانا، أي كذب عليه.

فمجتمعُ الكذبِ والبهتان؛ مجتمعٌ مريض مهزوم متفكك، ليس بيئة صالحة لدولة إسلامية ناشئة. ثم هو البهتان الذي يُنسب فيه الولد لغير أبيه، أو تفتري المرأةُ على الرجل في عرضه، أو يفتري الرجلُ على المرأة في عرضها.

وقد رَبطَ هذا البهتانُ باليد والرِّجل، فقال بهتان: **(تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ)**، ذلك لأن معظم أفعال العباد تنسب إلى الأيادي والأرجل؛ لذا يقال للمسيء: هذا بما كسبت يدُك، واليد لم تفعل شيئًا.

البند السادس، فهو في الطاعة، وقد قال ﷺ فيه: «وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ»، ومعنى لا يعصون النبي ﷺ في معروف: أن الطاعة تكون له كمشرِّع، وكحاكم .. كمشرِّع في أمور الدين، وكحاكم في أمور الدولة. ومن ثم فإن ولاء الأنصار سينتقل من القبيلة إلى الإسلام، ومن زعماء الكفر إلى إمام المسلمين، فلا طاعة عليهم إلا لله ورسوله والمؤمنين وأولي الأمر منهم.

وعلم الله أن النبي ﷺ لا يأمر إلا بمعروف، ومع ذلك أشار البند إلى أن الطاعة لا تكون إلا في معروف، كما في قول الحق تبارك وتعالى في بيعة النساء: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة:١٢]. ذلك لتكون طاعةُ المخلوق في معصية الخالق؛ جديرة بغاية الاجتناب والحذر منها.

فمن أَمَرَه وليُّ أمرهِ بمعصيةٍ وأطاعه فيها؛ فلا يلومنّ إلا نفسه، وهذا التحذير نوجهه إلى الناس كافة، وإلى أصحاب المناصب من الخفير إلى الوزير إلى الرئيس إلى الإمام.

وقد قال النبي ﷺ: «لا طَاعَةَ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[(١)].

فهذا الموظف الذي يعمل في الحكومة، أو غيره من رجال الشرطة، وغلمان السلطان، وعَسَسِ الأمراء لا عذر لهم أمام الله إن آذوا الناس بحجة تنفيذ أمر الوزير أو الأمير، وإنك لتحاور أحدَهم؛ تقول له: لِـمَ تظلم الناس؟ فيكون رده ـ الذي توارثته أجيال العار ـ: "أنا عبد مأمور"!.

وَيحَ هؤلاء! إن الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول في أمثالهم: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

وأمثال هؤلاء، أشار إليهم ﷺ في الصنف الأول من قوله: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»[(٢)].

أخذ ﷺ البيعةَ على أصحاب العقبة الصغرى في حدود هذه البنود الستة، التي لم يشر فيها إلى الجهاد العسكري، إنما أشار في هذه البيعة إلى وجوب طاعته في كل معروف، وهو بند مفتوح لما يجدّ من أحكام شرعية، وتعاليم إسلامية ..

«فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله» .. ذلك أن هذه البيعة لا جزاء لهم بها دنيا أو إمارة أو وزارة، إنما أجرهم عند الله، وعلى هذا الأساس الأخروي تبتنى الدول

(١) أخرجه أحمد، (٤٥/ ٦٥)، وهو في السلسلة الصحيحة، (١٧٩).
(٢) أخرجه مسلم، (٣٤٣٧).

الإسلامية، وتُقام الجماعات الدعوية، فغنيمة العاملين في هذه الدول والدعوات هي "ثواب الله".

«وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا؛ [أي من هذه المحرمات] فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ» .. إشارة ضمنية لقدوم أحكام تشريعية ـ في المستقبل ـ تتعلق بحدود الزنى وقتل النفس وغيرها من الحدود.

إنه ﷺ علم في هذه الساعة التي يتحدث فيها إلى رجال العقبة الأولى ـ أنه ستكون أحكامٌ، وستتنزل آيات تشريعية في الكبائر الاجتماعية. يعلم جيدًا أن المرحلة القادمة ـ مرحلة العهد المدني ـ هي مرحلة بناء الدولة، كما علم من قبل أن المرحلة السالفة ـ مرحلة العهد المكي ـ هي مرحلة بناء الجماعة.

وهكذا يتبدى لنا الوعي الحركي والفقه التنظيمي عنده ﷺ. ألا فليعلم الدعاةُ أن الدعوة: إيمانٌ وفقه وحركة. أن الدعوة عقيدةٌ راسخة تقوم عليها الثقافة الإسلامية الواسعة، تلك التي تتحرك في إطار مراحل مرتبة، وخطط مُنظمة، وجداول عمل، وبرامج تنفيذ، ووسائل دعوية مختلفة ...

كل هذه العناصر تسعى حثيثًا ـ في منظومة متكاملة ـ لتحقيق الغاية الكبرى؛ ألا وهي رضوان الله تبارك وتعالى ..

«وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ الله، فَأَمْرُهُ إِلَى الله إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ».

فلما كان المردّ إلى الله، والمبتغى هو الله، كان هو هو وحده يُكافئ أصحابَ هذه البيعة إذا التزموا بها، وإليه يرجع أمرهم إذا خفروا أمانتها، وخالفوا بنودها، إن شاء عاقبهم بعدله، وإن شاء عفا عنهم برحمته.

بَيْعَةٌ أو ... مِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ!

قال ﷺ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ؛ لَقِيَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا حُجَّةَ لَهُ. وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»(١).

هؤلاء الأنصار ﷺ بايعوه ﷺ على بنود تنسف ركام الجاهلية نسفًا، ولما كانت البَيْعات؛ لا تكون إلا في معروف؛ كانت براءة لصاحبها من ربقة الجاهلية إنْ وَفّى وأدى والتزم البنود.

وإنما وصف النبيُّ ﷺ ميتته بالميتة الجاهلية، لأن أهل الجاهلية كانوا يأنفون من الانصياع لأحد من الناس، ولا يقبلون بالدخول في طاعة أحد من الرجال، وقد كانوا يتهالكون وليس فيهم إمام مطاع؛ فوصف ﷺ حال من لم يدخل في طاعة إمام المسلمين بحال أهل الجهل والجاهلية.

وهذا للتأكيد على خطورة الخروج عليه، علمًا أن فعاليات المبايعة تكون مَنوطةً بمجلس أهل الحل والعقد المنتخب من جماهير المسلمين، لذا فإن المبايعة لا تكون ملزمة جماهير المسلمين؛ ما دام فيهم مجلس أهل الحل والعقد الذي يمثلهم تمثيلًا شرعيًا.

وليس المراد من قول محمد ﷺ: «مات مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» أنه يموت كافرًا بل يموت عاصيًا. فهو إن خلع رداء الطاعة لم يخلع ثوب الإسلام.

... وأخيرًا على كل مسلم أن يسعى إلى إعادة الخلافة الإسلامية حتى لا يقع تحت طائلة هذا الحديث، فاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا.

تمّت بيعة العقبة الأولى، وأرسل ﷺ مع وفد الأنصار سفيرًا وداعيًا ومعلّمًا؛ هو مصعب بن عمير رضي الله عنه، فمكث فيهم نحو عام؛ فلم يترك بيتًا إلا دخله، ولم يترك تجمعًا إلا تصدى له، حتى أسلم على يديه معظم الأوس والخزرج، وجُلُّ زعمائهم أمثال: أسيد بن حضير وسعد بن معاذ.

(١) أخرجه مسلم، (٣٤٤١).

نجح مُصْعَبٌ نجاحًا عريضًا، وقد قفل راجعًا إلى النبي بمكة قبيل موسم الحج من العام الثالث عشر للبعثة يعني قبيل بيعة العقبة الكبرى ـ، وذلك ليرفع إلى النبي ﷺ الواقع الدعوي خلال عام من عقد بيعة العقبة الأولى.

وإنه لخيرُ نموذجٍ للداعية المتجرد .. مصعب بن عمير ﷺ الذي ترك حياة الترف والنعيم، وترك بيته الفاخر في مكة، وترك أهله أصحاب الشرف والسيادة ...

ترك كل هذا، متجردًا منقطعًا لله رب العالمين، ثم هو يذهب إلى المدينة داعيًا ومعلمًا، يدور على البيوت، يدعو، ويعلّم، وينشر الإسلام، حتى هدى الله على يديه خلقاً كثيرًا. ثم هو يموت شهيدًا في معركة أحد فقيرًا «فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مَا يُكَفَّنُ فِيهِ إِلَّا بُرْدَةٌ».

٧ بيعة العقبة الثانية:

حتى جاء موسم الحج سنة ١٣ من البعثة؛ وجاء وفد البيعة لموعدهم، وقد عزموا على مقابلة النبي ﷺ وحمله إلى ديارهم.

قال كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ:

فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الْحَجِّ وَكَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَعَدْنَا رَسُولَ الله ﷺ وَمَعَنَا عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ ـ أَبُو جَابِرٍ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا ـ وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ:

يَا أَبَا جَابِرٍ! إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا!

«ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ الله ﷺ فَأَسْلَمَ، وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ، وَكَانَ نَقِيبًا ...»(١).

(١) أخرجه أحمد، (٣٣/ ٣٩١)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة.

كانت فاتحة خير؛ أن أسلم هذا الصنديد السيد، عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ، الذي شهد بدرا، وقُتل في أحد، ذلك الذي قال فيه النبي ﷺ يحدث ولدَه جابرًا: «أَفَلا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ الله بِهِ أَبَاكَ؟».

قَالَ جابر بن عبد الله: بَلَى يَا رَسُولَ الله!

قَالَ: «مَا كَلَّمَ الله أَحَدًا قَطُّ، إلا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا، فَقَالَ: يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي؛ فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً، فَقَالَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يُرْجَعُونَ! قَالَ: يَا رَبِّ فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي» قَالَ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]»(١).

قال كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ـ متابعًا حديثه عن ليلة العقبة الثانية ـ: «فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا، فِي رِحَالِنَا، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ الله ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا(٢)، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلًا، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ: نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ ـ أُمُّ عُمَارَةَ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ ـ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيِّ ابْنِ ثَابِتٍ ـ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلِمَةَ وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ ـ»(٣).

ومن الملاحظ أن عددَ أصحابِ العقبةِ زاد خلال السنواتِ الثلاثِ الأخيرة من ستٍّ إلى اثني عشر إلى سبعين .. لا بد أن ننتبه بأننا لا نتحدث عن المسلمين في المدينة! إنما نشير إلى حركة الدعاة الفاعلين في المجتمع اليثربي الذين كلَفوا أنفسهم مشقة السفر، وتحمَّلَ تبعة البيعة؛ هذا النجاح الكبير للدعوة الإسلامية في المدينة كان بفضل دعاة توافر فيهم الإيمان والإخلاص والحماسة والعمل.

(١) أخرجه ابن ماجه، (١٨٦)، وصححه الألباني.

(٢) طائر يضرب به المثل في الحذر، ويوجد من القطا سلالات عديدة، وهي منتشرة في جميع أنحاء الكرة الارضية.

(٣) أخرجه ابن ماجه، (١٨٦)، وصححه الألباني.

www.almoslih.net

لو لم تكن حركة الدعوة في المدينة على قدر هذه المسؤولية؛ لَمَا خرج منها في هذا العام سبعون؛ يتسللون إلى رسول الله ﷺ تسلل الطريدة من يد الصائد ـ؛ يفقهون معنى الكتمان والسرية، يعلمون جيدًا طبيعة المرحلة المكية؛ يلتقون برسول الله ﷺ في أواخر أيام الحج؛ حتى لا ينكشف أمر بيعتهم، وإذا انكشفت لاذوا بالخروج في معترك خرجة الحجيج، يتخيرون الوقت الأنسب لإبرام البيعة.

فقد كان لقاؤهم تحت جناح الليل؛ والعيون نائمة، والآذان غائبة؛ فاجتماعُ جماعةٍ من الأوس والخزرج به ﷺ في حد ذاته؛ أمرٌ خطير بالنسبة لقريش.

كلمة العباس:

قال كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: «فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ الله ﷺ؛ حَتَّى جَاءَنَا، وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، إِلا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ، وَيَتَوَثَّق لَهُ؛ فَلَمَّا جَلَسْنَا؛ كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ ـ وَكَانَتْ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا ـ إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا، مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ»[1].

قال العباس: «وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلا الانْحِيَازَ إِلَيْكُمْ، وَاللّحُوقَ بِكُمْ؛ فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ وَمَانِعُوهُ مِمّنْ خَالَفَهُ فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم؛ فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده»[2].

(١) أخرجه ابن ماجه، (١٨٦)، وصححه الألباني.

(٢) ابن هشام، (١/١٤١، ١٤٢).

الاستفادة من رموز المجتمع:

ووجود العباس هنا له مغزىً مهم؛ ذلك لتعلمَ الأنصارُ أن الذين يدافعون عن محمد ﷺ ليسوا أتباعه فحسب؛ إنما يَتقسمُ الذب عن محمدٍ، على المسلمين عامة، وعلى آل محمد خاصة، مسلمِهم وكافِرِهم على حد سواء؛ وهؤلاء المشركون ممن هم من بني هاشم وبني عبد المطلب هم الذين ساندوا محمدًا ﷺ في محنة الحصار؛ ودخلوا معه الشعب بقيادة أبي طالب.

يشير العباس إلى ذلك بقوله: «وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ».

أما قوله: «وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ»، ففيه مبالغة. وموقفه هذا، وكلمته البليغة تيك؛ إنما يهدف بذلك كما قال سيدنا كعب: «أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ، وَيَتَوَثَّق لَهُ».

وفي ذلك درسٌ لأبناء الدعوة الإسلامية؛ أن يستعينوا برجالات المجتمع المنصفين ممن يُحسبون في صف المخالفين للدعوة؛ فأنت تجد نماذجَ محترمة، ومعادنَ طيبة في بعض القادة والساسة والكُتّاب ممن لا يعملون للفكرة الإسلامية.

وواجب الدعوة أن تستفيد من هذه الرموز المنصفة خيرَ استفادة لمصلحة الدعوة؛ كأن نَدْعُوهم لعمل مشترك، أو نوجه أحدهم لباب من أبواب الخير للدين، أو نعقد ندوة أو محاضرة لكاتب من كتابهم؛ يشرح ويطرح ما يخدم الدعوة.

على أن بعض قادة الدعوة أحيانًا يقعون في خطأ؛ هو العمل على تلميع هذه الرموز التي لا نضمن ولاءها الكامل للدعوة الإسلامية، وفي نفس الوقت نرى بعض هؤلاء الرجال ـ من أبناء الدعوة الإسلامية ـ من لا يُحسن تفعيل الكوادر الفكرية والتربوية التي تنضوي تحت لواء الدعوة الإسلامية؛ ممن يستطيعون أن يسدوا مسد غيرهم أو يسدوا شيئًا من مسدهم.

التمترس بالعشيرة يعد جانبا من فقه موقف العباس.

وجانب آخر؛ أن يُحسن الداعية التمترس بأهله وعائلته وعشيرته؛ وأن يتخيّر لدعوته منهم؛ من يُوجهه التوجيه السديد لخدمة الدعوة، وهذا بالضبط ما صنعه محمد ﷺ مع العباس، ومع عمه أبي طالب من قبل.

قال كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ردًّا على العباس: «فَقُلْنَا قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ. فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ الله، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ».

«فَتَكَلَّمَ رَسُولُ الله محمد ﷺ فَتَلا، وَدَعَا إِلَى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَرَغَّبَ فِي الإِسْلامِ»[(١)].

بنود البيعة الكبرى:

قال جابر بن عبد الله: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله عَلامَ نُبَايِعُكَ؟.

قَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى:

١. السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ.
٢. والنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ.
٣. وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.
٤. وَأَنْ تَقُولُوا فِي الله، لاَ تَخَافُونَ فِي الله لَوْمَةَ لاَئِمٍ.
٥. وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي؛ فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ.

.... وَلَكُمُ الْجَنَّةُ»[(٢)].

(١) أخرجه ابن ماجه، (١٨٦)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه أحمد، (٤٨٣٠)، وهو في السلسلة الصحيحة، (٦٣).

وهذه خماسيةٌ؛ فوق سداسيةِ العام السالف، فتم للأنصارِ أحدَ عشرَ بندًا؛ هي نواة الدولة الإسلامية التي أوشكت على السطوع.

ومن الملاحظ أن بنود هذه البيعة أشدّ وأعلى من بنود السابقة.

أنت ترى "الإنفاق والقتال" في طيات هذه البيعة الكبرى.

إن الجهاد بالنفس والمال هو جوهر هذه البيعة العظيمة؛ فلا قوام لدعوة ولا دولة ولا خلافة دون تضحية بالنفس وبالمال.

البند الأول، في السمع والطاعة في السلم وفي الحرب، في السكنة وفي الحركة، في الحضر وفي السفر: "تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ".

وهذا أصل في نجاح أي عمل جماعي، وبغير السمع والطاعة؛ تذهب الريح، وتفتر القوة، ويضيع العمل قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الأنفال: ٤٦].

البند الثاني في الجهاد بالمال، فنحن مقبلون على مرحلة الدولة؛ وهي بحاجة إلى جيش وقوة، واقتصاد وعُدة، فقال: "والنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ". فواحد من اثنان، الإنفاق أو الهلاك، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة: ١٩٥].

البند الثالث، في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلكم الأصل الذي هو علامةٌ على خيرية هذه الأمة وفضلها وريادتها، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

البند الرابع: «وَأَنْ تَقُولُوا فِي الله، لاَ تَخَافُونَ فِي الله لَوْمَةَ لاَئِمٍ»،

وفي حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ: «وَأَنْ نَقُومَ ـ أَوْ نَقُولَ ـ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا؛ لا نَخَافُ فِي الله لَوْمَةَ لاَئِمٍ»[(١)].

(١) أخرجه البخاري، (٦٦٦٠).

أن يخوضوا الغمرات للحق، وأن يصدعوا بكلمة الحق بين ظهراني الناس.

وأيُّ شيءٍ أعظمُ منزلةً من رجل قام إلى ظالم فزجره، أو فاجر فنهره، أو معتدٍ فزَبَره.

وإنْ قُتل صاحب كلمة الحق جزاء كلمته؛ فهو سيد من سادات الشهداء.

البند الخامس والأهم؛ القتال دون رسول الله ﷺ حتى يبلِّغ رسالةَ ربه؛ ينصرونه، ويذودون عنه مثلما يدافعون عن أزواجهم وأبنائهم، فقال: «وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي؛ فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ، مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ».

وهو الميثاق الغليظ الذي أخذه الله على الأمم السابقة؛ وقتما بُعث محمدٌ؛ لتؤمنن به ولتنصرنه قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

خمسة بنود؛ إنْ التزمتم بهن؛ فلكم الجنة. هكذا كانت الصفقة والتجارة مع الله. لم يُمَنِّهِمْ بمنصب أو وزارة أو إمارة أو مكافأة مالية. وهذه هي طبيعة العلاقة بين الداعي ودعوته؛ لا ينتظر من ورائها عَرَضًا من أعراض العاجلة، وما الحياة الدنيا إلا متاع قليل، فضلًا عن كون هذه البيعة لا تصلح إلا للذين تجردوا لله، وأخلصوا أنفسهم لنيل رضوانه، ولَلدّارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يتقون، أفلا تعقلون؟

مبادرة الْبَرَاء بْنِ مَعْرُورٍ

قال كعب بن مالك: «فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا[١]، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ، وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ[٢]، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ!»[٣].

(١) أي: نساءنا كنى عنهن بالأُزر. (٢) أي: السلاح.

(٣) أخرجه أحمد، (١٥٢٣٧)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة.

هذه كلمة سيّد الخزرج، هو حديث عهد بالإسلام، بل أسلم قبيل هذه البيعة بساعات، وقد توفي رضي الله عنه قبيل الهجرة بشهر واحد؛ إذن عاش هذا الزعيم في الإسلام مدة سنة واحدة تقريبًا؛ ولم تر له أعظم من موقفه هذا وكلمته تلك، تلك التي بلغته بُلغة الرضوان والخلد في الجنان.

استفسار لأبي الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيِّهَانِ

قَال كعب: فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ ـ وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ الله ﷺ ـ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ ـ حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ ـ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ [يعني اليهود] حِبَالًا وَإِنَّا قَاطِعُوهَا [يَعْنِي الْعُهُودَ]؛ فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ الله؛ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ: «بَلْ الدَّمَ الدَّمَ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ مِنِّي؛ أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ»[١].

لقد تبسم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، لكلمة أبي الْهَيْثَمِ، والتي دلت على شخصية جادة، تحرص على أمن وطنها وسلامة أهلها، فهو يتساءل سؤال المحقق الحصيف ـ الذي يفكر في مستقبل الأمور ـ عن مصير قومه إذا ما نبذوا أحلاف الجاهلية؛ حتى إذا ما أنعم الله على نبيه بالنصر والتمكين، تركهم وعدوَّهم!

نعم، تبسم لهذا المعنى الذكي، تشجيعًا وتقديرًا لصاحب الرأي والفكر، وكان ﷺ إذا تبسم؛ كأنما خرج الصبح من ثغره؛ حينئذ ينتشر نوره على البسيطة، وتتوسم الثغورُ من مبسمه البشائرَ والأفراح من هنا وهنا.

وفي ثنايا هذه البسمة التي أنارت ظلمة العقبة، وفي ثنايا هذه الإشراقة التي خرجت من جبينه الوضاح، قال مُعاهدًا وواعدًا وعد الحر الكريم: «بَلْ الدَّمَ الدَّمَ،

(١) أخرجه أحمد، (١٥٢٣٧)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة.

www.almoslih.net

وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ»: أي حُرْمتي مع حُرْمَتِكم، وبيتي مع بَيْتِكم. والعرب تقول: دَمِي دَمُك وهَدَمِي هَدَمُك في النُّصْرة.

«أَنَا مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ مِنِّي؛ أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ».

ويا لها من شهادة ووسام! فهؤلاء صاروا من الرسول ﷺ وصار الرسول منهم؛ لما نصروه والتزموا بيعته.

وهذه العطية الكريمة ليست للأنصار خاصة؛ بل هي لكل من وقف موقف النصرة للرسول ﷺ، فمن تبعه فهو منه، ومن نصره فهو منه.

إن أنصار رسول الله ﷺ في كل زمان ومكان؛ يبعثهم الله على رأس كل قرن؛ فسلكهم ينابيعَ هدايةٍ ونورٍ؛ ينشرون الإسلام في أصقاع الأرض، إسلامًا صافيًا طاهرًا كيوم نزوله؛ غير ذي عوج، لا يخشون في الله لومة لائم، أولئك يقول لهم رسول الله ﷺ: «أَنَا مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ مِنِّي». أولئك الذين يعرفهم رسول الله ﷺ على الحوض غرًا محجلين.

تنبيه حكيم من أَسْعَد بن زُرارة:

قال جابر بن عبد الله: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ؛ وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ ـ وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ ـ فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ! فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الإِبِلِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً، فَبَيِّنُوا ذَلِكَ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ.

قَالُوا: أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ؛ فَوَاللهِ لَا نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا وَلَا نَسْلُبُهَا أَبَدًا. قَالَ جابر: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا، وَشَرَطَ عَلَيْنَا، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ[1].

(١) أخرجه أحمد، (٤٨٣٠)، السلسلة الصحيحة، (٦٣).

هذا أسعد بن زرارة ـ أول مسلمي يثرب، وأشد الأنصار تحمسًا للإسلام ـ؛ لم يكن ليفعل ذلك إلا ليحفز الأنصار على التمسك بالبيعة وإدراك تبعاتها المستقبلية، والاستعداد النفسي لكل ما يترتب عليها من صروف وأحوال.

رأى أَسْعَدُ بْن زُرَارَةَ ـ بثاقب بصيرته ـ أن تبعات هذه البيعة؛ ثلاثٌ هي:

❶ «مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً»: فهم في خندق وأنتم في خندق، لهم دينهم ولكم دين.

❷ «وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ»: إذ لن تترك العربُ رسولَكم؛ وأنتم ستقاتلون دونه ـ كما نص البند الخامس ـ؛ فتُقتلون دونه، وهذا حق الوفاء ببيعكم الذي بايعتم.

❸ «وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ»: فمن لم يُقتل دون رسول الله ﷺ فلا أقل من مكابدة القتال؛ فيصيبكم في سبيل الله القرح والجرح.

الانتخابات التنظيمية، والمجموعات التربوية:

وهنا قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ».

فَأَخْرَجُوا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا مِنْهُمْ تِسْعَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الأَوْسِ[1].

ومن سنّة رسول الله ﷺ أنه ترك لجماهير الأنصار حرية انتخاب ثلة من النقباء، ليكونوا عليهم أمراء، يتعهدوا قومهم بالنصح والتربية والتعليم.

وفي الحال، وفي تلك الساعة الحرجة من الليل؛ انتخبوا منهم اثني عشر نقيبًا؛ ومن ثم يكون تحت النقيب الواحد نحو ستةٍ من الرجال. وهكذا جعل الرسول ﷺ من جماهير وفد العقبة؛ مجموعاتٍ تربويةً، وأسرًا إيمانيةً، كل مجموعة أو كل أسرة تتألف من ستةٍ أو سبعةٍ من المؤمنين العاملين المبايعين.

(١) أخرجه أحمد، (١٥٢٣٧)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة.

علينا أن نفقه وسيلة "المجموعات التربوية" التي ابتكرها الرسول ﷺ؛ وهي، إن كانت وسيلة من وسائل التربية فهي سُنة من السنن النبوية التي يجهلها الكثيرون.

يا ترى! ما الذي كان يدور داخل هذه المجموعات، بين الأخ وأخيه، أو النقيب وتلميذه؟ لك أن تتخيل ذلك؛ وأن تعصف ذهنك حول مئات أو آلاف الجلسات التي جلسوها، وعلى كل حال لن تخلو هذه المجموعات من اجتماعها على مدارسة القرآن الكريم، والتفقه في الدين، والتعبد بالليل، والدعوة بالنهار، وتهيئة المدينة لاستقبال رسول الله ﷺ.

وهكذا فقهوا العمل الجماعي الدعوي من أول جلسة جلسوها إلى النبي ﷺ.

صرخة الشيطان:

وبعد أن تمت البيعة، ثم الانتخابات، ثم المجموعات، كل ذلك في ساعة من الليل؛ كان حقًا على الشيطان أن يُنفس عن مصيبته؛ إذ رأى الملعون أن شمل رسول الله ﷺ اجتمع وأن الدولة الإسلامية قاب قوسين أو أدنى؛ فصرخ صرخته ـ كما في الحديث الصحيح ـ: "يَا أَهْلَ الـجَبَاجِبِ[١]، هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ، وَالصُّبَاةُ مَعَهُ، قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ ؟"

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هَذَا أَزَبُّ الْعَقَبَةِ، هَذَا ابْنُ أَزْيَبَ، اسْمَعْ أَيْ عَدُوَّ الله! أَمَا وَالله لَأَفْرُغَنَّ لَكَ!»[٢].

وهنا أمر الرسول ﷺ أن يَرفع الصحابةُ إلى رحالهم، وقد بدأت مكة تستيقظ على صوت الشيطان، وقد أكد لنا الرسول ﷺ ـ في الحديث الصحيح ـ أنه شيطانٌ فعلًا وذكره باسمه واسم أبيه (أَزَبُّ الْعَقَبَةِ، هَذَا ابْنُ أَزْيَبَ). ومن ثم لا حجة

(١) الْجُبَاجِبُ الْمَنَازِلُ.
(٢) أخرجه أحمد، (١٥٢٣٧)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة.

لهؤلاء الذين يستحيون من سنة نبيهم؛ ويقولون: هو مشرك من مشركي مكة وَصفه الرسولُ ﷺ بصفة الشيطان!

الاختبار الأول للأنصار:

ثم قال الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا!

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ»[١].

وقد نص البند الخامس: «عَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي؛ فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ...».

ومعلومٌ أن فريضة القتال في سبيل الله لم تُشرع إلا في العهد المدني.

إن هذا الموقف كان الاختبار الأول للأنصار؛ ونجحوا إذ كانوا على أتم استعداد على امتشاق السيوف في وجه صناديد قريش إذا أمر الرسول ﷺ، بيد أنه هو الذي كف أيديهم عن ذلك، وقال مؤكدًا على طبيعة المرحلة المكية:

«لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ».

هنا، يقولها صراحةً؛ إن الأمر بالكف عن القتال ـ في الفترة المكية ـ كان بأمر من الله؛ ومن ثم لا يزال المسلمون يعملون بهذه التكاليف حتى يأتيهم أمرٌ آخر من الله يأذن لهم في القتال، ثم يأتيهم أمر ثالث بقتال الذين يقاتلونهم، ثم أمر رابع بقتال كل من وقف عقبة في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي، وهكذا نرى التدرج التشريعي في فريضة الجهاد؛ شأن الشريعة الإسلامية في كثير من الأحكام.

ومن قوله ﷺ: "لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ" تستشف مدى التزامه ﷺ بحدود كل مرحلة، وحركيته الدقيقة، وتحرجه الشديد من تأخير فعل لا يقبل التأخير، أو تقديم فعل

(١) أخرجه أحمد، (١٥٢٣٧)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة.

www.almoslih.net

لا يقبل التقديم، يدلك هذا على نفسٍ منضبطة، وشخصية متزنة، وداعيةٍ؛ ملتزمٍ بأحكام الله.

انكشاف السر والعرض الأنصاري:

قبل أن ينفض المجلس، وبعد تمام البيعة العامة للوفد والخاصة للنقباء، تَسَمَّع بعض الشياطين على هذا الوفد وعَلِمَ ما دار بينهم، فَهَمَّ بإبلاغ زعماء قريش ليباغتوا المجتمعين وهم في الشعب.

فقام على مرتفع من الأرض، وصاح بأنفذ صوت سُمع قط: يا أهل الجَبَاجب ـ المنازل ـ هل لكم في مُذَمَّم والصباة معه؟ قد اجتمعوا على حربكم. فقال رسول الله ﷺ: «هذا أَزَبُّ العقبة، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك. ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم»[١].

كانت البيعة قد تمت وأصبحت لازمة للطرفين، ومن هنا قام العباس بن عبادة بن نضلة من فوره، وقد علم أن الاجتماع قد انكشف أمره، ويوشك أن تأتي قريش بِقَضِّها وقَضِيضِها لتقتحم على النبي ﷺ مجلسه مع هذا الوفد المؤمن، فقال للنبي ﷺ: والذي بعثك بالحق، إن شئت لَنَمِيلَنَّ على أهل منى غدًا بأسيافنا.

فقال رسول الله ﷺ: «لم أومر بذلك»[٢]، فرجعوا وناموا حتى أصبحوا، دون أن يشعر بهم أحد، ولا يشك أحد ممن جاء معهم بما دار بينهم وبين النبي ﷺ.

ونرى في هذا العرض تطبيقا عمليا لبنود تلك المعاهدة، فما إن استشعر الأنصار الخطر الذي يحيط بالنبي ﷺ إلا عرضوا عليه تقديم العون الحربي على الفور، دون أدنى تلكؤ أو تقاعس، وهذا يدلنا على مدى الجدية التي نظر بها هذا الوفد المبارك إلى الأمر، واستعدادهم الفوري للموت دونه، وبَذْلِ أرواحهم لله ولرسوله ﷺ.

(١) مسند أحمد، برقم (١٥٨٣٦).
(٢) المصدر السابق نفسه.

ما إن انبلج الصباح وعمت أنواره في الأفق حتى ولّتْ قريش وجهها إلى أهل يثرب، وقد هدّها الهمُّ، وأنهكتها الحيرة، فقد كانوا يقدّرون جيدا الآثار المترتبة على هذه البيعة؛ وليس هناك وقت للمداراة.

فقام الوفد القرشي بعرض وساوسه من أقصر طريق وأوضحها، فقالوا لأهل يثرب: "يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم"[١].

ونظرا للسرية التامة التي تمت بها البيعة، فلم يشعر بها أحد من أهل يثرب، ممن قدم لزيارة البيت وهو على شركه، فإنهم سرعان ما أنكروا هذا الأمر، وحلفوا عليه بالله أنه ما كان.

حتى قال عبد الله بن أبي بن سلول: "هذا باطل، وما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا عليّ بمثل هذا، ولو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني"[٢].

والتزم المسلمون الصمت أمام هذه المناقشات، ولم ينبس أحد منهم ببنت شفة، فرجع وفد قريش، وهم يجرون أذيال الخيبة، وقد صدّقوا ما قاله لهم اليثربيون.

ولم يكتشفوا أنهم خدعوا إلا بعد فوات الأوان، وشعروا عندها بصدمة شديدة "كأنهم أصيبوا بمس الشيطان، حينما طرق مسامعهم مبايعة الأنصار له على الذود عنه حتى الموت"[٣].

فهموا بمطاردة المبايعين فلم يفلحوا إلا في الإمساك بسعد بن عبادة، فقاموا بتعذيبه وأدخلوه مكة، فخلّصه المطعم بن عدي، والحارث بن حرب بن أمية من أيديهم؛ لأن سعدا كان يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة، ولحق بالقوم فأدركهم قبل أن يصلوا إلى المدينة.

(١) مسند أحمد، برقم (١٥٨٣٦)، أخبار مكة (٤/ ٢٣٧)، وغيرهما من المصادر.
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/ ١٧٩). (٣) الخضري: نور اليقين، (ص٦٠).

هذه هي بيعة العقبة الثانية ـ التي تعرف ببيعة العقبة الكبرى ـ وقد تمت في جو تعلوه عواطف الحب والولاء، والتناصرِ بين أشتات المؤمنين، والثقة والشجاعة والاستبسال في هذا السبيل.

فمؤمن من أهل يثرب يحنو على أخيه المستضعف في مكة، ويتعصب له، ويغضب من ظالمه، وتجيش في حناياه مشاعر الود لهذا الأخ الذي أحبه بالغيب في ذات الله.

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مر الأيام، بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله ﷺ وبكتابه، إيمان لا يزول أمام أي قوة من قوات الظلم والعدوان، إيمان إذا هبت ريحه جاءت بالعجائب في العقيدة والعمل.

وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجلوا على أوراق الدهر أعمالاً، ويتركوا عليها آثارًا خلا عن نظائرها الغابر والحاضر، وسوف يخلو المستقبل[(١)].

قد بدأت ببيعة العقبة الكبرى مرحلة جديدة مؤذنة بتحوّل حاسم في اتجاه الأحداث: في قلب الحجاز معقل الوثنية القرشية والعربية، وفي الشمال، بيثرب وما حولها، وكانت حتى ذلك الحين معقلا ليهود.

ببيعة العقبة الكبرى، أوشكت الجولة الأولى من جولات الصراع بين الإسلام والوثنية، أن تنتهي في مكة لتبدأ جولة أخرى. بعد أن استنفذت تلك المواجهة الأولى، كل ما لدى قريش من وسائل وذرائع لمقاومة الدعوة، دون أن تنتقل من موقفها على حافة الحرب إلى صدام مسلح.

وبدأ التاريخ يلتفت إلى يثرب التي يتجه إليها مؤشر التحول، ويستعيد ما طوى من قديم أخبارها[(٢)].

(١) المباركفوري: الرحيق المختوم، (ص١٨٣).
(٢) مادة هذا العنصر، مستخلصة من كتاب (وفاء الوفا، بأخبار مدينة المصطفى) للسمهودي. مع مراجعة السيرة لابن هشام، وتاريخ الطبري.

علاقات اليهود بالعرب في المدينة:

من قديم بعيد موغل في أعماق الماضي إلى عصر ما بعد الطوفان، بدأ الوجود العربي في يثرب والحجاز، الرواية العربية تقول: إن سفينة نوح رسَتْ قريبا من بابل في موضع سمي "سوق الثمانين" بعدد من كانوا في السفينة الناجية من الطوفان.

وقد مكثوا هناك حتى كثروا وضاقت بهم المنطقة، فتفرقوا، اتجه بنو عبيل، أخي عاد، إلى موضع يثرب، وهو اسم أحد أبناء عبيل، فنزلوا به وعمروه، ثم مالوا إلى موضع آخر في المنطقة دهمهم فيه سيل جاحف، فسمي الجحفة.

وظلت يثرب مهجورة إلى أن عمرتها قبيلة من العرب القحطانية العاربة، بعد تصدّع سد مأرب، هذه القبيلة العربية الصميمة، هي الأوس والخزرج، أخوان شقيقان، أبوهما "عمرو بن عامر" آخر ملوك سبأ قبل خرابها، وأمهما "قيلة" التي ينسب إليها عرب يثرب، بنو قيلة.

ونزح إخوتهم "بنو جفنة بن غسان" إلى أرض الشام فأسسوا بها إمارة الغساسنة العربية، وآخرون من جرهم، نزلوا حول مكة، وهم الذين أصهر إليهم "إسماعيل بن إبرهيم" جد العرب العدنانية.

أقام بنو قيلة في يثرب دهرا طويلا في أمن وسلام ورخاء ونعمة، والمنطقة خالصة لهم، حتى طرأت عليهم من الشمال شراذم من فلول يهود، فارّين من وطأة الرومان الساحقة، بعد المؤامرة على السيد المسيح عليه السلام، وحطوا على أخصب منطقة هناك.

فما لبثوا أن أنشبوا مخالبهم فيها واستنزفوا خيرها، وأقاموا لهم مستعمرات حصينة في يثرب، وقريظة، وخيبر، وفدك، وتيماء، ووادى القرى، وأثْرَوا ثراء فاحشا على حساب الوجود العربي الذي بدأ يتصدع من وطأة الغزاة[(١)].

(١) ولفنسون: تاريخ اليهود في جزيرة العرب: (٩، ١٨)، ط، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

حاول العرب أول الأمر أن يأمنوا شر يهود، بعقد حلف جوار معهم، وفي ظل ذلك الحلف استطاع بنو قيلة أن يواصلوا حياتهم ويمارسوا نشاطهم، فخافت يهود على وجودها المغتصب، وقطعت الحلف الذي بينهم، وصرح الشر منهم، حتى خاف بنو قيلة أن تجليهم يهود عن أرضهم.

إلى أن شب "مالك بن العجلان" أخو بني سالم بن عوف بن الخزرج، وسوّده الحَيّان من بني قيلة، فكان الذي تصدى لأفاعي يهود، وقتل بضعة وثمانين من رؤوسها، فانكمشوا خائفين يلعنونه في بِيَعهم ومعابدهم كلما دخلوها، ولجأوا إلى أحياء العرب يستنجدون الحماية والجوار "وقد ذلوا وانكسرت شوكتهم وقل امتناعهم".

وإنما مكن لهم من يثرب بعد ذلك، ما شب بين الأوس والخزرج من خصام خبّ فيه يهود وأوضعوا، وسهروا على إلهاب ضرامه، لتخلو لهم الأرض الطيبة.

وبدأت مرحلة مظلمة في تاريخ يثرب، استغرقت بضعة قرون قبل الإسلام ـ من القرن الأول إلى السادس للميلاد ـ لم تنطفئ فيها نار الحروب بين الأوس والخزرج، في كل حرب منها نلمح أثر اليهود في تدمير الوجود العربي هناك [(١)].

وآذن العصر الجاهلي بمغيب، وهذا العدو الخبيث يتربص بالأوس والخزرج الدوائر، ليميل مع المنتصر منهما ويسلب المهزوم، والمستعمرات اليهودية في شمال الحجاز تزداد ثراء بما تستنزف من خير الأرض، ومرافق البلاد الحيوية في قبضة مخالب الذئاب الفارة من مخالب النسر الروماني.

وقد كانت آخر حرب بين الأوس والخزرج، يوم بعاث، قبل بيعة العقبة الكبرى بأربع سنوات، ودور يهود فيها معروف مشهور:

فحين ظهرت بوادر الحرب بين بني قيلة، تدخّل يهود بني قريظة يلهبونها بالتواطؤ سرا مع الأوس، فلما علم الخزرج بهذا التواطؤ، بعثوا إلى يهود منذرين: إنكم إن

(١) لمزيد من التفصيل انظر بنت الشاطئ: أعداء البشر في الباب الثاني.

فعلتم لم نَنَمْ عن الطلب أبدا، وأسلم لكم أن تَدعُونا وتخلوا بيننا وبين إخواننا.

رد يهود على نذير الخزرج: إنه قد كان الذي بلغكم، والتمست الأوس نصرنا، وما كنا لننصرهم عليكم أبدا.

لكن الخزرج أصروا على أن يأخذوا رهائن من غلمان بني قريظة، ضمانا لعدم غدرهم، فدفعوا إليهم أربعين غلاما يهوديا، وإن قائلهم ليقول: خلوهم يقتلوا الرهن، إن هي إلا ليلة يصيب فيها أحدكم امرأته، حتى يولد له غلام مثل الرهن[(١)].

وغدرت يهود بوعدها للخزرج، حين لمحت غلبة الأوس عليهم، وانهزمت الخزرج يوم بعاث، ووضعت فيها الأوس السلاح، وسلبتهم قريظة والنضير.

اجتاحت العصابة اليهودية دور الخزرج تنهب وتسلب، حتى أتوا دار "عبد الله بن أبي بن سلول" ليهدموها، فاشترى منهم الأمان بدفع رهائنهم إليهم!

ومن ذلك اليوم بدأ بينه وبينهم حلف الشيطان، وكان لا بد من حرب جديدة يصلاها عرب يثرب، تصفية ليوم بعاث، والأمر في مثلها لا يعدو انطلاق شرارة من هنا أو من هناك، تؤجج ضرام الجذوة التي لبثت متقدة قرونا، تلتمس بين حين وآخر من ينفخ فيها، لتستعر بوقود من رجال الأوس والخزرج، وقد كان الخزرجيون أصحاب الثأر لبعاث، ومن هنا كان سعي الأوس إلى مكة التماسا لحلف قريش على الخزرج.

ومن حيث توقعت يثرب أن تلتهب الجذوة بشرارة هذا الحلف، وألقت عاصمة الشمال سمعها إلى مكة في انتظار عواقب المفاوضة بين وفد الأوس وزعماء قريش، جاءت المعجزة من هناك فأطفأت الجذوة وبددت رمادها هباء منثورا.

وكان عجبا من العجب، أن تأتي "يثرب" بشرى السلام من مكة، في الوقت الذي بلغت فيه معركتها بين الإسلام والوثنية ذروة احتدامها.

(١) السمهودي: وفاء الوفا، (١/ ٢١٨).

وحين هم التاريخ بأن يضيف حربا جديدة إلى الحروب التي مزقت الأوس والخزرج، وقف بعد بيعة العقبة الكبرى، فطوى الصفحات الداميات التي خضبت حياة يثرب قرونا ستة، ليبدأ صفحة جديدة بآية الإسلام التي منّ الله بها على المؤمنين الأنصار، فأصبحوا بنعمته إخوانا.

وكانت عبرة، أن تجمع العقيدة ما تفرق وانتثر من شتات القوم، وأن تزيل ما تراكم في قلوبهم من ثارات وأحقاد، وتنسخ جاهليتهم المخضبة بالدماء.

وفي ظل هذه العقيدة الجامعة المؤلفة للقلوب، وتحت لوائها المبارك الميمون، التقى الأوس والخزرج إخوانا في الدين، وعادوا بعد بيعة العقبة الكبرى أنصارا للإسلام ونبيه ﷺ، فكانوا هم الدعاةَ الأولين الذين حملوا نوره إلى عاصمة الشمال في الحجاز، وهيؤوها لاستقبال المهاجر العظيم عليه الصلاة والسلام.

وما يزال اليهود، حتى عصرنا هذا، يقفون عند بيعة العقبة مأخوذين بما كان من جسيم خطرها وبُعدِ أثرها، وإن فيهم من يعدها بدء التاريخ الإسلامي، ويراها أولى بذاك من عام الهجرة التي هي في رأيهم أثر للبيعة الكبرى.

قال المؤرخ اليهودي «إسرائيل ولفنسون، أبو ذؤيب»: ومهما يكن من شأن هذه البيعة العظيمة فإنها من الحوادث ذات النتائج الخطيرة في التاريخ الإسلامي، وإني أعتقد أنه كان من الحق على المسلمين أن يبتدئوا تاريخهم من تلك السنة، لأن قيمتها لم تكن أقل شأنا من قيمة هجرة الرسول إلى يثرب [(١)].

وما كان لليهود يومها أمل، إلا «أن يفلح زعماء قريش في استمالة زعماء الخزرج؟ وإلا فإنهم لا بد ذاهبون للتقرّب من بعض زعماء اليهود ليعملوا على إحباط أعمال المسلمين في المدينة»![(٢)].

(١) ولفنسون: تاريخ اليهود في جزيرة العرب: (١٠٩).
(٢) المرجع السابق، (ص١١٠).

دروس وعبر

❶ أتت هذه الرحلة الروحانية الجسمانية (الإسراء والمعراج) في إطار سلسلة الجرعات التربوية التي حقنها الداعية العظيم؛ إذ بدأ بخلوة التفكر والتحنث في غار حراء، ثم رحلة قيام الليل الطويلة في دار الأرقم ومكابدة العمل التنظيمي السري خلال المرحلة السرية.

ثم رحلة الدعوة الجهرية وما فيها من مشقة على النفس، ومكابدة لأجلاف الأعراب، وصعاليك العرب، وبذاءات ذوي السلطان، وإيذاءات أصحاب المصالح الشخصية، ومرحلة المعسكر التقشفي والسجن والحصار في شِعب أبي طالب فذاق النبيُ الكريمُ مرارةَ العيشِ، وقسوةَ الشظف، وشدة االعجف، وطول السغب، وخشونة الضفف.

واستمرّ تحت وطأة مجاعة حقيقية مدةَ ثلاث سنين كوامل، خرج منها إلى عام الحزن، حيث فقد العم والزوج، ثم انتقل بمفرده في رحلة دعوية إلى الطائف؛ فذاق فيها من الإيذاء والمعاناة ما لم يذقه، مذ بدأ دعوته إلى الله.

❷ كانت رحلة الإسراء والمعراج؛ المعجزة، العجيبة، التي لم تستمر إلا وقتا قليلا؛ وكان ما حصّله النبيُّ ﷺ فيها يستغرق قروناً وقروناً..

كانت هذه الرحلة الكريمة المترعة بالآيات الكبرى وجبةً تربوية مكثفة، اشتملت على العديد والعديد من المشاهد الرهيبة التي تقشعرّ منها الجلود من هول وقعها؛ كرؤية مصائر الزناة، وخطباء الفتن، ومضيعي الأمانات، ومانعي

الزكاة، وآكلي الربا وناهبي أموال اليتامى، ثم تُوّجتْ هذه الرحلة المباركة بالتاج المحلى والقدح المعلى بالصلاة التي هي عماد الدين، التي هي أسمى وشيجة بين العبد وربه.

٣ أن الله تعالى يهيئ للدعوة عوامل النصر، وأنه سبحانه ناصر دينه ونبيه، وأن قدر نبينا ﷺ عظيم عند ربه، حيث خصه ﷺ بهذه الرحلة القدسية من بين سائر الأنبياء.

٤ أن الله سبحانه يهيئ للأحداث العظيمة بمقدمات تليق بجلالها وبهائها، فقد منح نبينا ﷺ معجزة أخرى قبل رحلة الإسراء والمعراج ألا وهي إرسال الملائكة إليه ليشقوا صدره الشريف للمرة الثالثة، ويغسلوه ويحشوه حكمة وإيمانا.

٥ أن الإسراء والمعراج كان بالروح والجسد معا، يقظة لا مناما، وأنه لا ينبغي أن نقيس المعجزات بمقاييسنا الدنيوية، لأننا بذلك نفرغ المعجزة من مضمونها.

٦ أن الأنبياء عليهم صلوات الله جميعا إخوة، ودعوتهم واحدة، ولا يحسد بعضهم بعضا، بل كل منهم يكمل الآخر، ودعواهم جميعا واحدة.

٧ أن الله سبحانه يختبر عباده حتى يستصفي الصادقين منهم، ويميز الخبيث من الطيب، فقد امتحن الله إيمان المؤمنين بهذا الحادث حتى يعلم من يثبت على إيمانه ممن ينكص على عقبيه.

٨ الإشارة إلى نهاية عهد اليهود، وذلك بالإسراء إلى بيت المقدس، ومن ثمّ تسلّم أمة الإسلام قيادة البشرية.

٩ الإشارة بصلاته ﷺ بالأنبياء إلى هيمنة رسالة الإسلام على كل الرسالات السابقة.

١٠ إن الربط بين المسجد الأقصى، والمسجد الحرام وراءه حكم ودلالات وفوائد، منها:

أ أهمية المسجد الأقصى بالنسبة للمسلمين، إذ أصبح مسرى رسولهم ﷺ، ومعراجه إلى السموات العُلى، وكان لا يزال قبلتهم الأولى طيلة الفترة المكية، وهذا توجيه وإرشاد للمسلمين، بأن يحبوا المسجد الأقصى، وفلسطين لأنها مباركة ومقدسة.

ب الربط يشعر المسلمين بمسئوليتهم نحو المسجد الأقصى، وتحريره من أوضاع الشرك، وعقيدة التثليث، كما هي أيضًا مسئوليتهم تحرير المسجد الحرام من أوضاع الشرك وعبادة الأصنام.

ج الربط يشعر بأن التهديد للمسجد الأقصى، هو تهديد للمسجد الحرام وأهله، وأن النَّيل من المسجد الأقصى، توطئة للنَّيل من المسجد الحرام، فالمسجد الأقصى بوابة الطريق إلى المسجد الحرام.

١١ أهمية الصلاة وعظيم منزلتها: وقد ثبت في السنة النبوية أن الصلاة فرضت على الأمة الإسلامية في ليلة عروجه ﷺ إلى السماوات، وفي هذا كما قال ابن كثير: اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمته.

١٢ لا حجة لمن يحتفل بليلة الإسراء والمعراج، لإن هذه الليلة مختلف في تحديد زمانها، ولم يحتفل بها النبي ﷺ ولا أمر بها، ولا فعل هذا الاحتفال الصحابة ولا سلف الأمة الصالحون، فالاحتفال بهذه الليلة من البدع المحدثة، التي ما أنزل الله بها من سلطان.

هذا محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم

٨

وداعا مكة

حَولَ بَابِ الهِجرَة

تمت البيعة بنجاح، ورجع المسلمون الجدد إلى ديارهم يملأ قلوبهم الشوق إلى اليوم الذي ينتقل فيه النبي ﷺ إلى محضن الدعوة الجديد "ونجح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة، وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته"[(١)].

وعندئذ سمح النبي ﷺ لأتباعه المقهورين في مكة أن يتركوا هذه الأرض الظالم أهلها آنذاك، ويهاجروا إلى المدينة، ذلك الوطن الجديد الذي ينتظرهم بالأشواق.

روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: «هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوَ تَرْجُوهُ بِأَبِي أَنْتَ، قَالَ: نَعَمْ، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لِصُحْبَتِهِ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ»[(٢)].

---

(١) المباركفوري: الرحيق المختوم، (ص١٨٣) وما بعدها.

(٢) صحيح البخاري، برقم (٥٨٠٧)، باب التقنع.

www.almoslih.net

أسراب مهاجرة:

بعد هذا الإذن العام من النبي ﷺ للصحابة بترك هذه القرية الظالم أهلها، والهجرة إلى المدينة، بدأت الوفود المهاجرة تتوافد زرافات ووحدانا كأسراب الطيور المهاجرة ليقيموا دولة الإسلام، ولتكون المدينة المنورة هي حاضنة الإسلام الأولى، وأول عاصمة لدولة المسلمين.

وعلمت قريش ذلك فحاولت إجهاض هذه الهجرة بكل ما أوتيت من قوة، فهم يقرون خطورة أن ينعم المسلمون بالاستقرار، ويكون لهم وطن يأمنون فيه على أنفسهم ودينهم، وتكون لهم نصرة بين أحياء العرب، فلن يستطيع أحد مجابهتهم.

وسوف ينتشر الدين الجديد بقوة، ويوشك أن تعود هذه القوافل المهاجرة إلى موطنهم الأصلي وقد تزودوا بالعَدَدِ والعُدَدِ، وعندها لن يفلح أحد في صدّهم.

أقضّت هذه المخاوف مضاجع القرشيين، فأخذوا يعرقلون هذه الهجرات بكل سبيل، ويَحُولون بين خروج أتباع الدين الجديد إلى المدينة، وبلغت هذه المحاولات أوجها، عندما حاول المشركون استعادة بعض من هاجروا فعلا ببعض حيلهم، ليفتنوهم عن دينهم.

ومن ذلك ما صنعه أبو جهل، وأخوه الحارث بعياش بن أبي ربيعة، حيث تذكر كتب السير أن عياشا لما نجح في الهجرة من مكة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والدخول فعلا في حدود المدينة، «قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش ـ وأم الثلاثة واحدة، وهي أسماء بنت مُخَرِّبَة ـ فقالا له: إن أمك قد نذرت ألا يمسّ رأسها مشط، ولا تستظلّ بشمس حتى تراك، فَرَقَّ لها.

فقال له عمر: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حَرُّ مكة لاستظلّت، فأبى عياش إلا الخروج معهما ليبر قسم أمه.

فقال له عمر: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا بن أمي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدَوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة نهارًا موثقًا، وقالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا»[1].

وهذا صُهَيْب بن سِنان الرومي لما أراد الهجرة اعترضته قريش، وهم يقولون له: «أتيتنا صعلوكًا حقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني قد جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ربح صهيب، ربح صهيب»[2].

وهناك مواقف أخرى كثيرة من هذا القبيل نتركها اختصارا، جميعها يدل على أن قريشا كانت تقدّر خطورة أمر الهجرة، وتعلم يقينا آثارها الخطيرة، وكانت تنظر إلى نُذُرِ شرٍّ تلوح في الأفق، تهدد بتصدّع تلك السيادة القرشية وانهيارها؛ لتذهب إلى أتباع هذا الدين الجديد من هؤلاء المهاجرين ومن تابعهم من أهل المدينة من الأوس والخزرج.

«فقد كانوا يعلمون ما في شخصية النبي ﷺ من غاية قوة التأثير مع كمال القيادة والإرشاد، وما في أصحابه من العزيمة والاستقامة والفداء في سبيله، ثم

---

(١) انظر القصة كاملة في كل من: السهيلي: الروض الأنف، (٢/٢٩٨)، الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/١٨٤)، ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، (١/٢٢٩)، وغيرها من المصادر.

(٢) صحيح ابن حبان، برقم (٧٠٨٢). ابن هشام: السيرة النبوية لابن هشام، (١/٤٧٧).

ما في قبائل الأوس والخزرج من القوة والمنعة، وما في عقلاء هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح، والتداعي إلى نبذ الأحقاد، ولا سيما بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طوال أعوام من الدهر»[١].

فقدت قريش ما بقي من رشدها، فصبّت على المسلمين حمما من الأذى والاضطهاد، والتقطت يهود أنفاسها، أملا في أن تشتعل نار الحرب فتأكل الجمعين من أهل مكة، لكنهم فوجئوا بتدفق المهاجرين من مسلمي مكة نحو يثرب، بتوجيه من النبي ﷺ.

حيث نزلوا على الأنصار إخوانهم في الدين، بمأمن من قريش، وأمست دور المهاجرين في مكة، موحشة خلاء، لم يبق منهم في أم القرى، غير من حُبس أو فُتِن، إلا الرسول عليه الصلاة والسلام، وصاحباه: أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وتتابعت هجرة المسلمين إلى يثرب، والنبيّ ﷺ مقيم حيث هو، لا يعرف أحد هل اعتزم الإقامة أم قرّر الهجرة. وما كانوا ليعرفوا وقد أذن لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة من قبل، وظلّ هو بمكة يدعو سائر أهلها إلى الإسلام. وبلغ من ذلك أن أبا بكر استأذنه في الهجرة إلى يثرب؛ فقال له: لا تعجل لعلّ الله يجعل لك صاحبا، ولم يزد على ذلك.

قريش تنتبه للنبي ﷺ:

على أنّ قريشا كانت تحسب لهجرة النبي إلى يثرب ألف حساب. لقد كثر المسلمون فيها كثرة جعلتهم يكادون أن يكونوا أصحابَ اليد العليا. وها هم أولاء المهاجرون من مكة ينضمّون إليهم فيزيدونهم قوّة.

---

(١) المباركفوري: الرحيق المختوم، (ص١٨٢).

فإذا لحق بهم النبي ﷺ، وهو على ما يعرفونه من ثبات وحسن رأي وبعد نظر، خشوا على أنفسهم أن يدهم اليثربيون مكة أو يقطعوا عليها طريق تجارتها إلى الشام، وأن يجيعوها كما حاولوا هم أن يجيعوه هو ﷺ وأصحابه، حين وضعوا الصحيفة بمقاطعتهم وأكرهوهم على أن يلزموا الشِّعْب، وأن يقضوا فيه ثلاثين شهرا.

وإذا بقي محمد بمكة وحاول الخروج منها، فهم معرَّضون لمثل هذا الأذى من جانب اليثربيين دفاعا عن نبيهم ورسولهم. فلم يبق إلا أن يقتلوه ليستريحوا من كل هذا الهم الواصب[١]. لكنهم إن قتلوه طالب بنو هاشم وبنو المطلب بدمه، وأوشكت الحرب الأهلية أن تفشو في مكة فتكونَ شرّا عليها، مما يخشونه من ناحية يثرب.

واجتمع القوم بدار الندوة يفكرون في هذا كله، وفي وسيلة اتقائه. قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلِقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيرا والنابغة ومن مضى منهم، حتى يصيبه ما أصابهم[٢]. لكن هذا الرأي لم يلق سميعا.

وقال قائل: نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا ثم لا نبالي بعد ذلك من أمره شيئا[٣]. لكنهم خافوا أن يلحق بالمدينة وأن يصيبهم ما يفرقون منه.

وانتهوا إلى أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابّا جليدا، وأن يعطوا كل فتى سيفا صارمًا بتّارا، فيضربوه جميعا ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه بين القبائل، ولا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعا، فيرضوا فيه بالدّية، وتستريح قريش من هذا الذي بدّدَ شملها وفرّق قبائلها شيعا[٤].

---

(١) الواصب: الدائم الثابت أو الموجع. (٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/١٩٠).
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.
(٤) المصدر السابق نفسه، والسهيلي: الروض الآنف، (٢/٣٠٥)، وغيرها.

www.almoslih.net

وأعجبهم هذا الرأي، فاطمأنوا إليه، واختاروا فتيانهم، وباتوا يحسبون أن أمره ﷺ قد فرغ منه، وأنه بعد أيام سيوارَى وتوارَى دعوتُه في التراب، وسيعود الذين هاجروا إلى يثرب إلى قومهم وإلى دينهم وآلهتهم، وتعود بذلك لقريش ولبلاد العرب وحدتها التي تمزّقت، ومكانتها التي تضعضعت أو كادت.

ويعلق الأستاذ سيد قطب على هذا الحادث بقوله: «إنها صورة ساخرة وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة، فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل من تلك القدرة القادرة، قدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط»[١].

الأمر بالهجرة:

اتصل بالنبي ﷺ نبأ ما بيتت قريش لقتله مخافة هجرته إلى المدينة واعتزازه بها، وما قد يجرّ ذلك على مكة من أذى، وعلى تجارتها مع الشام من بوار، ولم يكن أحد يشك في أنه ﷺ سينتهز الفرصة فيهاجر. على أن ما أحاط به نفسه من كتمان لم يجعل لأحد إلى سره سبيلا، حتى أبو بكر، الذي أعد راحلتين منذ استأذن النبي في الهجرة فاستمهله، قد بقي لا يعرف من الأمر إلا قليلا.

وقد ظل ﷺ بمكة حتى علم من أمر قريش ما علم، وحتى لم يبق من المسلمين بها إلا القليل. وإنه لينتظر أمر ربه إذا أوحي إليه أن يهاجر. هنالك ذهب إلى بيت أبي بكر وأخبره بأن الله أذن له في الهجرة؛ وطلب الصدّيق أن يصحبه في هجرته فأجابه إلى ما طلب[٢].

لم ينتظر النبي ﷺ بعد أن أخبره جبريل عليه السلام بهذه المعلومات الدقيقة عن مؤامرة قريش، وأنه لا بد من تنفيذ أمر الهجرة هذه الليلة، فقام على الفور

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، (١٥٠١/٣).

(٢) راجع نص الخبر في صحيح البخاري، برقم (٥٨٠٧) باب التقنع.

في الهاجرة ليضع مع أبي بكر الصديق تفاصيل الخطة التي يخرجان بها من مكة، وفي أي مكان يلتقيان، وخطة الإمداد التمويني والتمويه على قريش حتى يفسد عليها تدبيرها[١].

تم هذا اللقاء السري بين النبي ﷺ وصاحبه، واتفقا فيه على موعد اللقاء ومكانه، وعاد النبي ﷺ ليمارس أعماله المعتادة أمام ناظري قريش، حتى لا يشعر أحد بشيء.

وقد بكى الصديق رضي الله عنه «لأنه أدرك مدى النعمة التي مَنّ الله بها عليه، إذ شرفه بصحبة الرسول ﷺ في هذا الوقت العصيب، وفي تلك الرحلة الخالدة التي ستكون حدًّا فاصلًا بين الحق والباطل وسيتقرر بها مصير الإسلام والمسلمين»[٢].

ولإتمام خطة التمويه فقد اتفق الصديق رضي الله عنه مع الدليل الذي استأجره، واسمه عبد الله بن أريقط ليدلّه على الطريق أن يأتي إليهم في غار ثور بعد ثلاثة أيام من الخروج، وقد كان الرجل مشركا على دين قومه، ولكنّ أمانته وإخلاصه في عمله رشحاه ليكون أهلا لهذه المهمة الصعبة.

خروج على أعين المشركين:

في ليلة الهجرة دخل النبي ﷺ بيته لينام فيه كعادته، ولكنه لم ينم هذه الليلة وأسرّ ﷺ إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن يتسجى برده الحضرميّ الأخضر وأن ينام في فراشه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدّي عنه الودائع التي كانت عنده للناس.

وجعل هؤلاء الفتية من قريش ينظرون من فرجة إلى مكان نوم النبيّ ﷺ، فيرون في الفراش رجلا فتطمئن نفوسهم إلى أنه لم يفرّ، وفي هذا يقول الله تعالى:

---

(١) صحيح البخاري، برقم (٥٨٠٧) باب التقنع.

(٢) الطيب النجار: القول المبين، (ص١٧٥).

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومع أن تلك العصابة الآثمة كانت في غاية التيقظ والتنبه؛ فقد خرج النبي ﷺ من بينهم سالما دون أن يبصروا به، بل زيادة في نكايتهم أخذ حفنة من التراب ونثرها على رؤوسهم وهو يتلو عليهم قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

وتم مفعول الآيات فغشيت أبصارهم وعميت أنظارهم فلم يبصروا أحدا، حتى مر النبي ﷺ من بينهم، ومضى في طريقه إلى بيت أبي بكر ﷺ، ثم اتجها إلى غار ثَوْر في اتجاه اليمن.

خرج النبي ﷺ إذن بهذه المعجزة الربانية، ولم يشعر به أحد من تلك العصابة الغادرة، ولم يبرحوا مكانهم ينظرون إلى النائم في الفراش متى يخرج لينقضّوا عليه، وطال الانتظار حتى انبلج الصباح.

ومرّ بهم رجل ممن لم يكن معهم، ورآهم ببابه، فدعا عليهم بالخيبة وقال: خبتم وخسرتم، قد والله مرّ بكم، وذرّ على رءوسكم التراب، وانطلق لحاجته، فقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم.

ولم يصدقوا ما حدث لهم، فقاموا ينظرون من خلل الباب، فلما رأوا عليًا نائما مكانه ظنوا أن الهدف ما زال في الإمكان، فلم يبرحوا كذلك حتى قام عليٌّ عن الفراش، فسقط في أيديهم، وسألوه عن رسول الله ﷺ، فلم ينالوا منه طائلا[1].

وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شهر صفر من العام الرابع عشر للبعثة/ اليوم الأول من أول عام هجري ابتدأ بتنفيذ الخطة المرسومة.

(١) ابن هشام، السيرة (٤٨٢/١). ابن سعد، الطبقات، (٢٢٧/١). البلاذري، أنساب، (٢٦٠/١). الطبري: تاريخ، (٣٧٢/٢). ابن الأثير: الكامل، (١٠٣/٢).

بأن خرج النبي ﷺ من بيته، وجاء إلى بيت صاحبه أبي بكر ﷺ، وكان ذلك في وقت الهاجرة[1] إذ يغلب على هذه الساعة هجوع الناس، فلا يسترعي إليه الانتباه، ثم إن النبي ﷺ خرج هو وأبو بكر من مكان خاص في بيت أبي بكر ﷺ.

يقول ابن إسحاق: "خرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته"[2]، وفي الجهة المقابلة، فكان من المنتظر أن يعد أبو بكر الصديق بقية الأمور، اشترى راحلتين قويتين وتركهما عند عبد الله بن أريقط وقد استأجره أبو بكر "يدلهما على الطريق فدفعا إليه راحلتهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما"[3].

أخذ النبي ﷺ طريقه إلى غار ثور جنوب مكة [4] باتجاه اليمن؛ لأنه يفترض في الملاحقين أن يتجهوا إلى الشمال وهم يعلمون أن وجهة النبي ﷺ إلى المدينة الواقعة إلى الشمال من مكة، ولهذا يقول المباركفوري:

"ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشا ستجدّ في الطلب، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيس المتجه شمالا، فقد سلك الطريق الذي يضاده تماما"[5].

وسرى الركب جنوبا إلى غار ثور؛ فاتجاههما نحو اليمن لم يكن مما يرد بالبال، ووقفت أسماء تتبعه بعينيها وقلبها حتى أبعد، فعادت وحدها إلى البيت،

(١) البخاري: الصحيح، (٥، ٧٣، ٧٥). الساعاتي، الفتح الرباني، (٢٨٠/٢٠).

(٢) ابن هشام، السيرة، (٤٨٥/١). البلاذري، أنساب (٢٦٠/١). الطبري، تاريخ، (٣٧٨/٢). ابن الأثير، الكامل (١٠٤/٢).

(٣) البخاري، الصحيح، (٧٦/٥). الحاكم، المستدرك، (٨/٣).

(٤) البخاري، الصحيح، (٧٥/٥). ابن هشام، السيرة، (٤٨٦/١). البلاذري، أنساب، (٢٦١/١). الطبري، تاريخ، (٣٧٨/٢).

(٥) المباركفوري، الرحيق المختوم، "مكة المكرمة"، (ص١٨٣)، رابطة العالم الإسلامي، ١٩٨٠م.

وهي توجس خيفة من تنبه المطاردين، وغابت عائشة عمّا حولها، ومضت تسري بروحها في أثر الراحلين.

ولم توقظها غير طرقات عنيفة على الباب، لقد جنّ جنون قريش، جاءوا يسألونها في غلظة: أين أبوك يا بنت أبي بكر..؟ وعندما نفت علمها بشيء، كانت يد أبي جهل ترتفع فتلطم خد أسماء لطمة قاسية طرحت قرطها [١].

من حديث الغار:

اتجه النبي ﷺ إلى غار ثور، وذلك بعد أن تدارس الموقف مع أبي بكر رضي الله عنه وأفراد عائلته، ولا سيما أولئك الذين لهم دور في الخطة، فاتبع «مبدأ تقسيم العمل»

فقام عامر بن فهيرة بإخفاء آثار أقدامهما «إذ أمره أبو بكر ـ وهو مولاه ـ أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما ـ أي يأتيهما ـ إذا أمسى في الغار»[٢].

أما أسماء بنت أبي بكر: فكان دورها في الخطة أن تأتي ليلا بالطعام إلى الغار [٣]، ويبدو أن اختيار أسماء كان مقصودا؛ لأن المرأة لا تثير شك أحد.

أما أخوها عبد الله: فكان يقوم بدور مهم في مراقبة تحركات قريش، والإتيان بأخبارها إلى رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار.

وكان اختيار عبد الله في غاية الحكمة فهو «شاب ثَقِفٌ لَقِنٌ»[٤] أي حاذق سريع

(١) بنت الشاطىء: نساء النبي، (ص٨٤).
(٢) البخاري، الصحيح، (٥/٧٦) . ابن هشام، السيرة (١/٤٨٦). ابن سعد، الطبقات (٢/٢٢٩). البلاذري، أنساب (١/٢٦). الطبري، تاريخ، (٢/٢٢٩، ٣٧٦ -٣٧٨).
(٣) البخاري، الصحيح، (٥/٧٨). ابن هشام، السيرة (١/٤٨٦). ابن سعد، الطبقات (١/٢٢٩). البلاذري، أنساب (١/٢٦٠). الساعاتي، الفتح، (٢٠/٢٨١).
(٤) البخاري، الصحيح، (٥/٧٥).

الفهم، فكان يخرج من عندهما بالسحر، ويصبح مع قريش بمكة، كأنه كان قائما فيها، فلا يسمع من قريش أمرا يبيتونه إلا وعاه حتى يأتيهما في المساء بخبره [١].

وصل ﷺ وصاحبه إلى غار ثور، وقد سبق أبو بكر رسول الله ﷺ إلى دخول الغار ليستبرئه. فلما اطمأن إلى سلامته من الهوام والحشرات، نادى الرسول ﷺ بالدخول، ومكثا في ذلك الغار الموحش ثلاث ليال.

يا ويح مكة! لم تعد صالحة للدعوة، فالوثنية متأصلة، والجهل مستحكم، والتخلف متجذر، وهذا رسول الله ﷺ بُعث فيهم منذ سنوات، فكان عندهم قبل الرسالة الصادق الأمين، وبعد بعثته قالوا: الساحر الكذوب.

إذن لا بد من أرض جديدة، وبيئة أخرى، وأناس آخرين، فكان الأمر بالهجرة إلى يثرب، فخرج ثاني اثنين، ومكث في الغار ثاني اثنين، وسافر ثاني اثنين، ودخل المدينة ثاني اثنين. إنها غربة الدعوة والداعية.

وما أعظم هذه المنقبة لأبي بكر رضي الله عنه التي تضاهي الجوزاء في عليائها، والشعرى في مكانتها.. هذا العتيق الذي صلى خلفه النبيُّ ﷺ.. كان ثاني اثنين في الغار، وثاني اثنين في المشورة، وثاني اثنين في العريش، وثاني اثنين في القبر.

وفي ذلك يقول حسان في رثاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

إذا تذكَّرْتَ شَجوًا مِن أخِي ثِقَةٍ ... فاذكُرْ أخاكَ أبا بكر بما فَعلا
التَّالِيَ الثَّانِيَ المحمودَ مَشهدُهُ ... وأوّلَ الناسِ مِنهمْ صَدَّقَ الرُّسُلا
وثاني اثنين في الغارِ المُنيفِ وقد ... طاف العدُوُّ بِهِ إذْ صَعَّدَ الجبَلا
وكان حِبَّ رسولِ الله قد عَلِموا ... خَيْرِ البريَّةِ لم يَعدِلْ به رَجُلا

(١) مصطفى السباعي، السيرة النبوية، دروس وعبر، (ص٦٤)، ط ٥، دمشق، المكتب الإسلامي، ١٩٨٠م.

كانا في غار الهجرة، كما كانا دومًا في الغار الأكبر مكةَ، إبّانَ العهد الوثني. ويثبّت اللهُ القلبين المؤمنَين، في الصاحبين المهاجرَين، في الجبل والغار الموحشين.

وضربَ أبو بكر ﵁ المثل في الإيثار والتضحية، إذ دخل الغار قبل صاحبه، فكسحه، وهيّأه، وسدَّ أجحاره، ليأمن عقاربه وحيّاته، وكان يقطع من ردائه ليسدّ هذه الثقوب، وقد أوشك الرداء على النفاد، فقد قطَّعه فداءَ رسولِ الله ﷺ قطعةً قطعة، ورقعةً رقعة، وبقي ثقبان؛ فألقمهما رجليه، وما هذا عن حمق، بل عن حق، وعن حب وصدق، بل لا يبالي بشيء مادام يكلأ خيرَ البرية.

ويُلدغ الصدّيق، فيَحبِسُ أنفاسه فورًا، قبل أن تخرج الآهات فتزعجَ صاحبه، وتقطع عليه نومته، بيد أن الدمعة السخينة أبت إلا أن تخترق الجفنين المطبقين، كما ينفجر الينبوع في الصخرة، وسالت العَبرة، من أصل قلب عظيم يتلوّى ألمًا، وهي، أي الدمعة، لما خرجت كأنما فرحت، لا لفرحة الخروج، إنما لأنها علمت أن مستقرها فوق أطهر وجه، وجه رسول الله ﷺ.

فكانت تلك الدمعة، وصلة التنبيه بين قلبين كريمين، فاستيقظ صاحب القلب الرحيم، وإذا به يبادله رقة برقة، ولهفة بلهفة، وقَطرة بقطرة، ولكنَّ الأخيرة كانت من ريقه ﷺ لتنزلَ على ساقِ أبي بكر فتبرأ بإذن الله.

فصَدق الله: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾، وهذا النص يُوحي إليك أنهما روحٌ واحدة في جسدين، أو حياةٌ واحدة في شخصين، يخاف أحدهما على صاحبه أشدَّ من خوفه على نفسه، الإيثار والحب والأخوة ليست معاني نظرية بينهما، بل هي وشائج طبيعية، بل هي أطرافٌ كالأصابع والأيادي والأرجل، وليست هي أعضاءً لجسد من الجسدين، بل هي مكونات هذه الروح الواحدة التي بين جنبيهما.

ولما كان هذا الإيثار، وهذا الحب، وهذه الأخوة، كان أبو بكر ﵁ صاحبَ الرِّيادة والسيادة، في السبق والصحبة، ونال وسامًا خالدًا أن ذكره الله تعالى وذكر

صحبته، فقال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾، فهي شهادة لا تعدلها شهادة، ودليل من الله على صحبة أبي بكر للنبي ﷺ في السيرة وفي المسيرة، وفي الجهر وفي السريرة، وكانت دومًا هذه الشهادة تلطم وجه من يُنكر فضل الصدّيق ﵁ الذي ﴿أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾.

ولما أراد الله أن يصوّر الهجرة، ويسجلها في القرآن الكريم، لم يسجل ذلك المشهد الذي استقبل فيه الأنصارُ رسولَ الله ﷺ استقبال الزعماء الفاتحين، وهو سيد الفاتحين، إنما صوّر القرآن موقف النبي ﷺ وهو في الغار، في أحرج المواقف، وفي أصعب المشاهد، التي نرى فيها عناية الله تكتنف رسول الله ﷺ.

وكأنما دخل رسول الله ﷺ إلى كِسر بيت تحت عرش الرحمن لا في جوف غار: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ...﴾ [التوبة:٤٠].

وهذه الآية نزلت في عام العسرة في ثنايا التجهز لموقعة تبوك في شهر رجب من العام التاسع للهجرة، نزلت توبّخ القاعدين، وتحفّز المجاهدين، شأنها شأن سورة التوبة كلها، فكان لسان الحال: إلا تنصروا النبي بالخروج معه لقتال الروم فقد نصره الله من قبلُ!.

وفي أي موضع نصره؟ وما الموضع الذي ذكره الله تعالى في الآية؟ هل ذكر بدرًا فقال: "فقد نصره الله في بدر"، وهو يوم الفرقان العظيم ـ؟ لا. هل قال: "فقد نصره الله في الأحزاب"، يوم تكالب أهل الأرض على الإسلام، .. لا، لم يذكر ذلك.

ولم يذكر الفتح المبين في صلح الحديبية، ولم يذكر الفتح الأكبر في مكة؛ بل ذكر الفتح الأول، والهجرة الشريفة، والنصر المنسي، والمعركة التي دارت رحاها بين الله وحده وبين معسكر الوثنية.

وما هي أرض المعركة يا ترى؟ لم تكن في ميدان من ميادين القتال المعهودة، بل كانت كهفًا! نعم هناك كانت المعركة.

حيث اجتمع أهلُ الوثن من حول الكهف يقتفون الأثر، ويُعلنون المكافأة، وقد رصدوا الجائزة لمن يأتي به ﷺ، فطلبوه في كل مطلب، وبحثوا عنه في كل مبحث، حتى وصلوا إلى الكهف، حيث حمي الوطيس دون سيوف ورماح، وعلا غبار الحرب دون قتال كالقتال، في تلك المعركة الدائرة، بين جبار السموات وجبابرة الأرض.

هنالك تتجلى القدرة الإلهية، وتهطل العناية الربانية، وتتكاثف سحائب الرحمة، فتظلل على خير البرية، هو وصاحبه، إذ هما في الغار، والمشركون محدقون بالمكان، ولو نظر أحدهم أسفل قدميه لانكشف الأمر[1]، ولقُتلَ الإسلامُ بقتل مَن في الغار، ولكن أبى الله أن ينظروا هذه النظرة، وها هي يد الله تمسك بأحداق المشركين! وها هي قدرة الله تتحكم في ألحاظ البشر أجمعين.

وكان رد النبي ﷺ لصاحبه؛ رد الواثق الثابت الصابر: لا تحزن، لا تعبأ، لا تُبالِ، خفِّفْ عنك .. إن الله معنا.

واهًا لتلك النفس التي تكالَب عليها البشر، السانح والبارح، والغادي والرائح، بَيْدَ أن الله معه!

إذنْ لا شيء ضده! لا شيء يصده!

إن الله معنا، كلمة الإيمان التي خرجت من قلب سيد المؤمنين. «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟».

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، (١٧٧/٣) وما بعدها، ابن سعد: الطبقات، (٢٤٩/١) وما بعدها، ابن هشام: السيرة، (١٢٥/٢) وما بعدها، البيهقي: دلائل النبوة، (٤٧١/٢) وغير ذلك.

إنه نبينا، يلقي ذلك الدرس على قلوبنا، وفي هذا الظرف، من جوف الكهف، أن القلوب وأن العيون بيد الله، يقلّبها كيف يشاء.

هذه الأحداق التي لو تحركت قيد أنملة لكان الإسلام في أَسر الشرك.

وقد وَقع البصر على البصر، بيد أن الله جعل بينهما عجاجة من البلور، أو سدًا، يُرى ظاهره من باطنه، ولا يُرى باطنه من ظاهره.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾، سبحان القادر! كيف تقر السَّكِينَةُ في غار موحش، احتوشته جلاوزة الباطل! إنها سكينة ليست كأي سكينة، إنها منسوبة إلى الله، سكينته، هو، وحدَه هو، سكينة مِنْه، بمواصفات من عنده، وبسمات من لدُنْه، فالموقف جلل، والأمر خطر.

أتُراك تترك إنسانًا في نقب غائر في جبل مهجور، في صحراء، يقاسي الجوع والظلماء، والعقارب والحيات، يطلبه القاصي والداني من الأعداء، وما يدري أيأتيه الموتُ من لدغة حية أو لسعة عقرب، أو مِن ضربة سيف أو طعنة خنجر!؟

لو جمعتَ له وسائل التسلية، وضروبَ التلهية، وأدويةَ التهدئة ما سكن قلبه طرفة عين، فما بالك بمن مكث في هذا الغار ثلاثة أيام! لذا كانت سكينة الله، وكانت جنود الله ـ التي لم نرها ولم نعرفها ـ، وذلك ليخرج الداعية من غارِه بحفظ الله، ولتمضي دعوة الله في طريقها، وينتشر الإسلام، وتعلو كلمةُ الله العليا.

الجو السائد في أحداث الهجرة، هو جوُّ "الحذر والأخذ بالأسباب" بصورة تثير التعجب والإعجاب. هذا النبي الكريم الذي قبل سنوات قليلة أسرى الله به من مكة إلى الشام في لمح البصر؛ الآن فرض عليه الهجرة من مكة إلى المدينة؛ وأن يكابد فيها المطاردة والصحراء والجوع والعطش والحر والغربة، يكابد كل ذلك على قدميه لا على براق يطير به في ليلة قمراء.

لقد أراد الله ـ تعالى ـ أن تكون أحداثُ الهجرة تشريعًا إلى قيام الساعة، لذا كانت إنسانية بشرية، أخذ فيها النبي ﷺ بما استطاع من أسباب الدنيا؛ اختار الصاحبَ، وجهز الراحلة وأنفق المال واستعان براعٍ وعين يستطلع الخبر، وتخفّى بغار موحش مُظلم، وأكل القليل من الطعام ما يكاد يسدّ رمقه.

كل هذا لتعلم أن دعوة الإسلام دعوة واقعية، وأن الإسلام لا ينتصر إلا إذا أخذنا له بأسباب الدنيا مع التوكل على الله، وأن المسلم في حياته اليومية مهما بلغ في التعبد والتحنث فإن ذلك لن يدفع عنه مذلة الفقر أو مهلكة الجهل، أومعرّة المرض، إلا إذا أخذ بالأسباب الدنيوية، والعوامل الحياتية، والوسائل المباحة المختلفة التي تعينه على معاشه.

فما بالك إذن إن أردنا أن نجعل من الدعوة الإسلامية رائدة الدعوات، ومن الحضارة الإسلامية سيدة الحضارات؟

علم الله أنه إذا قال في شأن الهجرة النبوية: كوني لكانت؛ ولَنَقَلَ النبيَّ ﷺ على بساط إلهي من بيته في مكة ـ حيث يترصّده المشركون ـ إلى بيت أبي أيوب الأنصاري في المدينة، في أقلَّ من طرفة عين، وما ذلك على الله بعزيز، وقد رأيتَ كيف أسرى بعبده ليلاً من مكة إلى ما هو أبعد من المدينة.

لكن الذين اتقوا ربهم، يعرفون أن دعوة الله لا بد أن نأخذ لها بقوة، وأن نمهد لها طريقها بسبب، وأن نيسر لها وسائلها بحكمة، وأن نصرفَ لها الأفكار التي تخدمها من هنا وهنا.

الخروج إلى يثرب:

وفي اليوم الثالث حين عرف النبي ﷺ وصحبُه أن قد سكن الناس عنهما أتاهما صاحبهما ببعيرَيهما وبعيرٍ له، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بطعامهما. فلما ارتحلا لم تجد ما تعلق به الطعام والماء في رحالهما، فشقّت نطاقها وعلّقت الطعام بنصفه وانتطقت بالنصف الآخر؛ فسميت لذلك «ذات النطاقين».

وامتطى كلُّ رجل بعيره، ومعهما طعامهما، ومع أبي بكر خمسة آلاف درهم هي كلُّ ماله. وزادهما اختفاؤهما بالغار وعلمهما بإمعان قريش في تتبعهما حرصا وحذرا، فاتخذا إلى يثرب طريقا غير الطريق الذي ألف الناس.

سلك بهما دليلهما عبد الله بن أريقط مُمْعِنًا إلى الجنوب بأسفل مكة ثم متّجها إلى تهامة على مقربة من شاطئ البحر الأحمر. فلما كانا في غير الطريق الذي ألف الناس، اتجه بهما شمالا محاذيا الشاطئ مع الابتعاد عنه، متّخذا من السبل ما قلّ أن يطرقه أحد، وأمضى الرجلان ودليلُهما طيلةَ الليل وصدر النهار على رواحلهم، لا يعبآن بمشقة، ولا يضنيهما تعب.

وأيّة مشقة أخوف مما يخافان من قريش لصدّهما عن الغاية التي يبتغيان بلوغها في سبيل الله والحق! . صحيح أنه ﷺ لا تساوره ريبة في أن الله ناصره ولكن من أسباب النصر الحذر، واتخاذُ الأسباب والاحتياطات اللازمة.

لقد تخطيا في أمان أيام الغار، ولكن ما جعلته قريش لمن يردّهما أو يدلّ عليهما جدير بأن يستهوي نفوسًا يُغريها الكسب المادي، ولو جاء عن طريق الجريمة.

فما بالك وهؤلاء العرب من قريش يعتبرون محمدا عدوًّا لهم! وفي نفوسهم من خلق الغيلة ما لا يأنف من الفتك بالأعزل والاعتداء على من لا يستطيع عن نفسه دفاعا. فليكونا إذًا على أشدّ الحذر، وليكونا أعيُنًا تَرى، وآذانًا تَسمع، وقلوبا تَشعر وتَعي.

شاة أم معبد:

لا ينقضي حادث الهجرة قبل أن نرى عناية الله برسوله ودعوته، فقد مر النبي ﷺ وصاحبُه في الطريق، بناحية قديد، على امرأة يقال لها، أم معبد، وكانت امرأة بَرْزَةً (كبيرة في السن تبرز للضيوف المارّين بها وتقريهم) فسألاها القِرى فلم يجدا عندها شيئا، وكان القوم مُسْنِتين مُرمِلين.

«فَنَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى شَاةٍ فِي كِسْرِ الْخَيْمَةِ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ؟ قَالَتْ: خَلَّفَهَا الْجَهْدُ عَنِ الْغَنَمِ، قَالَ: فَهَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ؟، قَالَتْ: هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: أَتَأْذَنِينَ أَنْ أَحْلُبَهَا؟، قَالَتْ: بَلَى بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلْبًا فَاحْلُبْهَا.

فَدَعَا بِهَا رَسُولُ الله ﷺ، فَمَسَحَ بِيَدِهِ ضَرْعَهَا وَسَمَّى الله عَزَّ وَجَلَّ وَدَعَا لَهَا فِي شَاتِها، فَتَفَاجَّتْ عَلَيْهِ وَدَرَّتْ واجْتَرَّتْ، وَدَعَا بِإِنَاءٍ يُرْبِضُ الرَّهْطَ فَحَلَبَ فِيهَا ثَجًّا حَتَّى عَلاهُ الْبَهَاءُ، ثُمَّ سَقَاهَا حَتَّى رويت، وَسقَى أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوَوْا، وَشَرِبَ آخِرَهُمْ ﷺ، ثُمَّ أَرَاضُوا ثُمَّ حَلَبَ فِيهَا ثَانِيًا بَعْدَ بَدْءٍ حَتَّى مَلأَ الإِنَاءَ، ثُمَّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا ثُمَّ بَايَعَهَا وارْتَحَلُوا عَنْهَا».

وما إن جاء زوجها ورأى اللبن عندها فتملّكه العجب، وسأل عن مصدر ذلك الخير، من أين جاء فقالت له زوجه الكريمة: "مرّ بنا رجل مبارك، كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا، قال: إني والله أراه صاحب قريش الذي تطلبه".

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل قال لامرأته بعدما وصفته له: "والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممتُ أن أصحبَه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً"(١).

وقد قيل في ذلك الأبيات المشهورة الآتية، وقد هتف بها هاتف حتى سمعها أهلُ مكة، قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجّه رسولُ الله.

تشير إلى ما ذكر من أنه أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب، وأن الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جـزى الله رب النـاس خير جزائه   رفيقيـن حـلاّ خيمتـي أمّ معبـد
هما نزلاها بالهـدى ثم اهتدت به   فقـد فاز من أمسـى رفيـق محمد

(١) الطبراني: المعجم الكبير، برقم (٣٥٢٤)، البيهقي: دلائل النبوة، (١/ ٢٧٨).

فمـا حملت من ناقة فـوق رحلها   أبـرَّ وأوفـى ذمّـة مـن محمـد
فيـا لقصـيٍّ مـا زوى الله عنكـم   به مـن فعـال لا تجارى وسـودد
لِيَهْـنِ بنـي كعـب مـكان فَتَاتِهم   ومقعدهـا للمؤمنيـن بمرصـد
سـلو أختكم عـن شـاتها وإنائها   فإنكـم إن تسـألوا الشـاة تشـهد
فغادرهـا رهنـا لديهـا لحالـب   يردّدهـا فـي مصـدر ثـم مـورد

فلما سمع حسان بن ثابت أنشأ يقول مجيبًا للهاتف:

لقـد خاب قـوم زال عنهـم نبيهم   وقـدس من يَسـري إليـه ويغتدي
ترحـل عن قـوم فزالـت عقولهم   وحـل علـى قـوم بنـور مجـدّد
هداهـم بـه بعـد الضلالـة ربهم   وأرشـدهم، من يتبع الحق يرشد
وهل يسـتوي ضلاّل قوم تسـفّهوا   عمـى وهـداة يهتـدون بمهتـد
لقـد نزلت منـه على أهـل يثرب   ركاب هدى حلت عليهم بأسـعد
نبيّ يـرى ما لا يـرى الناس حوله   ويتلـو كتـاب الله في كل مشـهد
وإن قـال فـي يـوم مقالـة غائب   فتصديقها في اليوم أو في ضحى غد

حديث سراقة:

بعد أن أعيا قريشًا الفشل رصدت مائة ناقة مكافأة ناجزة لمن يأتيهم بالنبي ﷺ حيّا أو ميتا، وهي مكافأة يسيل لها لعاب الباحثين عن الثروة وطلّابُ المال، وقد تطلّع إليها الكثيرون من الشبان الأقوياء والفرسان الشجعان، فبحثوا عنه ﷺ في كل مكان، وتتبعوا آثاره وأخباره حتى كادوا ينبشون الجبال.

وكان من أكثرهم حرصًا وتلهفًا على الظفر بهذه الجائزة الكبرى رجل من بني مدلج يقال له: سراقة بن مالك، وكان قد سمع من بعض المسافرين

القادمين من مكة أمارات واضحة تدل على الطريق الذي يسير فيه محمد وأصحابه، وكان عددهم أربعة.

فأخذ يضلّل السامعين ويعمّي عليهم حتى يظفرَ وحدَه بالإبل المائة، ويظفر إلى جوار ذلك بالفخر أمام أهل مكة الذين أعياهم البحث عنه ﷺ، واستسلموا في النهاية إلى اليأس والفشل.

أمر سراقة بفرسه فأرسل إلى بطن الوادي حتى لا يراه أحد ساعة خروجه، وامتطاه ودفعه إلى الناحية التي ذكر ذلك الرجل، وكان النبي ﷺ وصاحباه قد أناخوا في ظل صخرة لِيَقيلوا وليرفّهوا عن أنفسهم بعض ما أرهقها من وصب، ولينالوا من الطعام والشراب ما لعلهم يستعيدون به قوّتهم وصبرهم.

وبدأت الشمس تنحدر، وبدأ ﷺ هو وأبو بكر ﷺ يفكران في امتطاء جمالهما إذ كانا من سراقة قيدَ البصَر.

وكان جواد سراقة قد كبا به قبل ذلك مرّتين لشدة ما جهده. فلما رأى الفارس أنه وشيك النجاح، وأنه مدركٌ الرجلين فرادُّهما إلى مكة أو قاتلُهما إن حاولا عن نفسيهما دفاعا، نسي كبوتي جواده، ولزه ليمسك بيده ساعة الظفر.

ولكن الجواد في قومته كبا كبوة عنيفة ألقى بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج في سلاحه. وتطير سرادقه وألقى في روعه أن الآلهة مانعة منه ضالته، وأنه معرّضٌ نفسَه لخطر داهم، إذا همّ مرة رابعة لإنفاذ محاولته.

هنالك وقف ونادى القوم: أنا سراقة بن جعشم. انظروني أكلمْكم، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. فلما وقفا ينظرانه طلب إلى النبي ﷺ أن يكتب له كتابا يكون آية بينه وبينه. وكتب أبو بكر بأمر النبي كتابا على عَظْمٍ أو خزف ألقاه إلى سراقة، فأخذه وعاد أدراجه، وأخذ نفسه بتضليل من يطاردون المهاجر العظيم بعد أن كان هو يطارده[١].

(١) صحيح البخاري، برقم (٣٩٠٦).

ورجع سراقة إلى مكة مأخوذًا بما وقع له، ومصمما على تنفيذ ما تعهد به من إبعاد الأذى عنه ﷺ وصاحبه، وتضليل كل من يريد بهم الشر والسوء.

ويذكر الرواة[١]: أن أبا جهل وجه اللوم إلى سراقة حينما رجع دون أن يتحقق له شيء. فقال له سراقة ـ وكان شاعرًا:

أبا حكم والله لو كنت شاهدًا ... لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
علمت[٢] ـ ولم تشكُكْ ـ بأن محمدا ... رسولٌ ببرهان فمن ذا يقاومه؟
عليك بكف القوم عنه فإنني ... أرى أمره يومًا ستبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم[٣] ... لو أن جميع الناس طُرًّا يسالمه

وسواء أكان هذا الشعر لسراقة نفسه أم أنه من كلام غيره، فإنه ـ بلا شك ـ تعبير صادق عما يجيش في صدره، بعد ما رأى تلك العناية التي تحيط بالنبي ﷺ، وتحول بين أعدائه وبين ما يشتهون.

وَعَدَ النبيُّ ﷺ سراقة أن يلبس سوارَي كسرى؛ ولذلك فإن عمر بن الخطاب ﷺ لما أُتي بكنوز كسرى فوُضِعَت بين يديه وفي القوم سراقة بن مالك بن جعشم ألقى إليه سواري كسرى بن هرمز فجعلهما في يديه، فلما رآهما في يدي سراقة قال: الحمد لله، سواري كسرى بن هرمز في يد سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج[٤].

وهذا يدلنا أيضًا على أن النبي ﷺ لم يخرج من مكة خوفا من أذى قريش، ولا هربا من الاضطهاد، فقد علم أن الله عز وجل ناصره، وأنه متمٌّ نوره ولو كره الكافرون.

(١) انظر: ابن هشام: السيرة، (٢/١٠٢-١٠٤)، والبيهقي: دلائل النبوة، (٢/٤٨٩).
(٢) في «الدلائل»: عجبت.
(٣) في «الدلائل»: «بإلبها»، وانظر: السهيلي: الروض الأنف، (ص٦١٢).
(٤) البيهقي دلائل النبوة، (٦/٣٢٥)، وسنن البيهقي، برقم (١٢٨١٥).

www.almoslih.net

ولكن السبب الأكبر هنا أن النبي ﷺ رأى أن أرض مكة صلبة صلدة، فأراد ﷺ أن يبحث عن تربة جديدة صالحة لزرع هذه البذرة في القلوب والأفئدة، فهاجر لما أن توافرت هذه الأرض الجديدة، ووجد فيها محضنا لرسالة ربه جل وعلا.

طلع البدر علينا من يثرب:

دخلتْ المدينةُ المنورة (يثرب) التاريخَ؛ لما شرفها الله بهجرته ﷺ إليها، وفُضِّلَتْ على سائر البلاد ـ حاشا مكة ـ، وصارت بقعة مقدسة لها حرمتُها، وباتت بيضة المسلمين، وعقر دارهم، ومقر دولتهم، وعاصمة خلافتهم، ومنها انطلق السفراء إلى بقاع الأرض، يحملون رسالات الإسلام إلى ملوك وزعماء العالم.

والناظرُ لطبيعة المدينة المنورة ـ حرسها الله ـ والمتأمل في أحوالها يظهر له أنها أنسب البقاع لإقامة دولة الإسلام الناشئة، وذلك لعدة عوامل توافرت في المدينة المنورة، أهمها:

❶ **حصانتها العسكرية**: فالمدينة مُحصنة من الجهة الشرقية بحرّة واقم، ومن الجهة الغربية بحرة الوبرة، ومن الجهة الجنوبية بحصون اليهود، والحرة: هي مساحات بركانية صخرية وعرة، تُعجز الجيوش والخيول.. فهي إذن .. محصنة من جميع الجهات عدا الجهة الشمالية؛ وهي الجهة التي ضُرِب حولها الخندق فيما بعد، والخنادق لا تنفع إلا في مثل هذه القرى المحَصَّنة.

وقد ورد ذكر الحرَّتين في رؤيا الهجرة، وفي حديث الهجرة، فقال النبي ﷺ: «قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ؛ رَأَيْتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ، بَيْنَ لَابَتَيْنِ ـ وَهُمَا الْحَرَّتَانِ»[١].

وقد رآها في رؤيا غزوة أحد أنها درعٌ حصينة فقال: «وَرَأَيْتُ أَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، فَأَوَّلْتُهَا الْمَدِينَةَ»[٢].

(١) أخرجه البخاري، (٢١٣٤).
(٢) أخرجه أحمد، (٢٤٤٥)، ابن عباس، السلسلة الصحيحة، (١١٠٠).

❷ **وسطيتها الجغرافية في الجزيرة العربية**: فهي وسط بين اليمن والشام، ووسط بين الهند ومصر. كما أنَّ المدينة المنورة كانت بعيدة عن مكة المكرمة بحوالي (٤٥٠) كليو متر؛ وبالتالي لا يسهل الاتصال بين أهلها، وأهل مكة المكرمة، ولذلك يمكن كتم الخبر، ونشر الدعوة بين الناس دون أن يمسها أو يعترضها القريشيون؛ لا سيما أن وسائل نقل الأخبار في ذلك الوقت كانت صعبة.

❸ **التهيئة الفكرية التي تسبب فيها اليهود**: فكان حديث يهود المدينة عن اقتراب زمان نبي تكون يثرب ملجأه..

قال بعض الأنصار: "إن مما دعانا إلى الإسلام ـ مع رحمة الله تعالى وهداه ـ لما كنا نسمع من رجال يهود ـ وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ـ فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم!

فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم.. فلما بعث الله رسوله ـ ﷺ ـ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به؛ فبادرناهم إليه فآمنا به، وكفروا"[١].

❹ **استعداد أهل المدينة للالتفاف حول قيادة تجمع شملهم**: فقد أنهكتهم الحروب، التي أفنتهم جيلاً بعد جيل، فسادَ شعورٌ عام بين الأوس والخزرج، ورغبة في إنهاء هذه الثارات إلى الأبد.

وقد كانت هذه الحروب تضرم زمنًا طويلًا، وكانت تقوم على أتفه الأسباب، كحرب حاطب التي كانت بين الأوس والخزرج بسبب رجل يهودي!

❺ **زوال شيوخ الحروب**: وهم قادة القبائل ومسعرو النعرات الجاهلية، وهؤلاء الشيوخ قضت عليهم طاحونة الحروب والفتن، مما مهد الطريق لجيل

(١) ابن هشام، (٢/٣٧).

من الشباب في تبوّء زمام القيادة في أقوامهم كسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسعد بن زرارة وغيرهم من الشباب الذين نصروا الإسلام؛ فهؤلاء لم تتأصّل فيهم النعرات الجاهلية التي رسخت في آبائهم.

٦ **مناصرة أخوال النبي ﷺ له،** لأنَّه لما عزم ﷺ على أن يدخل المدينة أرسل إلى زعماء بني النجار (أخواله) [١] فجاءوا متقلدين سيوفهم، وقُدِّر عدد الذين استقبلوه من المسلمين الأنصار بخمسمائة، حيث أحاطوا بركبه ﷺ وصاحبه[٢].

ومضى الموكب داخل المدينة والجموع تهتف: "جاء نبي الله، جاء نبي الله"[٣]. وهذه مناصرة من أهل المدينة له ﷺ خاصة أخواله من بني النجار.

٧ **إنَّ أهل المدينة (الأنصار) هم عرب لسانهم اللغة العربية،** وأهل مكة على شاكلتهم، مما سهَّل التواصل، وقرب الشقة، وأصبح أمر الدعوة ميسورًا مفهومًا بين الفريقين، لأن وسيلة الاتصال مشتركة.

٨ إنَّ البُشْريات قد جاءت له ﷺ بأنَّ أهل المدينة لهم الرغبة في هذا الدين، وهم على استعداد لنصرته، ومبايعته على ذلك، حيث كانت بيعتا العقبة الأولى والثانية؛ وكذلك لقاءات المواسم "وكان أكبر هذه المواسم الحج؛ حيث لقي ـ فيمن لقيهم ـ جماعة من الخزرج"[٤].

(١) المباركفوري: الرحيق المختوم، (ص١٩٢).
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، (٧/٢٥١).
(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق رسول الله ﷺ، مرجع سابق، (ص٢٥٠).
(٤) عبد الحميد الهاشمي: الرسول العربي المربي، دار الثقافة العربية، دمشق، سوريا، ط/١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، (ص٩٨).

في قباء:

وانطلق النبيّ ﷺ وصاحبه يقطعان بطون تهامة في قَيظٍ مُحرِقٍ، تتلظى له رمال الصحراء، ويجتازان إكاما ووِهادًا، ولا يجدان أكثر الأمر ما يتقيان به شواظ الهاجرة، ولا يجدان ملجأ من قسوة ما يحيط بهما، وأمْنًا مما يتخوفان أن يفجأهما، إلا في صبرهما وحسن ثقتهما بالله وعظيم إيمانهما بالحق الذي أنزل على رسوله.

وظلّا كذلك سبعة أيام متتالية ينيخان في حمّارة القيظ، ويسريان على سفينةِ الصحراءِ الليلَ كلَّه، يَجِدان في سكينته، وفي ضوء النجوم اللامعة في ظلمته ما يطمئن له قلباهما، وتستريح له نفساهما.

فلما بلغا مقام قبيلة بني سهم، وجاء إليهما شيخها بريدة يحييهما، زالت مخاوفهما، واطمأنت لنصر الله قلوبُهما، وقد صارا من يثرب قاب قوسين أو أدنى.

لم يكن النبي ﷺ يضيّع وقتا أبدا حتى وهو في الظروف العصيبة، ولم ينشغل عن الدعوة إلى الله عز وجل.

وعندما لقي النبيُّ ﷺ بُرَيْدَة بن الحُصَيْب الأسلمي ومعه قومه، فعرض عليه الإسلام فأسلم بريدة وأسلم معه قرابة ثمانين بيتًا من قومه، وبعض الروايات سبعين بيتا فعلّمهم النبي ﷺ الصلاة، وصلى معهم العشاء الآخرة، وأقام بريدة بأرض قومه حتى قدم على رسول الله ﷺ بعد أُحُد.

ومن الطريف هنا أن نذكر أن بريدة الأسلمي رضي الله عنه أشار على النبي ﷺ أن يتخذ لواء قبل مقدمه المدينة، فقال له: "لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، قال: فحلَّ عمامته، ثم شدها في رمح، ثم مشى بين يدي النبي ﷺ حتى دخل المدينة"[١].

فكأن بريدة يرى في هذا الدخول فتحا ونصرا، فلا بد أن يستقبل النبي ﷺ استقبال الملوك والعظماء الفاتحين، وما أعظمه من فاتح، فتح الله به القلوب

(١) البغوي: معجم الصحابة، برقم (٢١٦).

المغلقة، لتنظر إلى ملكوت الله، وتتدبر في بديع صنعه، وتدين له بالطاعة، وتشهد له بالوحدانية.

ويصل الركب المبارك إلى قباء، وكان أهل المدينة ينتظرون على جناح الشوق، مقدمَ رسول ﷺ منذ جاءتهم الأنباء بأنه خرج من مكة فكانوا يخرجون كل صباح إلى أطراف المدينة لاستقباله ﷺ، ويظلّون حتى الظهيرة فيرجعون، وكان وصول النبي ﷺ إلى قباء، يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول من السنة الأولى من الهجرة [1].

ويصف لنا عروة بن الزبير مشهد استقبال أهل المدينة للرسول ﷺ: «وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ.

فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ، أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ لأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ هَذَا جَدُّكُمُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ.

فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلاحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَامِتًا.

فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ.

(١) رواه الترمذي، (٢٤٨٥)، وابن ماجه، (١٣٣٤)، وأحمد، (٢٣٨٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، (٧٨٦٥).

فَلَبِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَأُسِّسَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ، فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ، حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ»[1].

وحين وصلت الأنباء إلى المدينة بدخول النبي ﷺ إلى قباء كان عبد الله بن سلام ـ عالم اليهود وحَبْرَهم المقدم في المدينة ـ يعمل في نخل له، فلما سمع بذلك ترك نخله وأسرع إلى النبي ﷺ.

ولنسمع منه الحديث، قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَقِيلَ قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ... فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَثْبَتُّ وَجْهَ رَسُولِ الله ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلامٍ»[2].

وقد كانت للنبي ﷺ علامات معروفة عند أهل الكتاب، تحقق عبد الله من بعضها، ثم إنه أراد أن يتحقق من علم النبي ﷺ ليزداد إيمانًا، فسأله أسئلة لا يعلم الجواب عنها إلا نبيّ.

في صحيح البخاري عن أنس أن عبد الله بن سلام «أتى رسول الله ﷺ مقدمه إلى المدينة فقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاثٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلا نَبِيٌّ:

- مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟
- وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟
- وَمَا بَالُ الْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟

قَالَ ﷺ: «أَخْبَرَنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا».

(١) صحيح البخاري، برقم (٣٩٠٦).
(٢) رواه البخاري، (٣٩٣٨).

www.almoslih.net

قَالَ ابْنُ سَلامٍ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلائِكَةِ!!

قَالَ ﷺ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الْوَلَدَ.

قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا الله وَأَنَّكَ رَسُولُ الله، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهتٌ، فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلامِي.

فَجَاءَتِ الْيَهُودُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ الله بْنُ سَلامٍ فِيكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَأَفْضَلُنَا وَابْنُ أَفْضَلِنَا.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ الله بْنُ سَلامٍ؟».

قَالُوا: أَعَاذَهُ الله مِنْ ذَلِكَ!! فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ.

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ الله فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، قَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَتَنَقَّصُوهُ، قَالَ: هَذَا كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ الله»(١).

وقد قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

لقد كشف هذا المشهد عن أمور كثيرة، منها أن أصل الدين واحد عند الله هو الإسلام، وأن اليهود رغم تحريفهم التوراة بقي لهم بعض العلم دون تحريف، ويخفونه عن كثير من الناس.

وأن رأسهم وسيدهم بالمدينة كان يعلم حقيقة أمرهم وما هم فيه من ضلال وبهتان، وأن الرجل لما أراد الله به الخير أسلم وترك يهوديته المحرفة، وأن لليهود عقلية خاصة ينبغي على المسلمين دراستها جيدًا للتعامل معهم بما يستحقون..

(١) رواه البخاري، (٣٩٣٨).

مشهد آخر على النقيض يفيض بالحقد والحسد الذي يكنه اليهود للإسلام ولرسول الإسلام ﷺ ترويه لنا أم المؤمنين صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ ـ زعيم اليهود ـ أَنَّهَا قَالَتْ:

«كُنْتُ أَحَبَّ وَلَدِ أَبِي إِلَيْهِ وَإِلَى عَمِّي أَبِي يَاسِرٍ لَمْ أَلْقَهُمَا قَطّ مَعَ وَلَدٍ لَهُمَا إلا أَخَذَانِي دُونَهُ. فَلَمّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ، وَنَزَلَ قُبَاءَ، فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، غَدَا عَلَيْهِ أَبِي، حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ، وَعَمّي أَبُو يَاسِرِ بْنُ أَخْطَبَ، مُغَلّسَيْنِ. فَلَمْ يَرْجِعَا حَتّى كَانَا مَعَ غُرُوبِ الشّمْسِ. فَأَتَيَا كَالّيْنِ كَسْلانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى.

فَهَشِشْتُ إلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ فَوَالله مَا الْتَفَتَ إلَيّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا، مَعَ مَا بِهِمَا مِنْ الْغَمّ. وَسَمِعْتُ عَمّي أَبَا يَاسِرٍ وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِي حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ: أَهُوَ هُوَ؟

قَالَ: نَعَمْ وَالله!

قَالَ: أَتَعْرِفُهُ وَتُثْبِتُهُ؟

قَالَ: نَعَمْ!

قَالَ: فَمَا فِي نَفْسِك مِنْهُ؟

قَالَ: عَدَاوَتُهُ وَالله مَا بَقِيتُ (!!!)»(١).

إنه حوار ترويه أم المؤمنين صفية رضوان الله تعالى عنها عن حال أبيها وعمها زعيمي يهود بني النضير، يوم دخل رسول الله ﷺ مهاجرًا ـ وقد استقبله الأنصار استقبال الفاتحين ـ وإن كان هو سيد الفاتحين ـ صلوات الله وسلامه عليه.

وكان اليهود يتدارسون صفة النبي ﷺ في كتبهم، ويستفتحون باسم خاتم الأنبياء على المشركين في الحروب والنزاعات قائلين: "تقارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم»(٢).

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٥١٩، ٥٢٠).

(٢) ابن هشام: السيرة، (١/٢١١).

www.almoslih.net

قال بعض الأنصار معلقًا: "فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩].."[1].

وما منعهم أن يؤمنوا إلا حسدًا من عند أنفسهم، وحقدًا، تزول منه الجبال. قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

وكيف كان حال حيي بن أخطب وأخيه ياسر ـ لما كان يوم دخول رسول الله ﷺ المدينة ـ لقد كانت صفتهم كما وصفت صفية: "كَالَّيْنِ كَسْلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى.. مَعَ مَا بِهِمَا مِنَ الْغَمِّ".

نعم .. لقد أصابهما التعب النفسي والكسل والنصَب والغم! لمجرد أن تبينت لهما الحقيقة: أن خاتم الأنبياء ليس منهم.

إنها العقلية نفسها إذن التي يتعامل بها اليهود اليوم مع الناس عامة والمسلمين والعرب خاصة، وُعود براقة لا يُنفذ منها شيء، وكذب وبهتان وزور ومؤامرات لا تنتهي، فما أشبه الليلةَ بالبارحة، ولكن أكثر المسلمين اليوم لا يتدبر هذا الأمر، حتى علا اليهود في أرضنا وبلادنا وأفسدوا.

(١) ابن هشام: السيرة، (١/ ٢١١).

دُرُوسٌ وعِبَرٌ

❶ أن الله عز وجل ناصر هذا الدين، وهو سبحانه يقيض له من يرفع رايته، ويُظهره على الناس ولو كان كافرا، وهذا أمر مشاهَد أمام أعيننا بكثرة، فهذا التقدم العلمي المذهل الذي يحقّقه العرب كلَّ يوم ثم يكتشفون به جوانب عظيمة من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم دليلٌ على هذا، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وقد سخر الله عز وجل اليهود ليروُوا لأهل يثرب ذكر النبي ﷺ في كتبهم، فيكون ذلك سببا في إيمان الأنصار على الرغم من كفر اليهود أنفسِهم.

❷ أن الله عز وجل له حِكَم عظيمة، في كل ما قدّر، ومن بعض هذه الحِكَم: أن يرفض أهل مكة الدخول في الإسلام، ويعلنوا العداء التام له، ويحاولوا استئصاله من جذوره، فينصره الله عز وجل عليهم.

"وهذا من الحكمة بمكان عظيم، فإنه لو انتشر الإسلام بمكة لقال الناس: إن قريشًا أرادوا ملك العرب، فعمدوا إلى شخص منهم، وأوعزوا إليه أن يدعي هذه الدعوى، حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم، ولكنهم كانوا له أعداء ألِدّاء، آذَوه شديد الأذى، حتى اختار الله له مفارقةَ بلادهم والبعدَ عنهم"[1].

(١) الخضري: نور اليقين، (ص ٦٠).

www.almoslih.net

❸ ضرورة العمل الفوري لنصرة هذا الدين، فبمجرد أن يدخل فيه المسلم لينجي العالمين مما هم فيه من الضلال المبين، فلقد نشر أهل يثرب الإسلام وحملوا دعوته إلى أقوامهم، حتى إنه لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذِكْرُ رسول الله ﷺ، على الرغم من أن النبي ﷺ لم يكن بينهم.

❹ حسن اختيار الدعاة والسفراء ليكونوا نماذج مشرّفة، ولكي يستطيعوا القيام بالمهام المنوطة بهم.

❺ ضرورة الأخذ بالأسباب وعدم التواكل إلى نصر الله عز وجل لهذا الدين، فالإنسان مطالب بأن يقوم بما عليه من واجبات دون انتظار النتائج فإنها بيد الله سبحانه، وقد أعد النبي ﷺ لكل أمر عدته، ومارس أساليب التمويه والتخفي، وتدخلت عناية الله به في الوقت المناسب، بعدما نفذت كل وسائله البشرية التي يقدر عليها.

❻ لا بد أن يقدّر الإنسان حجم المسؤولية التي يكلِّف نفسَه بها، ولا يزج بنفسه في التزامات وعهود قد لا يستطيع الوفاء بها، فيخسر دنياه وآخرته، وهذا ما تخوف منه بعض الأنصار وأدركوا خطورة ما أقدم عليه قومهم فأشفقوا عليهم مما لا قبل للأنصار به، لأنهم إن خذلوه بعد البيعة فهو خزي الدنيا والآخرة.

❼ عظم شأن الأمانة، وعدم التفريط في أدائها مهما كانت الظروف، فهذا النبي ﷺ وهو في هذه الظروف العصيبة يستبقي عليا رضي الله عنه في فراشه، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع والأمانات التي كانت في حوزة النبي ﷺ للمشركين.

❽ وفي هجرة النبي ﷺ وقعت معجزات حسية، وهي دلائل ملموسة على حفظ الله ورعايته لرسول الله ﷺ، ومن ذلك ـ على ما روي ـ نسيج

العنكبوت على فم الغار، ومنها ما جرى لرسول الله ﷺ مع أم معبد، وما جرى له مع سراقة، ووعْدُه إياه بأن يلبس سواري كسرى.

فعلى الدعاة ألا يتنصلوا من هذه الخوارق، بل يذكروها ما دامت ثابتة بالسنة النبوية على أن ينبهوا الناس على أن هذه الخوارق هي من جملة دلائل نبوته ورسالته ﷺ.

❾ يجوز للدعاة أن يستعينوا بمن لا يؤمن بدعوتهم، ما داموا يثقون بهم ويأتمنونهم على ما يستعينون به معهم، والمسألة تقديرية، يُترك تقديرها إلى فطنة الداعي ومعرفته بالشخص.

❿ إن القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شيء، وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود، فقد كان ﷺ رحيمًا ورفيقًا بجنوده وأتباعه، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه، ولم يبقَ إلا المستضعفون والمفتونون ومن كانت له مهمات خاصة بالهجرة.

⓫ على الدعاة إلى الله أن يبحثوا دائمًا عن أماكن خصبة للدعوة. فقد أثبتت الهجرة النبوية أن الدعوة والعقيدة يُتنازل لهما عن كل حبيب وعزيز وأليف وأنيس، وعن كل ما جبلت الطباع السليمة على حبه وإيثاره والتمسك به والتزامه، ولا يُتنازل عنهما لشيء.

⓬ أهمية التخطيط في حياة المسلمين: فكان الهدف محددًا والوسائل كذلك والعقبات مأخوذة بالحسبان، واختيار الطريق والمكان والتموين ومن يحمل الأخبار والدليل، كل ذلك مُؤَمَّنٌ مع إحاطة ذلك بالسرية والحيطة والحذر.

١٣ إن الجندي الصادق المخلص لدعوة الإصلاح يفدي قائده بحياته، ففي سلامة القائد سلامة للدعوة، وفي هلاكه خذلانها ووهنها، فما فعله علي رضي الله عنه ليلة الهجرة في بياته على فراش رسول الله ﷺ تضحيةٌ بحياته في سبيل الإبقاء على حياة رسول الله ﷺ.

١٤ أنه لا أنصاف حلول في الأصول، فالإسلام نظام شامل، لا يقوم إلا شاملًا، فمن ينصره على العرب لابد أن ينصره على العجم.

١٥ أن الجهاد الصادق المتجرد، جزء لا يتجزأ من الإسلام، فكما لا يصح إسلام قوم تعاقدوا على صلاة الظهر دون العصر، فكذلك لا يصح إسلام قوم تعاهدوا على الجهاد في وجه دون آخر..

فالصلاة وحدة واحدة لا تتجزأ، وكذلك الجهاد.. فكل فرد حاط الإسلام من جميع جوانبه، عقيدةً، وعبادةً، ومعاملاتٍ، وأخلاقًا، وفكرًا، وحركةً، ودعوةً، وجهادًا ـ فهو ناصر لدين الله قائم على شرعه، وهو أحق الناس بالتمكين.

وكل دولة حاطت الإسلام من جميع جوانبه، في العقيدة والعبادة، في الأخلاق والمعاملات، في السياسة والسلطة، في الرحمة والعدل، في العلم والقضاء، في التجارة والاقتصاد، في الجهاد والجيش..

ولم تفصل بين الإسلام والسياسة ـ فالسياسة جزء من الإسلام ـ.

ولم تفصل بين الإسلام والاقتصاد ـ فالاقتصاد جزء من الإسلام كذلك ـ.

ولم تفصل بين الإسلام والتربية ـ فالتربية جزء من الإسلام أيضًا ـ....

ولم تفصل الإسلام عن الحياة، أو الحياة عن الإسلام، فالإسلام منهج الحياة، والحياة لا تصلح دون الإسلام..

فليعلم الدعاةُ أن الدعوة: إيمانٌ وفقه وحركة. أن الدعوةَ عقيدةٌ راسخة تقوم عليها الثقافة الإسلامية الواسعة، تلك التي تتحرك في إطار مراحل مرتبة، وخطط

مُنظمة، وجداول عمل، وبرامج تنفيذ، ووسائل دعوية مختلفة ... كل هذه العناصر تسعى حثيثًا ـ في منظومة متكاملة ـ لتحقيق الغاية الكبرى؛ ألا وهي رضوان الله تبارك وتعالى.

١٦ لأبناء الدعوة الإسلامية؛ أن يستعينوا برجالات المجتمع المنصفين، ممن يُحسبون في صف المخالفين للدعوة؛ فأنت تجد نماذجَ محترمة، ومعادنَ طيبة في بعض القادة والساسة والكُتّاب ممن لا يعملون للفكرة الإسلامية.

وواجب الدعوة أن تستفيد من هذه الرموز المنصفة خير استفادة لمصلحة الدعوة؛ كأن نَدْعُوهم لعمل مشترك، أو نوجه أحدهم لباب من أبواب الخير للدين، أو نعقد ندوة أو محاضرة لكاتب من كتابهم؛ يشرح ويطرح ما يخدم الدعوة.

على أن بعض قادة الدعوة أحيانًا يقعون في خطأ؛ هو العمل على تلميع هذه الرموز التي لا نضمن ولاءها الكامل للدعوة الإسلامية، وفي نفس الوقت نرى بعض هؤلاء الرجال ـ من أبناء الدعوة الإسلامية ـ من لا يُحسن تفعيل الكوادر الفكرية والتربوية التي تنضوي تحت لواء الدعوة الإسلامية؛ ممن يستطيعون أن يسدوا مَسدَّ غيرهم، أو يسدوا شيئًا من مسدهم.

١٧ على كل مسلم أن يُقَدم الدين على الوطن .. أو أن دينك هو وطنك وإن تَرَكْتَ الموضع الذي وُلدْتَ فيه، أو أن وطن المسلمين الذي فيه قوام دولة الإسلام هو الوطن الشرعي الذي تهوى إليه الأفئدة، وما عداه من بقاع وأصقاع فليست بأوطان، لذلك كان المسلمون دومًا في غربة حينما سكنوا ديار الكفر، وهم أقلية دينية يُحْكمون بقوانين البلدة التي لا يملكونها، ولا ينتسبون إليها انتسابًا دينيًا.

هذا محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم

٩

بِنَاءُ الدَّولَةِ

وَصُولُ الرَّكبِ المُبَارَك

ترك النبي ﷺ قباء واتجه إلى المدينة «اجتمعت بنو عمرو بن عوف فقالوا: يا رسول الله أخرجت ملالا لنا أم تريد دارا خيرا من دارنا؟ قال: إني أمرت بقرية تأكل القُرى فخلُّوها ـ أي ناقته ـ فإنها مأمورة، فخرج رسول الله ﷺ من قباء يريد المدينة؛ فتلقاه الناس فخرجوا في الطرق وعلى الأباعر، وصار الخَدَمُ والصبيان يقولون: الله أكبر، جاءنا رسولُ الله، جاء محمد»[١].

وتَتَابع السيرُ بعد صلاة الجمعة، حتى دخل هذا الركب المدينة محفوفا بالأهازيج وفرحة المستقبلين، حتى ارتجّت البيوت والسكك بأصوات الحمد والتسبيح لله عز وجل، على نعمته ومَنِّه بوصول النبي ﷺ إلى المدينة آمنا، وكانت المدينة في أضوأ يوم وأبهاه، وأنارت جنباتُها بمَقدِمِ رسول الله ﷺ إليها.

عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابها فرحا بقدومه»[٢].

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٣/ ٢٧١).

(٢) سنن البيهقي، برقم (١٣٣٠)، ومصنف عبد الرزاق، برقم (١٩٧٢).

www.almoslih.net

روى البيهقي ورزين عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلنَ:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكرُ علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوثُ فينا جئت بالأمر المطاع[١]

عن البراء رضي الله عنه أنه قال: «قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى جَعَلَ الإِمَاءُ يَقُلْنَ قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ»[٢].

وأما أن المدينة أضاءت وأنارت جنباتها بمقدمه ﷺ فقد روي عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء»[٣].

وروى ابن أبي خيثمة رضي الله عنه قال: «شهدت يوم دخل رسول الله ﷺ المدينة فلم أر يوما أحسن منه ولا أضوأ»[٤].

فلم يمر رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار إلا قالوا: «هلم يا رسول الله إلى العز والمنعة والثروة»[٥].

دخل الرسول ﷺ المدينة، ولم يكن يمر بدار من دور الأنصار إلا قالوا: "هلمَّ يا رسول الله إلى العز والمنعة والثروة". ولكنه ﷺ كان يرد عليهم شاكرا داعيا لهم بخير، ثم يقول وهو يشير إلى ناقته: خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة[٦].

(١) البيهقي: دلائل النبوة، (٢/٥٠٧)، والسيرة الحلبية، (٢/٢٣٤) وغيرهما.
(٢) البخاري، برقم (٣٩٢٥).
(٣) سنن الترمذي، برقم (٣٦١٨)، ومسند أحمد، برقم (١٣٨٥).
(٤) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٣/٢٧٢)، ابن سيد الناس: عيون الأثر، (١/٢٥٤).
(٥) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٣/٢٧٢).
(٦) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٣/٢٧٢)، دلائل النبوة للبيهقي، (٢/٥٠٤)، وغيرهما من كتب السيرة.

وقد كانت هذه الحفاوة التي أبداها أهلُ المدينة بالنبي ﷺ نقطة تحول في تاريخ البشرية، فقد أيقن ﷺ بعد أن رأى هذا الفرح بمقدمه، والسعادة التي تغمر أهل المدينة سرورا به، أن الله أذن لدينه بالنصر، وأن العقيدة التي ظل يجاهد في مكة ثلاثة عشر عاما لوضع قواعدها قد آن لها أن تُثمر، وأن تنتشر في ربوع العالمين، وأن تتكون الدولة الإسلامية التي ستبقى خالدة بإذن الله، حتى يرث الله الأرض، ومَن عليها.

إن الصحابة رضوان الله عليهم قد تركوا الناقة تسير على راحتها لا يدري أحد أين يستقر بها المقام، وظلّوا يرقبون خطواتها، وتعلقت الأفئدة بمشيها الوئيد، فكلما رفعت خفًّا ووضعت آخر طمح أهل تلك الدار أن تبرك، ليضيفوا رسول الله ﷺ، حتى إذا جاوزتهم نقلت الأمل إلى جيرانهم، وشعر أهل تلك الدار بما لحق بهم من خسارة لهذا الشرف العظيم.

فلما وصلت ناقته ﷺ إلى الموضع الذي فيه مسجده بركت والنبي ﷺ راكب عليها، وكان المكان مِرْبَدًا[١] لغلامين يتيمين من بني النجار، ثم وثبت فسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت خلفها، فرجعت إلى مبركها أولَ مرة، فبركت فيه، ووضعت جرانها[٢].

وجعل جبار بن صخر ينخسها رجاء أن تقوم، فتنزل في دار بني سلمة، فلم تفعل، فنزل رسول الله ﷺ عنها وقال: «هنا المنزل إن شاء الله» ثم قرأ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩][٣].

نزل النبي ﷺ في هذا المكان على أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أقرب المنازل إليه، فأقام عنده حتى أتم بناء مسجده ومساكنه، وكانت الهدايا من الطعام والشراب

(١) المربد: الجرين.
(٢) وضع البعير جرانه: أي مد عنقه على الأرض وهو بارك.
(٣) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٣/٢٧٣).

تتوافد على رسول الله ﷺ، وهو في دار أبي أيوب، فما كانت من ليلة إلا وعلى باب رسول الله الثلاثة والأربعة يحملون الطعام، وما كانت تخطئه جفنة سعد بن عبادة وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلة[(١)].

وكانت إقامة النبي ﷺ في دار أبي أيوب قرابة سبعة أشهر ـ وقيل نحو سنة ـ حتى بنى مسجده ومساكنه.

لا وقت للراحة:

وبعد أن نزل النبي ﷺ على أبي أيوب الأنصاري شرع على الفور منذ اليوم الأول في العمل الدؤوب لنشر الدعوة والعمل على وحدة المسلمين، فأخذ في إعادة ترتيب العلاقات الداخلية في المدينة فيما يخص شؤون هذا المجتمع الجديد، ليبني قواعد المجتمع المثالي الفاضل، على أسس متينة من الحب والإخاء، والتضحية والإيثار، والعدل والتكافل بين أفراد المجتمع.

فهذه هي المبادئ التي أرسى الإسلام قواعدها ليكون المجتمع الصالح الذي يعيش فيه الناس إخوةً متحابّين، يسودهم الوئام، ويظللهم الأمن والسلام.

لقد انتهى عهد الاضطهاد والخوف على النفس والأهل والمال، وبدأ عهد جديد يبشّر بالأمن والاستقرار وإقامة الدولة الإسلامية.

ومن هنا كان لا بد من وضع الأسس العامة التي يتعايش بها هذا المجتمع الجديد، عبر علاقاته المتعددة مع أبناء الوطن الواحد، وأن توضع جميع الاعتبارات والأطياف الاجتماعية والدينية في المعادلة السياسية والاجتماعية الجديدة لهذا المجتمع، خصوصا أن المدينة «يكثر فيها اليهود، ولهم دور كبير في خلخلة أمنها واستقرارها»[(٢)].

(١) انظر: المقريزي: إمتاع الأسماع (٧/٢٨٣)، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٣/٢٧٥).

(٢) أحمد عجاج كرمي: الإدارة في عصر الرسول، (ص٧٠)، ط دار السلام القاهرة ١٤٢٧هـ.

ولتحقيق هذه الغايات السامية اتخذ النبي ﷺ مجموعة من الخطوات العملية المهمة كان لها أثر فعال في ذلك، ألا وهي:

١. بناء المسجد النبوي.
٢. توحيد الصف المسلم.
٣. تنظيم العلاقات بين طوائف المجتمع المدني.

وكل عنصر من العناصر السابقة سوف نقف معه وقفة متأنية لنبرز أثره على مسيرة الدعوة، وأهم الدروس التي يمكن أن نتعرف عليها من خلاله.

بناء المسجد:

إن تصحيح علاقة الإنسان بربه وبالمجتمع من حوله، هي الغاية العظمى التي ينشدها الإسلام، فالإسلام لا يريد أن يعيش الإنسان حياة كيفما كانت، بل يريد له حياة كريمة تليق بتكريم الله له، وتسمو به عن التدني إلى المستوى الحيواني الغريزي حيث لا يهمه إلا شهوتا بطنه وفرجه.

وإذا زاد على ذلك، تطلع إلى التجبّر، فيندفع بلا فكر لا يلوي على شيء، فهو يدك العروش ويهين الخلائق، ويستولي على مقدرات الشعوب، وهو مأخوذ بهذا كله في زهوّ كاذب، ولذة خادعة بالنصر، وهو مسكين خاوٍ من الداخل.

وما خلق الله الإنسان لأجل هذا العبث والفساد، وما كرمه الله ليهين نفسه، بل كرمه واصطفاه لعبادته، فينبغي أن يعلم الإنسان حقيقة أمره، وحقيقة المهمة التي خلق من أجلها، إذًا لَنَعِمَ في الدنيا والآخرة، «وهل الإنسان إذا جحد ربه واتبع هواه إلا حيوان ذميم، أو شيطان رجيم»[(١)].

ومِنْ على ساحة المِربَد حيث بركت ناقته الكريمة في هذا الموضع، وقد كان قبلَ بناء المسجد عبارة عن مساحةٍ أشبه بمخزن مفتوح لخزن التمر، وكانت هذه

(١) محمد الغزالي: فقه السيرة، (ص١٣٥).

المساحةُ لغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي كفالة أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، وقد قَالَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ المباركة: «هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ الْمَنْزِلُ ﷺ»(١).

ثم دعا النبي ﷺ الغلامين؛ رغبةً منه في شراء هذه القطعة منهما ليتخذها مسجدًا؛ فَقَالا: لا؛ بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ الله؛ فَأَبَى صاحب الخُلق الكريم أَنْ يَقْبَلَهَا مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهَا مِنْهُمَا ثُمَّ بَنَاهَا مَسْجِدًا(٢). وتنافس المهاجرون والأنصار في بنائه بما تيسر من مواد البناء: اللَّبِن والجريد واللِّيف، وبعض الحجارة والخشب.

ثم طفق رسولُ الله ﷺ في إعداد قطعة الأرض هذه وتجهيزها للشروع في إقامة المسجد. وعملية التجهيز هذه هي:

- قطع النخيل الموجود على هذه المساحة.
- إزالة قبور قديمة كانت للمشركين.
- تسوية الخِرَب، وكانت بقايا مساكن قديمة.

وبدأت أعمال البناء، ورسول الله ﷺ ينقل الحجارة بنفسه مع أصحابه، ويقول:

«اللَّهُـمَّ إِنَّ الأَجْـرَ أَجْـرُ الآخِـرَهْ   فَارْحَـمْ الأَنْصَـارَ وَالْمُهَاجِـرَهْ»(٣)

يُسلّي بها أصحابه، ويحمّسهم، وقد كانت هذه سنته في أعمال البناء أو الحفر، وقد فعل مثل ذلك في حفر الخندق؛ يُشاركهم بيده في الحفر، ويشاركهم بلسانه في ترديد الأناشيد؛ غير أنه ﷺ لا يعرف الشعر، ولعله ذكر البيت فكسر وزنه أو أخل بقافيته؛ عمدًا منه أو عن غير عمد.

(١) انظر صحيح البخاري، (٣٦١٦).
(٢) انظر صحيح البخاري، (٣٦١٦).
(٣) انظر صحيح البخاري، (٣٦١٦).

وقد قال فيه ربه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

يا لروعة هذا المشهد، ولنتخيل أنفسنا ونحن نشاركه في بناء المسجد، يحمل كما نحمل، ويصنع كما نصنع، وفوق ذلك هو يحمسنا ويلاطفنا بأسلوبه العذب الفَكِه، وقد كان لطيفًا، بسّام المُحَيّا، سهلاً سمحًا، ليّن العريكة، يضع اللبنة بيده بينما ينظر إليك ويرتجز قائلاً:

«هَـذَا الْحِمَالُ لا حِمَـالَ خَيْبَرْ   هَـذَا   أَبَـرُّ   رَبَّنَـا   وَأَطْهَـرْ»

يعني، هذا المحمول من قطع اللبن هو خيرٌ عند الله وأبر وأطهر من ثمار خيبر، أي، لا تكترث بِشَظَف المدينة، ولا تحزن أنْ متع اللهُ الكافرَ بالنعمة، بينما المؤمن يكابد الفقر والحاجة.

ولعله قال ذلك بمناسبة قطع هذه النخيل التي كانت مكان المسجد، فلئن خسرنا شيئًا من ثمرات هذه النخيل؛ فإن الثمرة الباقية الطاهرة هي في هذه اللَّبِنات، هي ثمرةٌ خيرٌ من ثمار خيبر، هي ثمرةُ ربنا وهي أبرُّ وأطهر، فهي لبنات لتأسيس مسجد، سيتخرج فيه قادة العالم، وسادة الدنيا؛ تلاميذ محمد ﷺ.

فيقول أحدهم ردًا على النبي ﷺ:

لئـن قَعَدْنـا والنبـي يَعْمَـل   لـذاك مِنَّـا العَمَـلُ المُضَلَّـل

ولم يستغرق البناء أكثر من أيام معدودات. ومن حول المسجد بُنيت تسع حجرات تفتح على ساحته، لتكون دار المصطفى المهاجر(١).

وتجلت أخلاق التواضع الإسلامية في هيئة المسجد النبوي، فلم يُزخرف ولم يصفّر ولم يُحمّر، بل كانت أرضه الحصباء، وسقفه الجريد، بل لم يكن مسقوفًا

(١) الطيب النجار: القول المبين، (ص١٩٢).

كله، فجزء به سُقِفَ وجزء من غير سقف، وقد كان الجزء المسقوف يُسمَّى الصُّفَّة، يجلس تحته فقراء المسلمين[١].

وكانت الحجرات الملحقة بالمسجد على نفس التواضع، وذكرها سبط محمد ﷺ: الحسن بن علي بن أبي طالب فقال: «كنت أدخل بيوت النبي ﷺ وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدي». وشدت خشبات بالليف، فكانت سريرا لمن اصطفاه الله تعالى خاتما لرسل الانبياء[٢].

وغير بعيد من المدينة والحجاز، كانت قصور الحكام والأمراء والأغنياء، في الحيرة وغسان واليمن، وفى فارس ومصر والحبشة، تعلو سامقة شامخة، ساطعة ببريق البذخ والترف، فتخطف أبصار الدنيا عن ذلك المبنى البسيط المتواضع الذي لم يلبث سَنَا جلالِه أن كسف كل ما عرفت الدنيا من قصور لكسرى وقيصر وفرعون، أو نجاشي وملك وإمبراطور.

وفى الأحياء اليهودية الناشبة في المدينة وما حولها من مستعمراتهم شمالي الحجاز، دُور مشيدة وحصون منيعة، تطل على المبنى البسيط المتواضع لنبي الاسلام، فيبدو لها فقيرا أشد الفقر.

ويلتقط أهلها ما يتلو محمد ﷺ من كلمات ربه في الحث على الإنفاق في سبيل الخير، قرضا لله تعالى، فتذيع قالتهم المنكرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]! في تلك الأيام الأولى بدار الهجرة، نزل محمد ﷺ بدار صاحبه أبي أيوب الأنصاري ريثما تم بناء المسجد والحجرات حوله.

(١) محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول، (ص١٣٦)، تحقيق/ عبد الرحمن بن ناصر البراك، مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الرابع، ط جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

(٢) انظر: المقريزي، إمتاع الأسماع، (١٠/ ٨٥).

تم بناء المسجد في جو يملؤه الإيمان وتشيع فيه الأخوة والمساواة. ولم يكن المسجد على عهد محمد ﷺ مكانا للصلوات فحسب، وإنما كان مدرسة للتعليم والتهذيب، أستاذُها ومعلمها محمد ﷺ وطلابها هم أصحابه الأبرار ـ رضوان الله عليهم ـ.

وكان محكمة للقضاء بما أنزل الله، يفصل فيها محمد ﷺ أو من ينيبه بين المتخاصمين، وكان دارا للشورى، يتداول فيه محمد ﷺ والمسلمون في أخص شؤونهم وأمورهم، وكان مركزا لقيادة الجيش تعقد فيه الألوية للرؤساء والقواد ويزودون بالنصائح والتعليمات.

وكان نُزُلا لاستقبال الوفود والرسل الذين توجههم الدول للقاء محمد ﷺ، وهكذا كانت رسالة المسجد في ذلك الوقت رسالةَ خير وإصلاح وتهذيب.

وأُقيم المسجد النبوي بأطهر السواعد، وسجدت فيه أطهر الجباه، وكان المسجد عامرًا صباح مساء، تقلب ناظريك فيه فترى رجلًا ساجدًا، وآخر يقرأ منفردًا، وثلةً قد جلست وتحلَّقت يتدارسون سورة من القرآن الكريم، بينما جلس النبي ﷺ إلى وفد من النصارى يعرض عليهم الإسلام.

كان المسجد مؤسسة إسلامية جامعة، فيها تقام الصلاة، وفيها يعقد مجلس الشورى، وفيها تعقد الألوية، ومنها تنطلق الجيوش، وفيها مجالس العلم، ومجالس الذكر، ومجالس القضاء، ومجالس الصلح، والأفراح والعُرس، والرياضة والمصارعة، وفيها يُستقبل الجرحى والمصابون للمعالجة، وفيها يلتقي قائد الأمة بالوزراء والسفراء والوفود والشعراء.

تشريع الأذان:

وتشاور النبيُّ ﷺ مع أصحابه في إيجاد وسيلةٍ إعلامية لجمع الناس عند كل صلاة، وطفقوا يعرضون أفكارهم ومقترحاتهم، وكأنما أحسوا بلذة عبادة التفكير من أجل دين الله.

فمنهم من اقترح رفع راية عالية ليراها الناس عند كل صلاة، فيجتمعوا في المسجد، ويبدو أن صاحب هذه الفكرة صنديدٌ له ميولٌ عسكرية شديدة، جعلته يفكر في ذلك تأسيًا بالراية التي تجمع الجند حولها..

وآخر يقترح إشعال النيران على مرتفع من الهضاب يراها الناس، وهي فكرة تحاكي طريقة المجوس. يبدو أن سلمان الفارسي هو صاحب هذه الفكرة!

وثالثٌ اقترح فكرة البوق الإعلامي؛ حيث يُنفخ فيه عند كل صلاة، وهي طريقة اليهود في معابدهم، وكانت جميع هذه المقترحات مرفوضة مردودة لعلةٍ واحدة؛ هي التقليد، فالمسلمون ينبغي أن يكونوا متميزين، لهم خصوصياتهم، ولا سيما في الأمور التعبدية.

لذا كان المقترح المقبول الذي أيده الله من السماء هو ذلك المقترح الجديد الذي لم يسبق إليه أحد، ذلك هو الأذان.

وارتبطت هذه الفكرة بعبد الله بن زيد بن عاصم صاحب الفكرة، فرأى في منامه «رجلا على حائط المسجد عليه بُرْدان أخضران، وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

ثم قعد قعدة ثم عاد فقال مثلها، ثم قال: قد قامت الصلاة مرتين (الإقامة) فغدا على النبي ﷺ فحدثه، فقال: علِّمْها بلالا، ثم قام عمر فقال: لقد أطاف بي الليلة الذي أطاف به عبد الله ولكنه سبقني»[(١)].

(١) مصنف عبد الرزاق، برقم (١٧٨٨)، باب بدء الأذان.

إتمام زواج الرسول ﷺ بالسيدة عائشة:

بعد أن تم بناء بيت محمد ﷺ في دار هجرته، بدت الحاجة إلى زوج تملأ هذا البيت، وتهيئ لمحمد ﷺ سكنا وراحة، فيما يواجه من أعباء الرسالة في مرحلتها الحرجة الصعبة.

وكانت عائشة بنت أبي بكر ﵄ قد لحقت بأبيها في المدينة مهاجرة. وقبل الهجرة بثلاث سنين، كان محمد ﷺ قد عقد عليها بمكة، ثم تمهّل فلم ينقلها إلى بيته هناك، إذ كانت ظروفهما كليهما، لا تعين على التعجيل بإتمام الزواج.

وقد سبقتها إلى بيت محمد ﷺ في المدينة، أم المؤمنين سودةُ بنت زمعة التي قنعت بحظّها من زوجها محمد ﷺ: بر ورحمة، وأرضاها كل الرضى أن يشرفها محمد ﷺ فيدخلها بيتَه أمًّا للمؤمنين.

وبقيت حياة محمد ﷺ في بيته، تقتات من ذكريات الزوج الحبيبة الراحلة خديجة بنت خويلد التي أوحشت دنياه منذ رحيلها، في عام الحزن، بعد أُنْسِ عِشْرةٍ هنيئة امتدت خمسا وعشرين سنة، لم تشاركها فيها زوج أخرى في بيت زوجها، أو في قلبه ودنياه.

وتهيأ مجتمع المدينة ليزفَّ إلى محمد ﷺ، عروسَه عائشة بنت أبي بكر ﵄، وتعلّق بها الأمل أن تملأ في بيته وقلبه، ذلك الفراغ الموحش الذى تركته أمُّ المؤمنين الأولى.

وتم حفل العرس بسيطا غاية البساطة. مضى محمد ﷺ، إلى منزل صهره الصدّيق، فجاءت أم رومان: زوج أبي بكر بابنتها العروس بعد أن أصلحت شعرها، وغسلت وجهها وطيبتها، وقدمتها إلى زوجها محمد ﷺ، وهي تدعو الله أن يبارك له فيها ويبارك لها فيه.

ولم تنحر جزور ولا ذبحت شاة، بل كان طعام العرس جفنة من طعام، هدية من سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري ﵁، وقدحا من لبن، شرب محمد ﷺ بعضه ثم قدمه إلى عروسه فشربت منه.

ونقلها إلى بيتها الجديد، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات البسيطة التي شُيِّدت حول المسجد النبوي من اللبِن والجريد. وأثاثه فراش من أَدَم حشوُه لِيفٌ، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير. وفي مدخل الحجرة، أسدل على فتحة الباب ستار من وَبَرٍ وشعر.

وفي هذا البيت البسيط المتواضع، بدأت عائشة حياتها الزوجية الحافلة، وشغلت مكانها المرموق في حياة الرسول والإسلام.

والسيدة عائشة ﵂ هي البِكر الوحيدة التي تزوجها ﷺ، صبيحةٌ مليحةٌ، ولم تغر من زوجات الرسول قدْرَ غيرتها من السيدة خديجة، وزوجاته ما زِلْنَ على قيد الحياة، وهن أحق بغيرتها من زوجة سابقة أفضت إلى ما قدمت إليه، ولكن لذكره ﷺ السيدة خديجة دائمًا بكل خير، واستقباله صاحباتِها اللاتي كنَّ يزرْنَها في حياتها.

إلا أنه ذات مرة ضاق صدر السيدة عائشة ﵂، فحادثت الرسول ﷺ غاضبة؛ لوفائه لزوجته الأولى، رغم وفاتها، ومرور هذه الأعوام قائلةً: ما تتذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، وأبدلك الله خيرًا منها؟!

لو تعرّض أي رجل لمثل هذا الموقف ماذا سيكون رد فعله وجوابه لو تزوج من زوجة تصغره كثيرًا، وهو كبيرُ السن، له زواج سابق من امراة تكبره، توفيت منذ سنين؟.

وهذا هو سر استغراب السيدة عائشة، فليس معنى أنها زوجة نبي أنها صارت نبية، وهي بقدر ما استفادت وتشربت من النور المحمدي، والخلُق النوراني بدلالة أو دالة القرب، بقدر ما هي في النهاية امرأة من البشر، خاطبت في زوجها رجولَته وبشريَّته.

ولم تعترض على أصل من أصول العقيدة، أو خالفته فيما أوحى الله به إليه، وهذا لا ينتقص منها، وبالأحرى لا ينتقص من قدر السيدة خديجة ﵂، ولكنها لجأت للمعايير البشرية في سؤالها واستنكارها، ولذلك فهي لم تخالف أمرًا دينيًا معلومًا بالضرورة.

إذًا لنا أن نتخيل ماذا سيكون جواب رجل مسنٍّ مع زوجته الجديدة، كما تعوّدنا أن نطلقه عليها في أيامنا هذه، ونعلم ما للزوجة الجديدة من دلال وتيْهٍ وغرورٍ فلنخمّن ماذا ستكون الإجابة؟

بداهة ستكون قدحًا وذمًا في سابقتها، ومدحًا واسترضاءً لها، وصفات رائعة تقترب من حد الكمال ينبعث بها محاسن خلقتها، واعتدال قوامها، وحسن أخلاقها، بحيث تبز وتفوق كل نساء العالمين السابقات واللاحقات، الحاضرات منهن والغائبات بطبيعة الحال، "وكلنا هذا الرجل".

لكن جاء رد الرسول ﷺ معنّفًا، زاجرًا إياها بقوله: «والله ما أبدلني الله خيرًا منها» وأخذ يعدد مناقب زوجته السابقة كأحسن ما يناجي الحبيب حبيبه، وهذا على خلاف المتوقع «آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء».

تعقيبًا على جواب رسول الله ﷺ، ومكمن الإعجاز فيه أن الرسول ﷺ فضل الزوجة المسنّة المتوفاة، على الزوجة الصغيرة التي مازالت معه حية ترزق، ولم يكتف بهذا صلوات ربي وسلامه عليه، بل أخذ يدلل على سر عظمتها عنده واستحقاقها لهذا الوفاء الصادق، نقطةً نقطةً.

إلى أن وصل إلى النقطة الفارقة بينهما ألا وهي الإنجاب، فلم يقل لها "ورزقني منها الولد ولم يرزقني منك" بل قالها بشكل ضمني يفهم سامعه المراد منه "دون غيرها من النساء".

ولا يظن ظان أن حسم إجابة الرسول ﷺ، صدرت منه بهذه الحدة الظاهرة عن كُرهٍ لزوجته الحالية، ولكن عن حب شديد للسيدة عائشة، اعترف به بصراحة ودون مواربة أمام صحابي جليل هو عمرو بن العاص ﷺ، عندما سأله ذات مرة: مَن أحبُّ الناس إليك يا رسول الله؟ فأجابه ﷺ دون تردد: «عائشة».

وهنا يكمن سر الإعجاز المحمدي، عندما تكلم عن زوجة سابقة أحبها في حضور زوجة حالية يُكِنّ لها الحب أيضًا، ولكنه في قرارة نفسه ظلت خديجة عنده سيدةَ النساء، ليس كمثلها امراة، وإن تكن عائشة بنت صديقه الصدوق الصّديق أبي بكر الذي أحبه أيضًا.

هل كانت (عائشة) طفلة، كما يحلو لبعض المستشرقين أن ينعتوها، وهم يقيسون نضج المرأة في المجتمع العربي منذ أربعة عشر قرنا، بمقاييس المجتمع الغربي في عصرنا؟

الذي يعرفه تاريخنا، هو أن عائشة في صباها الغض وأنوثتها الذكية، بدأت من اليوم الأول لحياتها الزوجية، تحقق وجودها في بيتها الجديد، وتَعي دورها الفذ في حياة زوجها ـ الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وتفرض شخصيتها على المجتمع المدني، ثم على التاريخ الإسلامي الذي عرف لها أعمق الأثر في الحياة الفقهية والسياسية والاجتماعية للأمة الإسلامية.

وهكذا دخلت عائشة التاريخ من أوسع أبوابه، عاشت في بيت النبي زوجة كريمة محبوبة، وشاهدة ذكية على ميراث النبوة، تقتبس وتحفظ وتستوعب كلَّ ما ترى، لتكون بعد ذلك شاهدَ صدق، ووزيرَ خير، ومعلّما لكل من أراد أن يتعرف على أحوال النبي ﷺ في بيته وأهله.

وعكة خفيفة:

أصيب بعض المهاجرين في أول هجرتهم ببعض الأمراض لتغير المناخ وعدم اعتيادهم جوَّ المدينة، مما جعل بعض الصحابة يحن إلى مكة وجوّها الصفو العليل، وفي ذلك تقول السيدة عائشة: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وُعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ ـ قَالَتْ ـ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِمَا، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ كَيْفَ تَجِدُكَ، وَيَا بِلَالُ كَيْفَ تَجِدُكَ، قَالَتْ: فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَّى يَقُولُ:

كُلُّ امْـرِئٍ مُصَبَّـحٌ فِـي أَهْلِـهِ ... وَالمَـوْتُ أَدْنَى مِنْ شـرَاكِ نَعْلِهِ

وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أَقْلَعَتْ عَنْهُ الْحُمَّى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ وَيَقُولُ:

أَلَا لَيْتَ شِـعْرِي هَـلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِـوَادٍ وَحَوْلِـي إِذْخِـرٌ وَجَلِيلُ
وَهَـلْ أَرِدَنْ يَوْمًـا مِيَـاهَ مَجَنَّـةٍ ... وَهَـلْ يَبْدُونْ لِي شَـامَةٌ وَطَفِيلُ

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ، أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا وَانْقُلْ حُمَّاهَا فَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ»(١).

وقد استجاب الله دعاءه ﷺ، فأُري في المنام أن امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت بالمَهْيَعَة، وهي الجحفة(٢). وعبرها النبي ﷺ عن نَقْلِ وباء المدينة إلى الجحفة، وبذلك استراح المهاجرون عما كانوا يعانونه من شدة مناخ المدينة.

وقد زاد في ثقل المدينة وهوائها أن المدينة بلد زراعي، والمهاجرون قوم تجار لا عهد لهم بالزراعة، وقد خرجوا إلى المدينة مجردين من أموالهم، وكانت طبيعتهم العربية تأبى عليهم أن يعيشوا كَلًّا على غيرهم، فجعلوا يروضون أنفسهم على العمل في الزراعة، فعانوا من ذلك كثيرا من العنت والمشقة، ولا سيما الذين كانوا منهم يعيشون في مكة عيشة مترفة؛ وكانت غريزة الحنين الطبيعي إلى الوطن، من أسباب ثقل المدينة على المهاجرين(٣).

(١) البخاري، برقم (٣٩٢٦)، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة.
(٢) انظر ابن ماجه، برقم (٣٩٢٤). وقال الألباني: "صحيح".
(٣) صور من حياة الرسول في المدينة المنورة، (ص٤٢).

فقد روي أن عائشة رضي الله تعالى عنها سألت رجلا بحضور رسول الله ﷺ قدم المدينة من مكة، فقالت له: كيف تركت مكة؟ فذكر من أوصافها الحسنة ما غرغرت منه عينا رسول الله ﷺ، وقال: «لا تشوقنا يا فلان» ـ وفي رواية ـ «دع القلوب تقر»(١).

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٢٨٣).

المُؤاخاة

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

وكان موقف محمد ﷺ وأصحابه المهاجرين ـ بعد أن تركوا وطنهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم ـ موقفا دقيقا يتطلب الإخلاص والتضامن، ويقتضي أن يسود التعاون بينهم وبين إخوانهم الأنصار.

وكان الأنصار ـ وهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ـ يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

ولا غرو، فقد شعروا بحاجة إخوانهم المهاجرين، وقدّروا ظروفهم العصيبة، فآوَوْهُم ونصروهم، وضربوا في الإخلاص لهم والتفاني في خدمتهم أروع الأمثال، حتى لقد وصفهم الله ـ عز وجل ـ بذلك الوصف الرائع حيث يقول: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾[الحشر: ٩]، أي يفضلون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، مهما كان فقرهم، ومهما اشتدت حاجتهم.

وكانت سياسة محمد ﷺ في هذه الظروف القاسية سياسة القائد المحنك الرشيد، فقد عمل على تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم، فربط بينهم برباط قوي متين، وذلك أنه عقد تلك الأخوة النادرة المثال بين الأنصار والمهاجرين، وجعل لها من الحقوق والواجبات ما لأخوة النسب(١).

(١) فكان الواحد يرث أخاه إذا مات حتى نزل قول الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

www.almoslih.net

فكان أبو بكر الصديق أخا لخارجة بنِ زهير الأنصاري، وكان أبو عبيدة بن الجراح أخا لسعد بن معاذ الأنصاري، وكان عبد الرحمن بن عوف أخا لسعد بن الربيع الأنصاري، وكان عثمان أخا لأوس بن ثابت الأنصاري[(١)].

وهذا غيض من فيض، من هذه الثنائيات الأخوية، التي لم تكن من اختيار أحد، سوى رسول الله ﷺ، الأمر الذي جعل المهاجرين والأنصار على قدر مسؤولية الأخوة، يحملون تبعتها، ويؤدّون حقوقها، ويقومون بواجباتها.

فأخذ كل أخ يتفانى في خدمة أخيه، ويبذل قصارى القصد في إكرامه، ونهاية الجهد في إسعاده، وكانت صفة الأنصار كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

وقال عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ﴾ [الأنفال:٧٤].

فكان من روائع تلك الأخوة الإيمانية ما كان بين سعد بن الربيع الأنصاري وعبد الرحمن بن عوف المهاجري، إذ قال الأول للثاني: أي أخي! أنا أكثر أهل المدينة مالًا، فانظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلّقها. فقال عبدالرحمن ـ في عفة: بارك الله لك في أهلك ومالك!! دلوني على السوق.

فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح فجاء بشيء من أقِطٍ وسمن، وتزوج امرأة من الأنصار[(٢)].

(١) انظر ذلك في: «طبقات ابن سعد»، (٢٥٩/١) ترتيب طبقاته، و«البداية»، (٢٦٦/٣) وما بعدها، فإنه أطال في ذكر الروايات في ذلك.
(٢) انظر: ابن كثير: السيرة، (٣٢٧/٢، ٣٢٨).

وقال المهاجرون معلّقين على صنيع إخوانهم الأنصار: «يا رسول الله! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلا من كثير، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله».. فقال ﷺ: «لا! مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمُ الله عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ»[(١)].

وفي ثنايا أحداث التآخي العظيمة، مات أسعد بن زرارة الأنصاري ﷺ وهو يشارك في بناء المسجد النبوي، وقد كان أسعد بن زرارة نقيب إخوانه وأهله، لعلمه وخلقه ومكانته.

فاجتمعت بنو النجار إلى رسول الله ﷺ وكان أسعد بن زرارة نقيبهم فقالوا له: يا رسول الله إن هذا قد كان منا حيث قد علمت فاجعل منا رجلًا مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم.

فقال ﷺ لهم: «أنتم أخوالي، وأنا بما فيكم، وأنا نقيبكم».. وكره رسول الله ﷺ أن يخص بها بعضهم دون بعض، فكان من فضل بني النجار الذي يعدّون على قومهم أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم[(٢)].

وهو جانب من مظاهر التآخي التي أخذ رسول الله ﷺ على عاتقه في ترسيخ معانيها، وتطبيق مراميها. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠].

وقد امتن الله على المسلمين الأوائل بأن جمع لهم شملهم، وجمع قلوبهم، وألّف بينهم، وذلك لعظيم نعمة الأخوة في الله، التي جعلها الله ركنًا من أركان النصر:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً

(١) ابن كثير: السيرة، (٣٢٨/٢)، وأحمد (١٢٦٠٢).
(٢) انظر: ابن هشام: السيرة، (٥٠٧/١، ٥٠٨).

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

وقد بين المولى ـ تبارك وتعالى ـ المقدار المادي للأخوة في مقاييس الناس، فذكر أن مال الدنيا ومال ملوكها لا يعدل شيئًا في قوة الأخوة، وأن الأخوة تصنع ما لا يصنعه المال .. وأن الأخوة أنجع أثرًا، وأحسن ثمرة من أثر وثمر المال:

قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ولقد كان رسول الله ﷺ يعلِّم المسلمين الأخوة كما كان يعلمهم الصلاة، حتى روى عنه الرواةُ مئات الأحاديثِ في فضل الأخوة وحقها وآدابها..

وهكذا أصبح المهاجرون والأنصار بنعمة الله إخوانا. وقد أظهر الأنصار من الكرم والتسامح ما خفف عنهم آلام الغربة، وعوَّضهم عن فراق الأهل والعشيرة.

المؤاخاة بين الأوس والخزرج:

يتجه الإسلام في علاج الأمراض الأخلاقية والمشكلات الاجتماعية إلى أقوم طريق، ويوجه الغرائز البشرية والطبائع الإنسانية إلى المنهج السوي الصالح، فهو لا يقاوم الرغبات، بل يقومها، ولا يناهض الطبائع والعادات بل ينهض بها، ولا يقتل الحيوية الموجودة في النفوس إذا ما جمحت، أو ينزل بها إلى الدرك الأسفل، وإنما هو يحييها ويسمو بها ويعليها.

ولقد عالج الإسلام العصبية القبلية في نفوس العرب على هذا الأساس السليم، فوجهها إلى الناحية الصالحة المستقيمة، وحول ذلك التيار القوي الذي كان يغذيها إلى اتجاه يوصل إلى غاية مجيدة.

فبعد أن كانت غاية المرء في الجاهلية هي نصرة قبيلته، والدفاع عن أهله وعشيرته، مهما نأوا عن الحق وتشبّثوا بالباطل، أصبحت الغاية في الإسلام هي

نصرة الحق على الباطل ـ ولو حارب المرء في هذا السبيل أهله وبنيه، وتبرأ من أمه وأبيه وفصيلته التي تؤويه.

وبذلك صارت الحمية في الجاهلية عزة إسلامية وأخوة دينية، وأصبح التنافس القبلي البغيض تنافسا رشيدا يسعى إلى التعمير لا التدمير، ويهدف إلى الإنشاء والهناء، لا إلى الهدم والإفناء، وغدا التسابق على المادة أو الجاه والسلطان تسابقًا في سبيل الله لإعلاء كلمة الحق، ورَفْعِ لواء الإسلام[1].

ولقد كانت العصبية القبلية بين الأوس والخزرج قبل الإسلام مِعْوَلَ هدم وتدمير يهدد القبيلتين بأسوأ مصير، وكان اليهود ينتهزون الفرصة فيشعلون النار كلما خمدت، ويحركون الفتنة كلما همدت، لينالوا من العرب، ويقيموا على أنقاض هذا الضعف قوة لهم.

وفي وسط هذا الشر المطبق والفتن المتكاثفة، ومن خلال هذا الضباب المتراكم لاح بريق الأمل، وأقبل الحق المطارد في مكة يسعى إلى يثرب، يسوقه الباطل بجحافله كما تسوق الرياح العاتية الصيب الهتون.

وجاء محمد بن عبد الله ﷺ إلى المدينة بالهدى والرشاد، فقضى على الفرقة، وجَمَعَ الشتات، وأحيا الله به القلوب الموات، قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وكان من الطبيعي أن يحول الإسلام ذلك التيار القوي الذي يغذي العصبية القبلية في نفوس الأوس والخزج إلى وجهة كريمة هي الغيرة المحمودة، والتنافس الشريف الذي يسعى لأجَلِّ قصد وأنبل غاية، وهي إعلاء كلمة الإسلام، والقضاء على أعدائه الألِدّاء في كل مكان.

(١) أحمد عجاج الكرمي: الإدارة في عصر الرسول، (ص٥١).

فصار الأوس والخزرج يتجهون إلى هدف واحد هو إرضاء الله ورسوله ﷺ ـ ولكن يتسابقون في هذا السبيل ويتنافسون، ويأبى كل فريق منهما أن يسبقه الآخر بميزة، أو يتقدم عليه بفضل، أو يزيد عنه في تضحية وجهاد.

وفي ذلك يقول ابن هشام: وكان مما صنع الله لرسوله ﷺ أن هذين الحيّين من الأنصار: الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع محمد ﷺ تصاوُلَ الفَحْلَين، ولا تصنع الأوس شيئًا فيه عن محمد ﷺ غناء إلا قالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلًا علينا عند رسول الله ﷺ في الإسلام، فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك[١].

وكانت مظاهر هذه المنافسة كثيرة، وسوف نكتفي بتسجيل مظهر واحد منها، يتجلى فيه كيف كان التنافس بين الأوس والخزرج في القضاء على زعيمين من زعماء اليهود، كانا من ألَدِّ أعداء محمد ﷺ، وأكبرِ خصوم الإسلام.

وذلك أن الأوس كان لهم الفضل والشرف الأكبر في قتل عدو الله كعب بن الأشرف[٢]، وإنما قتله الأوس جزاءَ غدره وخيانته وظلمه وعدوانه.

ومن ذلك أنه حينما علم بانتصار المسلمين في غزوة بدر جزع وحزن، وتألم وتبرّم، وقال لمن معه من أصحابه: أترون محمدًا قتل هؤلاء؟ يعني المشركين الذين قتلوا يوم بدر إنهم أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لَبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها.

ثم انطلق عدو الله حتى قدم مكة، وجعل يحرّض على قتال محمد ﷺ، وينشد الأشعار، ويبكي أصحاب القَليب من قريش الذين أصيبوا ببدر.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (٢/٢٠٩).

(٢) كعب كان من زعماء يهود بني النضير. وقد أخرج قصة قتله البخاري، (٣٨١١)، ومسلم، (١٨٠١)، وأبو داود، (٢٧٦٨)، من حديث جابر.

ولم يكتف ابن الأشرف بتحريض المشركين في مكة، بل إنه رجع إلى المدينة وأخذ يشبب بنساء المسلمين حتى أوذي المسلمون وضَجِروا، وحتى قال محمد ﷺ: «من لي بكعب بن الأشرف؟» فأجابه من الأوس محمد بن مسلمة قائلًا: أنا لك يا رسول الله، أنا أقتله. قال: «فافعل إن قدرت على ذلك».

ففكر ابن مسلمة في هذا الأمر، وأعدَّ له عدته مع طائفة من إخوانه، فاجتمع في قتله خمسة رجال من الأوس، هم: محمد بن مسلمة، وسلمان بن سلامة أبو نائلة، وكان أخا كعب من الرضاعة، وعبدة بن بشر، والحارث بن أوس، وأبو عيسى بن جبر.

وقد ذهبوا إلى منزله واستدرجوه إلى الخارج حتى اطمأن إليهم ـ والحرب خدعة ـ ثم صاح أبو نائلة قائلا: اقتلوا عدو الله. فاختلفت عليه أسيافهم حتى وقع صريع غدره وبغيه، وفي ذلك يقول القائل:

وغـودر منهـمُ كعـب صريعًا   فذلـت بعـد مصرعـه النضير

وحينئذ عز على الخزرج أن يسبقهم الأوس إلى هذه التضحية، ويصلوا إلى مثل هذه الغاية دونهم، فقالوا: والله لا يذهبون بهذه فضلا علينا أبدًا، فبحثوا عن رجل من يهود بني النضير ـ كذلك ـ يوازي كعب بن الأشرف في عداوته لمحمد ﷺ وللمسلمين، فوجدوا سلام بن أبي الحقيق، فاستأذنوا محمدًا ﷺ في قتله، فأذن لهم.

وكان سلام قد رحل إلى خيبر، بعد أن طرد النبيُّ ﷺ يهودَ بني النضير من ديارهم في السنة الرابعة من الهجرة، ومنذ ذلك الوقت أخذ سلام يثير النفوس ضد المسلمين، حتى إنه ذهب على رأس وفد إلى مكة يحرّض قريشا على قتال محمد ﷺ، ويحزّب الأحزاب عليه[١].

(١) وعبارة البخاري في صحيحه، (٣٨١٣) من حديث البراء: وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه.

ولقد قالوا لقريش: إنا سنكون معكم على محمد حتى نستأصله.

فقالت قريش لهم: يا معشر يهود: إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد؛ أفديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق.

وقد فرحت قريش بهذا القول من اليهود واستجابوا لدعوتهم، وجمعوا جموعهم وتجهزوا لحرب محمد ﷺ.

ثم جاء اليهود إلى قبيلة غطفان، وحرّضوا رجالها وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب، فوافقوهم على حرب المسلمين، وتجهّزوا لذلك وكانت غزوة الأحزاب، وفيها ابتلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالًا شديدًا، ولولا لطفُ الله لاقتحم المشركون عليهم المدينة، ولقضوا عليهم القضاء الأخير.

فليس بغريب بعد هذا كله أن يرى الخزرج في ابن أبي الحقيق العدو المبين الذي لا يقل عن صاحبه كعب بن الأشرف في الكيد للإسلام والمسلمين.

وهنا تحركت الغيرة الكريمة في نفوسهم وأرادوا أن يلحقوا بإخوانهم الأوس فيما قدموا من تضحية وما سبقوهم به من فضل وشرف، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله، فأذن لهم.

وقد خرج إليه من الخزرج خمسة نفر أيضًا، هم: عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبد الله بن أنيس، والحارث بن ربعي، وخزاعي بن أسود، وقد أوصاهم النبي ﷺ ـ ألا يقتلوا وليدًا أو امرأة، فخرجوا حتى قدموا خيبر، وأتوا دار ابن أبي الحقيق ليلًا.

يقول قائلهم: فلما دخلنا عليه ابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا فوالله ما يدلنا عليه في سواد الليل إلا بياضه، كأنه قبطية ملقاة قال: ولما صاح بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه، ثم يذكر نهي النبي ﷺ، فيكف يده، ولولا ذلك

لفرغنا منها بليل[1].

وهكذا كانت نهاية ابن أبي الحقيق، كما كانت نهاية صاحبه ابن الأشرف من قبله، وهكذا تكون نهاية الغدر والخيانة والظلم والعدوان. وفي هذا يقول حسان بن ثابت وهو يذكر قتل كعب بن الأشرف، وسلام بن أبي الحقيق:

لله در عصابة لاقيتهم ... ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكمُ ... مرحًا كأسد في عرين مغرف
حتى أتوكم في محل بلادكم ... فسقوكمُ حتفًا ببيض ذفف
مستنصرين لنصر دين نبيهم ... مستصغرين لكل أمر مجحف[2]

وبعدُ، فهذه صورة واحدة من صور كثيرة، تبين لنا حالة الأوس والخزرج، بعد أن صقل الإسلام نفوسهم وطهرها من شوائب العصبية القبلية البغيضة، وكيف أصبحوا إخوة متضامنين، ينافس بعضهم بعضًا في العمل الذي يعلي كلمة الحق، ويدعم بناء الدولة الإسلامية الكبرى.

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٩/١٠)، وما بعدها، وانظر أيضًا: السهيلي: الروض الأنف، (٣٦٧/٢)، معرفة السنن والآثار، البيهقي، برقم (٥٠٨١)، وغيرها من المصادر.
(٢) ذكر ذلك ابن إسحاق، وعنه الحافظ ابن كثير: «البداية»، (١٣٨/٣)، وأصل القصة في صحيح البخاري كما مضى دون ذكر شعر حسان.

www.almoslih.net

دُستورُ المَدينة

كانت المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في المدينة أساسا لتقوية المسلمين، وتوكيدا لوحدتهم وألفتهم، وضمانا لحياة كريمة صافية، وعيشة راضية.

كما كانت المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ بين الأوس والخزرج وإنهاء عصور متطاولة من الحروب الدامية فيما بينهم إيذانا ببداية عهد جديد تنمو فيه قوة أخرى جديدة، ولاؤها لله ولرسوله ﷺ.

وتقطعت بذلك مجموعة من العلاقات التي بنيت في الجاهلية بين اليهود بطوائفهم المتعددة وأهل يثرب، وهذا مما يحتاج إلى إعادة تنظيم، وضبط لهذه العلاقات بين المسلمين وغيرهم من الطوائف الأخرى.

وأما من ناحية المعاملات اليومية: فإن رسول الله ﷺ قد أقامها، على أساس الوشيجة الإنسانية العامة، تلك الرابطة الواسعة التي تضم أبناء آدم جميعا، وجعل ميزانها العدل والمساواة والسلام.

ذلك أن الناس ـ مهما اختلفت أجناسهم وعقائدهم ـ لا بد لهم أن يتعاونوا على قضاء حوائجهم، ولا سبيل إلى التعاون بينهم إلا في ظل هذا السلام الاجتماعي الشامل، ولا سبيل إلى الوصول إلى هذا الهدف إلا إذا أمن الناس وساد بينهم الشعور بالأخوة والمواطنة، وأنه يحصل على حقوقه كاملة، وأنه يأخذ حريته في اعتناق الدين الذي يريد.

وكان اليهود يقيمون بجوار المسلمين في المدينة أعداء للأوس والخزرج في الجملة، فلما دخلوا الإسلام وقوي أمرُهم بمجيء إخوانهم المهاجرين ازدادت عداواتهم وحقدهم عليهم.

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢].

ومن الجدير بالذكر أن قبيلتي الأوس والخزرج ـ وما تفرع عنهما من بطون وعشائرَ ـ لم تكونا على علاقة طيبة بجيرانهم من اليهود، بل كانوا على صراع أيضًا، فكل قبيلة من اليهود انضمت إلى جانب قبيلة عربية، ومن هنا فإن المجتمع كله كان في صراع دائم.

"وكانت نيران العداوة والبغضاء في المدينة دائما مستعرة، وكان التنافس وتضارب المصالح يزيد في أسباب الشقاق، وكثيرا ما قامت المعارك ونشبت الحروب بين أهل هذه المدينة.

فلما أسلم الأنصار من الأوس والخزرج، وهاجر إليهم فريق من مسلمي قريش، ظهر في المدينة عنصر جديد هو عنصر المسلمين، وهو عنصر منافس، لا تنظر إليه العناصر الأخرى بعين الرضا والمودة"[(١)].

وقد كان فيها اليهود ـ وهم أهل كتاب ـ يتألفون من ثلاث قبائل، وهي:

١. يهود بني النضير.
٢. يهود بني قريظة.
٣. يهود بني قينقاع.

وقد كانت كل قبيلة من هذه القبائل تنقسم إلى بطون وعشائر، وكان العرب في المدينة قبل الهجرة يتألفون من قبيلتين كبيرتين هما قبيلتا الأوس، والخزرج، كل منها قبيلة منفصلة ومستقلة تمام الاستقلال عن أختها.

(١) صور من حياة الرسول في المدينة المنورة، (ص٢٥).

www.almoslih.net

وبالتالي فإن المدينة عند مقدم النبي ﷺ كانت متعددة الطوائف، ففيها العرب الوثنيون، وطوائف من اليهود متناحرة، وفيها المسلمون من الأنصار، وانضم إليهم إخوانهم من المهاجرين حتى أصبحت خليطا من العقائد المتباينة، لا يربطها نظام ولا وحدة ولا وفاق.

فكان من سياسة الرسول ﷺ وحسن تدبيره أن يبدأ مع هؤلاء اليهود بالمودة، نظرا لما كانوا يحملونه من بقايا شريعة إلهية، ومعرفة بالله ورسله، ويبسط لهم يد الأخوة، عسى أن تلين قلوبهم لدخول هذا الدين، وينصاعوا لما يأمرهم به كتابهم من الإيمان بالنبي الذي بشر به موسى وعيسى عليهما السلام من الله، وأن يتبع معهم سياسة الأخوة والموادعة دون أن يحيف أحد بحق أحد في ماله ولا حريته الدينية.

ولكن لا بد من توحيد هذه الطوائف المتباينة تحت أهداف عظمى، لا يختلف عليها أحد، فكان ما عرف في التاريخ باسم وثيقة المدينة أو معاهدة المدينة.

وأهم مزايا تلك المعاهدة: أنها عملت على تنظيم هذه الطوائف جميعا في قوة واحدة متعاونة في مواجهة الأخطار الخارجية، وأنه يجب عليهم التعاون والتكافل والتناصر والأخذ على يد الباغي.

أما داخليا فكل طائفة حرة في اعتناق ما تشاء من عقيدة، وحريتها الكاملة في ممارسة الحياة اليومية دون التعرض لأحد في ماله ولا عرضه ولا دمه، وأن من ارتكب جناية فذنبها راجع إليه وحدَه، لا إلى قومه جميعا، فلا يؤخذ أحد بذنب أحد، إلا إذا أعانه أو تستّر عليه.

وهذه بعض الإشارات السريعة على بعض بنود هذه الوثيقة التاريخية:

- **الأطراف المعنية :**

"هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش (وأهل يثرب) ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم"[١].

- **المسلمون أُمة :**

"إنهم أمة واحدة من دون الناس"[٢].

- **المرجعية في الحكم إلى الشريعة الإسلامية :**

"وَإِنّكُمْ مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنّ مَرَدّهُ إلَى الله عَزّ وَجَلّ وَإِلَى مُحَمّدٍ ﷺ"[٣].

"وَإِنّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ فَإِنّ مَرَدّهُ إلَى الله عَزّ وَجَلّ، وَإِلَى مُحَمّدٍ رَسُولِ الله ﷺ، وَإِنّ الله عَلَى أَتْقَى مَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَأَبَرّهِ"[٤].

- **التكافل الاجتماعي :**

"المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يَفْدُون عانِيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين".

"وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين".

"وبنو الحارث بن الخزرج على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف".

---

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٥٠١).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق نفسه.

"وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين".

"وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين".

"وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين".

"وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين".

"بنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين".

"وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين"[(١)].

- **المواساة بين المسلمين :**

"وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ لا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ[(٢)] أَنْ يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ"[(٣)].

- **حماية أهل الذمة :**

"وَإِنّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنّ لَهُ النّصْرَ وَالأُسْوَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ"[(٤)].

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٥٠١).
(٢) والمفرح هو المثقل بالدين والكثير العيال.
(٣) ابن هشام: السيرة، (١/٥٠١).
(٤) ابن هشام: السيرة، (١/٥٠٤).

وهو أصل في رعاية أهل الذمة، والمعاهدين، والأقليات غير الإسلامية التي تخضع لسيادة الدولة الإسلامية .. فلهم حق النصرة على من رامهم أو اعتدى عليهم بغير حق سواء من المسلمين أو من غير المسلمين، من داخل الدولة أو من خارجها.

- **المساواة بين الأقليات :**

"وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته".

"وإن ليهود بني النجار مثلَ ما ليهود بني عوف".

"وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف".

"وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف".

"وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف".

"وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف".

"وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته"[(١)].

- **حُرمة المدينة شرفها الله :**

"وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة"[(٢)].

- **حُسن الجوار :**

"وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم" [(٣)].

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٥٠١).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.

- **احترام أمان المسلم :**

"وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس" (١).

فلأي مسلم الحق في منح الأمان لأي إنسان، ومن ثم يجب على الأطراف أن تحترم هذا الأمان، وأن تجير من أجار المسلم، ولو كان المجير أحقرهم.

فيُجير على المسلمين أدناهم، بما في ذلك النساء، وقد قال النبي ﷺ لأم هانئ: «أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمّ هَانِئٍ»(٢).

- **الأمن الاجتماعي وضمان الديات :**

"وَإِنّهُ مَنْ اعْتَبَطَ [أي قتل] مُؤْمِنًا قَتْلًا عَنْ بَيّنَةٍ فَإِنّهُ قَوَدٌ بِهِ إلا أَنْ يَرْضَى وَلِيّ الْمَقْتُولِ (بالعقل)، وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافّةٌ، وَلا يَحِلّ لَهُمْ إلا قِيَامٌ عَلَيْهِ"(٣).

وبهذا أقر الدستورُ الأمنَ الاجتماعي، وضمنه بضمان الديات لأهل القتيل، وفي ذلك إبطال لعادة الثأر الجاهلية، وبين النص أن على المسلمين أن يكونوا جميعًا ضد المعتدي الظالم حتى يحكم عليه بحكم الشريعة..

- **الدعمُ المالي للدفاع عن الدولة مسؤوليةُ الجميع :**

"وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين"(٤).

فعلى كل الفصائل بما فيها اليهود أن يدعموا الجيش ماليًا وبالعدة والعتاد من أجل الدفاع عن الدولة، فكما أن المدينة وطن لكل الفصائل، كان على هذه الفصائل أن تشترك جميعها في تحمّل جميع الأعباء المالية للحرب.

"وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم"(٥).

---

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٥٠١).
(٢) أخرجه البخاري، (٣٤٤).
(٣) ابن هشام: السيرة، (١/٥٠١).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه.

فمع وجوب التعاون المالي بين جميع طوائف الدولة لرد أي عدوان خارجي، فإن لكل طائفة استقلالها المالي عن غيرها من الطوائف.

- **التضامن ضد الخائنين :**

"وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ، أَوْ إثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ"(١).

- **وجوب الدفاع المشترك ضد أي عدوان :**

"وإن بينهم النصر على من دهم يثرب"(٢).

"وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة"(٣).

وفي هذا النص دليل صريح على وجوب الدفاع المشترك، ضد أي عدوان على مبادىء هذه الوثيقة.

وبموجب هذا النص حُكم بالإعدام على مجرمي قريظة ـ بعد معركة الأحزاب (في ذي القعدة ٥ هـ) ـ، لما تحالفوا مع جيوش الأحزاب الغازية للمدينة، وبغوا وخانوا بقية الفصائل، رغم أنهم أبناء وطن واحد!

- **النصح والبِرّ بين المسلمين واليهود :**

وجاء في هذا الأصل: "وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم"(٤).

فالأصل في العلاقة بين جميع طوائف الدولة ـ مهما اختلفت معتقداتهم ـ هو النصح المتبادل، والنصيحة التي تنفع البلاد والعباد، والبر والخير والصلة بين هذه الطوائف.

---

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٥٠١).
(٢) ابن هشام: السيرة، (١/٥٠٣).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق نفسه.

www.almoslih.net

- **حرية كل فصيل في عقد الأحلاف التي لا تضر الدولة :**

«وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه»(١).

- **وجوب نصرة المظلوم :**

«وإن النصر للمظلوم»(٢).

- **تحريم التعاون مع الأعداء ضد المسلمين :**

«وإنه لا تُجارُ قريشٌ ولا من نصرها»(٣).

- **حق الأمن لكل مواطن :**

«إنه من خرج آمنٌ، ومن قعد آمنٌ بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وأن الله جارٌ لمن بَرّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ»(٤).

- **حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر مكفولة لكل فصائل الشعب :**

«وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأَثِم فإنه لا يُوتغ [أي يهلك] إلا نفسه وأهل بيته»(٥).

وهكذا وضَّح محمد ﷺ حقوق كل طائفة في المدينة وواجباتها، ورسم المنهج الذي يتعاملون به بكل أمانة وعدل، فلم يظلم اليهود بل حفظ لهم حقوقهم، ورغم ذلك أظهر اليهود وجههم القبيح، وكراهيتهم لمحمد ﷺ رغم علمهم أنه صادق، واتضح ذلك في موقفهم من عبدالله بن سلام عندما أسلم(٦).

هذه هي الوثيقة السياسية التي وضعها محمد ﷺ منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، والتي تقرر حرية العقيدة وحرية الرأي وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة.

(١) ابن هشام: السيرة، (١/٥٠٣). (٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه. (٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه. (٦) صور من حياة الرسول في المدينة المنورة، (ص٢٥).

وهي فتح جديد في الحياة السياسية والحياة المدنية في عالم يومئذ؛ هذا العالم الذي كانت تعبث به يد الاستبداد، وتعيث فيه يد الظلم فسادا.

ولئن لم يشترك في توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنو قريظة وبنو النّضير وبنو قينقاع، فإنهم ما لبثوا بعد قليل أن وقعوا بينهم وبين النبي صحفا مثلها.

وكذلك أصبحت المدينة وما وراءها حرما لأهلها؛ عليهم أن ينضحوا عنها ويدفعوا كل عادية عليها، وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قررت هذه الوثيقة فيها من الحقوق ومن صور الحرية.

ردود فعل الوثيقة على مجتمع المدينة:

تعد الصحيفة وثيقة تاريخية شاهدة على استجابة النبي ﷺ لما طلب يهود من موادعة وأمان وحلف وجوار، وعلى احترام الإسلام حريتهم في العقيدة، لهم دينهم وللمسلمين دينهم، وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم ومواليهم وبِطانتهم، إلا أن يأثموا ويظلموا، ويخونوا العهد فيظاهروا عدوا على أهل المدينة من المهاجرين والأنصار.

بقدر ما هي شاهدة على أبعاد الجبهة اليهودية، ومدى تغلغلهم في يثرب. ولم تذكر مع ذلك غير البطون الناشبة في أحياء العرب هناك، والمعدودة من مواليها. دون تعرض للمستعمرات اليهودية في خيبر وبني النضير وبني قريظة، وتيماء وفدك ووادي القرى. بل لم تذكر كذلك الأحياء الخاصة بهم في صميم المدينة، مثل حي بني قينقاع.

فلنتابع الأحداث. فالمدينة التي فتحت قلبها للمهاجر العظيم وبايعته على الإسلام والنصرة والبذل، كانت تتوجس الشرَّ من عصابات يهود، التي مزقت الوجود العربي هناك قبل الإسلام.

وبنو قيلة، (الأوس والخزرج)، الذين فتحوا دورهم لإخوانهم المهاجرين من مكة، كانوا في ضيق بنفر من أشراف المدينة، ترددوا في الترحيب بهذه الهجرة

التي غيرت الأوضاع وحولت مجرى الأحداث.ثم تابعوا قومهم على الإسلام، بعد تردد وارتياب، دون أن يدخل الإيمان في قلوبهم عقيدة ودينا.

وعلى رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول الخزرجي، حليف اليهود من يوم بعاث. لقد افتدى نفسه وماله بدفع رهائن اليهود إليهم، حين هجموا بعد انتصار الأوس، على دور الخزرج يذبحون وينهبون.

ومن يومها صار حليفهم الذي يدين لهم بحياته، ويجدون فيه عميلا يسخّرونه في قضاء مأربهم، حتى فكروا في أن يتوّجوه مِلكا على يثرب، وعكف بعض صناعهم في حي الصاغة اليهودي، على إعداد تاج لهذا الموالي الحليف، وجاءت الهجرة فبدّدت أملَه وأملَهم، وشحنت نفسه حسرة على تاجه المسلوب.

ذات صباح، من الأيام الأولى للهجرة، ركب النبي ﷺ إلى بيت صاحبه سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، يعوده من مرض ألَمّ به، وفي طريقه إلى بيت سعد، مر بعبد الله بن أبي، في مجلس له وحوله رجال من أهله، فكره عليه الصلاة والسلام أن يجاوزَ المجلس دون أن ينزل، فنزل وسلم على القوم، ثم جلس قليلا فتلا آيات من القرآن الكريم، وذكّر بالله وحذّر، وبشّر وأنذر، وابن أبيّ بن سلول، صامت واجم.

حتى إذا فرغ المصطفى ﷺ مما أراد أن يقول، بادره ابن أبيٍّ قائلا في جفوة وغلظة: يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا، فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغشه في مجلسه بما يكره منه!

ولم يدعه الأنصار يُتِمُّ قولتَه المنكرة الفاحشة، وانتفض الشاعر الخزرجي الأنصاري عبدالله بن رواحة يعقّب على كلام ابن أبي، متحديا: بلى يا رسول الله، فاغشنا بحديثك وائتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله مما نحب، ومما أكرمنا الله به وهدانا له، وغض ابن أبي بن سلول من بصره وهو يتمثل بقول خفاف بن ندبة السلمي:

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل   تـذلّ ويصرعْـك الذيـن تُصـارع

وهل ينهـضُ البازي بغيـرِ جناحه   وإن جـذ يومـا ريشـه فهـو واقع

وقام الرسول ﷺ فتابع سيره حتى دخل على صاحبه سعد بن عبادة، وفي وجهه ﷺ ملامح ضيق لما سمع من ابن أبي بن سلول، عدوِّ الله.

سأل سعد: والله يا رسول إني لأرى في وجهك شيئا، لكأنك سمعت شيئا تكرهه.

فأخبره ﷺ بما كان.

وقال سعد: يا رسول الله، ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم الخرز لنتوّجه، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكا[١].

لم يكد اليهود يطمئنون إلى موادعة نبي الإسلام إياهم، حتى عادوا إلى أوكارهم يدبّرون لحرب الإسلام في معركة غير مكشوفة، يتقون بها المواجهة المعلنة.

وكان أقسى ما غاظهم من هذا الإسلام، أن أطفأ نار العداوة والبغضاء بين عرب المدينة، الأوس والخزرج، بعد أن سهرت أجيال من السلالة اليهودية على إلهابها بوقود من الدَّسِّ والفتنة والتواطؤ.

فهل يمكن إيقاظ الفتنة بين الأوس والخزرج، وإهاجة الشر بينهم بعد أن حسمه الإسلام، ونسخ ثاراتٍ لهم، وأحقادا، تراكمت على مدى خمسة قرون قبل المبعث؟ لا بأس من المحاولة، على أن تبدو حادثا فرديا عارضا، لا يحمل اليهود إثمه.

والقصة كما ترويها كتب السيرة، يقول الصالحي الشامي: "كان شاس بن قيس شيخا قد عسا، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم،

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (٢/٢٣٧).

www.almoslih.net

فمر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه.

فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فلما أن جاء الإسلام اصطلحوا وألف الله بين قلوبهم.

فقال: «لقد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار»، فأمر فتى شابا من يهود كان معه فقال: «اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار».

ففعل، فأنشدهم بعض ما قاله أحد الحيين في حربهم، فكأنهم دخلهم من ذلك شيء، فقال الحيُّ الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا، فقال الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا.

حتى تواثب رجلان من الحيَّين: أوس بن قيظي (أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس، وجبار بن صخر (أحد بني سلمة) من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: «إن شئتم رددناها الآن جذعة». فغضب الفريقان جميعا، وقالوا: «قد فعلنا، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة الحرة ـ السلاح السلاح». فخرجوا إليها.

فانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية؛ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين: الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا»؟.

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيدٌ من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم»[(١)].

وقد نزل القرآن الكريم مربيًا للصحابة ﷺ، ومبينا العوار الذي لحق بهذا التصرف، وما ينبغي لهم أن يكونوا عليه من الألفة والتوادّ.

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٠-١٠٣].

صدق الله العظيم وخشع المؤمنون لآيات ربهم، وانكمشت العصابة الملعونة تفتش في جعبتها عن سهام أخرى، يمكن أن تصيب من حيث ارتد سهم الفتنة هذه المرة إلى صدورهم، يؤجج ما انطوت عليه من ضغينة وغدر وحقد.

على أن تبدو المكيدة حادثا فرديا عارضا، لا يحمّل اليهودَ كلّهم إثمه.. في أوكار يهود الناشبة في دار الهجرة وما حولها، تمت تعبئة الأحبار ليكيدوا للإسلام كيدا، دون أن يواجهوه بحرب معلنة.

يتظاهر نفر منهم بالإسلام، ثم يندسون بين الصحابة في صميم المجتمع الإسلامي بالمدينة، ليبذروا بذور الشر التى تؤتي ثمرها الخبيث على المدى الطويل، ويشربوا ضعاف النفوس من بني قيلة سم النفاق، واثقين من نتيجته وإن يكن بطيء الأثر.

(١) ابن هشام: السيرة، (٢/٥٥٦).

www.almoslih.net

مجادلة اليهود للنبي ﷺ:

تصدى نفر آخر من اليهود لمجادلة النبي ﷺ(١)، التماسا للعلم في ظاهر الأمر، وقصدا إلى إحراجه ﷺ، وإعناته!

جاءه نفر منهم، وهو ﷺ في مجلسه مع صحابته، فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن أربع نسألك عنهن، فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك.

سألهم عليه الصلاة والسلام: ما هي؟ قال كبير منهم: أخبرنا كيف يشبه الولد أمه وإنما النطفة من الرجل؟ وأخبرنا كيف نومك؟ وماذا حرم إسرائيل على نفسه؟ وأخبرنا عن الروح.

وجاءه أبو صلوبا الفيطوني فقال: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه ـ من دلائل النبوة ـ ما أنزل الله عليك من آية فنتبعك لها.

وعقب ابن حريملة، فاقترح على محمد ﷺ مثل ما اقترحه عليه الوثنيون من قريش، قال: يا محمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول، فقل له فليكلمنا حتى نسمع كلامه.

وأضاف آخر مقترحا: يا محمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا السماء نقرؤه، وإلا جئناك بمثل ما أتيتنا به! ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

وجاءه جبل بن أبي قشيرة، وشمويل بن زيد، فقالا: يا محمد، أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبيا كما تقول.

ولم يجب الرسول عليه الصلاة والسلام بغير ما نزل عليه من كلمات ربه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ

(١) تجد نصوص أسئلتهم والرد عليها عند ابن هشام السيرة، (٩١/٢) وما بعدها.

ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. والحفي: أنهم يظنون أن عندك علم لكن تكتمه.

وجاءه ﷺ، جمع منهم، فيهم ابن أبي عزير، وسلام بن مشكم، وابن أضاء فسألوا: أحق يا محمد أن هذا الذي جئت به لحقّ من عند الله، فإنا لا نراه متسقا كما تتسق التوراة؟.

وأضاف فنحاص، وابن صوريا، وابن صلوبا، وشمويل بن زيد: يا محمد، أما يعلمك هذا إنس ولا جن؟.

ورَدَّ عليه الصلاة والسلام: «أما والله إنكم لتعرفون أنه الحق من عند الله.. ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، ما جاءوا به».

وكرروا سؤالهم عن ذي القرنين وأهل الكهف، وكانوا قد اقترحوا على مشركي قريش أن يسألوه عن خبر فتية كان لهم حديث عجب، وعن رجل طوّاف في الأرض ما شأنه؟.

وأجاب ﷺ، بمثل ما أجاب به قريشا، مما تلقى من آيات سورة الكهف في العهد المكي.

وأتى رهط منهم رسول الله ﷺ فسألوه مُعنتين: يا محمد، هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب النبي عليه الصلاة والسلام حتى تغير لونه، وهمّ بهم يريد أن يبطش بهم غضبا لله سبحانه، لكنه تمالك غضبه وراح يتلو: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وغرَهم حلمُه ﷺ، فمضوا في جَدَلهم الوقح: فَصِفْ لنا يا محمد، كيف خَلْقه ـ تعالى ـ؟ كيف ذراعه وكيف عضده؟ عندئذ اشتد غضب المصطفى وساورهم، ثم انصرف عنهم يائسا من جدوى مثل ذلك الجدل العقيم.

وفي مسند الإمام أحمد، عن ابْنِ عَبَّاسٍ قال: «حَضَرَتْ عِصَابَةٌ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيَّ الله ﷺ يَوْمًا، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، حَدِّثْنَا عَنْ خِلالٍ نَسْأَلُكَ عَنْهُنَّ لا يَعْلَمُهُنَّ

إلا نَبيٌّ، قَالَ: سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنِ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ الله وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَام عَلَى بَنِيهِ لَئِنْ حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتُتَابِعُنِّي عَلَى الإِسْلامِ، قَالُوا: فَذَلِكَ لَكَ، قَالَ: فَسَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ.

قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ أَرْبَعِ خِلالٍ نَسْأَلُكَ عَنْهُنَّ:

- أَخْبِرْنَا أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ؟
- وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ مَاءُ الْمَرْأَةِ وَمَاءُ الرَّجُلِ، كَيْفَ يَكُونُ الذَّكَرُ مِنْهُ؟
- وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ هَذَا النَّبِيُّ الأُمِّيُّ فِي النَّوْمِ؟ وَمَنْ وَلِيُّهُ مِنَ الْمَلائِكَةِ؟

قَالَ: فَعَلَيْكُمْ عَهْدُ الله وَمِيثَاقُهُ لَئِنْ أَنَا أَخْبَرْتُكُمْ لَتُتَابِعُنِّي؟ قَالَ: فَأَعْطَوْهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ.

قَالَ: فَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلام مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا وَطَالَ سَقَمُهُ فَنَذَرَ لِلهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ الله تَعَالَى مِنْ سَقَمِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ.

فَأَنْشُدُكُمْ بِالله الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَبْيَضُ غَلِيظٌ وَأَنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ رَقِيقٌ فَأَيُّهُمَا عَلا كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ الله، إِنْ عَلا مَاءُ الرَّجُلِ عَلَى مَاءِ الْمَرْأَةِ كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ الله، وَإِنْ عَلا مَاءُ الْمَرْأَةِ عَلَى مَاءِ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ الله؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ.

فَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ؟

قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ.

قَالُوا: وَأَنْتَ الآنَ، فَحَدِّثْنَا: مَنْ وَلِيُّكَ مِنَ الْمَلائِكَةِ؟ فَعِنْدَهَا نُجَامِعُكَ أَوْ نُفَارِقُكَ!!

قَالَ: فَإِنَّ وَلِيِّي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، وَلَمْ يَبْعَثِ الله نَبِيًّا قَطُّ إِلا وَهُوَ وَلِيُّهُ.

قَالُوا: فَعِنْدَهَا نُفَارِقُكَ، لَوْ كَانَ وَلِيُّكَ سِوَاهُ مِنَ الْمَلائِكَةِ لَتَابَعْنَاكَ وَصَدَّقْنَاكَ!!

قَالَ: فَمَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ أَنْ تُصَدِّقُوهُ؟ قَالُوا: إِنَّهُ عَدُوُّنَا!!

قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١] [(١)].

هذا الحوار الذي دار بين جماعة من اليهود والنبي ﷺ، يلخص بجلاء حقيقة موقف اليهود من رسالة الإسلام، فهُم يعلمون أنه الحق، وقد اختبروا ـ بما عندهم من بقايا التوراة بغير تحريف ـ اختبروا صدق النبيّ ﷺ، وهم قد شهدوا بداية أن ما يسألون عنه لا يعلمه إلا نبي، وذلك يعني: أنهم يخفون ما عندهم من قليل العلم عن الناس، وهو مضاد لرسالات الأنبياء.

وقد أخذ منهم النبي ﷺ الميثاق ليتابعنه إن أجابهم عما سألوا، ولكنهم أهل غدر ونقضٍ للمواثيق، ولكن الحوار في النهاية يكشف عن أمر عجيب لا يتصور صدوره من بشر إلا أن يكونوا فجارًا جاحدين، وذلكم هو عداوتهم لجبريل عليه السلام؛ لأنه ينزل بالحق من عند الله!

لكنهم لم يكفوا عن جدلهم الخبيث، يبثون سمومه في المجتمع المدني، آمنين من جانب نبي الإسلام، مُحْتَمِين بعهده الموثق. حتى ضج الصحابة من شرهم ومكرهم، فمضَوا يساورونهم ويزجرونهم، عساهم يرتدعون.

---

(١) رواه أحمد، (٢٥١٤)، أحمد شاكر: إسناده صحيح، كما في المسند: (١٤٢/٣)، ط١، دار الحديث، القاهرة ١٤١٦هـ.

ودخل أبو بكر الصديق بيت المدراس الذي يجتمعون فيه إلى أحبارهم ويتدارسون في أسفارهم، فوجد عصابة منهم قد اجتمعت إلى حبرين من رؤوسهم: أشيع وفنحاص.

فقال الصديق منذرا: "ويحك يا فنحاص، اتق الله، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل".

ردَّ عدوُّ الله، وقد ذكر ما يتلو المسلمون من آيات القرآن في البِرّ والرحمة، والبذل للخير قرضا حسنا يضاعفه الله لهم: "والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير! وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني! ولو كان غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبُكم! ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا"!

فلم يملك أبو بكر غضبه، ولطم وجه فنحاص وقال: "والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك، أي عدوَّ الله".

وأسرع الخبيث إلى النبي ﷺ يشكو إليه صاحبه الصديق أبا بكر، وينكر أن يكون قال شيئا مما أغضبه، ونزلت كلمات الله، من سورة آل عمران: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ولجّوا في عنادهم ومكرهم، حتى اجترأوا فأنكروا أن يكونوا قد بشروا بقرب مبعث نبي! ولم يسكت الأنصار على هذا الإنكار الجريء، وطالما منّ عليهم يهود بأنهم أهل كتاب، وشغلوهم بالكلام عن نبي حان زمانه.

وقد تصدّى لهم من الأنصار معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة، وعقبة بن وهب، قالوا: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته.

فرد منهم رافع بن حريملة، ووهب بن يهوذا: ما قلنا لكم هذا قط، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده! وبدا أن المجتمع المدني في حاجة إلى تطهير مما نفثوا فيه من سموم الشر والنفاق، لكن عهد الموادعة بكتاب النبي ﷺ، كان يرخي لهم في أملهم أن يكيدوا الإسلام دون أن يواجهوه في معركة مكشوفة، لم يكن أوانُها قد حان بعد.

دروس وعبر

❶ إن النبي ﷺ قد وضع الأسس الأولى لقيام الدولة الإسلامية الأولى على قواعد متينة من الإخلاص لله وعبادته، وتوحيد الصف الإسلامي.

❷ إن قضية العبادة وتنظيم علاقة الإنسان بربه، وبالمجتمع من حوله، هي الغاية العظمى التي ينشدها الإسلام، فالإسلام يريد للإنسان حياة كريمة، تليق بتكريم الله له، وتسمو به عن التدني إلى المستوى الحيواني الغرزي الذي لا يهمه إلا شهوتا بطنه وفرجه.

❸ إن بناء المسجد فور وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة كان ضروريا، لما يقوم به من المهام في الدولة المسلمة، فقد تنوعت مهامّه التعبدية والاجتماعية والتربوية والعسكرية على ضوء ما شرحناه سابقا.

❹ يجب أن نعيد للمساجد دورها، وأن نجعل منها مؤسسات تربوية جامعة لا صوامع محظورة خاوية.

إنَّ الذين حظروا المسجد، وحجموا دوره، وغيبوا رسالته، وقيدوا رجاله وأئمته، سينالهم غضب من الله، وعذاب بئيس في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالخزي والصغار والعار، وفي الآخرة بالعذاب والنار والدمار..

قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

❺ علينا أن نعيد الحياة الإسلامية الشاملة لبيوت الله، ولا نخشى في الله لومة لائم، ذلك لتعلم؛ أنه لا نهضة لهذه الأمة ولا تقدم لها ولا رفعة إلا برجال ربانيين، تخرجوا من جامعة المسجد، ذلك لتعلم؛ أن النهضة الإسلامية القادمة والتي أوشكت على الظهور ستخرج بإذن الله من مساجد الله.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

❻ ضرورة تعاون الجميع في الأعمال المشتركة، فقد اشترك النبي ﷺ مع أصحابه في بناء المسجد وكان يحمل اللَّبِنات والأحجار على كاهله من بداية البناء إلى آخره.

وهذا من مظاهر العظمة والتواضع معا عند النبي ﷺ، فإنهم كانوا يطلبون منه أن يكف عن العمل ويكفونه، ولكنه ﷺ أصر أن يشاركهم العمل حتى النهاية.

❼ أهمية استقلال الشخصية الإسلامية في تعبدها وتقاليدها، فما رضي النبي ﷺ أن يقلد اليهود في ندائهم للصلاة بالبوق، ولا النصارى في ندائهم لقدّاسهم بالجرس، إلى أن منّ الله عز وجل بتشريع الأذان.

❽ أساس العلاقة بين المسلم وأخيه تقوم على الأخوة في الدين والعقيدة، لا الأخوة في النسب، وقد ضرب الصحابة الأولون أعظم المثل في تحقيق هذا الجانب العظيم من جوانب الولاء والبراء.

❾ لا بد لهذه الأخوة أن تقوم على أسس متينة من الأخلاق الفاضلة والإيثار، حتى تحقق النتائج المرجوة منها.

❿ لا بد أن تقوم المعاملات اليومية بين أفراد المجتمع على أساس الوشيجة الإنسانية العامة، وجعل ميزانها العدل والمساواة والسلام الاجتماعي الشامل، ولا سبيل إلى الوصول إلى هذا الهدف إلا إذا أمن الناس وساد بينهم الشعور بالأخوة والمواطنة.

www.almoslih.net

⓱ لا بد من قانون جامع، تلتزم به جميع الأطراف، ينظم العلاقات بين فصائل المجتمع المختلفة، ويحدد أدوار كل فصيل، لتكون متعاونة في مواجهة الأخطار الخارجية.

كما يجب عليهم التعاون والتكافل والتناصر والأخذ على يد الباغي، وتسليمه للسلطة المركزية دون التعرض لأحد في ماله ولا عرضِه ولا دمِه.

ومن ارتكب جناية فذنبها راجع إليه وحده، لا إلى قومه جميعا، فلا يؤخذ أحد بذنب أحد، إلا إذا أعانه أو تستّر عليه.

هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٠

تَشرِيعَ الجِهَاد وَحَرب الاِستِنزَاف

تَهدِيدَاتٌ مُتعَدِّدَةٌ

تبين لنا من خلال العهد المكي كله: أن قريشا كانت تأخذ جانب العداء الكامل لهذه الدعوة الوليدة، بل إنها كانت العدو الأول الذي حارب دعوة الإسلام، وفتنت المؤمنين بها في أموالهم وأنفسهم.

ومن ثَمّ أمر النبي ﷺ أتباعه: تارة بالهجرة إلى الحبشة، ومرة أخرى إلى المدينة المنورة، وظل يبحث عن أرض جديدة تتقبل هذه الدعوة وتحتضنها.

وبناء على ذلك، لم تكن هجرة الرسول ﷺ من باب الفرار بنفسه من قريش؛ وإنما كانت في المقام الأول للبحث عن أرض جديدة تقبل بذرة التوحيد، وتقيم دولة الإسلام بعد أن وقفت قريش لها بكل سبيل، وأعلنت لها العداء الكامل.

ولم يكن من المتوقع أبدا أن تقف قريش مكتوفة الأيدي أمام هذا المد الإسلامي؛ حيث إن نجاح هذا الدين في تكوين دولته يعني بالضرورة القضاء على كل الزعامات القرشية الوثنية، وانهيار دولة الكفر من أساسها، ومن هنا، فإن قريشا ضاعفت جهودها في محاربة هذه الدعوة بعد هجرة النبي ﷺ، فاتبعت عدة طرق لتحقيق أهدافها منها:

(١) التهديد والوعيد:

أسلوب التهديد والوعيد، وهو أسلوب استُخدم قديمًا ويستخدم حديثًا، هذا الأسلوب وإن كان يُحتمل أنه من قبيل الحرب النفسيّة الوهميّة على المسلمين، إلا أن المسلمين أخذوه مأخذ الجدّ والاعتبار.

والعقل لا يمنع أن تغزو قريش المدينةَ المنوّرة، أو على الأقل أن تخطط لقتل الرسول ﷺ، وقد حاولت قريش قتل رسول الله ﷺ أكثر من مرة، وآخرها المحاولة التي تمت قبل الهجرة بقليل، وأرادوا أن يضربوا عنقه بأربعين سيفًا في وقت واحد؛ كي يتفرق دمه بين القبائل كما كانوا يقولون.

وقد رصدوا لمن يقتله أو يأسره مائة من الإبل، وهذا مبلغ ضخم جدًّا، ولا يستبعد أن ترصد قريش مائة من الإبل لمن يتسلل داخل المدينة ليقتل الرسول ﷺ، فهذا أمر محتمل جدًّا.

لأجل هذا كان الرسول ﷺ كثيرًا ما يَبيت ساهرًا حذرًا من غدر قريش. وتروي لنا عائشة ﵂ قيام الرسول ﷺ بواجب حراسة المدينة فتقول: «سَهِرَ رَسُولُ الله مَقْدَمَهُ الْمَدِينَةَ لَيْلَةً، فَقَالَ: لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ.

قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ، سَمِعْنَا خَشْخَشَةَ سِلَاحٍ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله: مَا جَاءَ بِكَ؟ قَالَ: وَقَعَ فِي نَفْسِي خَوْفٌ عَلَى رَسُولِ الله، فَجِئْتُ أَحْرُسُهُ. فَدَعَا لَهُ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ نَامَ»[١].

كان هذا هو حال المسلمين في المدينة، ولم يكن هذا الموقف أحد المواقف العارضة أو النادرة، بل كان هذا كل ليلة، ولم تتوقف الحراسة عن رسول الله ﷺ إلا بعد أن عصمه الله، لما نزل قول الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، (٢٧٢٩، ٦٨٠٤). مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﵁، (٢٤١٠).

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾»[١]. فَأَخْرَجَ رَسُولُ الله رَأْسَهُ مِنَ الْقُبَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، انْصَرِفُوا؛ فَقَدْ عَصَمَنِي الله»[٢].

واعتمادا على وعد الله له بالعصمة من الناس فقد ظلّ ـ على رغم كثرة المحاولات لاغتياله ـ دون حرس.

وهذه الخاصية كانت لرسول الله ﷺ، فقد عصمه الله تعالى من الناس، لكن عموم القيادات الإسلاميّة لا بد أن تحمي نفسها من أعدائها.

وهذا التهديد لم يكن خاصًّا بالرسول ﷺ فحسب، بل كان لكل من آمن معه كافَّة وبخاصَّة القيادات الإسلاميّة.

ولا ننس أن قريشًا قد رصدت قبل ذلك مائة ناقة لمن يأتي بأبي بكر الصديق حيًّا أو ميتًا، وكان هذا هو حال كل القيادات الإسلاميّة؛ قال أُبَيُّ بن كعب: "لما قدم الرسول ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة؛ فكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه"[٣].

فاغتيال الزعامات الإسلاميّة هدف لأعداء الأمة. وهذه الحرب النفسيّة من قريش ضد المسلمين لم تفلح أيضًا، فماذا تفعل قريش؟!

(٢) قطع العلاقات الدبلوماسيّة:

علمنا أن قريشا كانت تفتخر على غيرها من القبائل بأنها تسقي الحجيج، وتعمِّر البيت الحرام، وكانت القوانين والأعراف في الجزيرة العربية كلها، بل في مكّة نفسها وفي قريش تقضي بأنّ من يريد أن يدخل البيت الحرام فهو آمن، بل يُكرم ويُرعى ويُخدم.

---

(١) الترمذي: سنن الترمذي، (٣٠٤٦).
(٢) السابق نفسه.
(٣) رواه الحاكم في مستدركه، (٣٥١٢).

لكن تنكّرت قريش لكل هذا، وقررت أن تمنع أهل المدينة من البيت الحرام، وأن تعربد في الأرض كما يحلو لها.

ويتضح هذا الأسلوب جليًّا فيما رواه البخاري: «عَنْ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، أَنَّهُ قَالَ: كَانَ صَدِيقًا لأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَكَانَ أُمَيَّةُ إِذَا مَرَّ بِالْمَدِينَةِ نَزَلَ عَلَى سَعْدٍ، وَكَانَ سَعْدٌ إِذَا مَرَّ بِمَكَّةَ نَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ الْمَدِينَةَ انْطَلَقَ سَعْدٌ مُعْتَمِرًا، فَنَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ بِمَكَّةَ، فَقَالَ لأُمَيَّةَ: انْظُرْ لِي سَاعَةَ خَلْوَةٍ؛ لَعَلِّي أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ.

فَخَرَجَ بِهِ قَرِيبًا مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ، فَلَقِيَهُمَا أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا صَفْوَانَ، مَنْ هَذَا مَعَكَ؟».

وهنا نلاحظ تجاهل أبي جهل لسعد بن معاذ ﷺ، مع أنه يعرفه جيدًا فهو سيد الأوس، «فَقَالَ: هَذَا سَعْدٌ».

ومن إجابة أمية يتضح أن أبا جهل على معرفة بسعد بن معاذ، فقد اكتفى أمية بن خلف بالإشارة إلى اسمه فقط، ولم يعرّفه بأكثرَ من ذلك.

فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: «أَلَا أَرَاكَ تَطُوفُ بِمَكَّةَ آمِنًا، وَقَدْ أَوَيْتُمْ الصُّبَاةَ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تَنْصُرُونَهُمْ وَتُعِينُونَهُمْ، أَمَا وَاللهِ لَوْلَا أَنَّكَ مَعَ أَبِي صَفْوَانَ مَا رَجَعْتَ إِلَى أَهْلِكَ سَالِمًا».

فهذا تهديد خطير من أبي جهل، وقد فقد كلَّ صوابه وحنكته وحكمته في التعامل مع قبيلة قويّة مثل قبيلة الأوس أو الخزرج.

فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ ـ وَرَفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ ـ: «أَمَا وَاللهِ لَئِنْ مَنَعْتَنِي هَذَا لأَمْنَعَنَّكَ مَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْكَ مِنْهُ، طَرِيقَكَ عَلَى الْمَدِينَةِ»[(١)].

هذا الموقف العظيم للصحابي الجليل سعد بن معاذ ﷺ، يحتاج منا إلى وقفة. فإن التذلل والخضوع والخنوع لزعماء الكفر وقادة الضلال وجبابرة الأرض، لا

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر، (٣٧٣٤).

يزيدهم إلا كبرًا وغطرسةً وظلمًا وجورًا، أما الوقوف بهذه الوقفة الجادة الحاسمة، فلا شك أنه يزلزل كيانهم، ويهزّ أعصابهم.

ونلاحظ أن سعد بن معاذ ﷺ كان واقعيًّا جدًّا في تهديده، فلم يهدِّد بقتلٍ أو بغزو مكّة، أو بالقدوم إلى مكّة للعمرة رغمًا عن أنف أبي جهل، ولكن هدَّده بما يملك.

وهنا لم يفقد سعد بن معاذ ﷺ مصداقية كلامه، فكان كلامه في غاية التأثير، فهو ﷺ يعرف مواطن القوة عنده، ويعرف ما بيده، ويعرف ما يُضعف عدوَّه، ويعرف مصالح مكّة، ويعرف حقًّا من أين تُؤكل الكتف، فهذا موقف رجولي يليق بمؤمن.

٣ تحريض القبائل:

ضاعفت قريش جهودها في محاربة الإسلام ورسوله والمسلمين، فقامت بتحريض القبائل المحيطة بالمدينة على المسلمين، وتؤلب عليهم أعداء الإسلام في داخلها، فقضى المسلمون شهورهم الأولى بالمدينة بين خوف وحذر، يترقبون في كل لحظة عدوا يهاجمهم بقوته من الخارج، أو يفاجئهم بخيانته من الداخل.

أفكان يمكن أن تسير الدعوة بعد ذلك بغير قوة تحميها، والأعداء يحيطون بها من كل جانب، يتربصون بها الدوائر في كل وقت؟ لم يكن ذلك ممكنا بالطبع، فكان طبيعيا إذًا أن يحمي المؤمنون دعوتهم، وأن يدافعوا عنها من يعتدي عليها[(١)].

ولم تكن قريش وحدها هي العدو الذي يثير الفتن والأراجيف على المسلمين، بل انضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج، ممّن كان على جاهليته ووثنيته، ولم يدخل في الإسلام، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه، فأظهروا الإسلام واتخذوه جنَّةً من القتل، ونافقوا في السر.

(١) صور من حياة الرسول في المدينة المنورة، (ص٤٤). وزارة الأوقاف المصرية.

فكان هواهم مع اليهود لتكذيبهم النبي ﷺ وجحودِهم الإسلام، وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله ﷺ، ويُعنتونه ويأتونه باللبس، ليلبسوا الحق بالباطل، إلا ما كان من عبد الله بن سلام ومخيريق، فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه، إلا قليلا من المسائل في الحلال والحرام، كان المسلمون يسألون عنها[1].

ولقد نمت في اليهود أدواء الحسد والكِبْر والحقد على العرب الذين نالوا شرف ظهور النبي الجديد من بينهم، وحُرموا هم منه، وقد كانوا ـ ولا يزالون إلى اليوم ـ يرون أنفسهم صفوة الإنسانية، وشعبَ الله المختار وأحباءه.

وقد أنبتت هذه الأدواء المستعصية على الشفاء نيران البغض والمقت في قلوبهم لأصحاب هذا الدين الجديد، ولم يكن يطفئ هذه النيران إلا أن يعود المسلمون إلى الكفر بعد الإيمان، ولذلك فهم يلتقون مع المشركين في الهدف العام وهو القضاء على دعوة الإسلام.

وظلت العداوة كامنة في صدورهم لرسول الله ولدعوته منذ مدم عليهم المدينة، وجعل لهيبها يزداد كلما رأوا سلطانه يتمكن ودينه يظهر، حتى صرحوا بها وأعلنوها، وجاهروا رسول الله بالكفر والعداوة، والمكر والكيد، فكان من أمره وأمرهم ما كان بعد ذلك.

وقد روت كتب السيرة والتاريخ بعضا من الأحداث التي تدل على هذا الحقد الدفين في نفوس هؤلاء اليهود منذ وصول النبي ﷺ إلى المدينة، وتدل أيضًا على كِبْرهم وعنادهم في قبول الحق واتباعه بعد أن علِموه واستيقنوه.

ومن ذلك قصة إسلام الحبر اليهودي عبد الله بن سلام، وإسلام صفية بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود، وهاك ما روته كتب السيرة في ذلك الصدد:

(١) الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (١/٢٧٩).

روى ابن إسحاق فيما كان من حديث ابن سلام ـ حبر اليهود وعالمهم ـ حين أسلم أنه قال: "لما سمعت برسول الله، وعرفت صفته وسنه وهيئته وزمانه الذي كنا نتوكف له.. فلما قدم المدينة ونزل بقباء في بني عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث جالسة.

فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله كبّرت، فقالت عمتي حين سمعت تكبيري: لو كنتَ سمعت بموسى بن عمران ما زدت! قال: قلت لها: أي عمة، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بعث بما بعث به. قال: فقالت: ابنَ أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ قال: قلت لها: نعم قالت: فذاك إذا!

قال: فخرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا. وكتمت إسلامي من اليهود، وقلت: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهْتٌ[1]، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك فتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني، فيخبرونك كيف أنا فيهم.

فأدخلني رسول الله في بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه، ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا!

قال: فلما فرغوا من قولهم، خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته! فإني أشهد أنه رسول الله، وأومن له وأصدقه وأعرفه. فقالوا: كذبت! ثم وقعوا بي.

(١) قوم بهت: قوم زور وبهتان.

فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، وأهل غدر وكذب وفجور؟ قال: وأظهرت إسلامي وأسلم أهل بيتي، وأسلمتْ عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها[1].

في هذه القصة يبدو لنا بجلاء أن اليهود أثنوا على حبرهم وعالمهم وقالوا عنه إنه سيدهم وابن سيدهم، وعالمهم الحصيف، ورث علم اليهودية كابرا عن كابر.

ولكن كل هذا الثناء انقلب إلى سِباب وشتائم بعدما أمرهم هذا الحبر بالإسلام، وأخبرهم بعنادهم عن قبول الحق، وأن هذا النبي ﷺ هو الذي بشّرهم به موسى عليه السلام في التوراة، ولكنهم على الرغم من هذا ظلوا على كفرهم وعنادهم.

وروى ابن إسحاق من حديث صفية بنت حيي بن أخطب ـ زوج رسول الله ﷺ ـ أنها قالت: «كنت أَحَبَّ ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قطُّ مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه.

قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل بقباءَ في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي وعمي مُغَلِّسَين، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا فاترين كسلانين ساقطين، يمشيان الهوينا.

قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، مما بِهِما من الغم! وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتثبته؟

قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت»[2]!

(١) ابن هشام: السيرة، (٣/٥٠)، وما بعدها، الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (١/٢٧٩)، وما بعدها، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٣/٣٨٠). وصحيح الموارد، (١٩٠٨)، قال الألباني: "صحيح".

(٢) ابن هشام: السيرة، (٣/٥٢)، الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (١/٢٨١)، وما بعدها، المقريزي: امتاع الاستماع، (٣/٣٥٢).

وبناء على ذلك فقد كانت هناك قوى كثيرة تتربص بالمسلمين الدوائر من الداخل والخارج، فهناك الأعراب الذين يحيطون بالمدينة، وكانوا على شركهم، وعبادتهم لأوثانهم، وجذبتهم قريش إليها بسلطانها الديني عليهم، وظلت تبث في نفوسهم العداوة للإسلام والثورة عليه.

ولقد وجدت قريش في هذه الفئة من مشركي العرب، ومنافقي المدينة من المسلمين، وفي عداوة اليهود للإسلام ورسوله مددا عظيما، يمكنها استغلاله في القضاء على الإسلام وأتباعه، فلم تدخر جهدا في ذلك، بل إنها حاولت استثمار كل تلك القوى لتحقيق أغراضها الدنيئة.

تَشرِيع الجِهَاد

تبين لنا استمرار قريش في إيذائها للنبي ﷺ، وتطاولها عليه، وتأليب القبائل عليه، وتعذيب المؤمنين المستضعفين في مكة، وإشاعة الأراجيف ضد الإسلام والمسلمين.

ومن هنا فقد كان لا بد من إزعاج هذه القوى الشريرة، وتهديد مصالحها المباشرة، وتشريع الجهاد، حتى تكفَّ قريش عن هذا الاستفزاز المتعمّد لصفوف المسلمين.

فهذه القوة المتكبرة ما زالت تصر على العناد والضرر بالمسلمين وقتالهم، ولن تكفّ عن هذا الإيذاء واللغط الذي تثيره حول النبي ﷺ وصحابته إلا بعد أن تأخذ درسا تأديبيا، تعلم من خلاله أن جانب الرسول ﷺ وأصحابه لم يعد ضعيفا يتلقى الضربات، ويتلقى أصحابُه من وسائل الإرهاب والتشنيع على دعوتهم ما يقضّ مضاجعهم، ولن يصبر المسلمون على نشر الدعايات الكاذبة ضد الإسلام والمسلمين بعد ذلك.

في أي الجبهات الثلاث، يبدأ الصدام المسلح الذي لم يكن منه بد، لتأمين الوجود الإسلامي وحماية حرية عقيدته؟

ليس مع يهود قطعا، فما هو من طبيعتهم ولا في إمكانهم.

وليس مع المنافقين، كذلك، وداؤهم لا يزال في مرحلة الحضانة والتفريخ، والذي يبدو من بوادره يمكن تداركه أو الغض عنه تجنبا لفتح جبهة خطرة في صميم المجتمع الإسلامي بالمدينة، ولما يفرغ من أعدائه الوثنيين ويهود.

إنما الصدام المسلح من الخصوم من قريش التي لم يعد أمامها سواه، بعد أن تجنبته جهدها طويلا، على الرغم منها، حفاظا على السلام في أم القرى وأمن الحمى الحرام في البيت العتيق.

لقد كان في حساب مشركي قريش أن تفرغ من القلة المؤمنة في الجولة الأولى بأرض المبعث، دون حاجة إلى قتال وحرب.

وقد غرّها أن النبي ﷺ، لبث ثلاثةَ عشرَ عامًا في مكة، لا يحمل سلاحا غير عقيدته، ولا يلقى كفار قريش وصناديدها بغير كلمات ربه.

لكن طبيعة الأشياء فرضت حتمية الصدام، وقررت كذلك مصيره من تلك الجولة المكية الأولى، وإن بدا أن المعركة لم تحسم إلا يوم الفتح في السنة الثامنة للهجرة.

ماذا عسى التاريخ أن يعطي من تفسير منطقي لحركة الدعوة الإسلامية إذ تأخذ منطلقها من فجر المبعث، فيحتمل النبي ﷺ والذين آمنوا معه، وطأة الوثنية العاتية الشرسة، دون أن يؤذن لهم بقتال؟

لا يمكن أن يكون المؤمنون مظنة أن يكرهوا القتال حذرا من معركة تبدو غير متكافئة، وهم الذين باعوا الدنيا بالآخرة، وبايعوا المصطفى عليه الصلاة والسلام على الجهاد معه في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وليس فيهم مَن دخل في دينه إلا وهو على بينة من أمره.

المهاجرون خرجوا من ديارهم وأموالهم، والأنصار أصحاب العقبة الكبرى، بايعوا النبي ﷺ وودوا لو قاتلوا الوثنية عن دينهم من يوم العقبة، لولا أن قال ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم».

ليس التفسير إذن، أنهم كانوا مظنة التردد في القتال، أو الخوف من قوة عدوهم وكثرته.

وإنما اقتضت سنة الله سبحانه، أن تطول تلك الجولة المكية الأولى بغير قتال، ليؤمن من يؤمن عن عقيدة خالصة واقتناع حر، ويكون الابتلاء بوطأة المشركين تمحيصا للصفوف من المؤمنين، وتمزيقا لغشاوة الغفلة عن بصيرة قريش، بما تشهد من هذا الاستبسال الصامد الذي لا يمكن إلا أن يكون عن إيمان بحق.

وتتابعت آيات القرآن تقصر مهمة الرسول ﷺ على البلاغ: يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأسلم من أسلم بمحض إرادته واختياره، دون تورط أو إكراه أو مسايرة.

وما كان بعيدا في منطق الحياة أن تغلب القلة المؤمنة كثرة كافرة، لكن الإسلام بتقريره حرية العقيدة وعدم الإكراه في الدين، أصلا من أصول دعوته، استصفى من قريش والموالي بمكة وسابقي الأنصار، الجنود الأولين لحزب الله.

لم ينتظروا حتى يحسبوا حسابا لمكسب أو خسارة، بل استجابوا لداعي الإسلام بمحض إرادتهم، عن اعتقاد راسخ وضمير حر، فما عادوا بحيث يخشون فيه لومة لائم، أو يبالون الموت في سبيل ما آمنوا أنه الحق من ربهم.

وزوّدهم إيمانهم الصادق بطاقة فذة، نفذ أثرها إلى صميم الجبهة القرشية، فكان منها المدد المتصل المتتابع، لكتيبة المؤمنين.

وتصدع بنيان الوثنية من قبل أن تلقى الإسلام في الصدام المسلح الذي فرضته طبيعة الموقف، وقد أذن للمسلمين في القتال إقرارا لمبدأ حرية العقيدة، وغضبا لحرمات الله، ودفعا لما سيموا من أذى واضطهاد.

وقررت كذلك مصيره: ينتصر الحق على الباطل فيزهقه، وينسخ النور الظلام فتنجلي غواشي الوثنية عن أم القرى والبيت العتيق.

على ساحة بدر كانت أولى جولات هذا الصدام، وموقعة بدر لم تأت فجأة، بل سبقتها نُذُرٌ، تراكمت على الأفق ما بين دار المبعث ودار الهجرة، معلنة عن

حتمية الحرب بين الإسلام والوثنية، إذ ليس من طبيعة الأشياء أن يتهادن حقٌّ وباطلٌ.

وقد أُذن للمسلمين في القتال، بعد طول صبر واحتمال. لكن القتال لم يبدأ مع ذلك في عام الهجرة الأول، الذي مضى كله احتشادا للجهاد وتنظيما للمجتمع الإسلامي في مركزه بالمدينة، واكتشافا لأبعاد الميدان في منطقة كانت حتى المبعث، ولمدى خمسة قرون قبله، ترعى فيها الذئاب من يهود(١).

ولم يكن هينا على المهاجرين والأنصار، أن يأتي موسم الحج في عام الهجرة الأول، وقد حيل بينهم وبين أداء فريضة الحج والسعي إلى بيت الله الحرام الذي يسيطر عليه المشركون، وكدسوا أوثانهم في ساحته، وأباحوه لكل الوثنيين العرب، وصدّوا عنه المؤمنين الذين يعبدون رب هذا البيت لا يشركون به شيئًا.

السرايا الاستطلاعية:

مع مطلع السنة الثانية للهجرة، بدأ النبي ﷺ يخرج في غزوات قصار، تدريبا لجنده من حزب الله، وإقرارًا لهيبة الإسلام في موقعه الجديد.

كما بدأ عليه الصلاة والسلام يبعث سراياه لتجوب المنطقة ما بين مكة والمدينة، وأولاهما مركز الوثنية العربية، والأخرى مركز الدعوة الإسلامية.

ولم تكن هذه السرايا قاصدة إلى قتال، وإنما كانت دوريات استطلاع تترصد أبناء قريش في منطقة الحجاز(٢).

---

(١) سعيد بن علي القحطاني: الجهاد في الإسلام مفهومه، وضوابطه، وأنواعه، وأهدافه في ضوء الكتاب والسنة، سلسلة مؤلفات سعيد بن علي القحطاني رقم (٦٠)، (ص٢٢)، وما بعدها.

(٢) صور من حياة الرسول في المدينة المنورة، (ص٤٨).

أولى السرايا، سرية عبيدة بن الحارث إلى مشارف الحجاز، وقد لقي جمعا من قريش فلم ينشب بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص من جنود السرية، رمى بسهم فكان أول سهم رمي به في الإسلام.

وقد اعتز به سعد فأنشد معتدا:

ألا هـل قد أتى رسـول الله أني ... حميت صحابتـي بصدور نبلي
فمـا يعتـدّ رام فـي عـدو ... بسـهم يـا رسـول الله مثلي[١]

بعد سرية عبيدة بن الحارث بعث النبي ﷺ سرية عمه حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر، في ثلاثين راكبا من المهاجرين، ثم تلتها سرية سعد بن أبي وقاص، فبلغت غايتها في أرض الحجاز، ثم عادت لم تلق كيدا[٢].

بعدها كانت سرية عبد الله بن جحش ـ ابن عمته ﷺ: أميمة بنت عبد المطلب. ومن هذه السرية اندلع الشرر الذي أوقد الضرام الكامن فتوهج مشتعلا على ساحة بدر[٣].

خرج عبدالله بن جحش في ثمانية من المهاجرين، في أوائل رجب من السنة الثانية للهجرة، ورجب من الأشهر الحرم التي لا يحل فيها قتال[٤].

وكانت أوامره ﷺ إلى ابن عمته أن يمضي بالسرية حتى ينزل بموضع (نخلة) ما بين مكة والطائف، فيترصد بها قريشا ويستطلع أخبارها.

وحدث في مرحلة من الطريق أن خرج سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ينشدان بعيرا لهما ضل، ثم تخلفا ولم يرجعا إلى منزل السرية، وبدا أن قريشا

(١) الحلبي: السيرة الحلبية (٢/٣٤٨)، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد (٤/١٥).
(٢) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٧٣)، ابن كثير: السيرة، (٢/٣٦١)، ابن هشام: السيرة، (٣/١٤٣).
(٣) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٧٣)، السهيلي: الروض الأنف، (٣/٣٨).
(٤) البيهقي في الدلائل، (٣/١٨).

أخذتهما على غرّة فأسرتهما. ومضى أمير السرية بمن بقي معه من المهاجرين حتى نزل بنخلة كما أمره ﷺ[١].

فمرت عير تجارية لقريش، فيها عمرو بن الحضرمي، وتحاشى المسلمون القتال حفاظا على حرمة الشهر الحرام. لكن تجنب الصدام مع المواجهة، لم يكن مستطاعا، وأطلق الصحابي واقد بن عبدالله سهما أصاب عمرو بن الحضرمي فقتله[٢].

وعندئذ فرت قريش من عيرها وقتيلها، وعن أسيرين منها. وعادت السرية الظافرة إلى المدينة بالمغانم والأسيرين، وهي ترجو أن يفتدى بهما سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان. غير أنها ما كادت تدخل المدينة حتى استقبلت بوجوم ذهب بفرحة النصر.

وقال ﷺ لابن عمته، أمير السرية: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». ثم أعرض ﷺ عما جاءت به السرية من مغانم، ونحّى الأسيرين القرشيين. فظن عبدالله بن جحش وأصحابه أنهم أثموا وهلكوا.

واشتد الصحابة من المهاجرين والأنصار في لومهم، ونقلوا إليهم ما تقول قريش في مكة: "لقد استحل محمد وأصحابه حرمة الشهر الحرام"[٣].

لقد استغلت قريش ما حدث في هذه السرية من قتل في الشهر الحرام استغلالاً بارعًا، بيد أنه لا يتفق والخُلق الكريم، فعمدت قريش إلى تشويه صورة الإسلام ونبي الإسلام والمسلمين أمام الرأي العام في الجزيرة العربية..

(١) ابن هشام (٣/١٤٦)، وما بعدها، وابن كثير، (٢/٣٦٦).
(٢) انظر: ابن كثير، (٢/٣٦٦)، وما بعدها، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٦/١٦).
(٣) انظر: ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، (١/٣٠٢).

فقَالَتْ قُرَيْشٌ: قَدْ اسْتَحَلّ مُحَمّدٌ وَأَصْحَابُهُ الشّهْرَ الْحَرَامَ! وَسَفَكُوا فِيهِ الدّمَ! وَأَخَذُوا فِيهِ الْأَمْوَالَ! وَأَسَرُوا فِيهِ الرّجَالَ! فرد المسلمون المستضعفون في مكة دفاعًا عن المعسكر الإسلامي وقالوا: إنّمَا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا فِي شَعْبَانَ.

وتحالف يهود المدينة إعلاميًا مع هذه الحملة الإعلامية المغرضة ضد المسلمين، وقالوا بكلام قريش، وتَوَقّعَ الْيَهُودُ بِالْمُسْلِمِينَ الشّرّ وَقَالَتْ يَهُودُ ـ تَفَاءَلَ بِذَلِكَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ: عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيّ، قَتَلَهُ وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ الله، عَمْرٌو، عَمُرَتْ الْحَرْبُ، وَالْحَضْرَمِيّ، حَضَرَتْ الْحَرْبُ، وَوَاقِدُ بْنُ عَبْدِ الله، وَقَدَتْ الْحَرْبُ. فَجَعَلَ الله ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لا لَهُمْ[١].

ونزلت الآيات الكريمة ترد الحملة، وتزبر الظلمة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٧-٢١٨].

نزلت هذه الآية تقرر حرمة الشهر الحرام، وتقرر أن القتال فيه كبيرة نعم! ولكن الصد عن طريق الله، والكفر به، واضطهاد الضعفاء وإخراجهم من بيوتهم بغير حق، هو أكبر عند الله. والفتنة أكبر من القتل.

إن المسلمين لم يبدأوا القتال، ولم يبدأوا العدوان. إنما هم المشركون. هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام، لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله.ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون.

(١) انظر: ابن هشام: السيرة، (٦٠٤/١).

"ولقد كفروا بالمسجد الحرام: انتهكوا حرمته؛ فآذوا المسلمين فيه، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عامًا قبل الهجرة، وأخرجوا أهله منه، وهو الحرم الذي جعله الله آمنًا، فلم يأخذوا بحرمته ولم يحترموا قدسيته..

وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام.. وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل.

وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين، فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام.. لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل.. وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يَحْتَمون خلفه، لتشويه موقف الجماعة المسلمة، وإظهارها بمظهر المعتدي.. وهم المعتدون ابتداء. وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء"[١].

ولا زال أعداء الإسلام يشنون حروبهم الإعلامية على الإسلام ونبيّه، فضللوا شعوب الغرب عن الإسلام ونبيه، ونشروا أشنع التصاوير التي يرسمها إنسان عن إنسان، واتهموا النبي ﷺ بالكذب والتطرف والصرع.

وبهذه الآيات استرد جنود السرية طمأنينة بالهم، وطاب لهم النصر على عدوهم، وأنشد عبدالله بن جحش[٢]:

تَعـدّون قتلا فـي الحـرام عظيمة ... وأعظم منه، لو يرى الرشـدَ راشد
صدودكـمُ عمّـا يقـول محمـد ... وكفـرٌ بـه، والله راءٍ وشـاهدُ
وإخراجكـم مِنْ مسـجدِ الله أهلَه ... لئـلا يُـرى لله فـي البيت سـاجد
فإنـا وإن عيرتمونـا بقتلـه ... وأرجـف بالإسـلام باغ وحاسـد
سَـقَينا من ابـن الحضرمي رماحنا ... بنخلةَ لمـا أوقد الحـرب واقد[٢]

(١) انظر: سيد قطب: الظلال، (١٠٦/١).
(٢) الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ! والثلاثة الخلفاء، (٩/٢).

صرف القبلة إلى الكعبة:

وفي ثنايا الضجة الإعلامية التي خلفتها سرية عبد الله بن جحش؛ نزل الأمر من الله تعالى في شعبان سنة العام الثاني من الهجرة بتحويل قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى المسجد الحرام.

لم يكن النبي ﷺ راضيا عن تلك القبلة الأولى (بيت المقدس) وطالما رنا في تأملاته إلى البيت العتيق يرجوه قبلة لأمّته، لكنه لم يكن يملك أن يغير قبلة المسلمين من تلقاء نفسه، فليس له إلا أن ينتظر أمر الله سبحانه وتعالى.

واستجاب الله لرسوله ﷺ فولّاه القبلة التي يرضاها، وصلى النبي ﷺ والصحابة في دار الهجرة، مستقبلين المسجد الحرام منذ نزلت آية البقرة، أُولى السور المدنية: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

ولم يمض هذا التحول الهامّ دون جدل من يهود: ذهب نفر من أحبارهم إلى النبي ﷺ يسألونه مساومين: يا محمد، ما ولّاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعْك ونصدقْك!

يا عجبًا لهؤلاء اليهود؛ لا ينعم لهم جارٌ أبدًا؛ إن تبعهم النبي ﷺ في قبلته؛ قالوا: مُقلد تابع، وإن خالفهم في قبلتهم، قالوا: كاذب.

وهنا نفهم صفة من صفات اليهود، وحقدهم الذي ظهر جليًا في هذه الحادثة. ولقد شنوا حربًا إعلامية ضارية في أعقاب هذه الحدث. ولقد فُتن ضعاف الإيمان كما فُتن إخوانهم في حادث الإسراء والمعراج..

وإن المتأمل لآيات تحويل القبلة؛ وهي ترد شبهات اليهود؛ يتبين له مدى ضراوة الحرب الإعلامية والفكرية التي شنها اليهود[1].

وتلا النبي ﷺ من وحي ربه وانصرف اليهود بغيظهم لم ينالوا شيئا بحيلتهم الماكرة ومساومتهم المكشوفة الكاذبة.

وقد أكد الله ـ عز وجل ـ الأمر بالتولية إلى الكعبة في هذه الآية التالية، فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٩].

فقد أفادت هذه الآية في وضوح وصراحة أن الحكمة التي أرادها الله من أمره المسلمين بالتوجه إلى الكعبة هي أن يقطع الحجة على هؤلاء الناس ـ وهم الذين أُوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ـ فلقد كان اليهود يقولون عن أوصاف الرسول المذكورة في التوراة: إنه يتحول إلى الكعبة، كانوا يقولون ذلك في الفترة التي كان النبي ﷺ فيها متجهًا إلى بيت المقدس.

ولذا كان اتجاه النبي ﷺ إلى الكعبة بعد ذلك مؤيدا لما كان مسطورا في كتابهم، وكان النصارى يقولون عنه ﷺ أيام توجّهه إلى بيت المقدس: ما باله يدّعي ملّة إبراهيم ويخالف قبلته؟

ولذا كان اتجاهه إلى الكعبة موجبًا لقطع حجتهم وملزمًا لهم بتصديقه والاعتراف بنبوته، ولكنهم جميعًا جحدوا الحق وتمادَوا في غيّهم وضلالهم.

وتسامع كفار قريش في مكة، بنبأ تحوّل المسلمين عن قبلتهم الأولى إلى المسجد الحرام، فلم يرضهم ما في هذا التحول من تأييد الزعامة الدينية لأم القرى وترسيخ حرمة البيت العتيق، بل أوجسوا في أنفسهم خيفة أن تكون مكة متجه الدعوة الإسلامية التي حسبوا أنها خرجت منها إلى يثرب، مع النبي ﷺ، والمهاجرين المكيين من صحابته.

(١) انظر ما كتبه الأستاذ سيد قطب في ربع، «سيقول السفهاء»، من المجلد الأول من الظلال.

وساورهم القلق وهم يحسّون نُذُرَ المواجهة المحتومة المتحدية، كلما حان موعد الصلاة خمس مرات كل يوم، فتمثلوا المسلمين هناك في دار هجرتهم يقيمون صلاتهم، وقبلتُهم المسجدُ الحرام في أم القرى [(١)].

لقد أكد تحويل القبلة، هذا الحدث الجليل؛ مبدأ وسطية هذه الأمة، فقد جمعت بين قبلتين عظيمتين، قبلة إبراهيم وأتباعه، وقبله موسى وإخوانه، فأمة الإسلامِ وسطٌ في الشكل. وسط في المضمون، وسطٌ في الشعائر، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [سورة: البقرة: ١٤٣]. أمةً وسطًا، فلم تسلك مسلك الغلوّ النصراني، ولم تسلك مسلك التقصير اليهودي.

ووسطية الأمة الإسلامية وسطية شاملة .. فهي وسط في الاعتقاد والفكر، ووسط في العبادات والمعاملات، ووسط في أنظمتها وتشريعاتها.

وفد نصارى نجران:

في هذا الوقت الذي اشتد فيه الجدال بين النبي ﷺ واليهود، وفد على المدينة وفد من نصارى نجران، عدتهم ستون راكبا؛ من بينهم من شَرُفَ فيهم، ودَرَس كتبهم، وحَسُنَ علمُه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرّفوه وموّلوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات.

ولعل هذا الوفد إنما جاء إلى مدينة النبيّ ﷺ حين علم بما بينه وبين اليهود من خلاف، طمعا في أن يزيد هذا الخلاف شدّة حتى يبلغ به العداوة، فيريح النصرانية المتاخمة في الشام وفي اليمن من دسائس اليهود وعدوان العرب.

---

(١) وقد وقعت حادثة تحويل القبلة بعد الهجرة بنحو ستة عشر شهرًا أو تزيد بقليل كما جاء بذلك في الأحاديث الصحيحة عند البخاري (٢/٢١٢)، ومسلم (١/٣٧٤)، وغيرها. ولذلك قلنا ما قلناه من قبل من ترك ذكر هذا السبب من أسباب تأسيس الدولة لتأخر وقته.

واجتمعت الأديان الثلاثة الكتابيّة بمجيء هذا الوفد، وبجداله النبيّ، وبقيام ملحمة كلاميّة عنيفة بين اليهودية والمسيحية والإسلام.

فأمّا اليهود فكانوا ينكرون رسالة عيسى عليه السلام ورسالة النبي ﷺ إنكارا فيه من العنت ما رأيت، ويزعم بعضهم أن عزيرا ابنُ الله.

وأمّا النصارى فكانوا يقولون بالتثليث وأُلوهية عيسى.

وأمّا النبي ﷺ فكان يدعو إلى توحيد الله، وإلى الوحدة الروحية، التي تنتظم العالم من أزله إلى أبده.

كان اليهود والنصارى يسألونه عمن يؤمن بهم من الرسل فيقول: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وكان ينكر عليهم أشدّ الإنكار كل ما يلقى أيّة شبهة على وحدة الله، ويذكر لهم أنهم حرّفوا الكلم مما في كتبهم عن مواضعه، وأنهم يذهبون إلى غير ما ذهب إليه النبيون والرسل الذين يقرّون لهم بالنبوة، وأن ما جاء به موسى وعيسى ومن سبقهم لا يختلف في شيء عما جاء هو به.

لأن ما جاؤا به إنما هو الحقيقة الأزليّة الخالدة التي تتكشّف في جلال وضوحها، وعظمة بساطتها لكل من نزّه نفسه عن الخضوع لغير الله في عظمة وحدته، متجردًا عن الخضوع الأعمى لأوهام العامة، ولما وجد عليه آباءه وأجداده.

مؤتمر الأديان الثلاثة:

أي مؤتمر أعظم من هذا المؤتمر الذي شهدت المدينة المنورة، تلتقي فيه الأديان الثلاثة التي تتجاذب حتى اليوم مصاير العالم، وتلتقي فيه لأسمى فكرة وأجلّ غاية!

لم يكن مؤتمرا اقتصاديّا، ولا كان مرماه أيَّ غرض من هذه الأغراض المادية التي ينطح عالمنا اليوم عبثا صخرتها؛ إنما كان مرماه غايةً روحية تقف من ورائها في أمر النصرانية واليهودية مطامع السياسة ومآرب أرباب المال وذوي الملك والسلطان.

ويقف فيه النبي ﷺ لغاية روحية إنسانية بحتة، يملي عليه الله في سبيلها الصيغة التي يلقي بها إلى اليهود والنصارى وإلى الناس كافة، يقول لهم فيها: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ماذا يستطيع اليهود أو يستطيع النصارى أو يستطيع غيرهم أن يقولوا في هذه الدعوة؟: ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئا، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله!

فأما الروح المخلصة الصادقة، وأما النفس الإنسانية التي كرّمت بالعقل والعاطفة فلا تستطيع إلا أن تؤمن بهذا دون غيره.

لكن في الحياة الإنسانية إلى الجانب النفساني جانبها المادي. الذي جعل أبا حارثة أكثر نصارى نجران علما ومعرفة يدلي إلى رفيق له باقتناعه بما يقول النبي ﷺ، فلما سأله رفيقه: فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا كان جوابه: يمنعني ما صنع بنا هؤلاء القوم؛ شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منّا كلَّ ما ترى.

دعا النبي ﷺ إلى هذه الدعوة، فأما اليهود: فكان بينه وبينهم عهد الموادعة، وأما النصارى: فلما لم يقبلوا الحجة أنّ مثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من غير أب ولا أم، طلب منهم المباهلة، إذ ذاك تشاور النصارى ثم أعلنوا إليه أنهم رأوا ألّا يلاعنوه وأن يتركوه على دينه ويرجعوا على دينهم.

ولكنهم رأوا حرصه ﷺ على العدل حرصا احتذى أصحابه فيه مثاله، فطلبوا منه أن يبعث معهم رجلا يحكم بينهم في أشياء اختلفوا عليها من أقوالهم. وبعث محمد معهم أبا عبيدة بن الجراح ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه.

غزوة بدر الكبرى:

بعد شهرين اثنين، في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، كانت غزوة بدر الكبرى التي وجهت مجرى الأحداث وحددت موازين القوى، لا بين الإسلام والوثنية فحسب، بل في كل صراع كذلك، بين حق وباطل! أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس في طريقه من الشام إلى مكة عائدا بعير قريش.. وصيحة تعلو في مكة: "يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أنكم مدركوها"[1].

وترد أصوات من هنا ومن هناك: "أيظن محمد وأصحابه أن تكون عير أبي سفيان كعير ابن الحضرمي؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك"[2].

وخرجت جموع قريش من مكة مزهوّةً بعددها وعدتها، تريد القضاء على المسلمين في دار الهجرة، وهي ترى الأمر هينا بسيطا، وكأنها خارجة في رحلة صيد.

ماذا كان من أمر المسلمين حين قال لهم الناس: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؟.

جمع النبي ﷺ صحابته من المهاجرين والأنصار، وعرض عليهم الموقف من مختلف نواحيه، ثم قال يطلب مشورتهم: «أشيروا عليَّ أيها الناس»[3].

(١) ابن كثير: "البداية والنهاية"، (٣/٢٥٦).
(٢) الطبري: تاريخ الرسل، (٣/٣١).
(٣) ابن هشام: السيرة، (٢/٢٥٧).

فقام أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، فتحدثا ما شاء لهما إيمانهما، عن الجهاد والثقة في النصر.

ثم قام المقداد بن عمرو ـ وكان خرج من قريش ولحق بالمسلمين في سرية عبيدة بن الحارث ـ ودنا من النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ بأقصى الجنوب ـ لجالدنا معك دونه حتى تبلغه.

دعا له النبي ﷺ بخير، ثم التفت ﷺ إلى الأنصار ولم يكن أحد منهم قد تكلم بعد، وعاد يقول: «أشيروا علي أيها الناس».

سأل نقيبُهم سعد بن معاذ ـ أحد السعدين: "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟".

أجاب ﷺ: «أجل».

فقال سعد: "فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك. فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غدا، إنا لصُبُر في الحرب صُدُق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينُك، فسِرْ بنا على بركة الله"[1].

ولعلك ترى حرص النبي ﷺ على أن يستشير أصحابه، وأن يعلم موقفهم من القتال، ليقول فيه قوله الأخير، وهذا الحرص منه ﷺ على استشارة أصحابه في الغزوات يدل على تأكيد أهمية الشورى في الحروب بالذات؛ ذلك لأن الحروب تقرر مصيرَ الأمم، فإما إلى العلياء، وإما تحت الغبراء[2].

(١) البيهقي: دلائل النبوة، (٣/٤٣).
(٢) أبو فارس: غزوة بدر الكبرى، (ص٣٧).

في هذا الحوار الرائع يكشف النبي ﷺ عن سنّة الشورى مع أصحابه، فهم سيخرجون إلى القتال، ولا بد أن يكونوا مستعدّين لذلك، وقد اجتذب أهلَ المدينة إلى ذلك بأسلوبه الرقيق «أشيروا عليّ أيها الناس».

وهذا ما جعل سعد بن معاذ رضي الله عنه يفطن إلى أنه ﷺ يريد الأنصار خاصة في هذا الموقف، فكان جوابه البليغ المعبّر الذي على إثره خرج المسلمون مهاجرين وأنصارًا إلى المعركة، ما عدا نفرًا قليلًا تخلفوا لأن الخروج لم يكن عزيمة ولا كان القتال متوقعًا.

وهنا يجدر بنا أيضًا أن نقف وقفة إعجاب وتقدير، فإن عظمة الجنود إنما تتركز على أساس من عظمة القائد، ولقد كان ﷺ يقود أصحابه إلى ميدان الجهاد مستضيئًا بهدي القرآن وتعاليم الإسلام التي تَعِدُ المجاهدين في سبيل الله إحدى الحسنيين، وتبشر الشهداء بالحياة السعيدة الخالدة.

حيث يقول الله ـ عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠].

ومن أجل ذلك نجحت تلك القيادة الرشيدة وسادت حتى علا لواء الإسلام في كل مكان، وانسابت كلمة الحق بين الأمم تُحيِي مَوات الأنفس والأرواح والقلوب، وإن في ذلك لعبرة.

ثم مضى ﷺ وأصحابه في طريقهم وقد أشرق وجهه ﷺ بالمسرّة؛ لما رأى من قوة إيمان المسلمين، وقال لهم: «سيروا وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى لطائفتين[1]، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

(١) قافلة أبي سفيان، أو من خرج من مكة لنصرته.

وهكذا ظلّوا سائرين حتى نزلوا بعُدْوَةِ الوادي الدنيا، أي القريبة إلى المدينة، وقد صدق الله وعده، فالتقى المسلمون بإحدى الطائفتين، وهي الطائفة القوية ذات الشوكة، مع أنهم كانوا يريدون غير ذات الشوكة، وهي العير، ولكن الله أراد لهم أن يلتقوا بالنفير، وهو الجيش الكبير الذي نفر لإنقاذ العير، وكان ذلك لحكمة جليلة أرادها الله وسجلها في محكَم كتابه.

حيث قال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

وكان الحباب بن المنذر بن الجموح خبيرًا بهذه الأمكنة التي نزل فيها المسلمون، فلما رأى الموقع الذي استقر فيه المسلمون لم يرق في نظره ولم يطمئنَّ إليه، فقال للرسول ـ ﷺ: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزَلَكهُ الله، فليس لنا أن نتقدّمه أو نتأخرَ عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل. فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزل، ثم نغوّر[١] ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، وحينئذٍ فكر الرسول ﷺ، فاقتنع بهذا الرأي السديد، وأعلن أمام المسلمين أنه قد نزل على رأي الحباب، وأن في ذلك الحكمة والصواب.

وهنا ـ أيضًا ـ ينبغي أن نقف وقفة إعجاب وإكبار، فلم يكن النبي ﷺ مستبدا برأيه، ولا راكبًا متن الغرور، بل كان يتشاور مع أصحابه كي يتلمس وجه الخير والرشاد عملًا بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩][٢].

(١) نخرب ونتلف ونعكر.
(٢) يعني في الأمور الاجتهادية، والغالب أن ذلك لا يكون من اختلاف التعارض، وإنما التنوع.

وكان يحترم الرأي الصائب وينفذه ولو تعارض مع رأيه، فهل يكون في ذلك للناس عبرة وتبصرة؟.

إن القادة والرؤساء كثيرًا ما يعميهم التعصب الممقوت، والاستبداد بالرأي، فينزلقون إلى الشر، ويجرّون وراءهم الأمم والشعوب إلى مَهاوي الفناء، ولو استطاع هؤلاء القادة والرؤساء السادرون في عماية الكبرياء والأنانية أن ينتفعوا بهذا الدرس العملي من المربي الأول ﷺ، وبغيره من الدروس التي ألقاها الزعماء والصالحون على الإنسانية، لتَغيّر مجرى التاريخ في كثير من الأزمنة والعصور.

ولما نفذوا رأي الحباب وبنوا الحوض، قال سعد بن معاذ: يا نبي الله، نبني لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك.

وقد أثنى الرسول ﷺ على سعد ودعا له بخير، ولأنه قدر الظروف وعرف أن مكان القائد هو الإشراف والتوجيه، فلا ينبغي أن يتعرض للأخطار، لأن في حياته حياة الأمة وكيانها وكرامتها، ثم بني العريش للقائد العظيم ﷺ حتى يكون في مأمن من العدو إذا لم يكن النصر في جانب المسلمين، وهكذا الإخلاص والإيثار: إخلاص الجندي الأمين لقائده الأمين، وإيثار المؤمن لنبيه على نفسه[١].

وبمثل هذا الإخلاص والإيثار مَنَّ الله على المسلمين، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، وإن في ذلك لعبرة.

(١) ابن كثير: البداية، (٣/٢٧٧).

www.almoslih.net

ثم أرسل النبي ﷺ ثلاثة من قادة المهاجرين؛ وهم: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من الصحابة إلى ماء بدر، فوجدوا غلمانًا يستقون لجيش مكة، فأسَرُوهم وجاءوا بهم والرسول ﷺ يصلي، فقالوا: نحن سُقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهم فضربوهم، فقالوا: نحن لأبي سفيان، ونحن في العير، فأمسكوا عنهم.

فسلم رسول الله ﷺ وقال: «إن صدقوكم ضربتموهم وإذا كذبوكم تركتموهم»، ثم أقبل عليهم يسألهم، فأخبروه أن قريشًا خلف هذا الكثيب، وأنهم ينحرون يومًا عشرًا ويومًا تسعًا، وأعلموه بمن خرج من مكة، فقال ﷺ: «القوم ما بين الألف والتسعمائة»، وقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»(١).

يا لروعة أخلاق هذا القائد العظيم، فلم تكن حالات الحرب والقتال لتُخرجَ القائد العظيم ﷺ عن أخلاقه السامية، وعن رحمته التي يَتَحَلَّى بها حَالَ السِّلْم؛ لذا فقد كان يرحم الغِلمان، وصغار السن الذين لا يملكون أمرهم، ويأتون للحرب ضد المسلمين، أو لمعاونة سادتهم رغم أن تلك المساعدة هي من صميم أعمال الحرب، لكنه ﷺ كان يرحمهم.

ومع أن هذين الغلامين اللذين ضُرِبَا من الجيش الْمُعَادِي ـ جيش المشركين ـ ويُمِدَّان الجيشَ بالماء، إلا أنّه ﷺ عاتَبَ صحابته الكرام لأجلهما، وأنكرَ عليهم ضربهما؛ بَلْ إنّه لم يتخذهما أسيرَين مع أن الحرب على الأبواب، ومع أنهما قد يحملان بعض الأخبار إلى العدو، ولكنّه رَحِمَ صِغَرَ سِنِّهِمَا وضَعْفَهما.

ثم لمح قريشا تندفع من وراء كثيب هناك. هادرة بزئير الوعيد، ثَمِلَةً بنشوة الغرور ومتعة الصيد، فرفع ﷺ وجهه إلى السماء وقال يدعو ربه: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادّك وتكذّب رسولَك. اللهم فنصرَك الذي وعدتني، اللهم أَحِنْهُم الغداة».

(١) المقريزي: إمتاع الاسماع، (١/٩٧).

كم كان عدد المشركين الزاحفين من مكة؟ ألف مقاتل، وهم كاملو العدة والسلاح أو يزيدون، ومعهم مائة فرس مدربة على القتال. واتجاههم، بالعدوة الدنيا.

وكان جنود النبي ﷺ من حزب الله: ثلاثمائة وأربعةَ عشرَ، لا يزيدون: من المهاجرين ثلاثة وثمانون، ومن الأوس واحد وتسعون، ومن الخزرج مائة وأربعون. ومعهم من الخيل ثلاثة أفراس فحسب!.

استضعف المشركون جند الإسلام، فتقدم أحد صناديدهم في صَلَفٍ وخيلاء، يريد أن يقتحم عسكر المسلمين إلى ماء بدر، فلم يمهله حمزة بن عبدالمطلب، فسقط مضرجا بدمائه دون بدر(١).

واستكبر طواغيت قريش أن يخوضوا معركة مع هذه القلة المستبسلة: إن انتصروا عليها ضاع النصر في ميزان فقدان التكافؤ، وإذا هزموا قضت عليهم الهزيمة بعار الدهر وكانوا سُبَّةً في العرب.

وبدا لكبيرهم عتبة بن ربيعة، فخرج من صف المشركين يختال بين أخيه شيبة عن يمينه، وابنه الوليد عن يساره، وسأل في استخفاف: هل من مبارز؟ فخرج إليه ثلاثة من الأنصار، زهد في مبارزتهم عندما سألهم من يكونون فعرّفوه بنسبهم في بني قيلة.

قال: «مالنا بكم حاجة»! ثم نادى: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فأخرج إليه ﷺ ثلاثة من صميم البيت الهاشمي القرشي: عمه، حمزة بن عبد المطلب، وابني عمه: علي بن أبي طالب، وعبيدةَ بن الحارث(٢).

ولم تطل المبارزة، وسقط عتبة بن ربيعة، وشيبة أخوه، وابنه الوليد بن عتبة، صرعى مجندلين على ساحة بدر! عندئذ تزاحف الناس وحميَت المعركة، فأخذ ﷺ براحته حفنة من حصباء بدر، قذف بها عسكر المشركين وهو يقول: «شاهت الوجوه»(٣).

(١) ابن هشام: السيرة، (٣/٢٩٢).
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢/٤٢٠).
(٣) المصدر السابق، (٣/١٧٤).

www.almoslih.net

وأخذ القائد العظيم ﷺ ينظم صفوف المقاتلين من المسلمين، ثم أعلن بدء المعركة بهذه الكلمة القوية المؤمنة: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتلَ صابرًا محتسبًا، مقبلًا غيرَ مدبر، إلا أدخله الله الجنة».

ثم التفت ﷺ إلى جنده فقال: «شُدّوا»! وشَدّوا على المشركين فما تركوهم إلا بين قتيل وأسير، وهارب يشتري النجاة بعار الفرار.

ولا ريب أن الكلمة المؤمنة إذا صادفت القلوب المؤمنة كانت كالغيث الهَتُون، يصيب الأرض النقية الطيبة، فيُنبت فيها الخير الكثير...

فلم يكد المسلمون المؤمنون يسمعون هذه الكلمة من نبيهم ﷺ، حتى نسوا الدنيا بما فيها من سعادة ونعيم، حتى إن أحدهم ـ وهو عمير بن الحمام ـ كان يأكل بعض تمرات فألقاها، لأنه آثر عليها تمر الجنة، وكأنما يراه بعينيه ويلمسه بيديه، وينطلق مسرعًا للقتال، لكي يحظى بنعمة الاستشهاد في سبيل الله، وهو ينشد بقلبه ولسانه:

ركضًا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضةُ النفاد
غير التقى والبر والرشاد[1]

وظل يقاتلهم ويقتل منهم ما شاء الله أن يقتل، حتى قُتل في سبيل الله، فشفى الله صدرَه بالجهاد، وحقق له نعمة الاستشهاد، وهكذا:

تردَّى ثياب الموت حمرًا فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

وصدق الله وعده ونصر من نصروه، وألقى الرعب في قلوب عدوهم فذهبوا عبرة ومثلا. وانتصر الحق بفضل الله وعلا لواؤه، ولاذ الباطل بالفرار وقد أفل

(١) أسند ذلك ابن جرير وغيره كما في «البداية»، (٣/٢٧٧).

نجمه وطاش سهمه، وعاد الجيش الظافر إلى المدينة بالأسرى والمغانم. وعادت فلول المشركين إلى مكة بالهزيمة والذل[1].

أحصى ابن هشام في السيرة النبوية قتلى قريش في بدر سبعين رجلا، وبلغ أسراهم نحو ذلك العدد، فكانوا سبعين أسيرا والباقون من الجيش المغلوب لاذوا بالفرار[2].

أما المسلمون فاستشهد منهم يوم بدر أربعةَ عشرَ شهيدا: ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، بذلوا أنفسهم فداء عقيدتهم؛ فذهبوا بمجد الشهادة وشرف الجهاد وثواب الآخرة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

الغنائم والأسرى:

استشار النبي ﷺ بعد أن أتم الله عليهم النعمة بالنصر، في أمر الأسرى من مشركي قريش، وكان عددهم سبعين أسيرًا ..

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك، فاضرب أعناقهم فهم رءوس الكفر وأئمة الضلالة .. ووافقه على ذلك جماعة من الصحابة..

وقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله: هؤلاء أهلك وقومك، وقد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، وإني أرى أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام فيكونوا لنا عضدًا. ووافق على الرأي كذلك جماعة من الصحابة.

(١) انظر: الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/٣٥).
(٢) ابن هشام: السيرة، (٣/٢٩٢).

www.almoslih.net

وقد تلطف ﷺ، مع صاحبيه الكريمين أبي بكر وعمر، يضرب لهما أمثلة من الملائكة والأنبياء.

فأما أبو بكر: فمثلُه في الملائكة كمثَلِ ميكال ينزل برضا الله وعفوه عن عباده.

ومثله في الأنبياء كمثل إبراهيم كان ألْيَنَ على قومه من العسل، قدّمه قومُه إلى النار وطرحوه فيها، فما زاد على أن قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وكمثل عيسى إذ يقول: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وأما عمر ﷺ: فمثله في الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله.

ومثله في الأنبياء كمثل نوح إذ يقول: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

وكمثل موسى إذ يقول: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وأما الحديث في استشارة النبي ﷺ لأصحابه، وقول أبي بكر وعمر، فقد جاء بسياقات مختلفة، لكنها متقاربة المعنى، وعن جماعة من الصحابة.

ثم أخذ محمد ﷺ برأي أبي بكر وترك رأي عمر، وقَبِل الفداء من الأسرى، وقال لأصحابه: «لا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء».

فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٧-٦٨].

وكان ذلك عتابًا من الله لرسوله وتبيانًا للمنهج القويم الذي كان يجب أن يسير عليه.

وبعدُ، فقد كانت غزوة بدر درسًا عمليًّا، تجلّت فيه ثمرة الإيمان، فنصر الله المسلمين وهم قلة، لأنهم آمنوا بالله وأخلصوا الإيمان، وخذل المشركين وهم كثرة، لأنهم حادّوا عن الحق وابتعدوا عن الإيمان. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

الموقف من الأسرى:

بينما المسلمون في طريقهم إلى مكة قتل من الأسرى رجلان: أحدهما النّضر بن الحارث، والآخر عقبة بن أبي معيط. ولم يكن ﷺ، ولا كان أصحابه إلى هذه اللحظة قد وضعوا للأسرى نظاما يكون على مقتضاه قتلهم أو فداؤهم أو استرقاقهم. لكن النضر وعقبة كانا شرّا مستطيرا على المسلمين أيام مقامهم بمكة، وكانا لا ينفكان عن إيصال أنواع الأذى لهم.

لقد قُتل النّضر حين عَرْضِ الأسرى على النبي عليه السلام عند بلوغهم الأثيل، فقد نَظر إلى النضر نظرةً ارتعد منها وقال لرجل إلى جنبه: محمد والله قاتلي! لقد نظر إليّ بعينين فيهما الموت.

قال الذي إلى جنبه: ما هذا والله منك إلا رعب.

وقال النضر لمصعب بن عمير؛ وكان أقربَ مَن هناك به رَحِمًا: كلِّمْ صاحبك أن يجعلَني كرجل من أصحابه، فهو والله قاتلي إن لم تفعل.

فكان جوابُ مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه كذا وكذا، وكنت تعذّب أصحابه.

قال النضر: لو أسرَتْك قريشٌ ما قتلَتْك أبدا وأنا حيّ.

قال مصعب: والله إني لأراك صادقا، ثم إني لست مثلك، فقد قطع الإسلام العهود.

وكان النضر أسير المقداد، وكان يطمح أن ينال افتداء أهله إياه مالا كثيرا. فلما رأى الحديث حول قتله صاح: النضر أسيري.

قال النبي عليه السلام: «اضرب عنقه، واللّهمّ أغنِ المقداد من فضلك». فقتله عليّ بن أبي طالب ضربا بالسيف.

عقبة: فمن للصِّبْيَةِ يا محمد؟!

قال: النار. وقتله عليّ بن أبي طالب أو قتله عاصم بن ثابت، على اختلاف في الرواية.

وقبل أن يصلَ النبي ﷺ والمسلمون المدينة بيوم وصلها رسولاه زيد بن حارثة وعبدُ الله بن رواحة، ودخل كل واحد من ناحية منها.

فجعل عبد الله ينادي على راحلته يبشر الأنصار بنصر رسول الله وأصحابه، ويذكر لهم من قتل من المشركين.

وجعل زيد بن حارثة يصنع صنيعه وهو ممتطٍ القصواءَ ناقةَ النبي ﷺ.

وسرّ المسلمون واجتمعوا وخرج من كان منهم في داره، وانطلقوا يهلّلون لهذا النصر العظيم.

أما الذين بقوا على الشرك، واليهودُ، فقد كبتوا لهذا النبأ، وحاولوا أن يُقنعوا أنفسهم، وأن يقنعوا الذين أقاموا في المدينة من المسلمين بعدم صحته، فصاحوا: إن محمدا قُتل وأصحابه هزموا، وهذه ناقته نعرفها جميعا، لو أنه انتصر لبقيت عنده، وإنما يقول زيد ما يقول هذَيَانا من الفزع والرعب.

لكن المسلمين ما لبثوا حين تثبتوا من الرسولين واطمأنوا إلى صحة الخبر أن زاد بهم السرورُ لولا حادثٌ طرأ خفف من سرورهم.

ذلك الحادث هو موت رقية بنتِ النبي ﷺ، وكان قد تركها عند ذهابه إلى بدر مريضة، وترك معها زوجها عثمان بن عفان يمرّضها.

ولما أيقن المشركون والمنافقون بنصر النبي ﷺ أُسقِطَ في أيديهم، ورأوا موقفهم من المسلمين قد أصبح موقف هوان ومذلة.

حتى قال أحد زعماء اليهود: بطن الأرض اليومَ خير من ظهرها، بعد أن أصيب أشراف الناس وسادتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن.

ودخل المسلمون المدينة قبل أن يدخلها الأسارى بيوم، فلما جيء بهم، ورجعت سودةُ بنت زمعة زوجُ النبيّ ﷺ من مناحة ابني عفراء وكانت بها، رأت أبا يزيد سهيلَ بن عمرو أحد الأسرى، مجموعةً يداه إلى عنقه بحبل، فلم تملك نفسها أن توجّه إليه الكلام قائلة: أي أبا يزيد! أسلمتُم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم، ألا متم كراما!

فناداها! من البيت: يا سودة! أعلى الله عزّ وجل وعلى رسوله تحرّضين! فأجابت: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت.

أقبل الأسارى بعد دخول النبي ﷺ المدينة بيوم، ففرقهم النبي ﷺ بين أصحابه، وأمرهم بحسن معاملاتهم حتى ينظر في أمرهم، قال لهم: "استوصوا بهم خيرًا"(١).

وبهذا التوجيه الكريم منه ﷺ عاملَ الصحابةُ رضوان الله عليهم أسارى بدر. وظهر تحقيق قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

(١) مجمع الزوائد، (٦/٨٦)، وقال: رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن.

وقد روى المشركون أنفسُهم ذلك، حيث روت كتب السيرة: أن أبا عزيز ابنَ عمير أخا مصعب بن عمير قال: «كُنْتُ فِي الأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اسْتَوْصُوا بِالأُسَارَى خَيْرًا، وَكُنْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَكَانُوا إِذَا قَدِمُوا غَدَاءَهُمْ أَوْ عَشَاءَهُمْ أَكَلُوا التَّمْرَ، وَأَطْعَمُونِي الْخُبْزَ بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِيَّاهُمْ»(١).

وجاءت كل عشيرة قرشية تفتدي أسراها، وكان أبو الْعَاصِ بْنُ الرَّبِيعِ ـ زوج زينب بنت محمد ﷺ ـ بين الأسارى، وكان الإسلام قد فرق بينه وبين بنت رسول الله ﷺ وأرادت زينب ـ الوفية بنت الوفية ـ أن تنقذ زوجها من الأسر، علّها تَرد له يدًا من أياديه البيضاء، أو يشرح الله صدره للإسلام.

وبينا الناسُ يتوافدون على النبي ﷺ كلٌّ يدفع الفداء لقاء قبض أسيره؛ إذ بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بمالٍ وبعثت فيه بقلادة لخديجة، كانت أَدخلتها بها على أبي العاص.

وجيء بالمال والقلادة إلى رسول الله ﷺ، لإطلاق أبي العاص، فلما وقعت عينا رسول الله ﷺ على قلادة خديجة، رَقّ لَهَا رِقَّةً شَدِيدَةً، وَقَالَ ـ يستسمح أصحابه ـ:

«إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا، وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا مَالَهَا، فَافْعَلُوا» فَقَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله. ففعلوا(٢).

لقد أثارت قلادة خديجة في نفس رسول الله ﷺ الذكريات، فكأنما هب إليه من إطار هذه القلادة أريجٌ تنفَّسته خديجة، فحرك القلب الرحيم، بعدما كاد أن يقر بعد رحيل الحبيبة الكريمة، تلك المرأة التي حار رسول الله ﷺ في فضلها رق لها. ولِـمَ لا؟ فهي قلادة لامست يومًا نَفَسَ خديجة التي أعطته كل شيء نفسها وجهدها ومالها وبيتها، وتركت له كل شيء، ولم تمتنّ عليه بشيء.

(١) الطبراني في الصغير، برقم (٤٠٩).
(٢) انظر: ابن هشام، (١/٦٥٢) "بتصرف".

ورق لها، رقة شديدة، فأوشك أن يرسل عَبرة حارة من عينيه الكريمتين، بيد أن العَبرة لم تسل على الخد إنما سالت إلى القلب، فأحس الناظرون بحرارتها في رقته الشديدة هذه. وأشفقوا عليه. وشرع يستنزل فيهم الكرم، ويستسمح أصحابه ـ وهو الكريم الأكرم ـ أن يطلقوا لزينب أسيرها..

ثم إنه في أدب جمٍّ، وخلُق سَجْح، يُخيرهم في ذلك ويكل إليهم القرار، ولو شاء أمرهم، فقال: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا، وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا مَالَهَا، فَافْعَلُوا».

وبعدُ، فقد كانت غزوة بدر درسًا عمليًّا، تجلت فيه ثمرة الإيمان، فنصر الله المسلمين وهم قلة، لأنهم آمنوا بالله وأخلصوا الإيمان، وخذل المشركين وهم كثرة، لأنهم حادُّوا عن الحق وابتعدوا عن الإيمان ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وفود التهنئة:

واصل النبي ﷺ سيره إلى المدينة، حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بهذا النصر المؤزر، وجعل كثير منهم يعتذر عن عدم الخروج معه، لأنهم لم يتوقعوا أن تكون موقعة حربية بين المسلمين والكفار، ولكنها كانت عملية من عمليات الاستنزاف مثل سابقاتها.

ومن هؤلاء: أسيد بن الحضير الأنصاري، حيث قال للنبي ﷺ: "يا رسول الله، الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك! والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر، وأنا أظن أنك تلقى عدوا، ولكن ظننت أنها عير، ولو ظننت أنها عدو ما تخلفت. فقال رسول الله ﷺ: صدقت"(١).

وكلما اقترب من المدينة أقبل المسلمون على رسول الله ﷺ يهنئونه.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢/٤٧٢).

ومن الطرائف التي رويت في هذا الصدد: أنّ أحد الصحابة من الأنصار وهو سلمة بن سلامة قال لهم: ما الذي تهنئوننا به؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صُلْعًا كالبُدْنِ المعقّلة، فنحرناها..

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: أي ابن أخي، أولئك الملأ. أي إنهم أشراف القوم وسادتهم، فلا ينبغي التقليل منهم، ولا ببلائهم في القتال.

وواصل النبي ﷺ سيره إلى المدينة، فدخلها قبل الأسارى بيوم، وكان دخوله ﷺ من ثنية الوداع، وهي المكان نفسه الذي دخل منه وهو مهاجر، وكان ذلك يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهر رمضان، فاستقبله أهل المدينة بالفرح الشديد، وضربت الولائد بالدفوف بين يديه وهنّ يرددن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

حملات الرَّدعِ بعد بدر

دواعي حملات الردع:

كانت حملات الردع التي قام بها المسلمون بعد غزوة بدر لها أسباب كثيرة ومتعددة، فقد كانت هناك جهات كثيرة قد أقلقها هذا النصر الساحق للمسلمين، فباتت تعدُّ العدة للتقليل من هيبة المسلمين، خوفا من تنامي هذه القوى الجديدة في المنطقة، وحفاظا على مصالحها الاقتصادية وتحالفاتها مع قريش، وأهم هذه القوى التي حاولت أن تدخل في صدام مسلح مع المسلمين، ما يلي:

(١) القوى القرشية:

لقد أحدثت الهزيمة النكراء التي مني بها المشركون في غزوة بدر رجّةً عنيفة في نفوس أهل مكة، وزلزلت من مكانة قبيلة قريش في نفوس العرب، وانتشر دويّ هذه الهزيمة في أرجاء الجزيرة العربية، وكان لهذا الدويّ الشديد وقعٌ أليم في نفوس المشركين؛ مما أدى إلى شعورهم بخيبة الأمل والعار؛ مما بات يهدد مكانتها الأدبية بين العرب.

فإن من شأن تلك الهزيمة أن تجرّئ عليها القبائل التي كانت تنظر إلى منطقة مكة، وقبائلِ قريش بعين الهيبة والإجلال[(١)]، لأنهم أهل حرم الله وسدَنةُ بيته.

ومن هنا كان لزاما على هذه القبائل القرشية أن تقوم ببعض الأعمال الحربية التي تستعيد بها مكانتها بين العرب؛ لتخفف من وقع تلك الهزيمة المنكرة،

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (٢/٢٥٨).

وآثارها السيئة، ما أمكن ذلك، سواء أتمّت عن طريقها مباشرة، أم عن طريق تحريض بعض حلفائها للتحرش بالمسلمين والنَّيل منهم بأي طريق.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف لجأت إلى بعض المناوشات الحربية السريعة؛ لإيقاع الذعر في نفوس المعسكر الإسلامي، وإفساد فرحته بالنصر الساحق الذي حقّقه، مع العمل الدؤوب أيضًا للإعداد لمعركة فاصلة، يثأرون فيها لهزيمتهم النكراء[1].

ولكن هذه المناوشات جميعا كانت وبالا على قريش، وأضعفت من هيبتها أكثر، إذ لم تستطع أن تحقق منها ما تريد من فساد وإفساد في صفوف المجتمع المسلم، ولكنها مُنِيت بالفشل الذريع في كل محاولاتها، مما أجبرها على عمل عسكري آخر، كانت تعد له منذ عودتها تجر أذيال الهزيمة إلى مكة، ألا وهو غزو المسلمين في مدينتهم، كما سيأتي في سياق الحديث وتسلسل الأحداث.

وقد قام كفار قريش بمحاولة اغتيال النبي ﷺ، وذلك عندما اتفق صفوان بن أمية بُعيد غزوة بدر مع عمير بن وهب الجمحي، أن يخرج عمير إلى المدينة محاولاً قتلَ النبي ﷺ، فأمسك به عمر بن الخطاب حين رآه داخلاً المدينةَ، وجاء به إلى النبي ﷺ، فلما رآه، وعمرُ آخذٌ بحمّالة سيفه، قال: أرسلْه يا عمر، ودار هذا الحوار البديع الهادئ، الذي أسلم عمير في نهايته.

قال النبي ﷺ: ادنُ يا عمير، فدنا، ثم قال: أنعموا صباحًا، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم.

فقال رسول الله ﷺ: قد أكرمَنا اللهُ بتحية خير من تحيتك يا عمير؛ بالسلام تحية أهل الجنة.

(١) منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، (ص٣٥٤، ٣٥٥). مكتبة المنار، ط٣، الأردن ١٤١١هـ=١٩٩٠م.

قال: أما والله يا محمد إن كنتُ لحديث عهد بها.

قال: ما جاء بك يا عمير؟

قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه.

قال: فما بالُ السيف في عنقك؟!

قال: قبّحها الله من سيوف! وهل أغنت شيئًا!

قال: اصدقني بالذي جئت لـه.

قال: ما جئت إلا لذلك.

فقال ﷺ: بلى، قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلتَ: لولا دَين عليّ وعيالي لخرجتُ حتى أقتل محمدًا؛ فتحمّل لك صفوان بدَينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله عز وجل حائل بيني وبينك.

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله؛ قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي؛ وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان؛ فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله؛ فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهّد شهادة الحق؛ فقال رسول الله ﷺ: فقهّوا أخاكم في دِينه، وأقرئوه وعلموه القرآن، وأطلقوا له أسيره[1].

إن هذا المشهد يكشف بعض ملامح الخلق النبوي العظيم، ويبين كيف يقنع الخصم بكلمات قلائل، وكيف يعفو عند المقدرة، إنه عفو لن نجد له مثيلاً في حياتنا المعاصرة التي تحاسب على خلجات النفوس وفلتات اللسان، وتقتل

(١) الطبري: تاريخ الرسل، (٢/٤٧٣-٤٧٤)، بقليل من التصرف في اللفظ، وابن هشام: السيرة النبوية، (٢/٤٨٧) وما بعدها، والقليب: البئر الذي دفن فيه المسلمون قتلى قريش يوم بدر.

www.almoslih.net

بالشبهة والظن، وليس من مفرداتها العفو عند المقدرة والمسامحة، ولذا كثر الخلاف والنـزاع والقتل والدمار.

إن العالم اليوم في حاجة إلى التعلم من هذا النبع النبوي الشريف الصافي، والمسلمون اليوم في حاجة إلى التعامل مع الخصوم بمثل هذا الخلق النبوي الجميل، شريطة أن تحميه القوة اللازمة حتى لا يُعدّ من باب الضعف.

٢ القبائل العربية الواقعة على الخط التجاري (مكة/الشام):

لم تكن قبائل قريش فقط هي التي شعرت بالخوف على المكانة الأدبية والاقتصادية بعد هذا النصر للمسلمين، فقد شعرت كل القبائل العربية على طول الطريق التجاري بين مكة والشام بالخطر الداهم على تلك المصالح.

فقد كانت كل تلك القبائل تستقبل قوافل مكة في طريقها ذهابا وإيابا، وتقوم بينهما علاقات تجارية وسيطة وسريعة في الطريق، ومن شأن تلك الحرب أن تهدد هذه المصالح التجارية لهذه القبائل.

ومن هنا فإن هذه القبائل تحالفت مع قبائل مكة لزعزعة الاستقرار في المدينة، من خلال بعض المناوشات الحربية التي تشنها على المدينة، ولقد فشل هؤلاء أيضًا في كل حملاتهم تلك، فلم يترك لهم النبي ﷺ ليقوموا بأي عمل من هذه الأعمال.

٣ قبائل اليهود:

لم تستطع فرق من اليهود، بعد أن رأوا أن الله قد نصر نبيه والمؤمنين معه نصرًا مؤزّرًا في بدر، وأيقنوا أن المسلمين قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة في القلوب، وأن سُمعتَهم بين العرب آخذةٌ في الصعود والتنامي، فلم يرق لهم هذا الأمر، ولم يستطيعوا كتمان ما هم عليه من الغيظ والهمّ لهذا النصر، فباتت تنفلت منهم أعمال شغب وأقوال دعائية تكشف عن مكنون صدورهم من الشر والعداوة للإسلام والمسلمين.

وكان النبي ﷺ يستمهلهم ويصبر عليهم حتى جاهروا بالبغي والأذى، وأعلنوا العداوة والكيد للمسلمين غرورا منهم بقوتهم، وحسدا للمسلمين على ما أنزل الله بهم من النصر[1]، فكان لِزاما والحال هذه أن يبرز إليهم النبي ﷺ ليشفي هذا المرض اللعين الذين لا دواء لهم منه إلا بالخروج من المدينة.

وكان كعب بن الأشرف من أكثر هؤلاء اليهود حقدا على الإسلام والمسلمين وأعظمهم شرًا وإثارة للفتنة، وتأليبا للقبائل العربية على المدينة، ومعينا لها على طلب الثأر منه ﷺ وأصحابه، بل استئصال شأفتهم، وسيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن سبب مقتله.

ومنهم أيضًا عصماء بنت مروان التي كانت تحرض على النبي ﷺ وتعيب الإسلام.

وأبو عفك اليهودي الذي كان يثير الفتن، ويحرض على رسول الله ﷺ، ويهجو المسلمين بشعره، وقد نال هؤلاء جميعا جزاءهم الأوفى كما سيمر بنا عند تفصيل هذه الحملات.

٤ قطاع الطرق من الأعراب المحيطين بالمدينة:

وهناك صنف رابع كان يمثل خطرا كبيرا أيضًا على المدينة المنورة، وهم طائفة من الأعراب القاطنين حول المدينة، وقد اعتاد هؤلاء حياة السلب والنهب والإغارة على المقدرات، وقطع الطريق على القوافل طلبا للمال، ولا علاقة لهذه الطوائف بمسألة الكفر والإيمان.

فهم لا يجيدون إلا أعمال السلب والنهب؛ وقد استبد بهم القلق بعد أن انتصر المسلمون في بدر، وأصبحت لهم قوة مركزية وقيادة منظمة تحمي أطراف المدينة من شرورهم.

(١) محمد أبو شهبة: السيرة النبوية، (٢/١٧١).

www.almoslih.net

ومثل هذا الانتصار نذير شر بالنسبة لهم، فيوشك أن تتكسر أعمالهم الإجرامية على تلك الصخرة المدنية الجديدة، وتحول بينهم وبين اكتساب الأموال عن طريق السلب والنهب الذي لا يعرفون غيره، فتقل مواردهم المالية، ويفقدون السيطرة على مناطق إغارتهم ونفوذهم.

فدبّت مشاعر الحقد على المسلمين والخوف على مواردهم المالية إلى قلوبهم، فناصبوا المسلمين العداء. وأرادوا اختبار هذه القوى الجديدة والاشتباك معها، فوجدوها على أقوى ما يكون من الاستعداد، ولم يستطيعوا أن ينالوا منها شيئا يذكر.

وعلى الجانب الآخر ـ أعني جانب المسلمين ـ فقد أحدثت تلك المناوشات العسكرية وحملات الردع حماسة المسلمين لتلقين هؤلاء المشركين وحلفائهم ومن فكر من القبائل أن يعاونهم في أهدافهم الدنيئة دروسا تأديبية يفقدون بها قوتهم العسكرية، وتضعف بها هيبتهم.

هذا بالإضافة إلى تأديب كل من سولت له نفسه الإغارة على مقدرات المدينة وخيراتها ومداهمتها للسلب والنهب، وقد نجح المسلمون في كل هذه الحملات، دون أن يكون هناك خسائر تذكر.

حَمَلاتُ الرَّدعِ ضِدّ المُشرِكِينَ وَحُلَفَائِهِم وَقُطَّاعِ الطُّرُق

وإليك أبرز ما قامت به قريش وحلفاؤها من تلك الأعمال، وما قام به المسلمون لردّ تلك الاعتداءات، بل والهجمات الاستباقية لمن سولت له نفسه تجييش الجيوش للسلب والنهب والتحرش بالمدينة وأهلها.

(١) غزوة بني سليم عند ماء الكُدْر:

بمجرد أن ورد خبر هزيمة المشركين في بدر إلى بني سليم، شعروا بالخطر الداهم عليهم؛ فهذا الانتصار الساحق للمسلمين يقلب موازين القوى في المنطقة؛ وبالتالي فقد تجمّع أفراد من بني سليم لمقاتلة المسلمين والاعتداء عليهم، بعد المعركة مباشرة حتى يكسروا زهوة النصر عندهم، ولا يفكروا في توسيع دائرة نفوذهم وسيطرتهم.

وقد كان النبي ﷺ يرسل عيونه إلى مواضع الخطر المحتمل، حتى يستطيع درء الشر عن المدينة، قبل أن يستفحل خطره، وقد حملت هذه العيون إلى النبي ﷺ خبر استعدادات بني سليم لغزو المدينة والإغارة عليها.

وبمجرد أن ترامت هذه الأنباء إلى مسامع النبي ﷺ وتيقّن من صحتها، لم يمهلهم حتى يكوّنوا جيشهم الذي أرادوا تكوينه للغزو، ففاجأهم النبي ﷺ بهجوم سريع غير متوقع، وغزاهم في ديارهم في مكان يسمّى ماء الكُدر[١] بعد سبع ليالٍ فقط من عودته إلى المدينة من غزوة بدر، فأقام ثلاث ليالٍ على الماء، ولم يلق حربا، وكان لواؤه ﷺ أبيض حمله علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[٢].

(١) سمي بذلك لأن به لون الكدرة.

(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/ ٤٧٠).

وقد هرب بنو سليم وتفرقوا على رؤوس الجبال فور علمهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، وبقيت إبلهم مع راعٍ لها يدعى يسارًا، فاستاق رسول الله ﷺ الإبل مع راعيها ورجع إلى المدينة[(١)].

وفي موضع يقال له صرار، على نحو ثلاثة أميال من المدينة، قسم النبي ﷺ الإبل التي كان عددها خمسمائة بعير على أصحابه، فأصاب الواحد منهم بَعيرَين، ونال النبي ﷺ خُمُسَها، وكان يسار من نصيبه، ولكنه أعتقه بعد ذلك[(٢)].

ولما رجع ﷺ إلى المدينة أقام بها بقية شوال وذا القعدة، وأفدى في إقامته تلك جُلَّ الأسارى من قريش[(٣)] الذين أسرهم يوم بدر.

٢ غزوة ذات السويق:

شعر أبو سفيان بن حرب ـ قائد المشركين يوم بدر ـ بالعار الذي يجلّله بعد تلك الهزيمة النكراء لما رجع إلى مكة، ولم يستطع أن يهضم هذه الذلة والمهانة التي لحقت قومه من جراء الهزيمة، وأخذت آثار تلك الهزيمة تطارده في صحوه ومنامه فتنغّص عليه حياته.

فنذر على نفسه ألا يمسَّ الطيب[(٤)]، وأن لا يمس رأسه ماء من جنابة [أي أنه سيعتزل النساء] حتى يغزو محمدا[(٥)]، ويثأر من أصحابه، وكان الغسل من الجنابة معلوما قبل الإسلام، بقيةً من دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام[(٦)].

(١) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (١٧٢/٤).
(٢) المصدر السابق، (١٧٢/٤).
(٣) ابن هشام: السيرة، (٣١٠/٣)، الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (١٧٢/٤).
(٤) الحلبي: السيرة الحلبية، (٤٧٩/٢).
(٥) الروض الأنف، (٢٢٠/٣)، والمقريزي، (٩٤/٢).
(٦) الحلبي: السيرة الحلبية، (٤٧٩/٢).

وخرج أبو سفيان لتحقيق هدفه والبَرِّ بقسمه في مائتي راكب من المشركين[(١)]، وقيل أربعين فقط[(٢)]، ولعل ذلك التفاوت الكبير في العدد راجع إلى أن المشركين قد فروا بليل دون أن يراهم المسلمون، بل إنهم تخففوا مما معهم من الأطعمة والأثقال حتى لا يدركهم المسلمون في الطريق.

سلك المشركون إلى المدينة طريق النجدية، وحاولوا الاستعانة باليهود ليدلوهم على عورات المدينة، والمناطق التي لا تتوافر فيها الحراسة الكافية لتنفيذ هذه المهمة الانتقامية السريعة.

فأتى أبو سفيان بني النضير ليلًا، وطرق باب زعيمهم حيي بن أخطب، ليستخبره عن أخبار رسول الله ﷺ، وأصحابه، فأبى أن يفتح له وخافه[(٣)]، فولى وجهه نحو سلام بن مشكم وكان سيدا مطاعا في بني النضير، وصاحب كنزهم، ففتح لهم وقراهم وسقاهم خمرًا، وأخبرهم من أخبار رسول الله ﷺ ما يريدون[(٤)].

والموقف الأول من حيي بن أخطب، يبين لك كيف كانت معاملة النبي ﷺ للأقليات الدينية في المدينة، من حسن خُلق، وكريم فضل، وتعاون على الخير؛ فضلًا عن تلك الوثيقة التي جمعت بين المسلمين والفصائل الأخرى والتي كان من شروطها الواضحة:

"وَإِنَّهُ لا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقُرَيْشٍ وَلا نَفْسَهَا، وَلا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ"[(٥)].

(١) انظر: ابن هشام: السيرة، (٣١٠/٣)، وما بعدها.
(٢) انظر: المقريزي، (١٢٣/١).
(٣) انظر: ابن هشام: السيرة، (٣١١/٣)، الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (١٧٤/٤).
(٤) انظر: ابن هشام: السيرة، (٣١١/٣).
(٥) انظر: الواقدي: المغازي، (١٨١/١، ٣٨٩/١)، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (١٧٤/٤).

ومادة أخرى مخصصة لقريش تقول:

«وَإِنّهُ لا تُجَارُ قُرَيْشٌ وَلا مَنْ نَصَرَهَا»[١].

ومادة عامة تقول:

«وَإِنّهُ لا يَحِلّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرّ بِمَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَآمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا وَلا يُؤْوِيهِ، وَأَنّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢].

ولا شك أن الأخلاق النبوية في التعامل مع الأقليات وهذه الشروط التي وقّع عليها اليهود دفعت حيي بن أخطب للوفاء، فجعلته يردّ أبا سفيان.

إنه درس للقيادة الإسلامية أن تستخدم المحورين في التعامل مع الأقليات غير الإسلامية؛ أن تحسن استخدام المحور الأخلاقي من حسن التعامل والرفق، وأن تحسن استخدام المحور القانوني بعقد المواثيق والاتفاقات التي تُلزم الأقليات غير الإسلامية باحترام الدين الإسلامي والعمل على حفظ سلامة الوطن.

والموقف الثاني من سَلامِ بْنِ مِشْكَمٍ ـ قبحه الله ـ، يبين لك أن اليهود ليسوا سواء، فمنهم من يصون ومنهم من يخون، على أن الخيانة في غالبهم، والفسق في معظمهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم يبين لك خطر الخيانة عندما تكون من داخل الدولة، وخطر اليهود عندما يكونون في بقعة من بقاع الأرض، وأن سواد اليهود لا يحترمون عهدًا ولا ميثاقًا، فهذا اليهودي الخائن زعيم قومه استضاف العدو على الأرض الإسلامية، وأطعم وسقى وأسمر، واشتغل بدَور الجاسوس، فأخذ يرشد الأعداء عن أفضل الطرق للإيقاع بالمسلمين، وأنجع الوسائل لفضّ عروة الوطن.

(١) انظر: ابن هشام: السيرة، (٣/٣١١)، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/١٧٤).
(٢) انظر: ابن هشام: السيرة، (٣/٣١١)، الواقدي: المغازي، (١/١٨١، ١/٣٨٩)، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/١٧٤).

وقد حفظ أبو سفيان هذا الصنيع لابن مشكم، وقال في ذلك شعرا:

وإنـي تخيـرت المدينـة واحـدا	لحلـف فلـم أنـدم ولـم أتلـوم
سـقاني فروّانـي كُمَيتـا مدامـة	على عجَلٍ مني سـلامُ بن مشـكم
ولما تولى الجيـش قلت ولم أكن	لأرحمـه أبشـرْ بعـزّ ومغنـم
تأمّـل فـإن القـوم سـرّ وإنهـم	صريح لـؤي لا شـماطيطُ جرهم
ومـا كان إلا بعـض ليلـة راكـب	أتى سـاعيا من غير خلـة معدم[١]

أخذ أبو سفيان ما يريد من المعلومات من سلام بن مشكم اليهودي لتنفيذ مهمته، فخرج من دار سلام بن مشكم، وقد حرّضه الأخير، وحفّزه وبصّره.

وتوجه أبو سفيان إلى معسكره، فَبَعَثَ مفرزة إلَى الْمَدِينَةِ يقودهم. فَأَتَوْا إلى منطقة زراعية من أطراف المدينة (يقال لها الْعَرِيضُ في طرف حرة واقم)، فقتلوا رجلين يعملان في الحرث ـ أحدهما معبد بن عمرو الأنصاري، والثاني: أجيره كان يعمل له في زرعه ـ وأحرقوا نخلاً، وَحَرّقُوا بَيْتَيْنِ، وتبنًا، وفروا عائدين إلى مكة[٢].

ورأى أبو سفيان أن ذلك العمل الإرهابي الخسيس قد برّ به يمينه، وأوفى نذره، ثم ولى هاربًا هو ومن معه من المشركين قبل أن يدركهم الطلب.

فلما قام الجيش الوثني بهذه القرصنة ـ غير الأخلاقية ـ بغتة على حدود المدينة، وأحرق ونهب وقتل.. نَدَبَ نبيُّنَا ﷺ أصحابه فورًا، وخرجوا سراعًا في مائتين من المهاجرين والأنصار ـ يومَ الأحد الخامس من ذي الحجة من العام الثاني ـ فِي طَلَبِهِمْ وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ بَشِيرَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ ـ وَهُوَ أَبُو لُبَابَةَ ـ،

(١) انظر: ابن هشام: السيرة، (٣/٣١٢)، السهيلي: الروض الأنف، (٣/٢٢٠)، ابن كثير: السيرة، (٢/٥٤١).
(٢) انظر: ابن سعد: الطبقات، (٢/٣٠)، وابن هشام: السيرة، (٣/٣١٢).

فلا زال سيد الشجعان يطاردهم حَتّى بَلَغَ قَرْقَرَةَ الْكُدْرِ، ثُمّ انْصَرَفَ رَاجِعًا، فَقَدْ هرب أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ[(١)].

ولقد أحسّ المشركون بالطلب فجدّوا في الهرب، فلما أحسوا بالخطر أخذوا يتخففون من الأزواد التي يحملونها حتى تمكنوا من الفرار..

ووجد المسلمون أزوادًا كثيرة قد ألقاها المشركون و طَرَحُوهَا فِي الْحَرْثِ، وعامتها جرب فيها سويق[(٢)]، فأخذها المسلمون، فسميت غزوة السويق.

وفي هذا الموقف دلالة على يقظة القائد الإسلامي، وتعقبه لأي محاولة نهب أو إفساد من قبل العدو في أرض الإسلام..

ورد فعل النبي ﷺ بملاحقة ميلشيات العدو دلالة على تجريم أسلوب النهب والسلب والتعدي على المدنيين والزراع..

وفيه أيضًا، صورة من صور شجاعة النبي ﷺ، فأنت ترى في هذا المشهد كيف يركض سيد الشجعان ﷺ وراء الجيش الهارب، وقد انبث الرعب في أحشاء المجرمين، وقد بلغ بهم الفزع أن ألقوا أزاودهم ليتخففوا، ويطلبهم وكأنما لا يريد أن تأويهم أرض ولا جبل، كأنما لا يرضى أن يمر[(٣)] اللقاء دون تصافح بيض الهند واللمم، وهو القائل: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ».

وقال عنه أمير الشعراء أحمد شوقي:

واذا مشيت إلى العِدا فغضنفر — واذا جريت فإنك النكباء
وإذا غضبت فإنما هي غضبة — في الحق لا كِبْرٌ ولا ضَغناء

(١) انظر: ابن سعد: الطبقات، (٢/٣٠)، وابن هشام: السيرة، (٣/٣١٢).
(٢) وهو قمح أو شعير تحمص ثم تطحن باللبن والعسل والسمن.
(٣) أخرجه البخاري، (٣٢٣).

ولمّا لَمْ يتمكن الجيشُ الإسلامي من القبض على المجرمين، بعد أن استمر رسول الله ﷺ في مطاردتهم وقد غاب عن المدينة خمسة أيام. خشي الأبطال أن يحرموا ثواب الله، لفشل هذه المناوشة، فَقَالُوا ـ حَيْنَ رَجَعَ بِهِمْ رَسُولُ الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله، أَتَطْمَعُ لَنَا أَنْ تَكُونَ غَزْوَةً؟.. قَالَ: «نَعَمْ»[(١)].

وفي ذلك درس في استحضار ثواب الله على القليل والكثير في أمر الجهاد، والحرص على ثواب الله في كل أحوال القتال، في النصر والهزيمة، أو في نجاح المهمة أو فشلها.

وفي هذا المشهد ـ أيضًا ـ منقبة عظيمة للصحابة، ودليل على حسن بلائهم، وعظيم جهادهم، وسموِّ إخلاصهم، ورغبتهم الشديدة في النوال الأخروي[(٢)].

٣ غزوة ذي أمر (غزوة غطفان):

كان النبي ﷺ يدرك ما يحيق بدولته من أخطار، فكان يبعث العيون التي ترصد له ما يبيّت له أعداؤه بليل من مؤامرات ونوايا للغزو.

وقد أرسلت تلك العيون إلى النبي ﷺ أن قبيلتي ثعلبة ومحارب تجمّعوا بمكان يقال ذي أمرّ[(٣)]، بقيادة زعيمهم دُعثور بن الحارث المحاربي، يريدون غزو رسول الله ﷺ، والإغارة على المدينة.

فلم ينتظر النبي ﷺ حتى يصل ذلك الجيش إلى المدينة، بل إنه أراد أن يلاقيه خارج المدينة، فاستعمل النبي ﷺ على المدينة عثمان بن عفان، وخرج في الثاني

(١) ابن سيد الناس، (١/٣٩٠).
(٢) انظر: ابن هشام: السيرة، (٣/٣١١)، الواقدي: المغازي، (١/١٨١)، ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، (١/٣٩٠)، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/١٧٤).
(٣) موضع من ديار غطفان.

عشر من شهر ربيع الأول في السنة الثالثة من الهجرة، في أربعمائة وخمسين رجلا بين راكب وراجل لدرء هذا الخطر المحدق بالمدينة، وفي الوقت نفسه ليفسد على الغازين خطتهم الهجومية.

وفي الطريق في مكان يدعى ذا القَصَّة أصابوا رجلا منهم يقال له: حبان من بنى ثعلبة، فأُدخل على رسول الله ﷺ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، وضمّه إلى بلال رضى الله تعالى عنه ليعلمه الشرائع[(١)].

وما إن علم المشركون عن طريق عيونهم أيضًا أن النبي ﷺ علم بمسيرهم فكوّن جيشا كثيفا وخرج لملاقاتهم، وأنه قد أعدّ لهذا الأمر عدته، حتى تملّكهم الخوف والفزع، ولم يقدروا على المواجهة، وفروا إلى رؤوس الجبال، وبقي رسول الله ﷺ في مكان يسمى ذا أمر، مدة تقارب الشهر دون أن يلقى كيدًا من أحد[(٢)].

ولكن الله عز وجل أراد أن يدخل هؤلاء الغزاة الخائفين في دين الله، فأجرى لنبيه ﷺ معجزة، فأسلم قائدهم دعثور المحاربي، إذ لم يجد وسعا إلا أن يعلن ولاءه لله ورسوله، ويدخل في دين الله عز وجل.

فقد كان من بين أنباء هذا المسير أن مطرا غزيرا قد أصاب المسلمين في هذه الغزوة «فذهب رسول الله لحاجته، فأصابه ذلك المطر، فبلّ ثوبه وقد جعل رسول الله وادي ذي أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجف، وألقاها على شجرة ثم اضطجع تحتها والأعراب ينظرون إلى كل ما يفعل رسول الله.

فقالت الأعراب لدعثور وكان سيدها وأشجعها: قد أمكنك محمد، وقد انفرد من أصحابه، حيث إن غوّث بأصحابه لم يُغْثْ حتى تقتله.

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٣٥٢/٨).
(٢) انظر: ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، (١٤٨/١)، المقريزي: إمتاع الأسماع، (٣٥٣/٨).

فاختار سيفا من سيوفهم صارما، ثم أقبل مشتملا على السيف، حتى قام على رأس رسول الله بالسيف مشهورًا.

فقال يا محمد: من يمنعك مني اليوم؟

قال: الله عز وجل، ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده، فأخذه رسول الله وقام على رأسه، فقال: من يمنعك مني؟

قال لا أحد. وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لا أكثّر عليك جمعا أبدا، فأعطاه رسول الله سيفه ثم أدبر، ثم أقبل بوجهه، ثم قال: والله لأنت خير مني.

قال رسول الله: أنا أحق بذلك منك.

فأتى قومه فقالوا: أين ما كنت تقول وقد أمكنك، والسيف في يدك؟

قال: قد كان والله ذلك رأيي، ولكن نظرت إلى رجل أبيض طويل، فدفع في صدري، فوقعت لظهري، فعرفت أنه ملك، وشهدت أن محمدا رسول الله، والله لا أكثّر عليه، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام»[(١)].

ونزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

كانت هذه الغزوة عظيمة البركة، حيث حدثت فيها تلك المعجزة الكريمة، وأسلم على إثرها قائد الجيش الذي حاول غزو المدينة، ودعا قومه إلى الإسلام، وعاهد النبي ﷺ ألا يكثّر سوادَ المشركين بعد ذلك.

(١) البيهقي: دلائل النبوة، (١٦٩/٣)، والمقريزي: إمتاع الأسماع، (٣٥٣/٨)، الحلبي: السيرة الحلبية، (٤٨٢/٢).

فما أعظم هذا الخير الذي تحقق في هذه الغزوة، ولم يُرَقْ فيها دم، بل رجع النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة بعد هذا، الخير الذي ساقه الله عز وجل لنبيه ﷺ.

٤ غزوة بُحْران:

عاد بنو سليم ليفكروا في غزو رسول الله ﷺ مرة ثانية، بعدما فروا في الجولة الأولى، وقد جمعوا جمعا آخر للإغارة على مدينة رسول الله ﷺ، وسلب ما يستطيعون سلبه منها والهرب به.

ولكن النبي ﷺ كان لهم بالمرصاد، يعلم تحركاتِهم ونياتِهم، من خلال عيونه التي يبثها في كل مكان يتوقع منه الخطر، فلما جاءت الأنباء بخبر هذا الجمع، خرج النبي ﷺ إليهم مرة ثانية في ثلاثمائة من المسلمين وذلك في شهر جمادى الأولى من السنة الثالثة للهجرة، حتى بلغ بُحْران بين مكة والمدينة يريد قتالَهم، فوجدهم قد تفرقوا، فانصرف عنهم، وعاد إلى المدينة بعد أن أمضى خارجها عشر ليالٍ[١].

٥ سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدة:

كانت حرب الاستنزاف التي شنّها المسلمون على المشركين في طريق تجارتهم إلى الشام، ثم هزيمتهم في بدر قد هددت مصالحهم التجارية كما ذكرنا غير مرة، وأصبحوا لا يستطيعون السير بقوافلهم من نواحي المدينة.

وفي هذا يروي الواقدي: أن صفوان بن أمية وقف يومًا في قريش ليقول لهم: «إن محمدًا وأصحابه قد عوّروا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندري

(١) انظر: الواقدي: المغازي، (١/١٩٦)، الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٤٨٢)، ابن سيد الناس: عيون الأثر، (١/٤٠١).

أين نسلك؟ وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا، ونحن في دارنا هذه ما لنا بها بقاء وإنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف وفي الشتاء إلى أرض الحبشة»[١].

فأخذوا يبحثون عن طريق أخرى لتجارتهم للشام، فأشار بعضهم إلى اتخاذ طريق نجد العراق بديلا. وفكرت قريش في هذا الأمر، فوجدتها فكرة جيدة للبعد عن أعين المسلمين.

وبالفعل خرجت رحلة تجارية تضم كلاًّ من أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، ومعهم فضة وبضائع كثيرة، بما قيمته مائة ألف درهم، وسلكوا هذا الطريق، ولكن ذلك أيضًا لم يغب عن عيون المسلمين في المدينة، فقد أرسل سليط بن النعمان ﷺ ـ وكان عينا للنبي ﷺ ـ إلى محمد ﷺ بخبر القوم[٢].

فبعث ﷺ زيد بن حارثة في مائة راكب لاعتراض القافلة، فلقيها زيد عند ماء يقال له القردة، وهو ماء من مياه نجد، ففرّ رجالها مذعورين، وأصاب المسلمون العير وما عليها، وأسروا دليلها فرات بن حيان الذي أسلم بين يدي النبي ﷺ، وعادوا إلى المدينة، فخمّسها رسول الله ﷺ، ووزع الباقي بين أفراد السرية[٣].

تعقيب عام على هذه الحملات:

يتبين من أحداث هذه الغزوات والسرايا أنها لم تكن غزوات لأجل المغنم كما هو واضح لكلِّ ذي عينين، ولا لإكراه الناس على الدخول في الإسلام كما يُشيع الكذابون والمنافقون.

(١) الواقدي: المغازي، (١/١٩٨).

(٢) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، (٣/٩)، المقريزي: الإمتاع والمؤانسة، (١/١٢٩).

(٣) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، (٣/٩)، المقريزي: إمتاع الأستماع، (١/١٢٩)، وما بعدها.

وأن النبيَّ ﷺ كان يحاول بشتى الطرق ألا يصل الأمر إلى الاصطدام المسلح، ولكنه كان يبث عيونه في مكامن الخطر، ومواضع القبائل المشهورة بالسلب والنهب، ويعدّ لكل أمر عدته، ويسير في جمع من المسلمين لصدّ هجمات هؤلاء الأعداء، واستعراض القوى أمامهم ليكفوا أذاهم، ويعلموا أنه لا طاقة لهم بحرب المسلمين.

فإن أصرّوا على المواجهة كانوا هم من جنى على أنفسهم، ولا شك أن استباق الأعداء ومباغتتهم قبل أن ينظموا صفوفهم أمر عسكري معترف به في كل الدول القديمة والحديثة على السواء.

كما «نلحظ في هذه الغزوات قدرة القيادة الإسلامية على رصد تحركات العدوّ، ومعرفة قوته، وخططه، ومدده لكي تحطم هذه التجمعات المناوئة للدولة الإسلامية الفتية قبل أن يستفحل أمر هذه القبائل، وتصبح خطرًا على المدينة.

وهذه الغزوات في هذه الصحراء المترامية الأطراف كانت دورات تدريبية تربوية للصحابة الكرام، وسعدت سرايا الصحابة بقيادة النبي ﷺ لها، فقد كانت تلك الدورات العملية التدريبية القتالية التربوية مستمرة، وتمتد من خمسة أيام إلى شهر، تتم فيها الحياة الجماعية، ويتربى جنود الإسلام على السمع والطاعة، والتدريب المتقن، ويكتسبون خبرات جديدة تساعدهم على تحطيم الباطل وتقوية الحق»[1].

(١) الصلابي: السيرة النبوية، (٢/١٣٨)، وما بعدها.

حملاتُ الرَّدعِ ضِدّ اليَهُود

مصير المعركة العنيفة بين الإسلام والوثنية، قد تقرر يوم بدر، وإن طال مداها سنين عددا، وتعددت جولاتها حتى حسمت يوم الفتح في السنة الثامنة للهجرة.

وكذلك تقرر، من يوم بدر، مصير الصراع في جبهة أخرى أخطر وأضرى من الجبهة القرشية، والمعركة فيها سافرة مكشوفة والأسلحة مألوفة معروفة.

لقد كان العرب القرشيون يقاتلون ببسالة، دفاعا عن أوضاع موروثة، وتقاليد راسخة، وأعراف مقررة، وغضبا لحرمة أسلافهم، من حيث لم يهن عليهم أن يتصوروا أن أولئك الآباء الكرام، من أمثال عبد المطلب وهاشم وعبد مناف وقصي والمغيرة وزهرة، إلى فهر ومضر وعدنان، كانوا على سفه وضلال.

وعلى مدى السنين العشرين التي استغرقتها المعركة بين العرب المشركين والمسلمين، في جولتيها المكية والمدنية، كان الإسلام يستقبل من يصغي من قريش إلى ما يتلو النبي ﷺ من آيات معجزته، فيؤمن برسالته، ويبايعه على الإسلام والبذل والجهاد.

وحزب الله الذي بدأ فجر ليلة القدر من شهر رمضان، بالمسلمة الأولى خديجة زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين، ثم انضم إليه السابقون الأولون، كان يستقبل كل يوم جنديا جديدا من الجبهة القرشية والعربية، يعزه الله بالإسلام ويعز الإسلام به.

والمئات الثلاث من المجاهدين والأنصار الذين شهدوا بدرا تحت لواء محمد ﷺ، لم يلبثوا أن كثروا بمن انضم إليهم من العرب، فدخل ﷺ مكة يوم

www.almoslih.net

الفتح، في عشرة آلاف من الصحابة، فيهم من كان قبل أن يشرح الله صدره للحق، أشد الناس عداوة للإسلام، وحربا للمصطفى والذين آمنوا معه.

والذين تأخر إسلامهم إلى عام الفتح وغزوة حنين والطائف بعده، وعام الوفود في السنة التاسعة للهجرة، لم يلبثوا أن خرجوا مع الكتائب المجاهدة في الفتوح الكبرى التي حملت لواء الإسلام إلى أقصى المشرق وأقصى المغرب.

وكان من جملة هذه الحملات الردعية مايلي:

١ إجلاء بني قينقاع:

لم تكن الجبهة القرشية العربية أخطر ما واجه الإسلام في عصر المَبعَث، والجبهة فيها مكشوفة والسلاح معروف، ومنها كان يأتي المدد تباعا إلى حزب الله، إنما كان الخطر الأكبر في الجبهة الخبيثة لأعداء البشر، ومن شرب سمّهم من المنافقين في المدينة.

لقد حرص اليهود على ألّا يواجهوا الإسلام في معركة مكشوفة، وسهرت عصاباتهم في أوكارها الناشبة في شمال الحجاز، تنفُث سمّ النفاق في المدينة، ثم تمادى بها الشر فسعت إلى قريش، تؤلب الأحزاب منها وتستنفرها لقتال المسلمين بالمدينة، على وعد النصرة من يهود، الذين وادعهم النبي ﷺ وأمنهم على دينهم وأموالهم.

وكانت موقعة بدر، هي التي كشفت المستور من غدرهم بعهدهم له ﷺ، وفيه النص الصريح: "وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب"[(١)].

إنه الغدرّ فجيش قريش لم يخرج من مكة إلا ليدهم يثرب. والغدر من طبيعة يهود، وهو متوقع ومحسوب. وأملى لهم النبي ﷺ، واكتفى ﷺ بأن جمع يهود

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (١٠٣/٣)، وابن كثير: البداية والنهاية، (٩/٤).

المدينة بسوق بني قينقاع، وحذّرهم من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة. وحين يقتصر الأمر على الإنذار، أو ما هو أشد منه، فإن يهود تتطاول وتجترئ، ما بقيت السيوف في أغمادها.

وغدا بنو قينقاع إلى سوقهم بالمدينة يأكلون المال، ويكيدون للإسلام، لا يبالون نذيرا من الله ورسوله. وبدا لنفر منهم أن يعرضوا لإحدى المسلمات يريدونها على أمر تكرهه، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهي تأبى، فجاء يهودي من خلفها في سرّ منها، فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا فصاحت؛ فوثب رجل من المسلمين على الصائغ، وكان يهوديّا، فقتله وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه.

فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع. وطلب محمد ﷺ إلى هؤلاء أن يكفوا عن أذى المسلمين، وأن يحفظوا عهد الموادعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش.

فاستخفّوا بوعيده وأجابوه: "لا يغرّنّك يا محمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة. إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنّا نحن الناس".

لم يبق بعد ذلك إلّا مقاتلتهم أو يتعرّض المسلمون ويتعرّض سلطانهم بالمدينة للتداعي، ثم يصبحوا أحدوثة قريش، وقد جعلوا قريشا بالأمس أحدوثة العرب..

وأقبل النبي ﷺ في جمع من الأنصار فحاصر اليهود خمس عشرة ليلة، حتى استسلموا ونزلوا على حكمه. وعندئذ تقدم المنافق عبد الله بن أبي بن سلول فقال للنبي ﷺ على الملإ من الناس: يا محمد، أحسن إليّ في مواليّ.

وأعرض عنه ﷺ، لكن المنافق مضى في لجاجته، مصرّا على استنقاذهم!

قال عليه الصلاة والسلام: «هم لك!». واكتفى بأن جردهم من سلاحهم، وأمهلهم ثلاثة أيام يجلون بعدها عن المدينة[(١)].

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٤٧٥/٢).

فخرجوا أذلة مقهورين إلى وادي القرى، حيث نزلوا على عصابتهم هناك، وتطهرت دار الهجرة بجلاء بني قينقاع عنها بعد يوم بدر في السنة الثانية للهجرة!

وتتابعت أحداث فردية، تعكس صدى الرعب في قلوب يهود، وتنمّ عن كيدهم وحقدهم. وقد تعلق أملهم، بأن تثأر قريش لقتلاها في بدر، فما كانت لتسكت عليه كما سكتت يهود على إجلاء بني قينقاع.

إن قصة هذه المرأة المسلمة ـ التي حاول اليهودي أن يكشف عورتها ـ تلفت أنظارنا إلى المكانة العظيمة التي تحتلها المرأة في نظر المسلمين جميعا، فمسلم واحد في سوق اليهود يرى هذا التصرف من اليهود، فيغضب لعِرْض امرأة من المسلمين ينتهك، ثم يحصل بعد ذلك الاعتداء من اليهود.

ولما بلغ الرسول ﷺ الخبر أخرج هذه القبيلة اليهودية بكاملها؛ لسبب يراه الناس بسيطًا، لكنه عند الرسول ﷺ عظيم، وهو التطاول على المرأة المسلمة والتعدي عليها.

وهذا يشعرنا بشيء مهمّ وهو أن تآمر اليهود على المرأة المسلمة قديم منذ عهد الرسول ﷺ، ولا يزالون كذلك يتآمرون عليها لإفسادها لما يرونه من التكريم والتمييز والمكانة الرفيعة لها ولاعتزازها بدينها، ولأنهم يعلمون أنها أهم شيء في البيت المسلم، فمتى تم إفسادها أفسد البيت المسلم، وإذا فسد البيت المسلم فسد المجتمع المسلم.

٢ قتل كعب بن الأشرف:

كان كعب بن الأشرف ـ من زعماء يهود بني النضير ـ من أشدّ اليهود عداء للإسلام ونبيه وأتباعه، وكان نبهانيا وأمه من يهود بني النضير، فنشأ يهوديا بينهم، وكانت كنيته أبا نائلة[1].

(١) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٦/ ٢٥).

فنقض عهده مع النبي ﷺ، وألّب المشركين عليه، وحالفهم على قتال النبي ﷺ.

ومن ذلك أنه حينما علم بانتصار المسلمين في غزوة بدر جزع وحزن، وتألم وتبرم، وقال لمن معه من أصحابه: أترون محمدًا قتل هؤلاء؟ يعني المشركين الذين قتلوا يوم بدر، إنهم أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لَبطنُ الأرض خير من ظهرها[1].

ثم انطلق عدو الله حتى قدم مكة، وجعل يحرض على قتال النبي ﷺ، وينشد الأشعار ويبكي أصحاب القَليب من قريش الذين أصيبوا ببدر.

ولم يكتف ابن الأشرف بتحريض المشركين في مكة، بل إنه رجع إلى المدينة، وأخذ يشبب بنساء المسلمين حتى أوذي المسلمون وضجروا، وحتى قال ﷺ: «من لي بكعب بن الأشرف؟»[2] فأجابه من الأوس محمد بن مسلمة قائلا: أنا لك يا رسول الله، أنا أقتله. قال: «فافعل إن قدرت على ذلك».

ففكر ابن مسلمة في هذا الأمر، وأعدّ له عدته مع طائفة من إخوانه، فاجتمع في قتله خمسة رجال من الأوس، هم: محمد بن مسلمة، وسلمان بن سلامة أبو نائلة، وكان أخا كعب من الرضاعة، وعبدة بن بشر، والحارث بن أوس، وأبو عيسى بن جبر.

وقد ذهبوا إلى منزله واستدرجوه إلى الخارج حتى اطمأن إليهم ـ والحرب خدعة ـ ثم صاح أبو نائلة قائلا: اقتلوا عدو الله. فاختلف عليه أسيافهم حتى وقع صريع غدره وبغيه، وفي ذلك يقول القائل:

وغـودر منهـمُ كعـب صريعًا   فذلّـت بعد مصرعـه النضير[3]

(١) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٦/ ٢٥).
(٢) البخاري، (٣٨١١)، ومسلم، (١٨٠١)، وأبو داود، (٢٧٦٨)، من حديث جابر.
(٣) ابن هشام: السيرة، (٣/ ٣١٨)، الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٦/ ٢٥).

٣ مقتل أبي عفك اليهودي:

وما صنعه كعب بن الأشرف صنعه يهودي آخر من بني عمرو بن عوف، يقال له أبو عفك، فحدث له ما حدث لكعب، وكان شيخا كبيرا قد بلغ عشرين ومائة سنة، ولكنه لم يرع لسنه حرمة، ولا لجيرانه المسلمين عهدا ولا ميثاقا، فكان يحرض على رسول الله ﷺ، ويقول الشعر في هجاء النبي ﷺ وأصحابه، وكان ممن نجم (ظهر) نفاقه حين قتل رسول الله ﷺ الحارث بن سويد بن الصامت[١].

ولما رجع النبي ﷺ من بدر حسده وبغى، وأخذ يندب المشركين، ويهجو رسول الله ﷺ بشعره، ومن ذلك قوله:

قَـدْ عِشْـتُ حِينًا وَمَـا إِنْ أَرَى   مِـنَ النَّـاسِ دَارًا وَلَا مَجْمَعَـا
أَجَـمَّ عُقُـولًا وَآتَـى إِلَـى   مُنِيـبٍ سِـرَاعًا إِذَا مَـا دَعَـا
فَسَـلَّبَهُمْ أَمْرَهُـمْ رَاكِـبٌ   حَرَامًـا حَـلَالًا لِشَـتَّى مَعَـا
فَلَـوْ كَانَ بِالْمُلْـكِ صَدَّقْتُـمُ   وَبِالنَّصْـرِ تَابَعْتُـمُ تُبَّعَـا[٢]

فقام إليه سالم بن عمير، وقد نذر على نفسه أن يقتله، أو يموت دونه، فقام إليه في ليلة صائفة، وقد نام بفناء منزله، فوضع السيف في كبده، وقتله، جزاء وِفاقًا لهذا النقض، لعهد رسول الله ﷺ وهجائه بالشعر.

١ ـ مقتل عصماء بنت مروان:

وهي امرأة شاعرة من بني أمية بن زيد، وكانت متزوجة من رجل من بني الخطمة، وكانت كثيرة السبِّ للنبي ﷺ في شعرها، وتهجو المسلمين وترثي المشركين، وازداد شعرها المحرض على العداء لرسول الله ﷺ في المدينة،

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر، (١/٣٨٣).
(٢) الواقدي: المغازي، (١/١٧٥).

وتؤلب عليه العشائر، وتعيب الأوس والخزرج على طاعتهم لرسول الله ﷺ، وتحرّضهم على عصيانه في شعرها، "وكانت تطرح المحايض في مسجد بني خطمة"[١].

ومن شعرها في التحريض على النبي ﷺ، قولها:

بِاسْـتِ بَنِـي مَالِـكٍ وَالنَّبِيـتِ   وَعَوْفٍ وَبِاسْـتِ بَنِـي الْخَزْرَجِ
أَطَعْتُـمْ أَتَـاوِيّ مِـنْ غَيْرِكُـمْ   فَـلَا مِـنْ مُـرَادٍ وَلَا مَذْحِـجِ
تُرَجّونَـهُ بَعْـدَ قَتْـلِ الـرّؤُوسِ   كَمَـا يُرْتَجَـى مَـرقُ الْمُنْضِـجِ
أَلَا أَنِـفٌ يَبْتَغِـي غِـرّةً   فَيَقْطَـعَ مِـنْ أَمَـلِ الْمُرْتَجِي[٢]

فقام إليها عمير بن عدي الخطمي، وهو أول من أسلم من قومها بني خطمة، ونذر على نفسه ليقتلنّها، وكان رجلا ضريرا، ولكنه أصرّ على أن يقتلها لما سمعه منها من هجاء للنبي ﷺ ولأصحابه، ولطرحها القاذورات في المسجد، ولتحريضها على العداء لرسول الله ﷺ، فدخل عليها بيتها، ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها فقتلها .

ثم أتى المسجد فصلى الصبح مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف نظر إليه رسول الله ﷺ وقال: «أقتلت ابنة مروان؟» قال: نعم، فهل علي في ذلك شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا ينتطح فيها عنزان» فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله ﷺ[٣].

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٦/٢١).
(٢) الواقدي: المغازي، (١/١٧٢).
(٣) الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (٢/٢٥٩)، الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٦/٢١).

www.almoslih.net

فلما رجع عمير وجد بنيها في جماعة يدفنونها. فقالوا: يا عمير أنت قتلتها؟ قال: «نعم، فكيدوني جميعا ثم لا تُنظرون، فوالذي نفسي بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت، لضربتكم بسيفي هذا حتى أموت أو أقتلكم».

يومئذ ظهر الإسلام في بني خطمة، وكان يستخفي بإسلامه فيهم من أسلم[1]. ويومئذ أسلم رجال منهم لما رأوا من عز الإسلام[2].

فانظر رعاك الله إلى امرأة كانت تحجب على الرجال من قومها أن يعلنوا بإسلامهم، حتى لا يتعرضوا لسلاطة لسانها، وتشهيرها بهم في شعرها، فما كانت درجة عداوتها، وقد خرجت عن حد الأدب والذوق لتدفع بقطع القماش التي تسد به فرجها عند حيضها، وتلقي به في مسجد المسلمين دون حياء أو خجل.

وأي نقض للعهود التي قطعها أولئك القوم على أنفسهم بالنصرة، والنصح والبر، وعدم الإثم، عندما تركوا تلك المرأة منهم تقوم بكل هذه الأعمال دون أن يصدها أحد عن ذلك؟

إن مثل هذه الحالات التي قدّمناها؛ من الغدر والخيانة، والخسة، ونقض العهود، ونَبْذِ المواثيق، وتفضيل الوثنية على التوحيد، والتحريض على الشر وعصيان القائد، ما كان يجدي معها الحوار الهادف البنّاء، فهؤلاء لا يعرفون لهذه الكلمات معنى.

فكان الجزاء من جنس العمل، وكان قتلهم هو عين العدل، فهم كمجرمي الحرب، لا تغرنك مناصبهم وشاراتهم، ولكن انظر إلى أفعالهم وجرائمهم في حق الشعوب، ثم احكم عليهم بعد ذلك.

(١) الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (٢/٢٥٩)، الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٦/٢١).

(٢) الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (٢/٢٥٩).

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

١. كانت قريش تحرض القبائل المحيطة بالمدينة على المسلمين، وتؤلب عليهم أعداء الإسلام في داخلها، لأنها تعلم أن نجاح المسلمين في تكوين دولتهم يمثل خطرا داهما على كيانها كله.

٢. تعدَّدَ الأعداءُ المتربصون بالدولة الإسلامية الوليدة، فلم تكن قريش هي العدوَّ الأوحد الذي يثير الفتن والدعايات الكاذبة، بل انضاف إليها رجال من الأوس والخزرج ممن كان على جاهليته ووثنيته، ولم يدخل في الإسلام، وعملت اليهود على تشجيع هؤلاء وهؤلاء في كيدهم للإسلام والمسلمين.

وبالتالي فقد أمضى المسلمون شهورهم الأولى بالمدينة بين خوف وحذر، يترقبون في كل لحظة عدوًّا يهاجمهم بقوته من الخارج، أو يفاجئهم بخيانته من الداخل.

٣. كان تشريع الجهاد الإسلامي لنصرة المؤمنين المظلومين الذين يتعرضون للأذى من المشركين، والدفاعِ عن النفس والعقيدة، والحفاظِ على الكرامة الإنسانية، وحفظِ تبليغ الدعوة إلى الناس كافة، وحمايةِ الداعين إليها، وردِّ قتال المشركين، ودفعِ ضررهم بالطريقة نفسها التي يضرون بها المؤمنين، وليس بغرض الهجوم ونشر الإسلام بالسيف كما يدّعي الكذابون والدجالون من المستشرقين أو يدندن به المنافقون في وسائل الإعلام العالمية.

❹ كان من أهم أهداف السرايا في بداية تشريع الجهاد ضرب مصالح قريش الاقتصادية، حيث إنها كانت تعتمد في المقام الأول على التجارة، ولم يكونوا أصحاب زرع ولا صناعة.

ومن هنا، فإن ضرب هذا الشريان الحيوي لقريش كفيل بأن يهدد كيانها كله، بل يكاد يسقط أركان دولتها؛ ولم يكن الغرض من هذه السرايا إعلان الحرب على قريش ولا غزو قوافلها.

❺ ومن أهدافها الأخرى: إثارة أعصاب المشركين على مصالحهم التجارية من جهة، وكانت من جهة أخرى نوعا من الحصار الاقتصادي الذي يلجأ المتحاربون إليه في الحرب الحديثة.

❻ أثمرت السرايا والطلائع التي أرسلها النبي ﷺ، أو شارك فيها ثمرة لها وزنها وقيمتها في العلاقات الإقليمية القبلية، حيث عقد تحالفات مع عدد من القبائل العربية الضاربة في الصحراء بين مكة والمدينة، لضمان عدم تعاونهم مع قريش ضد المسلمين.

❼ نجحت هذه السرايا والمناوشات في استطلاع أخبار المشركين، واستنزاف طاقات قريش وحلفائها في حراسة قوافلها وكثرة الجنود والنفقات؛ مما عرّض مواردها للخطر، فأفقدها توازنها.

❽ الصد عن سبيل الله والكفر به وفتن المسلم في دينه حتى يردّوه إلى الكفر بعد إيمانه أكبر من قتل امرئ محارب في الشهر الحرام.

❾ حدد هذا اللقاء المسلح الخطَّ الفاصل بين الحق والباطل، فكانت وقعة بدر فرقانا حقيقيا، تهاوت فيه قِيَمِ الجاهلية وأخلاقياتها أمام صروح الإيمان وعقيدته.

فالتقى الابن مقاتلًا لأبيه وأخيه والأخ مواجهة لأخيه، ليحقق الولاء الكامل للعقيدة والدين والبراءة من الكفرة والمشركين، وليس بعد ذلك دليل على الأخوة الإيمانية.

❿ كان المحرك الرئيس لهذه الموقعة هو الإيمان بالله وحده، لا العصبية القبلية المقيتة ولا الأحقاد والضغائن، بينما طغى على صفوف المشركين شعور العجب والفخر والخيلاء.

فقد فُرِضَت الحرب على المسلمين إجبارا، وفُوجِئوا على غير استعداد منهم بقرار الحرب الذي اتخذته قريش لتستأصل شأفة المسلمين؛ ولم يجد المسلمون مفرا من قَبول هذا التحدي، ووثقوا في وعد الله لهم بالنصر.

⓫ أوضحت هذه الغزوة ببيان عملي التصور الإسلامي الصحيح لعوامل النصر والهزيمة، حيث إن النصر لا يأتي بالعَدَدِ ولا بالعُدَدِ، وإنما بنصر الله الذي لا تعجزه قوة العباد.

ومن ثَمَّ، فهذا درس للمسلمين في شتى الأعصار، فلا عليهم إلا أن يصلحوا علاقتهم بخالقهم، وعمل كل ما في وسعهم، والنتائج قد وعدها الله للمؤمنين، مهما كانوا هم من القلة والضعف ومهما كان عدوهم من الكثرة والقوة.

⓬ ضرورة الاعتماد والتوكل على الله وكثرة التوجه إليه قبل المعركة وأثناءها وبعدها، وطلب المدد والعون من الله عز وجل، فهو الذي بيده النصر، وهو سبحانه يحب عبده المِلْحاح، الذي يطيل السؤال والدعاء.

⓭ كتبت هذه الغزوة شهادة ميلاد جديدة لدولة الإسلام، ومكّن الله عز وجل بها للإسلام، وأذل الله الشرك وأهله بأيدي هذه القلة الضعيفة التي لم تملك عددا ولا عدة تذكر مقابل ما كان مع المشركين.

١٤ أوقفت هذه الغزوة كثيرا من إيذاء قريش المتتابع للإسلام والمسلمين، وأحرجت جيش الكفر أمام العرب أجمعين، وألحقت بهم عارا ظلّ يقضُّ مضاجعهم لا يستطيعون منه فكاكا.

١٥ تقرير مبدأ الشورى وتأكيده في صفوف المسلمين، فقد حرص النبي ﷺ على هذا المبدأ في كل مراحل هذه الغزوة، فكان يستشير أصحابه في كل خطواتها.

فاستشارهم قبل القتال، وأخذَ بمشورة الحباب بن المنذر بالنزول حول بئر بدر، وطمس ما حولها من الآبار، وأخذ بمشورة بناء العريش والتحصن به، وهذا الحرص من النبي ﷺ على استشارة أصحابه في كل الأمور يدل على تأكيد أهمية الشورى، وخصوصا الحروب؛ لأنها تقرر مصير الأمم.

١٦ ضرورة الأخذ بأسباب النصر المادية، وبث العيون لاستطلاع الأخبار، وبذل كل ما في الوسع لمواجهة العدو؛ فقد استطلع النبي ﷺ الأمر بنفسه مرة، وأرسل بعض أصحابه لاستطلاع الخبر مرة أخرى.

١٧ ضرورة أن يتجرد المسلم في حروبه من المطامع الدنيوية، وعدم التطلع إلى الغنائم والأنفال، إذ يجب أن يكون جهاده في سبيله خالصا له وحده، فإذا ما غنم مالاً بعد ذلك كان المال نتيجة تبعية لا يتبعها نفسه.

١٨ حسن معاملة الأسرى، إذ لا يمثلون خطرا وهم في قيودهم، أما سوء المعاملة فهو تشفٍّ وشماتة يترفع عنها المسلم، إذ ينبغي أن يطهر المسلم نفسه من هذه المشاعر السلبية التي تضر ولا تنفع.

وهذا لا ينفي جواز قتل مجرمي الحرب الذين لا يفترون عن إيذاء المسلمين، وفتنتهم في دينهم، وردهم إلى الكفر بعد الإيمان.

١٩ تعددت القوى المناهضة للدعوة الإسلامية والدولة الجديدة بعد غزوة بدر، فقد أقلق هذا النصر الساحق للمسلمين كثيرا من القبائل، فباتت تعدّ العدة للتقليل من هيبة المسلمين، خوفا من تنامي هذه القوى الجديدة في المنطقة.

وأهم هذه القوى هي: قبائل قريش وحلفائها، والقبائل التي على خط التجارة بين مكة والشام، وطوائف اليهود الحاقدين، وبعض الأعراب الذين يعيشون على السلب والنهب والإغارة.

٢٠ لا بد للقائد المحنَّك أن يكون على وعي بتحركات أعدائه، من خلال عيونه التي يبثّها في كل مكان يتوقع منه الخطر، حتى لا يؤخذ على غرة، فيعرّض بلاده لخطر المتآمرين، أو مداهمة اللصوص وقطّاع الطرق.

٢١ ضرورة أن يخلص المسلم في ولائه لله عز وجل، ولرسوله ﷺ والمؤمنين، كما حدث مع الصحابي الجليل عبادة بن الصامت ﷺ عندما حصل بينه وبين اليهود حِلْفٌ، فلما غدروا بالمسلمين ونقضوا عهودهم تبرأ من حلفهم، وأعلن ولاءه التام لدينه وعقيدته، وتبرأ من حلف هؤلاء الكفار.

على عكس ما حدث من المنافق عبد الله بن أبي بن سلول، حيث تشبث بحلفه معهم، ولم يتبرأ من حلفهم كما تبرأ منه عبادة بن الصامت.

٢٢ لا بد لكل مَنْ غَدَرَ وفجر ونقض العهد، أن يأخذ جزاءه بحسب جريمته، حتى لو أهدر دمه جزاء خيانته للعهد فلا غضاضة في ذلك.

فالشخصيات الإجرامية التي تمارس التحريض على الشر وعصيان القائد، والتحالف مع العدو، ونقض المعاهدات، مثل هذه العناصر لا يجدي معها الحوار الهادف البنّاء، فهم لا يعرفون لهذه الكلمات معنى، فلا بد من بترهم من المجتمع وإهدار دمائهم، وهذا هو عين العدل.

فهم السوس الذي ينخر في أجساد الأمم والمجتمعات، دون أن يراه أحد، فيحيل بناءها الشامخ بعد فترة قصيرة إلى هشيم واهٍ، لا يصمد لعاصفة، بل لا يقف أمام النسيم.

هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

١١

حَولَ أُحُدٍ

حَولَ أُحُدٍ

ما أعظم أعباء النصر! وما أسرع ما يتعرض للضياع بأدنى بادرة من تهاون أو تفريط، يستمرئ فيها المنتصر فرحته فيغفل عن موقعه تجاه عدوه، ويتهاون في تقدير طاقة التحدي في المهزوم.

والنصر في بدر قد ألقى على المسلمين تبِعاتِه وأعباءَه، بقدر ما أثقل على قريش بخزي العار، وعبأها لاسترجاع شرفها الضائع.

والثأر لقتلاها الذين جندلهم المسلمون على ساحة بدر.

وقد احتاج المشركون إلى سنة كاملة ريثما عبأوا قواهم واحتشدوا لمعركة الثأر. خرجوا من مكة بحَدّهم وحديدهم وأحابيشهم ومَنْ والاهم من بني كنانة وأهل تهامة. وخرجت معهم نساؤهم يقطعن على الرجال سبيل النكوص.

ولم تكن هند قد نامت قط على ثأرها، وفي قتلى بدر: حنظلة بن أبي سفيان، وأبو هند (عتبة بن ربيعة) وأخوها الوليد، وعمها شيبة. ثلاثة منهم صرعوا على ساحة بدر، بسيف الفارس حمزة بن عبد المطلب[1].

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (١٠٣/٣)، وابن كثير: البداية والنهاية، (٩/٤).

www.almoslih.net

ولما كانت العير التي جاء بها أبو سفيان من الشام، والتي كانت سببًا في غزوة بدر قد ربحت نحوًا من خمسين ألف دينار فجمعت كلها، وقال أصحابها لأبي سفيان: إن محمدًا قد قتل خيارنا، وإنا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها استعدادًا لحرب محمد وأصحابه.

وقد رضي بذلك كل من له فيها نصيب، ثم عبّأت قريش قوتها، وأرسلت إلى القبائل المحالفة لها لتشترك معها وتعينها، فاجتمع من ذلك كله ثلاثة آلاف رجل، ومعهم ما يلزمهم من العدة والسلاح.

وكان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ واقفًا على ما تدبره قريش لمحمد ﷺ، ومطلعًا على كل صغيرة وكبيرة من أمرهم، وكان لا يزال مشركًا، ولكن عاطفة القرابة جعلته يرسل كتابًا إلى محمد ﷺ قبل أن يفاجئه أعداؤه[١].

فكان هذا الموقف الكريم عملًا جليلًا للعباس، يضاف إلى أعماله الجليلة السابقة التي قام بها قبل إسلامه حبًّا في ابن أخيه محمد ﷺ.

وخرجت قريش من مكة في شوال من السنة الثالثة للهجرة مع حلفائهم من بني كنانة وأهل تهامة، حتى إذا بلغوا الأبواء، ومرّوا بقبر آمنة بنت وهب، دفعت الحمية بعض الطائشين منهم إلى التفكير في نبشه، لولا أن العقلاء منهم تداركوا هذا الأمر، حتى لا ينبش المسلمون موتاهم إذا تهيأت لهم فرصة الانتقام.

ثم تابعت قريش مسيرها حتى نزلت عند بعض السفوح من جبل أحد، على بُعد خمسة أميال من المدينة.

موقف النبي ﷺ والمسلمين:

علم النبي ﷺ والمسلمون بذلك المكان الذي نزل فيه المشركون، فجمع ﷺ أصحابه واستشارهم وقال: «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا. فإن

(١) ابن سعد: الطبقات، (١/٣١٠).

أقاموا، أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قتلناهم فيها»[١].

فرضي الكبار والشيوخ منهم بهذا الرأي: وقال قائلهم: تقيم بالمدينة يا رسول الله وتتركهم. فإن أقاموا أقاموا بِشَرِّ محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.

ولكن الشبان وخصوصًا من لم يشهد بدرًا من المسلمين لم يرضوا بهذا الرأي، وقالوا: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا حتى لا يرو أنا جبنّا عنهم وضعفنا، وما زال هؤلاء برسول الله ﷺ حتى اتبع رأيهم، لأنهم الأكثرون عددًا والأقوون جلدًا.

فصلى رسول الله ﷺ الجمعة في اليوم العاشر من شوال، وحثّهم في خطبتها على الثبات والصبر، وقال: «لكم النصر ما صبرتم».

ثم عقد الألوية، فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ولواء الأوس لأسيد بن الحضير[٢].

خرج إليهم ﷺ في ألف من المسلمين، لم يلبثوا أن نقصوا بضع مئات قبل أن يلتقي الجمعان في أحد، في منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة. انخذل عن الجيش كبير المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول بمن معه من منافقي المدينة، وكانوا نحو ثلث الجيش.

قال لهم: ما ندري عَلامَ نُقتّل أنفسنا، وقد أهلكنا أموالنا؟

ولم يجد ﷺ ضَيْرًا من هذا التخاذل، فقد نحّى المنافقين ومرضى القلوب والإيمان، عن جنده المخلصين، وبقي معه ﷺ سبعمائة رجل من المؤمنين المخلصين، فمضوا في طريقهم حتى وصلوا إلى الشعب من جبل أحد على مقربة من المشركين، ثم جعلوا ظهورهم للجبل ووجوههم للمدينة.

(١) رواه البخاري، (٣٨٤١) من حديث أبي طلحة.

(٢) البخاري: الصحيح، حديث رقم (٣٨٣٨)، ابن هشام: السيرة، (٣/هـ).

المعركة:

كان جيش المشركين يبلغ ثلاثة آلاف ـ كما ذكرنا من قبل ـ وكان جيش المسلمين لا يزيد على سبعمائة، حتى إذا دنوا من المدينة، وقد رتب ﷺ ـ الجيش ونظمه تنظيمًا دقيقًا، ووضع خمسين رجلًا من الرماة[١] على شعب في الجبل وراء جيش المسلمين.

وقال لهم: «احموا لنا ظهورنا، فإننا نخاف أن يجيئونا مِنْ ورائنا، والزموا مكانكم ولا تبرحوه، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقبل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل»[٢].

ثم التقى الجمعان، وبدأ القتال أولًا بالمبارزة، فكان النصر في جانب المسلمين، ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات، وفي كل مرة ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون.

ثم حمي القتال، وكان نساء قريش يمشين خلال الصفوف يضربن بالطبول والدفوف، وعلى رأسهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وهن يقلن:

ويْها بني عبد الدار ويهـا حماة الأدبار
ضربًا بكل بتار

ويقلن:

إن تقبلـوا نعانـق ونفـرش النمارق
أو تدبـروا نفـارق فراق غيـر وامق[٢]

(١) وأمّر عليهم عبد الله بن جبير.
(٢) انظر: مسلم حديث، رقم(٢٧٧٦).
(٣) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (١٩١/٤).

فيشتد حماس الرجال إذا سمعوا نشيد النساء. ويتذكّرون إخوانهم الذين قُتلوا في يوم بدر، فتزداد حميتهم وإقبالهم على القتال، وكان ﷺ كلما سمع نشيد النساء يقول: «اللهم بك أَجُول، وبك أَصُول، وفيك أقاتل، حسبي الله ونعم الوكيل»[١].

ولم يكن المسلمون بحاجة إلى من ينشد لهم الأشعار ليدفعهم إلى القتال، وإنما كانوا يندفعون بإيمانهم العميق، ويقبلون على الموت في سبيل الله، لأن الله وعدهم إحدى الحسنيين: إما النصر، وإما الشهادة، وفي كل منهما خير وسعادة.

صور من البطولة والإيمان:

وهناك أمثلة كثيرة من البطولة والإيمان في هذه الغزوة، وحسبنا أن نسجل الآن بعضها، عسى أن يكون في ذلك ذكرى وتبصرة.

فهذا أبو دجانة يلبس عصابته الحمراء، وكان يسميها عصابة الموت، ويمشي بين صفوف المجاهدين مشية الخيلاء، ويراه النبي ﷺ، فيقول: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن.

وقد نزل إلى الميدان بعد أن أخذ السيف من رسول الله ﷺ، وأخذ ينشد:

أنـا الـذي عاهدنـي خليلـي ونحـن بالسـفح لـدى النخيل
ألا أقـوم الدهـر فـي الكيول أضرب بسـيف الله والرسـول

وهو يقصد بالكيول مؤخرة الصفوف، فكأنه يقول: لن أكون أبدًا إلا في المقدمة، ما دمت أضرب بسيف الله والرسول، وقد أَعمَلَ سيفه في المشركين، فألقى في قلوبهم الرعب.

وحينما انكشف ظهر المسلمين في آخر المعركة، وأصبح رسول الله ﷺ هدفًا لنبال المشركين تترس عليه أبو دجانة، فظل النبل يقع على ظهره وهو منحنٍ على

(١) انظر: البيهقي: الدلائل، (٢٠٣/٣).

جسم الرسول ﷺ حتى انجلت المعركة، وهكذا آثر رسول الله على نفسه، وأحبَّ رسولَ الله ﷺ أكثرَ من حبه لنفسه[(١)].

وهذا أبو خيثمة، قُتل ابنه في معركة بدر، فجاء إلى رسول الله ﷺ يقول: لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت ـ والله ـ عليها حريصًا، حتى ساهمت ابني في الخروج في القرعة فخرج سهمه فَرُزِقَ الشهادة، وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، ويقول لي: الْحقْ بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقًّا.

ثم قال: وقد أصبحتُ يا رسول الله مشتاقًا إلى مرافقته، وقد كبرت سني ورق عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة ابني في الجنة، فدعا الرسول له، فنال نعمة الاستشهاد في هذه المعركة[(٢)].

وكان عمرو بن الجموح أعرجَ شديد العَرَج، وكان له أربعة أبناء شباب، يغزون مع رسول الله ﷺ، فلما توجه الرسول ﷺ إلى أحد، أراد أن يخرج معه فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد.

فأتى عمرو رسول الله ﷺ، فقال: إن بنيَّ هؤلاء يمنعوني أن أجاهد معك، ووالله إني لأرجو أن أستشهد، فأطأَ بعرجتي هذه في الجنة.

فقال له رسول الله: «أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد». وقال لبنيه: «وما عليكم أن تدعوه لعل الله ـ عز وجل ـ أن يرزقه الشهادة». فخرج معَ رسول الله ﷺ، فقتل يوم أحد شهيدًا، وحقق الله له ما طلبه وتمناه[(٣)].

---

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/١٩٣).
(٢) الواقدي: المغازي، (١/٢١٢)، المقريزي: إمتاع الأسماع، (٩/٢٥٠).
(٣) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/١٨٣).

وكان نعيم بن مالك يقول في ذلك اليوم: "فوالذي نفسي بيده لأدخلن الجنة". فيقول له الرسول ﷺ: «بم؟» أي: بأي شيء تستحق دخول الجنة؟ فيقول: بأني أحب الله ورسوله، ولا أفر يوم الزحف. فيقول له الرسول ﷺ: «صدقت...» وكتب الله له الشهادة في هذا اليوم ودخل الجنة، وهكذا أقسم على الله فأبرَّه[(١)].

وقد حمل المسلمون على لواء المشركين فكان إذا سقط اللواء من يد واحدٍ أخذه مَن خلفَه، فيحمل عليه المسلمون فيقتلونه، فيأخذ اللواء رجل آخر حتى قُتِل حَمَلَةُ اللواء من المشركين، ولما لم يقدر أحد على الدنوّ منه ولَّوا الأدبار، ونساؤهم يبكين ويولولْنَ، وتبعهم المسلمون يجمعون الأسلاب والغنائم[(٢)].

الرماة وتغيير الوضع:

ولما رأى الرماة الذين أوقفهم الرسول ﷺ فوق الجبل ليحموا ظهور المسلمين، لما رأوا المسلمين قد بدأوا يجمعون الأسلاب والغنائم، نسوا [(٣)] أمر النبي ﷺ لهم، فتركوا موقفهم الحصين، ونزلوا إلى مكان القتال؛ ليجمعوا ما يستطيعون من تلك الأموال التي خلَّفها المشركون![(٤)].

---

(١) المواهب اللدنية، (١/٣٩٤).
(٢) الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (٢/٦٢).
(٣) بل لم يتقيدوا بالأوامر، ولفظ البخاري في حديث البراء بن عازب، (٣٨١٧): فقال عبد الله بن جبير للرماة ـ لما انكسر المشركون وفروا ـ عهد النبي ﷺ ألا تبرحوا فأبوا، فلما أبوا صرف الله وجوههم فأصيب سبعون قتيلًا...» وكذا جاء في غالب الروايات وفي كتاب الله تعالى يصف ذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم ...﴾.
(٤) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/١٤٤).

وقد نصحهم رئيسهم عبد الله بن جبير بألا يتركوا مكانهم حرصًا على أوامر الرسول ﷺ فلم يستمع إليه سوى نفر دون العشرة[١].

وانتهز خالد بن الوليد[٢] هذه الفرصة، وكان على فرسان مكة، فشد برجاله على مكان الرماة، فقتل من ثبت منهم، وفاجأ المسلمين من ورائهم وهم مشغولون بدنياهم، فاستولى عليهم الرعب والفزع، وسادت الفوضى في صفوفهم، حتى صار يضرب بعضهم بعضًا وانعكست الآية.

فبعد أن كان المسلمون يقاتلون صفًّا كأنهم بنيان مرصوص، إذا بهم الآن يقاتلون مبعثرين متناكرين دون رئيس يوجههم أو قائد يرعاهم... وشاع بين الناس أن محمدًا ﷺ قد قتل، فعظمت البليّة بين المسلمين، وفرح المشركون[٣].

ولولا ثبات القائد ﷺ، والنفر البواسل من أصحابه المؤمنين، لكانت الكارثة. استرد المسلمون وعيهم للموقف بعد أن ساورهم اليأس منه، إذ أرجف المشركون أن «محمدا قد قتل» لكنه، ﷺ، كان هناك، جريحا مخضب الوجه بالدماء، يوجه جنده من مكانه في قلب الميدان لم يبرحه.

ومن حوله النفر المؤمنون، قد جعلوا من أجسادهم دروعا وتروسا لوقاية قائدهم النبي ﷺ. وما إن صاح أحدهم ببشرى حياته ﷺ، حتى عاد المسلمون جميعا فأخذوا مواقعهم في الجبهة.

ولكنه ﷺ على الرغم من ذلك أصيبت رباعيته، وشج في جبهته، وجرحت شفته، ودخلت حلقتان من المِغْفَر الذي يستر به وجهه في وجنته، واستمات المسلمون بعد ذلك في القتال، ولكن دون جدوى، فاضطروا إلى الانسحاب والصمود في الجبل بعد أن قتل منهم سبعون شهيدًا.

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/١٩٣).
(٢) وكان يومها لم يزل مشركًا مع الكفار.
(٣) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/١٤٥).

وقد قتل في هذه الغزوة حمزة بن عبد المطلب ﷺ، ومَثّلَتْ به هند زوج أبي سفيان بعد قتله ﷺ، فبقرت بطنه، وأخرجت كبده فمضغتها بأسنانها ثم لفظتها.

وقد حزن النبيّ ﷺ على عمه أشد الحزن، وسجّاه ببردته ﷺ، وصلى عليه ثم دُفن ودُفن معه سائر الشهداء حيث لقوا مصارعهم[١].

رسالة من شهيد:

في ذلك اليوم العصيب، افتقد النبيّ ﷺ صاحبه سعد بن الربيع الأنصاري ـ أحد النقباء في بيعة العقبة الكبرى ـ فقال لمن حوله: «مَن رجلٌ ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟» فذهب رجل من الأنصار ينظر لرسول الله ﷺ ما فعل سعد، فألفاه على ساحة القتال جريحا وبه رَمَقٌ.

فأخبره عما كان من افتقاد النبيّ ﷺ إياه وسؤاله عنه، فجمع سعد ما بقي له من طاقة المحتضر وقال: «أبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته. وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص العدو إلى نبيكم ﷺ، ومنكم عين تطرف»[٢].

وأسلم الروح مطمئنا، بعد أن بعث رسالته إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وإلى قومه الأنصار.

ولم ينس النبيّ ﷺ وأصحابُه سعدَ بنَ الربيع، ولا نسيه تاريخ الإسلام الذى استوعب رسالة هذا الجندي الشهيد، وعرف مغزاها ودلالتها، ورصد موقعها من نفوس المؤمنين: تزيدهم ثباتا وقوة واستبسالا وإصرارا. ومن نفوس أعدائهم:

(١) البيهقي: الدلائل، (٣/٢٤٨).
(٢) وهو عند مالك في «الموطأ»، (٢/٤٦٦) بسند معضل.

تهز ثقتهم في جدوى معركة خاسرة بلا ريب، يخوضونها مع أمثال هؤلاء الجنود المؤمنين الذين يرون الموت في سبيل عقيدتهم: شرفا وحياة.

روى ابن هشام في السيرة النبوية: أن رجلا دخل على أبي بكر الصديق ﷺ، وقد ضم طفلة صغيرة إلى صدره، وأقبل عليها يلاعبها ويقبلها.

فسأل الرجل: من هذه؟

أجاب الصديق: هذه بنت رجل خير مني: سعد بن الربيع. كان من النقباء يوم العقبة، وشهد بدرا، واستشهد يوم أحد(١).

وكل نفس ذائقة الموت، ولكن الصفوة من عباد الله المؤمنين هم الذين يستقبلون الموت في سبيل الله راضين مطمئنين: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٨ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

ثم دفن الشهداء في أماكنهم التي قتلوا فيها، ورجع المسلمون بعد ذلك إلى المدينة يحز في نفوسهم الألم لما أصابهم، ويتطلعون ليوم قريب يشفي الله فيه صدورهم، ويذهب غيظ قلوبهم.

نتيجة غزوة أحد:

أجمع عدد كبير من المؤرخين على أن غزوة أحد كانت في نهايتها نصرًا للمشركين وهزيمة للمسلمين، ولكن لا أتفق مع المؤرخين في اعتبار نتيجة غزوة أحد نصرًا للمشركين واندحارًا للمسلمين؛ لأن مناقشة المعركة عسكريًّا تظهر انتصار المسلمين، على الرغم من خسائرهم الفادحة بالأرواح في هذه المعركة … وتبدأ المناقشات من الوجهة العسكرية البحتة لإظهار حقيقة نتائج غزوة أحد.

(١) وهو عند مالك في «الموطأ»، (٤٦٦/٢) بسند معضل.

لقد انتصر المسلمون في ابتداء المعركة حتى استطاعوا طرد المشركين من معسكرهم، والإحاطة بنسائهم وأموالهم، وتعفير لوائهم في التراب، ولكن التفاف خالد بن الوليد وراء المسلمين وقطع خط رجعتهم، وهجوم المشركين من الأمام جعل قوات المشركين تطبق من كافة الجوانب على قوات المسلمين.

وهذا الموقف في المعركة جعل خسائر المسلمين تتكاثر، ولكن بقي النصر بجانبهم إلى الأخير، لأن نتيجة كل معركة عسكريًّا لا تقاس بعدد الخسائر بالأرواح فقط، بل تقاس بالحصول على هدف القتال الحيوي، وهو القضاء المبرم على العدو ماديًّا ومعنويًّا.

فهل استطاع المشركون القضاء على المسلمين ماديًّا ومعنويًّا؟

إن حركة خالد كانت مباغتة للمسلمين بلا شك، وقيام المشركين بالهجوم المقابل وإطباقهم على قوات المسلمين من كافة الجوانب، وهم متفوقون بالعدد إلى خمسة أمثال المسلمين، لا يمكن أن يعد التفاف قوة متفوقة تفوقًا ساحقًا على قوة صغيرة أخرى من جميع جوانبها، ثم نجاة تلك القوة الصغيرة بعد إعطاء خسائر عشرة في المائة نصرًا، ولا يمكن اعتبار فشل القوة الكبيرة في القضاء على القوة الصغيرة ماديًّا ومعنويًّا، في مثل هذا الموقف الحرج للغاية إلا فشلًا لها.

ولم تستطع قريش أن تؤثر على معنويات المسلمين أيضًا، وإلا لما استطاعوا الخروج لمطاردتها بعد يوم واحد من غزوة أحد، دون أن تتجرأ قريش على لقائها بعيدًا عن المدينة، وخاصة وأن الرسول ﷺ قد خرج للقاء قريش بقوته التي اشتركت فعلًا بمعركة أحد، دون أن يستعين بغيرهم من الناس.

إن نجاة المسلمين من موقفهم الحرج الذي كانوا فيه بأحُد نصر عظيم لهم، لأن أول نتائج إطباق المشركين عليهم من كافة الجهات كانت الفناء التام(١).

(١) محمود شيت خطاب: الرسول القائد، (ص ١١٩-١٢٠).

www.almoslih.net

ولنا من موقف النبيّ ﷺ من المسلمين حينما رجعوا من غزوة مؤتة ما يؤكد ذلك.

فلقد استطاع خالد بن الوليد أن ينقذ ما بقي من جيش المسلمين من الفناء التام، بما صنع من خطة حربية مكّنتْه من تضليل الأعداء والانسحاب بانتظام، وحينما رجع الجيش إلى المدينة قابلهم المسلمون الذين نظروا نظرة سطحية إلى الموقف وحثوا في وجوههم التراب، وقالوا لهم: يا فُرّار فررتم من الجهاد في سبيل الله.

ولكن الرسول ﷺ وقد نظر إلى الموقف من جميع نواحيه ـ اعتبرهم منتصرين، وحياهم أحسنَ تحية، فقال: «لا، بل هم الكُرّار وأنا فئتُهم»(١).

وبعدُ، فإن خير ما نختم به غزوة أحد، هو ذلك الدعاء الذي دعا به النبيّ ﷺ بعد رجوعه من هذه الغزوة، فلقد روى الإمام أحمد(٢): لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثني على ربي ـ عز وجل ـ» فصاروا خلفه صفوفًا فقال:

«اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضلّ لما هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت، اللهم ابسط علينا بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

---

(١) جاءت هذه الواقعة، وهذا القول من عدة وجوه، وانظر «المسند»، (٢/٨٦، ١٠٠، ١١١)، و«سنن أبي داود»، (٢٦٤٧)، و«الترمذي»، (١٧١٦)، وابن سعد، (١/٤٠٦) ترتيب طبقاته وغير ذلك.

(٢) في المسند، (٣/٤٢٤)، وهو عند البزار، (١٨٠٠)، والطبراني في «الكبير»، (٤٥٤٩)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد»، (٦/ ١٢٢)، وعزاه للأولين فقط، بزيادة في آخره «اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل لعزة أهل الكتاب، إله الحق». وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح.

اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، وشرِّ ما منعْتَنا، اللهم حبِّبْ إلينا الإيمان وزيِّنْه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين».

غَزوةُ حَمراءِ الأَسَد

كان النبيّ ﷺ يتابع أخبار المشركين بعد أن انصرفوا من أُحُد، بواسطة عيونه التي يبثّها في صفوف المشركين ليتسقّط أخبارهم، وقد بلغه أن المشركين أثناء الطريق تفكروا في أمر هذه الحرب، فلم يطب لهم ما حقّقوه من قتل، ثم مغادرة الساحة بلا نصر صريح، فكان يلوم بعضهم بعضا، لعدم الصبر حتى النصر المؤزر الصريح.

فعن ابن عباس ﷺ قال: «لما انصرف المشركون عن أحد، وبلغوا الروحاء قالوا لا محمدا قتلتُم، ولا الكواعبَ أردفتم، وبئس ما صنعتم، ارجعوا. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب الناس، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد»[(١)].

ومنهم من يقول: «بئس ما صنعتم، إنكم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم قبل أن يجدوا قوة وشوكة»[(٢)].

وفي لفظ آخر: "مَا صَنَعْنَا شَيْئًا، أَصَبْنَا أَشْرَافَهُمْ ثُمَّ رَجَعْنَا قَبْلَ أَنْ نَسْتَأْصِلَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ وَفْرٌ" وكان المتكلم بهذه المقولة هو عكرمة بن أبي جهل[(٣)].

إنه يريد أن يقول لقومه: إذا كان محمد رأس الدعوة ما زال حيا، وأنتم لم تجعلوه يعلن الهزيمة الصريحة، ولم تأسروا العبيد والجواري من صفوف جيشه، فماذا تعدّ هذه الحرب، إنه فوز عقيم وهمي لا حقيقة له.

(١) النسائي: السنن الكبرى، برقم (١١٠٨٣).
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٥٥٠).
(٣) الواقدي: المغازي، (١/٣٣٨).

وعندما ترامت هذه الأنباء إلى سمع النبيّ ﷺ، وما كانت تعزم عليه قريش من العودة إلى المدينة خرج بمن حضره يوم أحد من المسلمين دون غيرهم إلى حمراء الأسد.

قال ابن إسحاق: "كان أحد يومَ السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد يوم الأحد سادسَ عشرَ من شوال: أذّن مؤذّن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وألا يخرجَ معنا إلا من حضر بالأمس، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه فأذن له، وإنما خرج مرهبًا للعدو، وليظنوا أن الذي أصابهم لم يوهنْهم عن طلب عدوِّهم"[(١)].

ولم يخرج معه أحد من الناس لم يشهد أحدا إلا جابر بن عبد الله، حيث قال له: "يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن تترك هؤلاء النسوة لا رجُلَ فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف على أخواتك، فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه"[(٢)].

وقد لبّى أصحاب النبي ﷺ هذا النداء للجهاد، لم يتخلف منهم أحد حتى أولئك الذين جُرحوا جروحا عميقة، فهذا رجل من بني عبد الأشهل يقول: "شهدت أحدًا أنا وأخ لي، فرجعنا جريحَين، فلما أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل.

فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسرَ جرحًا منه، فكان إذا غلب حملتُه عُقْبَة، ومشى عُقْبَةً (نوبة)، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون[(٣)].

(١) ابن هشام: السيرة، (٤/٥١، ٥٢).
(٢) ابن هشام: السيرة، (٤/٥٢).
(٣) البيهقي: الدلائل، (٣/٣١٤)، وما بعدها، ابن هشام: السيرة، (٤/٥٢).

www.almoslih.net

وسار رسول الله ﷺ في طلب المشركين حتى وصل إلى مكان يدعى حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة في اتجاه مكة، واقترب بجنوده من جيش المشركين، فأقام فيه ثلاثة أيام يتحدى رجوع المشركين، فلم يتشجعوا على لقائه ونزاله، وكان رسول الله ﷺ قد أمر بإشعال النيران، فكانوا يشعلون في وقت واحد خمسمائة نار.

وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان، فيخذله، فلحقه بالروحاء، ولم يعلم بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: "محمد وأصحابه، فقد تحرّقوا عليكم، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم، فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة.

فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم لنستأصلهم، قال معبد: فإني أنهاك عن ذلك، فثَنَى ذلك أبا سفيان. فأمر مَن معه بمواصلة السير إلى مكة، ليعلنوا فوزهم ويتغنَّوا به أمام العرب.

وحاول أبو سفيان بذكائه الحربي أن يخفي هذا الانسحاب بطريقة تحفظ للجيش كرامته، فوجد قافلة من بني عبد القيس قد توجهت نحو المدينة تريد الميرة، فأرسل رسالة إلى النبي ﷺ ترهيبية حيث قال لهم:

"أما أنتم مُبَلِّغون عني محمدًا رسالةً أُرْسِلُكُم بها إليه، وأحْمِلُ على إبلِكم هذه زبيبًا بعكاظَ غدا إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم. قال: فإذا جئتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا الرجعة إلى أصحابه لنستأصلهم، فلما مر الركب برسول الله وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأمرهم به، فقال رسول الله والمسلمون معه: حسبنا الله ونعم الوكيل".

وانتظرهم النبي ﷺ بهذا المكان ثلاثة أيام، فتأخر جيش المشركين، فعلم النبي ﷺ أنهم قد جبنوا عن الرجوع، وآثروا هذا القدْرَ من الفوز حفظا لماء

الوجه، فعاد المسلمون إلى المدينة بروح متفائلة، وقد أزال هذا الفوز المعنوي كثيرا من آثار الهزيمة، ورفعت من روحهم المعنوية، وأحبطتْ كثيرا من شماتة المنافقين واليهود في المدينة، وإن لم تستطع أن تمحو كلَّ ذلك نهائيا.

وقد خلّد القرآن الكريم هذه الموقعة، وأثنى على موقف المسلمين فيها بعدما ثبتوا وانتظروا عدوّهم ثلاثة أيام، وهم قد علموا أنهم قد جمعوا لهم، وعادوا لاستئصال شأفة المسلمين، ومع ذلك لم يجبنوا مع ما بهم من جراح، فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٥].

أَحوَالُ المَدِينَةِ بَعدَ أُحُد

وقع الحدث على طوائف المدينة:

١ شماتة الأعداء:

رجع المسلمون من حمراء الأسد ليمارسوا حياتهم مرة ثانية في المدينة، فلا بد للحياة أن تستمر، وضياع النصر في جولة من الجولات ليس نهاية المطاف، فقد كان لذلك أسباب موضوعية قد بينها الله عز وجل لهم في كتابه، وأصبحوا يتلونها في صلواتهم لتكون عالقة في أذهانهم وأذهان من يأتون بعدهم إلى يوم القيامة.

فلا بد من تعلم الدروس والعبر من هذه الهزيمة التي زاد من مرارة الإحساس بها أنها جاءت بعد نصر مؤزر خالص، فبينما هم يجمعون الغنائم والأسلاب ظنّاً منهم أن المعركة قد انتهت، فإذا هم بعدوّهم يأخذهم على غرة.

وقد ساهمت غزوة حمراء الأسد التي تم شرحها في الفصل السابق من تخفيف آثار تلك المشاعر بين صفوف المسلمين نسبيا.

ولقد كان من الطبيعي أن يشعر المسلمون بالحزن، بل يشعروا ببعض الحسرة لهذا المصاب الجلل، وأن تظل هذه المشاعر الحزينة معهم فترة من الزمن، حتى يخرجوا ثانية بكامل نشاطهم للحياة.

ولكنّنا هنا نجد أن كل القوى المعادية للدعوة الإسلامية في المدينة وما حولها من المنافقين واليهود والأعراب، والقبائل العربية الوثنية المتحالفة أو المتعاطفة

مع قريش، قد حاولوا الاستفادة من هذا الجو الحزين في صفوف المسلمين في ضرب الإسلام ذاته في مقتل، وأشاعوا جوًّا من الشماتة والتشكيك في العقيدة بين المسلمين، ومحاولة الاعتداء على مقدرات المدينة.

وظنّت هذه القوى أن شمس المسلمين قد دخلت في طور الأُفول والمغيب، فأخذوا يجاهرون بالعداوة، بلا مواربةٍ ولا خجلٍ.

١ موقف المنافقين:

أما المنافقون فقد تمثلت شماتتهم في تقريع المسلمين على عدم الانصياع لرأيهم، ومتابعة رأي الغلمان الذين لا خبرة لهم، فجرّوا على أنفسهم الهزيمة والخيبة، وبالغ المنافقون في لوم المؤمنين، وتأنيبهم على الجهاد مع النبي ﷺ، مع الحكم على أنفسهم بأنهم كانوا أبعدَ نظرا وأثقبَ رؤيةً، حين تركوا القتال، ولو أطاع المسلمون رأيهم، فرجعوا ما كانوا ليهزموا، وما كانوا ليقتلوا.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الموقف للمنافقين وبكّتهم عليه، فقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٧، ١٦٨].

فيرد الله عز وجل عليهم هذا الرد العملي، إن كنتم صادقين في دعواكم تلك فأبعدوا الموت عن طريقكم، فالله عز وجل قد كتب الموت على كل نفس، ثم يوضح بعد ذلك أن هؤلاء المقتولين في سبيل الله هم أحياء عند ربهم يرزقون قد نالوا أجر الشهادة، وهو أفضل لهم من هذه الحياة الدنيا.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ

www.almoslih.net

خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

يقول القرطبي: «لما بين الله تعالى أن ما جرى يوم أحد كان امتحانا يميز المنافق من الصادق، بين أن من لم ينهزم، فقتل له الكرامة والحياة عنده»(١).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب.

فقال الله سبحانه أنا أبلغهم عنكم». قال: فأنزل الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ إلى آخر الآيات(٢).

ب موقف اليهود :

وأما اليهود فقد حاولوا اغتنام هذه الفرصة الذهبية في بث الدعاية الكاذبة حول شخص النبي ﷺ، وظلوا يرددون أنه لو كان نبيا صادقا لما انتصر عليه أعداؤه، فليس هذا بالنبيّ الموعود الذي بشرت به التوراة، وإنما هو طالب ملك، يفوز مرة ويهزم أخرى.

كما أنهم أعلنوا عداءهم لهذه الدعوة غيرَ مرة، وساعدوا المشركين، وهَمَّ بعضُهم باغتيال النبي ﷺ، مما كان يستوجب معهم وقفة حازمة تزيل هذه الضغائن والأحقاد من جذورها.

ج موقف الأعراب والقبائل الوثنية :

وأما تلك القوى المتعاطفة مع قريش لوثنيتها، وكذلك الأعراب الذين

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (٤/٢٦٨).
(٢) أبو داود، برقم (٢٥٢٠)، وحسنه الألباني في: صحيح وضعيف سنن أبي داود، (٦/٢٠).

يقيمون حول المدينة، ويعيشون على السلب والنهب، فقد وجدوها فرصة سانحة للانقضاض على أهل المدينة قبل أن يفيقوا من أثر تلك الهزيمة، وكانت الدعايات الكاذبة التي كان يرددها اليهود مما كان يهيج هذه القبائل العربية والمنافقين وقطاع الطرق ويجرّئهم على النبي ﷺ.

فما أصبحوا يخافون شيئا، ولا يدور في أذهانهم أنه نبيٌّ مؤيد بمَدَدِ السماء، فظنوا أنهم قادرون على الإغارة على المدينة متى شاءوا، وأن المسلمين قد أصبحوا في حالة من الضعف والهوان، لا يستطيعون معها صدّ هذه الهجمات والإغارات.

٢ سرايا تأديبية:

كانت كل العوامل السابقة مجتمعة تحتاج إلى حكمة بالغة في التعامل معها حتى لا ينفرط عقد الدولة، ويطمعَ فيها أعداؤها، فلا بد من توجيه الضربات القاصمة لمن تسوّل له نفسه أن يغير على المدينة ليهدد استقرارها وأمنها، ويشيع فيها الفساد والفوضى.

ومن هنا فقد تعددت السرايا التي أرسلها النبي ﷺ لردع هؤلاء المفسدين، وتأديبهم قبل أن يصلوا إلى حدود المدينة ليعيثوا فيها فسادا.

فكان كلما علم بأن قوما قد أعدوا جيشا للإغارة على المدينة، فاجأهم على الفور قبل أن يصلوا، وربما قبل أن يتحركوا من موطنهم وموطن تجمّعهم أصلا، فخير وسيلة للدفاع هي الهجوم، ولكنِ الهجومُ المنضبط بضوابط الردع والحماية ولا ينطوي على ظلم للآخرين.

وقد تمثلت هذه الحملات فيما يأتي:

١ سرية أبي سلمة لتأديب بني أسد :

قبيلة بني أسد من القبائل الوثنية المناوئة للنبي ﷺ المعينة لقريش في حربها

على النبي ﷺ، وقد جاءت الأخبار إلى النبيّ ﷺ باستعدادات هجومية قام بها بنو أسد بن خزيمة بقيادة طليحة الأسدي، وأخيه سلمة للإغارة على المدينة طمعا في خيراتها، ومظاهرةً لقريش في عدوانها على المسلمين.

وكان الذي حمل هذه الأنباء رجلٌ من طيِّئ، يقال له الوليد بن زهير بن طريف، كما أخبر أيضًا: أنه تركهما قد سارا في قومهما ومن أطاعهما لحرب رسول الله ﷺ[(١)].

وما إن وصلت تلك الأنباء إلى النبي ﷺ حتى بادر على الفور إلى تشكيل سريّة من المهاجرين والأنصار قوامُها مائة وخمسون رجلا، لصدّ هذا الهجوم المباغت قبل أن يبدأ.

وعقد اللواء لأبي سلمة بن عبد الأسد، وأرسله إلى ديار بني أسد، فباغتهم على ماء لهم في ديارهم يقال له قطن، وقد ذعروا من هذه المفاجأة غير المتوقعة بهذه السرعة، فتفرقوا هاربين، وتركوا نعمًا كثيرا لهم من الإبل والغنم، فأخذ ذلك كله أبو سلمة، وأسر منهم معه ثلاثة مماليك، وأقبل راجعا إلى المدينة[(٢)].

ب سريّة عبد الله بن أنيس :

وما حدث من بني أسد حدث أيضًا من الهذليين، حيث «بلغ رسول الله ﷺ أن سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي ثم اللحياني، نزل عرنة وما حولها في ناس فجمع لحربه، وضوى إليه بشرٌ كثيرٌ من أَفْنَاء العرب»[(٣)]. بغرض غزو المدينة انتصارا منه لقريش، وتزلّفًا إليها من ناحية، ومن ناحية أخرى طمعا في خيرات المدينة، وما يستطيع نهبه منها.

وإذ فكر هذا الرجل في غزو المدينة وظل يجمع الناس للغزو، فقد أصبحت المواجهة ضرورية، فأرسل ﷺ الصحابي عبد الله بن أنيس الجهني وحده إليه بعد

---

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١٨١/١). (٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (١٢١/٣).
(٣) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢٥٦/١).

أن كلّفه بمهمة قتله، فإذا ما تم قتل القائد تفرق الجيش ورجع عن قتاله، فقام إليه عبد الله بن أنيس، فوجده في وادي عرنة، وهو ما زال يجمع الجيوش لحرب النبي ﷺ، فاحتال عليه عبد الله بن أنيس حتى إذا تمكن منه قتله، وانصرف إلى المدينة.

ويحدث عبد الله بن أنيس بهذه الوقعة وما حدث له فيها فيقول: «دعاني رسول الله ﷺ، فقال: إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني وهو بعرنة، فأتِه فاقتُله. قلت: يا رسول الله انعته لي حتى أعرفه، قال إذا رأيته وجدت له قشعريرة.

قال فخرجت متوشحا بسيفي حتى وقعت عليه، وهو بعرنة مع ظعن يرتاد لهن منزلا، وحين كان وقت العصر فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلت نحوه وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي للركوع والسجود.

فلما انتهيت إليه، قال: من الرجل؟ قلت رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لهذا. قال: أجل أنا في ذلك.

قال فمشيت معه شيئا حتى إذا أمكنني، حملت عليه السيف حتى قتلتُه، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه، فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني فقال: أفلح الوجه. قال: قلت: قتلته يا رسول الله. قال: صدقت.

قال: ثم قام معي رسول الله ﷺ، فدخل في بيته، فأعطاني عصا فقال أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس. قال: فخرجت بها على الناس فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أمسكها، قالوا: أولا ترجع إلى رسول الله ﷺ، فتسأله عن ذلك؟

قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فقلت يا رسول الله، لِمَ أعطيتني هذه العصا؟ قال آية بيني وبينك يوم القيامة أن أقلّ الناس المتخصرون يومئذ، يوم القيامة، فقرنها عبد الله بسيفه، فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها فصبت معه في كفنه ثم دُفِنا جميعا»[1].

٣ أساليب الغدر الوثنية:

كان نجاحُ المسلمين في التعرف على مكامن الخطر وصده قبل أن يستفحل، وغزوُ كلِّ مَن يفكر في تجميع جيش للانقضاض على المدينة، ومقتلُ خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي قائدُ جيش المشركين في الغزوة السابقة على هذا النحو سببًا في تغيير هذه القبائل في استراتيجية الهجوم على المدينة.

فقد علموا أن النبي ﷺ تصله أنباء تحركات الجيوش المهاجمين للمدينة، كما تصله أنباء التجمعات العسكرية للإغارة المنظمة والسلب والنهب من مقدرات المدينة، كما كان هو الحال في تلك الحقبة من حياة العرب، فقد كانت هناك قبائل بأكملها تحيا على السلب والنهب والإغارة.

فتم تغيير الاستراتيجية إلى طريقة الغدر والخيانة كما سيأتي بيانه في الحادثتين التاليتين.

١ حادثة يوم الرجيع :

لقد كان النبي ﷺ يقظا في التعامل مع كل من حاول أن يكوّن مجموعة من المقاتلين

(١) مسند أحمد، برقم (١٦٠٤٧) حيث أنه رواه عنه كما قال مخرجوه: «ابن عبد الله بن أنيس.. ترجم له البخاري في "التاريخ" (١٢٥/٥)، وابن أبي حاتم، (٩٠/٥)، وابن حبان في "الثقات" (٣٧/٥)، ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا. وباقي رجال الإسناد ثقات.. وأخرجه أبو داوود، (١٢٤٩) مختصرا، وصححه ابن خزيمة، (٩٨٢).. وحسن الحافظ إسناد أبي داوود في "الفتح" (٤٣٧/٢٩)...».

للإغارة على المدينة، ونجح في صد جميع هذه الهجمات بلا استثناء، ولم يُفلت قبيلةً واحدة حاولت الاعتداء، وأصبحت لديه القوة المنظمة التي تردع هؤلاء جميعًا.

ومن هنا رأت هذه القبائل أنه يجب أن تغير أساليب المواجهة والحرب، فبدلًا من المواجهة العسكرية الصريحة وتكوين الجيوش للسير بها إلى المدينة، لجأت هذه القبائل إلى سلاح آخر وهو الغش والخداع والنفاق والتظاهر بالإسلام للثأر من أهله من الداخل، والفتك بأصحابه والغدر بهم.

ومن هذا القبيل ما حدث يوم الرجيع؛ فقد ذهب إلى رسول الله ﷺ مجموعة رجال من قبائل عضل والقارة، وزعموا له أن قومهم رغبوا في الإسلام، ويريدون أن يرسل معهم رجالا من أصحابه، ليتعلموا منهم الدين والقرآن.

قال ابن إسحاق: «فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاما، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ نفرا ستة من أصحابه؛ وهم:

١. مرثد بن أبي مرثد الغنوي.
٢. خالد بن البكير الليثي.
٣. عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح.
٤. خبيب بن عدي.
٥. زيد بن الدثنة بن معاوية أخو بني بياضة.
٦. عبد الله بن طارق حليف بني ظفر»[1].

خرج هذا الوفد الذي أرسله النبي ﷺ، فلما وصلوا عند ماء من مياه هذيل يقال له "الرجيع" غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلا، فلم يلبث القوم إلا قليلا حتى خرج

(١) ابن هشام: السيرة، (١٢٢/٤)، وما بعدها "بتصرف".

عليهم رجال هذيل في نحو مائتي رامٍ، يمطرونهم بالنبال ويطلبون منهم أن يستأسروا وإلا قتلوا، وقال هؤلاء الغادرون الفجرة لهذا الوفد الكريم: «والله ما نريد قتلَكُم، ولكنّا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة، ولكم عهدُ الله وميثاقُه أن لا نقتلَكم»[(١)].

موقف وفد الصحابة ﷺ من هذا الغدر:

انقسم موقف وفد الصحابة تجاه هذا الغدر الفاضح إلى فريقين:

الأول: وهو فريق مرثد بن أبي مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت، وهؤلاء رفضوا اللين مع هؤلاء الغادرين، ولم يثقوا بهم قيد أنملة، وقاتلوا هذا الجيش حتى قتلوا وضَربوا أعظَمَ المثَل في الصبر والثبات على القتال حتى الموت.

وقد أورد الرواة لعاصم بن ثابت أبياتا من الشعر أنشدها عاصم في هذا الموقف:

قال عاصم بن ثابت:

ما علتي وأنا جَلْدٌ نابل ... والقوس فيها وتر عنابل
تزِلُّ عن صفحتها المعابل ... الموت حق والحياة باطل
وكل ما حَمّ الإلهُ نازل ... بالمرء والمرءُ إليه آئل
إن لم أقاتلكم فأمّي هابل

وقال أيضًا[(٢)]:

أبو سليمان وريشُ المعقد ... وضالة مثل الجحيم الموقَد
إذا النواجي افترشت لم أُرْعَدِ ... ومُجْنأٌ من جلد ثورٍ أجردِ
ومؤمن بما على محمد

وتقدم عاصم وصاحباه ليقاتل القوم حتى قتلوا جميعا.

(١) ابن هشام: السيرة، (١٢٣/٤).
(٢) المصدر السابق نفسه.

كرامة من الله لعاصم بن ثابت:

كان عاصم بن ثابت قد قتل يوم أحد أثناء المعركة أخوين هما ابنا امرأة، تدعى سلافة بنت سعد بن شهيد، وكانت نذرت على نفسها أنها إن قدرت على رأس عاصم لتشربَنَّ في قحفه الخمر تشفّيًا منه لقتله ولديها في المعركة، ولكي تبرَّ بنذرها أعلنت عن مكافأة قدْرها مائة ناقة لمن يأتيها برأس عاصم.

وانتشر الخبر في القبائل، فلما غدر به هؤلاء القوم أرادوا أخذ رأسه ليحصلوا على هذه الجائزة القيمة، وبالفعل حاولوا أن يأخذوا رأس عاصم بن ثابت بعد مقتله، ولكن الله عز وجل حماه منهم، وسلط الله عزوجل عليه الدبر[(١)] يحوط جسده، ويحول بينهم وبين الوصول إليه، فلما رأوا أنهم لن يصلوا إليه، قالوا: دعوه يمسي فتذهب عنه، فنأخذه فبعث الله عز وجل سيلًا على الوادي فاحتمل عاصمًا، فذهب به، ولم يقدروا على النيل منه، وقد كان عاصم قد أعطى الله عهدًا أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا أبدا تنجسًا.

فلما بلغ عمر بن الخطاب ﷺ أن الدَّبْر منعته قال: «يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا في حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته»[(٢)].

الفريق الثاني: وهو فريق خبيب بن عدى، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، وهؤلاء قد صدقوا هؤلاء القوم، وأمّلوا أن يعيشوا، فقرروا الاستئسار لهم، فأسروهم ووضعوهم في القيود، وساروا بهم إلى مكة ليبيعوهم هناك لمن كان عنده ثأر منهم بأثمان باهظة.

فلما رأى عبد الله بن طارق الغدر في تصرفات هؤلاء القوم، أفلت من قيوده واستأخر عنهم يريد الفرار، فقذفوه بالحجارة حتى مات. فلم يبق معهم إلا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة، فذهبوا بهما إلى مكة، فباعوهما هناك.

(١) الدبر: جماعة النحل.
(٢) ابن هشام: السيرة، (١٢٤/٤).

فاشترى عقبة بن الحارث خبيبا، ليقتله بأبيه الحارث بن عامر الذي قتل يوم بدر، وكان خبيب هو الذي قتله في تلك المعركة.

واشترى صفوان بن أمية زيد بن الدثنة ليقتله بأبيه أمية بن خلف الذي قتل يوم بدر أيضًا.

وتم حبس هذين الصاحبين حتى تنتهي الأشهر الحرم، فقد كان أهل مكة لا يقتلون أسيرًا في الأشهر الحرم.

موقف نبيل وكرامة من الله لخبيب بن عدي:

علمنا أن خبيب بن عدي وصاحبه قد حبسا في مكة إلى انتهاء الأشهر الحرم انتظارًا للقتل، وفي هذه الأثناء استعار من إحدى بنات عقبة بن الحارث موسى للاستحداد، فحدث موقف نبيل منه يرويه البخاري فيقول:

«فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى أَجْمَعُوا قَتْلَهُ، فَاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ فَدَرَجَ بُنَيٌّ لَهَا، وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتَّى أَتَاهُ فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ، وَالْمُوسَى بِيَدِهِ، قَالَتْ: فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ فَقَالَ: أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَلِكَ.

قَالَتْ: وَالله مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ وَالله، لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بِالْحَدِيدِ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ الله خُبَيْبًا... إلخ»(١).

ففي هذا الموقف النبيل من هذا الأسير المسلم يعلمنا كيف يربي الإسلام أبناءه، فلا يغدرون حتى وهم مظلومون، قد نزع الإسلام منهم الغدر والحقد، ويعلمهم صفاء الروح، وسمو النفس عن الضغائن، فذلك الصبي الصغير لا ذنب

(١) البخاري برقم، (٤٠٨٦) باب غزوة الرجيع.

له فيما اقترفه أبوه من الغدر والخسة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

ولذا فليس من العجب أن يمنحه الله عز وجل هذه الكرامة، ويمنحه الرزق من السماء، فيأكل طعاما لا يوجد في ذلك الوقت، كما أعد الله عز وجل الطعام للسيدة مريم البتول، كرامة منه سبحانه وتفضلاً.

إن الإنسان إذا سما بروحه ونفسه، وطهّر قلبه كان الله سبحانه وتعالى معه، يؤيده بالتثبيت والكرامة.

ثبات الصاحبين الجليلين عند القتل:

لما انتهت الأشهر الحرم، خرج صفوان بن أمية بأهل مكة في عمل استعراضي دنيء لإظهار التشفّي بقتل أسيره زيد بن الدثنة، وأنه قد نال ثأره من قاتل أبيه، فسار به إلى "التنعيم"(١)، وخرج معه الرجال والنساء والصبيان ليشهدوا هذا العمل الاستعراضي بما فيه من خسة ودناءة.

وقُدّم زيد ليتولى قتله عبد لصفوان بن أمية يقال له نسطاس؛ فلما قدم ليقتل قال له أبو سفيان: "أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي، قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت في الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا. ثم ضربه نسطاس عندئذ فقتله.

وأما خبيب فقد خرجوا به أيضًا إلى التنعيم ليقتلوه صلْبًا، فقال لهم: "دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: لَوْلاَ أَنْ تَرَوْا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ مِنَ الْمَوْتِ لَزِدْتُ فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَتْلِ"(٢).

(١) موضع على قرابة أربعة أميال من مكة، يقع على حدود الحرم من ناحية الشمال.
(٢) البخاري، برقم (٤٠٨٦) باب غزوة الرجيع.

ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه، قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا، ثم قال: اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدا، ثم قتلوه»[١]. فمال القوم على جنوبهم مخافة أن تأخذهم دعوته، ثم أخذ خبيب يقول شعرا، منه:

ولسـتُ أبالي حين أُقتل مسلما ... علـى أيّ شـقٍّ كان لله مصرعي
وذلـك في ذات الإله وإن يشـأ ... يبارِكْ على أوصالِ شِـلْوٍ مُمزّعِ

قال ابن إسحاق: «وحدثني بعض أصحابنا، قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي على بعض الشام، فكانت تصيبه غشية، وهو بين ظهراني القوم، فذكر ذلك لعمر بن الخطاب، وقيل إن الرجل مصاب.

فسأله عمر في قِدمة قدمها عليه فقال: يا سعيد ما هذا الذي يصيبك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما بي من بأس، ولكني كنت فيمن حضر خبيب بن عدي حين قُتل وسمعت دعوته فوالله ما خطرت على قلبي، وأنا في مجلس قط إلا غشي علي فزادته عند عمر خيرًا»[٢].

وقد كان لهذا الحادث الأثيم ومقتل هذين الرجلين غيلة بهذه الطريقة أثر سيء في نفوس المسلمين في المدينة، خاصة وأنها كانت بعد قرابة ثلاثة أشهر فقط من غزوة أحد، وما وقع فيها من جرح للمسلمين، فقد كان مقتل هذين الشهيدين في صفر من السنة الرابعة للهجرة، وكانت أحد في شوال.

وجاءت هذه الحادثة لتنكأ الجرح القديم، ومما زاد الأمر سوءًا أن هؤلاء الصحابة كانوا من خيرة القراء من أصحابه، وأنهم ماتوا لا في ساحة المعركة

(١) ابن هشام: السيرة، (١٢٧/٤).
(٢) ابن هشام: السيرة، (١٢٧/٤)، وما بعدها.

وميدان البطولة والشرف، ولكن بيد الغدر الأثيم والغش والخداع، ولذا فقد رثا شعراء المسلمين هؤلاء القراء.

قال حسان بن ثابت يرثي هؤلاء القتلى:

إن سرَّك الغدر صِرْفًا لا مزاج له ... فأت الرجيعَ فسل عن دار لحيان
قوم تواصوا بـأكل الجار بينهمُ ... فالكلب والقرد والإنسان مثلان
لو ينطق التيسُ يوما قام يخطبهم ... وكان ذا شـرف فيهم وذا شـان

وقال يهجو قبيلة هذيل بغدرها:

لعمري لقد شانت هذيلَ بن مدرك ... أحاديثُ كانت في خبيب وعاصم
أحاديث لحيان صلَـوْا بقبيحها ... ولِحيـان جرّامون شـرَّ الجرائم
أناس هُم من قومهم في صميمهم ... بمنزلـة الزّمعـان دُبْـرَ القوادم
هُم غدروا يوم الرجيع وأسلمت ... أمانتُهـم ذا عفـة ومكـارم
رسولَ رسولِ الله غدْرًا ولم تكن ... هذيل تَوقّى مُنكـرات المحارم
فسوفَ يرون النصرَ يومًا عليهمُ ... بقتل الذي تحميه دِونَ الحَرائم
أبابيـلُ دَبْرٍ شُـمَّسٍ دون لحمه ... حَمَت لحْمَ شهّادٍ عظامَ الملاحِم
لعـل هذيـلا أن يـروا بمُصابه ... مصارعَ قتلـى أو مقامًـا لمأتم
ونوقـعَ فيهم وقعـةً ذات صولةٍ ... يوافي بها الركبانُ أهلَ المواسم
بأمـر رسـول الله إن رسـوله ... رأى رأيَ ذي حزمٍ بلِحيان عالِم

ب حادثة بئر معونة:

لم تكد تجِفّ دماءُ أصحابِ الرجيع، إلا وقامَ المشركون المجرمون بجريمة أخرى بالطريقةِ نفسِها من الغدر والخسة والنذالة، حيث قدم على رسول الله ﷺ

شيخ من شيوخ بني عامر في منطقة نجْدٍ يدعى أبا براء العامري، ويلقب بملاعب الأسنة، فأهدى إلى النبي ﷺ فرسين وراحلتين، فقال رسول الله ﷺ: «لا أقبل هديةً من مشرك»[1]. وفي رواية: «إني نهيت عن زَبْد المشركين».

ثم عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يا محمد إني أرى أمرك هذا حسنًا شريفًا، وقومي خلفي، فلو أنك بعثت معي نفرًا من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك، فإنهم إن اتبعوك فما أعزّ أمرك.

تخوّف النبي ﷺ من هذا العرض في البداية، كي لا يكون أصحابه نهبًا للغدر من القبائل، وقد كان حادث يوم الرجيع ماثلًا في نفوس صحابته، ولم تجف دماؤهم بعد، وصرح النبي ﷺ لأبي براء بهذه المخاوف، فقال له: «إني أخاف عليهم أهل نجد»[2]. فقال عامر: لا تخف إني لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد.

إذن.. أصبح القراء في جواره وحمايته، وهو مسؤول عن سلامتهم، وخرج عامر بن مالك إلى ناحية نجد، فأخبرهم أنه قد أجار أصحاب محمد ﷺ فلا تعرضوا لهم.

ومما جعل النبي ﷺ يوافق على هذا العرض، ويرسل معه عددا كبيرا من القراء والفقهاء أن ناسا من رعل وذكوان وعصية ولحيان أرسلوا إلى رسول الله ﷺ يعلنون إسلامهم ويطلبون منه أن يعينهم على أقوامهم حتى لا يكونوا مستضعفين بينهم.

«عن أنس بْنِ مَالِكٍ، ﷺ، أَنَّ رِعْلًا وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لَحْيَانَ اسْتَمَدُّوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى عَدُوٍّ، فَأَمَدَّهُمْ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ كُنَّا نُسَمِّيهِمُ الْقُرَّاءَ فِي زَمَانِهِمْ كَانُوا يَحْتَطِبُونَ بِالنَّهَارِ، وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ حَتَّى كَانُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قَتَلُوهُمْ وَغَدَرُوا بِهِمْ،

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (١٦٦/٢)، الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٥٧/٦).
(٢) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٥٧/٦).

فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو فِي الصُّبْحِ عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لَحْيَانَ قَالَ أَنَسٌ: فَقَرَأْنَا فِيهِمْ قُرْآنًا، ثمّ إِنَّ ذَلِكَ رُفِعَ بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا، فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا»[1].

وفي رواية الإمام أحمد عن أنس: «عن أنس: أن نبي الله عليه الصلاة والسلام أتاه رِعْل وذكوان وعُصيّة وبنو لَحيان فزعموا أنهم قد أسلموا، فاستمدوه على قومهم فأمدّهم نبي الله عليه الصلاة والسلام يومئذ بسبعين من الأنصار.

قال أنس: كنا نسميهم في زمانهم القراء كانوا يحطبون بالنهار ويصلون بالليل، فانطلقوا بهم حتى إذا أتوا بئر معونة غدروا بهم، فقتلوهم فقنت رسول الله ﷺ شهرًا في صلاة الصبح يدعو على هذه الأحياء رعل وذكوان وعصية وبني لحيان»[2].

فخداع هؤلاء القوم بأنهم أسلموا، وأنهم يريدون منه مددًا يكون لهم عونا على قومهم حتى لا يستضعفوهم، ويطمعوا فيهم لإيمانهم كان سببا في إرسال هذا العدد الكبير، خصوصًا وقد أجارهم أبو براء سيد بني عامر، فقد أرسل النبي ﷺ معه سبعين من الصحابة من حفظة القرآن، وعلماء الشريعة، ولكن الرجل لم يكن على قدر هذه المسؤولية التي تحملها، ولم يوف بما قال، ولا استمع له قومه، وكان ابن أخيه هو أول من خرج عليه، وأخفر ذمته، وقتل المسلمين، فقام إليهم عامر بن الطفيل ابن أخي ملاعب الأسنة، واستعدى عليهم القبائل المجاورة وقامت قبائل رعل وذكوان وعصية وبني لحيان بالغدر بهؤلاء القراء وقتلوهم عن آخرهم إلا رجلا واحدًا تركوه وبه رمق من الحياة.

وقد كانت هذه الحادثة شديدة الوقع على النبي ﷺ والمسلمين في المدينة، وقال النبي ﷺ: «هذا عمل أبي براء»، وقد بلغ به الحزن على هؤلاء القراء لدرجة أنه ظل شهرا كاملا يدعو الله عز وجل على هذه القبائل التي قامت بهذا العمل

(١) البخاري، برقم (٤٠٩٠) باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة... إلخ.
(٢) مسند أحمد، برقم (١٢٠٨٣).

www.almoslih.net

الغادر الخسيس، كما أنها أدت إلى مجموعة من الأحداث التي أدت في النهاية إلى طرد مجموعة أخرى من اليهود من المدينة.

وما أقلع النبي ﷺ عن الدعاء على هؤلاء حتى نزل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٢٨].

وكان من بين هذه الأحداث أن عمرو بن أمية الضمري والحارث بن الصمة الأنصاري، كانا قد أبصرا الطير تحوم حول المعسكر، وكان في سرح حول المدينة، فشكا في الأمر فأقبلا ينظران ما شأن هذه الطير، فعلموا أن القوم غدروا بصحابة رسول الله ﷺ وقتلوهم؛ فقال الحارث بن الصمة لعمرو بن أمية: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ، فنخبره الخبر، ولكن الحارث لم يعجبه هذا الرأي، فقال لزميله: ما كنت لأتأخر عن موطن قتل فيه المنذر، وما كنتُ لتُخْبِرَني عنه الرجالُ.

إذن.. قد أخذ الحارث قرار المشاركة في مناجزة هؤلاء القوم مع زميله منفردين، فأقبلا فلقيا القوم، فقاتلهم الحارث حتى قتل منهم اثنين، ثم قُتل، وأما عمرو بن أمية فقد أسروه، فأخبرهم وهو أسير في أيديهم أنه مضري، فأعتقه عامر بن الطفيل فقال: "إنه قد كان على أمي نَسَمة، فأنت حر عنها" وتركه ليعود إلى المدينة.

فعاد عمرو بن أمية أدراجه إلى المدينة، ولكنه أحدث في الطريق أمرًا خطيرًا كان له نتائج جسام، ومختصره أنه قتل وهو بالقرقرة رجلين من بني عامر، وكانا من المعاهدين؛ لذلك وداهما رسول الله ﷺ[1] وسوف نذكره مفصلا في المبحث الثاني.

غزوة بني النضير:

بعد عام واحد، في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، كانت موقعة أحد، وكان من أمرها ما كان.

(١) انظر سيرة ابن هشام، (١٨٦/٣).

نقضت يهود ميثاقها مع الرسول ﷺ هذه المرة أيضًا، فلم تكن على النصر ضد من حارب أهل هذه الصحيفة.

وبنو النضير، كانوا في منطقة المدينة. وقد لبثوا في أوكارهم يرقبون سير المعركة في أحد.

وطاب لهم ما لقي المسلمون من عدوهم، وتأهبوا لكي يرجفوا في المدينة بقالتهم الخبيثة: انهزم محمد وأصحابه، ويقول إنه نبي مرسل؟ لو كان نبيا ما انتصر عليه الوثنيون، ثم هموا بأن يغتالوا الرسول!

خرج النبيّ ﷺ إلى بني النضير، يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر، وكان بينهم وبين بني النضير حلف وجوار[1].

ولم يكن اختيار يهود بني النضير للاشتراك في تحمّل ديات هذين القتيلين لعجز المسلمين عن أدائها، ولا لمجرد أن المعاهدة تقضي بذلك، ولكن كان اختيار يهود بني النضير للمشاركة في دفع هاتين الديتين، لأمر سياسي آخر غاية في الأهمية، ألا وهو أن بني عامر أهل القتيلين كانوا حلفاء لبني النضير، فإذا اشترك حليفهم في دفع الدية كان ذلك أحرى بأن يتم الصلح والتراضي بسهولة ويسر، وأن يقتنع القوم بأن ذلك كان على سبيل الخطأ بدليل أن حلفاءهم هم الذين يقدمون لهم الدية.

فلم تكن مطالبة بني النضير بالاشتراك في دفع الدية من باب تحميلهم الواجب عليهم فحسب، بل كان له مهمة أخرى من شأنها أن تسهل من عملية قبول الدية.

على أي حال قالت يهود: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت.

(١) السهيلي: الروض الأنف، (٣٧٨/٣)، الحلبي: السيرة الحلبية، (١٦٩/٣)، الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٦٣/٦)، أدينهما: أي أقدم لقومهما الدية.

ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟.

وهناك رواية مطولة تبين ما دار بين اليهود من محادثة في هذا الأمر الخطير، وما استعدوا به من الآراء لمواجهة احتمال أن يكون النبي ﷺ علم الخبر عن طريق الوحي، كما تبين أيضًا معرفة اليهود اليقينية بالنبي ﷺ، ولكنهم يجحدون نبوّته.

يقول الصالحي: "لقد توجه رسول الله ﷺ لأمر، فقاموا في طلبه، فقال حيي بن أخطب: لقد عجل أبو القاسم، كنا نريد أن نقضي حاجته ونقريه، وندمت يهود على ما صنعوا، فقال لهم كنانة بن صويراء: هل تدرون لم قام محمد؟ قالوا: لا والله ما ندري، وما تدري أنت.

قال: بلى والتوراة إني لأدري، قد أُخْبِر محمد بما هممتم به من الغدر، فلا تخدعوا أنفسكم، والله إنه لرسول الله، وما قام إلا أنه أخبر بما هممتم به من الغدر، وإنه لآخر الأنبياء، وكنتم تطمعون أن يكون من بني هارون، فجعله الله حيث شاء.

وإن كتبنا والذي درسنا في التوراة التي لم تغير، ولم تبدل: أن مولده بمكة، وأن دار هجرته يثرب، وصفته بعينها ما تخالف حرفا مما في كتابنا، وما يأتيكم به أولى في محاربته إياكم، ولكأني أنظر إليكم ظاعنين يتضاغى صبيانكم قد تركتم دوركم خلوفا وأموالكم، وإنما هي شرفكم"[1].

ولقد علم اليهود أنفسهم خطورة ما أقدموا عليه، فقامت مجموعة منهم بمعارضة هذا التصرف الأرعن، لأنه غير مأمون العواقب، بل إن عواقبه كارثية على اليهود جميعا، ومنهم زعيمهم سلّام بن مِشكم.

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢٥١/١٣)، الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٣١٩/٤).

يقول المقريزي: "قال سلام بن مشكم: يا قوم، أطيعوني هذه المرة وخالفوني الدهر! والله إن فعلتم ليخبرن بأن قد غدرنا به، وإن هذا نقض العهد الّذي بيننا وبينه، فلا تفعلوا! ألا فوالله لو فعلتم الّذي تريدون ليقومن بهذا الدين منهم قائم إلى يوم القيامة، يستأصل اليهود ويظهر دينه"[1].

أرأيت كيف كان اليهود يعلمون حقيقة ما هم مقبلون عليه، ولكن الإنسان إذا ما عاند الحق، واتبع هواه، فإنه يفقد صوابه، ويضر نفسه وقومه من حيث يظن أن يجلب على نفسه خيرًا عاجلًا، فهموا بهذه الجريمة النكراء، فأخبر بها النبي ﷺ عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام، فتركهم وانصرف قبل أن ينفذوا جريمتهم، وهم في حيرة من أمرهم لماذا انصرف محمد، ولم يعد ثانية.

على أي حال صعد يهودي فألقى الصخرة، لكن بعد أن كان ﷺ قد تحرك من مكانه. ولم تزده فعلتهم علما بغدرهم، لكنها زادته تصميمًا على حسم شرهم.

علم هؤلاء اليهود بيقين الإجراء الذي سيتخذه النبي ﷺ ضدهم قبل أن يرسل إليهم النبي ﷺ به، وهذا ما تؤكده الروايات التي روت ما دار بين اليهود في تلك الفترة التي خرج فيها النبي ﷺ ولم يعد لهم ثانية، ولنكمل كلام كنانة بن صويراء حيث يقول: "فأطيعوني في خصلتين، والثالثة لا خير فيها.

قالوا: ما هما؟

قال: تسلمون وتدخلون مع محمد، فتأمنون على أموالكم وأولادكم، وتكونون من علية أصحابه، وتبقى بأيديكم أموالكم، ولا تخرجون من دياركم.

قالوا: لا نفارق التوراة وعهد موسى.

قال: فإنه مرسل إليكم: اخرجوا من بلدي، فقولوا: نعم، فإنه لا يستحل لكم دما ولا مالا، وتبقى أموالكم لكم، إن شئتم بعتم، وإن شئتم أمسكتم.

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢٥١/١٣).

قالوا: أما هذا فنعم»[١].

وقد صدق على هذا الرأي زعيم القوم سلام بن مشكم، حيث أنّبهم على ما هموا به، وتبرأ من صنيعهم، فقال: «قد كنت لما صنعتم كارها، وهو مرسل إلينا أن اخرجوا من داري، فلا تعقب يا حيي كلامه، وأنعم له بالخروج، واخرج من بلاده، قال: افعل، أنا أخرج»[٢].

إنهم قد علموا يقينا أنهم خائنون غادرون، وتوقعوا العقوبة التي سيوقعها النبي ﷺ عليهم، وتدارسوها جيدا، وعزموا على تنفيذها بلا تردد، لأنهم يعلمون أنه نبي مرسل من عند الله، وأن الله متم دينه، وأن جرمهم يستحق هذه العقوبة.

إن اليهود كانت تتوقع ما سيحدث لهم، ويعلمون بدقة خطورة ما أقدموا عليه، ومن هنا فقد سارعوا بإرسال عيونهم لاستطلاع الرأي وطلب النصرة من ممن وعدهم النصرة والانضمام إليهم، أما بنو قريظة فقد رفضوا نقض العهد مع رسول الله ﷺ، وقال زعيمهم كعب بن أسد، لعبد الله بن أبي بن سلول: «لا ينقض رجل واحد منا العهد؛ فيئس ابن أبي من بني قريظة»[٣].

كانت هذه أول ضربة قاصمة لهذا المنافق، وأول تخلٍّ عن بني النضير ممن وعدهم النصرة، وأرسل اليهود جُدَيّ بن أخطب، أخا حيي زعيم بني النضير ليسطلع لهم الأخبار، فمرّ على النبي ﷺ وأصحابه وهم يكبرون، وسمع قول النبي ﷺ: «حاربت يهود».

فذهب إلى عبد الله بن أبي يطلب منه النصرة التي وعد بها، فصادفه في بيته، ومعه نفر من حلفائه، وابنه عبد الله بن عبد الله قد سمع نداء رسول الله ﷺ بالجهاد،

(١) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، (٤/٣١٩).
(٢) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١٣/٢٥١).
(٣) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/٣٢٠)، الواقدي: المغازي، (١/٣٦٨).

فلبس زي الحرب، وقام يمر على أبيه ومن معه بهذا الزي ليعلمهم أنه في طاعة رسول الله ﷺ، وهنا علم جدي أن عبد الله بن سلول لا يملك له نصرا، حتى لو أراد ذلك، فلن يتبعه أحد؛ فخرج جدي يعدو إلى قومه، فسأله حيي بن أخطب: «ما وراءك؟ قال: الشر، ساعة أخبرت محمدا بما أرسلت به إليه أظهر التكبير، وقال: حاربت يهود، وجئت ابن أبي فأخبرته، ونادى منادي محمد بالمسير إلى بني النضير، فقال حيي: وما رد عليك ابن أبي؟ قال جدي: لم أر عنده خيرا، قال: أنا أرسل إلى حلفائي من غطفان، فيدخلوا معكم»[١].

وقع يهود بني النضير في ورطة عظيمة، فقد غدروا ونقضوا العهد، ثم لاحت لهم فرصة النجاة بالخروج من المدينة دون إراقة الدماء، ولكنهم اغتروا بوعود ابن سلول، وأعلنوا العصيان، وها هي تلك الوعود تتبدد، ووجد القوم أنفسهم وجها لوجه مع النبي ﷺ، لا يستطيع أحد لهم نصرا، فما هو إلا قليل، ونظروا خارج حصونهم فرأوا رسول الله ﷺ في ديارهم مع أصحابه يحاصرونهم، فقاموا بسرعة وبادروا أبواب الحصون، وأصبحوا بين اختيار صعب كانوا في غنى عنه لولا صلَفهم وعنادهم.

كان ذلك في صلاة العصر، فصلى النبي ﷺ العصر بأصحابه، وحدثت من اليهود بعض المناوشات بالنبال من فوق الحصون فلم تصب أحدا من المسلمين بأذى، وظلت مستمرة إلى أن خيم الليل بأستاره، وساد الظلام، ورجع النبي ﷺ إلى بيته ومعه عشرة من أصحابه، وظل المسلمون يحاصرونهم ويكبرون حتى أصبحوا، ثم أذن بلال بالفجر، وعاد النبي ﷺ، وضرب قبته تجاه مسجد بني خطمة، ولكن كانت قبة النبي ﷺ قريبة من مرمى سهام اليهود، فحولها النبي ﷺ بعيدا قرب مسجد الفضيخ[٢].

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/٣٢٢)، الواقدي: المغازي، (١/٣٧٠).
(٢) ابن هشام: السيرة، (٤/١٤٣).

وظل النبي ﷺ محاصرا لهم عدة أيام، وفي إحدى الليالي افتقد الصحابة علي بن أبي طالب ﷺ، فسألوا النبي ﷺ فقال لهم: «دعوه، فإنه في بعض شأنكم». فما لبث أن جاء برأس اليهودي الذي كان يرمي قبة رسول الله ﷺ بالسهام، وكان اسمه (عزوك) وكان قد نزل ليلا من الحصن، وخرج في كمين له يطلب غرة من المسلمين، فشد عليه فقتله، وفر من كان معه، وبعث رسول الله ﷺ مع علي أبا دجانة وسهل بن حنيف في عشرة من أصحابه فأدركوا اليهود الذين فروا من علي، فقتلوهم وطُرحت رؤوسهم في بعض آبار بني خطمة[١].

فلما أن رأى النبي ﷺ أن الحصار ربما طال بعض الوقت، أمر بقطع بعض نخيلهم وحرق بعضًا آخر، وهدم بيوتهم من ظهورها، ليقع الرعب في قلوبهم، لأنهم عندما يرون ذلك يعلمون أن النبي ﷺ جاد في حربهم، وإجلائهم عن المدينة، وبالفعل ما إن رأوا ما يصنعه أصحاب النبي ﷺ بأموالهم، فبهتوا «وشق النساء الجيوب وضربن الخدود، ودَعْون بالويل، أي وذلك البعض الذي حرق كان بمحل يعرف بالبويرة»[٢].

وتحسر الرجال على ما يقطع من النخيل، حيث إن النبي ﷺ لما أمر بقطع النخيل وتحريقها، «قضى بذلك على أسباب تعلقهم بأموالهم وزروعهم، وضعفت حماستهم للقتال، وجزعوا وتصايحوا»، فنادوا: «أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها»[٣].

وأنزل الله عز وجل ردًا على قولهم: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥].

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/٣٢٣)، الواقدي: المغازي، (١/٣٧٢).
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٥٦٤).
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، (٣/١٤٧).

وألقى الله الرعب في قلوبهم من هذه الجدية الشديدة في الحرب «وبعث حيي بن أخطب إلى النبي ﷺ بأنه يخرج ومن معه. فقال عليه السلام: لا أقبله اليوم، ولكن اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة»[١] أي السلاح.

تلكأ حيي بن أخطب في قبول هذا العرض، فقام إليه سلام بن مشكم وانتهره بقوله: «اقبل ويحك من قبل أن تقبل شرًا من ذلك، فقال حيي: ما يكون شرًا من هذا. قال سلام بن مشكم: تسبى الذرية وتقتل المقاتلة مع الأموال، والأموال أهون علينا، فأبى حيي أن يقبل يومًا أو يومين»[٢].

وأمهلهم النبي ﷺ ثلاثة أيام للجلاء عن المدينة إلى غير رجعة، فاستقل بعضهم المدة، وقالوا إن لنا ديونا، فأمرهم النبي ﷺ أن يحطوا من الدين، ويتعجلوا السداد، عن ابن عباس قال: «لما أمر النبي ﷺ بإخراج بني النضير من المدينة جاءه ناس منهم فقالوا: يا رسول الله إنك أمرت بإخراجهم، ولهم على الناس ديون لم تحلّ، فقال النبي ﷺ: ضعوا وتعجلوا، أو قال: وتعاجلوا»[٣].

وبخروج يهود بني النضير من المدينة يكون بذلك قد خرجت مجموعة أخرى من اليهود منها إلى الأبد، فمنهم من سار إلى خيبر، أي ومن جملة هؤلاء أكابرهم حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الربيع بن أبي الحقيق، فلما نزلوا خيبر دان لهم أهلها، ومنهم من سار إلى الشام أي إلى أذرعات، وكان فيهم جماعة من أبناء الأنصار؛ لأن المرأة من الأنصار كان إذا لم يعش لها ولد تجعل على نفسها إن عاش لها ولد تهوده، فلما أجليت بنو النضير قال آباء أولئك لا ندع أبناءنا وأنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/١٩٠).
(٢) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/٣٢٣).
(٣) البيهقي: السنن الكبرى، برقم (١٠٩٢٠)، باب من عجل له أدنى من حقه قبل محله فقبله ووضع عنه طيبة به أنفسهما.

بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وبلغ بهم الحرص، أن راحوا ينزعون الأخشاب من دورهم ليحملوها معهم. ومضوا بالنساء والأولاد وما حملت الإبل من مال ومتاع إلى عشيرتهم في خيبر، ولم يكن دَورها قد حان بعد. فكأنما كانوا في خروج الجلاء، في ضغطة الحشر[1]!

ونزل في أمر بني النضير سورة الحشر، ولذلك كان يسميها ابن عباس رضي الله تعالى عنهما سورة بني النضير[2].

وفي هذه السورة يمتن الله عز وجل على المؤمنين بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ (٢) وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢ – ٤].

(١) ابن هشام: السيرة، (٤/١٤٤).
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٥٦٦).

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

١. إن الذنوب والمعاصي لها أثر خطير في تخلف النصر عن الأمة، فبسبب معصية واحدة خالف فيها الرماة أمر النبي ﷺ، وبسبب الصراع حول الغنائم، ذهب النصر عن المسلمين بعد أن لاحت بوادره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

٢. خطورة إيثار الدنيا على الآخرة، فهذا يفقد الأمة عون الله ونصره وتأييده، وفي هذا يقول ابن مسعود: ما كنت أرى أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما هزم الله المشركين يوم أحد، قال الرماة: «أدركوا الناس ونبي الله، لا يسبقوكم إلى الغنائم، فتكون لهم دونكم» وقال بعضهم: «لا نبرح حتى يأذن لنا النبي ﷺ» فنزلت: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[1].

(١) انظر: تفسير الطبري، (٣/٤٧٤).

❸ سنة الله في الصراع بين الحق والباطل؛ فقد جرت سنة الله في رسله وأتباعهم أن تكون الحرب بينهم وبين أعدائهم سجالًا، فيُدالوا مرة ويُدال عليهم أخرى، لأجل تمحيص المؤمنين واختبارهم، ثم تكون لهم العاقبة في النهاية، ولئن علا الباطل يومًا وكان له جولة فالعاقبة للمتقين في النهاية.

❹ ضرورة الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية مع التوكل على الله عز وجل، فقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين، ولبس لأمة الحرب، وكافح معه الصحابة.

❺ الصبر في القتال والصدق والثبات وترك النتائج على الله سبحانه، فإنه الذي بيده مفاتيح كل شيء، وينصر من يشاء من عباده إذا حققوا لله شروط النصر.

❻ عدم الدعاء على المشركين ولعنهم إذا ما أصابوا من المسلمين، فقد يأتي يوم يدافع فيه هؤلاء المشركون عن الحق، فلا ينبغي اليأس من إصلاح المجتمع، ولا القنوط من رحمة الله بهم وهدايته لهم.

فعندما غضب النبي ﷺ على قومه ولعن بعضهم بما سببوه له من جراح وأذى وقتل للأهل، عاتبه الله عز وجل بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فامتثل النبي ﷺ وصبَر على هذا الأذى وتلك الجراح، وقد أقر الله عز وجل عينه، فدخل الناس في دين الله أفواجًا.

❼ شدة حب الصحابة للنبي ﷺ، فقد أحاط المشركون برسول الله ﷺ ومن معه ـ بعدما وقعت الثَّغرة في صفوف الجيش ـ وطمعوا في القضاء عليه فاستبسل المسلمون في الدفاع عنه.

❽ أن الجهاد يجب أن يكون لله، ولأجل رفعة دينه، بغض النظر عمن سيحمل الراية، لا من أجل الأشخاص حتى لو كانوا الأنبياء الذين يحملون المنهج من السماء، فإنهم لا ريب سيموتون، فلا بد من حمل الرسالة من بعدهم، فإذا تبلورت هذه العقيدة في نفس المؤمن فلن يؤثر في معنوياتهم بعد ذلك أُقتِل القائد في المعركة أم لم يُقتل.

❾ ضرورة التيقظ في إدارة الدولة خصوصا بعد الأزمات، فمثل هذه المواقف تحتاج إلى حكمة بالغة في التعامل معها، حتى لا ينفرط عقد الدولة ويطمع فيها أعداؤها، فقد تعمل القوى المعادية على الإجهاز على الدولة واستغلال حالة الضعف العام للدولة، واستغلال الهزيمة أو حالة الحزن في تهديد الاستقرار والأمن العام وإشاعة الفساد والفوضى؛ ومن هنا فقد تعددت السرايا التي أرسلها النبي ﷺ لردع هؤلاء المفسدين وتأديبهم.

⓫ يجوز للمسلم في حالة غدر العدوّ به أن يجتهد في رأيه إما أن يحاربهم حتى الموت ولا يستأسر لهم، ويجوز أيضًا أن يستأسر لهم إذا غلب على ظنه أنهم سيبقونه حيا.

⓬ ضرورة التعامل مع كل حال مع هؤلاء الغادرين بقيم الإسلام الرفيعة، فليس معنى أن إنسانا غدر أن نقتل الأطفال والصبيان الذين لا ذنب لهم ولا جريرة، وهذا ما صنعه سيدنا خبيب بن عدي، حيث لاعب صبيا من صبيان الكفار، وهم قد حبسوه للقتل، وكان بإمكانه أن يقتله جزاء خيانتهم وغدرهم.

وفي الوقت ذاته فقد عزم النبي ﷺ على إعطاء الدية لأهل القتيلين، اللذين قتلهما رجل من أصحابه على الرغم مما صنع قومهما من الغدر بأصحابه وقتلهم شر قتلة، لأن هذين القتيلين لم يشتركا مع قومهما في شيء مما صنعوه، كما أنهما حصلا على عقد جوار وحماية من النبي ﷺ فلا ذنب لهما فيما فعل قومهما من الغدر والخيانة.

www.almoslih.net

١٣ ضرورة التمسك بشعائر الإسلام وسننه، حتى في أحلك الظروف والمواقف، فخبيب بن عدي وهو في الأسر ينتظر الموت لم يشغله ذلك عن الاستحداد، وتنظيف الجسد، إذ لا تعارض بين الأمرين، وفي مثل هذه المواقف قد ينسى الإنسان، وينشغل عن هذه السنة.

١٤ مدى حب الصحابة للنبي ﷺ، فقد ضربوا أعظم المثل في إجلاله وإكباره، وشعورهم بمحبته وتعظيمه ﷺ، فعندما سئل زيد بن الدثنة أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي. وفي هذا الرد من التعظيم والحب ما لا يقدر القلم أن يصفه.

١٥ أساليب المشركين وأعداء هذا الدين كثيرة ومتنوعة في حرب هذا الدين، ولن تلين لهم قناة إلا إذا أخرجوا المسلمين منه، فإذا رأوا أن المواجهة الشريفة لن تجدي نفعًا، وأنهم سوف يهزمون لا محالة، فإنهم يلجأون إلى أساليب الغش والخداع والغدر والخيانة والخسة، وهذا ما حدث يوم الرجيع ويوم بئر معونة.

١٦ إن كثيرًا من أهل الباطل يعلمون أنهم على الباطل، ولكنهم يصمون آذانهم عن سماع الحق، لدخيلة في أنفسهم من الحقد والحسد لأهله، أو الكبر والعجب بالنفس، فقد تبين لك بجلاء أن اليهود يعلمون من داخلهم أنهم على الباطل، وأنهم إنما يقاتلون محمدا بغيا وحسدا، وهم يعلمون أنهم مهزومون، ولكنهم أوردوا أنفسهم المهالك، فأبوا الانصياع للحق، ورفضوا إلا إعلان الحرب، ومن ثم فإن ما حاق بهم كان جزاء وفاقًا.

١٧ كان النصر المؤزر من الله تعالى لرسوله ﷺ على يهود بني النضير عظيم الأثر في توطيد سلطان المسلمين في المدينة حيث علم المنافقون قوة المسلمين، ولم يجرؤ أحد منهم على الجهر بكيده ومكره في المدينة مرة ثانية، وطوى هؤلاء المنافقون أحقادهم في صدورهم المحترقة.

١٨ التأكيد على مبدأ الشورى وترسيخه في نفوس المسلمين؛ فقد استشار النبي ﷺ صحابته ﷺ في فيء بني النضير، على الرغم من أن الله عز وجل ملكه للنبي ﷺ لأن فتح بني النضير كان بدون قتال. فصرفه النبي ﷺ لفقراء المهاجرين، وكفاية عياله، والباقي صرفه في مصالح المسلمين، ومنها شراء السلاح.

هذا محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٢

حملاتٌ وفِتَنٌ

حَمَلَاتٌ أُخرَىٰ لِلرَّدعِ

١ غزوة بدر الثانية أو بدر الموعد:

ذكرنا في غزوة أحد أن أبا سفيان وعد النبي ﷺ أنه سيلقاه في العام القادم في غزوة أخرى في بدر الصفراء ليحاربه، فوافق النبي ﷺ على ذلك العرض، ومضى أبو سفيان إلى مكة ليعدّ العدة لتلك الموقعة القابلة في بدر، وكانت بدر الصفراء سوقا يجتمع فيها الناس في هلال ذي القعدة من كل عام أيام يبيعون ويشترون ويتبادلون السلع والمنافع[1]، فلما حان موعد تلك الغزوة المتفق عليه، خرج النبي ﷺ إلى بدر، لملاقاة أبي سفيان وجيشه حسب الاتفاق المبرم بينهما.

ولكن قريشا كان الجدب قد أصابها في ذلك العام، وقلت مواردها بسبب ما ضيق المسلمون عليها في تجارتها، فلم تكن بها قوة للحرب؛ فعزم أبو سفيان على ألا يخرج إلى بدر في ذلك العام، وخاف أن يلقى رسول الله وأصحابه خشية أن تدور عليه الدائرة؛ فيضيع عليه النصر النِّسْبي الذي حققه جيشه في أحد، وتفضح القبيلة بأسرها فضيحة لا تقوم لها قائمة بعدها.

(١) انظر: المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/ ١٩٢).

www.almoslih.net

وفي الوقت ذاته خشي كذلك أن يدرك المسلمون ما عليه قريش من سوء الحال، وعدم القدرة على المواجهة، فيشيعوا بين الناس جبنها، وعدم وفائها بما أخذت به نفسها من جولة قادمة فاصلة، وهذه سبة كبيرة عند العربي أن يجبن عن ملاقاة عدوه.

وهنا تفتق ذهن أبي سفيان عن فكرة رآها تخرجه من هذه الورطة التي وضع نفسه فيها، حيث لجأ إلى الحيلة ليخذل المسلمين ويثنيهم عن الخروج؛ فأتى إلى رجل من شرفائهم وأصحاب الرأي فيهم، وأوعز إليه أن يذهب إلى المدينة، فيشيع في الناس أن قريشًا قد جمعت للمسلمين جموعا لا قبل لهم بها، وهو يريد بذلك أن يصرف المسلمين عن لقائه، ويبقوا في المدينة بلا خروج، فيلحقهم العار بجبنهم وعدم خروجهم لملاقاته، وبالتالي يقبل هو بجيشه إلى بدر حسب الموعد، ثم ينصرف بلا قتال، وتكون السبة والعار على المسلمين.

فقدم نعيم وجعل يرجف في المدينة بكثرة جموع قريش التي جمعتها للمسلمين؛ ليُخوّف المسلمين من الخروج، ولكن رسول الله ﷺ أصر على الخروج في الميعاد مهما كلفه هذا الأمر، وأقسم قائلا: «والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد»[(١)].

وخرج النبي ﷺ إلى ميعاد أبي سفيان، وقد جمع لملاقاته ألفًا وخمسمائة من أصحابه، واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي، وبالفعل وصل المسلمون إلى بدر في الموعد المحدد للموقعة.

أما أبو سفيان فكان قد جمع قومه وخرج بهم، فلما وصلوا إلى مر الظهران، نزلوا على مياه مجنة على بعد أربعين ميلا من مكة، وقد جاءته الأنباء بخروج النبي ﷺ وفشل خطته في تخذيل المسلمين، وإصرار النبي ﷺ على اللقاء، فخشي الآثار السلبية لهذه المواجهة، فرجع بقومه من الطريق وهو يقول لهم: «ارجعوا، إنه لا

(١) انظر: الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/ ٥٨٠)، المقريزي: أمتاع الأسماع، (١/ ١٩٢).

يصلحنا إلا عام خصب غيداق، نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وإن عامكم هذا جدب، وإني راجع فارجعوا»[(١)].

ولم يذهب أحد إلى بدر إلا رجل واحد يقال له مخشي بن عمرو الضمري، وهو الذي وادع رسول الله ﷺ على بني ضمرة في غزوة ودان، فالتقى برسول الله ﷺ في بدر وقال: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «نعم، يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك». قال: لا والله يا محمد، ما لنا بذلك منك من حاجة[(٢)]. ثم رجع بقومه.

كانت هذه المشورة التي أشار بها أبو سفيان على الجيش، وعودته إلى مكة بلا قتال أحد مسامير الخراب التي دُقت في نعش الكرامة القرشية، حيث باءت قريش أمام العرب جميعًا بخزي النكول عن الحرب، ومعرة الفرار من لقاء المسلمين، وأطلقوا عليهم نكاتا تهكمية حيث سموهم (جيش السويق).. أي أنهم يقولون لهم في تهكم وسخرية: إنما خرجتم تشربون السويق[(٣)]! وسارت لهم بذلك سمعة بين العرب ذهبت بما كانوا يفخرون به من النصر يوم أحد.

وكانت لمثل هذه الأقوال الساخرة آثار خطيرة على المشركين، حيث إنهم شعروا بالهزيمة النفسية الشديدة، والعار الذي جللهم لعدم إكمال المسير لملاقاة المسلمين؛ مما حملهم على أن يعدوا العدة من جديد لتلك المواجهة المحتومة لغسل ذلك العار، والإعداد لغزوة أخرى سيأتي تفصيلها فيما بعد، وهي غزوة الأحزاب.

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/ ٣٣٨).
(٢) ابن هشام: السيرة، (٤/ ١٦٦)، المقريزي: أمتاع الأسماع، (٨/ ٣٦٢).
(٣) السهيلي: الروض الأنف، (٣/ ٤١١).

www.almoslih.net

وعلى الجانب الآخر فإن رسول الله ﷺ ظل ببدر ثمانية أيام، ينتظر هؤلاء القوم لبدء اللقاء، فلما لم يُقبِل أحد، وعلم برجوع قريش، ونكولها عن اللقاء، أقبل المسلمون على البيع والشراء من سوق بدر، فربحوا ربحا كثيرا[1]، ونفوا عن أنفسهم وصمة الهزيمة التي حدثت في أحد، ورجعوا إلى المدينة وهم قد استعادوا ما كان لهم من هيبة ومكانة في نفوس العرب.

وقد قال بعض المفسرين إنه نزل في هذه الغزوة[2] قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥].

ولكن الراجح في هذا هو ما قدمناه لك سابقا أن هذه الآية كانت إبان ما حدث للمسلمين يوم حمراء الأسد[3]، وما أشاعه المشركون من رجوعهم لاستئصال شأفة المسلمين، وإصرار جيش المسلمين على ملاقاتهم ثانية على الرغم مما ألمّ بهم من جراح.

ومن أحداث هذه الفترة أيضًا أن أبا سلمة الأسدي رضي الله عنه ابن عمة رسول الله ﷺ وأخاه من الرضاعة، قد توفي وترك زوجه أم سلمة، وأبناء صغارًا في حجرها يحتاجون إلى رعاية حانية، فتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة، وكان أبو سلمة رضي الله عنه أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة.

ونستطيع أن نقول إن المسلمين في هذه السنة قد نعموا ببعض الراحة والسلام فقد كان لكل الحملات التأديبية التي قام بها المسلمون أثر ملموس في نفوس

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/ ١٩٣).
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/ ٥٨٠).
(٣) راجع غزوة أحد فيما سبق.

العرب، وأصبحت القبائل العربية لا تفكر كثيرا في أي أعمال السلب والإغارة، ولا إثارة الشغب، ولا معاداة المسلمين؛ لأنهم يقدرون قوة المسلمين، وما يستطيعون فعله تجاه المغيرين.

ومن هنا فقد انقضت السنة الرابعة ومضى من السنة الخامسة شهران محرم وصفر دون أن يكون هناك أعمال حربية، ولا إغارات على المسلمين من الخارج، إلى أن فكر بعض الأعراب أن يهاجموا المدينة من جديد، فكانت حملة تأديبية جديدة.

٢ غزوة دومة الجندل:

كانت الحياة العربية الجاهلية تعتمد في كثير من جوانبها على حياة السلب والإغارة والنهب بين القبائل، وهذا يفسر كثرة الحملات التأديبية التي قام بها النبي ﷺ لتأديب القبائل المغيرة على المدينة.

حيث لم يكن النبي ﷺ ينتظر هؤلاء المغيرين ليصلوا إلى المدينة ليعيثوا فيها فسادا، بل كلما علم أن قبيلة قد أعدت لحربه، وجمعت الجموع للانقضاض على المدينة، دعا إلى الخروج لصدّ هذه الهجمات بسرعة، وفاجأ العدو قبل أن يصل إلى حدود المدينة، فيجنب المدينة بهذا الصنيع كثيرا من الويلات التي تعقب الحروب، كما يجنب النساء والصبيان مناظر الدماء والأشلاء، بالإضافة إلى سبب عسكري جوهري هو مفاجأة العدو قبل أن يأخذ حذره، ويعدّ خطته للانقضاض.

ولعلك لاحظت أن هذه الهجمات كانت تقع أحيانًا قبل أن يتمكن جيش العدو من مغادرة مواقعه نحو المدينة، وبالتالي كانوا يفرون من هول هذه المفاجآت، وقد تكرر هذا كثيرا فيما قدمناه لك، والآن مع جولة أخرى من هذه الجولات التأديبية.

فقد وصلت أنباء مؤكدة إلى النبي ﷺ أن جماعة من الأعراب من محترفي السلب والإغارة بدومة الجندل ـ على حدود الشام ـ يعيثون في الأرض فسادا؛ فيقطعون الطريق ويسلبون الأموال؛ وأنهم يفكرون أن تمتد منطقة نفوذهم إلى المدينة؛ وهم الآن يكوّنون جيشًا لمداهمة المدينة والسطو عليها والعبث بمقدراتها(١).

وكما جرت العادة في مثل هذه الأحوال لا ينتظر النبي ﷺ هؤلاء الأعراب ليصلوا إلى المدينة ليقوموا بهذه الأعمال الإجرامية، فقد كان منهج النبي ﷺ في التعامل مع هذه الحالات هو مفاجأة العدو في عقر داره قبل أن يتحرك، أو على الأقل قبل أن يصل إلى المدينة ليجنّبها ويلات القتال، والخراب الذي تخلفه الحرب حتى لو انتصر فيها المسلمون.

وهنا قام النبي ﷺ بتعبئة جيشه بسرعة، وخرج ﷺ بنفسه في ألف مقاتل من أصحابه، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة، وسار في غير الطريق المألوف، حتى يفاجئ العدو قبل أن يأخذ حذره، وكان ﷺ يسير بجيشه بالليل ويكمن بالنهار، حتى قطع الطريق في نحو خمس عشرة ليلة(٢).

فلما وصل النبي ﷺ بجيشه إلى هؤلاء الأعراب وفاجأهم في عقر دارهم أصابهم الرعب، وتفرق جيشهم في كل وجه؛ فبعث النبي ﷺ السرايا وفرقها في كل ناحية، لملاقاة فلول هذا الجيش ولكنهم رجعوا إليه سالمين؛ دون أن يلقوا أحدا، فقد اعتصم هؤلاء المخربون برؤوس الجبال كعادة المفسدين وقطاع الطرق دائما، ولم يؤسر منهم إلا رجل واحد، فجاءوا به إلى رسول ﷺ، فعرض عليه الإسلام فأسلم، ثم رجع رسول الله ﷺ وقد أصاب بعضا من أنعامهم، إلى المدينة، فدخلها في اليوم العاشر من شهر ربيع الآخر.

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٥٨١/٢).
(٢) المصدر السابق.

٣ غزوة بني المصطلق (المريسيع):

قبيلة بني المصطلق هي أكبر بطن من قبيلة خزاعة، وكان بنو المصطلق من حلفاء قريش الذين اشتركوا معها في معركة أحد ضد المسلمين، ضمن حلف الأحابيش الذي مر ذكره عند الحديث عن هذه المعركة.

وكان رئيس تلك القبيلة يدعى الحارث بن أبي ضرار، حيث رأى مع رجال هذه القبيلة ما أصبحت المدينة تتمتع به من استقرار أمني بعد زوال اليهود، وما تشهده الآن من بداية النمو والرواج الاقتصادي، فحاولوا أن يحملوا عليها بمفردهم حملة مباغتة للعبث بمقدراتها، وسلب ما يستطيعون سلبه من هذه الخيرات، وإلحاق الضرر بالمسلمين.

وبلغ النبي ﷺ ما يقومون بفعله، وما يعدّون له من الجنود، وتثبت النبي ﷺ من هذه الأخبار، حيث أرسل إليهم بريدة بن الحصيب، ليعلم علم ذلك، فخرج حتى ورد عليهم، ورأى جمعهم، فقالوا له من الرجل؟ قال: رجل منكم قدمت لما بلغني من جمعكم لهذا الرجل، فأسير في قومي ومن أطاعني، فنكون يدا واحدة حتى نستأصلهم، فقال له الحارث: فنحن على ذلك، فعجل علينا، قال بريدة: أركب الآن، فآتيكم بجمع كثير من قومي، فسرّوا بذلك منه، ورجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره خبر القوم(١)، فخرج النبي ﷺ إليهم في جمع كثير من الناس، بلغ سبعمائة من الجنود(٢) وثلاثين فرسا، منها: عشرة للمهاجرين، وعشرون للأنصار (٣).

وقد رأى فريق من المنافقين في المدينة أن النبي ﷺ كثيرا ما يخرج إلى الغزو، فيعود منتصرًا، دون أن يلقى حربًا حقيقية مع العدو، حيث يفرّ العدو من أمامه، فأراد هؤلاء المنافقون الاشتراك في هذه الحملات وهم يظهرون أنهم يخرجون

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٥٨٣/٢)، وما بعدها.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢٩٧/٣).
(٣) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢٠٣/١).

www.almoslih.net

مع المسلمين لصد هجمات المخربين، ولكنهم في الحقيقة خرجوا طمعا في الغنيمة؛ ومن هنا كثر عدد الجيش لملاقاة هذه القبيلة، وبسبب هؤلاء المنافقين كانت هناك مجموعة من الأحداث في هذه الغزوة سيأتي تفصيل الحديث فيها في موعده.

خرج النبي ﷺ من المدينة بالجيش الذي أعده لملاقاة هؤلاء المغيرين، حتى وصل إلى ماء لهم يقال له "المريسيع"[1]، فوجد الحارث بن أبي ضرار قد خرج بجيشه، ووصل أيضًا إلى هناك، وترك بعير الجيش ترعى حوله قبل الانطلاق النهائي للغزوة، ومن هنا فإن هذه الموقعة تسمى غزوة بني المصطلق أو المريسيع؛ حيث التقى الجمعان عند هذا الماء.

إن وصول الجيش المسلم إلى هذه المنطقة القريبة من ديار بني المصطلق دليل على سرعة مباغتة جيوش المشركين قبل أن يستفحل خطرها، وينضم إليها مجموعات من المخربين الآخرين في الطريق فيزداد عددهم، وتزيد قوتهم، فتزيد بالتبعية الأخطار التي يخلفونها وراءهم.

ولهذا كله فإن النبي ﷺ بمجرد أن وصل إلى هذه المنطقة، ووجد الجيش قد خرج حول هذا الماء، والإبل ترعى في المرعى القريب حوله، فلم يمهلهم حتى يستجمعوا صفوفهم، ويشعروا بجيش المسلمين، فيكونوا جيشا واحدا مجمعا، ولكنه اخترق صفوفهم من الداخل، بحيث لا يستطيعون تجميع أنفسهم، ولا الانقياد تحت قيادة منظمة تكون لها شوكة، تستطيع من خلالها أن تنظم سير الحرب، ولا أن تلتقي بقيادتها، حيث يلاقي كل شرذمة منهم على حدة.

وبعد أن اخترق النبي ﷺ صفوفهم، وفرق جمعهم، بدأت المواجهة بالتراشق بالنبل بين الفريقين، وظل هذا الوضع سائدا في بداية المعركة، دون أن يلتحم الفريقان، ودون أن يشد عليهم المسلمون، وتقول السيوف كلمتها.

(١) ماء لبني المصطلق على مقربة من ديارهم.

وفي إطالة مدة هذا التراشق بالنبال من بعيد بعد أن اخترق الجيش المسلم صفوفهم وفرقها، وأحكم الخناق عليها فرصة أن يقوم العدو بتغيير رأيه قبل نقطة الصفر التي لا عودة بعدها، حيث تعمل السيوف عملها، ويلتحم الجيشان، فإما الهزيمة والأسر، وإما الفرار وما يخلفه من عار[1].

مع بداية المعركة فرق النبي ﷺ بين صفوف بني المصطلق، واخترق جموعهم وهم غافلون قد عسكروا على الماء، بحيث لا يستطيعون التجمع تحت قيادة واحدة، حتى إذا تمكن منهم وأصبحوا في قبضته، تأتي المرحلة الثانية من المعركة، وهي التي وقع فيها التراشق بالنبل مع هذا الجيش الممزق، ودعوة محمد ﷺ لهم بترك القتال والإسلام، ثم أمره ﷺ بالحمل عليهم، بعد أن رفضوا هذه الدعوة.

إن الأصل الذي خرج له المسلمون في هذه الغزوة هو صد هجوم هؤلاء المشركين عنهم، وعن العبث بمدينتهم، وترويع الآمنين فيها، ولكن هذا كله لا يمنع من إعذارهم، ودعوتهم إلى الإسلام عسى أن يفيء رجال منهم إلى الحق، فينجوا مما هم فيه من الشرك والضلال، ويتجنبوا ويلات القتال بين الفريقين، ويصيروا قوة للمسلمين، ويحفظوا بذلك أموالهم وأعراضهم، فلا يتعرض أحد من المسلمين لهم.

وهذا يفسر ما روي أن النبي ﷺ أمر عمر بن الخطاب ﷺ أن ينادي في جيش العدو: "قولوا: لا إله إلا الله، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم"[2]. فأبى القوم أن يقولوها؛ فتراشقوا بالنبل ساعة، ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فقتلوا منهم عشرة رجال، وأسروا بقيتهم، فما أفلت منهم أحد.

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٥٨٥).
(٢) المصدر السابق نفسه.

www.almoslih.net

ولعلنا نلاحظ حرص المسلمين على استبقاء الأرواح، وعدم التشفّي في هؤلاء بقتلهم، ولا التنكيل بهم، فإنهم قد تمكنوا منهم، ومع ذلك لم يكن همهم الأول أن يفصلوا رقاب هؤلاء المجرمين المخربين، على الرغم من فسادهم وعنادهم وإصرارهم على المعركة، وأنهم هم الذين فكروا في غزو المدينة أولًا.

ولم يقتل المسلمون منهم في هذه المعركة سوى عشرة رجال اقتضتها ظروف الحرب، فإن حربا يلتقي فيها قرابة ألف ونصف من مقاتلي الفريقين، ثم يقتل فيها عشرة فقط لهي حرب بيضاء نظيفة، وهي تدل من ناحية أخرى على دقة التنظيم النبوي لصفوف المسلمين، بحيث يحرزون هذا النصر المؤزر بأقل مجهود ممكن، وبأقل عدد من الضحايا في الفريقين، حيث لم تذكر الروايات أي إصابات وقعت في جانب جيش المسلمين.

فتنة عبد الله بن أبي بن سلول:

وكان لعمر بن الخطاب في الجيش أجير يقود فرسه، فازدحم بعد انتهاء الموقعة مع أحد رجال الخزرج على الماء، فاقتتلا فتصايحا، يقول الخزرجي: يا معشر الأنصار، ويقول أجير عمر: يا معشر المهاجرين.

وسمع عبد الله بن أبيّ النداء، وكان قد خرج مع المنافقين في هذه الغزوة ابتغاء الغنيمة، فثار ما في نفسه على المهاجرين وعلى النبي ﷺ من حفيظة، وقال لجلسائه: "لقد كاثرنا المهاجرون في ديارنا والله ما أَعُدّنا وإياهم إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلْك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ"[1].

ثم قال لمن حضر من قومه: "هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم"[2].

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٣٤٨/٤).
(٢) الصالحي الشامي: المصدر السابق، (٣٤٨/٤).

ومشى بحديثه هذا ماش إلى رسول الله بعد فراغه من عدّوه، وكان عنده عمر بن الخطاب، فهاج عمر لما سمع وقال: مر به بلالا فليقتله[1].

هنا ظهر النبي ﷺ كدأبه مظهر القائد المحنّك والحكيم البعيد النظر. إذ التفت إلى عمر وقال: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمدا يقتل أصحابه؟»[2].

لكنه قدر في الوقت نفسه أنه إن لم يتخذ خطّة حازمة فقد يستفحل الأمر. لذلك أمر أن يؤذن في الناس بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها، وترامى إلى ابن أبيّ ما بلغ النبي ﷺ عنه، فأسرع إلى حضرته ينفي ما نسب إليه، ويحلف بالله ما قاله ولا تكلّم به.

ولم يغير ذلك من قراره ﷺ الرحيل شيئا، بل انطلق بالناس طيلة يومهم حتى أمسوا، وطيلة ليلتهم حتى أصبحوا، وصدر يومهم الثاني آذتهم الشمس. فلما نزل الناس لم يلبثوا حين مسّت جنوبهم الأرض أن وقعوا من فرط تعبهم نياما، وأنسى التعب الناس حديث ابن أبي، وعادوا بعد ذلك إلى المدينة ومعهم ما حملوا من غنائم بني المصطلق وأسراهم وسبيهم، ومعهم جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار قائد الحي المهزوم وزعيمه.

بلغ المسلمون المدينة، وأقام ابن أبي بها، لا تهدأ له نفس حسدا لمحمد وللمسلمين، وإن تظاهر بالإسلام بل بالإيمان؛ وإن أصر على إنكار ما نقل عنه لرسول الله عند المريسيع. أثناء ذلك نزلت سورة المنافقين وفيها قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٧-٨].

(١) ابن كثير: السيرة، (٢٩٩/٣).
(٢) ابن هشام: السيرة، (٢٥٤/٤)، وما بعدها.

www.almoslih.net

مثل رائع من الإيمان:

هنالك حسب قوم أن في هذه الآيات قضاء على ابن أبيّ، وأن النبي ﷺ لا ريب آمر بقتله. فذهب عبد الله بن عبد الله بن أبيّ، وكان مسلما حسن الإسلام، فقال: «يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا، فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني. وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر، فأدخل النار».

كذلك قال عبد الله بن عبد الله بن أبيّ للنبي ﷺ. وما أحسب عبارة من عبارته على إيجازها في قوة التعبير عن حالة نفسية تضطرب فيها أقوى العوامل في النفس أثرا: تضطرب فيها عوامل البرّ بالأب، وصدق الإيمان، والحرص على سكينة المسلمين حتى لا تتواتر الثارات بينهم!

فهذا ابن يرى أباه سيقتل، فلا يطلب إلى النبيّ ألّا يقتله، لأنه يؤمن بأن النبيّ ﷺ إنما يصدع بأمر ربه، ويوقن بكفر أبيه. وهو من خيفة ما يقتضيه البرّ بأبيه وما تقتضيه الكرامة والنخوة أن يثأر له ممّن قتله، يريد أن يحمل على نفسه وأن يقتل هو أباه، وأن يحمل هو بنفسه إلى النبيّ رأسه، وإن قطّع قلبه وفرى كبده ! وهو يجد في إيمانه بعض العزاء عن هذا الشطط الذي يكلف نفسه، مخافة أن يدخل النار إن هو قتل المؤمن الذي يأمره النبيّ بقتل أبيه.

أيّ جلاد بين الإيمان والعاطفة والخلق أشدّ من هذا الجلاد! وأية مأساة نفسيّة أفتك بصاحبها من هذه المأساة! أفتدري بم أجاب النبي ﷺ عبد الله بعد أن سمع قوله: «إنّا لا نقتله بل نترفّق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[(١)].

---

(١) ابن هشام: السيرة، (٤/٢٥٥)، وما بعدها.

وكان للناس عجبًا أن يتفجر الهدى والإيمان من صخرة النفاق والطغيان، وأن يخرج من صلب عبد الله بن أبي زعيم المنافقين ولد يسمو بإيمانه إلى مستوى الأبرار والصديقين.

ويا له من موقف رائع تتمثل فيه قوة العقيدة وسمو التفكير، وكيف يتغلبان على العاطفة والوجدان، ويا لها من محنة عصيبة وامتحان رهيب قدرهما الله على هذا الابن البار، فاجتاز المحنة ونجح في الاختبار.

وكانت إجابة النبي ﷺ بعد ذلك هي المثل العظيم في العفو والصفح الجميل، وهي النبراس الذي يضيء طرق الخير ويهدي إلى سواء السبيل، وهي خير مكافأة لكل مؤمن يرتفع بإخلاصه إلى هذا المستوى الكريم، ذلك بأنه قال له: «إنا لا نقتله، بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

وهكذا أحسن ﷺ إلى من أساء إليه، وترفق بهذا الذي ألب أهل المدينة عليه وعلى أصحابه وعفا عنه، فكان رفقه وعفوه أبعد أثرًا من عقوبته لو أنه أنزلها به.

فقد كان عبد الله بن أُبي بعد ذلك يدين بالجميل له ﷺ وكان إذا جدّ الجد لا يستطيع أن يرفع رأسه آمرًا أو ناهيًا متحكمًا في أحد من المسلمين، لأنهم جميعًا كانوا يشعرون بأن حياته هبة منه ﷺ، وكان قومه كثيرًا ما يشعرونه بهذه المكرمة التي تفضل بها ﷺ عليه.

يا لروعة العفو وجلاله! محمد يترفّق بهذا الذي يؤلب أهل المدينة عليه وعلى أصحابه، فيكون رفقه، ويكون عفوه أبعد من عقوبته لو أنه أنزلها به. فقد كان عبد الله بن أبيّ بعد ذلك إذا أحدث الحدث يعاتبه قومه ويعنفونه ويشعرونه أن حياته هبة من النبي ﷺ.

وتذاكر النبي مع عمر يوما شؤون المسلمين وجاء ذكر ابن أبي وما يعاتبه قومه وما يعنفونه؛ فقال ﷺ: كيف ترى يا عمر! أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله

لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

زواج النبي ﷺ من ابنة قائدهم:

لقد أسر المسلمون أفراد قبيلة بني المصطلق رجالا ونساء وذرية، وكانوا نحو مائة بيت، وكان من بين هؤلاء الأسرى ابنة الحارث بن أبي ضرار زعيم القبيلة ورأس الجيش نفسه؛ فقد خرجت القبيلة كلها حول ماء المريسيع لترعى إبلها، وتكون نقطة التجمع قبل التحرك المباشر إلى المدينة، وبالتالي فقد غنم المسلمون أيضًا أموال القبيلة كلها، فبلغ غنم المسلمين من الإبل ألفي بعير ومن الشاء خمسة آلاف رأس[1].

وكانت جويرية بنت الحارث من سبايا بني المصطلق، وكانت امرأة ملاحة، وقد وقعت في سهم أحد الأنصار، فأرادت أن تفتدي نفسها منه، فأغلى الفداء علما منه بأنها ابنة زعيم بني المصطلق، وأن أباها على أداء ما طلب قدير.

وخشيت جويرية أثر شططه، فذهبت إلى النبيّ ﷺ، وكان في دار عائشة ﵂ فقالت: «أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في سهم فلان، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي». قال: فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو؟ قال: أقضي كتابك وأتزوّجك[2].

فلمّا بلغ الناس الخبر أطلقوا من بأيديهم من أسرى بني المصطلق إكراما لصهر رسول الله ﷺ إيّاهم، حتى لكانت عائشة ﵂ تقول عن جويرية: ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها.

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٥٨٦).
(٢) ابن حبان، برقم (٤٠٥٥)، باب ذكر السبب الذي من أجله تزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث.

وهنا يضرب النبي ﷺ مثالا رائعا للقائد الناجح والداعية إلى الله، لا كما يشيع المغرضون والمرجفون عنه بأنه كان يغزو طلبا للمال بغرض السلب والنهب، ولو كان ﷺ يريد متع الحياة الدنيا لأخذ هؤلاء جميعا أسرى، واصطفى منهم لنفسه من الجواري ما يحلو له، ووزع الباقي على جنوده، كأي قائد معروف في تاريخ الحروب في تلك الفترة.

ولو حدث ذلك ما استطاع أحد أن يلومه، لا من قومه، ولا من كتاب التاريخ بعد ذلك، فهذا هو قانون الحروب آنذاك، ولكن هذا القانون الدموي شيء وأخلاق النبي ﷺ شيء آخر؛ إنها تقدم مصلحة المهزوم الشرعية على مصلحة المنتصر الدنيوية، إذ إن المصلحة العامة للجميع أن يعبد الناس ربهم جل وعلا وحده، وأن يكفوا عن الشرك والوثنية، وأن يكفوا أيضًا عن أخلاقهم السيئة، من السلب والنهب والإغارة.. وغير ذلك من الأخلاق التي نبتت في ظروف الصحراء القاحلة، ولا يقرّها عرف ولا دين، وتتنافى كليا مع الكرامة الإنسانية.

فإذا ما تحقق ذلك فلا سلطان لأحد عليهم، مهما كان جرمهم الذي سبق أن ارتكبوه، فإن التوبة والرجوع إلى الله، والإقلاع عن الفساد والظلم، كل هذا يفتح للإنسان صفحة جديدة مع الله ومع الناس أيضًا.

حدث ذلك أثناء المعركة حيث طلب منهم النبي ﷺ أن يعودوا إلى رشدهم، ويقولوا لا إله إلا الله فيكفّ عنهم جنوده، وينصرف عنهم، ولكنهم أبوا ذلك، فهزمهم وأسرهم جميعا، وها هو يريد مرة أخرى بأسلوب آخر أن يجذبهم إليه، لا يريد أن يجعلهم عبيدًا وإماء، وأن يسلب منهم أموالهم، إنه يريد لهم الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

تزوّج النبي ﷺ من جويرية ﵂، وبنى لها منزلًا إلى جانب منازل نسائه في جوار المسجد، وأصبحت بذلك من أمهات المسلمين.

www.almoslih.net

وبينما هو في شغله بها كان قوم قد بدأوا يتهامسون: ما بال عائشة قد تأخّرت عن المعسكر، وجاءت مع صفوان على بعيره، وصفوان شابّ وسيم الطلعة مكتمل فتوّة الشباب؟!

وكانت لزينب بنت جحش أخت تدعى حمنة، وكانت تعلم ما لعائشة عنده ﷺ من حظوة تقدّمها على أختها فجعلت حمنة هذه تذيع ما يهمس به الناس من أمر عائشة، وكانت تجد من حسّان بن ثابت عونا، ومن عليّ بن أبي طالب سميعا.

فأمّا عبد الله بن أبيّ فوجد في هذا الحديث مرعى خصيبًا لشفاء ما في نفسه من غلّ، وجعل يذيعه جهد طاقته. ولكن جماعة الأوس وقفوا موقف الدفاع عن عائشة، وقد كانت مضرب المثل في الطهر وسموّ النفس، وكاد الحديث يؤدّي إلى فتنة في المدينة.

وبلغت هذه الأخبار النبي ﷺ، فاضطرب لها. ماذا؟! عائشة هذه تخونه! هذا مستحيل. إنها الأنفة والإباء، وإن لها من حبه إياها وشدّة عطفه عليها ما يجعل مجرّد ظنّ كهذا إثما دونه كل إثم. نعم! ولكن أفّ للنساء! من ذا يستطيع أن يَسبر غورهنّ أو يصل إلى قرارة ما في نفوسهنّ! وعائشة بعد طفلة يافعة! وتقلَّب النبيّ ﷺ على أشواك الحيرة، ما يدري أيصدّق أم يكذّب.

حديث الإفك:

ولكن وقع الحادثة عكّر صفاء هذه الغزوة وهو ما وقع من حديث الإفك عن عائشة زوج النبي ﷺ. فقد شغل المجتمع الإسلامي بفرية الإفك، التى هزت المدينة هزًا عنيفًا لمدى شهر كامل من أيام شعبان ورمضان من السنة السادسة للهجرة.

فقد كان النبي ﷺ عندما خرج غازيا إلى بني المصطلق، وصحب معه أم المؤمنين عائشة بنت الصديق.

وفي طريق العودة أناخ الركب قرب المدينة، فباتوا بعض الليل ثم ارتحلوا، وما يدرون أن أم المؤمنين تخلفت عنهم، حتى افتقدوها في هودجها حين بلغوا المدينة في الصبح. وقبل أن يشتدّ القلق عليها، وصلت على بعير يقوده صفوان بن المعطل السلمي، وحدثت زوجها ﷺ عن سبب تخلفها فما أنكر منه شيئا: كانت قد خرجت من هودجها من العسكر لبعض حاجتها، قبل أن يؤذن فيه بالرحيل.

وكان في عنقها عقد من جَزْع انسلّ منها فالتمسته حتى وجدته، واتجهت إلى هودجها فإذا الركب قد رحلوا واحتملوه، لم يحسوا أنها ليست فيه، لخفّة وزنها. تلفعت بجلبابها، وانتظرت في مكانها واثقة أنهم لن يلبثوا أن يفتقدوها فيرجعوا إليها.

وحدث أن مرّ بها صفوان بن المعطل السلمي، فأنكر أن يتركها وحدها في الخلاء، وقدم بعيره إليها، ثم استأخر عنها حتى ركبت، فانطلق يقود بها حتى أبلغها مأمنها في المدينة.

ونسج المنافقون واليهود فرية الإفك، من هذا الحادث العارض. ورددها ناس من المسلمين فبلغت سمع زوجها المصطفى ﷺ وأبيها الصديق، وأمها أم رومان. فصكت آذانهم، وإن لم يجرؤ أحد منهم على مواجهة عائشة بالشائعة الخبيثة، إذ كانت تشكو من علة.

ولما أحست جفوة من زوجها ﷺ استأذنته في الانتقال إلى أمها لتمرضها، فأذن لها.

بعد بضع وعشرين ليلة، نقهت من علتها، فخرجت من بيت أبيها لبعض حاجتها، ومعها أم مسطح بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف، وإذ هما في الطريق عثرت عائشة في مِرطها، فقالت رفيقتها: "تعس مسطح".

فأنكرت ما سمعت، وقالت: "بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا".

سألتها أم مسطح: "أوما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟" ولأول مرة، سمعت عائشة بفرية الإفك، فارتاعت وهرعت إلى أمها، تسألها باكية: "يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئا ؟".

فلم تملك أمها إلا أن تقول: "أي بنية، خفضي عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثّرن وكثّر الناس عليها".

لكن ذلك لم يهوّن عليها من محنة الفرية الخبيثة التي امتحنت بها، وإن لم تدر ماذا عساها أن تصنع، إلا أن تكل أمرها إلى الله سبحانه.

وفي المسجد النبوي، كان زوجها ﷺ، يحاول أن يرد عنها ألسنة السوء، فيقول: «يا أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق؟ والله ما علمت منهم إلا خيرًا. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي».

فتنفذ كلماته إلى قلوب المؤمنين، ويثورون غضبًا للسيدة الكريمة، ويتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الإفك من هؤلاء وهؤلاء. حتى كاد يكون بين الحيين شر [(١)].

وخيف على المجتمع الإسلامي من التصدع، وخيف على عائشة من وطأة الحزن والقهر حتى حسم القرآن الكريم تلك الفرية الفاحشة بآيات النور: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١١]. إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ

(١) تفصيل حديث الافك، في "صحيح البخاري"، (٤/ ٢٧)، الطبري: تاريخ الرسل، (٣/ ٦٣).

فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النور: ١٦-١٩]. وفي هذه المناسبة كذلك نزلت عقوبة رمي المحصنات: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[النور: ٤].

وقد علق الزمخشري صاحب تفسير الكشاف على هذه الآيات بقوله: "ولو فلّيت القرآن كله، وفتشت عما أوعد به العصاة، لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما رُكب من ذلك واستفظاع ما أُقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه.

ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القَذَفة ملعونين في الدارين جميعًا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفِكوا وبهَتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك أن الله هو الحق المبين "فأوجز في ذلك وأشبع وفصّل وأجمل وأكد وكرر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة وما ذاك إلا لأمر"[(١)].

أليس هذا تكريمًا للمرأة، تكريمًا قرآنيًا يتلوه المسلمون رجالًا ونساء، فيتذكرون المكانة العظيمة للمرأة التي أراد الله سبحانه وتعالى تخليدها في القرآن الكريم، ويقرأها الناس في صلاتهم وفي مساجدهم وفي حلق الذكر، ليتذكروا هذه المكانة الفريدة للمرأة، ولكي تدرك المرأة أن كرامتها وعزتها في هذا الدين الذي رفع قدرها، وحمى عرضها، وأعلى شرفها مما لا يمكن أن تجده في غيرِ هذا الدين.

(١) الزمخشري: تفسير الكشاف، (٣/ ٥٦-٥٧).

وتنفيذا لحكم القرآن أمر بمسطح بن أثاثة وحسّان بن ثابت وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة، فضرب كل منهم ثمانين جلدة. وعادت عائشة إلى مثل مكانها الأوّل من بيت محمد ﷺ ومن قلبه.

وقد استطاع حسّان بن ثابت من بعدُ أن يعود إلى رضا النبي ﷺ وعطفه عليه، وأنشد يعتذر لِعَائِشَةَ رضي الله عنها:

حَصَـانٌ رَزَانٌ مَـا تُـزَنّ بِرِيبَـةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ
عَقِيلَـةُ حَيّ مِنْ لُـؤَيّ بْنِ غَالِبٍ ... كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمُ غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذّبَـةٌ قَـدْ طَيّـبَ الله خِيمَهَـا ... وَطَهّرَهَـا مِنْ كُلّ سُـوءٍ وَبَاطِلِ
فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الّذِي قَدْ زَعَمْتُمُ ... فَلَا رَفَعَتْ سَـوْطِي إلَيّ أَنَامِلِي
وَكَيْفَ وَوُدّي مَا حَيِيتُ وَنُصْرَتِي ... لِآلِ رَسُـولِ الله زَيْـنُ الْمَحَافِلِ
لَهُ رَتَبٌ عَـالٍ عَلَى النّاسِ كُلّهِمْ ... تَقَاصَـرَ عَنْـهُ سَـوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ
فَـإِنّ الّذِي قَدْ قِيـلَ لَيْسَ بِلَائِطٍ ... وَلَكِنّـهُ قَـوْلُ امْرِئٍ بِـي مَاحِلِ

كما عرض القرآن على أبي بكر أن لاّ يُحرِم مسطحًا عطفه الذي عوّده إيّاه حين قال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ .... ومن ثم انقضى هذا الحادث ولم يبق له في المدينة كلها أثر.

وأسرعت النقاهة إلى عائشة وعادت إلى دارها، وإلى مكانتها من قلب النبي ﷺ، وإلى مركزها الرفيع من نفوس أصحابه المسلمين جميعا. وبذلك فرغ النبيّ لنشر رسالته، وسياسة المسلمين استعدادا لعهد الحديبية يفتح الله به على المسلمين فتحا مبينا.

وقبل أن نسدل الستار على هذا الحادث نبين هنا أمرين وقعا عقب هذه الحادثة ونزول براءة عائشة رضي الله عنها بقرآن يتعبّد بتلاوته إلى يوم القيامة.

الأمر الأول: هو صنيع أبي بكر الصديق مع قريبه مسطح بن أثاثة، الذي كان ينفق عليه من ماله، ولكنه مع ذلك لم يحفظ تلك اليد، ووقع في عرض عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، وخاض في حديث الإفك، فلما فعل ذلك أقسم أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالله ـ وهو مُحِقّ ـ ألا ينفع مسطحا بنافعة أبدًا، جزاء ما خاض في عرض ابنته بلا علم، فلما أنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] قال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي؛ فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا[١].

ولنترك صاحب الظلال يعلق على هذا الموقف بقوله: "وهنا نطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية، التي تطهّرت بنور الله؛ أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ أبي بكر الذي مسّه حديث الإفك في أعماق قلبه، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه.

فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو وما يكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحي: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾ حتى يرتفع على الآلام، ويرتفع على مشاعر الإنسان، ويرتفع على منطق البيئة، وحتى تشفّ روحه وترفّ وتشرق بنور الله، فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق، يقول: بلى والله إني لأحبّ أن يغفر الله لي.

ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، ويحلف: والله لا أنزعها منه أبدا. ذلك في مقابل ما حلف: والله لا أنفعه بنافعة أبدا. بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير، ويغسله من أوضار المعركة، ليبقى أبدا نظيفًا طاهرًا زكيًا مشرقًا بالنور"[٢].

---

(١) البخاري، رقم (٤٧٥٠).

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، (٤/٢٥٠٥).

www.almoslih.net

نعم والله، إن الإنسان ينبغي أن يقف أمام هذا النموذج الإنساني الرفيع ليتعلم منه الترفع عن المشاعر السلبية، والعفو عن الآخرين مهما أساءوا إليه، وأن يضع الله نصب عينيه، وأن يحسن إلى من أساء إليه، فكلها دروس وعبر من هذا الموقف الذي يفيض جلالًا وبهاء.

الأمر الثاني: أن النبي ﷺ عندما تكلم في هذا الأمر على المنبر وكان من شأن الحديث ما ذكرناه قبل سطور من تشاجر بعض زعماء الأنصار واعتراضه على عرض أخيه الذي تقدم به للنبي ﷺ بقتل سبب الفتنة ورأسها المدبر، أن ظل الطرفان سعد بن عبادة وسعد بن معاذ لا يكلم أحدهما صاحبه، ووجد كل منهما في نفسه على الآخر.

فمكث رسول الله ﷺ أياما، ثم أخذ بيد سعد بن معاذ في نفر حتى دخل على سعد بن عبادة ومن معه، فتحدثوا ساعة، وقرب لهم سعد بن عبادة طعاما، فأصابوا منه وانصرفوا. فمكث أياما، ثم أخذ بيد سعد بن عبادة ونفر معه، فانطلق به حتى دخل منزل سعد بن معاذ، فتحدثوا ساعة، وقرب لهم سعد بن معاذ طعاما، فأصابوا منه، ثم خرجوا، فذهب من أنفسهم ما كانا تقاولا من ذلك القول[1].

وفي هذا درس عظيم في ضرورة الصلح بين المتخاصمين، وألا تترك الأمور حتى تتأزم، فتشيع البغضاء في المجتمع، وتنمو العداوات والإِحَنُ، كما أن فيه درسًا بليغًا لسرعة استجابة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين للصلح، فما تكلم أحد منهم بكلمة، حيث دخل النبي ﷺ بأحدهما على الآخر، فقدم له نزلا، وما تلكّأ الأول في أن يمدّ يده إليه، فأصاب منه ما أذهب ما في نفسه تجاه أخيه، وعلى الجانب الآخر رد له أخوه الزيارة برفقة النبي ﷺ، وقدم له أخوه القرى فأصاب منه بنفس راضية، وذهب ما في نفوسهما، وقد علما أن النبي ﷺ أراد بهذا الصنيع أن يعودا أخوين متحابين، فعادت الأمور إلى مجاريها.

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٦١٧)، المقريزي: أمتاع الأسماع، (١/٢١٦).

بَيْن حِصَارَين

تحالف يهودي وثني:

كانت هناك كثير من القوى السياسية المحيطة بالمدينة كما لاحظت في الفصول السابقة يقضّ مضجعها هذا التنامي السريع لتلك الدولة الوليدة، ودينها الجديد الذي نزل من السماء، ومن ثم فقد تجمعت هذه القوى تحت قيادة واحدة، وعزمت على استئصال شأفة المسلمين والقضاء عليهم.

والذي ينبغي أن ننوه بذكره هنا في البداية أن الغزوة إنما سميت بالأحزاب نظرا لتجمع عدد كبير من الأحلاف والقوى في المنطقة من قبائل العرب واليهود على السواء، لتصبّ في جهة واحدة هي العداء الشديد لهذا الدين، وضرورة القضاء عليه قضاء مبرما لا يترك له أثرا في المجتمع بعد ذلك.

وأول هذه القوى هي قبائل اليهود المطرودين من المدينة، فلم يكن خروج بني النضير من المدينة على النحو الذي فصلنا الحديث عنه في الفصول السابقة أمرًا هينًا على نفوسهم، وما كان من المتوقع أيضًا أنهم سيتركون الأمور تمضي هكذا بلا إثارة الفتن، وتأليب القبائل العربية للاحتشاد لمواجهة دولة المسلمين الواعدة في المدينة، وهم ما زالوا يحلمون بالرجوع إلى المدينة موطنهم وموطن آبائهم وأجدادهم منذ عهود بعيدة.

بل إن الأنصار من الأوس والخزرج كانوا هم الطارئين على وجودهم، فما بالك بهؤلاء الوافدين الجدد من مهاجري قريش في أيامهم الحاضرة، ومع ذلك يزلزلون مكانتهم، ويطردونهم بهذه الطريقة المخزية.

www.almoslih.net

أضف إلى هذا أن المدينة كانت تمثل لهؤلاء اليهود زعامة دينية في هذه المنطقة الوثنية، حيث كانوا يَدِلّون عليهم بأنهم أهل كتاب، أما غيرهم من العرب فهم وثنيون لا دين لهم، فارتفعت مكانتهم بين العرب، وكانوا ينظرون إليهم نظرة إجلال وتقدير.

بل إن أهل الأوس والخزرج كان منهم من يرسل أبناءه ليتربى بينهم، لما كانوا يعتقدون فيهم من طهارة دينهم وقربه من المنبع السماوي، وأن الله أرسل إليهم الأنبياء، فجاء طردهم بهذه الطريقة لينتزع منهم تلك المكانة الدينية التي نعموا بها ردحا من الدهر في بلاد العرب.

ولم يكن التجلد الذي أظهروه عند خروجهم من المدينة إلا مظهرا من مظاهر الكبر والعنجهية، حتى لا يشمت بهم الشامتون، ولكن قلوبهم كانت تحترق حزنًا على فراق هذا الوطن، وحقدًا على الإسلام ورسول الإسلام وأصحابه الذين أخرجوهم من ديارهم مطرودين شر طردة، وأخذوا أرضهم وبيوتهم وحصونهم وأسلحتهم، وزروعهم وثمارهم، وكل ما لهم في المدينة.

وبعد أن استقر هؤلاء اليهود في مكانهم بالشام، أخذوا يفكرون في الانتقام من أولئك الأعداء، وعملوا على إعداد جيش كثيف من كل القوى العربية واليهودية الحاقدة على دولة المدينة، كي يتمكنوا من توجيه الضربة القاصمة لها، ويستطيعوا بها استئصال شأفة المسلمين، أو على أقل تقدير إبعادهم عن المدينة، وتشريدهم في الجزيرة العربية بحيث لا يجتمع لهم شمل، ولا تقوم لهم قائمة بعد ذلك.

غزوة الأحزاب "الخندق":

وكان من نتيجة تلك الجهود التي بذلها هؤلاء اليهود، أن تجهزت قريش وعلى رأسها أبو سفيان وعددهم أربعة آلاف، ومعهم ثلاثمائة فرس وألف بعير، وتجهزت غطفان، ويرأسهم عيينة بن حصن، وكان معهم ألف فارس، وتجهزت بنو مرة يرئسهم الحارث بن عوف المري، وتجهزت بنو أشجع يرئسهم أبو مسعود بن رخيلة،

وتجهزت بنو سليم يرئسهم سفيان بن عبد شمس، وتجهزت بنو أسد يرئسهم طليحة بن خويلد الأسدي، وعدة الجميع عشرة آلاف جندي، وقائدهم العام أبو سفيان صخر بن حرب، وكان ـ حينئذٍ ـ ألد الأعداء لمحمد ﷺ وللمسلمين[1].

ثم خرجت هذه الأحزاب ـ على ما بينها من تنافر وتباعد وعصبية قبلية ـ ويؤلف بينهم هدف مشترك هو الانتقام من المسلمين، والرغبة في استئصالهم والقضاء على دينهم، وكان ذلك في السنة الخامسة من الهجرة النبوية.

موقف المسلمين في المدينة من الأحزاب:

وكان المسلمون في المدينة ـ حينئذٍ ـ هم المهاجرون الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله وجهاد في سبيله، والأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان، والذين آووا رسول الله ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه.

كان موقفهم موقفا عصيبًا يحيط به الحرج والضيق، ويسود فيه الخوف والرهبة، ولا غرو فهؤلاء هم أحزاب الشر، وأعداء الحق، وأنصار الشيطان يزحفون مسرعين إلى المدينة! وهذه هي الجزيرة العربية تتسمع في لهفة إلى أنبائهم، وتترقب باهتمام بالغ نتيجة زحفهم[2].

إنها تجربة لها ما وراءها من نتائج وآثار، فلو قدر لهؤلاء الأحزاب أن ينتصروا فتلكم الضربة القاصمة التي لا تقوم بعدها للمسلمين قائمة، أما لو قدر لهم أن يرجعوا مجللين بالخزي والعار، وأنْ يفجعوا فيما علقوه على هذه المحاولة من آمال كبار، فتلك ـ حينئذٍ ـ مصيبة الدهر وفضيحة العمر.

وهيهات ثم هيهات أن تتجمع لهم مثل هذه الأحزاب، وأن تتوافر لها الظروف والأسباب.

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/ ٣٦٣)، المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/ ٢٢٤).
(٢) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/ ٣٦٣).

أجل، لقد أدرك المسلمون جميعًا في المدينة عظم الخطب، وفداحة المسؤولية، وعرفوا أن الأمر مع المشركين في هذه المرة، إما إلى النصر، وإما إلى القبر، أو كما يقول القائل:

فإمـا إلى صدَّاحة تطرب الورى   وإمـا إلـى نوَّاحـة فـي المآتم

وقد جمع أعداء الإسلام لأول مرة في تاريخهم مع المسلمين جموعهم وجاءوا في عدة وعديد، لم يسبق لها مثيل في حروب العرب جميعًا.

لقد كان عددهم في العام الثاني من الهجرة حينما التقوا مع المسلمين في يوم بدر ألفًا أو أقل من الألف، ثم أصبح عددهم في غزوة أحد في العام الثالث من الهجرة ثلاثة آلاف، فما بالهم الآن بعد عام واحد من غزوة أحد يصبحون عشرة آلاف؟![١].

وماذا عسى أن يصنع المسلمون لمقابلة هذه الألوف المؤلفة من الرجال والخيل والإبل والأسلحة والذخيرة؟!

إن الأمر يحتاج إلى مزيد من اليقظة والحذر والشجاعة والإيمان، وإن الواجب يحتم على كل جندي من جنود المسلمين أن يتعاون في إخلاص مع قائده الأعلى ليسيروا جميعًا في منهج سليم، وسبيل قويم، حتى يفرج الله كربهم، ويكشف عنهم هذا الضر والبلاء.

حفر الخندق:

وكانت هذه الأنباء المثيرة التي ترامت إلى مسامع المهاجرين والأنصار في المدينة حول هذا الجيش الجرار الزاحف عليهم هي كل شيء يشغل تفكير الرسول ﷺ والمسلمين، ماذا يصنعون أمام هذه القوة الطاغية التي تسرع نحوهم؟ أيمكثون

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/٣٦٣).

بالمدينة ويتحصنون في دورها؟ أم يخرجون للقاء العدوّ مهما احتملوا من المتاعب والآلام، ومهما بذلوا من التضحيات الجسام؟

وجلس ﷺ يستشير أصحابه ويستطلع آراءهم في هذه المحنة. وكان من عادته صلوات الله وسلامه عليه أن يستشير أصحابه فيما يعرض له من مشاكل، فإذا اقتنع بعد هذه المشورة برأي أمضاه متوكلًا على الله[١]، وقد علمه الله بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهنا، وفي وسط هذا الظلام الذي يخيم على النفوس يطلع سلمان الفارسي رضي الله عنه على الرسول ﷺ والمسلمين برأي سديد، وفكرة صائبة تشرق لها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم، ذلك أنه أشار عليهم بحفر الخندق في الجهة التي يخشى منها خطر الزحف على المدينة[٢].

وكانت فكرة حفر الخندق فكرة عجيبة لم يعرفها العرب قبل ذلك، وإنما عرفها الفرس في حروبهم، وأخذها عنهم سلمان الفارسي رضي الله عنه وحينما رأى النبي ﷺ قوة هذا الرأي واقتنع بصوابه، أمر بوضعه موضع التنفيذ وقام يباشر بنفسه هذا العمل الكبير.

ويقع المكان الذي اختاره النبي ﷺ ليحفر فيه هذا الخندق في شمال المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية، وهذه هي الجهة التي كانت عورة يمكن أن تؤتى المدينة من قبلها، أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل ولا يتمكن العدو من الحرب في جهتها، وبهذا يتبين لنا أن فكرة الخندق عمل حربي ناجح، وسهم رائش صوبه المسلمون إلى قلب أعدائهم فنفذ إلى الصميم[٣].

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/٤٦٤)، وما بعدها.
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٦٣١)، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/٤٦٤)، الواقدي: المغازي، (٢/٤٤٥).
(٣) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/٣٦٧).

www.almoslih.net

وبدأ المسلمون يعملون في حفر الخندق، وكان النبي ﷺ يعمل معهم بيديه، وكان يتمثل بقول عبد الله بن رواحة:

اللهـم لولا أنت مـا اهتدينا ولا تصدّقنـا ولا صلينـا
فأنزلَـنْ سـكينة علينـا وثبّـتِ الأقـدام إن لاقينـا
والمشـركون قد بغَـوا علينا وإن أرادوا فتنـة أبينـا[١]

وكان دائم التشجيع للمسلمين، فإذا رأى ما حل بهم من التعب والجوع يذكرهم بالآخرة، وما أعد للمؤمنين فيها من السعادة والنعيم، قائلًا: «اللهم إن العيش عيش الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرة»[٢].

فيردّ عليه المسلمون ـ وقد امتلأت نفوسهم بالإيمان، ونسوا ما هم فيه من الآلام والمتاعب ـ قائلين:

نحـن الذيـن بايعـوا محمـدا علـى الجهـاد مـا بقينـا أبـدا

وهكذا يتجاوب القائد الأعلى مع جنوده المخلِصين، ويتجاوب الجنود المخلصون مع قائدهم الأمين، وهكذا القيادة الرشيدة إنما تثبت أصولها في جوٍّ من الإخلاص والتسامح، ويقوم بنيانها على دعائم من الإخاء والمساواة، ولقد عود النبي ﷺ أصحابه هذا اللون الكريم من المعاملة الكريمة.

ولا يزال المسلمون يذكرون موقف نبيهم في بناء مسجد المدينة وكيف كان يعمل بنفسه، ويحمل الأحجار بيديه، وكيف كان هذا العمل الكريم يُحفّز المسلمين ويقوي من عزائمهم، حتى ليقول بعضهم لبعض:

لئـن قعدنـا والرسـول يعمـل لَـذاك منـا العمـل المضلّـل

---

(١) البخاري، برقم (٢٨٣٧)، باب حفر الخندق.
(٢) انظر: البخاري، برقم (٣٩٠٦، ٣٩٣٢) باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة.

وسيظلّ المسلمون على توالي الأجيال والقرون يذكرون موقف النبي ﷺ من أصحابه حينما أرادوا أن يصلحوا شاة لطعامهم وهم ـ حينئذٍ ـ في سفر، فقال واحد منهم: عليَّ ذبحها، وقال الثاني: وعليَّ سلخها، وقال الثالث: وعليَّ طبخها، فقال النبي ﷺ: «وعليَّ جمع الحطب»، قالوا: يا رسول الله، إنا نكفيك العمل، قال: «علمت أنكم تكفونني إياه، ولكني أكره أن أتميز عليكم»[١].

ألا إن هذه المُثُل العالية من طاعة الجند لقائدهم، ومن إخلاص القائد لجنوده وحسن معاملته لهم وتعاونه معهم تعاونًا كاملًا بعيدًا عن الكبرياء والغرور. ألا إن ذلك لهو النور الذي يضيء لنا السبيل إذا غشيتنا ظلمات المحن والخطوب. وإنه لمن الحق علينا أن نفتح قلوبنا لهذا التاريخ الخالد، وأن نأخذ من عِبَره وعظاته ما يجنبنا الزلل، ويقينا شر العثرات والسقطات.

من المعجزات النبوية:

تعالوا فانظروا معي تلك الفيوضات الإلهية، والمنح الربانية التي أفاضها الله، ومنحها لرسوله ﷺ في تلكم الفترة، التي عمل المسلمون فيها في حفر هذا الخندق.

وقد جرت سنة الله ـ عز وجل ـ بأن يظهر على أيدي أنبيائه من المعجزات ما يثبت به القلوب القلقة، والنفوس الحائرة، ويزيد المؤمنين إيمانًا وتثبيتًا.

ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري[٢]، عن جابر رضي الله عنه قال: إنّا في يوم الخندق نحفر، فعرضت لنا كُدْيَة[٣] شديدة، فجاءوا النبي ﷺ ـ وقالوا: هذه كُدْيَة عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل»، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ـ وكنا قد لبثنا ثلاثة

---

(١) البيهقي: دلائل النبوة، (٣/٤٢٠)، والنسائي، (٣١٧٦)، ونحوه، وقال الألباني "حسن".
(٢) كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، (٧/٣٩٥)، من "فتح الباري".
(٣) أي صخرة عظيمة.

www.almoslih.net

أيام لا نذوق ذواقًا ـ فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيبًا أهيل، فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت. فذهبت فقلت لزوجتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعَناق، فذبحت العَناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البُرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي كادت أن تنضج، فقلت: قم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب، قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي، فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار.

فلما دخل على امرأته قال: ويحك، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويقرّب إلى أصحابه، ولم يزل هكذا حتى شبعوا جميعًا وبقيت بقية، فقال لزوجة جابر: «كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة».

وهناك رواية أخرى عن جابر رضي الله عنه فيقول: «لما علم النبي ﷺ بمقدار الطعام قال للمسلمين جميعًا: قوموا إلى جابر. فقاموا فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله وقلت: جاءنا بخلق كثير على شاة وصاع من شعير، ودخلت على امرأتي أقول: افتضحت، جاءك رسول الله ﷺ بأهل الخندق أجمعين. فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ قلت: نعم، فقالت: الله ورسوله أعلم. قال: فكشفت عني غمًّا شديدًا.

قال: فدخل رسول الله ﷺ فقال: خذي ودعيني من اللحم. وجعل رسول الله ﷺ يثرد ويغرف اللحم ويخمّر هذا ويخمّر هذا، فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين، ويعود التنور والقدر أملأ مما كانا، ثم قال رسول الله ﷺ: كلي وأهدي. فلم نزل نأكل ونهدي بقية اليوم»[١].

ألا إن في هذا الحادث العجيب لعبرا!

(١) اقامة الحجة على العالمين بنبوة خاتم النبيين، (١/ ٣٤).

فهذه الصخرة الكبيرة التي تعترض الجنود المسلمين، وهم يعملون في حفر الخندق فيعجزهم جميعًا أمرها، ما بالها الآن تصير رمادًا يتطاير من ضربة واحدة بمعوله ﷺ[١]، إنها إذن عناية الله التي يفيضها أبدًا على رسوله ﷺ والتي لا تقف أمامها الحواجز والعقبات، بل يلين لها الحديد وتذوب أمامها الصخور الجلاميد.

وهكذا الصاع من الشعير تخبزه زوجة جابر، والشاة الصغيرة يذبحونها ليأكل منها ﷺ مع نفر قليل من أصحابه فما بالهم الآن يفاجأون برسول الله ﷺ ومعه أهل الخندق أجمعون؟ إنهم خمسمائة رجل خماص البطون، وأقل ما يكفيهم في مثل هذه الظروف عشرون صاعًا وعشرون شاة، فكيف يكفيهم صاع واحد من الشعير، وشاة واحدة؟!

إنها إذن عناية الله، ومعجزة خالدة لمحمد ﷺ. وقد اطمأنت بها قلوب المؤمنين، ففرحوا واستبشروا، وصبروا وصابروا وكافحوا وثابروا، وسيظل لنا من ذكراها ما يشد أزْرنا، ويقوي عزائمنا، على توالي الأجيال والقرون.

الأحزاب أمام الخندق:

استمر العمل في حفر الخندق ستة أيام متتابعة، وكان المسلمون يعملون طوال النهار، فإذا جنّ عليهم الليل آووا إلى بيوتهم، وفي هذه الأثناء حصنت جدران المنازل التي تواجه مأتى العدو، وأخليت المساكن التي كانت وراء الخندق، وجيء بالنساء والأطفال إلى هذه المنازل التي حصنت، ووضعت الأحجار إلى جانب الخندق من ناحية المدينة، لتكون سلاحًا يرمى به العدو إذا سولت له نفسه اقتحام الخندق.

وكانت قريش وأحزابها تظن أنها ـ وقد خرجت في هذه الجموع الغفيرة ـ ستنتهي من محمد ﷺ والمسلمين في ساعات معدودة، وأن الأمر لا يعدو أن

(١) البيهقي: دلائل النبوة، (٣/ ٤٢٠)، والنسائي، (٣١٧٦)، ونحوه، وقال الألباني "حسن".

www.almoslih.net

يكون سفرًا عاديًّا، أو رحلة تجارية يرجعون بعدها وقد قضوا على قوة المسلمين، وغنموا منهم عدتهم وعتادهم وكل شيء لديهم، ولكنهم كانوا يبنون الآمال على شفيرٍ هارٍ، ويقدّرون، فتضحك الأقدار.

وقد وقفوا أمام الخندق وقفة المشدوه، وتملكهم العجب واشتدت بهم الحيرة، ولا غرو فهذا العمل كان مفاجأة غير منتظرة، وهذا السلاح جديد في نوعه لم يتعوده العرب من قبل في حروبهم.

وكان ﷺ والمسلمون ـ وعددهم حينئذٍ ثلاثة آلاف ـ يجعلون الخندق بينهم وبين أعدائهم حدًّا فاصلًا، وينظرون إلى تحركاتهم وتجمعاتهم من الجهة المقابلة، وقد أعدّوا لكل احتمال عدته، واتخذ كل جندي أهبته، وكانوا يشددون الحراسة على الأماكن الضعيفة ويتبادلونها، حتى لقد كانت للنبي ﷺ نوبته، فكان يخرج إليها أحيانًا في الليل المظلم والبرد القارس.

وقد عرفت قريش والأحزاب أن الأمد سيطول بهم، وأنهم سيقيمون أمام هذا الخندق ما وسعتهم الإقامة، ولكنهم لن يستطيعوا اقتحامه، وهذه الخيام التي نصبوها قريبًا من الخندق سوف لا تجديهم فتيلًا إذا فاجأهم ريح عاصف أو سيل جارف.

عرفت قريش والأحزاب ذلك كله فتملّك نفوسهم همّ بالغ وحزن عظيم، وبدأوا يفكرون ويفكرون ويسيحون في أودية الأوهام والظنون.

من روائع علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وكان عمرو بن عبد ودّ قد استطاع أن يقتحم فرسه الخندق من ناحية ضيقة فيه، فنادى وهو مقنع بالحديد: من يبارز؟ فقام علي بن أبي طالب فقال: أنا لها يا نبي الله.

فقال له النبي ﷺ: «إنه عمرو، اجلس».

ثم نادى عمرو: ألا رجل منكم يبرز؟ أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها؟ أفلا تبرزون إلي رجلًا.

فقام عليّ فقال: أنا يا رسول الله، فقال له الرسول ﷺ: «اجلس» ولكن عمرًوا تمادى في غيه، وأخذ يصيح وينشد قائلًا:

ولقد بَحِحْتُ من الندا ء لجمْعهم: هل من مبارز؟
ووقفت إذ جَبُنَ المشجّع موقف القِرْن المناجز
إن الشجاعة في الفتى والجودَ من خيرِ الغرائز

فقام عليّ فقال: يا رسول الله: أنا لها.

فقال له ﷺ: «إنه عمرو».

قال: وإن كان عمرًوا!

فأذن له رسول الله ﷺ فمشى إليه حتى أتاه وهو يقول:

لا تعجلنَّ فقد أتا ك مجيبُ صوتِك غيرَ عاجزِ
في نية وبصيرةٍ والصدق ينجي كلَّ فائز
إني لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربةٍ نجلاءَ يبقى ذكرُها عند الهزاهز(١)

فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي. قال: ابن عبد مناف؟

قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال: يا ابن أخي مِن أبناء أعمامك من هو أسنّ منك، فإني أكره أن أريق دمك.

(١) «الروض الأنف»، للسهيلي، (٢/١٩١)، وقد ذكر ذلك ابن إسحاق، وعنه أسند القصة البيهقي، في «الدلائل»، (٣/٤٣٨)، ونقل ابن كثير، في «البداية»، (٤/١٠٦) عن البيهقي.

www.almoslih.net

فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أريق دمك.

فغضب ونزل وسلّ سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو عليّ مغضبًا، واستقبله عليّ بدَرَقته، فضربه عمرو في دَرَقته فقدّها وأثبت فيها السيف، وأصاب رأسه فشجّه. فاندفع علي نحوه في شجاعة وإيمان، وضربه على حبل عاتقه فسقط يتخبط في دمائه، وذهب صريع بغيه وعدوانه[١].

وسمع الرسول ﷺ التكبير، فعرف أن عليًّا قد قتله، ثم أقبل علي نحو رسول الله ووجهه يتهلل.

فقال له عمر بن الخطاب: هلا استلبته درعه، فإنه ليس للعرب درع خير منها؟

فقال: استحييت أن أسلبه درعه وسوأته مكشوفة.

وفي هذا الموقف الرائع يتغنى علي بن أبي طالب رضي الله عنه بنصر الله له، على هذا العدو الماكر. ويتحدث بنعمة الله عليه، فيقول:

فصـدَرْتُ حيـن تركتُـه متجندلًا ... كالجِـذع بيـن دكادك وَروابـي
وعففْـتُ عـن أثوابـه وَلَـوَ إنني ... كنـت المجنـدل بزّنـي أثوابـي
لا تحسـبنَّ الله خـاذلَ دينـه ... ونبيِّـه يـا معشـرَ الأحـزابِ
عبـدَ الحجـارَةَ مـن سـفاهةِ رأيه ... وعبـدْتُ رب محمدٍ بصـواب[٢]

وكان في جيش المسلمين جماعة من المنافقين لا يعلمهم النبي ﷺ وقد وقف هؤلاء المنافقون ـ كعادتهم من المسلمين ـ موقف اللؤم والخيانة، ولا ريب أن

---

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٤/٣٨٠)، وانظر بنحوه: ابن سعد: الطبقات الكبرى، (٢/٦٨)، وما بعدها.

(٢) الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (٢/١٠٦)، وانظر «فتح الباري»، (٧/٤٠٠).

عمر النفاق قصير، وأساليبه وحيله لا تخفى على العقلاء أمدًا طويلًا، ومهما بالغ المنافقون في ستر حقيقتهم فإنهم لدى الاختبار يخفقون في الميدان، ولا يثبتون أمام الشدائد.

وها هم أولاء في تلكم الغزوة يفزعون حينما يرون الأحزاب، وقد جمعوا جموعهم وتهيّأوا للحرب والقتال، وتظلم نفوسهم، فيسخرون من وعود النبي ﷺ لهم بالنصر على أعدائهم، ويقولون: كان محمد يعدنا كنز كسرى وقيصر، فما بالنا لا يأمن أحدنا على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وقد سجّل الله ذلك القول منهم في تلكم الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

ثم يتمادى المنافقون في غدرهم وخيانتهم فينسحبون من صفوف المؤمنين ويثبطون الهمم والعزائم ويقولون: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣].

ويعتذرون عن رجوعهم بالأعذار الكاذبة التي أظهر الله حقيقتها بقوله: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

ولكن هل تحقق لهؤلاء المنافقين ما كانوا يريدون؟ إنهم أرادوا أن يخفوا حقيقتهم عنه ﷺ فكشف الله سترهم، وفضح أمرهم، وأرادوا أن يضعفوا شوكة المسلمين بانسحابهم، فأمدّ الله المسلمين بقوته، وكانوا يطمعون في الغنائم فأفاءها الله على المؤمنين، وباء المنافقون بالخسران والحرمان.

مؤامرة بني قريظة:

وفي هذه المحنة الشديدة التي أصابت المسلمين بتجمّع الأحزاب عليهم وانسحاب المنافقين من صفوفهم، انتهز يهود بني قريظة ـ وكانوا يساكنون المسلمين بالمدينة ـ هذه الفرصة واستجابوا لتحريض بني النضير لهم، فنقضوا العهود التي بينهم وبين المسلمين وانقلبوا عليهم.

www.almoslih.net

وكأنما رأى يهود بني النضير ـ وعلى رأسهم حيي بن أخطب ـ أن حصار الأحزاب للمسلمين ووقوفهم أمام الخندق سيطول أمده، وربما انتهى الأمر بفشلهم، وذلك خزي الدهر وعار الأبد(١).

وعرف هؤلاء اليهود من بني النضير أنه ما دام إخوانهم من يهود بني قريظة لا يزالون على ولائهم له ﷺ فإن الأمر ـ في أغلب الأحوال ـ لن ينتهي بالخير الذي يتوقعونه، إذ تصبح هزيمة المسلمين بعيدة المنال، ومن يدري إذا انتصر محمد ﷺ: ماذا يفعل بهم جميعًا؟

ومن أجل ذلك دبروا أمرهم وأحكموا مكرهم، وتفننوا في أساليب الإغراء والترغيب حتى خدعوا يهود بني قريظة، وأخرجوهم عن الولاء له ﷺ والمسلمين، فبدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر(٢).

ويروي المؤرخون في ذلك: أن حيي بن أخطب زعيم بني النضير أتى كعب بن أسد القرظي زعيم بني قريظة.. فلما سمع به كعب أغلق باب حصنه دونه(٣).

فاستأذن حيي عليه، فأبى أن يفتح له فناداه: ويحك يا كعب، افتح لي يا كعب، افتح لي. قال: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمدًا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقًا. قال: ويحك افتح لي أكلمك. قال: ما أنا بفاعل. قال: والله ما أغلقت بابك إلا خوفًا على جشيشتِك أن آكل معك منها، فغضب كعب حينما سمع هذه الكلمة، وفتح له، فقال: ويحك يا كعب، جئت بعز الدهر وبحر طام، قال: وما ذاك؟ قال: جئتك بقريش على قادتها

(١) ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، (ص١٨١)، وما بعدها.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (١٨٢/٣).
(٣) الحلبي: السيرة الحلبية، (٦٢٨-٢١٦/٢).

وسادتها وبغطفان على قادتها وسادتها، وقد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه(١).

فقال كعب: جئتني ـ والله ـ بذلّ الدهر. وبجهام قد أريق ماؤه، يرعد ويبرق، وليس فيه شيء ويحك يا حيي. فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا وفاءً وصدقًا(٢).

وقد ظل حيي يستميل كعبًا إليه بشتى الحيل والأساليب ويحرك فيه عاطفته الدينية حتى غلبته يهوديته، بل غلبته شقوته فنقض العهد، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ من إخاء وولاء، وتبعه في ذلك يهود بني قريظة جميعًا.

ولما انتهى الخبر إلى النبي ﷺ وإلى المسلمين، بعث سعد بن معاذ وهو ـ يومئذٍ ـ سيد الأوس، وسعد بن عبادة وهو ـ يومئذٍ ـ سيد الخزرج، ومعهما رجلان، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنظروا: أحق ما بلغنا عنهم؟ فإن كان حقًّا فالحنوا لي لحنًا أعرفه ولا تفتّوا في أعضاد المسلمين، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس»(٣).

قال: فدخلوا حتى أتوهم فدخلوا معهم حصنهم ودعوهم إلى الموادعة وتجديد الحلف، ولكنهم قابلوهم بالسباب والمشاتمة، ونالوا من النبي ﷺ وأساءوا، وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد.

فلما رجعوا إلى النبي ﷺ، وأخبروه، هاله الأمر وآلمه، ولكنه كان مطمئنًا إلى نصر الله وتأييده، وما دام هؤلاء اليهود من بني قريظة قد بدأوا بالغدر والخيانة فسوف يحيق بهم مكرهم ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٦٢٩/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية، (١٨٢/٣)، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٣٦٣/٤).
(٢) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٣٦٣/٤).
(٣) ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، (ص١٨٢).

وقد عظم الكرب واشتد بلاء المسلمين حينما عرفوا ذلك الموقف من هؤلاء اليهود وحينما رأوا أنهم بدأوا فعلًا يقطعون معاونتهم للمسلمين، وحينما وجدوا أن الأحزاب قد انتهزوا فرصة نقض هؤلاء اليهود لعهدهم وبدأوا يستعدون لهجوم عنيف من فوق الوادي، ومن جنبه، ومن جهة الخندق[(١)].

أجل لقد عظم الكرب واشتد البلاء بالمسلمين، ومرت بهم لحظات مريرة وأوقات عصيبة، وأخذت الوساوس والظنون تطوف بنفوسهم، بل تملأ نفوس البعض منهم، حتى لقد خيل إليهم أن الأحزاب عمّا قليل سيدخلون المدينة فيغيب عنها نور الإسلام وتعود إلى عهود الظلام.

وإلى ذلك الموقف الرهيب يشير الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

الحرب خدعة:

وفي وسط هذا الشر المطبق والبلاء المحدق، ينبت الله الفرج من الضيق، ويسوق الخير للمسلمين من أيسر طريق، وذلك هو ما قام به نعيم بن مسعود الأشجعي من خدعة محكمة لهؤلاء الأحزاب فرّق بها جمعهم، وأفسد عليهم مكرهم.

وكان نعيم بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ من قبيلة غطفان، وكان صديقًا لقريش وصديقًا لليهود، وقد شاء الله أن يدخل هذا الرجل في الإسلام في الوقت العصيب الذي أحاط فيه الأعداء بالمسلمين، فجاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وقومي لا يعلمون بإسلامي، فمرني بأمرك حتى أساعدك. فقال ﷺ: «أنت رجل واحد، وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة»[(٢)].

(١) الجامع لأحكام القرآن، (١٤/١٤٧)، فتح الباري، (٧/٤٠٠).
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٦٤٩).

فخرج من عنده وتوجه إلى بني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين. فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم. فقال: يا بني قريظة تعرفون ودي لكم وخوفي عليكم، وإني محدثكم حديثًا فاكتموه عني. قالوا: نعم، فقال: قد رأيتم ما وقع لبني قينقاع وبني النضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم، وإن قريشًا وغطفان ليسوا مثلكم، فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم، وأما أنتم فتساكنون الرجل ـ يريد محمدًا، ﷺ ـ ولا طاقة لكم بحربه وحدكم، فأرى ألا تدخلوا في هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم، وذلك بأن تأخذوا رهائن عندكم سبعين شريفًا منهم.. فاستحسنوا رأيه وأجابوه إلى ذلك[(١)].

ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال: أنتم تعرفون ودي لكم ومحبتي إياكم، وإني محدثكم حديثًا فاكتموه عني. قالوا: نفعل، فقال لهم: إن بني قريظة ندموا على ما فعلوه مع محمد، وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه، فقالوا له: أيرضيك أن نأخذ جمعًا من أشرافهم ونعطيهم لك، وترد جناحنا التي كسرت ـ يعني: ترجع يهود بني النضير إلى ديارهم ـ فرضي بذلك منهم، وهاهم أولاء سيرسلون إليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفًا...

ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر به قريشًا، فاضطربت نفوسهم، وأخذ زعماؤهم يتشاورون مع زعماء قريش كي يلتمسوا طريقًا لحل هذه المشكلة، وأرادوا أن يتأكدوا من كلام نعيم، فأرسل أبو سفيان زعيم قريش وفدًا لبني قريظة يدعوهم للقتال غدًا ـ وكان ليلة سبت ـ فأجابوا: إننا لا يمكننا أن نقاتل في السبت، وإنه لم يصبنا ما أصابنا من البلاء إلا بالتعدي فيه، ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم، حتى لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم![(٢)].

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٨/٣٧٤).
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٦٤٩)، وما بعدها.

وحينئذٍ لم يبق لدى قريش وغطفان شك في صدق كلام نعيم بن مسعود، وتحققوا أن اليهود من بني قريظة يريدون لهم الشر والوبال، فتفرقت القلوب وخاف بعضهم بعضًا[(١)].

وهكذا نرى أن الخدعة في الحروب هي أمضى سلاح ينال به العدو من عدوه، فنتعلم من ذلك كيف نسدد الرمية بهذا السلاح في وقتها المناسب، ونتعلم من ذلك كيف نتقي هذا السلاح الخطير إذا صوّبه إلينا أعداؤنا، وذلك إنما يكون بشدة الحيطة والحذر، وإساءة الظن بكل ما يشيعه العدو من أقوال، والتثبت في الشيء إلى أقصى درجة قبل أن يصدر الرأي فيه.

الفرج بعد الشدة:

«اللهم منزل الكتاب سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم، وانصرنا عليهم».

هذا هو دعاء الرسول، ﷺ[(٢)] توجه به إلى الله حينما حاضر الأعداء، واشتد به وبالمسلمين الكرب والبلاء.

وقد تعود المسلمون أن يسمعوا مثل هذه الضراعة إلى الله من نبيهم ﷺ في ظلمات الشدة، ثم لا يلبثون إلا قليلًا حتى يشرق عليهم فرج الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه[(٣)].

وها هم أولاء يرون عناية الله بهم، إذ يسوق إليهم نعيم بن مسعود فيحبط بخديعته مؤامرة اليهود ويفسد عليهم تدبيرهم. ثم يرون عناية الله بهم إذ يسوق إلى أعدائهم الرياح العاصفة، والأمطار الغزيرة، والبرد القارس، حتى اقتلعت

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٦٥٠).
(٢) أخرجه البخاري، (٤٠٦/٧)، ومسلم، (ص١٣٦٣).
(٣) الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ! والثلاثة الخلفاء، (١١١/٢)، السهيلي: الروض الآنف، (٤٣٣/٣)، وما بعدها، ابن هشام: السيرة، (١٩١/٤).

تلك الرياح والأمطار خيامهم، وكفأت قدورهم، وأدخلت الرعب إلى نفوسهم، وخيل إليهم وكان الليل حالك الظلام أن المسلمين قد انتهزوها فرصة ليهاجموهم ويوقعوا بهم، فقاموا يتحسسون الطريق إلى الفرار.

وقام طليحة بن خويلد وقال: إن محمدًا قد بدأكم بالشر. فالنجاة النجاة. وقال أبو سفيان: يا معشر قريش: إنكم وما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف[(١)]، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا فيهم ما نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل. وقد بلغ من خوفهم أن أبا سفيان كان يقول لهم: ليتعرف كل منكم أخاه وليمسك بيده حذرًا من أن يدخل بينكم عدو.

وهكذا تم رحيلهم في ظلام الليل، حتى إذا تنفس الصباح نظر المسلمون فوجدوا تلك الغمة الكثيفة وقد أزاحها الله عنهم: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وهكذا صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

عاقبة الظلم ومصير بني قريظة:

وحينما أتم الله نعمته على المسلمين بهزيمة الأحزاب ورجوعهم خاسرين، كان لا بد للظالم أن يذوق وبال أمره، ويجني عاقبة ظلمه وغدره.

ومن أجل ذلك نادى ﷺ في نفس اليوم الذي تم فيه رحيل الأحزاب فقال: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة»[(٢)] فساروا مسرعين، وكان عددهم ثلاثة آلاف[(٣)].

(١) الكراع: يراد به الخيل والبغال والحمير، والخف يراد به الإبل.
(٢) البخاري، برقم (٤١١٩)، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم.
(٣) بحسب ما ذكر ابن سعد وغيره، وانظر «المواهب»، (٤٦٢/١)، و«فتح الباري»، (٤١٠/٧).

وقد تحصن يهود بني قريظة بحصونهم حينما رأوا أنهم قد أحيط بهم، فحاصرهم المسلمون خمسًا وعشرين ليلة[(١)].

أيقن اليهود أن الوقت وقت تصفية حساب لغدرهم وخيانتهم، وعلموا جيدا المأزق الذي وضعوا أنفسهم فيه، وهنا أخذوا يتشاورون بينهم في هذه المصيبة التي حلّت بهم، وما جرّوه على أنفسهم من البلاء، فقال لهم زعيمهم كعب بن أسد: "يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا، فخذوا أيها شئتم.

قالوا: وما هي؟

قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم إنه لنبي مرسل، وإنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم.

قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيتم على هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف، فلم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير العيش بعدهم.

قال: فإن أبيتم على هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة.

قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ.

(١) في قول ابن إسحاق، وعند ابن سعد: خمس عشرة ليلة، وعند ابن عقبة: بضع عشرة ليلة، "المواهب اللدنية"، (٤٦٣/١).

قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما"[(١)].

ولما اشتد الضيق بهم لم يجدوا بدًّا من التسليم والخضوع. لم يجد اليهود بدا من النزول على حكم رسول الله ﷺ فيهم، فأمر برجالهم فكتفوا بالحبال ووضعوا في ناحية، وأخرج النساء والذرية فجعلوا في ناحية أخرى.

وحاول بعض رجال من الأوس أن يكلم النبي ﷺ رجاء أن يعامل بني قريظة كما عامل بني قينقاع، فقد كان يهود بني قريظة حلفاء الأوس كما كان بنو النضير حلفاء الخزرج، فقال رسول الله ﷺ: "ألا ترضون يا معشر الأوس أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلا منكم"؟

قالوا: بلى.

قال: فقولوا لهم فليختاروا من شاءوا.

فاختار اليهود سعد بن معاذ سيد الأوس، وكان سعد بن معاذ جريحًا من السهم الذي أصيب به في الخندق، وكان يُعالج في خيمة في المسجد؛ فأتاه قومه فحملوه على حمار، وجعلوا وهم مقبلون به في الطريق يقولون له: "فقد رأيت ما صنع ابن أبي في حلفائه".. وألحوا في ذلك وأكثروا، وهو ساكت لا يجيبهم بشيء. فلما أكثروا عليه قال: "لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم!"[(٢)].

فلما انتهى سعد إلى مجلس الرسول ﷺ قال لأصحابه: قوموا إلى سيدكم، فقاموا إليه صفين يحييه كل رجل منهم، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ.

فقال له: احكم فيهم يا سعد.

فقال: الله ورسوله أحق بالحكم.

(١) ابن هشام: السيرة، (١٩٥/٤).

(٢) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢٤٩/١)، ابن كثير: البداية والنهاية، (٢٣٣/٣)، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (١٠/٥).

www.almoslih.net

قال: قد أمرك الله أن تحكم فيهم. فالتفت سعد إلى ناحية المسلمين فقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم بما حكمت؟ قالوا: نعم.

قال: وعلى من ههنا، وأشار إلى الناحية التي فيها رسول الله وهو خافض الطرف، إجلالا لرسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: نعم.

ثم قال سعد لبني قريظة: أترضون بحكمي؟

قالوا: نعم. فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن الحكم ما حكم به. ثم قال: فإني أحكم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله». وقال مرة: «لقد حكمت بحكم الملك»[1].

وقد اطمأن الرسول ﷺ لهذا الحكم، وقال: «لقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد»[2].

وقد أمر ﷺ فحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم جيء بهم مكتفين بالحبال فضربت أعناقهم ودفعوا في تلك الخنادق، وكان عددهم نحوًا من ستمائة رجل[3]، ثم قسمت أموالهم وأبناؤهم على المسلمين.

وهذا بلا ريب عدل القضاء، وحكم السماء أراده الله لهؤلاء اليهود من بني قريظة جزاءً وفاقًا لظلمهم وبغيهم.

(١) مسلم، برقم (١٧٦٨)، باب جواز قتال من نقض العهد ... إلخ.
(٢) أخرجه البخاري، (٣٨٩٥)، ومسلم، (١٧٦٨)، من حديث أبي سعيد الخدري، وأخرجه غيرهما عن غيره.
(٣) في "المواهب اللدنية"، (١/٤٦٧) كانوا بين ستمائة إلى سبعمائة، وقال السُّهيلي: المكثر يقول: ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة، وفي حديث جابر عن الترمذي والنسائي وابن حبان بإسناد صحيح: أنهم كانوا أربعمائة مقاتل، فيحتمل من طريق الجمع أن الباقين كانوا أتباعًا. انتهى.

أجل، لقد ضربوا أسوأ مثل في الخيانة، فخذلوا المسلمين في أشدّ أوقات الحرج والضيق، ولولا لطف الله لتمكن الأحزاب من اقتحام المدينة وإفناء المسلمين، فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله وأراح المسلمين من شرهم. ولا غرو فالظلم لا يدوم، ومرتع البغي وخيم.

دم بني قريظة في عنق حيي بن أخطب:

إن دم بني قريظة معلّق في عنق حيّي بن أخطب، وإن كان قد قتل معهم. فهو قد حَنِث في العهد الذي عاهد قومه من بني النضير حين أجلاهم النبي ﷺ عن المدينة، ولم يقتل منهم بعد النزول على حكمه أحدا. وهو بتأليبه قريشا وغطفان وتحزيبه العرب كلها لقتال محمد جسّم العداوة بين اليهود والمسلمين، وجعل هؤلاء يعتقدون أن بني إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال محمد وأصحابه.

وهو الذي حمل بني قريظة من بعد ذلك على نقض عهدها والخروج من حيادها، ولو أنها بقيت عليه لما أصابها من الشرّ شيء. وهو الذي دخل حصن بني قريظة بعد ارتحال الأحزاب ودعاهم لمواجهة المسلمين والدفاع عن أنفسهم بمقاتلتهم، ولو أنهم نزلوا على حكمه منذ اليوم الأوّل واعترفوا بخطئهم في نقض عهدهم، لما أهدرت دماؤهم وضربت أعناقهم[1].

لكن العداوة بلغت من التأصّل في نفس حييّ وانتقلت منه إلى نفوس بني قريظة حدّا جعل سعد بن معاذ نفسه، وهو حليفهم، يؤمن بأنهم إن أبقوا على حياتهم لم تهدأ لهم نفس حتى يؤلّبوا الأحزاب من جديد، وحتى يجمعوا العرب لقتال المسلمين، وحتى يقتلوهم عن آخرهم إن ظفروا بهم. فالحكم الذي أصدره على قسوته إنما أصدره متأثرا بالدفاع عن النفس، معتبرا بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين.

(١) هيكل: حياة محمد، (٢١٧)، وما بعدها.

www.almoslih.net

قسمة أموال بني قريظة:

وقسم النبيّ ﷺ أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد أن أخرج منها الخمس. قسمها بأن كان للفارس سهمان، ولفرسه سهم، وللراجل سهم. وكانت الخيل يوم قريظة ستة وثلاثين فرسا. ثم بعث سعد بن زيد الأنصاريّ بطائفة من سبايا بني قريظة إلى نجد، فابتاع بها خيلا وسلاحا زيادة في قوّة المسلمين الحربية.

وكانت ريحانة إحدى سبايا بني قريظة قد وقعت في سهم النبي ﷺ، فعرض عليها الإسلام فأصرّت على يهوديتها، وعرض عليها أن يتزوّجها فقالت: بل تتركني في ملكك فهو أخفّ عليّ وعليك.

ولعل حرصها على اليهودية ورفضها الزواج يرجعان إلى عصبيتها لقومها، وما كان باقيًا في نفسها من كراهية للمسلمين ولنبيّهم.

ولم يتحدّث أحد عن جمال ريحانة ما تحدّثوا عن جمال زينب بنت جحش، وإن ذكر بعضهم أنها كانت جميلة وسيمة. وقد اختلفت السير فيها: أضرب عليها الحجاب كما ضرب على نساء النبيّ، أم أنها ظلّت كسائر نساء العرب يومئذ لم يضرب عليها حجاب؟. وبقيت ريحانة في ملكه حتى ماتت عنده.

وذهبت بنو قريظة، قصة وعبرة ومثلا.

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

١ ضرورة اليقظة في حراسة حدود الدولة الإسلامية، فقد حرص المسلمون على أن تكون دولتهم في مأمن من غدر المشركين، أو تقع فريسة للناهبين اللصوص من الأعراب، وغيرهم من ذوي المطامع الدنيئة.

٢ ضرورة عنصر السرعة والمباغتة لجيوش العدو قبل أن يستفحل خطرهم، وتتوحد قيادتهم، وهنا تكون الخسائر أعظم، والمهمة أصعب.

٣ حرص المسلمين على استبقاء الأرواح في الحروب، وعدم التشفي من الأعداء بقتلهم أو التنكيل بهم، فإنهم قد تمكنوا من بني المصطلق، ومع ذلك لم يكن همهم الأول أن يريقوا دماءهم.

٤ كان الهدف من الحملات الخارجية في عهد النبي ﷺ يقع في دائرة الدفاع الشرعي عن المدينة، غاية ما هنالك أن النبي ﷺ لم يكن يمهل الأعداء من السير نحو المدينة، بل كان يبادر بنفسه إليهم.

٥ حكمة النبي ﷺ في التعامل مع أسرى المشركين، حيث صاهرهم، فألف بذلك بين قلوبهم، وأصبحوا مسلمين لله، ومن رجال هذا الدين، وهذا فيه تقديم المصلحة الشرعية، على المصلحة الدنيوية البحتة، حيث قام المسلمون بإطلاق ما بأيديهم من أسرى بني المصطلق إكراما لرسول الله ﷺ.

www.almoslih.net

٦ كان تعدد زواج النبي ﷺ لمصالح دينية معتبرة منها مصاهرة القبائل حتى تدخل في الإسلام، ولم يكن بغرض المتعة وميله إلى النساء، كما يقول المستشرقون؛ فلو كان زعمهم صحيحا، فلِمَ لم يتخذ النبي ﷺ من أسرى بني المصطلق ما يشاء من الجواري ليقضي نهمته من النساء؟ ولمْ يتخذ جويرية زوجة، وهي في الأصل جارية، كان من الممكن أن يضمها إلى بيته، لتكون ملكا له، ولن يستطيع أحد حينئذ أن يلومه، لا من قومه، ولا من غيرهم.

٧ خطورة النفاق والمنافقين على الأمة المسلمة، فإنهم السوس الذي يفت في عضدها، فهم لا يراعون لأحد حرمة، ويحاولون دائما شق الصفوف، وبث الفرقة والوقيعة بين أفراد المجتمع، كما فعل ابن سلول في بث الفرقة بين الصفوف مستغلا حادثا عرضيا يسيرا حدث بين رجلين على الماء، ثم قام بفتنته الكبرى وأشاع حادث الإفك على السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها.

٨ حكمة النبي ﷺ في التعامل مع الفتن، حيث شغل الناس عن الحديث في هذه الفتنة، فارتحل من فوره وسار بالجيش بهم بقية اليوم وليلتهم التالية كاملة، وواصل بهم السير مدة من اليوم التالي حتى آذتهم الشمس بحرها؛ وما إن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا. ولم يجدوا وقتا يتحدثون فيه عن هذه الفتنة حتى لا تزيد استعارًا.

٩ تأييد الله عز وجل لنبيه ﷺ في كل موقف، فكان الوحي ينزل عليه، يخبره بما يقوله المنافقون، وما يبثونه من الأراجيف.

١٠ عِظَم قدر عائشة ﵂ عند الله عز وجل، حيث أنزل فيها قرآنا يتلى إلى يوم القيامة، يبين طهارتها وعفتها، وبراءتها مما ألصقه بها المنافقون من الريبة.

١١ تركيز مبدإ الشورى في نفوس الصحابة، حيث كان النبي ﷺ يمارسه عمليا بكل سبيل، فجمع أصحابه ليشاورهم فيما ينبغي أن يحدث من إعدادات لملاقاة جيش المشركين الكاسح؛ وكيفية وقاية المدينة من شروره وفساده، واستقر الأمر على الفكرة التي طرحها سلمان الفارسي، وهي فكرة الخندق.

١٢ جدية المسلمين في العمل، فقد كانوا مضطرين إلى حفر هذا الخندق بأقصى سرعة ممكنة، فلم يبق أمامهم إلا ليال معدودة لوصول جيش المشركين، ومع ذلك واصلوا العمل بكل نشاط على الرغم من ضعف الأحوال المعيشية آنذاك، وبرودة الجو، وغير ذلك من المعوقات.

١٣ تواضع النبي ﷺ الشديد، حيث اشترك بنفسه في أعمال الحفر، وكان ينقل التراب على ظهره مع صحابته كواحد منهم، ويصيبه من الجهد والتعب ما يصيبهم.

١٤ نصرة الله عز وجل لهذا الدين، فهو يؤيد نبيه ﷺ بالمعجزات، ويؤيده بمدد من عنده، فينصره نصرًا مؤزّرًا، حتى في وقت الضعف، وفي هذا دلالة على أن على المسلم بذل كل ما في وسعه فقط، والنتائج بيد الله عز وجل، مع ضرورة التحلي بالصبر على البلاء في بداية الأزمة، فإن الفرج قريب بإذن الله.

١٥ تأصّل خلق الخيانة والغدر عند اليهود، فقد غدروا بالعهود، ونقضوا المواثيق في لحظة حرجة، وحاولوا أن يغتنموها ويستأصلوا شأفة المسلمين بعدها، وبالتالي كان ما حل بهم من عقاب جزاءً وفاقًا.

١٦ ضرورة ذكر الله على كل حال، خاصة في أوقات الشدائد والكربات، فقد كان النبي ﷺ كثير الذكر والدعاء والابتهال إلى ربه في هذه الأوقات، مع علمه ﷺ بأن الفرج قريب.

www.almoslih.net

١٧ إذا أخلص المسلم لربه، فإن الله يوفقه ويعينه، ويسدد رأيه، فقد حكم سيدنا سعد بن معاذ على بني قريظة حكما عادلًا، فقال له النبي ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله». فينبغي على المسلم أن يكون مخلصا دائما لله.

١٨ ما أعظم النصر بعد الصبر، وما أجمل الفرج بعد الشدة، وما أجل العبرة التي يجدها المؤمنون حينما يرون الأحزاب وهم في مثل هذه الجموع الحاشدة والعدة الهائلة، يرجعون خاسرين أمام الفئة القليلة المؤمنة دون حرب أو قتال، لقد عرفوا الله فأمدَّهم بعنايته، وآمنوا به فأيدهم بقوته: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

ويا لها من عبرة بالغة يجدها المؤمن حينما يرى موقف اليهود من بني النضير وبني قريظة، لقد تبددت أحلامهم وآمالهم في القضاء على المسلمين، وانعكست الآية فارتد يهود بني النضير خائبين مع أحزابهم، وانهار الأساس الذي أقاموه بالعرق والدموع والكفاح المرير، وبذلوا في سبيله كل نفيسٍ وغالٍ.

أما يهود بني قريظة الذين كانوا يريدون الموت والفناء للمسلمين فقد قضي عليهم بالموت والفناء، وارتدت سهامهم المسمومة إلى صدورهم، وحاق بهم سيِّئ مكرهم. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

فيا باغي الشر أقصر، فعلى الباغي تدور الدوائر.

ويا ساعيًا إلى الظلم حسبك، فإنك تظلم نفسك قبل أن تظلم غيرك، وإن عدل القضاء يتعقبك في الدنيا والآخرة: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ويا أيها المكروب الذي أظلمت أمامه السبل وأحاطت به الحيرة: إن الصبر والإيمان والثقة بالله، هو المنارة الهادية التي تؤنس المستوحش، وترشد الحائر، وتهدي الضال في دياجير الحياة.

هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٣

أَحدَاثُ العَامِ السَّادِسِ الهِجرِي

مُناوشَاتٌ تَأدِيبيَّةٌ خَارِج المَدِينَة

كانت هزيمة المشركين وحلفائهم من اليهود في غزوة الأحزاب بالطريقة التي سبق شرحها شديدةَ الوقع على قبائل العرب، وأخذوا ينظرون إلى الإسلام والمسلمين نظرة جديدة، وسرى في نفوس كثيرٍ منهم أن هذه الدعوة مؤيدة بمدد من السماء، وأن محمدا ﷺ صادق في دعواه.

وبالتالي، أخذت العلاقات بين المدينة، والقبائل الأخرى المجاورة تأخذ منحى آخر، يبتعد تدريجيا عن الصدامات، وتخف فيها وطأة المواجهات العسكرية، وأصبح للإسلام في نفوس القبائل المحيطة شيء من الرهبة والجلال، وإن كان هناك كثير من المناوشات تفرضها طبيعة البيئة والمناخ المعيشي في ذلك الوقت، إلا أن معظمها كان يقع بعيدا عن المدينة.

وبناء على هذا الواقع، فقد كان المسلمون يقِظين لكل حركة من حركات أعدائهم، ولم يركنوا إلى هذه الاستنامة من القبائل للوضع الراهن، فيوشك أن تهب هذه القبائل إذا ما رأت ضعفا أو تراخيا من جانب المدينة؛ ولذا كانت المدينة دائما على أتم استعداد لكل ما يجدّ من نوازل وأخبار تهدد أمن المدينة وسلامتها، وكانت دائمة الرصد لأي عدوان مهما كانت قوته.

www.almoslih.net

ومن هنا، فقد كانت معظم المناوشات التي حدثت في هذه الفترة مناوشاتٍ تأديبيةً، وملاحقةً لبعض اللصوص الذين أغاروا على المدينة على حين غفلة من أهلها، كما أخذ بعضُها طابعَ الغزوات البعيدة على المدينة؛ لصدّ هجوم محتمل من قبائل العرب، التي ما كانت تقدر المسلمين قدرهم، وتثير القلاقل بين القبائل العربية الأخرى لتثيرها ضد النبي ﷺ.

ومن أهم تلك المناوشات ما يأتي:

(١) سرية محمد بن مسلمة:

وكانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة، فقد أرسل النبي ﷺ محمد بن مسلمة في محرم سنة ست من الهجرة في ثلاثين راكبًا، لتأديب بطن من بني كلاب بأرض نجد، والقضاء على خطر هذه الشرذمة القليلة التي تهدد المجتمع المدني، فلما أغارت هذه السرية عليهم هربوا، فاستاق المسلمون نَعَما وشاءً، وقدموا المدينة لليلة بقيت من المحرم.

وفي الطريق أسروا ثُمَامَة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة، ومع ذلك أطلق النبي ﷺ سراحه مما كان سبب إسلامه.

فعن أبي هريرة ﷺ قال[1]: «بعث النبي ﷺ خيلا قِبَلَ نجدٍ، فجاءت برجل من بني حنيفة، يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتلْ ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت.

(١) انظر هذه القصة في كل من المصادر الآتية: صحيح البخاري، (٤١١٤)، باب وفد بني حنيفة وقصة ثمامة بن أثال، صحيح مسلم، رقم (١٧٦٤)، باب ربط الأسير وحبسه، ابن كثير: السيرة النبوية، (٤/٩٣)، ابن هشام: السيرة، (٦/٥١)، وما بعدها، مع اختلافات طفيفة في الألفاظ.

فتركه حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك؛ إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال عندي ما قلت لك. فقال: أطلقوا ثمامة.

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، يا محمد، والله ما كان على وجه الأرض وجهٌ أبغضُ إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه إلي، والله ما كان دِين أبغضُ إليَّ من دِينِك، فأصبح دينُك أحبَّ الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغضَ إليَّ من بلدك، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد إليَّ، وإنَّ خيلَك أخذتني، وأنا أريدُ العمرةَ فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر.

فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ قال: لا ولكن أسلمت مع محمد ﷺ، لا والله لا تأتيكم من اليمامة حبةُ حنطةٍ حتى يأذنَ فيها النبي ﷺ».

وتصرُّفُ النبي ﷺ مع هذا الأسير الذي رفض دعوة الإسلام، وأعلن العداء لصاحبها، وكان من الطبيعي أن يُقتلَ، يشيرُ إلى أن النبي ﷺ، كان شديدَ الكرم والرحمة بمخالفيه، فلا يتعامل بمنطق الملوك الجبارين، ولا أصحاب المطامع التوسعية، كما تصفه أقلام المستشرقين المغرضين، بل كان يتعامل بالعفو والصفح، لأنه مؤيَّد بمدد السماء.

ولما أطلق النبي ﷺ سراحه دون قيد أو شرط، على الرغم من أنه يناصب الإسلام العداء حتى اللحظة الأخيرة، ورفض الاعتراف بنبوة صاحب الدعوة، علم أن الأمر جلل، وأنه يتعامل مع أخلاق النبوة، فأعلن ولاءه لله ولرسوله وشهد شهادة الحق، وأسلم لله رب العالمين.

﴿٢﴾ غزوة بني لحيان:

علمت فيما سبق ما فعله بنو لحيان بأصحاب النبي ﷺ يوم الرجيع من الغدر والخيانة وقتْلِ ستة منهم، وقد شُغل النبي ﷺ عن بني لحيان بعضَ الوقت، نظرا لما كان يدور في المدينة من أحداث، أما وقد فرغ المسلمون الآن مما يشغلهم فقد أصبح من الضروري أن يلقنوا بني لحيان درسا بليغا، يظل معهم طوال حياتهم حتى لا يغدروا بأحد من صحابة رسول الله ﷺ بعد ذلك.

ومن هنا فقد خرج رسول الله ﷺ في هذه الحملة التأديبية إلى بني لحيان في مستهل ربيع الأول في مائتي رجل، ومعهم عشرون فرسا، واستخدم النبي ﷺ أسلوب المناورة في سيره إليهم، حيث عسكر من ناحية الجرف في أول نهاره، وأظهر أنه يريدُ الشام، ثم راح مدبِرا، حتى انتهى إلى حيث كان مصاب عاصم بن ثابت وأصحابه.

وعلى الرغم من هذا التمويه العسكري إلا أن بني لحيان كانوا على درجة عالية من الحذر والخوف، بعد ارتكاب جريمتهم، فقد كانوا يوقنون أن هذه الجريمة لن تذهب دون عقابٍ رادع، وبالتالي كانوا يرصدون تحركات رسول الله ﷺ بعناية كبيرة، خشية أن تكون متجهة إليهم.

فما إن ولى وجهه وكاد يصل إلى مصرع أصحاب الرجيع، حتى أيقنوا أنه يريدهم، فاعتصموا برؤوس الجبال؛ وتركوا أماكنهم وديارهم، فلما وصل إليهم النبي ﷺ لم يجد أحدا، فظل مقيمًا بديارهم يوما أو يومين، وأخذ يبعث سراياه في كل ناحية، فلم يلقوا أحدا، فعزم النبي ﷺ على الرجوع إلى المدينة.

مناورة حربية لأهل مكة:

أراد النبي ﷺ أن يستغل وجوده في هذه المنطقة بالقرب من مكة ليقض مضاجع أهل مكة، ويخبرهم أنه لهم بالمرصاد، فبعث مجموعة من أصحابه بقيادة

أبي بكر الصديق كي يعلموا خبر مسيره، فينزل الرعب في قلوبهم، فذهبت هذه السرية حتى وصلت إلى مكان يسمى «كراع الغميم»، ورجعت دون أن تلقى أحدا من المشركين، فقال لهم النبي ﷺ: «إن هذا يبلغ قريشا فيذعرهم، ويخافون أن نكون نريدهم»[١].

ومن ناحية أخرى، فقد كان خبيب بن عديّ ﷺ يومئذ في أيديهم، ولم يقتلوه بعد، فخافوا أن يكون النبي ﷺ قد جاء ليخلّصه من أيديهم، ولكن هذا لم يكن هدفا للنبي ﷺ، لأنه يحتاج إلى استعدادات أخرى، وقد تحقق الهدف وذعرت قريش بوصول النبي ﷺ وجنده إلى هذا المكان، وعلموا أنهم لا طاقة لهم بعد اليوم بالمسير إليه.

كانت هذه الغزوة في وقت شديد القيظ، وغاب فيها رسول الله ﷺ عن المدينة أربع عشرة ليلة، ثم رجع إليها وهو يقول: «آيبون تائبون، لربنا حامدون، أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال»[٢].

﴿٣﴾ غزوة ذي قَرَد:

لم تمض على عودة النبي ﷺ إلى المدينة من الغزوة السابقة سوى أيام قلائل، حتى أغار عيينة بن حصن الفزاري في مجموعة من رجال غطفان على إبل المدينة، وكانت بها إبلٌ لرسول الله ﷺ، فقتَل هؤلاء اللصوص راعيَ الإبل، واختطفوا امرأة كانت معه، وذهبوا بالمرأة وبالإبل إلى ديارهم.

وسرعان ما وصلت الأنباء إلى النبي ﷺ، حيث علم بأمرهم الصحابي الجليل سلمة بن الأكوع ﷺ، فصعد في جبل سلع، وجعل يصرخ ويستغيث، حتى بلغ

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٢٥٨).
(٢) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (٢/١٢٩)، السهيلي: الروض الأنف، (٣/٤٨٨).

صراخه أهلَ المدينة، وتَنَادى المسلمون: «يا خيل الله اركبي»(١)!

وأمر رسول الله ﷺ المقداد بن الأسود، ومن بادر إليه من الرجال، وقال له: «اخرج في طلب القوم حتى أُلحِقَكَ في الناس»(٢) فخرج الفرسان في طلب القوم حتى تلاحقوا بهم، وكان شعارهم يومئذ أَمِتْ أَمِتْ(٣) حتى أدركوا أخريات هذه العصابة، فاشتبكوا معهم، وقتلوا منهم ثلاثة رجال، واستنقذوا عشر لقاح، وأفلتت بقية القوم بعشر أخرى، ونجت.

وما هي إلا برهة حتى أدركهم رسول الله ﷺ في نحو خمسمائة من أصحابه، وتلاحق به الناس حتى اجتمعوا بمكان يقال له ذو قَرَد؛ وعلم أنه لا سبيل إلى إدراك هؤلاء اللصوص، فقد لحقوا بمنازل غطفان، فلم ير النبي ﷺ ضرورة أن يتابعهم، وأقام على ذلك الماء يوما وليلة، ثم رجع إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمسَ ليالٍ.

ومن الجدير بالذكر هنا أن ننوه بدور سلمة بن الأكوع في هذه الغزوة، حيث أبدى ضروبا من الشجاعة والإقدام؛ مما جعل رسول الله ﷺ يُثني عليه بقوله: «خير فرساننا اليومَ أبو قتادة، وخير رجالتنا اليومَ سلمة»(٤)، ثم يعطيه سهم الراجل والفارس جميعا(٥).

وفي هذا الصدد يقول سلمة: «خَرَجْتُ قَبْلَ أَنْ يُؤَذَّنَ بِالأُولَى(٦) وَكَانَتْ لِقَاحُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَرْعَى بِذِي قَرَدٍ، قَالَ: فَلَقِيَنِي غُلَامٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَقَالَ:

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٥/٩٦).
(٢) ابن هشام: السيرة، (٤/٢٤٤).
(٣) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٦٨٢).
(٤) صحيح ابن حبان، برقم (٧١٧٥)، ذكر غزوات سلمة بن الأكوع مع المصطفى ﷺ.
(٥) السابق الحديث نفسه.
(٦) يعني صلاة الصبح.

أُخِذَتْ لِقَاحُ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قُلْتُ: مَنْ أَخَذَهَا؟ قَالَ: غَطَفَانُ، قَالَ: فَصَرَخْتُ ثَلَاثَ صَرَخَاتٍ ـ يَا صَبَاحَاهْ ـ قَالَ: فَأَسْمَعْتُ مَا بَيْنَ لَابَتَيِ الْمَدِينَةِ(١) ثُمَّ انْدَفَعْتُ عَلَى وَجْهِي حَتَّى أَدْرَكْتُهُمْ، وَقَدْ أَخَذُوا يَسْتَقُونَ مِنَ الْمَاءِ فَجَعَلْتُ، أَرْمِيهِمْ بِنَبْلِي وَكُنْتُ رَامِيًا وَأَقُولُ:

أَنَا ابْنُ الأَكْوَعْ   الْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعْ(١)

وَأَرْتَجِزُ حَتَّى اسْتَنْقَذْتُ اللِّقَاحَ مِنْهُمْ، وَاسْتَلَبْتُ مِنْهُمْ ثَلَاثِينَ بُرْدَةً، قَالَ: وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَالنَّاسُ، فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ حَمَيْتُ الْقَوْمَ الْمَاءَ، وَهُمْ عِطَاشٌ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمُ السَّاعَةَ. فَقَالَ: يَا ابْنَ الأَكْوَعِ مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ(٣)، قَالَ: ثُمَّ رَجَعْنَا وَيُرْدِفُنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى نَاقَتِهِ حَتَّى دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ»(٤).

أما المرأة المسلمة التي أخذها اللصوص فقد استطاعت أن تتغافل اللصوص وتفك إسارها، وتعود إلى المدينة بعد أن حلت ناقة لرسول الله ﷺ من الإبل التي أخذها القوم، وركبتها ليلا، ونجت من إسارهم، ونذرت وهي في الطريق أن تنحر هذه الناقة التي نجت بها.

فلما قدمت على النبي ﷺ قصت عليه خبرها، ثم قالت: يا رسول الله، إني نذرت لله تعالى أن أنحرها إن نجاني الله عليها. فابتسم رسول الله ﷺ، وقال: «بئسما جزيتها، أن حملك الله عليها ونجّاك، أن تنحريها! إنه لا نذر لأحد في معصية الله، ولا لأحد فيما لا يملك؛ إنما هي ناقة من إبلي، ارجعي إلى أهلك على بركة الله»(٥).

(١) لابتي المدينة: ناحيتاها.
(٢) الرُّضّع: جمع راضع، وهو اللئيم البخيل.
(٣) أسجِحْ: أَحسِنْ، وخُذْ بالرفق في الأمور.
(٤) البخاري، برقم (٤١٩٤) باب غزوة ذي قرد.
(٥) ابن كثير: السيرة النبوية، (٣/٢٨٨)، وما بعدها.

www.almoslih.net

٤ سرية زيد بن حارثة إلى العيص:

استمرارا لسلسلة المناوشات وحرب الاستنزاف بين المسلمين ومشركي مكة، خصوصا وأنهم ما زالوا يؤلّبون القبائل على حرب رسول الله ﷺ، كما رأيت في غزوة الأحزاب وغيرها، ويحرصون على الغدر بالمسلمين كما رأيت عندما اشترَوا خبيب بن عدي وصاحبَه ليقتلوهما غدرا.

كان من الضروري أن يترصد المسلمون لقريش في كلِّ مكان، حتى يضيّقوا عليها الخناق، إما أن تكفّ عن عداوتها وإيذائها، وتأليبها للقبائل، وتطلق ما في أيديها من المسلمين المستضعفين ولا تعذبهم، وإلا فإن مصالحها وحياتها الاقتصادية كلها في خطر داهم.

وجاءت الأنباء إلى النبي ﷺ تفيد بأن قافلة قرشية عائدة من الشام في طريقها إلى مكة، وذلك في جمادى الأولى من السنة السادسة للهجرة، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثه في سبعين ومائة راكب لملاقاتها.

وبالفعل خرج زيد بن حارثة حتى وصل إلى مكان يسمى "العيص" على مسيرة أربع ليال من المدينة، وأدرك القافلة، فأخذها جميعا، وهرب رجالُها، وكان على رأسها أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، وفيها يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية.

ثم قدمت القافلة إلى المدينة، وخرج أبو العاص بن الربيع وقد أعجزه أمره[(١)]، ففكر في حاله، وكيف يعود إلى مكة بهذا الخزي والعار، فتذكر أن زوجته زينب بنت رسول الله ﷺ ما زالت في عصمته، وهي في المدينة مع أبيها، فتستّر حتى جاء تحت الليل إلى زوجته زينب، فاستجار بها فأجارته[(٢)].

(١) تذكر بعض الروايات أنه لم يهرب ولم يأت بنفسه خفية مستجيرا، ولكنه أسر ضمن من أسر من رجال القافلة، (الواقدي: المغازي، ٥٥١/١).
(٢) ابن كثير: السيرة النبوية، (٥٢٠/٢).

وما إن خرج المسلمون لصلاة الفجر خلف رسول الله ﷺ، وكبر النبي ﷺ تكبيرة الإحرام إلا سمعوا صوتها تنادي في الناس: "إني قد أجرت أبا العاص"! فقال رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الصلاة: «أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟» قالوا: نعم. قال: «والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من هذا حتى سمعتُ ما سمعتُم! المؤمنون يد واحدة، يجير عليهم أدناهم، وقد أجرنا من أجارتْ».

ثم دخل منزله على ابنته زينب فقال: «أي بنية، أكرمي مثواه ولا يخلصَنَّ إليك؛ فإنك لا تحلّين له». فسألته زينب أن يرد على أبي العاص ما أخذ منه.

فقال ـ ﷺ ـ لأصحابه: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالًا؛ فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإنّا نحبّ ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به».

فقالوا: يا رسول الله، بل نردّه. فجعلوا يردون ما أخذوا، حتى إن الرجل ليأتي بالدلو، والرجل يأتي بالإداوة، حتى ردوا عليه كلَّ ماله بأسره لا يفقد منه شيئا[(١)].

أطلق النبي ﷺ سراح أبي العاص بن الربيع، وأطلق معه أموال القافلة التي غنمها المسلمون، فالمال ليس هدفا للغزو، كما يُشيع الذين لا يفهمون هذا الدين، ويُشِيعون عنه الأراجيف، ولو كان المال هو الهدف لأطلق النبي ﷺ سراح أبي العاص بن الربيع وحده، ولما حث المسلمين على رد الأموال.

ولكن الهدف هو ما قلناه مرارا: ألا وهو إحراج قريش، وإخبارها بأنهم تحت قبضة المسلمين في المدينة، وأن مصالحهم مهددة، فمن مصلحتهم أن يتجنبوا عداء المسلمين، وقد تحقق جزء كبير من هذا الهدف بالاستيلاء الفعلي على القافلة، وأسر رجالها، وانتشر الخبر وطار إلى مكة، فأقضّ مضاجعها، وخافت على رجالها وأموالها.

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢٨٤/٦)، والبيهقي في السنن، برقم (١٣٨٣٩).

www.almoslih.net

وإذا كان قد تحقق جزء كبير من هذا الهدف، فقد بقيت أهداف أخرى عظيمة، وهي تأليف القلوب على الإسلام، وبيان عدله ورحمته، خاصة من أمثال أبي العاص بن الربيع، وهو سيّد في قومه.

فذهب أبو العاص إلى مكة، فأدّى إلى كل ذي مال ماله، ثم قال: «هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه»؟ قالوا: "لا". قال: «هل أوفيت ذمتي»؟ قالوا: "نعم، وجزاك الله خيرا، فقد وجدناك وفيا كريما"!

وهنا أشهر أبو العاص بن الربيع إسلامه، وقال لهم: والله ما منعني من الإسلام عنده، إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم؛ فلما ردها الله عليكم، وفرغت منها أسلمت[١]. ثم خرج فقدم المدينة مسلما؛ فرد رسول الله ﷺ عليه زوجته.

روى الإمام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال: رد رسول الله ﷺ زينب ابنته على زوجها أبي العاص بن الربيع بالنكاح الأول، ولم يحدث شيئا[٢].

وفي رواية أخرى زيادة: «وكان إسلامها قبل إسلامه بست سنين على النكاح الأول، ولم يحدث شهادة ولا صداقا»[٣].

٥ بعوث تأديبية متفرقة:

كانت هناك بعض البعوث والسرايا التأديبية لبعض الجهات التي فكرت أن تُغِيرَ على المدينة، أو قامت بأعمال عدائية تجاهها، أو ساعدت بعض المهاجمين للمدينة، وقدّمت لهم العون، مما كا ينبغي ألا يترك دون عقاب، حتى لا يفكروا في غزو المدينة، وأن يزيلوا من رؤوسهم فكرة الإغارة.

(١) الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (٣٩/٢).
(٢) مسند أحمد، برقم (١٨٧٦)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.
(٣) مسند أحمد، برقم (٢٣٦٦)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

أ سرية زيد بن حارثة إلى بني ثعلبة:

ففي شهر جمادى الآخرة من السنة السادسة بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى بني ثعلبة بناحية "الطرف" وهو ماء بطريق العراق على ستة وثلاثين ميلا من المدينة، وبه بعض الأعراب الذين يحترفون الإغارة والسلب وقطع الطريق، فكان ينبغي تأديبهم، وكسر شوكتهم حتى لا يفكروا في الانقضاض على المدينة وتوجيه هجماتهم إليها، وليعلموا أيضًا أنهم ليسوا بعيدين عن قبضة المسلمين مهما بعدوا.

فخرج إليهم زيد بن حارثة في خمسة عشر رجلا؛ فهربت تلك العصابة من الأعراب فلم يعثر منهم على أحد، وتركوا وراءهم عشرين بعيرا، فاستاقها زيد ورجع إلى المدينة بعد أن غاب عنها أربع ليال[١].

ب سرية زيد بن حارثة إلى بني فزارة:

وفي رجب من هذه السنة، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى "وادي القرى" لتأديب بني فزارة؛ وكانوا قد تعرضوا له وهو راجع بتجارة من الشام، فسلبوا ما كان معه من أموال، وأصيب فيها ناس من أصحابه، وارتث زيد من بين القتلى[٢].

فلما جاء المدينة، وأخبر رسول الله ﷺ بما كان منهم، تركه حتى برئ من جراحه، ثم أرسله إليهم في نفر من أصحابه؛ فساروا إليهم حتى دهموهم في منازلهم؛ فأحاطوا بهم، وقتلوا منهم جمعا كثيرا[٣].

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (١٧٨/٣)، ابن كثير: السيرة النبوية، (٣٣٨/٣).
(٢) ابن هشام: السيرة، (٢٧/٦)، وارتث من بين القتلى: نجا بجراحه وبه رمق من الحياة.
(٣) انظر: ابن هشام: السيرة، (٢٨/٦).

www.almoslih.net

ج سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر :

وفي شهر شعبان من هذه السنة بعث النبي ﷺ سرية بقيادة علي بن أبي طالب لتأديب قبيلة بني سعد بن بكر بفدك، الذين جمعوا مجموعة من الجنود، لإمداد يهود خيبر تمهيدا لغزو المسلمين في المدينة، وكان يهود خيبر يستعدون لذلك، فلم يمهلهم النبي ﷺ، فبمجرد أن أتته هذه الأخبار، عزم على الإيقاع بهم، حتى لا يستطيعوا إيصال هذا المدد لليهود.

فبعث رسول الله ﷺ هذه السرية في مائة من المسلمين، فأغار عليهم، وعلم القوم خبر هذا المسير، فهربوا وتركوا أموالهم، وغنم المسلمون من أنعامهم خمسمائة بعير، وألفي شاة، فقدموا بها المدينة دون أن يلقوا كيدا[1].

٤ سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل:

وفي شهر شعبان نفسِه أرسل النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف في سبعمائة من أصحابه، إلى بني كلب بقرى دومة الجندل، وهي في أطراف الشام، بينها وبين دمشقَ خمسُ ليالٍ، وبينها وبين المدينة خمسَ عشرةَ ليلةً.

ولعلك تذكر أن هذه القرى كانت تمثل خطرا كبيرا على المدينة برغم بعدها عنها، إذ كان بها مجموعة كبيرة من الأعراب، ومحترفي الإغارة.

كما أن كثيرا من تلك القرى كان متاخما للروم، وتنصر منهم عدد ليس باليسير، ومنهم بنو كلب الذين توجه إليهم عبد الرحمن بن عوف، ولذلك فإن هذه الغزوة قد جمعت بين هدفين رئيسين هما:

- **الهدف الدعوي**، وهو محاولة دعوة هذه القرى إلى الله، واتباع دينه، وإيصال دعوة الإسلام إليهم.

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٢٧٠)، والحلبي: السيرة الحلبية، (٣/١٨٥)، وما بعدها، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٦/٩٧).

- **الهدف الحربي**، وهو تأمين هذه الدعوة، وتأمين دخول هذه القبائل تحت النفوذ الإسلامي والخضوع لسلطانه إذا لم تدخل في الإسلام.

هذه هي مهام الحرب في الإسلام تأمين إيصال الدعوة إلى الناس، فإذا ما وصلت وقامت الحجة عليهم، ورفضوا الدخول في هذا الدين، فلا إكراه عليهم، ولكن عليهم أن يخضعوا لسلطان الدولة، وألا يعلنوا الحرب عليها، وذلك بدفع جزء صغير من أموالهم يكون ضريبة حماية.

حيث إنهم يعيشون تحت ظل الدولة، ولا يطالبون بحماية أنفسهم، بل المسلمون مطالبون بذلك، ولا يطالبون بالاشتراك في قتال الأعداء الذين يتربصون بالدولة المسلمة، فهم في أمن وأمان من هذا كله، وكل ما عليهم هو ألا يثيروا شغبا، أو يعاونوا عدوا لا داخليا، ولا خارجيا، فيعيشوا في سلام، ولهم عهد الله وميثاقه، وهذا منتهى العدل والإنسانية.

وأوصى النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف أن يدعو هذه القبائل إلى الله تعالى، وأن يغزو باسمه تعالى، وأن يحافظ على شرف الجهاد الإسلامي بألا يلطخ يده بإثم ولا سرقة ولا غدر ولا دم ضعيف من صغير أو امرأة.

يقول ابن عمر: «دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف فقال: تجهز فإني باعثك في سرية في يومك هذا، أو مِن غدٍ إن شاء الله، قال ابن عمر: فسمعت ذلك فقلت: لأدخلن فلأصلين مع النبي الغداة، فلأسمعن وصيته لعبد الرحمن بن عوف.

فغدوت فصليت، فإذا أبو بكر وعمر، وناس من المهاجرين فيهم عبد الرحمن بن عوف، وإذا رسول الله ﷺ، قد كان أمرَه أن يسير من الليل إلى دومة الجندل، فيدعوهم إلى الإسلام.

www.almoslih.net

فقال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن: ما خلفك عن أصحابك؟ ـ قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السحر، فهم معسكرون بالجرف، وكانوا سبعمائة رجل ـ، فقال: أحببت يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك، وعليّ ثياب سفري.

وكان على عبد الرحمن بن عوف عمامة قد لفّها على رأسه، فدعاه النبي ﷺ فأقعده بين يديه، فنقض عمامته بيده، ثم عمّمه بعمامة سوداء، فأرخى بين كتفيه منها، ثم قال: هكذا فاعتمَّ يا ابنَ عوف.

وعلى ابن عوف السيف متوشحه، ثم قال رسول الله ﷺ: اغزُ باسم الله، وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله، لا تغلّ، ولا تغدر، ولا تقتل وليدًا، قال ابن عمر: ثم بسط يده»[1].

وقد آتت هذه السرية أكلها، حيث سار إليهم عبد الرحمن في أصحابه، ثم ظل يعرض عليهم الإسلام مدة ثلاثة أيام، حتى أسلم الأصبغ بن عمرو ـ وهو شيخهم وكان نصرانيا ـ ودخل معه ناس كثير من قومه، وأقام بقيتهم على دينهم على أن يدفعوا الجزية.

فصالحهم عبد الرحمن على ذلك، فكتب عبد الرحمن إلى النبي ﷺ يخبره بذلك، وأنه أراد أن يتزوج فيهم، فكتب إليه النبي ﷺ أن يتزوج بنت ملكهم الأصبغ وتدعى تماضر، فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها، ثم أقبل بها، وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

ومشورة النبي ﷺ على عبد الرحمن أن يتزوّج ابنة ملكهم تدل على الحكمة والذكاء السياسي اللذين كانا يتمتع بهما النبي ﷺ، فإن هذا الزواج يعد «تعزيزًا للعلاقات بين الطرفين، وكسبًا لودّ هذه القبيلة الموالية للعدوّ البيزنطي.

(١) الواقدي: المغازي، (٢/٥٦١).

وقد كان من نتائج هذا: أن أدركت القبائل الضاربة هناك أن حجم القوّة الإسلامية، وقدرتها على التحرّك أكبر ممّا كانت تظن، وربّما بلغ ذلك القيادة البيزنطية نفسها، فكفّت عن تكرار المحاولة ردحًا طويلًا من الزمن أتاح للمسلمين:

تحقيق انتصارهم على الوثنية في صلح الحديبية.

وتصفية المواقع اليهودية في الشمال، خيبر والقرى المحيطة بها.

وقيام النبي ﷺ بمكاتبة ملوك وأمراء العالم، بمن فيهم الإمبراطور البيزنطي وأتباعه الغساسنة، وحكّام مصر والحبشة»[1].

٥ مقتل أبي رافع بن أبي الحقيق اليهودي:

كان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق يهوديا من زعماء بني النضير الذين ذهبوا إلى خيبر بعد جلائهم عن المدينة، فدانت لهم خيبر بالرياسة؛ فقد كان تاجرا واسع التجارة شديد الثراء، حتى كان يلقب بتاجر الحجاز؛ وكان قلبه قد امتلأ غيظا وكمدا على الإسلام والمسلمين بعد جلاء قومه من المدينة.

فكان أحد الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله في غزوة الخندق، واستغل ثراءه الواسع، فأعان المشركين بالمال الكثير لاستئصال شأفة المسلمين في هذه الغزوة.

وما إن انتهت الغزوة بهزيمة الأحزاب ودمار إخوانه وحلفائه من يهود بني قريظة، إلا وازداد غيظه أكثر من ذي قبل، وبدأ يجمع الأحزاب من جديد، ليثأر لهذه الهزائم المتتالية.

وعاود الاتصال بغطفان وقريش ومن حوله من مشركي العرب، وأخذ يمنّيهم الأماني، ويرصد لهم المكافآت العظيمة كي يجمعهم على حرب رسول الله ﷺ.

(١) بريك بن محمد أبو مايلة العمري: غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، (ص١٥)، وما بعدها، «بتصرف».

ولعلك لاحظت أن كثيرا من هذه الأخبار كانت تصل إلى النبي ﷺ، وأنه ﷺ بعث سرية علي بن أبي طالب لتأديب قبيلة بني سعد بن بكر بفدك لإمدادها اليهود بالرجال.

وبالتالي فقد كان النبي ﷺ يرصد تحركات هؤلاء جميعا، وسوف يؤدي ذلك إلى غزو يهود خيبر فيما بعد، ولكننا نتعرض الآن لدور ابن أبي الحقيق في هذه التعبئة.

ومن هنا، فإن النبي ﷺ رأى أن استمرار هذا اليهودي في عمليات الحشد والتعبئة لحرب المسلمين يمثّل خطرا، وأنه بذلك يعلن عداءه له، ويمهد لحرب وشيكة ينبغي أن يعمل النبي ﷺ على تلافيها أو تأخيرها قدر الإمكان.

فبعث رسول الله ﷺ سرية لقتله بقيادة عبد الله بن أبي عتيك في أربعة رجال آخرين من رجال الخزرج، وذلك في رمضان من تلك السنة[(١)]. ونجحت هذه المهمة في القضاء على هذا الشر الذي يديره ذلك اليهودي الخبيث، حيث تمكنت هذه السرية من قتله، والرجوع ثانية إلى المدينة.

مقتل اليسير بن رزام اليهودي:

تأمّر على اليهود زعيم جديد بعد ابن أبي الحقيق، يدعى اليسير بن رزام، ولم يتعلم هذا الأمير من مصير سابقه، حيث قام بأمر تأليب القبائل على غزو المدينة، ومواصلة الدَّور الذي أداه ابن أبي الحقيق.

وقد جاءت الأنباء إلى رسول الله ﷺ تفيد بأن زعيم اليهود الجديد، بدأ في جمع يهود الشمال وتحريضهم، ومواصلة مساعي سابقه، وشرع بإعادة الاتصال بقبائل غطفان ومن لف لفها من مشركي العرب ليحثهم على قتال رسول الله ﷺ.

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (١٠٥/٦).

وحين علم رسول الله ﷺ بذلك أرسل سرية استطلاع بقيادة عبد الله بن رواحة حتى يقف على حقيقة هذا الأمر الذي بلغه، ويتأكد من هذه الأنباء، فجاءت السرية لتؤكد صحة الأخبار التي وصلت إلى النبي ﷺ في المدينة[(١)].

سعى النبي ﷺ إلى أن يوقف هذه الحروب قبل أن يبدأها اليهود، فقد بسط المسلمون نفوذهم على المنطقة كلها، فلا جرم أن يبعث إلى اليسير بن رزام ليكون ملكا على قومه من قبل النبي ﷺ، ولا يعلن عداءه له.

وفي هذا الصنيع إيقاف لنهر الدم الجاري بين اليهود والمسلمين، ومحاولة العيش في سلام دون صدام مسلح بين الفريقين، وإثارة القبائل العربية الوثنية، لتدخل طرفا في الصراع.

فأرسل إليه سرية مكونة من ثلاثين رجلا بقيادة عبد الله بن رواحة، وفيهم عبد الله بن أنيس، «فقدموا عليه فلم يزالوا يرغّبونه ليقدموه على رسول الله ﷺ، فسار معهم.

فلما كانوا بالقرقرة على ستة أميال من خيبر، ندم اليسير على مسيره، ففطن له عبدالله بن أنيس، وهو يريد السيف، فضربه بالسيف فأطن قدمه، وضربه اليسير بمخرش من شوحط في رأسه فأمه، ومال كل رجل من المسلمين على صاحبه من اليهود فقتله، إلا رجلا واحدا أفلت على قدميه، فلما قدم ابن أنيس تفل في رأسه رسول الله ﷺ فلم يَقِحْ جرحه ولم يؤذه»[(٢)].

لقد كانت مساعي عبد الله بن رواحة تسير في الاتجاه السلمي، لتجنب ويلات الحرب، بعدما تأكد للنبي ﷺ أنهم يؤلبون القبائل، مما يذهب كثير من الجهود

(١) انظر المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢٧١/١).
(٢) ابن كثير: السيرة النبوية، (٤٣٤/٤)، ابن هشام: السيرة، (٢٩/٦)، الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (٢٤٨/٢)، وما بعدها.

www.almoslih.net

في حرب الاستنزاف الدائرة، فأراد أن يوقف هذه المناوشات، وتوفير الجهود لما هو أجدى، وذلك بأن ينضم اليهود تحت النفوذ الإسلامي، مع الحفاظ على استقلالهم التام في إدارة شؤونهم، ولهم ملكهم الذي يملكونه.

وقد وافق ابن رزام على هذا العرض، ولكن للأسف فقد غلب عليه في النهاية ذلك الحقد اليهودي، الذي اشتهر به قومه، فحاول الغدر في الطريق، فجرّ على نفسه القتل، وقتل معه أصحابه الذين رافقوه، ووقعت الدائرة عليهم.

صُلح الحُدَيبِيَة

انقضت ست سنوات منذ هجرة النبيّ وأصحابه من مكة إلى المدينة، وهم فيما رأينا من جهاد مستمر متصل، بينهم وبين قريش تارة، وبينهم وبين اليهود أخرى. والإسلام في أثناء ذلك يزداد انتشارا ويزداد قوّة ومنعة.

صد المسلمين عن المسجد الحرام:

كان هذا المسجد الحرام قبل البعثة وجهة العرب في عبادتهم. يحجّون إليه كل عام في الأشهر الحرم، فمن دخله كان آمنا. فإذا التقى المرء بأشدّ الناس له عداوة لم يستطع عنده أن يجرّد سيفا أو يسفك دما. لكن قريشا آلت على نفسها منذ هاجر الرسول ﷺ والمسلمون معه أن يصدوهم عن المسجد الحرام، وأن يَحُولوا بينهم وبينه دون سائر العرب.

وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ونزل كذلك قوله تعالى من بعد غزوة بدر: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤-٣٦].

وفي هذه السنوات الست نزلت الآيات كثيرةً متتابعةً في هذا المسجد الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا. لكن قريشا كانت ترى الرسول ﷺ والذين معه كفروا بآلهة هذا البيت: هبل وإساف ونائلة وسائر الأصنام، ولذلك كانت ترى حربهم وحرمانهم من الحج إلى الكعبة واجبا عليها حتى يثوبوا إلى آلهة آبائهم.

شوق المسلمين إلى مكة:

ذاق المسلمون أثناء ذلك ألم الحرمان من أداء الواجب الديني المفروض عليهم، كما كان مفروضا من قبل على آبائهم. والمهاجرون منهم يذوقون إلى جانب ذلك همّا واصبا وألما لذّاعا: ألم النفي، وهمّ الحرمان من الوطن ومن أهلهم فيه.

وهؤلاء وأولئك كانوا في ثقتهم بنصر الله ورسوله ونصره إياهم وإعلاء دينهم على الدين كله، يؤمنون بأن يوما قريبا لا بدّ آت يفتح الله لهم فيه أبواب مكة ليطوفوا بالبيت العتيق، وليؤدوا فريضةً فرضها الله على الناس جميعا[١].

وإذا كانت تمر السنة تلو السنة فتساجلُ الغزوةُ الغزوةَ، وتكون بدر ثم أحد ثم الخندق ثم سائر الغزوات والأعمال، فإن هذا اليوم الذي يؤمنون به لا ريبَ آتٍ. وما أشدَّ شوقَهم إلى هذا اليوم! وما أشدَّ شوقَ رسول الله ﷺ إليه!

العرب والبيت العتيق:

والحق أن قريشا ظلموا الرسول ﷺ وأصحابه بمنعهم من زيارة الكعبة وأداء فرائض الحج والعمرة.

فلم يكن هذا البيت العتيق ملكا لقريش، ولكنه كان ملكا للعرب جميعا. وإنما كانت في قريش سدانة الكعبة وسقاية الحاجّ وما يتبع ذلك من العناية بالبيت ورعاية زائريه.

(١) انظر: هيكل: حياة محمد، (ص٢٣١-٢٣٢) "بتصرف".

ولم يكن اتجاه قبيلةٍ بعبادتها إلى صنم دون آخر ليبيح لقريش منعها من زيارة الكعبة والطواف بها والقيام بما تفرضه عبادة هذا الصنم من شعائر.

فإذا جاء الرسول ﷺ ليدعو الناس إلى نبذ عبادة الأصنام وإلى التطهّر من رجس الوثنيّة والشرك، وإلى السموّ بالنفس إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، والارتفاع في سبيل ذلك فوق كل نقص، والارتقاء بالروح إلى حيث تستطيع إدراك كمال الله، وتوحيده، وكان من فرائض ذلك حجّ البيت والعمرة، فمِن العدوان منعُ أصحاب الدين الجديد من أداء هذه الفريضة.

ولكن قريشا خافت إن جاء الرسول ﷺ ومن حوله المؤمنون بالله وبرسالته، وهم من صميم أهل مكة، أن يتعلّق سواد المكّيين بهم وأن يشعروا بما في بقائهم بعيدين عن أهليهم وأبنائهم من ظلم، فيكون ذلك نواة حرب أهليّة.

ثم إن رؤساء قريش وأكابر أهل مكة، لم ينسوا أنّ الرسول ﷺ والذين معه حطموا تجارتهم وحالوا بينهم وبين طريقهم المعبّدة إلى الشام، وأنهم أثاروا بذلك في نفوسهم من الحقد والبغضاء ما لا يخفف منه أن البيت للّه وللعرب جميعا، وأنهم لا يملكون من أمره إلا العناية به ورعاية زائريه[١].

المسلمون والبيت العتيق:

انقضت ست سنوات منذ الهجرة، والمسلمون يتحرّقون شوقا يريدون زيارة الكعبة، ويريدون الحجّ والعمرة.

وإنهم لمجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبيّ بما أُلهِم في رؤياه الصادقة: أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصّرين لا يخافون.

(١) انظر: هيكل: حياة محمد، (ص:٢٣٢- ٢٣٣) "بتصرف".

www.almoslih.net

فما كاد القوم يسمعون رؤيا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم، وحتى انتقل نبأ هذه الرؤيا إلى سائر أنحاء المدينة في سرعة البرق الخاطف.

ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام؟ أفيحاربون في سبيله؟ أفيجلون قريشا عنه عنوة؟! أم أنّ قريشا ستفتح لهم طريقه مذعنة صاغرة.

كلا! لا قتال ولا حرب.

أذان الرسول ﷺ في الناس بالحج:

أذن الرسول ﷺ في الناس بالحج في شهر ذي القعدة الحرام، وأوفد رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم إلى مشاركته في الخروج إلى بيت الله آمنين غير مقاتلين. وحرص الرسول ﷺ في الوقت نفسه على أن يكون معه من المسلمين أكبر عدد مستطاع.

وحكمته في ذلك: أن تعلم العرب كلها أنه خرج في الشهر الحرام حاجّا ولم يخرج غازيا، وأنه أراد أداء فريضة فرضها الإسلام كما فرضتها أديان العرب من قبل، وأنه أشرك العرب معه ممن ليسوا على دينه في أداء هذه الفريضة.

فإن أصرّت قريش مع ذلك على مقاتلته في الشهر الحرام ومنعه من أداء ما يؤمن العرب ـ على اختلاف آلهتهم ـ به، لم تجد قريش من العرب من يؤيّدها في موقفها، ولا من يعينها على قتال المسلمين، وكانت بإمعانها في الصدّ عن المسجد الحرام تَصرِفُ الناس عن دين إسماعيل وعن ملّة أبيهم إبراهيم.

بذلك يأمن المسلمون أن تجتمع العرب عليهم اجتماع الأحزاب من قبل، ويزداد دينهم رِفعةً على رفعته عند العرب الذين لا يؤمنون به.

وما عسى أن تقول قريش لقوم جاءوا مُحرِمين، لا سلاح معهم إلا سيوفهم في أغمادها، يتقدّمهم الهدي الذي ينحرون، ولا همّ لهم إلا أن يؤدّوا بتطواف البيت فريضة تؤديها العرب جميعا!

أذن الرسول ﷺ في الناس بالحج، وطلب من القبائل من غير المسلمين أن تخرج معه، فأبطأ كثير من الأعراب.

وخرج في أوّل ذي القعدة أحد الأشهر الحرم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، يتقدّمهم على ناقته القصواء، فكانت عدّة الذين خرجوا ألفا وأربعمائة. وساق الرسول ﷺ معه الهدي سبعين بدنة؛ وأحرم بالعمرة، ليعلم الناس أنه لا يريد قتالا، وأنه إنما خرج زائرا بيت الله الحرام معظما له.

فلما بلغ ذا الحليفة [١] عقص الناس الرؤوس، ولبّوا بالعمرة، وعزلوا الهدي ومازوا جوانبها اليمنى، ومن بينها بعير أبي جهل الذي أخذوه ببدر. ولم يحمل أحد منهم سلاحا إلا ما يحمل المسافر من سيف مغمد. وكانت أمّ سلمة زوجُ النبيّ معه في هذه الرحلة.

قريش وحج المسلمين:

بلغ قريشا أمر الرسول ﷺ ومن معه، وأنهم يسيرون قِبَلها حاجّين، فامتلأت نفوس قريش بالمخاوف، وجعلوا يقلّبون هذا الأمر على وجوهه، يحسبونه حيلة أراد الرسول ﷺ أن يحتال بها على دخول مكة بعد أن صدّهم والأحزاب معهم عن دخول المدينة.

ولم يثنهم ما علموا من إحرام خصومهم بالعمرة وإذاعتهم في أنحاء الجزيرة كلها أنهم لا تحرّكهم إلا العاطفة الدينية لقضاء فرض يقره العرب جميعا، عن أن يقرروا الحيلولة بين الرسول ﷺ ودخول مكة، بالغا ما بلغ الثمن الذي يدفعونه لتنفيذ قرارهم هذا.

(١) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، وهي ميقات أهل المدينة الذي يحرمون عنده للحج والعمرة.

www.almoslih.net

لذلك عقدوا لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه وحدهم مائتين، وتقدّم هذا الجيش حتى يحول بين الرسول ﷺ وأم القرى، وبلغ من تقدّمه أن عسكر بذي طوى.

معسكران يلتقيان:

أما الرسول ﷺ فتابع مسيرته، حتى إذا كان بعسفان [١] لقيه رجل من بني كعب سأله النبي ﷺ عما قد يكون لديه من أخبار قريش، فكان جوابه: قد سمعتْ بمسيرك فخرجوا، وقد لبسوا جلود النمور ونزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا. وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدّموها إلى كراع الغميم[٢].

قال الرسول ﷺ: «يا ويح قريش! لقد أهلكتهم الحرب. ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن يفعلوا قاتلوا وبهم قوة! فما تظن قريش! فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السّالفة[٣]»[٤].

ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع. إنه لم يخرج من المدينة غازيا، وإنما خرج محرما، يريد بيت الله، يؤدي عنده إلى الله فرضه. وهو لم يتّخذ للحرب عدّتها؛ فلعله إن حارب فلم ينتصر جعلت قريش من ذلك موضع فخارها، بل لعلها إنما أوفدت ابن الوليد وعكرمة قصد إدراك هذه البغية حين علمت أنه لم يخرج مقاتلا.

---

(١) عسفان: قرية أو منهلة بين مكة والمدينة على مرحلتين من مكة.
(٢) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز، بين مكة والمدينة، وهو أمام عسفان بثمانية أميال، وهذا الكراع جبل أسود في طرف الحرة يمتد إليه.
(٣) السالفة: صفحة العنق وهما سالفتان من جانبيه، وكنى بانفرادهما عن الموت، لأنهما لا تنفردان عما يليهما إلا بالموت، وقيل: أراد حتى يفرق بين رأسي وجسدي.
(٤) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، (٣/٢٣٧)، رقم (٢٧٣٢).

وقد استشار الرسول ﷺ أصحابه لما بلغه خبر استعداد قريش لصده عن دخول البيت الحرام، وعرض ﷺ على الصحابة رضي الله عنهم المشورة في هذا الأمر على رأيين يحملان العزم والتصميم:

❶ الميل إلى عيال وذراري الأحابيش[١] الذين خرجوا لمعاونة قريش على مقاتلة المسلمين وصدهم عن البيت.

❷ قصد البيت الحرام، فمن صده عنه قاتله حتى يتمكن من تحقيق هدفه[٢].

ولما عرض ﷺ المشورة في هذا الأمر على الصحابة تقدم أبو بكر الصديق برأيه الذي تدعمه الحجة الواضحة، حيث أشار على رسول الله ﷺ بترك قتالهم والاستمرار على ما خرج له من أداء العمرة، حتى يكون بدء القتال منهم.

فاستحسن النبي ﷺ هذا الرأي، وأخذ به، وأمر الناس أن يمضوا في هذا السبيل[٣]، وعندما اقتربت خيل المشركين من المسلمين صلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الخوف بعسفان.

حرص رسول الله ﷺ على السلم:

وبينما كان الرسول ﷺ يفكر كانت فرسان مكة تبدو على مرمى النظر، يدلّ مرآها على أنه لا سبيل للمسلمين إلى درك غايتهم إلا أن يقتحموا هذه الصفوف اقتحاما، وأن تدور معركة تقف فيها قريش مدافعة عن كرامتها وعن شرفها وعن وطنها؛ معركة لم يردها الرسول ﷺ، وإنما حملته قريش عليها حملا وألزمته خوض غمارها إلزاما.

---

(١) الأحابيش: هم أحياء من القارَةِ انضموا إلى بني ليث في محاربتهم قريشًا، والتحبش التجمع، وقيل: حالفوا قريشًا تحت جبل يسمى حبشيًا، فسموا بذلك.
(٢) القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، (ص٤٨٩).
(٣) عدنان النحوي: ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية، (ص١٦٠).

إن المسلمين ممن معه لا تنقصهم الحمية، وقد تكفيهم سيوفهم إذا جردت من أغمادها لدفع عدوان المعتدي؛ لكنه يفوت بذلك قصده وقد يجعل لقريش عند العرب حجة عليه، وهو أبعد من هذا نظرا و أكثر حنكة وأدق سياسة.

خاصة بعد أن بلغه ﷺ أن قريشًا قد خرجت تعترض طريقه وتنصب كمينًا له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد، وهو لم يقرر المصادمة.

رأى أن يغير طريق الجيش الإسلامي تفاديًا للصدام مع المشركين، فقال: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟» فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقا وعرًا بين شعاب شق على المسلمين السير فيها حتى خرجوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي.

وعند ذلك قال رسول الله ﷺ للناس: «قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه» فقالوا ذلك. فقال: «والله إنها الحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها»[(١)]. ولكنه ﷺ ظل مستقرّا رأيه على سلوك سياسة السلم التي رسم منذ خرج من المدينة ومنذ اعتزم الذهاب إلى مكة حاجا.

وخرج رجل يسلك بهم طريقا وعرا بين شعاب مضنية، وجد المسلمون في سلوكها مشقّة أي مشقة، حتى أفضت بهم إلى سهل عند منقطع الوادي الذي سلكوا فيه ذات اليمين، حتى خرجوا على ثنيّة المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة.

فلما رأى خالد بن الوليد ومن معه من المشركين ما صنع الرسول ﷺ وأصحابه ركضوا راجعين إلى مكة يحذرون أهلها، ويأمرونهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجئ، وقد أصاب الذعرُ المشركين وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية، حيث تعرضت مكة للخطر، وأصبحت مهددة من المسلمين تهديدًا مباشرًا[(٢)].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (٣/٣٣٨) .
(٢) أبو فارس: السيرة النبوية، (ص٣٧٤).

لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفًا من قوات الجيش، فالذي يخاف من عدوه لا يقترب من قاعدته الأصلية، وهي مركز قواته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يطيل خط مواصلات العدو، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله، ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية[(١)].

ولمّا بلغ المسلمون الحديبية بركت ناقته القصواء[(٢)] وظن المسلمون أنها جهدت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»[(٣)].

ثم زجرها فوثبت ثم عدل عن دخول مكة، وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد [(٤)] قليل الماء، ما لبثوا أن نزحوه ثم اشتكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيها، فجاش لهم بالري فارتووا جميعا[(٥)].

وفي رواية: أنه جلس على شفة البئر فدعا بماء فمضمض ومج في البئر. ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معا وقعا، كما ذكر ابن حجر، من أن الرسول ﷺ تمضمض في دلو وصبه في البئر، ونزع سهمًا من كنانته فألقاه فيها ودعا ففارت[(٦)].

---

(١) أبو فارس: السيرة النبوية، (ص٣٧٤).
(٢) القصواء: ناقة رسول الله ﷺ، ويطلق عليها القصواء والجدعاء والعضباء، وهي صفات للشق في الأذن.
(٣) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الصلح: (٢٧٣١- ٢٧٣٢).
(٤) الماء القليل.
(٥) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الصلح: (٢٧٣١- ٢٧٣٢).
(٦) ابن حجر: الفتح، (٢٧٣١-٢٧٣٢).

وفي بروك ناقة رسول الله ﷺ حِكَمٌ عديدة أهمها:

❶ أن كل شيء في هذا الكون يسير بأمر الله ومشيئته، ولا يخرج في سيره عن مشيئته وإرادته، فتأمل في ناقة رسول الله ﷺ أين بركت، وكيف كره الصحابة بروكها وحاولوا إنهاضها لتستمر في سيرها فيستمروا في سيرهم إلى البيت العتيق مهما كانت النتائج، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد غير ذلك[1].

❷ أن الله سبحانه وتعالى، جلّت قدرته، وعزت عظمته، قضى ألا يكون قتال بين المسلمين والمشركين من أهل مكة في هذه الغزوة بالذات؛ لحكم ظهرت فيما بعد منها:

(أ) دخول المسلمين بالقوة يعني أن تحدث مذابح، وتزهق أرواح كثيرة، وتسفك دماء غزيرة من الطرفين، وهذا أمر لم يرده الباري سبحانه، وكان لمصلحة الفريقين المؤمنين والمشركين.

(ب) أن من المحتمل أن ينال الأذى والقتل والتشريد على أيدي المؤمنين بعض المستضعفين من إخوانهم من المسلمين في مكة، وهذا فيه ما فيه من المعرّة التي لا يليق بمسلم أن يقع فيها.

قال سبحانه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الفتح: ٢٥].

(ج) لقد سبق في علم الله عز وجل أن هؤلاء الذين يقفون اليوم صادين رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم عن المسجد الحرام،

(١) انظر: أبو فارس: صلح الحديبية، (ص٤٣).

هم الذين سيفتح قلوبهم إلى الإسلام، ويستفتح الله على أيديهم بلادًا كثيرة، حين يحملون هذه الرسالة للناس، وينيرون ظلمة الطريق للمدلجين[1].

تفكير المعسكرين:

نزلوا، ولكن قريشا بمكة لهم بالمرصاد، وهي تؤثر الموت على أن يدخل الرسول ﷺ عليهم عنوة. فهل يعدون لقريش عدّة النزال فيحاربوها حتى يحكم الله بينهم وبينها وحتى يقضي الله أمرا كان مفعولا؟! في هذا فكر بعضهم وفي احتماله فكرت قريش.

لئن حدث ذلك وانتصر المسلمون لقد قضي على قريش عند العرب كلها قضاء أخيرا، وقد تعرّضت قريش لأن ينزع منها سدانة الكعبة وسقاية الحاجّ وكل ما تفاخر به العرب من مراسم ومناسك دينية. ماذا تصنع إذن؟

وقف المعسكران يفكر كلّ في الخطّة التي يتّبع؛ فأمّا الرسول ﷺ فظلّ على خطّته التي رسم منذ أخذ للعمرة عدّته، خطة السلم والجنوح عن القتال إلا أن تهاجمه قريش أو تغدرَ به، وحينئذ لا يبقى من انتضاء السيف مفرّ. وأمّا قريش فتردّدت، ثم رأت أن توفد إليه من رجالها من يتعرّف قوّته من ناحية، ومن يصدّه عن دخول مكة من ناحية أخرى.

وجاءه بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة يسألونه ما الذي جاء به. فلمّا اقتنعوا من حديثه بأنه لم يأت يريد حربا، وإنما جاء زائرا للبيت معظما لحرمته، رجعوا إلى قريش يريدون إقناعهم ليخلّوا بين الرجل وأصحابه وبين البيت العتيق.

لكن قريشا اتّهموهم وجبهوهم وصاحوا بهم: وإن كان جاء لا يريد قتالا، فوالله لا يدخل علينا عنوة أبدا، ولا تتحدّث بذلك عنّا العرب.

(١) انظر: أبو فارس: صلح الحديبية، (ص٤٥).

www.almoslih.net

ثم بعثت قريش رسولا لم يسمع إلا ما سمع من قبله، ولم يغامر بأن يتّهم عند قريش. وكانت قريش تعتمد فيما أعدّت من قتال الرسول ﷺ على حلفائها من الأحابيش، ففكرت أن توفد سيدهم لعله إذا رأى أن الرسول ﷺ لا يسمع له ولا يتفاهم وإياهم، ازداد لقريش نصرة فزادهم على الرسول ﷺ قوة.

وخرج الحليس سيد الأحابيش قاصدا معسكر المسلمين. فلمّا رآه النبيّ مقبلا أمر بالهدي أن تطلق أمامه، لتكون تحت نظره دليلا ماديّا على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم إنما جاءوا حاجّين معظمين البيت.

ورأى الحليس الهدي سبعين بدنة تسيل عليه من عرض الوادي قد تآكلت أوبارها؛ فتأثر لهذا المنظر وثارت في نفسه ثائرات دينية، وأيقن أن قريشا ظالمة هؤلاء الذين لا يريدون حربا ولا عدوانا. فانقلب إلى قريش دون أن يلقى الرسول ﷺ وذكر لهم ما رأى.

فلمّا سمعوا حديثه غاظهم وقالوا له: اجلس، فإنما أنت أعرابيّ لا علم لك. وغضب الحليس لمقالتهم وأنذرهم أنه ما حالفهم ليصدّ عن البيت من جاء معظما إيّاه. وأنهم إن لم يخلّوا بين الرسول ﷺ وما جاء به نفر بالأحابيش من مكة. وخشيت قريش عاقبة غضبه، فاسترضوه وطلبوا إليه أن ينظرهم حتى يفكروا في أمرهم[1].

وقد ظهرت براعة النبي ﷺ السياسية في عرضه على مشركي مكة الهدنة والصلاح؛ لأن في ذلك فوائد كثيرة منها:

❶ فبالهدنة يضمن حياد قريش ويعزلها عن أي صراع يحدث في الجزيرة العربية، سواء كان هذا الصراع مع القبائل العربية الأخرى، أم مع اليهود ذلك العدو اللئيم الغادر الذي يتربص بالمسلمين الدوائر.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (٣/٣٤٠).

❷ حرص الرسول ﷺ على أن يبقى الاتصال مفتوحًا بينه وبين قريش، ليسمع منهم ويسمعوا منه بواسطة الرسل، والسفراء، وفي هذا تقريب للنفوس وتبريد لجو الحرب، وإضعاف لحماسهم نحو القتال.

❸ حرص الرسول ﷺ على أن تدرك خزاعة بقيادة بديل والركب الذي معه أن حليفهم قوي، فتزداد ثقتهم به وحلفهم له ولبني هاشم من قبل الإسلام، فقد بقي ولم يُلْغَ، وتأكد في صلح الحديبية.

❹ إن العقلاء الذين يفكرون بعقولهم حين يسمعون كلام الرسول ﷺ وأنه جاء معظمًا للبيت، والمشركون يردونه، وهو يصر على تعظيمه، سيقف هؤلاء بجانبه ويتعاطفون معه فيقوى مركزه، ويضعُف مركز قريش الإعلامي والديني في نفوس الناس.

❺ إن مشركي مكة لم يطمئنوا إلى كلام بديل الذي نقله إليهم؛ ذلك لأنهم يعلمون أن خزاعة كانت عَيبةَ نصحٍ لرسول الله ﷺ، ويشعرون بودّ خزاعة للرسول والمسلمين[1].

❻ ويؤخذ من جواب رسول الله ﷺ لبديل بن ورقاء حسن التلطف في الوصول إلى الطاعات، وإن كانت غير واجبة، ما لم يكن ذلك ممنوعًا شرعًا؛ لأن النبي ﷺ أجاب المشركين لما طلبوا منه، ولم يظهر لهم ما في النفوس من البغض لهم والكراهية فيهم لطفًا منه عليه السلام فيما يؤمل من البلوغ إلى الطاعة التي خرج إليها[2].

(١) أبو فارس: صلح الحديبية، (ص٦٧).
(٢) المصدر نفسه، (ص٦٨).

www.almoslih.net

سفارة عروة بن مسعود:

ثم رأوا أن يوفدوا حكيما يطمئنون إلى حكمته، فتحدّثوا في ذلك إلى عروة بن مسعود الثقفيّ. فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء مقابلتهم لمن سبقه من رسلهم.

فلمّا اعتذروا له وأكدوا أنه عندهم غير متهم وأنهم يطمئنون إلى حكمته وحسن رأيه، خرج إلى الرسول ﷺ وذكر له أن مكة بيضته، وأنه إن يفضضها على أهله المقيمين بها، بمن جمع من أوشاب الناس ثم انصرف هؤلاء الأوشاب عنه، كان العار الخالد لقريش عارا لا يرضاه الرسول ﷺ وإن اتّصلت الحرب بينه وبين قريش ما اتّصلت.

فصاح أبو بكر بعروة منكرا أن ينصرف الناس عن رسول الله. وكان عروة يتناول لحية الرسول ﷺ وهو يكلمه، وكان المغيرة بن شعبة واقفا على رأس الرسول يضرب يد عروة كلما تناول لحية الرسول ﷺ، مع علمه عروة هو الذي دفع عنه قبل إسلامه ثلاث عشرة دية عن قتلى كان المغيرة قتلهم[١].

ورجع عروة بعد أن سمع من الرسول ﷺ مثل ما سمع الذين سبقوه من أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء معظما البيت مؤدّيا فرض ربه.

فلما كان عند قريش قال لهم: «يا معشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشيّ في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه. لا يتوضّأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وأنهم لن يسلموه لشيء أبدا، فروا رأيكم»[٢].

(١) الواقدي: المغازي، (٢/٥٩٨).
(٢) مسند أحمد، (٤/٣٢٤)، رقم (٣٦)، وهناك تخريجه والكلام عليه.

سفارة الحُليس بن علقمة:

ثم بعثوا الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه وأمر برفع الصوت في التلبية، فلما رأى الحليس الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، رجع إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ؛ وذلك إعظاما لما رأى[١].

فقد كان الوادي مجدبًا لا ماء فيه ولا مرعى، وقد أكل الهدي أوباره من طول الحبس عن محلّه، ورأى المسلمين وقد استقبلوه رافعين أصواتهم بالتلبية وهم في زي الإحرام، وقد شعثوا من طول المكوث على إحرامهم.

ولذلك استنكر تصرف قريش بشدة، وانصرف سيد بني كنانة عائدًا من حيث أتى دون أن يفاتح النبي ﷺ بشيء، أو أن يفاوضه كما كان مقررًا من قبل، واعتبر عمل قريش عدوانيًا ضد زوار بيت الله الحرام، ولا يجوز لأحد أن يؤيدها أو أن يناصرها على ذلك[٢].

فرجع محتجًا على قريش التي أعلنت غضبها لصراحة الحليس، وحاولت أن تتلافى هذا الموقف الذي يهدد بانقسام خطير في جبهة قريش العسكرية، ونسف الحلف المعقود بين قريش والأحابيش، وقالوا لزعيم الأحابيش: إنما كل ما رأيت هو مكيدة من محمد وأصحابه، فاكفف عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[٣].

لقد كان النبي ﷺ عالمًا ومستوعبًا لشخصية الحليس ونفسيته، ويظهر ذلك في قوله ﷺ: هذا من قوم يتألهون. فالواضح من هذه المعلومة أن النبي ﷺ كان على معرفة تامة بهذا الرجل، وبحكم هذه المعرفة قد درس شخصيته دراسة

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص٤٨٨).
(٢) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية، (ص١٠٨).
(٣) الواقدي، المغازي، (٢/٦٠٠).

www.almoslih.net

موضوعية وذلك بما كان عنده من حب شديد من التعظيم للحرمات والمقدسات، والعمل على الاستفادة الكاملة من هذا الجانب في كسب المعركة.

وعلى هذا الأساس فقد قام ﷺ بوضع خطة محكمة مناسبة تقضي بوضع الحقائق كاملة أمام هذا الرجل، وإظهار موقف المسلمين، أو على الأقل وقوفه على الحياد في هذا الصراع [(١)].

والجدير بالذكر أن الحليس كان يتمتع بسمعة طيبة بين العرب جميعًا؛ وذلك لما يتميز به من رجاحة العقل، ولما يتمتع به من مركز ممتاز بوصفه زعيمًا وقائدًا لقوات الأحابيش، كما كان يتمتع باحترام وتقدير من جانب النبي ﷺ وقريش على حد سواء.

لهذا فإنه إذا ما تبين له أن الحق والعدل في جانب المسلمين فإنه يستطيع أن يقوم بدور مُهِمٍّ في إحلال السلام بين الطرفين المتنازعين، والعمل على كبح جماح قريش، وإقناعها بالعدول عن موقفها العدائي ضد المسلمين، وصدِّهم عن المسجد الحرام.

ومن هنا فقد كانت الدراسة النفسية التي قام بها رسول الله ﷺ لشخصية الحليس تتناسب كليًا مع المبادئ التي يؤمن بها، وعلى ذلك فقد كانت درجة التأثير والاستجابة الناتجة عن هذه العملية إيجابية تمامًا[(٢)] ومرضية.

وهكذا استطاع ﷺ أن يؤثر على عروة بن مسعود والحليس بن علقمة؛ مما جعل الانشقاق يدب في صفوف مشركي مكة.

يقول الأستاذ العقاد عن قدرة الرسول ﷺ في توظيف الطاقات وإدارة الصراع: "كان رسول الله ﷺ الخبيرَ بتجنيد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع، وكان خبيرًا كذلك بتجنيد كل قوة في يده متى وجب القتال، إن كانت قوة رأي أو قوة لسان

---

(١) الصلابي: السيرة، (٢/٢٤٦).

(٢) سليم حجازي: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية، (ص١٤٥)، دار المنارة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

أو قوة نفوذ، فما نعرف أن أحدًا وجه قوة الدعوة توجيهًا أشد ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه عليه السلام.

ثم يضيف الكاتب قائلا: والدعوة في الحرب، كما لا يخفى، لها غرضان أصيلان من بين أغراضها العديدة.

أحدهما: إقناع خصمك والناس بحقك.

وثانيهما: إضعافه عن قتالك بإضعاف عزمه وإيقاع الشتات بين صفوفه.

ثم يقول: وربما بلغ النبي ﷺ برجل واحد في هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة"[(١)].

سفارة مكرز بن حفص:

وكان من سفراء قريش يوم الحديبية مكرز بن حفص، وقد روى البخاري ذلك فقال: فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال النبي ﷺ: هذا مكرز وهو رجل فاجر، فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة، أنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي ﷺ: "لقد سهل لكم من أمركم"[(٢)].

سفارة الرسول ﷺ الى قريش:

وطالت المحادثات على النحو الذي قدّمنا. ففكر الرسول ﷺ في أن يرسل إلى قريش فربما لم يكن لدى رسلها من الإقدام ما يقنعون به قريشا بالرأي الذي يرى، فبعث من جانبه رسولا يبلغهم رأيه. لكنهم عقروا جمل هذا الرسول، وأرادوا قتله لولا أن منعته الأحابيش فخلّوا سبيله.

---

(١) العقاد: عبقرية محمد ﷺ، (ص٤٩).

(٢) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، (٣/٢٣٩)، رقم (٢٧٣٢).

وقد دلّ أهل مكة بتصرّفهم هذا على ما يسودهم من روح الخصومة والبغضاء، مما قلق له صبر المسلمين، حتى لقد فكر بعضهم في القتال.

وفيما هم كذلك يتبادلون الرسل يحاولون أن يصلوا إلى اتفاق، كان بعض السفهاء من قريش يخرجون ليلا يرمون عسكر النبيّ بالحجارة؛ حتى خرج منهم أربعون أو خمسون رجلا يوما ليصيبوا من أصحاب النبي، فأُخذوا أخذا وجيء بهم إليه.

أفتدري ماذا صنع؟ عفا عنهم وخلّى سبيلهم تشبثا منه بخطّة السلم، واحتراما للشهر الحرام أن يُسفكَ فيه دمٌ في الحديبية وهي من حرم مكة.

وبهتت قريش حين عرفوا هذا، وسقطت كل حجة لهم يريدون أن يزعموا بها أن الرسول ﷺ يريد حربا[(١)]، وأيقنوا أن كل اعتداء من جانبهم على الرسول ﷺ لن تنظر إليه العرب إلا على أنه غدر دنيء، للرسول ﷺ الحقّ في أن يدفعه بكل ما أوتي من قوة.

سفارة عثمان بن عفان:

ثم إنه ﷺ حاول أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى، بإرسال رسول يفاوضهم؛ فدعا إليه عمر بن الخطاب كي يبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له.

قال عمر: "يا رسول الله: إني لا آمنهم، وليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوذيت، فأرسل إلى عثمان بن عفان فإن عشيرته[(٢)] بها وأنه مبلغ لك ما أردت"[(٣)].

---

(١) الواقدي، المغازي، (٢/٣٦).
(٢) عشيرة الرجل: بنو أبيه الأدنون أو قبيلته.
(٣) البيهقي: دلائل النبوة، (٢/ ٢٢٧ - ٢٢٨).

فدعا النبي عثمان وبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش. فخرج عثمان في رسالته، فلقيه لأوّل ما دخل مكة أبان بن سعيد فأجاره الزمنَ الذي يفرغ فيه من رسالته. وانطلق عثمان إلى سادة قريش فأبلغهم رسالته.

قالوا: يا عثمان، إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ. قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله، إنما جئنا لنزور البيت العتيق، ولنعظم حرمته، ولنؤدي فرض العبادة عنده. وقد جئنا بالهدي معنا، فإذا نحرناها رجعنا بسلام.

وأجابت قريش بأنها أقسمت لن يدخل الرسول ﷺ مكة هذا العام عنوة[(١)].

وطال الحديث وطال احتباس عثمان عن المسلمين، وترامى إليهم أن قريشا قتلته غيلة وغدرا.

ولعل سادة قريش كانوا في هذه الأثناء يبحثون مع عثمان عن صيغة توفقّ بين قسمهم ألا يدخل الرسول ﷺ هذا العام مكة عنوة، وبين حرص المسلمين على أن يطوفوا بالبيت العتيق ويؤدّوا إلى رب البيت فرضه[(٢)].

ولعلهم قد أَنِسُوا إلى عثمان وكانوا في هذه الأثناء يبحثون وإيّاه عن تنظيم علاقاتهم بالرسول ﷺ وتنظيم علاقات الرسول ﷺ بهم.

بيعة الرضوان:

مهما يكن من الأمر فقد قلق المسلمون بالحديبية على عثمان أشدّ القلق، وتمثّل أمامهم غدر قريش، وقتلُهم إيّاه في هذا الشهر الذي لا تجيز فيه أديان العرب جميعا لعدوّ أن يقتل في حرم الكعبة ولا في حرم مكة عدوّه.

وتمثل أمامهم غدر قريش برجل ذهب إليهم في رسالةِ سلْمٍ وموادعة، ووضع كلّ منهم يده على قبضة سيفه؛ سمة النذير وسمة البطش والغضب.

---

(١) زاد المعاد، (٣/٢٩٠)، ابن هشام: السيرة النبوية، (٣/٣٤٤).
(٢) هيكل: حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، (ص٢٣٧).

ودخل في روع النبي عليه السلام أن قريشا قتلت عثمان، فغدرت في الشهر الحرام فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»[(١)].

ودعا أصحابه إليه وقد وقف تحت شجرة في هذا الوادي فبايعوه جميعا على ألا يفرّوا حتى الموت. بايعوه وكلُّهم ثابت الإيمان، قويّ العزيمة. ممتلئ حماسة للانتقام ممّن غدرَ وقتلَ.

بايعوه بيعة الرضوان التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

فلمّا أتمّ المسلمون البيعة ضرب عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى بيعة لعثمان، كأنه حاضر معهم بيعةَ الرضوان.

وبهذه البيعة اهتزت السيوف في أغمادها، وتبدّى للمسلمين جميعا أن الحرب آتية لا ريب فيها، وجعل كلّ ينتظر يوم الظفر أو يوم الاستشهاد بنفس راضية وفؤاد مرتاح وقلب مطمئن.

وإنهم لكذلك إذ ترامى إليهم أن عثمان لم يقتل، ثم لم يطل بهم الأمر حتى جاء عثمان نفسه إليهم.

على أن بيعة الرضوان هذه بقيت مع ذلك، كبيعة العقبة الكبرى، علما في تاريخ المسلمين، كان الرسول ﷺ يستريح إلى ذكره، لما كشف عنه من متانة الروابط بينه وبين أصحابه، ولما دل عليه من مبلغ إقدامهم على خوض مخاطر الموت لا يخافون، ومن أقدَمَ على مخاطر الموت خافه الموتُ، وعنت له جبهةُ الحياة، وكان من الفائزين.

(١) ابن هشام: السيرة، (٣/٣١٥).

رسالة قريش إلى الرسول ﷺ:

عاد عثمان بن عفان فأبلغ الرسول ﷺ ما قالت قريش. فهم لم تبق عندهم ريبة في أنه وأصحابه إنما جاءوا حاجّين معظّمين للبيت. وهم يقدّرون أنهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحج والعمرة في الأشهر الحرم.

وهم مع ذلك قد خرجوا من قبل تحت راية خالد بن الوليد لقتاله وصدّه عن دخول مكة، وقد وقعت بين بعض رجالهم وبعض رجاله مناوشات. فإذا هم بعد الذي حدث تركوه يدخل مكة تحدّثت العرب بأنهم انهزموا أمامه، فتضعضعت في نظر العرب مكانتهم وسقطت هيبتهم.

لذلك هم يصرّون على موقفهم منه هذا العام إبقاء على هذه الهيبة، واستبقاءً لتلك المكانة. فليفكر وإيّاهم، وهذا موقفه وموقفهم، لعلهم جميعا يجدون من هذا الموقف مخرجا، وإلّا فليس إلا الحرب يدخلونها طوعا أو كرها.

بل إنهم لها لكارهون في هذه الأشهر، تقديرا لحرمتها الدينية من ناحية، ولأنها من ناحية أخرى، إذا لم تحترم اليوم حرمتها ووقعت الحرب فيها، لم يأمن العرب في مستقبل أيّامهم أن يجيئوا إلى مكة وأسواقها مخافة انتهاك الأشهر الحرم مرّة أخرى، فيجني ذلك على تجارة مكة وعلى أرزاق أهلها[(١)].

المفاوضات بين الفريقين:

واتصل الحديث وعادت المفاوضات بين الفريقين كَرّة أخرى. وأوفدت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له: ائت الرسول ﷺ فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنّا عامه هذا. فو الله لا تحدّث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا.

فلمّا انتهى سهيل إلى الرسول جرت محادثات طويلة للصلح وشروطه، كانت تنقطع في بعض الأحيان، ثم يعيد اتصالها حرص الجانبين على النجاح.

(١) مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص٤٨٦).

www.almoslih.net

وكان المسلمون من حول النبيّ يسمعون أمر هذه المحادثات ويضيق بعضهم بأمرها صدرا، لتشدّد سهيل في مسائل يتساهل النبي ﷺ في قبولها. ولولا ثقة المسلمين المطلقة بنبيّهم، ولولا إيمانُهم به، لما ارتضوا ما تمّ الاتفاق عليه، ولقاتلوا ليدخلوا مكة أو لتكون الأخرى.

فقد ذهب عمر بن الخطّاب في أعقاب المحادثات إلى أبي بكر ودار بينهما الحديث الآتي:

عمر: أبا بكر، أليس برسول الله؟!

أبو بكر: بلى؟!

عمر: أولسنا بالمسلمين؟!

أبو بكر: بلى!

عمر: فعَلامَ نعطي الدّنيّة في ديننا؟!

أبو بكر: يا عمر الزم غرزك [(١)] فإني أشهد أنه رسول الله!

عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله!

وانقلب عمر بعد ذلك إلى الرسول ﷺ وتحدّث وإيّاه بمثل هذا الحديث وهو مغيظ محنق. لكن لم يغيّر من صبر النبيّ ولا من عزمه؛ وكلّ الذي قاله في ختام الحديث لعمر: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيّعني»[(٢)].

ثم كان بعد ذلك من صبر الرسول ﷺ حين كتابة العهد ما زاد في حفيظة بعض المسلمين، «فقد دعا عليَّ بن أبي طالب وقال له: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: أمسك، لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللّهم. قال رسول الله: اكتب باسمك اللّهم.

(١) الغرز: الرحل.

(٢) مسند أحمد، (٤/٣٢٥)، برقم (٣٦).

ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه رسولُ الله سهيلَ بن عمرو. فقال سهيل: أمسك، لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلْك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. قال رسول الله: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله»[(١)].

وتم عقد هذه المعاهدة وكانت صياغتها من ثمانية بنود جاءت على الشكل التالي:

١ وضع الحرب على الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٢ على أنه من قدِم مكة من أصحاب محمد حاجًّا أو معتمرًا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازًا إلى مصر أو إلى الشام، يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله.

٣ على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردّوه عليه.

٤ وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال[(٢)].

٥ وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه "فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم".

(١) الواقدي: المغازي، (٢/٦١٠).

(٢) العيبة هنا مثل: والمعنى أن بيننا صدورًا سليمة في المحافظة على العهد الذي عقدناه بيننا، وقد يشبه صدر الإنسان الذي هو مستودع سره، وقوله: لا أسلال ولا أغلال: تعني الأسلال من السلة وهي السرقة، والأغلال أي الخيانة والمعنى العام: أن بعضنا يأمن بعضًا في نفسه وماله فلا يتعرض لدمه ولا لماله.

❻ وأنت ترجع عنا عامَك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا تدخلها بغيرها.

❼ وعلى أن هذا الهدي ما جئناه ومحله فلا تقدمه علينا.

ولعلنا نستخلص من الحوارات التي جرت في ذلك الصلح بعض النتائج حول آداب الدعوة والحوار، منها:

❶ أن الحوار النبوي لم يقتصر على رسل قريش للمصالحة، بل تعداه إلى كبار الصحابة الذين اعترض بعضهم صراحة ـ ولكن في أدب جمّ ـ على شروط الصلح المجحفة، وكذلك حوار أبي جندل بن سهيل بن عمرو الذي وقع المسلمون بسببه في همٍّ وغمّ!

والنبي ﷺ في ذلك كلّه يستعمل الحكمة، وينظر بتوفيق الله إلى المستقبل نظرة بعيدة تتجاوز مفردات الواقعة والأحداثَ الجارية.

❷ أن النبي ﷺ حرص على إظهار دعوته في كلِّ المواقف، وإظهار السبب السلمي لمجيئه إلى مكة، وظهرت حكمته ﷺ في معاملة كل رسول من قريش بما يليق به، مما كان له أكبر الأثر في تفهّم أولئك الرسل لموقف المسلمين، بل الميل إليه أحيانًا.

❸ أظهر النبي ﷺ خطته منذ البداية، فذكر أنه لم يأت لحرب أَحَدٍ، بل جاء للعمرة وزيارةِ البيت «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ» وهو يعلم حقيقة قريش، وما آل إليه أمرُها من الضعف والتفكّك بعد عدة هزائم وحروب لم تُحقق لها نتائج تذكر.

ومع هذا العرض السلمي يلوّح النبي ﷺ بالقوة المساندة للحوار «وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي وَلَيُنْفِذَنَّ الله أَمْرَهُ».

وحين أصرت قريش على صد المسلمين عن البيت واحتجزت عثمان بن عفان رضي الله عنه حين أرسله إليهم النبي ﷺ.. استعد المسلمون للقتال وكانت بيعةُ الرضوان التي خلّدها الله تعالى في القرآن: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وحين رأت قريش ذلك لانَ موقفُها، واستعدّت للمفاوضات، وهذا تأكيد لما ذكرناه مرارًا في هذه الدراسة من أن الحوار لا بد له من قوة تحميه، وتحلّ محلَّه إذا لزم الأمر(١).

❹ أن قريشًا لم تكن كذلك تريد الحرب، ولم تكن مستعدة لها، ولكنها كانت تريد الحفاظ على شيء من كرامتها المعنوية ومكانتها بين العرب، كما قال سهيل بن عمرو: «وَاللهِ لا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ» يعني العمرة.

❺ أظهرت ملابسات الحوار المكانة الفريدة لأبي بكر رضي الله عنه بين صحابة رسول الله ﷺ، فهو لم يعترض على شيء من شروط الصلح (٢) بل واجه عمرَ بالتسليم الكامل لأمر النبي ﷺ.

وأبو بكر المعروف باللين والرفق، حين يحتاج الأمر إلى الشدة نجده أشدَّ الصحابة في الحق، ظهر ذلك من موقفه من حركة الردة، بعد موت النبي ﷺ، وظهر قبل ذلك في حواره مع عروة بن مسعود في هذا الموقف، حين سخر منه بهذا الأسلوب اللاذع!

وهذا يعلّمنا من أدب الحوار أن المحاور إذا تجاوز الحدَّ وجَبَ صدُّه وإن خرج ذلك عن الحد المراعى في الحوار، حتى يعودَ إلى رشدِه، والدليل على صحة موقف أبي بكر وكلامه أن النبي ﷺ لم يلمْه على ما قال لعروة!

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (٢/٨٧٢).
(٢) المرجع نفسه: (٢/٨٧٣).

www.almoslih.net

❻ أن النبي ﷺ قبل من صحابته ـ وبخاصة عمر ـ مراجعتَه في أمر الصلح مرارًا، ولم يعنّف أحدًا منهم على موقفه، ويدل ذلك على سعة رحمته وحلمه ﷺ، فهو النبي الموحى إليه المؤيد من الله، ومع ذلك يتسع حلمه لأولئك المعارضين لشروط الصلح التي ظاهرها غبنُ المسلمين، ولكنه ﷺ كان يذكّر أولئك بأسلوب رقيق بأنه رسول الله، ولن يخزيَه الله أبدًا..[(١)].

❼ أن عقل عروة بن مسعود الراجح، وحواره مع النبي ﷺ، ورؤيته للصحابة يطيعون أمر النبي ﷺ، ويوقرونه كما ذكر لقريش.. كل ذلك دفعه إلى الإسلام بعد ذلك فأسلم ﷺ.

ولا شك أن ذلك الموقف مع النبي ﷺ قد وَقَرَ في نفسه حتى أسلمه إلى الإسلام، ثم عاد إلى قومه بالطائف يدعوهم إلى الله، فقتلوه ثم تابوا وأسلموا![(٢)].

❽ أن كل ما فعله النبي ﷺ في ذلك الصلح كان بتوفيق الله وهدايته، ومع ذلك سمح للتفاعلات البشرية أن تتداخل لتكون القدوةُ الحسنة والتعلّم المباشر، وتلاقحُ الآراء، وهذا منهج يجب على المسلمين التأسّي به، منهج التحاور والتشاور، خاصة عند الاختلاف.

❾ أن صلح الحديبية كان فتحًا مبينًا للإسلام والمسلمين، رغم شروط الصلح التي كان ظاهرها ضد المسلمين، وفي طريق العودة من الحرب نزلت سورة الفتح.

كما قال ابن كثير: «نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة، من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، ليقضي عمرته فيه وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا

(١) المرجع السابق: (٢/٨٧٣).
(٢) انظر: الطبري: تاريخ الرسل، (٣/٩٦- ٩٧).

إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامَه هذا، ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكرّه من جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب»[(١)].

❿ أن الحوار مع غير المسلم جائز لتحقيق مصلحة المسلمين، وحقن الدماء، وحفظ الأموال، وأن المشركين والظالمين وأهلَ الأهواء إذا عظّموا أمر الله تعالى في شيء وجب إعانتهم فيما ظاهره الخير لعلهم يهتدون إلى الحق.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله من فوائد صلح الحديبية: «أن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمرًا يعظّمون فيه حرمةً من حرمات الله تعالى أجيبوا إليه وأُعطوه وأُعِينوا عليه، وإن منعوا غيره.

فيعاونون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويُمنعون مما سوى ذلك.. وهذا من أدق المواضع وأصعبها وأشقها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق»[(٢)].

وما كاد هذا العهد يوقّع حتى حالفت خزاعة الرسول ﷺ، وحالفت بنو بكر قريشا.

وما كاد هذا العهد يوقع حتى أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو على المسلمين، يريد أن ينضمّ إليهم ويسيرَ معهم، فلما رأى سهيل ابنه ضرب وجهه، وأخذ بتلابيبه، وجعل يجرّه ليردّه إلى قريش، وأبو جندل يصيح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أأردّ إلى المشركين يفتنونني في ديني! وزاد ذلك في قلق المسلمين، وعدم رضاهم عن العهد الذي عقده الرسول مع سهيل.

لكن الرسول ﷺ وجه إلى أبي جندل قوله: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا. إنا قد عقدنا بيننا وبين

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (٤/٢٣١).
(٢) ابن القيم: زاد المعاد، (٣/٢٦٧)، ط١٤، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م.

القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطَونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم»[١]. وعاد أبو جندل إلى قريش نفاذا لعهدِ النبي ووعدِه، وقام سهيل راجعا إلى مكة.

وفي هذه الكلمات النبوية المشرقة العظيمة دلالة ليس فوقها دلالة على مقدار حرص رسول الله ﷺ وتمسّكه بفضيلة الوفاء بالعهد، مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يبدو للناس[٢].

لقد كان درس أبي جندل امتحانًا قاسيًا ورهيبًا لهذا الوفاء بالعهد، أثبت فيه الرسول ﷺ والمسلمون نجاحًا عظيمًا في كبت عواطفهم وحبس مشاعرهم، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل، وتأثروا من ذلك المشهد عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه، والدماء تنزف منه، مما زاد في إيلامهم.

حتى إن الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة، إشفاقًا منهم على أخيهم في العقيدة، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك، وهو يسحبه بفظاظة الوثني الجلف، ليعود به مرة أخرى إلى سجنه الرهيب في مكة[٣].

وأقام الرسول ﷺ مضطربا مما رأى من شأن مَن حولَه، ثم صلى واطمأن وقال: "قوموا فانحروا ثم احلقوا" حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل ﷺ على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا[٤]، وقد حلق رجال، وقصّر آخرون.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (٣/٣٤٧).
(٢) صادق عرجون: محمد رسول الله، (٤/٢٧٥).
(٣) الصلابي: السيرة، (٢/٢٥٦).
(٤) البخاري، كتاب الشروط، (٣/٢٤٠)، رقم(٢٧٣٢).

قال الرسول ﷺ: «يرحم الله المحلقين». فَتَنادى الناس في قلق: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلّقين» فتنادى الناس في قلق: والمقصرين يا رسول الله؟ قال بعضهم: «والمقصرين». قال بعضهم: فلم ظاهرت يا رسول الله الترحم للمحلّقين دون المقصرين؟ فكان جوابه: لأنهم لم يشكوا [١].

وكان في هدي النبي ﷺ في الحديبية جَمَلٌ لأبي جهل في رأسه برة [٢] من فضة، يُغيظ بذلك المشركين [٣].

لم يبق للمسلمين إلا أن يرجعوا إلى المدينة في انتظار أن يعودوا إلى مكة العامَ المقبل. وقد كان أكثرهم يحتمل هذه الفكرة على مضض، ولا يهوّنها على نفسه إلا أنها أمرُ الرسول ﷺ.

فهم ليس لهم عادة بهزيمة، ولا تسليم من غير قتال، وهم في إيمانهم بنصر الله رسوله ودينه لم تخالجهم ريبة في اقتحام مكة لو أنّ الرسول ﷺ أمر باقتحامها.

وأقاموا بالحديبية أيّاما، منهم من يتساءل في حكمة هذا العهد عقد النبي، ومنهم من تحدثه نفسه بالشك في حكمته، ثم تحملوا وقفلوا راجعين.

وإنهم لفي طريقهم بين مكة والمدينة إذ نزل الوحي على النبيّ ﷺ بسورة الفتح. فتلا النبيّ على أصحابه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ إلى آخر السورة [سورة الفتح].

لم يبق إذن ريب في أن عهد الحديبية فتح مبين. وهو قد كان كذلك. وقد أثبتت الأيام أن هذا العهد حكمة سياسية وبعدُ نظرٍ كان لهما أكبرُ الأثر في مستقبل الإسلام، وفي مستقبل العرب كلِّه.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (٣/٣٤٨).
(٢) حلقة تجعل في أنف البعير ليذل ويرتاض.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، (٣/٣٤٩).

www.almoslih.net

- فقد كانت هذه أول مرة اعترفت قريش فيها بالرسول ﷺ، لا على أنه ثائر بها خارج عليها، ولكن على أنه ندّها وعدلها.
- اعترفت بذلك بالدولة الإسلامية وقيامها، فالمعاهدة دائمًا لا تكون إلا بين ندّين، وكان لهذا الاعتراف أثرُه في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي، حيث كانوا يرون أنها الإمام والقدوة.
- أقرت قريش للمسلمين بحق زيارة البيت، وإقامة شعائر الحج، وذلك اعتراف منها بأن الإسلام دين مقدَّر معترَفٌ به من أديان شبه الجزيرة.
- إن هدنة السنتين، أو السنوات العشر بين المسلمين وكفار قريش، قد جعلت المسلمين يطمئنون من ناحية الجنوب، ولا يخشون غارة قريش، ومهدت للإسلام أن يزداد انتشارا.

يقول الإمام الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظمَ منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأَمِن الناسُ بعضُهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»[(١)].

- مفاوضات الصلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين ويميلون إليه.

فهذا الحليس بن علقمة عندما رأى المسلمين يلبّون رجع إلى أصحابه، قال: لقد رأيت البُدْنَ قد قُلّدت وأُشعِرت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت.

- مكن صلحُ الحديبية النبيَّ ﷺ من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوة جديدة لنقل الدعوة الإسلامية بأسلوب آخر خارجَ الجزيرة العربية.
- ساعد صلح الحديبية النبي ﷺ على إرسال رسائلَ إلى ملوك الفرس والروم والقبط، يدعوهم إلى الإسلام.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، (٣/٣٥١).

- كان صلح الحديبية سببًا ومقدمة لفتح مكة: يقول ابن القيم: كانت الهدنة مقدمة بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعز الله به رسولَه وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنة بابًا له ومفتاحًا ومؤذنًا بين يديه، وهذه عادة الله في الأمور العظام التي يقضيها قدرًا وشرعًا أن يوطئ لها بين يديها بمقدمات وتوطئات تؤذن لها وتدل عليها[(١)].

أفليست قريش ألدّ أعدائه وأشد محاربيه قد انتهت بالإذعان لما لم تكن تذعن له من قبل قطّ! وقد انتشر الإسلام بالفعل بعد هذه الهدنة انتشارا أسرع أضعافا من انتشاره من قبل.

كان الذين جاءوا إلى الحديبية ألفا وأربعمائة؛ فلما كان بعد عامين اثنين وجاء الرسول ﷺ لفتح مكة جاء في عشرة آلاف.

وأشدّ ما اعترض عليه من ساورتهم الشكوك في حكمة عهد الحديبية ما نص عليه العهد من أن من أتى الرسول ﷺ من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا من المسلمين لم ترده على الرسول ﷺ.

وكان رأي الرسول ﷺ في هذا أن من ارتد عن الإسلام ولجأ إلى قريش لم يكن جديرا بأن يعود إلى جماعة المسلمين، وأن من أسلم وحاول اللحاق بالرسول ﷺ فسيجعل الله له مخرجا.

وقد صدّقت الحادثات رأي الرسول ﷺ في ذلك بأسرع ما كان يظن أصحابه، ودلت على أن الإسلام كسب من صلح الحديبية أعظم الكسب، ومهد لما جاء بعد ذلك بشهرين اثنين من بدء الرسول ﷺ مخاطبة الملوك ورؤساء الدول الأجنبية يدعوهم إلى الإسلام.

(١) انظر: زاد المعاد، (٣/٣٠٩).

أبو بصير في المدينة وقيادته لحرب العصابات:

صدّقت الحادثات رأي الرسول ﷺ بأسرع مما كان يظن أصحابه.فقد وفد أبو بصير من مكة إلى المدينة مسلما ينطبق عليه العهد بردّه إلى قريش لأنه خرج بغير رأي مولاه. فكتب أزهر بن عوف والأخنس بن شريق إلى النبيّ كي يردّه، وبعثا بكتابهما مع رجل من بني عامر ومعه مولى لهم.

قال النبيّ: «يا أبا بصير: إنّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، فانطلق إلى قومك».

قال أبو بصير: يا رسول الله، أتردّني إلى المشركين يفتنونني في ديني! فكرّر عليه النبي قوله، فانطلق مع الرجلين، حتى إذا كان بذي الحليفة سأل أخا بني عامر أن يريه سيفه؛ وما إن استوت قبضته في يده حتى علا به العامري فقتله، فخرج المولى يعدو ناحية المدينة حتى أتى النبي، فلما رآه قال: إنّ هذا رجل قد رأى فزعا.

ثم قال للرجل: ويحك! مالك؟ قال: قتل صاحبك صاحبي. ثم ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحا السيف موجها الحديث إلى الرسول ﷺ وهو يقول: يا رسول الله، وفت ذمّتك وأدى الله عنك. أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يعبث بي[1]، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد»[2] فلم يخف الرسول إعجابه وتمنّيه لو كان معه رجال.

ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص على ساحل البحر في طريق قريش إلى الشام، وكان عهد الرسول ﷺ وقريش أن تترك هذه الطريق للتجارة لا يقطعها هو ولا تقطعها قريش.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، لابن هشام، (٣/٣٥٣).

(٢) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، (٣/٢٤١)، رقم (٤٧٣٢).

فلما ذهب أبو بصير إليها وسمع المسلمون المقيمون بمكة بأمره وبما كان من إعجاب الرسول به فر منهم نحو سبعين رجلا اتخذوه لهم إماما وجعلوا وإياه يقطعون على قريش طريقها، وكانوا لا يظفرون بأحد إلا قتلوه، ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها.

هنالك رأت قريش أنها أكبر خسارة على هؤلاء المسلمين أن يظلّوا بمكة وقدّرت أن الرجل الصادق الإيمان، محاولة حبسه شرّ من إطلاق سراحه، فهو لا بدّ منتهز فرصة الفرار، مقيم على الذين حاولوا حبسه حربا عوانا هم فيها الأخسرون[1].

وكأنما ذكرت قريش الرسول ﷺ حين هاجر إلى المدينة وقطع عليهم طريق القوافل، وخشيت أن يكرر أبو بصير هذا الصنيع فبعثت إلى النبي تسأله بأرحامها إلّا آوى هؤلاء المسلمين حتى يتركوا الطريق آمنا.

ونزلت قريش بذلك عما أصر عليه سهيل بن عمرو من ردّ المسلمين من قريش إلى مكة إذا ذهبوا إلى الرسول ﷺ بغير رأي مواليهم. وسقط بذلك الشرط الذي أحفظ عمر بن الخطاب والذي كان سببا في ثورته التي ثار على أبي بكر. وآوى الرسول ﷺ أصحابه وعاد طريق الشام آمنا.

المهاجرات المسلمات:

أمّا المهاجرات من قريش إلى المدينة فكان للرسول ﷺ فيهن رأي آخر. خرجت أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط من بعد الهدنة، فخرج أخواها عمارة والوليد يطلبان إلى رسول الله أن يردّها عليهما بحكم عهد الحديبية.

لكن النبيّ أبى ورأى أن هذا العهد لا ينسحب على النساء حكمه، وأن النساء إذا استجرن وجبت إجارتهن. ثم إن المرأة إذا أسلمت لم تصبح حلّا لزوجها المشرك فوجب التفريق بينه وبينها.

(١) صادق عرجون: محمد رسول الله، (٤/٢٨١).

وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الممتحنة: ١٠].

قال الأستاذ محمد الغزالي: "وقد أبى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردوا النسوة المهاجرات بدينهن إلى أوليائهن، إما لأنهم فهموا أن المعاهدة خاصة بالرجال فحسب، أو لأنهم خشوا على النساء اللاتي أسلمن، أن يضعفن أمام التعذيب والإهانة، وهن لا يستطعن ضربًا في الأرض، وردًا للكيد كما فعل أبو جندل وأبو بصير وأضرابهما، وأيا كان الأمر فإن احتجاز من أسلم من النساء تم بتعليم القرآن"[1].

وكذلك صدّقت الحادثات حكمة الرسول ﷺ وبُعدَ نظره ودقّة سياسته، وأثبتت أنه يوم عقد عهد الحديبية وضع حجرا لا ينقض في سياسة الإسلام وانتشاره، وهذا هو الفتح المبين.

ما صنع الرسول ﷺ:

اطمأنّت العلاقات بعهد الحديبية بين قريش والرسول ﷺ أعظم الطمأنينة، وأمن كلّ جانب صاحبه. واتجهت قريش كلها إلى التوسع في تجارتها، لعلها تستعيد من طريقها ما فقد أيّام اتصال الحرب بين المسلمين وبينها، وحين سدّت عليها طريق الشام وأصبحت تجارتها معرّضة للضياع.

أمّا الرسول ﷺ فاتجه بفكره إلى متابعة إبلاغ رسالته جميعا في مشارق الأرض ومغاربها، ووجّه نظره إلى تمهيد أسباب النجاح لطمأنينة المسلمين في شبه الجزيرة. وهذا وذاك هو ما صنع بإرسال الرسل إلى الملوك في مختلف الدول، وبإجلاء اليهود عن شبه جزيرة العرب إجلاء تامّا بعد غزوة خيبر.

(١) محمد الغزالي: فقه السيرة، (ص٣٦٧).

فتح مبين

بعد أن تم هذا الصلح، وقد أقام رسول الله ﷺ بالحديبية بضعة عشر يوما على الراجح[1]، انصرف راجعا إلى المدينة. وفيما هو في الطريق بين مكة والمدينة أنزل الله تعالى عليه سورة الفتح كاملة[2].

ويقول فيها: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الفتح: ١ - ٤].

فأقبل الناس يسرعون حتى اجتمعوا إليه، ولكن ناسا من أصحابه ما زالوا لا يصدقون أنه فتح من الله.

روى البيهقي عن عروة قال: "وأقبل رسول الله من الحديبية راجعا فقال رجال من أصحاب رسول الله: ما هذا بفتح، لقد صددنا عن البيت، وصد هدينا، وعكف رسول الله بالحديبية، ورَدّ رسول الله رجلين من المسلمين خرجا.

فبلغ رسول الله قول رجال من أصحابه أن هذا ليس بفتح، فقال رسول الله: بئس الكلام هذا أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألونكم القضية، ويرغبون إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا،

(١) يرى بعض كتاب السير أنه ظل عشرين يوما. انظر: الواقدي: المغازي، (٦١٦/٢)، وابن سعد في الطبقات الكبرى، (٩٨/٢).
(٢) البيهقي: الدلائل، (١٥٩/٤).

www.almoslih.net

وقد أظفركم الله عز وجل عليهم وردكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتوح.

أنسيتم يوم أُحُد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا؟

قال المسلمون: صدق الله ورسوله، هو أعظم الفتوح، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله عز وجل وبالأمور منا»[(١)].

نعم إنه لفتح كبير، فقد أصبح المسلمون قوة مرهوبة الجانب، يطلب منها كفار مكة الصلح، وهذا هو الموضوع الرئيس، إن هذا الصلح اعتراف ضمني من قريش بقوة المسلمين، وبهذه الدولة الجديدة في المنطقة، حتى إنها لتقف منها الآن موقف النظير تجاه نظيره، وترسل إليها في أمر الصلح.

ولذا فقد كانت فرصة عظيمة، أحسن النبي ﷺ استغلالها ليفسح الطريق أمام دعوة الإسلام التي تغزو القلوب والعقول بعيدا عن مهاترات قريش وعداواتها، ولقد انتهزها رسول الله ﷺ، ولم يعبأ ببعض الشروط المجحفة التي سببت غضب الأصحاب، فيوشك أن يدركوا الحقيقة فيما بعد.

فضرب بذلك أروع الأمثلة في الإدارة االسياسية الناجحة، التي تقدِّر عواقب الأمور ومآلاتها.

يقول أبو بكر الصديق: «ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية، وكان الناس قصر رأيهم عما كان بين رسول الله ﷺ وبين ربه، والعباد يَعجَلون، والله تعالى لا يعجل لعجلة العبد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

(١) البيهقي: الدلائل، (١٦٠/٤)، وما بعدها.

لقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائما عند المنحر يقرّب لرسول الله ﷺ بدنه، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده، ودعا الحلاق يحلق رأسه، فأنظر إلى سهيل يلقط من شعره، وأراه يضعه على عينيه، وأذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فحمدت الله تعالى الذي هداه للإسلام»[(١)].

ومن أبرز ثمار هذا الصلح ما يأتي:

❶ أن ترك الحرب بين الفريقين عشر سنين من شأنه أن يأمن كل فريق جانب الآخر، ويتفرغ النبي ﷺ وأصحابه لما هو أهم من الحرب، ألا وهو عرض الإسلام على القبائل العربية، والتفرغ للدعوة إلى الله عز وجل، دون خوف من حلفاء قريش أن يقتلوا الدعاة، أو يؤلّبوا عليه شُذّاذ الأعراب، وهذا هو لب القضية وجوهرها، فقد كان رسول الله مأمورا بأن يفعل ما فعل.

ولقد اغتنم المسلمون هذه الفرصة، حيث روت كتب السير والتاريخ قول الزهري: فما فتح الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية... ولما كانت الهدنة،ووضعت الحرب، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضا، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكن أحد يعقل شيئا في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين[(٢)] مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك، وأكثر يعني من صناديد قريش» [(٣)].

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٦٤/٥).
(٢) تينك السنتين، أي اللتين بعد صلح الحديبية مباشرة، لأن قريشا لم تف بالعهد أكثر من سنتين، ومن ثم كان فتح مكة على ما سيأتي تفصيله.
(٣) فتح الباري، (٣٤٨/٥)، وانظر البيهقي: الدلائل، (١٥٩/٤)، وما بعدها.

لقد انفسح أمام المسلمين مجال العمل الدعوي وأصبح من الممكن لهم أن يتصلوا بالقبائل العربية في منازلها، ونشر الإسلام في بلاد العرب، دون عمل حساب لترصدات قريش وحلفائها.

وقد فعل المسلمون ذلك بجدية بالغة، فلم يمض على هذا الصلح سوى عامين حتى دخل النبي ﷺ مكة في عشرة آلاف مقاتل، وكان جيشه يوم الحديبية لا يزيد على ألف وستمائة على أقصى تقدير للروايات.

فلقد كانت قريش هي العقبةَ الكؤود في طريق دخول كثير من القبائل العربية في الإسلام، بل إن عداوتها لهذا الدين لهي أصل البلاء ومنبعُ الشر.

فلقد كان العرب يسيرون خلفها، ويقولون هم أهل الرجل وأدرى به منا، وليتها إذ اتخذت منه ذلك الموقف قصرته على نفسها فقط، بل إنها ضمت معها الأحلاف من القبائل العربية، ومن اليهود، فلما أُبرم هذا الصلح بينها وبين المسلمين خمدت هذه العداوة إلى حين، وخمد معها كثير من الضرر الناجم عن حلفائها.

❷ أن النبي ﷺ تفرغ لنشر الإسلام في الممالك والأقطار البعيدة، فكاتبَ الملوك، والأمراء من العرب والعجم يدعوهم إلى الإسلام، فبلغ خبر نبوته الآفاق، ووصلت كتبه إلى كسرى وقيصر، على ما سيأتي تفصيله.

❸ أن النبي ﷺ بعدما أمن جانب قريش، أخذ يوجه كل اهتمامه بعدوه البعيد الذي لا يزال يعد العدة لحرب المدينة، ألا وهم يهود خيبر، فما زالوا يحنّون إلى العودة إلى المدينة، ويحاولون بكل وسائلهم الماكرة، ليزيحوا قوة الإسلام عنها، وكانت قريش هي حليفهم الأكبر.

وبهذا الصلح أصبحوا وحدهم في مواجهة النبي ﷺ، وأصبحت الفرصة سانحة للمسلمين للقضاء على هذا العدو الغادر الذي يكيد للإسلام وأهله.

❹ اعتراف قريش بحق المسلمين في زيارة البيت، وتطبيقه عمليا في العام القادم دون قتال، وكان ذلك نصرا كبيرا للمسلمين في المدينة.

ومن ناحية أخرى نصرا وبركة للمسلمين المستضعفين في مكة، الذين لا يعرفهم أحد من المسلمين لإسرارهم الإسلام خوفا من قومهم، لأنهم لا يجدون السبيل إلى الفرار بدينهم، ولو نشب القتال بين الفريقين لاضطر هؤلاء للخروج مع المشركين ولقتل المؤمنون إخوتهم وهم لا يعلمون بأمرهم.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٤-٢٦].

❺ كان الشرط الذي غضب منه المسلمون مفتاح الفرج للمستضعفين، ونكدا على المشركين، حتى سعوا هم في إبطاله.

وذلك لأن مجموعة من المستضعفين بقيادة أبي بصير هربوا من تعذيب أهل مكة، ولم يذهبوا إلى المدينة لعلمهم بهذا الشرط، فانطلقوا إلى الشام، في طريق قريش يترصدونهم ليكفوا تعذيبهم عن إخوانهم الآخرين، وليذيقوهم بعض ما ذاقوا من العذاب، وكان من بينهم أبو جندل بن سهيل، حتى ضجت قريش من ذلك كله، وناشدت النبي ﷺ إلغاء هذا الشرط وضمَّهم إليه.

❻ قامت مجموعة من النساء المستضعفات في مكة بالهجرة بعد صلح الحديبية من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدمة هؤلاء النساء أم كلثوم بنت

عقبة بن أبي معيط، فأراد كفار مكة أن يردوهن، فنزل القرآن ليبين أن هذه الاتفاقية لا يدخل فيها النساء، بل هي خاصة بالرجال.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وهذا يدل على خصوصية أمر النساء وحساسيته، فإنه يرتبط بالعرض والشرف، مما ينبغي أن يصونه المسلم، ولا يفرط فيه، لئلا يفترش الكافر امرأة مؤمنة، وفي هذا من العار ما فيه.

دروس وعبر

❶ كان النبي ﷺ شديد الكرم والرحمة حتى مع مخالفيه، فلا يتعامل بمنطق الملوك الجبارين، ولا أصحاب المطامع التوسعية، كما تصفه أقلام المستشرقين المغرضين، بل كان يتعامل بالعفو والصفح، ولا يلجأ إلى العنف إلا إذا تأزمت الأمور، وأصبح السيف هو الحل الوحيد.

❷ ضرورة تصفية الجيوب الصغيرة للأعداء حتى لا يتسللوا منها لحرب المسلمين، مما يضع البلاد في حالة من الحرب المستمرة، أو معرضة دائما للإغارة من قبل اللصوص.

❸ إن أهم دوافع الحرب في الإسلام هو تأمين إيصال الدعوة إلى الناس، فإذا ما وصلت وقامت الحجة عليهم، ورفضوا الدخول في هذا الدين، فلا إكراه عليهم.

ولكن عليهم أن يخضعوا لسلطان الدولة، وألا يعلنوا الحرب عليها، وذلك بدفع جزء صغير من أموالهم يكون ضريبة حماية، حيث إنهم يعيشون تحت ظل الدولة، ولا يطالبون بحماية أنفسهم، بل المسلمون هم المطالبون بذلك.

❹ إخلاص الصحابة ﭫ لله ولرسوله، فقد ضربوا أعظم المثل في التضحية والفداء، عندما أقدموا على بيعة الرضوان، وليس معهم من السلاح ما يقي أجسامهم ضربات العدو عند اللقاء، وهم في انقطاع من المدد، أما قريش ففي موطنها.

www.almoslih.net

ولكنهم على الرغم من كل هذه الظروف أقدموا على تلك البيعة في إخلاص وتجرد لله، فرضي الله عنهم، وتقبل البيعة منهم، وأثابهم فتحا مبينا، فتح الله لهم به القلوب والبلاد حتى تغلّب الإسلام وأتم الله نوره.

٥ ضرورة أن يخضع الإنسان لأحكام ربه، حتى في الأمور التي لا يستطيع المرء أن يحدد لها حكمة عاجلة، فما دامت أمرا من الله عز وجل ورسوله ﷺ فلا يجوز معارضتها، لأن الحكمة قد تكون خافية الآن، وسوف تتضح فيما بعد، وقد لا تتضح له أصلا طوال حياته.

٦ ضرورة احترام المعارضة النزيهة، وتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السليمة التي تخدم المصلحة العامة، وليست المعارضة لرئيس الدولة في رأي من الآراء، وموقف من المواقف جريمة، بل هي مشروعة ما دامت تسير في الإطار العام للدولة، ومن أجل المصلحة العامة.

٧ أهمية القدوة العملية، فقد ندب رسول الله ﷺ أصحابه إلى التحلل من العمرة وكرره ثلاث مرات، ومع ذلك لم يستجب أحد لدعوته، فلما أقدم رسول الله ﷺ على مباشرة ذلك بنفسه أولًا بعد أن أشارت عليه أم سلمة بذلك قام المسلمون بمتابعته، ومن هنا كان دور القدوة العملية أعمق أثرا، وأجدى نفعًا.

٨ كان صلح الحديبية فتحا من الله للمسلمين، فقد أصبح المسلمون قوة مرهوبة الجانب، يعاملها مشركو مكة معاملة القرين لقرينه، وفي هذا الصلح اعتراف ضمني من قريش بقوة المسلمين.

ومن ناحية أخرى: فقد كانت فرصة عظيمة ليفسح الطريق أمام دعوة الإسلام لتغزو القلوب والعقول، بعيدا عن مهاترات قريش، وتفرغ النبي ﷺ لما هو أجدى للبشرية من عداوة قريش.

هذا محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٤

أَحدَاثُ العَامِ السَّابِعِ الهِجرِي

غَزوةُ خيبرَ وتَوَابِعُهَا

كانت العداوة من اليهود للإسلام ونبيه ﷺ عداوة متأصلة، فقد قضى ذلك النبي العربي على أملهم الأكبر الذي كانوا يعيشون من أجله، ألا وهو أن يكون نبي آخر الزمان من بني إسرائيل، فيكون ملكا عليهم، ويقيم مملكة الرب بهم، فيصيروا هم سادة الدنيا وملوك الأرض، يدينون عباد الله ويقتلونهم، ويتكبرون عليهم.

ولكن الله عز وجل خيّب آمالهم، وأرسل إليهم النبي العربي ﷺ الذي يعرفونه، كما كانوا يعرفون أبناءهم، وكانوا يبشرون به القبائل الوثنية من الأوس والخزرج، فآمن به الوثنيون، ونعموا بفضل الله ورحمته، وكفر به اليهود، وصاروا في سخط الله وغضبه، ولم ينفعهم ما عندهم من العلم.

ومن هنا تستطيع أن تفسر إصرار اليهود على معاداة هذا النبي ﷺ، مع أنهم يعلمون جيدا أنه على الحق، وأنه نبي مرسل من الله عز وجل، فلقد كان الكِبْر والحسد للعرب يمنعانهم من اتباع هذا النبي الأمي، وهم أهل الكتاب، وأتباع الأنبياء، فكيف يخضعون لهذا الأمي الذي تربى في الصحراء، ولا يعلم القراءة والكتابة؟.

وهذا هو منشأ الداء الحقيقي عند اليهود، ولعلك تدرك بعض هذه المشاعر المدمِّرة لأصحابها من تلك الكلمة التي قالها زعيمهم حيي بن أخطب، منذ رأى رسول الله قادما إلى المدينة، وسأله أخوه: "ماذا أضمرت له؟" فكان الجواب: "عداوتَه والله ما بقيت".

لقد ظلت هذه الكلمة ـ على الرغم من أنها دمرت صاحبها ذبحا مع بني قريظة ـ هي المنهاج الذي رسمه اليهود لطبيعة العلاقة مع هذا الدين منذ نشأته إلى يوم الناس هذا، ما لانوا في عداوة هذا الدين يوما من الأيام.

ولقد رأيت في الفصول السابقة كيف كانوا يؤلبون القبائل على رسول الله ﷺ، ولا يتركون فرصة يكيدون بها الإسلام إلا انتهزوها.

وكيف كان النبي ﷺ يرسل السرايا لتأديب القبائل المتحالفة معهم، وكيف أرسل السرايا لاجتثاث العناصر المدمرة المحزبة للأحزاب والجموع لقتال المدينة.

وكيف كان النبي ﷺ يتلمس الفرص ليصلح ما بينه وبينهم، ومع ذلك غدروا به غير مرة، كان آخرها ما قام به اليسير بن رزام من الغدر، فجرّ عليه مقتله، ولقد تحدثنا عن هذا كله فيما سبق.

ولقد تركت هزائم اليهود المتتالية في المدينة بداية من بني قينقاع مرورا ببني النضير، وبني قريظة في نفوس اليهود جرحا بالغ العمق، بل أضرمت في صدورهم نارًا محرقة، ما زالت تؤججها طبيعة متأصلة في نفوسهم من البغض والعداوة، والرغبة الجامحة في الانتقام والتشفي من هذا النبي ﷺ وأتباعه الذين أذاقوهم مر العذاب في كل مرة يتقابلون معهم.

ولقد كان إجلاء بني النضير عن المدينة، ونزولُ زعمائهم في خيبر عاملا حاسما في بلورة موقف يهود خيبر تجاه المسلمين، وهو أمر لم يكن ظاهرا قبل ذلك.

فحين نزل سلّام بن أبي الحقيق وابن أخيه كنانة بن الربيع، وحيي بن أخطب خيبرَ دان لهم أهلُها بالولاء والطاعة، وكان لذلك أثره في تصدي يهود خيبر للإسلام والمسلمين، حيث جرهم قادتهم الجدد إلى الصدام المباشر مع الإسلام بغية الانتقام، وبدافع حقدهم الدفين على المسلمين، ورغبتهم العارمة في استعادة ديارهم ومواقعهم ومصالحهم في المدينة التي أجلوا منها.

وبناء على ذلك فقد قام يهود خيبر وزعماؤهم الجدد بدور بارز في تجميع الأحزاب وحشدهم ضد المسلمين، بل إنهم أنفقوا أموالهم، واستغلوا علاقاتِهم مع يهود بني قريظة من أجل نصرة الأحزاب، وطعن المسلمين في ظهورهم، وهكذا أصبحت خيبر مصدر خطر كبير على المسلمين ودولتهم النامية[1].

أما الجديد الآن، فإن اليهود بقيادة سلام بن مشكم الذي تولى الزعامة على يهود خيبر خلفا لأسير بن رزام، ساروا على درب العداوة الذي رسمه لهم حيي بن أخطب، وقد علم ابن مشكم بعد إبرام صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ ومشركي قريش، أن معاونة قريش وحلفاءها لهم ميؤوس منها، وصرح سلام بن مشكم لزعماء خيبر بأن الخطر على الأبواب، يوشك أن يصل.

فبادر إلى تأليف كتلة عسكرية قوية من يهود فدك، ووادي القرى، وتيماء، بالإضافة إلى يهود خيبر، وأرادوا أن يزحفوا إلى يثرب.

وقد علم الرسول ﷺ ما يدور في خَلَدِهم فتهيأ على الفور لقتالهم، قبل أن تتم هذه المباحثات وتؤتي ثمارها، فيفاجأ بوصول اليهود إلى المدينة.

قال ابن القيم: "قال موسى بن عقبة: ولما قدم الرسول ﷺ المدينة من الحديبية، مكث بها عشرين ليلة أو قريبا منها، ثم خرج غازيا إلى خيبر، وكان الله عز وجل وعده إياها، وهو بالحديبية"[2].

(١) نضرة النعيم، (١/٣٤٩) "بتصرف".

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، (٣/٣١٦-٣١٧)، قال الأرنؤوط في هذا الإسناد: "رجاله ثقات".

قال الله عز وجل: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠].

قال ابن إسحق: "حدثني الزهري عن عروة عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة، أنهما حدثاه جميعا، قالا: فجعل لكم هذه في خيبر"(١).

وقد استنفر النبي ﷺ كل من شهد الحديبية يغزون معه، وجاءه المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة فقال: لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا(٢)، فخرج في ألف وأربعمائة من أصحابه، بينهم مائتان من الفرسان؛ واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة، وقيل: أبا ذر، وقيل: نميلة بن عبد الله الليثي(٣).

سار الجيش المسلم إلى خيبر بطاقة إيمانية عالية، يحدوهم الأمل في ثواب الله عز وجل، والحصول على أجر الجهاد، على الرغم من علمهم بقوة حصون خيبر ومنعتها، وكثرة عتادها الحربي، ومع ذلك كله ساروا وهم يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فأرشدهم النبي ﷺ إلى أن يرفقوا بأنفسهم ويخفضوا أصواتهم.

روى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْبَرَ، أَوْ قَالَ: لَمَّا تَوَجَّهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، أَشْرَفَ النَّاسُ عَلَى وَادٍ فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ الله أَكْبَرُ الله أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ، وَلَا غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ»(٤).

وكان مسير النبي ﷺ وصحابته ليلا، ويكمنون صباحا، ويحدو بهم عامر بن الأكوع وهو يقول:

(١) ابن هشام: السيرة، (٣/٤٥٥)، وانظر: البخاري، كتاب الدعوات، رقم (٦٣٨٤).
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٧٢٦).
(٣) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٣٠٦).
(٤) البخاري، برقم (٤٢٠٥)، باب غزوة خيبر.

اللهـم لـولا الله مـا اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينـا
فاغفـر فداء لـك مـا اتقينا ... وثبـتِ الأقـدام إن لاقينـا
وألقِيَـنْ سـكينةً علينـا ... إنـا إذا صِيـح بنـا أتينـا
وبالصياح عوَّلوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ هَذَا السَّائِقُ؟ قَالُوا: عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ. قَالَ: يَرْحَمُهُ الله. وَقَالَ رَجُلٌ(١) مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْلَا مَتَّعْتَنَا بِهِ، فَلَمَّا صَافَّ الْقَوْمَ قَاتَلُوهُمْ، فَأُصِيبَ عَامِرٌ بِقَائِمَةِ سَيْفِ نَفْسِهِ فَمَاتَ»(٢).

وسار النبي ﷺ بجيشه سيرا حثيثا، حتى قطع تلك المسافة الطويلة في ثلاث مراحل، وبلغ خيبر في فجر اليوم الرابع، "وقد سلك المسلمون طريق ثنية الوداع فزغابة، ونقمي، فالمستناخ، فعصر، فالصهباء، فالخرصة، وحين وصلوا منطقة خيبر سلكوا بين الشق والنطاة، ثم المنزلة، ثم الرجيع التي تقع شمال شرق خيبر"(٣).

وقد أعمى الله عز وجل عنه عيون أهل خيبر، فلم يعلموا ما كان من مسير رسول الله ﷺ إليهم، فباتوا آمنين، حتى إذا كان الصباح خرج عمالهم بمساحيهم ومكاتلهم إلى أعمالهم؛ فلما رأوا رسول الله ﷺ وجنوده قد نزلوا بساحتهم، أخذهم الرعب، وصاحوا: "محمد والله! محمد والخميس!"(٤).

وأدبروا هاربين إلى قومهم وحصونهم، وقد أفزعتهم المفاجأة، فما كانوا يظنون أن يأتيهم النبي ﷺ في ديارهم، لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم، كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفا ثم يقولون: محمد يغزونا!!

(١) هو عمر بن الخطاب كما جاء في الروايات الأخرى.
(٢) البخاري، برقم (٦٣٣١)، باب قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾.
(٣) نضرة النعيم، (١/٣٥٠).
(٤) البخاري، برقم (٦١٠)، باب ما يحقن بالأذان من الدماء.

هيهات هيهات[١].

وزادهم رسول الله ﷺ فزعًا حيث صاح في أعقابهم مكبرا: «الله أَكْبَرُ الله أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ»[٢].

اختيار المكان:

لما بلغ النبي ﷺ وادي الرجيع، بين خيبر وغطفان، عسكر فيه؛ وذلك ليحول بين غطفان وبين أن يمدوا أهل خيبر.

وذلك لأن يهود خيبر كانوا: "أرسلوا كنانة بن أبى الحقيق وهودة بن قيس فى أربعة عشر رجلا إلى غطفان ليستمدوا بهم وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن غلبوا على المسلمين، فجمعوا ثم خرجوا ليظاهروا يهود خيبر".

ويقال: "إن رسول الله ﷺ أرسل إليهم أن لا يعينوهم على أن يعطيهم من خيبر شيئا سماه لهم، وهو نصف ثمارها، فأبوا، وقالوا: جيراننا وحلفاؤنا.

فلما ساروا قليلا سمعوا خَلْفَهم فى أموالهم وأهليهم حسًّا ظنّوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم، فألقى الله الرعب فى قلوبهم، فرجعوا على الصعب والذلول، مسرعين على أعقابهم، فأقاموا في أهليهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل خيبر"[٣].

وعلى كلٍّ فقد تخلفت قبائل غطفان عن نصرة حلفائهم من اليهود، ولم يستطيعوا إيصال المدد إليهم.

وقد كان نزول الرسول ﷺ في منطقة واد الرجيع قريبا من حصون النطاة، فقال له الحباب بن المنذر: "إن أهل النطاة لي بهم معرفة، ليس قومٌ أبعدَ مدى سهم

---

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٣٠٦).

(٢) البخاري، برقم (٦١٠)، باب ما يحقن بالأذان من الدماء.

(٣) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٧٦١).

منهم، ولا أعدلَ رمية منهم، وهم مرتفعون علينا، وهو أسرع لانحطاط نبلهم، ولا نأمن من بياتهم يدخلون في حمرة النخل ـ أي النخل المجتمع بعضه على بعض ـ تحوّل يا رسول الله فقال ﷺ: أشرت بالرأي إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا.

ودعا رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة ﷺ، فقال: انظر لنا منزلا بعيدا، فطاف محمد ﷺ وقال: يا رسول الله وجدت لك منزلا، فقال رسول الله ﷺ: على بركة الله، وتحوّلَ لما أمسى، وأمر الناس بالتحوّل"[١].

كانت خيبر مقسمة إلى ثلاث مناطق حربية، كل منها به مجموعة من الحصون المنيعة، كل حصن من وراء أخيه، بحيث لو سقط منها حصن، توجه اليهود إلى الحصن الذي يليه على التوالي، وهو نظام مجهِدٌ عسكريا لأي جيش، ويحتاج إلى صبر وجلد وعزيمة على القتال.

وقد كانت هذه الحصون تنتظم على النحو التالي:

١. منطقة النطاة: وحصونها ثلاث، هي على الترتيب؛ حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن قلعة الزبير.

٢. منطقة الشق. وحصونها؛ حصن أبيّ، وحصن البريء.

٣. منطقة الكتيبة. وأهم حصونها؛ حصن القموص وهو حصن نزار، وحصن السلالم، وحصن الوطيح.

وكان رسول الله ﷺ يعلم من طبائع اليهود شدة الحرص على المال، فرأى أن يستفزهم بإتلاف بعض مالهم نكاية فيهم لعلّهم يرفعون الراية من البداية دون قتال، فأمر ﷺ بقطع بعض نخيلهم، فأخذ المسلمون يقطعونها حتى قطعوا نحو أربعمائة نخلة، واليهود في كل هذا لا يبالون بما يحدث، وهم مصرّون على الحرب.

---

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٧٣١).

وهنا نهى ﷺ عن قطع النخيل، وبدأ النبي ﷺ في حصارهم داخل حصونهم التي أغلقوها على أنفسهم، وحينئذ حمي وطيس المعركة.

تساقط المناطق العسكرية اليهودية:

١ سقوط منطقة النطاة :

كانت حصون منطقة النطاة هي المنطقةَ الأولى التي دار حولها القتال، وقاوم اليهود مقاومة عنيفة، واستماتوا في الدفاع عن حصونهم والذود عنها، وكلما حاولوا الخروج من الحصن، أحرجهم المسلمون، ودحروهم إلى الداخل، فارتدّوا إلى الحصن ليحتموا وراء جدرانه القوية، ويرمون من ورائه بالنبل والحجارة، حتى أجهدوا المسلمين، ولم يمكنوهم من فتح الحصن خلال تلك الفترة.

وقد كان ﷺ "يعطي الراية كل يوم واحدا من أصحابه ويبعثه.

فبعث أبا بكر رضي الله عنه فقاتل ورجع ولم يكن فتح، وقد جهد.

ثم بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الغد برايته فقاتل ورجع ولم يكن فتح وقد جهد.

ثم بعث رجلا من الأنصار فقاتل ورجع ولم يكن فتح"[١].

وكل ذلك في حصار حصن ناعم، أولِ حصون منطقة النطاة، فقال النبي ﷺ: "لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ الله وَرَسُولُهُ، فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ.

فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيٌّ؟ فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ، فَقَالَ: أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا، فَقَالَ: انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللهِ لأَنْ

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٧٣٦).

يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ"[١].

أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه الراية، ففتح الله على يديه هذا الحصن الصعب، وقد أبلى عليٌّ في هذا الموطن بلاء حسنا، وشهد هذا الحصن قتالا عنيفا بين الفريقين، وقتل أحد زعمائهم وهو مرحب اليهودي، الذي كانوا يعتبرونه من شجعانهم المعدودين، فأثر ذلك في نفوسهم سلبًا وأسهم في فتح هذا الحصن.

سقط الحصن الأول (حصن ناعم) ففرّ اليهود إلى الذي يليه وهو حصن الصعب بن معاذ. فاعتصموا به، وقد خافوا أن يسقط هو الآخر كما سقط سابقه فقاتلوا المسلمين قتالا شديدا، وبالغوا في الاستبسال والدفاع، واستمرت مقاومة اليهود ثلاثة أيام، وحملوا على المسلمين حملة شديدة؛ حتى تقهقر المسلمون كثيرا إلى الوراء.

وانتهوا إلى رسول الله ﷺ، وهو واقف قد نزل عن فرسه، فحضّ رسول الله ﷺ الناس على الجهاد فأقبلوا[٢]، وزحف بهم الحباب بن المنذر، فانهزم اليهود وتقهقروا إلى الحصن ثانية، وأغلقوه عليهم، ولكن المسلمين اقتحموا الحصن هذه المرة، ودخلوه وجعلوا يقتلون ويأسرون من جنود اليهود حتى فتحوه عنوة[٣].

وقد وجد المسلمون في ذلك الحصن من أنواع الطعام والمتاع شيئا كثيرا، فخشي رسول الله عليهم أن تشغلهم الغنيمة عن القتال، فبعث مناديا ينادي في الناس: «كلوا واعلفوا ولا تحملوا»[٤].

كما وجد المسلمون منجنيقا ودبابات ودروعا وسيوفا، وكثيرا من آلات الحرب في بيت تحت الأرض دلّهم عليها رجل من اليهود، أسره المسلمون وهم

(١) البخاري، برقم (٣٠٠٩)، باب فضل من أسلم على يديه رجل. انظر: مسلم، (١٨٠٧).
(٢) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٣١٣). (٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٣١٣)، وما بعدها، الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٧٤٢).

يحاصرون حصن ناعم. فخاف على نفسه أن يقتل، فاستأمن رسول الله على نفسه وأهله حتى أمنه، ثم أخبره بما كان في حصن الصعب من آلات الحرب[١]، فانتفع المسلمون بها في هذه المعركة انتفاعا عظيما.

ولما سقط حصن الصعب بن معاذ فرّ فلول اليهود إلى حصن قلعة الزبير، وهو آخر حصون منطقة النطاة وأمنعُها، فقد كان هذا الحصن على قلة جبل، وقد تجمع فيه الذين فروا من حصني ناعم والصعب، وبقية حصون اليهود القريبة، إضافة إلى من كان فيه أصلا من اليهود فازداد بذلك قوة ومنعة.

وظل اليهود معتصمين بهذا الحصن لا يخرجون منه خشية الهزيمة، وهم يلملمون فيه جراحَهم، والمسلمون يحاصرونهم ثلاثة أيام حتى استعصى عليهم فتحه.

فعلم رسول الله ﷺ من أحدهم أن وراء الحصن جدولا يمد أهله بالماء، فقطعه عنهم، فاضطروا للخروج من الحصن، وقاتلوا عنه أشد قتال، حتى قتلوا بعض المسلمين، وأصيب من اليهود عشرة، ثم فتحه الله على المسلمين.

وبسقوط حصن قلعة الزبير سقطت المنطقة العسكرية الأولى ليهود خيبر وهي منطقة النطاة، ففرّ فلول اليهود إلى المنطقة الثانية، وهي منطقة الشق[٢].

ب سقوط منطقة الشق :

أصبحت منطقة النطاة في حوزة المسلمين بعد سقوط آخر حصونها، «فانتقل المسلمون بعد ذلك من معسكرهم في الرجيع، وعسكروا في منطقة المنزلة بعد أن تخلصوا من أهل النطاة الذين كانوا أشد وأشرس اليهود.

وقد ارتفعت معنويات المسلمين كثيرا بسبب انتصاراتهم المتكررة على عدوهم وحيازتهم طعامَه ومتاعَه.

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٧٤٣).
(٢) المصدر السابق.

في الوقت الذي انحطت فيه معنويات يهود خيبر الآخرين، إضافة إلى ما أصابهم من رعب وقنوط، وهم يشاهدون حصون منطقة النطاة، وهي تتهاوى تحت ضربات المسلمين وحصارهم»[١].

وفرّ فلول اليهود إلى المنطقة الثانية بعد سقوط حصن قلعة الزبير، وهي منطقة الشق، فاعتصموا بأول حصونها، وهو حصن أبيّ، وكان شديد المنعة على رأس جبل يقال له «شمران».

فحاصره المسلمون، واستبسل اليهود هذه المرة أكثر من ذي قبل، وقاتلوا عنه قتالا شديدا، فحمل المسلمون على الحصن حملة قوية يقودهم فيها أبو دجانة الأنصاري حتى دخلوه، وتبارز الفريقان وجها لوجه، فهرب من فيه من مقاتلة اليهود، وجعلوا يقتحمون الجدر حتى وصلوا إلى حصن البريء، فتحصنوا به وتمنعوا أشد التمنع.

ولم يجد رسول الله ﷺ بُدًّا من الزحف إليهم في أصحابه، فكانوا أشدَّ أهل الشق رميا بالنبال والحجارة، حتى إن النبل أصاب ثياب رسول الله ﷺ وعلق بها، فأمر ﷺ أصحابه أن ينصبوا عليه المنجنيق، وما إن رأى اليهود ذلك حتى وقع في قلوبهم الرعب، وهربوا إلى منطقة الكتيبة.

وبذلك تكون منطقة الشق قد سقطت كاملة، ولحقت بأختها منطقة النطاة، ووجد المسلمون في هذا الحصن آنية من نحاس وفخار كانت اليهود تأكل فيها وتشرب، فقال ﷺ: اغسلوا واطبخوا وكلوا فيها واشربوا[٢].

ج سقوط منطقة الكتيبة :

أصبحت منطقة الكتيبة هي الملاذَ الأخير لكلِّ فلول اليهود في منطقة خيبر، وكانت هذه المنطقة كثيرة الحصون، فذهب إليها اليهود واعتصموا بها، وكان

(١) نضرة النعيم، (١/٣٥٢).
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٧٤٣).

www.almoslih.net

أول حصونها هو حصن القموص، وكان من الحصون المنيعة القوية، وكان تحت قيادة أشراف بني الحقيق، وفيه نساء هذه الأسرة ولذا كان يدعى حصن بني الحقيق.

وكان من الطبيعي أن يتحول رسول الله ﷺ بأصحابه إلى حصن القموص بعد أن اعتصم به اليهود، فحاصره النبي ﷺ عشرين ليلة كاملة، وقيل أربعة عشر يوما[١]، وهذا يشير إلى ما بلغه هذا الحصن من القوة والمنعة، ثم فتحه الله عزوجل بعد ذلك على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد سبى المسلمون من هذا الحصن جمعا من النساء والذراري، كان من بينهم صفية بنت حيي بن أخطب؛ وقد اصطفاها رسول الله ﷺ من بين السبايا فأعتقها وتزوجها، فكانت من أمهات المؤمنين.

ولما افتتح المسلمون كل هذه الحصون المنيعة، وكان كلما سقط حصن في أيديهم أصيب اليهود بالذعر، وشعروا بقرب نهايتهم، فاستمسكوا بالذي يليه، حتى انتهوا إلى آخر حصونهم وهي حصنا الوطيح والسلالم.

فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة، وهم بداخلها قد أصابهم الذعر، وأيقنوا بالهلاك، فعزموا على الاستسلام.

فنزل كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فصالح رسول الله على أن يحقن دماءَ مَن في حصونهم من المقاتلة، ويتركَ لهم النساء والذرية، على أن يخرجوا من خيبر وأرضها، ويتركوا لرسول الله ﷺ ما كان لهم من أرض ومال وخيل وسلاح.

فقال رسول الله ﷺ: «وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئا». فصالحوه على ذلك.

(١) نضرة النعيم، (١/٣٥٢).

فأرسل رسول الله ﷺ إلى الأموال فقبضها، ووجد في ذينِكَ الحصنَين مائة درع وأربعمائة سيف، وألف رمح، وخمسمائة قوس عربية بجعابها[١].

وبهذا الصلح واستسلام حصني الوطيح والسلالم تكون خيبر كلها قد أصبحت في أيدي المسلمين، وغنم المسلمون ما كان فيها من أموال وسلاح.

ولم يستطع اليهود التخلّي عن غدرهم ونكثهم العهود بسبب حبهم الشديد للمال، فقد خانوا هذا الاتفاق وخبأوا ذهبا كثيرا، وأنكروه عن النبي ﷺ.

يقول ابن عباس: «لما ظهر النبي ﷺ على خيبر، صالحهم على أن يخرجوا بأنفسهم وأهليهم ليس لهم بيضاء ولا صفراء، فأتي بكنانة والربيع فقال لهما رسول الله ﷺ: أين آنيتكما التي كنتم تعيرونها أهل مكة؟ قالا: هربنا، فلم نزل تضعنا أرض وترفعنا أخرى، فأنفقنا كل شيء. فقال لهما: إنكما إن كتمتماني شيئا، فاطلعت عليه استحللت به دماءكما وذراريكما. قالا: نعم.

فدعا رجلا من الأنصار فقال: اذهب إلى قراح كذا وكذا، ثم ائت النخل، فانظر نخلة عن يمينك ـ أو عن يسارك ـ فانظر نخلة مرفوعة فأتني بما فيها. فانطلق فجاءه بالآنية والأموال، فضرب أعناقهما وسبى أهليهما»[٢].

خروج لم يتم:

كانت شروط الصلح واضحة وصريحة، وهي أن يخرج اليهود من أرض خيبر تماما، ولا يأخذوا معهم إلا النساء والذرية، ويخلفوا ما وراء ذلك من الأموال والسلاح، وما إن أمن يهود خيبر على أنفسهم، ونظروا إلى مزارعهم وأرضهم، فأخذتهم الحسرة أن يتركوا كل هذا الخير غنيمة سهلة للمسلمين.

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٥/١٣١).
(٢) السيوطي: الخصائص، (ص٤٢٨).

ولم تطب نفوسهم بترك بلادهم، فعادوا وسألوا رسول الله ﷺ أن يتركهم ليعملوا في الأرض أُجَراء، على أن يكون الثمر مناصفةً، وقالوا له: "نحن أعلم بها منكم وأعمر لها". فوافق النبي ﷺ على هذا العرض وأبقاهم في الأرض يعملون بها، واشترط عليهم أنه إذا شاء أن يخرجهم أخرجهم.

عن ابن عمر قال: "لما افتتحت خيبر سألت يهود رسول الله ﷺ أن يقرّهم فيها على أن يعملوا على النصف مما يخرج منها من الثمر والزرع، فقال رسول الله ﷺ: أقرّكم فيها على ذلك ما شئنا، فكانوا فيها كذلك على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر رضي الله عنه، وطائفة من إمارة عمر، فكانت الثمرة تقسم على السُّهْمان من نصف خيبر، ويأخذ رسول الله ﷺ الخمس"[١].

موقف القرى اليهودية الأخرى:

١ موقف فدك:

كانت خيبر ـ كما رأيت ـ من أمنع المناطق الحربية في الحجاز، إن لم تكن أمنعها على الإطلاق، وسقوطها على هذا النحو، وبسالةُ المسلمين في قتال اليهود، أفزع ذلك كله بقية اليهود المجاورين لخيبر.

فلما سمع يهود فدك، بما كان من الصلح بين رسول الله ﷺ وأهل خيبر، علموا أنهم لا طاقة لهم بالحرب، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ ليصالحوه على ما صالح عليه أهل خيبر، فأجابهم إلى ذلك دون قتال.

ومن هنا كانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ، لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب[٢].

(١) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي: السنن الكبرى، برقم (١١٤٠٥)، باب المعاملة على النخل بشطر ما يخرج منها... إلخ. وانظر: سنن أبي داوود، (٣٠٠٨)، قال الألباني: "صحيح الإسناد". وانظر نحوه، صحيح البخاري، (٢٣٣٨)، وصحيح مسلم، (١٥٥١).
(٢) السهيلي: الروض الأنف، (٤/٧٩).

ب موقف يهود وادي القرى وتيماء:

انتقل النبي ﷺ بعدما فرغ من قتال أهل خيبر، ومصالحة أهل فدك إلى وادي القُرى، حيث استقبله اليهود بالرّمي، فقتلوا غلامه، وهو يحط رحله ﷺ.

فعبأ عليه السلام أصحابه وصفّهم للقتال، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، وراية إلى الحباب بن المنذر، وراية إلى سهل بن حنيف، وراية إلى عبّاد بن بشر. ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا، وبرزوا فقتل منهم أحد عشر رجلا.

وبات عليهم وغدا لقتالهم[١]، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم، وفتحها عنوة، وغنَّمَهم الله أموالهم، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا.

وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام، فقسم ما أصاب على أصحابه، وترك الأرض والنخيل في أيدي اليهود وعامَلَهم عليها[٢].

أما يهود تيماء، فقد قبلوا دفع الجزية[٣] من غير حرب ولا قتال.

وبخضوع هذه القبائل اليهودية للنفوذ الإسلامي تحت سلطة النبي ﷺ أصبح اليهود بلا سلطان في بلاد العرب كلها، ووجودهم فيها أجراء على الأرض ليس غير، ويمكن للمسلمين أن يجلوهم منها متى شاءوا.

وأمن المسلمون حينئذ ناحية الشمال التي كانت تسبب قلقا شديدا للدولة الإسلامية، علاوة على أنهم أمنوا ناحية الجنوب بعد صلح الحديبية مع قريش وحلفائها.

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٣٢٥).
(٢) ابن كثير: السيرة النبوية، (٣/٤١٣).
(٣) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٣٢٦).

www.almoslih.net

محاولة سم النبي ﷺ:

ومن بين أحداث هذه الغزوة أن امرأة يهودية قُتل أبوها وأخوها وزوجها في هذه الغزوة، فأرادت أن تنتقم من النبي ﷺ، فوضعت له السُّمَّ في شاة مشوية، وسألت عن الموضع الذي يفضله النبي ﷺ من الشاة عند الأكل، فعلمت أنه الذراع، فأكثرت السم فيه، ودعته إلى هذه الشاة.

ولكن الوحي نزل على رسول الله ﷺ ليخبرَه بأن الشاة مسمومة، وكان قد استرط منها نهسة، وأكل بعض أصحابه، فقال لهم: أمسكوا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن امرأة من اليهود أهدت إلى رسول الله ﷺ شاة مسمومة، فقال لأصحابه: أمسكوا فإنها مسمومة فقال: ما حملكِ على ما صنعتِ قالت: أردت أن أعلم إن كنت نبيًا فسيطلعك الله عليه، وإن كنت كاذبا أُرِيحُ الناسَ منك، قال: فما عرض لها رسول الله ﷺ»[1].

وفي رواية أكثر تفصيلا عن ابن شهاب قال: «لما فتح رسول الله ﷺ خيبر وقتل من قتل منهم أهدت زينب بنت الحارث اليهودية، وهي ابنة أخي مرحب لصفية شاة مصلية[2] وسمّتها، وأكثرت في الكتف والذراع؛ لأنه بلغها أنه أحب أعضاء الشاة إلى رسول الله ﷺ.

فدخل رسول الله على صفية رضي الله عنها ومعه بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنه أخو بني سلمة، فقدمت إليهم الشاة المصلية، فتناول رسول الله الكتف، وانتهش منها، وتناول بشر بن البراء عظما فانتهش منه، فلما استرط رسول الله ﷺ لقمته، استرط بشر بن البراء رضي الله عنه ما في فيه.

(١) البيهقي: الدلائل، (٤/٢٦٠)، وانظر صحيح مسلم، (٢١٩٠)، وصحيح البخاري، (٣١٦٩) نحوه، ومن رواية ابن عباس عند أحمد، (٣٧٨٤)، بزيادة «...فاحتجم». قال مخرجوه: "إسناده صحيح".
(٢) مصلية: مشوية.

فقال رسول الله ﷺ: ارفعوا أيديكم، فإن كتف هذه الشاة يخبرني أنْ قد بُغِيَتْ فيها.

فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك، لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت، فما منعني أن ألفظها إلا أني أعظمت أن أنغّصك طعامك، فلما أسغت ما في فيك لم أكن أرغب بنفسي عن نفسك، ورجوت أن لا تكون استرطتها وفيها بغي.

فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونُه مثلَ الطيلسان، وماطله وجعُه حتى كان لا يَتحوَّلُ إلى ما حُوِّلَ.

واحتجم رسول الله ﷺ على الكاهل يومئذ، حجمه مولى بياضة بالقون والشفرة، وبقي رسول الله بعده ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي توفي فيه، فقال: ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر عددا، حتى كان هذا أوان انقطع الأبهر مني، فتوفي رسول الله ﷺ شهيدا»[1].

وقد اختلفت الروايات في مصير تلك المرأة، فبعضها تذكر: أن النبي ﷺ عفا عنها[2]، وبعضها يذكر: أنه قتلها بسبب موت بشر بن البراء من جراء تلك الأكلة[3].

وقد غنم المسلمون من خيبر كثيرا من الأموال والسلاح، مما أسهم بقدر كبير من الرواج الاقتصادي الكبير في المدينة، فقد كانت خيبر مغنما عظيما، فتح الله به على المسلمين أبوابا من الخير واسعة.

وإذا أضفنا إلى غلات خيبر ما كان من غلات فدك ووادى القرى وتيماء، يتبين لنا مبلغ الغنم الذي أفاده المسلمون من هذا الفتح، الذي وعدهم الله به بإخلاصهم النية له سبحانه في بيعة الرضوان.

(١) البيهقي: الدلائل، (٤/٢٦٣)، وما بعدها.
(٢) انظر: صحيح مسلم، (٢١٩٠).
(٣) انظر: مصنف عبد الرزاق، برقم (١٠٠١٩، ١٩٨١٤)، وسنن أبي داوود، (٤٥١١)، قال الألباني: "حسن صحيح".

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ - ٢٠].

قال ابن كثير: "وأثابهم فتحا قريبا... ما حصل لهم بذلك.. بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم... ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾».. قال مجاهد: «هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾.. يعني فتح خيبر"[(١)].

وفي الصحيحين من حديث أنس ﷺ: «لما قدم المهاجرون المدينة من مكة وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصارُ أهلَ الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن أعطَوهم أنصافَ ثمار أموالهم كل عام، ويكفُونهم العمل والمؤونة.

قال ابن شهاب: فأخبرني أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال خيبر، فانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم..»[(٢)].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: «قالت الأنصار للنبي ﷺ: قسم بيننا وبين إخواننا النخل. قال: لا. فقال: تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا»[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر: "قال المهلب: إنما قال لهم النبي ﷺ: لأنه علم أن الفتوح ستفتح عليهم، فكره أن يخرج شيء من عقار الأنصار عنهم، فلما فهم الأنصار ذلك.. فسألوهم أن يساعدوهم في العمل، ويشاركوهم في الثمر"[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٧/٣٤-٣٥)، تحقيق سامي محمد السلامة، طبعة أولى، دار طيبة، ١٩٩٧.

(٢) صحيح مسلم، (١٧٧١)، صحيح البخاري، (٢٦٣١).

(٣) صحيح البخاري، (٢٣٢٥). (٤) فتح الباري، (٩٠٨٧٠).

هذا وأصبح المسلمون قوة كبيرة مرهوبة الجانب؛ فقد كان خبر انتصار المسلمين على يهود خيبر شديدَ الوقع على نفوس العرب أجمعين، لا على قريش وحدها، وأحدث دويا هائلا في أوساط القبائل العربية، فما كان أحد منهم يتوقع أن تنهار حصون خيبر بهذه السرعة، مع ما بها من القوة والمنعة.

وبهذا الفتح المبين خسرت قريش حليفها اللدود في حربها مع النبي ﷺ، وأيقنت هي وجميعُ العرب أنه لا طاقة لهم في مقاومة هذا الدين.

ولم يعد هناك من يفكر في حرب الإسلام من العرب، ولم يبق سوى شراذمَ من أعراب البوادي، كانوا يتعرضون له، يظنون أن الأمر مجرد قتال بين القبائل، كما كان الأمر في الجاهلية، وكان لا بد لهؤلاء أن ينالوا جزاءهم حتى يعم الأمن ويستتب الأمر في المدينة.

فكان رسول الله ﷺ يبعث سراياه في كل ناحية، لتقوم بدَور الحملات التي يقوم بها رجال الشرطة، لتوطيد الأمن في عصرنا الحاضر، والقضاءِ على أوكار المجرمين في الجبال والبوادي، حتى يتمكن الدعاة والسفراء من أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرسالة، دون خوف من التعرض لحادث غدر أو خيانة، كما كان يحدث من قبل.

عودة جعفر بن أبي طالب من الحبشة:

كان جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ ما زال في أرض الحبشة مع مجموعة المسلمين الذين هاجروا من مكة مستضعفين قبل الهجرة، وقد قدم جعفر المدينة مع قدوم رسول الله ﷺ إليها يوم فتح خيبر، ففرح النبي ﷺ بقدومه فرحا شديدا ـ وقبّل رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه، ثم قال له: «ما أدري بأيهما أنا أُسَرُّ: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»[(١)].

---

(١) ابن هشام: السيرة، (٥/٥).

حِوَارٌ لَا صِدَام

إن تقديم الوسائل السلمية، وإعلاء لغة الحوار في المعاملات الدولية بين المجتمع المدني وغيره من شعوب الأرض كان سمة بارزة في تعاملات النبي ﷺ في ذلك الوقت، بل إنه يعد أحدَ مظاهر الرحمة في شخصيته ﷺ.

ولقد كان النبي ﷺ بذلك أولَ من طبّق أسلوب الحوار بين الحضارات والدول، ومارسه بمستوى راقٍ من حسن الخلق واحترام الآخر.

فالإسلام يحث على الحوار البنّاء بين الأمم والشعوب، شريطةَ أن يكون الهدف من الحوار هو الوصول إلى الحق، وتطوير القواسم المشتركة بين المجتمعات البشرية، لا مجرد السفسطة اللفظية وإظهار الفوز والغلبة؛ ولهذا أمر الإسلام بالدّعوة إلى الله بالطرق الحسنة، ونبذ ما عداها من وسائل العنف.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن ثم كانت دعوة النبي ﷺ إلى الحوار مع باقي ملوك الأمم والحضارات المعاصرة، هذه الدعوة التي نبعت من منطلق مسؤوليته عن تبليغ دعوة ربه إلى الناس كافة، وكانت ترتكز على أسس عقدية ثابتة في التعامل مع غير المسلمين الذين يؤمنون برسالتهم السماوية.

فعقيدة المسلم لا تكتمل إلا إذا آمن بالرسل جميعًا، وبالتالي فهو يحترم جميع الأنبياء والمرسلين، ويُعَدّ النبي ﷺ نفسُه امتدادا لهذا المنهج النوراني الذي

نزل من السماء، يهدي به الله أهل الأرض جميعًا سبل السلام، وهو خاتم رسل الله إلى أهل الأرض، ولا يمكن أن يبعث الله عز وجل رسلا يناقض أحدهم الآخر.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومع العلم أن العرب كانوا في أمسّ الحاجة إلى العلاقات السلمية ومصانعة كلٍّ من كسرى وقيصر، فقد كان العرب يعتمدون في كسب أقواتهم على التجارة مع اليمن ومع الشام، وقد كانت اليمن والعراق تحت نفوذ فارس، ومصر والشام تحت نفوذ هرقل؛ فليس من مصلحة العرب ولا المسلمين في هذه الظروف أن تسوء العلاقة بينهم وبين هاتين القوتين الكبيرتين(١).

ولكن النبي ﷺ لم يحفل بهذه المصالح الاقتصادية، ولا نظر إلى قوة عدوّه العسكرية، ومضى في طريقه واثقًا من نصر الله له، وأرسل أصحابه واحدا تلو الآخر إلى الملوك والزعماء، حتى لم يبق ملك ولا أمير إلا أرسل إليه يدعوه إلى دين الله، والدخول تحت لوائه.

وقد حان الوقت الآن بعد أن عقد النبي ﷺ صلح الحديبية بينه وبين أهل مكة ليستثمر هذه الهدنة في فتح باب الحوار ومراسلة ملوك العالم، والتواصل معهم، ودعوتهم إلى الإسلام حتى لا يكون للناس حجة بعد الرسل، تنفيذًا لأمر الله عز وجل له.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

(١) هيكل: (ص٢٤٣) "بتصرف".

فشرع رسول الله ﷺ يحرر الكتب والرسائل استجابة لهذا التكليف الإلهي، ويرسلها إلى ملوك هذه الأمم، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وقد كان محور خطاباته يدور حول قِيَم التوحيد والعودة إليه صافيا نقيا كما نزل من عند الله، وترك ما استحدثه البشر من ديانات، أو زادوه وحرّفوه في ديانات السماء، وهذا واضح بقوة في مضمون هذه الرسائل.

وتأمل رسالته التي كتبها إلى هرقل حيث جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتّبع الهدى.

أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن تولّيت فإنما عليك إثم الأريسيّين [1]. ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

وهذا هو مضمون جميع الرسائل تقريبًا التي أرسلها النبي ﷺ إلى ملوك العالم في عصره.

(١) اختلف في وزن هذه الكلمة ومعناها. ومن معاني الأريسيين الخدم والحشم. يريد أنه مسؤول عن إثم رعيته لصده إياهم عن الدين. راجع النهاية لابن الأثير و معجمات اللغة مادة «أرس».

اتخاذُ الخاتَم

حين عزم النبي ﷺ على مراسلة هؤلاء الملوك والأمراء، أخبر أنهم لا يقرون بكتاب إلا إذا كان مختوما، فاتخذ لنفسه خاتما من فضه نقشه «محمد رسول الله».

فعن أنس بن مالك ﷺ: «لَمَّا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى الرُّومِ قِيلَ لَهُ إِنَّهُمْ لاَ يَقْرَؤُونَ كِتَابًا إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَخْتُومًا، فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِهِ فِي يَدِهِ، وَنَقَشَ فِيهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»[1].

وهذا يدل على أهمية احترام الأعراف الدولية، ومراعاتها عند مخاطبة الملوك والرؤساء، وتذليل كل ما يؤدي إلى إفساد العملية الدعوية، حتى ولو كان أمرًا شكليًّا مثل اتخاذ الخاتم.

وهاك قائمة بأهم الرسائل التي أرسلها الرسول ﷺ وأسماء السفراء الذين حملوها إلى ملوك وزعماء العالم:

١. كتابه إلى هرقل، بعث به الصحابي الفاضل دحية بن خليفة الكلبي، وقد كان دحية وسيما أنيقًا كما تقول عنه المصادر.

٢. كتابه إلى كسرى أبرويز بن هرمز، ملك الفرس، حمله الصحابي عبد الله بن حذافة السهمي، وكان راسخ الفكر والإيمان متحدثًا بليغًا.

٣. كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة، حمله الصحابي الجليل عمرو بن أمية الضمري، وهو موصوف بالذكاء واللباقة.

(١) البخاري، برقم (٢٩٣٨)، باب دعوة اليهودي والنصراني... إلخ.

www.almoslih.net

٤ كتابه إلى مُسَيْلِمَةَ الْكَذّابِ، حمله عمرو بن أمية الضمري أيضًا، ثم أرسل إليه مرة ثانية حملها السّائب بن العوّام.

٥ كتابه إلى جيفر وعبد الله ابني الجلندى ملكي عمان، حمله الصحابي القائد عمرو بن العاص، وهو موصوف بأنه داهية العرب.

٦ كتابه إلى هوذة بن علي ملك اليمامة، حمله الصحابي الجليل سليط بن عمرو.

٧ كتابه إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، حمله الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي، وهو معدود من أهل الرأي والفقه.

٨ كتابه إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وابن عمه جبلة بن الأيهم، ملكي البلقاء من قبل الرومان، وحمله الصحابي الجليل شجاع بن وهب الأسدي.

٩ كتابه إلى الحارث بن عبد كُلال الحميري أحد زعماء اليمن، وحمله الصحابي الجليل المهاجر بن أبي أمية المخزومي.

١٠ كتابه إلى المقوقس حاكم مصر من قبل الرومان، حمله الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة.

كما بعث النبي ﷺ بعض المبعوثين دعاة إلى الله عز وجل، فقد أرسل الصحابي الجليل جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع الحميري وذي عمرو يدعوهما إلى الإسلام فأسلما، كما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن أيضًا، داعيًا إلى الإسلام، فأسلم على يديه كثير من ملوك اليمن وأشرافها.

انطلق هؤلاء السفراء والمبعوثون حاملين لواء الدعوة الجديدة التي يدعو إليها النبي ﷺ، تلك الدعوة التي ترتفع بالإنسان إلى أسمى مراتب الإنسانية، وتحرر عقله من أساطير الشرك وتأليه البشر، فيرى الحق ويتبعه، وتطلق العنان لقلبه ليبصر النور الإلهي، وتضع الإنسان في قواعد العقيدة الصحيحة التي توازن بين الروح والجسد، لتبلغ غاية ما يستطيع بلوغها من قوة على الحياة، وتسمو بالإنسانية جميعًا لتكون في مكانها الحقيقي الذي خلقها الله من أجله.

ردود الفعل الدولية لخطابات النبي ﷺ:

١ موقف هرقل:

لما وصل هذا الكتاب إلى هرقل قال: انظروا لنا من قومه أحدًا نسأله عنه، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة، فجاءت رسل قيصر لأبي سفيان ودعوه لمقابلة الملك، فأجاب.

ولما قدموا عليه في القدس قال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا: لأنه لم يكن في الركب من بني عبد مناف غيره: فقال الملك له: ادن مني. ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلفه.

ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، وقد جعلتكم من خلفه كيلا تخجلوا من رد كذبه إذا كذب، ثم سأله: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟

قال: هو فينا ذو نسب. قال: هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله؟ قال: لا. فقال الملك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قال: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فأجاب أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

قال الملك: فهل يزيدون أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون. قال: هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ قال: لا. قال: هل يغدر إذا عاهد؟ قال: لا، ونحن الآن منه في ذمة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال الملك لأبي سفيان: فهل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف حربكم وحربه؟ قال: الحرب بيننا وبينه سجال، مرة لنا ومرة علينا. قال: فبِمَ يأمركم؟ قال: يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهى عمّا كان يعبد آباؤنا، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة...

وبعد أن انتهى الملك من أسئلته لأبي سفيان وجه إليه الكلام قائلًا إني سألتك عن نسبه، فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها...

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فزعمت: أن لا، فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتمّ بقولٍ قيل قبله.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت: أن لا، فقلت: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فقلت: لا. فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: أأشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: ضعفاؤهم. وهؤلاء هم أتباع الرسل.

وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلت: بل يزيدون. وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ فقلت: لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل قاتلتموه؟ فقلت: نعم، وإن الحرب بينكم وبينه سجال. وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة.

وسألتك: بماذا يأمر؟ فزعمت: أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت: أن لا. وكذلك الرسل لا تغدر. فعلمت أنه نبي.

وقد علمت أنه مبعوث، ولم أظن أنه فيكم، وإن كان ما كلمتني به حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، ولو أعلم أني أخلص إليه لتكلفت ذلك.

قال أبو سفيان: فعلَتْ أصوات الذين عنده وكثر لغطهم، فلا أدري ما قالوا وأُمر بنا فأخرجنا... فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال: لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافَه ملك بني الأصفر.

ولما سار هرقل إلى حمص أذن لعظماء الروم أن يلتقوا به، ثم أمر بالأبواب، فأغلقت، ثم قال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم، فتبايعوا هذا النبي؟

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها مغلقة.

فلما رأى الملك نفرتهم قال: ردوهم علي، فقال لهم: إني قلت مقالتي كي أختبر بها شدتكم على دينكم. فسكتوا له ورضوا عنه.. وهذا غلبه حب مُلكه على الإسلام، فذهب بإثمه وإثم رعيته[١].

وأما الرسول الذي كان يحمل رسالة النبي ﷺ وهو دحية الكلبي، فقد رده هرقل ردًّا جميلًا[٢].

٢ موقف كسرى:

أمّا كسرى ملك الفرس فإنه ما لبث حين تلى عليه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام أن استشاط غضبا وشقّ الكتاب، وكتب إلى بازان عامله على اليمن يأمره بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذي بالحجاز. ولعله كان يحسب في هذا

(١) البخاري: الصحيح، (٦)، في باب بدء الوحي، ومسلم، (١٣٩٣).
(٢) انظر: إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، (ص١٤٦).

www.almoslih.net

ما يخفّف من آثار هزائمه أمام هرقل. فلمّا بلغت النبيّ مقالة كسرى وما فعل بكتابه قال: «مزّق الله ملكه»[١].

وأوفد بازان رسله برسالة إلى النبي ﷺ. وفي هذه الأثناء كان كسرى قد خلفه شيرويه، وكان النبيّ قد عرف ذلك فأخبر رسل بازان به، وطلب إليه أن يكونوا رسله إلى بازان يدعونه إلى الإسلام.

وكان أهل اليمن قد عرفوا ما حلّ بفارس من هزائم، وقد شعروا بانحلال سلطانها عنهم، وقد اتّصلت بهم انتصارات النبي ﷺ على قريش وقضاؤه على سلطة اليهود. فلما رجع رسل بازان إليه وأبلغوه رسالة النبيّ ﷺ، كان سعيدا بأن يسلم وأن يبقى عاملا للنبي ﷺ على اليمن.

وماذا ترى يطلب النبي ﷺ إليه، وما تزال مكة بينه وبينه؟ إذن .. فله الغنم بعد أن تقلّص ظلّ فارس في أن يحتمي بالقوّة الناشئة الجديدة في بلاد العرب من غير أن تطلب إليه هذه القوّة شيئا[٢].

ولعلّ بازان لم يقدّر يومئذ أن انضمامه إلى النبي ﷺ كان نقطة ارتكاز قوية للإسلام في جنوب شبه الجزيرة، كما دلّت الأحوال عليه بعد عامين اثنين[٣].

٣ موقف المقوقس:

وكان ردّ المقوقس عظيم القبط في مصر غير ردّ كسرى، بل كان أجمل من ردّ هرقل. فقد بعث إلى النبي ﷺ يخبره أنه يعتقد أن نبيّا سيظهر، ولكنه سيظهر في الشام، وأنه استقبل رسوله بما يجب له من إكرام، وأنه بعث معه بهديّة. جاريتين وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وبعض خيرات مصر.

---

(١) البخاري، برقم (٦٤، ومواضع أخرى)، باب ما يذكر في المناولة.. إلخ.
(٢) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (١١/٣٦٢).
(٣) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (١١/٣٦٢)، الطبري، (٢/٦٥٤).

أمّا الجاريتان فمارية التي اصطفاها النبي ﷺ لنفسه والتي ولدت له إبراهيم من بعد، وسيرين التي أهديت إلى حسّان بن ثابت.

وأمّا البغلة فأسماها النبيّ ﷺ دلدلا، وكانت فريدة ببياضها بين البغال التي رأتها بلاد العرب.

وأمّا الحمار فأسماه عفيرا أو يعفورا.

وقبل النبي ﷺ هذه الهدية، وذكر أن المقوقس لم يسلم خشية أن يسلبه الروم ملك مصر، وأنه لولا ذلك لآمن ولكان حظّه الهدى[١].

٤ موقف النجاشي:

وكان طبيعيّا، بعد الذي عرفنا من صلات نجاشي الحبشة بالمسلمين، أن يكون ردّه جميلا، حتى لقد ورد في بعض الروايات أنه أسلم وإن أثارت طائفة من المستشرقين الشك حول إسلامه هذا.

على أن الرسول ﷺ بعث له غير كتاب دعوته إلى الإسلام بكتاب آخر يطلب إليه ردّ المسلمين الذين أقاموا بالحبشة إلى المدينة.

وقد جهّز لهم النجاشي سفينتين حملتاهم وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب ومعهم أمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان بعد أن مات زوجُها عبد الله بن جحش الذي جاء إلى الحبشة مسلما ثم تنصّر، وبقي على نصرانيته حتى مات. وقد أصبحت أمّ حبيبة بعد عودها من الحبشة من أزواج النبي ﷺ، ومن أمهات المؤمنين.

وأمّا أمراء العرب: فقد ردّ أمير اليمن وعمان على رسالة النبيّ ردّا فاحشا.

ورد أمير البحرين ردّا حسنا وأسلم.

---

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/٢٩٦)، وما بعدها "بتصرف".

وردّ أمير اليمامة مظهرا استعداده للإسلام إذا هو نصب حاكما؛ فلعنه النبي لمطامعه. ويذكرون أنه لم يلبث إلا عاما بعد ذلك ثم مات.

أما المنذر الغساني فقد رمى بكتابه ﷺ، وعزم أن يسير لقتاله، وكتب بذلك إلى هرقل، فكتب إليه هرقل ألا يفعل[١].

حملات بين خيبر وعمرة القضاء:

١ غزوة ذات الرقاع:

اختلف المؤرخون في تاريخ هذه الغزوة، ولكن المؤكد أنها وقعت بعد خيبر، فإن هذه الغزوة شهدها الصحابيان الجليلان أبو هريرة الدوسي، وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما، وكان إسلام أبي هريرة قبل غزوة خيبر بأيام، وكذلك أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، فقد وفد إلى النبي ﷺ وهو بخيبر.

وقد جزم البخاري بأنها وقعت بعد خيبر[٢]، وهناك دليل آخر على تأخر هذه الغزوة، ألا وهو أن النبي ﷺ صلى فيها صلاة الخوف.

فعن جابر رضي الله عنه قال: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى ذَاتِ الرِّقَاعِ مِن نَخْلٍ، فَلَقِيَ جَمْعًا مِنْ غَطَفَانَ، فَلَمْ يَكُنْ قِتَالٌ، وَأَخَافَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ رَكْعَتَي الْخَوْفِ»[٣].

وكان تشريع صلاة الخوف أول مرة في غزوة عُسْفَان، ولا خلاف أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق في أواخر السنة الخامسة.

---

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/٣٠٣)، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (١١/٣٥٧)، والسيابة: القطعة من الأرض.
(٢) البخاري، برقم (٤١٢٥)، باب غزوة خيبر.
(٣) البخاري، برقم (٤١٢٧)، باب غزوة خيبر.

وسميت هذه الغزوة "ذات الرقاع" لأنها كانت وقت الحر، ومعظم الجيش حفاة، فأوهنت الحجارة أقدامهم، فكانوا يشدون عليها الرقاع والخرق.

وسار النبي ﷺ بهذا الجيش حتى وصل إلى مكان يدعى "نخلا"، من أرض غطفان، فلقي بها جمعا عظيما منهم؛ فتقارب الجيشان وقد خاف بعضهم بعضا حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف؛ واعتصم أهل غطفان بشعاب الجبال وتحصنوا بها، مما كان سببا في عودة النبي ﷺ من هذا الغزوة دون أن ينشب قتال بين الفريقين.

مواقف من هذه الغزوة:

وقد حدث في هذه الغزوة بعض المواقف ذات الأثر العميق في الدعوة إلى الله، وتبين عظمة هذا الدين في نفوس المسلمين الأوائل. كما تبين أيضًا نصرة الله عز وجل لهذا الدين. ومن هذه المواقف ما يأتي:

١ ثلاث سهام وثبات كالجبال :

نزل رسول الله ﷺ وهو في عودته من الغزوة في شعب من شعاب أحد الوديان، فقال لأصحابه: «من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟» فانتدب لذلك رجل من المهاجرين، ورجل من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: «فكونا بفم الشعب».

فلما خرج الرجلان إلى الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل تحبّ أن أكفيكه أولَه أم آخره؟ قال: بل اكفني أوله. فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلي.

فأتى رجل من المشركين يتبع القوم، فلما رأى شخصَ الأنصاري عرف أنه ربيئة القوم[١]، فرمى بسهم فوضعه فيه، فنزعه الأنصاري ووضعه وثبت قائمًا؛ ثم

---

(١) الربيئة: الحارس المراقب للعدو.

رماه بسهم آخر فوضعه فيه، فنزعه وثبت قائما؛ ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه، فنزعه الأنصاري فوضعه ثم ركع وسجد، ثم أيقظ صاحبه فقال له: اجلس فقد أثبتّ(١).

فوثب المهاجري قائما. فلما رآهما الرجل عرف أنهما قد نذرا به، فهرب.؟ فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله! أفلا أهببتني(٢) أول ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها(٣) فلما تابع على الرمي ركعت، فآذنتك(٤).

وايم الله لو لا أن أضيع ثغرا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطع السورة»(٥)!.

ب معجزة للنبي ﷺ:

وفي هذه الغزوة حدثت معجزة للنبي ﷺ يرويها جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه: «غَزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمُ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ.

فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ، وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ وَنِمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُونَا، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي، وَأَنَا نَائِمٌ فَاسْتَيْقَظْتُ، وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي فَقُلْتُ: اللهُ ـ ثَلَاثًا ـ وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ»(٦).

---

(١) أثبت: أصبت إصابة تمنعني الحركة. (٢) أهببتني: أيقظتني.
(٣) أنفذها: أتمها. (٤) آذنتك: أعلمتك.
(٥) ابن هشام: السيرة، (٤/١٦٤).
(٦) البخاري، برقم (٢٩١٠، ومواضع أخرى)، باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة.

وفي رواية أن النبي ﷺ عرض عليه الإسلام وقال له: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال: أعاهدك على أني لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى رسول الله ﷺ سبيله، فجاء إلى قومه، فقال: جئتكم من عند خير الناس. وأسلم هذا بعدُ، وكانت له صحبة»(١).

وقد سبقت معجزة أخرى شبيهة بهذه المعجزة التي نتحدث عنها، وقد أجاب العلماء على ذلك بأن «هذه واقعة غير الواقعة المتقدمة في غزوة ذي أمر فهما واقعتان منفصلتان»(٢).

٢ سرايا تأديبية صغيرة:

في هذا الوقت كان ينبغي على المسلمين أن يقوموا ببعض الأعمال التي تساعد على استتباب الأمن في المنطقة كلها، حتى لا يفكر الأعراب وشذاذ القبائل، وبقايا التحالف الوثني اليهودي المشترك يوم الأحزاب في الإغارة على المدينة.

فقد كانت القبائل العربية الوثنية آنذاك تعامل المدينة معاملة القبيلة الجاهلية، ولا تبالي أن تنتهز منها غفلة لتُغير عليها في حملة عشوائية سريعة، كما يفعل اللصوص، ثم العودة إلى رؤوس الجبال والاعتصام بها، أو الفرار عشرات الأميال بعيدا عن المدينة، بعد أخذ ما يقدرون عليه من النعم والشاء، ثم يعاودون الكرة بعد ذلك.

ومن هنا كان ينبغي على المسلمين أن يظهروا قوتهم لهؤلاء المغيرين وأنهم على مرمى البصر منهم، حتى لا يفكروا في غزو المدينة مطلقا.

ومن ثم فقد بعث النبي ﷺ بعض هذه السرايا إلى هذه الجيوب الصغيرة المبعثرة هنا وهناك؛ كي تقضي على هذه العصابات التي تشكل خطرا، وتعدّ مصدر قلق أمني بالغ على مقدرات المدينة وأهلها.

---

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٥٧٤)، ابن كثير: السيرة النبوية، (٣/١٦٤).
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٥٧٤).

www.almoslih.net

وأهم هذه السرايا هي :

أ- سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد بعثه النبي ﷺ في ثلاثين راكبا إلى تربة القريبة من الطائف في شعبان العام ٧ هـ [1]، لملاقاة قبيلة هوازن، وخرج معه دليل من بنى هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر هوازن، فهربوا، وجاء عمر بن الخطاب محالّهم، فلم يلق منهم أحدا فانصرف راجعا إلى المدينة[2].

ب- سرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى بني فزارة بوادي القرى، فوقع بين الفريقين قتال، كان نتيجته أن انهزمت بنو فزارة، وأسر منهم عدد من النساء والذرية، وعاد بهم أبو بكر الصديق إلى المدينة.

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «غزونا فزارة وعلينا أبو بكر، أمّره علينا رسول الله ﷺ، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا أبو بكر فعرسنا، ثم شن الغارة، فورد الماء فقتل من قتل عليه، فأنظر إلى عنق من الناس فيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل فلما رأوا السهم وقفوا فجئت بهم أسوقهم»[3].

ج- سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بفدك، حيث بعثه رسول الله ﷺ في ثلاثين رجلا، فخرج إليهم، فوجدهم في بواديهم، فاستاق النعم والشاء، وانحدر إلى المدينة.

وسرعان ما علم القوم خبره، فزحفوا خلفه حتى أدركه منهم عدد كثير عند الليل، فباتوا يترامون بالنبل، حتى فني نبل أصحاب بشير، فلما أصبحوا حملوا

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٣٢٨).
(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، (٢/١٥٣).
(٣) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٦/٩٢).

على بشير وأصحابه، فقتل منهم عدد كبير، وأصيب بشير إصابة كبيرة حتى ألجأته أن يمرض عند يهودي، ورجع بنو مرة بأنعامهم وشائهم، وعاد بشير بن سعد إلى المدينة بعد ذلك[1].

د- سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى بني عوال وبني عبد بن ثعلبة بالميفعة، فقد بعثه رسول الله ﷺ في رمضان من تلك السنة[2] في مائة وثلاثين رجلا لبني عوال وبني عبد بن ثعلبة بالميفعة، ودليلهم يسار مولى رسول الله ﷺ.

فوقع بين الفريقين قتال كان من نتيجته أن قتل جمع من أشرافهم، وغنم المسلمون بعض أنعامهم، وغنمهم ولم يأسروا أحدا[3].

هـ- سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى عيينة بن حصن الفزاري، بعد أن بلغت النبي ﷺ أنباء تفيد بأن عيينة بن حصن قد واعد جمعا من غطفان بالجناب قرب خيبر ليكونوا معا في الزحف على المدينة.

فعقد سرية بشير من ثلاثمائة رجل في شوال سنة ٧ هـ، وقد هاجمت السرية ديارهم وأصابت غنائم كثيرة من الأنعام، وانتهت بفرار عيينة ومن معه، وأسر المسلمون منهم رجلين، قدم بهما بشير بن سعد إلى المدينة، فأسلما فأطلق النبي ﷺ أسرهما[4].

و- سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى بني مُرّة بفدك، حيث أصيب أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنه في مائتي رجل، فسار غالب رضي الله عنه

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/١٩٢).
(٢) ابن حبيب: المقتفى، (ص٦٢).
(٣) الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/١٩٢).
(٤) الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/١٩٤)، وما بعدها.

إلى أن أصبح القوم، فأغاروا عليهم، ووقع قتال كبير بين الفريقين انتهى بهزيمة بني مرة، وقد قتل منهم عددا من رجالهم وساقوا بعض الغنائم من النعم.

ز) سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى الحرقة من جهينة، وهذه الغزوة هي التي قتل فيها أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما رجلا بعد ما قال لا إله إلا الله، ولامه الرسول ﷺ على ذلك لوما شديدا، حتى تمنّى أسامة أنه لم يكن أسلم إلا يومئذ.

عُمرَةُ القَضَاء

كان من بين شروط صلح الحديبية ـ كما سبق بيانه ـ أن يرجع المسلمون هذا العام دون عمرة، ثم يأتون في العام القادم فيخلي لهم أصل مكة منطقة الحرم ثلاثة أيام يؤدون فيها المناسك، ولا يدخلونها إلا بسلاح المسافر، السيوف في أغمادها[1].

وقد حل موعد تنفيذ هذا الشرط، فخرج النبي ﷺ لأداء هذه العمرة التي سميت بعمرة القضاء، وخرج معه ألفان من المسلمين سوى النساء والصبيان[2]. ومنهم الذين شهدوا صلح الحديبية العام الماضي، في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة[3]، ميمّمين نحو مكة المكرمة لأداء العمرة، حسب الشروط المنصوص عليها في معاهدة الحديبية.

وتشير رواية عن موسى بن عقبة أن المسلمين قد أخذوا معهم أسلحتهم وذلك خشية من غدر قريش[4]، ولم يدخلوا بها الحرم حسب المعاهدة، ولكنهم أبقوها خارج حدود الحرم في يأجج[5]، وتركوا عليها مجموعة من المسلمين لحراستها[6]، قدرها مائتا رجل، ودخل النبي ﷺ والمسلمون مكة بغير سلاح والسيوف في غمدها.

(١) فتح الباري، (٧/٤٤٩).
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/١٩٤)، وما بعدها.
(٣) ابن حزم: جوامع السيرة، (ص٢١٩).
(٤) البيهقي: الدلائل، (٤/٣١٤)، ابن سعد: الطبقات الكبرى، (٢/١٢١).
(٥) موضع على بعد ثمانية أميال من مكة بعد التنعيم.
(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، (٢/١٢٢).

وهذا الصنيع من النبي ﷺ يدل على شدة الاحتياط والحذر من غدر قريش، وتقدير الأمور بمقاديرها الصحيحة، فإن المسلمين وهم محرِمون، إذا كان السلاح بعيدا عنهم، فإنهم غنيمة باردة في يد قريش وحلفائها.

فكان لا بد من الحذر، فإن تمت الأمور كما هو متفق عليه كان ذلك خيرا، وإن شعروا بالغدر كانوا في قوة ومنعة، ومعهم ما يدافعون به عن أنفسهم.

وكان دخول الرسول ﷺ بصحبة المسلمين إلى مكة مشهدا مهيبًا، وكانوا يجأرون بالتكبير والتلبية، وتقدم عبد الله بن رواحة ليمشي بين يدي رسول الله ﷺ، وهو ينشد:

خلّـوا بنـي الكفار عن سـبيله ... اليـوم نضربكـم علـى تنزيلـه
ضربـا يزيـل الهام عـن مقيله ... ويذهـل الخليـل عـن خليلـه

فقال له عمر ﵁: يا ابن رواحة، أبين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال النبي ﷺ: «خلِّ عنه فهي أسرع فيهم من نضح النبل»[1].

حتى إذا بلغ الحرم وطاف رسول الله ﷺ، قال له رسول الله ﷺ: «إيها يا ابن رواحةَ قل: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده»[2].

فجعل ابن رواحة يقولها، والناس من ورائه يرددونها في حماسة وقوة، فتتجاوب أصداؤها في جنبات مكة كلها، لتصل إلى مسامع قريش وهم يرمقون صحابة رسول الله ﷺ من بعيد وهم يؤدون المناسك، فهم قد تركوا لهم المكان كما اتفقوا.

(١) سنن الترمذي، برقم (٢٨٤٧)، باب ما جاء في إنشاد الشعر. قال الألباني: "صحيح".
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٧٨٤).

وتجمعت قريش على جبل قعيقعان[1] المواجه للركن العراقي من البيت العتيق، ينظرون إلى المسلمين في طوافهم وسعيهم.

فطاف المسلمون مع النبي ﷺ بالبيت العتيق، وأظهروا من القوة والجلد في طوافهم وسعيهم ما أغاظ قريشا وحلفاءها.

وإنما فعلوا ذلك لأن النبي ﷺ أمرهم به، وقال: «رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة»[2]، ثم انطلق يهرول حول البيت، وأصحابه يهرولون معه حتى انتهت الأشواط الثلاثة الأولى، ثم مشى بهم بقية الأشواط السبعة.

وإنما صنع النبي ﷺ ذلك ليكون ردّا عمليا على إشاعة قريش بأنهم ضعفاء "قد وهنتهم حمّى يثرب". حتى إن المشركين عجبوا لما رأوا من قوة المسلمين ونشاطهم، واصطف الرجال والنساء والصبيان حول البيت ينظرون إليهم وهم يطوفون به، ويقول بعضهم لبعض: "ما يرضون بالمشي، وأما أنهم لينقزون نقز الظباء"[3].

فلما انتهى الطواف توجه النبي ﷺ بأصحابه إلى المسعى، فسعى على راحلته بين الصفا والمروة، ثم وقف ﷺ عند المروة، وقال: «هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر». ثم نحر هديه عند المروة، وتبعه المسلمون، فمن وجد بدنة من الإبل نحرها، ومن لم يجد نحر بقرة؛ ثم حلق ﷺ، وحلق أصحابه، وأحلوا بذلك من عمرتهم.

وبمجرد أن تحلل النبي ﷺ من مناسك العمرة هو ومن معه، أمر مجموعة من أصحابه الذين معه أن يتوجهوا إلى موضع السلاح فيقوموا هم بالحراسة،

(١) مسند أحمد، برقم (٢٠٢٩)، قال مخرجوه: "إسناده صحيح".
(٢) ابن هشام: السيرة، (٥/١٨)، وانظر مسند أحمد، (٢٠٢٩)، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، (٤/٤٣١).
(٣) السيوطي: الخصائص الكبرى، (ص٤٣٣).

www.almoslih.net

ويرسلوا إخوانهم الذين كانوا يحرسون السلاح لأداء نسكهم[(١)]. وظل النبي ﷺ مع أصحابه ثلاثة أيام في أرض الحرم لا يتعرض لهم أحد بأذى.

ولما انقضت الأيام الثلاثة على إقامة النبي ﷺ والمسلمين في مكة، جاء المشركون من قريش إلى علي بن أبي طالب وقالوا له: "قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل"[(٢)]، فخرج النبي ﷺ من مكة في اليوم الرابع، ونزل بسَرِف، فأقام بها إلى أن تتامّ الناس، ثم انصرف بهم إلى المدينة[(٣)].

وتزوج النبي ﷺ في هذه الأثناء ميمونة بنت الحارث الهلالية وبنى بها في الطريق، وهم نازلون بسرف.

وقد نزل في عمرة القضاء هذه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

أخرج ابن جرير بإسناد "عن مجاهد، في قوله (الرؤيا بالحق) قال: أري بالحديبية أنه (ﷺ) يدخل مكة وأصحابه محلقين.."[(٤)].

قال ابن كثير: "فلما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذاك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء"[(٥)].

ففي صحيح البخاري «...قال عمر بن الخطاب ﷺ: فأتيت النبي ﷺ (بعد كتابة الصلح) فقلت: ألستَ نبيَّ الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٧٨٥).
(٢) البخاري، برقم (٤٢٥١)، باب عمرة القضاء.
(٣) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٥/١٩٤).
(٤) تفسير الطبري، (٢٦/١٠٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم، (٧/٣٥٦).

قال: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري. قلت: أو ليس كنتَ تحدثنا أنا سنأتي البيت، فنطوفَ به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه هذا العام، قال قلت: لا. قال فإنك آتيه ومطوف به...»[(١)].

قال ابن كثير: "ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:٢٧]. وهذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء"[(٢)].

أما قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:٢٧]، فقد ساق ابن جرير إسنادا "عن مجاهد، قال: النحر بالحديبية، ورجعوا فافتتحوا خيبر، ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة القابلة.."[(٣)].

(١) صحيح البخاري، كتاب الشروط ـ باب الشروط في الجهاد، (٢٧٣١،٢٧٣٢)، (٥/٣٣١-٣٣٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم، (٧/٣٥٦).
(٣) تفسير الطبري، (٢٦/١٠٨).

دروس وعبر

❶ كان الكبر والحسد عند اليهود يحملانهم على معاداة هذا الدين، وهذا هو منشأ الداء الحقيقي عند اليهود، فكانوا يؤلبون القبائل على رسول الله ﷺ، ولا يتركون فرصة يكيدون بها الإسلام إلا انتهزوها، مما أورث في صدورهم نارًا حارقة، ما زالت تؤججها طبيعة متأصلة في نفوسهم من البغض والعداوة، والرغبة الجامحة في الانتقام والتشفّي من هذا النبي ﷺ وأتباعه الذين أذاقوهم مر العذاب.

❷ بسالة المسلمين في القتال مع اليهود والدفاع عن العقيدة لاستئصال الخطر اليهودي الذي يهددها، فقد كانت خيبر منطقة حصينة، مقسمة إلى ثلاث مناطق حربية، كل منها به مجموعة من الحصون المنيعة، كل حصن من وراء أخيه، بحيث لو سقط منها حصن، توجه اليهود إلى الحصن الذي يليه.

وهو نظام مجهد جدا من الناحية العسكرية، ويحتاج إلى صبر وجلد وعزيمة على القتال، ومع ذلك استطاع المسلمون بالاستعانة بالله والصبر والثبات إسقاط هذه الحصون واحدا تلو الآخر، حتى فتحوا خيبر.

❸ تأصل طبائع الغدر ونكث العهود عند اليهود، وحبهم الشديد للمال، حتى لقد دفع بعضهم حياته وحياة بنيه لخيانة مالية حيث أنكروا بعض الذهب الذي أخفوه عن النبي ﷺ، ناقضين بذلك اتفاقهم.

❹ ضرورة احترام الأعراف الدولية، ومراعاتها عند مخاطبة الملوك والرؤساء، وتذليل كل ما يؤدي إلى إفساد العملية الدعوية، حتى ولو كان أمرا شكليا، فقد اتخذ النبي ﷺ خاتما من فضة، لما علم أن الملوك لا ينظرون إلى الكتب إلا إذا كانت مختومة بخاتم صاحبها.

❺ حسن اختيار السفراء وضرورة أن يكونوا من ذوي المهارات الخاصة، والأهلية الكاملة لمثل هذه السفارات، فهم ليسوا سعاة بريد، ولكنهم نواب عن أقوامهم، فلا بد أن يدركوا جيدا طبيعة المهمة التي وكلوا بها، وأن يكون معهم من العلم وسرعة البديهة ما يستطيعون به الرد على كل سؤال أو شبهة ترد إليهم ممن أرسلوا إليهم.

❻ ضرورة أن يستشعر المسلمون اليوم عظم المسؤولية الملقاة على عاتقهم، من حمل أمانة تبليغ هذا الدين، على الرغم مما بهم من ضعف، فإن الله عز وجل قد تكفل بنصرة هذا الدين، وإن البشرية اليوم متعطشة إلى من ينتشلها من ظلمات المادية التي طغت على مفاصل الحياة العالمية، ليعبّد لها الطريق إلى النور والسعادة في الدنيا والآخرة.

❼ ضرورة أخذ الاحتياط والحذر من العدوّ مهما كان هناك من الوعود والتطمينات، وتقدير الأمور بمقاديرها الصحيحة، مع الوفاء لهم بالشروط التي اشترطها المسلمون على أنفسهم، كما صنع النبي ﷺ في عمرة القضاء من أخذ السلاح معه حتى لا يكونوا غنيمة باردة في يد قريش وحلفائها، وتركه بعيدا عن حدود مكة حسب ما هو متفق عليه.

❽ اليهود لا عهد لهم ولا ذمة: فلم يحترموا ذمة، ولم يصونوا عهدًا.. لا في قديم ولا في حديث، فنقضوا العقود، وأفشلوا المواثيق.

وانظر حالهم في القديم وفي الحديث، وكيف يبدأ المفاوضون معهم من نقطة الصفر في كل مرة، فكل عهد جديد ينسخ ما مضى من عهود، وكل ميثاق حديث يزيل ما مضى من مواثيق، وجديد العقود كقديمها، فلا يقر لهم عهد، ولا يثبت لهم عقد.

هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٥

العَام الثَّامِن الهِجرِي

أحداثٌ مُتفَرِّقَةٌ

١ إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص:

كان خالد بن الوليد وعمرو بن العاص من رجال قريش المعدودين ذكاء وفطنة وفروسية وسياسة، ولعلك لاحظت تردد اسمهما وقوة دورهما في صفوف المجتمع القرشي في الفصول السابقة.

فقد كان عمرو بن العاص من أفذاذ العرب في الدهاء السياسي وحسن معالجة الأمور، وأما خالد فكان أعلَم العربِ بأساليب القتال وفنون الحرب، حتى كان قائد فرسان المشركين في الجاهلية.

وكان إسلام هذين الرجلين خالد وعمرو في صفر سنة ثمان من الهجرة، بعد عمرة القضاء، فأثر ذلك على قريش ومكانتها بين العرب، حيث أضحى يدخل في دين النبي ﷺ كل ذي نباهة وعقل من قريش، مما كان يزيد قريشا ضعفا ويصيبها بالوهن.

وفي الناحية الأخرى: يقوي جانب الإسلام، ولذا فرح النبي ﷺ بإسلامهما فرحا شديدا، يذكرنا بفرحه بإسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب في بداية الدعوة.

وكان إسلام هذين الرجلين متزامنا مع بعضهما، حيث خرج خالد بن الوليد مع صديقه عثمان بن طلحة، مسلمَين إلى رسول الله ﷺ، فأدركا عمرو بن العاص في طريقه إلى المدينة، فاصطحبوا جميعا حتى قدموا المدينة على رسول الله ﷺ. فلما وصلوا المدينة أناخوا ركابهم بظهر الحرة، فأخبر بهم رسول الله ﷺ، فسُرَّ بهم وقال لأصحابه: «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها»[١].

قال خالد: «فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي، فقال: أسرع، فإن رسول الله ﷺ قد سُر بقدومكم، وهو ينتظركم». فأسرعنا المشي فاطلعت عليه. فما زال ﷺ يبتسم حتى وقفنا عليه.

فسلمت عليه بالنبوة، فردّ على السلام بوجه طلق. فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله! قال: «الحمد الله الذي هداك! قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير». قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يغفر لي تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك، فقال ﷺ: «الإسلام يجب ما كان قبله»[٢]. وتقدم عمرو وعثمان فأسلما[٣].

ويقول عمرو بن العاص: «قدمنا المدينة فأنخنا بالحرة فلبسنا من صالح ثيابنا، ثم نودي بالعصر، فانطلقنا حتى اطلعنا عليه ﷺ، وإن لوجهه تهللا والمسلمون حوله قد سُرّوا بإسلامنا، فتقدم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع، ثم تقدمت، فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه ﷺ فما استطعت أن أرفع طرفي حياء منه ﷺ.

قال: فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولم يحضرني ما تأخر، فقال ﷺ: «إن الإسلام يجب ما كان قبله، والهجرة تجب ما كان قبلها». فوالله ما عدل بي

---

(١) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (١٢٧/٢).
(٢) السيوطي: الخصائص، (ص٤١٩).
(٣) الحلبي: السيرة الحلبية، (٧٧٨/٢).

رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحدا من الصحابة في أمر حزبه[١] منذ أسلمنا، ولقد كنا عند أبي بكر ؓ بتلك المنزلة، ولقد كنت عند عمر ؓ بتلك الحالة، وكان عمر ؓ على خالد كالعاتب»[٢].

لقد كان النبي ﷺ يعرف أقدار الرجال جيدا، ويعلم ما يتمتعون به من ثقل سياسي وعسكري، ولذا سُرّ بإسلام هذا الوفد الكريم، واكتسب الإسلام قائدين عظيمين كان لهما في محفل التاريخ الإسلامي تاريخ مضيء، فلم يزل رسول الله يولّي خالدًا قيادة السرايا، وأطلق عليه لقبه الخالد الذي يذكر به في كتب السير والتاريخ، «سيف الله المسلول».

(٢) سرية مؤتة:

كانت سرية مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، بعد عمرة القضاء بنحو خمسة أشهر. وقد سماها البخاري وابن إسحاق «غزوة مؤتة» لكثرة جيش المسلمين فيها، وإن لم يخرج فيها النبي ﷺ. ومؤتة قرية من قرى البلقاء، في حدود الشام من ناحية الحجاز، على مرحلتين من بيت المقدس، شرقي البحر الميت.

أسباب الغزوة:

هزّ المسلمين وهم القلة المضطهدة وهم في مكة نبأُ الهزيمة الساحقة التي مُنِيَ بها الروم المسيحيون على أيدي الفرس الوثنيين، وأصيبوا بحزنٍ عميقٍ إزاء الفرح الغامر الذي غمر قلوب مشركي قريش، وتنْزل آيات القرآن الكريم تتحدّث عن الواقعة الحاسمة، وتتنبأ بالانتصار الحاسم الذي سيحققه المعسكر النصراني ضد أعدائه المجوس، حيث يفرح المؤمنون:

---

(١) حزبه: أهمّه وأقلقه.
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٧٧٨/٢).

www.almoslih.net

﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الرّوم: ١-٤].

وقد تحقّقت النبوءة القرآنية التي لا تخطئ، وفي بضع سنين أَلْحَقَت القوات البيزنطية بقيادة هرقل هزيمة ساحقة بالقوات الفارسية، استردت في أثرها بلاد الشام، وفلسطين، وأجزاء واسعة من العراق، وذهب هرقل إلى بيت المقدس لكي يسجد شكرًا لله، وغمرت الفرحة القلّة المضطهدة في ظلمات الوثنية.

لكن هذا كُلُّه لم يمنع الكثرة من النصارى العرب أن تلعب دورها في العصر المدني بمواجهة الإسلام، وتتّخذ المواقف العدائية ضدّه على شتّى المستويات، بدفع من الدولة والكنيسة الرومانية في معظم الأحيان، وبمعزلٍ عنهما في بعض الأحيان[1].

وبمرور الوقت، واتساع نفوذ الإسلام شمالًا، ووصول أنباء انتصاراته على الوثنية واليهودية إلى قبائل الشمال، بدأ معسكر الروم يفتح عينيه على الخطر المحدق بوجوده من جهة الجنوب، وأغلب الظّن أن إمبراطور الروم وكبار قادته تصوّروا الأمر في بدايته مجرّد اندفاع قبلي كبير صوب الشمال، أو محاولة إمارة عربية ناشئة توسيع رقعتها الجغرافية كما كانت تفعل إمارة كِندة، أو إمارة تدمر، على سبيل المثال، ورأوا أنه بإمكان حلفائهم العرب أنفسهم أن يكفُوا إمبراطورية الروم عناء وقف هذا الامتداد، وصدّ هذه الإمارة الطموحة عن الامتداد إلى الشمال.

أكثر من هذا أنّهم اعتقدوا أنه بإمكان قبيلة من أتباعهم أن تتحرّك صوب الجنوب، لتضرب القوّة الجديدة في قاعدتها نفسها، وتقصم ظهرها، وأغلب الظنّ أيضًا أن هذا الاعتقاد هو الذي دفع القبائل القاطنة في دومة الجندل في أقصى الشمال، والتي يتزعمها أُكَيدِر بن عبد الملك الكِنْدِي، الذي يدين بالنصرانية، ويخضع لهرقل، إلى أن تتجمع وتتهيأ في زحفٍ سريعٍ لضرب المسلمين في المدينة في ربيع من السنة الخامسة للهجرة، إلاّ أنّ الرسول ﷺ أخذ زمام

(١) عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، (٢٨١-٢٨٢).

المبادرة، وتحرّك بسرعة صوب الشمال على رأس ألف من أتباعه، ومن أجل أن يباغت القوم في ديارهم أخذ يسير بأصحابه ليلًا ويكمن نهارًا، حتى اقترب من هدفه، فجعلت القبائل العربية القاطنة هناك تهرب من بين يديه، لا تلوي على شيء، وبعد أن بثّ سراياه في المنطقة، قفل الرسول ﷺ عائدًا دون أن يلقى من العدوّ كيدًا.

وفي أعقاب صلح الحديبية بعث الرسول ﷺ أربعة من رجاله إلى العالَم النصراني: دِحْيَة بن خليفة الكلبي إلى الإمبراطور البيزنطي هرقل، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقِس حاكم مصر، وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي حاكم الحبشة، وشجاع بن وهب الأسدي إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمّر الغساني حاكم دمشق.

لقد أوضحت تلك الكتب والرسائل التي بعثها رسول الله ﷺ إلى ذلك العالم "أنّ هذا الدين ليس دين عربٍ أو جزيرة عربية، وإنّما هو دين الإنسان حيثما كان هذا الإنسان، ونداء إلى السلطات الحاكمة أن تستجيب للدعوة أو تسمح ـ على الأقل ـ لدعاتها بممارسة نشاطها بحريّة، ولشعوبها في مقابلة هؤلاء الدعاة والاستماع إليهم لكي يختاروا عقيدتهم على بيّنةٍ، بعيدًا عن الضغط والقسر والإكراه، وإنذارًا لهذه السلطات بأنّها إن لم تُلَبِّ وتستجب، فإنّ جيوش الدعوة الجديدة ستسيح عمّا قريب في مشارق الأرض ومغاربها لكي تسقط التيجان، وتَثُلّ العروش، وتُنْزل السلطات من مناصبها العليا، وتخرج الناس بذلك وحده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده"[1].

ويبدو أنّ تلك السلطات بما لها من قوّة سياسية وعسكرية مؤثّرة في المنطقة، رأت في ذلك استفزازًا لها وتعدّيًا على كبريائها، وانتهاكًا لسيادتها على المنطقة،

(١) عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، (٢٨٣-٢٨٦، ٢٩٣).

فاستغلّت أقرب فرصة للتعبير عن رفضها القاطع للدعوة الجديدة، ومحاربتها بكلّ الوجوه، فكان ذلك التعدّي، وتلك المواقف الغادرة من بعض أمراء وقبائل المنطقة ضدّ الدعاة ـ الذين أرسلهم النبي ﷺ ـ إلى ذات أطلاح، ثُمَّ مقتل الحارث بن عمير الأزدي مبعوث النبي ﷺ إلى ملك بصرى.

فكان على الرسول ﷺ أن يتخذ موقفًا حاسمًا إزاء القبائل العربية النصرانية الموالية للبيزنطيين بعد المواقف التي اتّخذها بعض أمرائها من دعاة الإسلام ورسلهم إلى الشام[(١)].

فكانت غزوة مؤتة في السنة الثامنة، ولم يمض على إسلام خالد بن الوليد أكثر من ثلاثة أشهر، حتى رافق الجيش الذي بعثه النبي ﷺ إلى مؤتة، وهي قرية من قرى البلقاء، في حدود الشام من ناحية الحجاز، على مرحلتين من بيت المقدس، شرق البحر الميت.

وهدف السرية الرئيسي هو تأديب شرحبيل بن عمرو الغساني، وهو أحد عمال الروم في الشام، حيث إنه لقي الحارث بن عمير مبعوث النبي ﷺ إلى أمير بصرى، فلما عرف أنه من رسل النبي ﷺ اعتدى عليه وقتله[(٢)]، فارتكب بذلك جريمة منكرة لا يقرها عرف في أي عصر من العصور، فليس لأحد أن يسيء إلى الرسل مهما حوت الرسالة التي يحملها.

ويرى البعض نقلًا عن شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض رسائله، «أنَّ النَّبيّ ﷺ ما بعث إلى حرب الروم في مؤتة إلاّ بعد أن قَتَل الوالي الروماني مَن أسلم في الشام»[(٣)].

وكان نتيجة ذلك كله أن حث النبي ﷺ الناس على الجهاد، والخروج لنصرة الدين، وتأمين وصول الدعاة إلى الله عز وجل، فاجتمع له قرابة ثلاثة آلاف

(١) عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، (٢٩٤)، باختصار.
(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، (١٢٨/٢)، ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، (١٩٨/٢).
(٣) أبو زهرة: خاتم النبيين، (١١٣٩/٢).

مقاتل، فكانوا هم الذين خرجوا لهذه الغزوة، وهو أكبر جيش إسلامي يتم حشده حتى ذلك الوقت، فإنَّ جيش المسلمين في الحديبية، ثُمَّ في خيبر ـ وهما الغزوتان اللتان سبقتا مؤتة ـ لم يتجاوز حاجز الألفين، مِمَّا دلَّ على نجاح صلح الحديبية عمليًا، وأنَّ قوة المسلمين في تنام وتزايد مستمر[(١)].

القادة والوصايا:

قال في الإمتاع: فلما أعدهم رسول الله ﷺ، وهيأهم للقتال قال لهم: أميركم زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة[(٢)].

وفي رواية زيادة: فإن أصيب ابن رواحة، فليرتض المسلمون برجل منهم فليجعلوه عليهم[(٣)].

وبعد أن عين الأمراء لهذه السرية، حدد لهم المسار الذي يسيرون إليه، وحدد لهم المكان الذي كان فيه مقتل الحارث بن عمير، فيدعون من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله تبارك وتعالى وقاتلوهم.

وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي عيَّنَ فيها النبي ﷺ ثلاثة من القادة متتابعين، إن أصيب أحدهم تولّى الآخر، وهذا يدل على أهمية تلك السرية، وحرص النبي ﷺ أن تؤتي ثمارها.

وبعد أن تولى زيد بن حارثة قيادة الجيش، وسار على بركة الله، إلى مسيره، سار معه رسول الله ﷺ ليودعه حتى بلغ ثنية الوداع، وهنا أوصاهم وصية هي دستور الحرب في الإسلام، فقال ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا، اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدوّ الله وعدوّكم بالشام، وستجدون

(١) المؤلف بريك بن محمد، (ص٢٥٩).
(٢) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٣١٠/١١).
(٣) البيهقي: الدلائل، (٣٥٩/٤)، الحلبي: السيرة الحلبية، (٧٨٧/٢).

فيها رجالا في الصوامع معتزلين، فلا تعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرًا ولا شيخًا فانيًا، ولا تقطعوا شجرة، ولا تهدموا بناء»[(١)].

لقد تضمَّنت تلك الوصية أرقى قانون للحرب العادلة، قانون عجزت حتى الآن كُلّ النُّظُم والتشريعات أن تصل إليه من حيث الإنصاف في معاملة الأعداء، واجتناب الأعمال غير الإنسانية من التعرُّض للنساء والأطفال والعَجَزَة، ورجال الدين المعتزَلين بأي نوعٍ من أنواع الأذى، لقد كانت توصيات في الآداب الحربية، ودروسًا في الشرف العسكري، وأُسُسًا راسخة في المعاملة الإنسانية، والرأفة بغير المحاربين من النساء والشيوخ والأطفال، وتربيات عالية شريفة ما سمعت ولا دعت أُمة مثلها منذ فجر التاريخ حتى اليوم من غير سيد البشر محمَّد ﷺ.

إنَّ أرقى الأُمم في العصر الحاضر لا تزال في مجال محاولاتها الالتزام بقانون الشرف العسكري، لا تزال تحبو حبوًا إذا ما قِسْنَا محاولاتها بما وضعه الرسول ﷺ في خطبته هذه من قواعد راسخة لقانون الشرف العسكري[(٢)].

قوة غير متكافئة:

تكاد تجمع الروايات التاريخية على أن جيش الروم بعدد هائل من الجنود، يزيد أضعافا مضاعفة على أعداد المسلمين، حيث تذكر الروايات أنهم استقبلوا المسلمين بمائتي ألف جندي، مائة ألف من الروم، ومائة ألف من نصارى العرب التابعين لهم، وهي قبائل؛ بلي، وبهراء، ووائل، وبكر، ولخم، وجذام[(٣)].

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٧٨٧/٢).
(٢) المؤلف بريك بن محمد، (ص٢٧٠)، وما بعدها.
(٣) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (١٧٢/٢)، السهيلي: الروض الأنف، (١٢١/٤)، الحلبي: السيرة الحلبية، (٧٨٧/٢)، ابن كثير: السيرة النبوية، (٤٥٨/٣)، ابن هشام: السيرة، (٢٤/٥)، ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، (ص٢٢٢)، المقريزي: إمتاع الأسماع، (٣٣٩/١)، وغيرها.

ولقد علم المسلمون خطورة الموقف الذي هم فيه، بعدما رأوا هذا الجيش العرمرم أمام عددهم الصغير، وتناقشوا الأمر فيما بينهم، ثم بدا لبعضهم أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بعدد عدوّهم، ثم يرى بعد ذلك ما يأمرهم به على ضوء هذه المعلومات الجديدة.

ولكن عبد الله بن رواحة ﷺ قام في الناس خطيبا وهم يتناقشون، وأخذ يشجع القوم على القتال، ويقول لهم: «يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم له: خرجتم تطلبون الشهادة، ونحن ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله تعالى به فإنما هي إحدى الحسنين، إما ظهور، وإما شهادة، فقال الناس: صدق والله ابن رواحة»[(١)].

وفعلت كلمات ابن رواحة في نفوس الناس ما يفعل السحر، وشقوا غبار المعركة بهذا الإيمان القوي، والحماسة الشديدة، وعبد الله بن رواحة يحمسهم بشعره، فيقول:

جلبنا الخيل من أجَإٍ وفرْعٍ ... تُغرُّ من الحشيش لها العُكُومُ
حذوناها من الصوّان سِبتا ... أزلَّ كأن صفحته أديم
أقامت ليلتين على معانٍ ... فأعقب بعد فترتها جُموم
فرُحنا والجياد مسوَّمات ... تَنَفّس في مناخرها السَّموم
فلا وأبي مآب لنأتينْها ... وإن كانت بها عرب وروم
فعبّأنا أعنّتها فجاءت ... عوابسَ والغبارُ لها بَريم
بذي لَجَبٍ كأن البيض فيه ... إذا برزت قوانسُها النجوم[(١)]

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٧٨٧/٢)، ابن كثير: السيرة النبوية، (٤٥٨/٣)، ابن هشام: السيرة، (٢٤/٥).

www.almoslih.net

استشهاد القواد الثلاثة:

واحتدم القتال بين الفريقين، وقاتل زيد بن حارثة بالراية التي عقدها له رسول الله ﷺ قتالاً شديدًا حتى قيل: إنه شاط في رماح القوم[٢]، حتى أصيب، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فجعل يقاتل بها قتالاً مستميتًا، وأظهر شجاعة واستبسالاً شديدَين، حتى أحاط به العدوّ، اقتحم عن فرسه فعقرها بسيفه[٣]، ثم اندفع يقاتل القوم راجلا، واللواء بيمينه، فضُربت يمينه فقُطعت، فأخذ اللواء بيساره، فضُربت يساره فقُطعت، احتضن اللواء بعضديه، حتى قُتل، فوُجد به نحو تسعين طعنة، وكان يردد وهو يقاتل:

يـا حبـذا الجنـةُ واقترابها طيبـةً وبـاردا شـرابها
والـروم روم قد دنـا عذابُها كافـرة بعيـدة أنسـابها
علي إذ لاقيتُها ضِرابها

وقد عوَّضه من يديه جناحين يطير بهما في الجنة.

فلما قُتل جعفر أخذ اللواء عبد الله بن رواحة، وكان النهار قد كاد ينتهي، فيقول ابن أبي إسحاق إن عبد الله بن رواحة لما نزل أتاه ابن عم له بعَرَق[٤] من لحم فقال له: "شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت. فأخذه من يده

(١) ابن هشام: السيرة، (٥/٢٤).
(٢) ابن هشام: السيرة، (٥/٢٧)، وشاط: احترق بحرها وسط المعمعة "تعطي عمقًا بعيدًا عن مدى شراسة الحملات التي قام بها ذلك البطل المغوار في العمق داخل صفوف العدو، وما تمزيق جسده الطَّاهر برماحهم إلاَّ نتيجة حتمية لتلك الجرأة العظيمة التي كان يتمتع بها، ويحمل بها على العدو، معطيًا من نفسه القدوة الصالحة لجنده، وما ذلك إلاَّ لعلو نفسه، وقوة رباطة جأشه". المؤلف بريك بن محمد، (ص٣٠٥).
(٣) ابن هشام: السيرة، (٥/٢٧).
(٤) العرق: عظم فيه بعض اللحم.

فانتهس منه نهسة[١]، ثم سمع الحطمة[٢] في ناحية الناس فقال: "وأنت في الدنيا"؟ ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه، ثم تقدم فقاتل حتى قتل"[٣].

تولي خالد القيادة:

اصطلح المسلمون بعد مقتل عبد الله بن رواحة آخر القواد الثلاثة الذين عينهم النبي ﷺ. على دفع راية القيادة إلى خالد بن الوليد لما يعلمونه من مهارته الحربية، وقدرته على القيادة، وكانوا قد غمرتهم لحظة اضطراب نِسْبي بعد مقتل ابن رواحة، فقد روى ابن سعد عن أبي عامر ـ وكان شهد المعركة ـ "أن المسلمين انهزموا بعد مقتل ابن رواحة أسوأ هزيمة، وتفرقوا حتى لم يُر اثنان جميعا، ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار فركزه أمام الناس، وجعل يصيح بهم فيجتمعون، حتى إذا كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد فدفعه إليه، فقال له خالد: لا آخذه منك أنت أحق به، فقال الأنصاري والله ما أخذته إلا لك"[٤].

وما إن تولى القيادة حتى دافع القوم وناور العدو الى أن ألجأهم إلى التراجع عن صفوف المسلمين، وتقول الروايات: إنه "حمل على القوم فهزمهم أسوأ هزيمة، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا". ورجع كل فريق إلى معسكره، وسكت القتال إلى الصباح. فقام خالد بعمل إعادة تعبئة وتوزيع لصفوف الجيش، فنقل الميمنة إلى الميسرة، ونقل الميسرة إلى الميمنة، وجعل الساق في موضع المقدمة، وجعل المقدمة في موضع الساق[٥]، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار، ويكثرون الجَلَبة عند طلوع النهار، وما إن أشرقت الشمس بنور

(١) انتهس نهسة: أخذ منه بفمه قضمة.
(٢) الحطمة: زحام الناس وتدافعهم في القتال وحطم بعضهم بعضا.
(٣) ابن هشام: السيرة، (٥/٣٠).
(٤) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٦/١٥٠).
(٥) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (٦/١٥١).

ربها والتقى الجمعان في الصباح، رأى العدوّ أمامه وجوها غير التي رآها بالأمس، وغبارا كثيفا وسط المعركة، ورايات جديدة غير التي كانت أمس، فظن الروم أن المسلمين قد جاءهم مدد من المدينة، فهابوا لقاءهم، وانحجزوا عنهم، ووقع بين الفريقين قتال كانت نتيجته لصالح المسلمين، وتقهقر جيش العدو إلى الوراء، فلم يشأ خالد بن الوليد أن يتبعه، وتقهقر هو الآخر بجيشه، وأمن لنفسه طريق الرجوع، والعودة إلى المدينة، وقبل أن يبارح الجيش أرض مؤتة، نعى رسول الله إلى أصحابه في المدينة أمراءه الثلاثة، ودموعه تفيض حنانا عليهم.

روى البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ نعى زيدا وجعفرا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ، فَأُصِيبَ، ثمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ ـ وَإِنَّ عَيْنَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَتَذْرِفَانِ، ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْ غَيْرِ إِمْرَةٍ، فَفُتِحَ لَهُ»[(١)].

وفي الرواية الأخرى في البخاري أيضًا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ، فَقَالَ: أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ، ـ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ ـ حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ»[(٢)].

وتلك كانت معجزة نبوية جديدة، تضاف إلى معجزات النبي ﷺ الكثيرة، حيث أطلعه الله سبحانه وتعالى على أحداث هذه المعركة، على بُعْد ما بينه وبين أخبارها، فكان يخبر صحابته بما يجري كأنه حاضرٌ معهم، وقد كان الأمر على وفق ما أخبر به ﷺ.

وكان وقع الخبر شديدا على نفوس المسلمين، حتى خرج أهل المدينة كبارا وصغارا يستقبلون الجيش، وخرج الصبيان يشتدون حتى أشفق عليهم رسول الله ﷺ

(١) البخاري، برقم (١٢٤٧)، باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه.
(٢) البخاري، برقم (٣٧٥٧)، باب مناقب خالد بن الوليد رضي الله عنه.

من طول ما جروا، فقال: «خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر، فأخذ عبد الله بن جعفر، فحمله بين يديه»[(١)].

وظن الناس أن الجيش قد انهزم، فجعلوا يحثون في وجوههم التراب ويقولون: "يافُرّار! أفررتم في سبيل الله"؟ فيقول رسول الله ﷺ: «ليسوا بالفُرّار، ولكنهم الكُرّار إن شاء الله تعالى»[(٢)].

نتيجة المعركة:

لعلّ المؤرخين لم يختلفوا في نتيجة معركة اختلافهم في النتيجة النهائية التي انتهت بها معركة مؤتة، فقد انقسموا إلى ثلاثة آراء، الأول: يرى أنها انتهت بهزيمة المسلمين، والثاني: يرى أنها انتهت بفوز المسلمين، والثالث: يرى أنها لم تنته بفوز أحد من الفريقين، حيث أحجم كل فريق عن ملاحقة الآخر، فقد ظن الروم أن المسلمين قد جاءهم المدد من المدينة، واستطاع خالد بن الوليد أن يناور الجيش حتى جعله يتقهقر، ثم تأخر هو بجيشه، ولم يفقد من جنوده سوى بضعة عشر رجلا فقط.

وقد رجح ابن كثير رحمه الله أن جيش المسلمين قد انتصر في هذه المعركة، فيقول: "ويمكن الجمع بين قول ابن إسحاق وقول الباقين، وهو أن خالدا لما أخذ الراية حاص بالقوم المسلمين، حتى خلصهم من أيدي الكافرين الروم والمستعربة، فلما أصبح وحول الجيش ميمنة وميسرة، ومقدمة وساقة كما ذكره الواقدي ـ توهم الروم أن ذلك عن مدد جاء إلى المسلمين، فلما حمل عليهم خالد هزموهم بإذن الله". واستدل ابن كثير على رأيه بقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي ذكرناه سابقا: «ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه». فكلمة الفتح هنا تدل على النصر.

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٢/٧٩٢).
(٢) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (٢/١٧٤).

www.almoslih.net

والذي نودّ أن نلفت الانتباه له هو: أن المسلمين قد أثخنوا القتل في جيش الروم، حتى قتلوا فيهم مقتلة عظيمة، كما يقول مؤرخو الإسلام وكتاب السير، بل روى البخاري عن خالد بن الوليد ﷺ أنه قال: «لَقَدْ دُقَّ فِي يَدِي يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، وَصَبَرَتْ فِي يَدِي صَفِيحَةٌ لِي يَمَانِيَّةٌ»[١].

وهذا يقتضي أنهم أثخنوا فيهم قتلا، ولو لم يكن كذلك لما قدروا على التخلص منهم ـ إذ كان المسلمون ثلاثة آلاف والمشركون أكثر من مائتي ألف ـ وهذا وحده دليل مستقل والله أعلم[٢].

إن كل هذه الشواهد تدل على ما تركه المسلمون في أذهان أعدائهم من البأس في الحرب، فقد كفاهم شجاعة وبأسا أن جعلوا هذا العدد الضخم يحجم عن قتالهم، ويتقهقر إلى الوراء، ثم يجبن بعد ذلك عن متابعة الجيش المسلم، ولهذا استحق هذا الصنيع أن يسمى فتحا على لسان رسول الله ﷺ، كما أن هذا الأثر الذي تركه المسلمون في نفوس القبائل العربية الضاربة على أطراف الشام حمل كثيرا من بني سليم وأشجع وغطفان، وعبس وذبيان وفزارة على الدخول في الإسلام طائعين، بعد ما عاينوا ثبات المسلمين وقوة بأسهم في الحرب، وقتالهم الشديد من أجل عقيدتهم، فعلموا أن الأمر ليس لعصبية ولا لإقامة ملك، بل هو لأجل الدين والعقيدة.

فالقول بهزيمة المسلمين أمام جيش الروم في هذه المعركة، غير صحيح لثلاثة أُمور:

أوّلًا: الروايات في ذلك ضعيفة، فهي عن الواقدي، وتلميذه ابن سعد الذي يعدّ في غالب الظّن ناقلًا عن شيخه، والواقدي متروك خاصّةً إذا انفرد. ورواية أبي موسى التي ذكرها ابن سعد ضعيفة أيضًا.

(١) البخاري، برقم (٤٢٦٦)، باب غزوة مؤتة من أرض الشام.
(٢) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، (١٥٢/٦).

ثانيًا: مخالفة هذه الروايات لرواية الصحيح، وقول النّبيّ ﷺ فيه: ففتح الله عليهم.

ثالثًا: قلة قتلى المسلمين في المعركة، وعدم وقوع أسرى منهم في أيدي العدو، وكل ذلك يخالف ما يكون عليه المنهزم عادةً في المعركة[١].

بكاء النبي ﷺ المستشهدين:

ما كاد خالد والجيش معه يدنون من المدينة حتى تلقّاهم النبي ﷺ والمسلمون معه. وطلب النبي ﷺ، فأتي بعبد الله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه. أما الناس فجعلوا يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فُرّار، فررتم في سبيل الله! فيقول رسول الله: «ليسوا بالفُرّار، ولكنهم الكُرّار إن شاء الله».

ومع هذه التأسية من النبي ﷺ للعائدين من مؤتة فقد ظلّ المسلمون لا يغفرون لهم انسحابهم وعودهم، حتى كان سلمة بن هشام لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع من كل من رآه: يا فُرّار فررتم في سبيل الله. ولَولَا ما كان بعد ذلك من فعال هؤلاء الذين حضروا مؤتة، ومن فعال خالد بنوع خاص، لظلّت مؤتة معتبرة بعض ما لّطخ به إخوانهم في الدين جبينهم من عار الفرار.

وقد بلغ الألم من نفس النبي ﷺ منذ علم بقتل زيد وجعفر، وحزّ الأسى في نفسه من أجلهما.

لمّا أصيب جعفر ذهب ﷺ إلى منزله، ودخل على زوجه أسماء بنت عميس، وكانت قد عجنت عجينها وغسّلت بنيها ودهنتهم ونظفتهم، فقال لها: ائتيني ببني جعفر. فلما أتته بهم تشمّمهم وذرفت عيناه الدمع. قالت أسماء في لهف وقد أدركت ما أصابها: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟

(١) المؤلف بريك بن محمد، (ص٣٤٥).

قال: نعم أصيبوا هذا اليوم! وازدادت عيناه بالدمع تهتانا. فقامت أسماء تصيح حتى اجتمع النساء إليها.

أمّا النبي ﷺ فخرج إلى أهله فقال: لا تغافلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاما فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم.

ورأى ابنة مولاه زيد قادمة فربّت على كتفيها وبكى. وأظهر بعضهم دهشة لبكاء الرسول ﷺ على من استشهد.

وفي رواية أن جثّة جعفر حُملت إلى المدينة ودُفنت بها بعد ثلاثة أيام من وصول خالد والجيش إليها. ومن يومئذ أمر الرسول الناس أن يكفوا عن البكاء، فقد أبدل الله جعفرا من يديه اللتين قُطعتا جناحين طار بهما إلى الجنة.

بحق ـ كانت مواساة النّبيّ ﷺ لأُسَر شهداء مؤتة، ورعايته وعطفه على أبنائهم، لفتةً أبويّةً حانية عطوفة من أبٍ رحيمٍ عطوفٍ مشفقٍ، لا يألو جهدًا في التخفيف عن معاناة أولئك وغيرهم من أفراد المجتمع الإسلامي بأسره.

كيف لا! وهو الذي كان يفيض حنانًا، وشفقةً، ورحمةً. كيف لا! وهو الذي كانت حياته ﷺ ـ بأبي هو وأمّي ـ تكريسًا لهذه الحقيقة.

ألم يصفه الباري عز وجل بذلك في القرآن بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨]. وكفى بالقرآن دليلًا وشاهدًا.

أثر مؤتة واختلافه:

عاد جيش المسلمين بعد موقعة مؤتة ولواؤهم لخالد بن الوليد، وقد ترك انسحابهم بعد موت زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، أثرا مختلفا أشدّ الاختلاف عند الروم، وعند المسلمين المقيمين بالمدينة، وعند قريش بمكة.

أمّا الروم ففرحوا بانسحاب المسلمين، وحمدوا ربهم أن لم يطل القتال بهم، مع أن جيش الروم كان مائة ألف على قول ومائتي ألف على قول آخر، في حين كانت عدّة المسلمين ثلاثة آلاف. وسواء أكان فرح الروم راجعا إلى ما أبدى خالد بن الوليد من الاستماتة في الدفاع والقوة في الهجوم حتى لقد تحطّمت في يده تسعة أسياف وهو يحارب بعد موت أصحابه الثلاثة، أم كان راجعا إلى مهارته في توزيع الجيش في اليوم الثاني وإحداث ما حدث من الجلبة حتى ظنّ الروم أن مددا جاءه من المدينة، فإن القبائل العربية المتاخمة للشام نظرت إلى فعال المسلمين بإعجاب أشد الإعجاب. وكان من ذلك أن أحد زعمائهم "فروة بن عمرو الجذاميّ، وكان قائدا لفرقة من جيش الروم" ما لبث أن أعلن إسلامه؛ فقُبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة. وكان هرقل على استعداد للإفراج عنه إذا هو عاد إلى المسيحية، بل كان على استعداد أن يردّه إلى مركز القيادة الّذي كان فيه. لكن فروة أبى وأصرّ على إبائه وعلى إسلامه فقتل.

وكان من ذلك أيضًا أن ازداد الإسلام انتشارا بين قبائل نجد المتاخمة للعراق والشام حيث كان سلطان الروم في ذروته.

وزاد في انضمام الناس إلى الدين الجديد اضطراب أحوال الدولة البيزنطية اضطرابا جعل أحد عمّال هرقل، وقد كُلّف أن يدفع للجيش رواتبه، يصيح في وجه عرب الشام الذين اشتركوا في الحرب: "انسحبوا. فالإمبراطور لا يجد ما يدفع منه رواتب جنده إلا بمشقة. وليس لديه لذلك ما يوزعه على كلابه"(١).

فلا عجب أن ينصرف هؤلاء عن الإمبراطور وعن جنده، وأن يزداد ضياء الدين الجديد أمامهم نورا يهديهم إلى صدق الحقيقة السامية التي يبشر الناس بها. لذلك دخل في الإسلام هذه الفترة ألوف من سليم وعلى رأسهم العباس بن مرداس، ومن أشجع وغطفان الذين كانوا حلفاء اليهود حتى نُكب اليهود في خيبر، ومن عبس

(١) هيكل: حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، (ص٢٦٠).

ومن ذبيان ومن فزارة. فكانت وقعة مؤتة بذلك سببا في استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى حدود الشام، وفي ازدياد الإسلام عزة وقوة ومنعة.

لكن أثرها في نفوس المسلمين المقيمين بالمدينة كان غير هذا الأثر؛ فهم ما لبثوا حين رأوا خالدا والجيش معه عائدين من تخوم الشام لم ينتصروا على جيش هرقل، أن صاحوا في وجوههم: "يا فُرّار، فررتم في سبيل الله". ولقد بلغ من خجل بعض رجال الجيش أن لزم بيته، كيلا يؤذيه صبيان المسلمين وشبّانهم بتهمة الفِرار.

أمّا أثر مؤتة في نفس قريش فكان أنها هزيمة قضت على المسلمين وعلى سلطانهم، حتى لم يبق إنسان يأبه لهم أو يقيم لعهدهم وزنا. فلْتَعُدِ الأمور كما كانت قبل عمرة القضاء. ولْتَعُدِ الأمور كما كانت قبل عهد الحديبية. ولْتَعُدَّ قريش حربا على المسلمين ومن في عهدهم من غير أن تخشى من محمد قصاصا.

الفوائد التي اكتسبها المسلمون من نتائج غزوة مؤتة:

لقد "كانت معركة مؤتة استطلاعية أفادت المسلمين كثيرًا في معرفة خواص قوّات الروم، وأساليب قتالها، وخواص حلفائها من القبائل، وأساليب قتالهم وقوّتهم، فأفادوا من هذه المعلومات في قتالهم بعد ذلك ضدّ الروم، ولا تعدّ خسائر المسلمين الطفيفة شيئًا يُذْكَر بجانب الفائدة العسكرية التي أفادت من الاطلاع على خواص قوات الروم وحلفائها، وتنظيمها، وتسليحها، وأساليب قتالها، مِمَّا سترى أثره في المعارك التي خاضها المسلمون فيما بعد"(١).

"وإذا كانت الأمور بنتائجها، والأعمال بخواتيمها، فقد كفى المسلمين ظهورًا على عدوّهم، أنهم تركوا في نفوسهم أثرًا من الرهبة، جعلهم يحجمون عن قتالهم، وينكلون عن متابعتهم"(٢).

(١) محمود شيت خطاب: "الرسول القائد"، (٣٠٩).
(٢) المؤلف الدويدار: اسم الكتاب: صور، (٥٢٧).

"ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها غزوة مؤتة فإن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى، فبينما رأى الروم تلك الغزوة غارة من الغارات التي اعتاد الأعراب شنّها بين حين وآخر، كانت سرية زيد بن حارثة إلى مؤتة في الحقيقة غزوة من نوع آخر، لم تُقدّر إمبراطورية الروم أهميتها، فهي حرب منظّمة كانت لها مهمّة جديدة خاصّة، جعلت المسلمين يتطلّعون جديًا إلى فتح أرض الشام"(١).

وحقيقةً ـ كما ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى، قد كانت مؤتة إرهاصًا لما بعدها من غزو الروم، وإرهابًا لأعداء الله ورسوله(٢).

(١) عبد العزيز زائد: دروس من السيرة النبوية، (١٠٥-١٠٦).
(٢) ابن كثير: "الفصول في سيرة الرسول ﷺ"، (١٩٥).

فتح مكة

نقض قريش عهد الحديبية:

صلح الحديبية كان قد قضى أنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده فليدخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عهد قريش وعهدهم فليدخل فيه. وكانت خزاعة قد دخلت في عهد محمد ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش. وكانت بين خزاعة وبني بكر ثارات قديمة سكنت بعد صلح الحديبية، وانحياز كلّ من القبيلتين إلى فريق من المتصالحين.

فلمّا كانت مؤتة وخُيّل إلى قريش أن المسلمين قضي عليهم، خُيّل إلى بني الدّيل من بني بكر بن عبد مناة أن الفرصة سنحت لهم ليصيبوا من خزاعة بثاراتهم القديمة، وحرّضهم على ذلك جماعة من قريش منهم عكرمة بن أبي جهل وبعض سادات قريش وأمدوهم بالسلاح[1]. وبينما خزاعة ذات ليلة على ماء لهم يدعى الوتير إذ فاجأتهم بنو بكر فقتلوا منهم، ففرّت خزاعة إلى مكة ولجأوا إلى دار بُديل بن ورقاء، وشكوا إليه نقض قريش ونقض بني بكر عهدهم مع رسول الله ﷺ، وسارع عمرو بن سالم الخزاعيّ فغدا متوجها إلى المدينة حتى وقف بين يدي النبي ﷺ وهو جالس في المسجد بين الناس، وجعل يقصّ ما حدث ويستنصره. وأنشد قائلاً:

يَـا رَبِّ إِنِّـي نَاشِـدٌ مُحَمّـدًا ... حِلْـفَ أَبِينَـا وَأَبِيـهِ الأَتْلَـدَا
قَـدْ كُنْتُـمُ وُلْـدًا وَكُنّـا وَالِـدًا ... ثُمّـتَ أَسْـلَمْنَا فَلَـمْ نَنْـزِعْ يَدَا
فَانْصُرْ هَـدَاكَ اللهُ نَصْـرًا أَعْتَدَا ... وَادْعُ عِبَـادَ اللهِ يَأْتُـوا مَـدَدَا

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٣٤٨).

فِيهِـمْ رَسُـولُ اللهِ قَـدْ تَجَـرّدَا ... إِنْ سِـيمَ خَسْـفًا وَجْهُـهُ تَرَبّدَا
فِـي فَيْلَقٍ كَالْبَحْـرِ يَجْرِي مُزْبِدًا ... إِنّ قُرَيْشًـا أَخْلَفُـوك الْمَوْعِـدَا
وَنَقَضُـوا مِيثَاقَـك الْـمُوَكّـدَا ... وَجَعَلُـوا لِـي فِي كَـدَاءٍ رُصّدَا
وَزَعَمُـوا أَنْ لَسْـتَ أَدْعُو أَحَدًا ... وَهُـمْ أَذَلّ وَأَقَـلّ عَـدَدَا
هُـمْ بَيّتُونَـا بِالْوَتِيـرِ هُجّـدًا ... وَقَتَلُونَـا رُكّعًـا وَسُـجّدَا

قال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم»[1].

لقد أخطأت قريش هنا خطأين فادحين:

الأول: في تركها حليفتها بني بكر أن يغيروا على حلفاء النبي ﷺ، دون الأخذ على أيديهم ومنعهم.

الثاني: اشتراك مجموعة من رجالات قريش وذوي الرأي فيهم في هذا الغدر والتحريض عليه والإمداد بالسلاح، بل اشترك فيها رجال من قريش في القتال، وهذا كله مما يقطع عليهم جميع أبواب الاعتذار.

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا المدينة، فأخبروا النبيّ ﷺ بما أصابهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم. عند ذلك رأى النبيّ ﷺ أن ما قامت به قريش من نقض عهده لا مقابل له إلا فتح مكة، وأنه لذلك يجب أن يرسل إلى المسلمين في أنحاء شبه الجزيرة ليكونوا على أهبة لإجابة ندائه من غير أن يعرفوا وجهته بعد هذا النداء.

مخاوف حكماء قريش:

وقد أيقن النبي ﷺ أن قريشا ستدرك مغبة ما صنعت، وأنها لا بد من أن تبعث إليه لتحاول التنصل من هذه الخيانة الأثيمة، وتحاول أن تقترح زيادة المدة لتبدي أسفها على ما بدر من رجالها، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «كأنكم بأبي سفيان قد

(١) السهيلي: الروض الآنف، (٤/١٤٧).

جاءكم، ليشدّ في العقد ويزيد في المدة»[١].

أمّا حكماء قريش وذوو الرأي فيها فما لبثوا أن قدّروا ما عرّضهم له عكرمة ومن معه من الشبان من خطر.

فهذا عهد الحديبية قد نقض، وهذا سلطان محمد ﷺ في شبه الجزيرة يزداد بأسا وقوة. ولئن فكر بعد الذي حدث في الانتقام لخزاعة من أهل مكة لتتعرضنّ المدينة المقدسة لأشدّ الخطر. فماذا تراهم يصنعون؟ أوفدوا أبا سفيان إلى المدينة ليثبت العقد عشر سنين كما أبرم في الحديبية.

وخرج أبو سفيان قائدهم وحكيمهم يريد المدينة فلمّا بلغ من طريقه عسفان لقيه بديل بن ورقاء وأصحابه، فخاف أن يكون قد جاء محمدا وأخبره بما حدث، فيزيد ذلك مهمته تعقيدا. وقد نفى بديل مقابلته محمدا لكنه عرف من بعر راحلة بديل أنه كان بالمدينة. لذلك آثر ألا يكون النبي ﷺ أول من يلقى، فجعل وجهته بيت ابنته أمّ حبيبة زوج النبيّ.

أبو سفيان يبحث عن مجير:

ولعل أم حبيبة رضي الله عنها كانت قد عرفت عواطف النبيّ ﷺ إزاء قريش، وإن لم تكن تعلم ما اعتزمه في أمر مكة. ولعل ذلك كان شأن المسلمين بالمدينة جميعا. فقد أراد أبو سفيان أن يجلس على فراش النبيّ ﷺ فطوَتْه أمّ حبيبة. فلما سألها أبوها: أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ فكان جوابها: هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحبّ أن تجلس عليه. قال أبو سفيان: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر! [٢] وخرج مغضبا. ثم كلّم النبي ﷺ في العهد وإطالة مدته، فلم يردّ بشيء. فكلّم أبا بكر رضي الله عنه ليكلم له النبيّ ﷺ، فأبى.

(١) ابن هشام: السيرة، (٥/٤٩).
(٢) ابن كثير: السيرة النبوية، (٣/٥٣٠)، ابن هشام: السيرة، (٥/٥٠)، الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/٧).

فكلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأغلظ له في الرد وقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ! فوالله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به[١].

ودخل أبو سفيان على عليّ بن أبي طالب وعنده فاطمة، فعرض عليه ما جاء فيه واستشفعه إلى الرسول ﷺ؛ فأنبأه عليّ في رفق أنه لا يستطيع أحد أن يرد النبي ﷺ عن أمر إذا هو اعتزمه.

واستشفع رسول قريش فاطمة أن يجير ابنها الحسن بين الناس. فقالت: ما يجير أحد على رسول الله. واشتدّت الأمور على أبي سفيان فاستنصح عليّا؛ فقال له: والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا. لكنك سيّد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك؛ وما أظن ذلك مغنيا، ولكني لا أجد لك غيره. فذهب أبو سفيان إلى المسجد وهناك أعلن أنه أجار بين الناس.

ثم ركب راحلته وانطلق ذاهبا إلى مكة وقلبه يفيض أسى مما لقي من هوان على يد ابنته وعلى يد أولئك الذين كانوا قبل هجرتهم من مكة يرتجون منه نظرة عطف أو رضا[٢].

عاد أبو سفيان إلى مكة؛ فقصّ على قومه ما لقي بالمدينة وما أجار بين الناس في المسجد بمشورة عليّ، وأن محمدا لم يُجِزْ جواره. قال قومه: ويلك! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك. وعادوا فيما بينهم يتشاورون[٣].

تجهيز المسلمين لفتح مكة:

أما النبي ﷺ فقد رأى ألا يترك لهم الفرصة حتى يتجهزوا للقائه. ولقد كان واثقا من قوته ومن نصر الله إيّاه، ولقد كان يرجو أن يبغت القوم في غرّة منهم، فلا يجدوا له دفعا، فيسلموا من غير أن تراق الدماء.

(١) ابن هشام: السيرة، (٥/٥٠).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

لذلك أمر الناس بالتجهز، فلمّا تجهزوا أعلمهم أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجدّ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف من سيرهم على نبأ[١].

وبينما الجيش على أهبة السير كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا أعطاه امرأة من مكة مولاة لبعض بني عبد المطلب تسمّى سارة، وجعل لها جُعلا على أن تبلّغه قريشا ليقفوا على ما أعدّ النبي ﷺ لهم، وحاطب كان من كبار المسلمين، ولكن في النفس الإنسانية جوانب ضعف تطغى في بعض الأحيان عليها، وتهوي بها إلى ما لا ترضاه هي لنفسها.

وما لبث ﷺ أن أُحيط بالأمر خبرا. فسارع فبعث عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوّام فأدركا سارة فاستنزلاها، فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئا. فأنذرها عليّ إن لم تخرج الكتاب ليكشفنها. فلمّا رأت المرأة الجد منه قالت: أعرض. فحلت ذوائب شعرها فأخرجت الكتاب منها، فردّاها إلى المدينة.

ودعا النبي ﷺ حاطبا يسأله ما حمله على ذلك؟ قال حاطب: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله وما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. قال عمر بن الخطاب دعني يا رسول الله فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق، قال رسول الله: وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطّلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وكان حاطب من أصحاب بدر[٢]. وإذ ذاك نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٣٥٣).
(٢) المصدر السابق نفسه.

مسيرة جيش المسلمين:

تحرّك جيش المسلمين من المدينة قاصدا مكة ليفتحها، وليضع يده على البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا. تحرّك هذا الجيش في عدد لا عهد للمدينة به؛ فقد بعثت القبائل، من سليم ومزينة وغطفان وغيرها من انضم إلى المهاجرين والأنصار وسار معهم في يَلَب[١] الحديد يسيلون في فسيح الصحراء، حتى كانوا إذا ضربوا خيامهم اكتست بها رمال البيداء فما يكاد يبدو منها للناظر شيء. تحركوا وأغذّ هؤلاء الألوف سيرهم، وصاروا كلما تقدموا فيه انضم إليهم من سائر القبائل زاد عددهم وزاد منعتهم، وكلهم ممتلئ النفس بالإيمان أن لا غالب لهم من دون الله.

وسار ﷺ على رأسهم وأكبر همه وكل تفكيره أن يدخل البيت الحرام من غير أن يهريق قطرة دم واحدة. وبلغ الجيش مرّ الظّهران [٢] وقد كملت عدّته عشرة آلاف، لم يصل إلى قريش من أمرهم خبر، فهي في جدال مستمر ماذا تصنع لاتقاء عدوة محمد عليها.

خروج بني هاشم إلى النبي ﷺ وإسلامهم:

أما العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ فقد تركهم في جدالهم وخرج مع أهله حتى لقي النبي بالجحفة.

ولعل طائفة من بني هاشم كانت بنبأ أو شبه نبأ من خروج النبيّ ﷺ، فأرادت أن تلحق به دون أن يصيبها أذى.

فقد خرج سوى العباس أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن عم النبيّ ﷺ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عمّته، حتى اتصلا بجيش المسلمين بنيق

(١) اليَلَب: الدروع.
(٢) على أربعة فراسخ من مكة.

العقاب[1]، واستأذنا على النبيّ ﷺ، فرفض أن يأذن لهما، وقال لزوجه أمّ سلمة حين كلمته في أمرهما: لا حاجة لي بهما. أما ابن عمي فقد أصابني منه سوء. وأما ابن عمتي وصهري فقد قال بمكة ما قال. وبلغ أبا سفيان هذا الكلام فقال: والله ليؤذننّ لي أو لآخذن بيد بنيّ هذا ثم لنذهبنّ في الأرض حتى نموت عطشا وجوعا. فرقّ محمد ﷺ، ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما.

ورأى العبّاس بن عبد المطلب من جيوش ابن أخيه ومن قوتّه ما راعه وأزعجه. وهو إن كان أسلم فإن ذلك لم يخل قلبه من خشية ما يحل بمكة إذا دهمها هذا الجيش الذي لا قبل لقوّة في بلاد العرب به.

أو ليس قد ترك مكة منذ حين، وله بها من الأهل والخلّان والأصدقاء من لم يقطع الإسلام الذي دان به من وشائجهم! ولعله أفضى بمخاوفه هذه إلى الرسول ﷺ وسأله؛ ماذا يصنع إذا ما طلبت قريش أمانه؟ ولعل ابن أخيه سرّ بمفاتحة العبّاس إياه في هذا، ورجا أن يتّخذ منهن سفيرا يلقي في قلوب القوم من قريش الرعب فيدخل مكة من غير أن يسفك دما، وتظلّ مكة حراما كما كانت، وكما يجب أن تكون.

وجلس العباس على بغلة النبيّ البيضاء وخرج عليها حتى جاء ناحية الأراك[2]، لعله يجد حطّابا أو صاحب لبن أو أي إنسان ذاهبا إلى مكة، يحمله إلى أهلها رسالة بقوّة المسلمين وبأس جيوشهم، حتى يخرجوا إلى رسول الله ﷺ فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة[3].

(١) نيق العقاب: موضع بين مكة والمدينة قرب الجحفة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، (٥/٣٨٤).

(٢) واد قرب مكة (وهو في حدود عرفة بنمرة من ناحية الشام) يكثر فيه شجر الأراك، الذي يؤخذ منه السواك.

(٣) ابن هشام: السيرة، (٥/٥٨)، الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/١٥)، وما بعدها "بتصرف".

وكانت قريش قد بدأت، منذ نزل المسلمون مرّ الظهران، تشعر بأن خطرا يقترب منها؛ فأرسلت أبا سفيان بن حرب، وبديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام قريب خديجة، يتحسسون الأخبار، ويستطلعون مبلغ الخطر الذي تحسّه قلوبها. وإن العباس ليسير على بغلة النبيّ البيضاء إذ سمع حديثا بين أبي سفيان بن حرب وبديل بن ورقاء كذلك يجري:

أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانا قطّ ولا عسكرا.

بديل: هذه والله خزاعة حمّشتها الحرب.

أبو سفيان ـ خزاعة أقل وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها[1].

أبو سفيان في حضرة الرسول ﷺ:

وعرف العبّاس صوت أبي سفيان، فناداه بكنيته قائلا: أبا حنظلة! وأجاب أبو سفيان بدوره: أبا الفضل. قال العبّاس: ويحك يا أبا سفيان؟ هذا رسول الله في الناس. واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة! قال أبو سفيان: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ فأركبه العباس في عجز البغلة وردّ صاحبيه إلى مكة وسار به.

والناس إذا رأوا البغلة عرفوها وتركوها تمرّ بمن عليها بين عشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقي الرعب في قلب مكة وأهلها. فلمّا مرّت بنار عمر بن الخطاب ورآها عرف أبا سفيان وأدرك أن العباس يريد أن يجيره، فأسرع إلى خيمة النبيّ ﷺ وطلب إليه أن يضرب عنقه. قال العباس: إني يا رسول الله قد أجرته.

إزاء هذا الموقف في تلك الساعة من الليل، وبعد مناقشة لا تخلو من حدّة بين العباس وعمر قال النبي ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به. فلما كان الصباح، وجيء بأبي سفيان في حضرة النبيّ وبمسمع من كبراء المهاجرين والأنصار، جرى الحوار الآتي:

(١) ابن هشام: السيرة (٥/ ٥٩)، الحلبي: السيرة الحلبية (٣/ ١٦)، وما بعدها "بتصرف".

النبيّ: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟!

أبو سفيان: بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئا بعد.

النبيّ: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟!

أبو سفيان: بأبي وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما والله هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئا.

فتدخل العباس موجها القول إلى أبي سفيان أن يسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقه. ولم يجد أبو سفيان أمام هذا إلا أن يسلم، فتوجّه العبّاس بالقول إلى النبيّ ﷺ: يا رسول الله؛ إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئا. قال رسول الله ﷺ: «نعم! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»[(١)].

هذه الوقائع حصل عليها اتفاق المؤرخين وكتّاب السيرة جميعا إلا أن بعضهم يسائل: أهي قد حدثت كلها بمحض المصادفة؟ فخروج العباس إلى النبيّ ﷺ كان قصده منه أن يذهب إلى المدينة فإذا هو يلقي جيوش المسلمين بالجحفة، وخروج بديل بن ورقاء مع أبي سفيان بن حرب كان لمحض الاستطلاع، مع أن بديلا ذهب قبل ذلك إلى المدينة وقصّ على النبيّ ما لقيت خزاعة وعرف من النبيّ أنه ناصرها، وخروج أبي سفيان كان جهلا منه بأن محمدا ﷺ قد سار لغزو مكة! أم أن شيئا من الاتّفاق، قليلا أو كثيرا، كان قد حدث قبل ذلك، وأن هذا الاتفاق هو الذي أخرج العباس للقاء النبي ﷺ، وأن هذا الاتفاق هو الذي جمع بين العباس وأبي سفيان، وأن أبا سفيان كان قد وثق، منذ ذهب إلى المدينة ليمدّ في عهد الحديبية ورجع صفر اليدين، بأن لا سبيل لقريش إلى ردّ محمد، وأيقن

(١) ابن هشام: السيرة، (٥/٦٠)، الحلبي: السيرة الحلبية، (١٧/٣)، "بتصرف".

أنه إذا مهد للفتح السبيل فستبقى له رئاسته في مكة ومقامه الكبير فيها، وأن الذي ربما كان وقع عليه الاتفاق من ذلك لم يتعدّ النبي والأشخاص الذين يعنيهم الأمر، بدليل ما همّ به عمر من قتل أبي سفيان؟ من المغامرة أن نحكم.

لكنا نستطيع أن نقرر ـ مطمئنة نفوسنا ـ أنه سواء أحدث ذلك صدفة، أم أن شيئا من الاتفاق قد وقع عليه، فالحالان تدلّان على دقة النبي ﷺ ومهارته في كسب أكبر موقعة في تاريخ الإسلام من غير حرب ومن غير إراقة دماء.

عدته ﷺ لدخول مكة:

لم يمنع إسلام أبي سفيان النبي ﷺ من أن يتخذ لدخول مكة كل ما لديه من أهبة وحذر. وإذا كان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء، فإن الله لا يؤتي النصر إلا من أعدّ له كل عدّته، واحتاط لكل دقيقة وجليلة قد تقف في سبيله. لذلك أمر أن يُحبس أبو سفيان بمضيق الوادي عند مدخل الجبل إلى مكة، حتى تمرّ به جنود المسلمين فيراها؛ ليحدث قومه بها عن بينة، ولكي لا يكون في إسراعه إليهم خيفة مقاومة أيّا كان نوعها. ومرّت القبائل بأبي سفيان، فما راعه منها إلا الكتيبة الخضراء تحيط به ﷺ، فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد. فلما عرف أبو سفيان أمرهم قال: يا عباس! ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما! ثم انطلق إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته: يا معشر قريش ﷺ هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن[(١)].

وسار ﷺ في الجيش، حتى إذا انتهى إلى ذي طوى، ورأى من هناك مكة لا تقاوم استوقف كتائبه، ووقف على راحلته، وانحنى للّه شاكرا، أن فتح الله عليه مهبط الوحي ومقرّ البيت الحرام ليدخله والمسلمين آمنين مطمئنين.

(١) ابن هشام: السيرة، (٦٢/٥)، وما بعدها، الحلبي: السيرة الحلبية، (٢١/٣)، "بتصرف".

وفيما هو كذلك طلب أبو قحافة، ولم يكن قد أسلم كابنه، إلى حفيدة له أن تظهر به على أبي قبيس، وكان قد كفّ بصره. فلما ارتفعت به الجبل سألها ما ترى؟ قالت: أرى سوادا مجتمعا. قال: تلك الخيل. ثم قالت: قد والله انتشر السواد. فقال: تلك الخيل دفعت إلى مكة، فأسرعي بي إلى بيتي. ولم يصل إلى بيته حتى كانت الخيل قد زحفت وتلقّته قبل بلوغه إيّاه [1].

شكر النبي ﷺ الله أن فتح عليه مكة، ولكنه ظلّ مع ذلك متّخذا حذره؛ فقد أمر أن يفرق الجيش أربع فرق، وأمرها جميعا ألّا تقاتل وألا تسفك دما إلا إذا أكرهت على ذلك إكراها واضطرّت إليه اضطرارا. وجعل الزّبير بن العوّام على الجناح الأيسر من الجيش، وأمره أن يدخل مكة من شمالها، وجعل خالد بن الوليد على الجناح الأيمن، وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وجعل سعد بن عبادة على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربيّ.

أما أبو عبيدة بن الجرّاح فجعله النبي ﷺ على المهاجرين، وسار وإيّاهم ليدخلوا مكة من أعلاها في حذاء جبل هند، وفيما هم يتأهبون سمع بعضهم سعد بن عبادة يقول: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلّ الحرمة..». وفي ذلك من نقض أمر النبي ألّا يُقتل المسلمون من أهل مكة ما فيه. لذلك رأى النبيّ ﷺ حين بلغه ما قال سعد أن يأخذ الراية منه وأن يدفعها إلى ابنه قيس، وكان رجلا ضخما، لكنه كان أهدأ من أبيه أعصابا [2].

دخلت الجيوش مكة فلم يلق منها مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد، فقد كان يقيم في هذا الحيّ من أسفل مكة من كانوا أشدّ قريش عداوة للنبي ﷺ، ومن اشتركوا مع بني بكر في نقض الحديبية بالغارة على خزاعة. هؤلاء لم يرضهم ما نادى به أبو سفيان، بل أعدّوا عدّتهم للقتال، وأعدّ آخرون منهم عدتهم للفرار،

(١) الواقدي: المغازي، (١/٦٢٢)، بتصرف.
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/٢٢)، «بتصرف».

وقام على رأسهم صفوان وسهيل وعكرمة بن أبي جهل، فلمّا دخلت فرقة خالد أمطروها نبالهم، لكن خالدا لم يلبث أن فرّقهم، ولم يُقتل من رجاله إلا اثنان ضلّا طريقهما وانفصلا عنه.

أمّا قريش ففقدوا ثلاثة عشر رجلا في رواية، وثمانية وعشرين في رواية أخرى، ولم يلبث صفوان وسهيل وعكرمة حين رأوا الدائرة تدور عليهم أن ولّوا الأدبار تاركين وراءهم من حرّضوهم على المقاومة يصلون بأس خالد وبطش أبطاله معه. وبينما كان النبي ﷺ على رأس المهاجرين يرقى في مرتفع ينزل منه إلى مكة مطمئن النفس لفتحها ـ في سكينة وسلم ـ بصر بأمّ القرى وبما فيها جميعا، وبصر بتلماع السيوف أسفل المدينة وبمطاردة جيش خالد لمن هاجموهم. هنالك أسف وصاح مغضبا يذكر أمره ألا يكون قتال. فلمّا علم بما كان، ذكر أن الخيرة فيما اختاره الله [1].

ونزل النبيّ ﷺ بأعلى مكة قبالة جبل هند، وهنالك ضربت له قبّة على مقربة من قبري أبي طالب وخديجة.

وسئل: هل يريد أن يستريح في بيته؟ فأجاب: كلا! فما تركوا لي بمكة بيتا. ودخل إلى القبّة يستريح وقلبه مفعم بشكر الله أن عاد عزيزا منتصرا إلى البلد الذي آذاه وعذّبه وأخرجه من بين أهله ودياره، وأجال بصره في الوادي وفي الجبال المحيطة به، في هذه الجبال التي كان يأوي إلى شعابها حين يشتد به أذى قريش وتشتدّ به قطيعتها، في هذه الجبال ومن بينها حراء حيث كان يتحنّث حين نزل عليه الوحي أن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

أجال بصره في هذه الجبال وفي الوادي، منازل مكة مبعثرة فيه يتوسّطها البيت الحرام، فبلغ من خضوعه لله أن ترقرقت في عينه دمعة إسلام وشكر للحق، لا

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (١/٣٨٧).

حقّ إلا هو، إليه يرجع الأمر كله، وشعر ساعتئذ أن مهمّة القائد قد انتهت، فلم يقم بالقبّة طويلا بل خرج وامتطى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ الكعبة، فطاف بالبيت سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن (١). في يده.

فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة، فوقف النبي ﷺ على بابها وتكاثر الناس في المسجد، فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم سألهم: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم!. قال: «فاذهبوا فأنتم الطلقاء»(٢). وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريش وعن أهل مكة جميعا.

العفو العام:

ما أجمل العفو عند المقدرة! ما أعظم هذه النفس التي سمت كل السمّو، فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام، وأنكرت كل عاطفة حقد وكراهية، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان! هؤلاء قريش يعرف منهم ﷺ من ائتمروا به ليقتلوه، ومن عذّبوه وأصحابه من قبل ذلك. ومن قاتلوه في بدر وفي أحد، ومن حصروه في غزوة الخندق، ومن ألّبوا عليه العرب جميعا، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إربا إربا لما ونوا في ذلك لحظة!

هؤلاء قريش في قبضته ﷺ وتحت قدميه، أمره نافذ في رقابهم، وحياتهم جميعا معلّقة بين شفتيه، وفي سلطانه هذه الألوف المدجّجة بالسلاح تستطيع أن تبيد مكة وأهلها في رجع البصر! لكنه ﷺ ليس بالرجل الذي يعرف العداوة، أو يريد لها أن تقوم بين الناس. وليس هو بالجبّار ولا بالمتكبر.

---

(١) المحجن: عصا منعطفة الرأس.

(٢) ابن هشام: السيرة، (٥/٧٣)، وما بعدها.

لقد أمكنه الله من عدوّه، فقدر، فعفا، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعا مثلا في البرّ والوفاء بالعهد، وفي سموّ النفس سموّا لا يبلغه أحد.

تطهير الكعبة من الصور والأصنام:

دخل ﷺ الكعبة فرأى جدرانها صوّرت عليها الملائكة والنبيون، ورأى إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام (١) يُستقسم بها، ورأى بها تمثال حمامة من عيدان فكسرها بيده وألقاها إلى الأرض، أمّا صورة إبراهيم فنظر إليها مليّا وقال: قاتلهم الله! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام! ما شأن إبراهيم والأزلام! فقال عليه الصلاة والسلام: «قَاتَلَهُمُ الله لَقَدْ عَلِمُوا مَا اسْتَقْسَمَا بِهَا قَطُّ ثُمَّ دَخَلَ الْبَيْتَ، فَكَبَّرَ فِي نَوَاحِي الْبَيْتِ، وَخَرَجَ وَلَمْ يُصَلِّ فِيهِ»(٢). ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧]. أمّا الملائكة الذين صوّروا نساء ذات جمال، فقد أنكر ﷺ صورهم أن ليست الملائكة ذكورا ولا إناثا، ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست.

وكانت حول الكعبة الأصنام التي كانت تعبدها قريش من دون الله، قد شدّت إلى جدرها بالرصاص، كما كان هبل في داخل الكعبة؛ فجعل ﷺ يشير إلى هذه الأصنام جميعا بقضيب في يده وهو يقول: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١] (٣).

---

(١) الأزلام (واحدها زلم بفتحتين، وبضم ففتح) هي القداح التي كانت في الجاهلية مكتوب عليها الأمر والنهي: افعل ولا تفعل، كان الرجل منهم يضعها في وعاء، فإذا أراد سفرا أو زواجا أو أمرا مهما أدخل يده في الوعاء بعد إجالتها وتحريكها فأخرج منها زلما، فإن خرج الأمر مضى لشأنه، وإن خرج النهي كف عما اعتزم ولم يفعله. والاستقسام بها معرفة قسم الإنسان، أي حظه ونصيبه.

(٢) البخاري، برقم (٤٢٨٨)، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح.

(٣) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، (٢/١٨٩)، ابن كثير: السيرة النبوية، (٣/٥٦٩).

وكُبّت الأصنام على وجوهها وظهورها، وطُهّر البيت الحرام بذلك منها. وأتمّ ﷺ بذلك في أوّل يوم لفتح مكة ما دعا إليه منذ عشرين سنة، وما حاربته مكة أشدّ الحرب فيه، أتمّ تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية في البيت الحرام بمشهد من قريش، ترى أصنامها التي كانت تعبد ويعبد آباؤها، لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرّا.

مخاوف الأنصار وتبديدها:

ورأى الأنصار من أهل المدينة ذلك كله، ورأوا محمدا يقوم على الصفا ويدعو، فخيّل إليهم أنه تارك المدينة إلى وطنه الأول وقد فتحه الله عليه، وقال بعضهم لبعض: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟ ولعلهم كانوا على حق في مخاوفهم. فهذا رسول الله، وبمكة البيت الحرام بيت الله، وبمكة المسجد الحرام. لكنّه ﷺ ما لبث حين أتم دعاءه أن سألهم ما قالوا؟ فلما عرف بعد تردّد منهم مخافتهم قال:

«معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم». فضرب بذلك للناس مثلا في البرّ بعهده في بيعة العقبة، وفي الوفاء لأنصاره الذين وقفوا ساعة الشدة إلى جانبه برّا ووفاء لا ينسيهما وطن ولا أهل، ولا تنسيهما مكة البلد الحرام.

ولمّا أن طهّرت الكعبة من أصنامها، أمر النبيّ ﷺ بلالا فأذّن فوقها، وصلى الناس مؤتمّين بالنبي ﷺ. ومن يومئذ إلى يومنا الحاضر، مدى أربعة عشر قرنا مضت لا تنقطع، وبلال وخلفاء بلال من بعده ينادون بالأذان، كلّ يوم خمس مرات من فوق مسجد مكة. من يومئذ يؤدّي المسلمون فرض الصلاة لله متوجهين إلى الله بقلوبهم وعقولهم، مستقبلين هذا البيت الحرام الذي طهّره ﷺ يوم الفتح من أوثانه وأصنامه.

وأذعنت قريش لما حلّ بها، واطمأنت لعفوه عنها، وأقامت تنظر إليه وإلى المسلمين من حوله بعيون كلها دهش وإعجاب يمازجها الخوف والحذر. لكن

طائفة منها عدّتها سبعة عشر رجلا، كان ﷺ قد استثناها من عفوه وأمر ساعة دخول مكة أن يقتلوا ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، كان قد آثر بعضهم الاختفاء ولاذ بعضهم بالفرار.

ولم يكن قراره ﷺ بقتلهم لحقد منه أو غضب عليهم؛ فهو لم يكن يعرف الحقد، ولكن لجرائم كبيرة ارتكبوها. فأحدهم عبد الله بن أبي سرْح كان قد أسلم وكان يكتب الوحي، فارتدّ مشركا إلى قريش زاعما أنه كان يزيف الوحي حين يكتبه.

وعبد الله بن خطل كان قد أسلم ثم قتل مولى له وارتد مشركا وأمر جاريتيه فرتني وصاحبتها فكانتا تغنيان بهجائه ﷺ، فأمر بقتلهما معه.

وعكرمة بن أبي جهل وكان من أشدّ الناس لددا في خصومته وخصومة المسلمين خصومة لم تهدأ حتى بعد فتح مكة ودخول خالد بن الوليد من أسفلها.

العفو عمن أمر النبي بقتلهم:

أمر ﷺ بعد دخول مكة ألا يسفك بها دم أو يقتل فيها أحد غير هذه الطائفة؛ لذلك اختفى رجالها ونساؤها وفرّ منهم من فرّ، فلمّا استقر الأمر وهدأت الحال، ورأى الناس من فسحة صدر الرسول ﷺ، ومن عفوه الشامل ماراوا، طمع بعض أصحابه في أن يعفو حتى عن هؤلاء الذين أمر أن يقتلوا، فقام عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وكان أخا لابن أبي السّرح من الرضاعة، حتى أتى به النبيّ ﷺ فاستأمن له. فصمت طويلا ﷺ، ثم قال: نعم، وأمّنته.

وأسلمت أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام زوج عكرمة بن أبي جهل الذي فرّ إلى اليمن واستأمنت له النبي ﷺ فأمّنه، فخرجت في طلبه وجاءت به.

وعفا كذلك عن صفوان بن أميّة، وكان قد صحب عكرمة في فراره إلى ناحية البحر يستقلّانه إلى اليمن، فجيء بهما والسفينة التي تحملهما على أهبة إقلاعها.

www.almoslih.net

وعفا كذلك عن هند زوج أبي سفيان التي مضغت كبد حمزة عم الرسول بعد استشهاده في أحد، كما عفا عن أكثر من أمر بقتلهم، ولم يقتل منهم إلا أربعة، منهم الحويرث الذي أغرى بزينب بنت النبيّ ﷺ حين رجوعها من مكة إلى المدينة، ورجلان أسلما ثم ارتكبا بالمدينة جريمة القتل وفرّا راجعَين إلى مكة مرتدَّين إلى الشرك، وإحدى قينتي ابن خطل اللتين كانتا تؤذيان النبيّ ﷺ بغنائهما، وفرّت الأخرى، ثم استؤمن لها.

تحريم مكة على الناس جميعا:

وفي غداة يوم الفتح عثرت خزاعة على رجل من هذيل وهو مشرك، فقتلوه فغضب النبيّ ﷺ وقام في الناس خطيبا فقال: «أيها الناس، إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة لا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما أو يعضد [(١)] فيها شجرا، لم تَحْلِلْ لأحد كان قبلي ولا تحلّ لأحد يكون بعدي، ولم تَحْلِلْ لي إلّا هذه الساعة غضبا على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

فمن قال لكم إنّ رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلّها لرسوله ولم يُحْلِلْها لكم يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلا لأدينّه، فمن قتل بعد مقالي هذا فأهله بخير النّظرين: إن شاؤا فدم قاتله، وإن شاؤا فعقله» [(٢)]. ثم ودى بعد ذلك الرجل الذي قتلت خزاعة، وبهذا الخطاب وبتصرفه الذي زاد على السماحة والعفو أمس، كسب ﷺ قلوب أهل مكة بما لم يكونوا يقدّرون، فأقبلوا على الإسلام، ونادى مناد فيهم: «من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك في داره صنما إلا حطمه».

---

(١) يعضد: يقطع.
(٢) العقل: الدية.

ثم بعث جماعة من خزاعة ليصلحوا من العمد المحيطة بالبلد الحرام، مما دلّ أهل مكة على مالها في نفسه من التقديس وما زادهم له حبّا. فلما أخبرهم أنهم خير أمّة يحبّ، وأنه ما كان ليتركهم أو يعدل بهم ناسا لولا أنهم أخرجوه، بلغ تعلقهم به غاية حدوده. وجاء أبو بكر بأبيه، الذي ارتقى أبا قبيس يوم الزحف، يقوده حتى وقف بين يدي النبيّ ﷺ، فلما رآه النبي ﷺ قال: هلّا تركت الشيخ بمكانه حتى أكون أنا آتيه فيه! قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحقّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، فأجلس النبيّ ﷺ الشيخ بين يديه ومسح صدره ثم قال له: أسلم، فأسلم وحسن إسلامه.

وكذلك أسرّت أخلاق النبوّة السامية هذا الشعب الذي كان ثائرا عليه أشدّ الثورة، والذي أصبح اليوم يجلّه ويقدّسه، وكذلك أسلمت قريش رجالا ونساء وبايعت.

وأقام النبي ﷺ بمكة خمسة عشر يوما ينظّم خلالها شؤون مكة ويفقه أهلها في الدين. وفي هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة إلى الإسلام لا للقتال، ولتحطيم الأصنام من غير سفك للدماء.

وكان خالد بن الوليد قد خرج إلى نخلة ليهدم العزّى ـ وكانت لبني شيبان ـ فلما هدمها خرج إلى جذيمة، فلمّا رآه القوم أخذوا السلاح؛ فطلب إليهم خالد أن يضعوه فإن الناس قد أسلموا.

قال رجل من جذيمة لقومه: ويلكم يا بني جذيمة! إنه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، قال له قومه: أتريد أن تسفك دماءنا! إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمن الناس وما زالوا به حتى وضع سلاحه. عند ذلك أمر بهم خالد فغلّوا، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم. فلمّا انتهى الخبر إلى النبيّ ﷺ رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». ثم بعث إليهم عليّ بن أبي طالب وقال له:

اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهليّة تحت قدميك.
وخرج عليّ ومعه مال أعطاه النبيّ ﷺ إياه. فلمّا بلغ القوم دفع الدية عن الدماء وعما أصيب من الأموال، حتى إذا لم يبق شي ء من دم أو مال إلا وأداه، أعطاهم بقية المال الذي بعث به رسول الله ﷺ احتياطا لرسول الله مما لا يعلم.

وفي الأسبوعين اللذين أقام فيهما بمكة عفّى على كل آثار الوثنيّة فيها، ولم ينتقل إلى الإسلام من مناصب البيت الحرام إلا سدانة الكعبة، أقرّها النبيّ ﷺ في عثمان بن طلحة وأبنائه من بعده حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لا يأخذها منهم إلا ظالم، وسقاية الحاج من زمزم جعلها لعمه العبّاس[١].

وكذلك آمنت أمّ القرى ورفعت منار التوحيد ولواءه وأضاءت العالم خلال الأجيال والقرون بنوره الوضّاء.

لعل من يقرأ أحداث فتح مكة يلمس فيها رحمته ﷺ بأهلها، ويستخلص منها عدة وجوه لمعجزة الأخلاق المحمدية:

١ أنه آمن أهل مكة وعفا عنهم، ولم يذكّرهم بما فعلوه سابقًا، وهو نوع من التشفي، ولو بالقول فيهم، ثم يأتي بعد هذا العفو، كأن يقول مثلاً أحدنا لمن أساء وجاء يطلب العفو في موقف هو فيه المنتصر: بالرغم من أنك فعلت كذا وكذا إلا أنني سأعفو عنك ولكن، وهنا يأتي دور إلقاء ووضع الشروط أن تفعل كذا وكذا وهذا ما لم يحدث منه ﷺ مثل سهيل بن عمرو.

٢ يعطيهم الأمان، ولا يفرض شروطا مثل: أن يدعوهم لا بل يجبرهم علي دخول الإسلام الذي دعاهم له من قبل ورفضوه؛ إذن وما دام دخل مكة منتصرًا وأعطاهم الأمان فليدخلوا ويؤمنوا بدينه، بل وجه المعجزة

(١) ابن هشام: السيرة، (٥/ ٧٤).

الثاني هنا أمن وعفو دون شروط، بل ويظل بعضهم على دينه يخرج ويدخل إلى داره مشركًا بين أغلبية مسلمة.

٣ تعميم العفو، فلم يستبق بعض العناصر منهم، وأبطأ عليهم العفو قليلاً ليذيقنهم بعض العذاب الذي ارتكبوه في حق المسلمين، وهذا ما لم يحدث "أذهبوا فأنتم الطلقاء".

٤ من رحمته ﷺ أن يرد مفتاح مكة لعثمان بن طلحة ويبقيه سادنًا للبيت، وكان عاديا أن تنزع اختصاصاته، وتنقل لأحد رجال العهد الجديد العباس أو علي كما طلب، ثم بعد لا يطيل عليهم الانتظار أي أهل مكة، وهم لا يدرون ماذا هو فاعل بهم فيفتتحهم هو بسؤاله، ماذا تظنون أنّي فاعل بكم؟ وكان الأولى أن يتركهم يستعطفونه ويلحّون عليه في السؤال وطلب العفو ولم يحدث هذا، فلم يزد على أن قال لهم: «اذهبوا، فأنتم الطلقاء».

حتى حقه في رؤية النصر، حرم نفسه منه، فقد سار في موكب نصره يوم الفتح، حانيا رأسه حتى كادت تلمس رحله، وتعذر على الناس رؤية وجهه الكريم ﷺ؛ لعلنا بنظرة لما يحدث في عصرنا وعصور سبقته عندما تقوم الثورات وينتصر المستضعفون فيها تأتي دور المحاكمات والاعتقال السياسي والنفي والسجن وتحديد الإقامة غير انتهاك واستلاب الأموال والأحكام العشوائية ـ دون مناقشة أو دفاع ـ بالإعدام وخلافه لا بد أن يدور بخلد من يقرأ عظمة فتح مكة وأحداثها ومقارنتها بالحادث من تصرفات البشر لو أتيحت لهم فرصة الانفراد بمن آذاهم وهم فى موقف الضعيف وهو في موقف المنتصر.

لا يستطيع المنصف إلا أن يقر بأن وجوه المعجزة "المحمدية" تتحدى فينا بشريتنا، لكي نتواصل مع هذا السمو والخلق السمح، ونرتفع فوق الأحقاد ونتسلح بالسماحة، والعفو عمن ظلمنا، ونعطي من حرمنا، كما كان خلقه ﷺ، وكما كان يوصينا بذلك لعلنا نتعلم وننتفع بما علمنا ونعمل به.

غَزْوَةُ حُنَين

(١) ملابسات غزوة حنين:

لم يبق أمام المسلمين بعد فتح مكة، والقضاء على أكبر قوة للشرك في الجزيرة العربية سوى قبائل هوازن وثقيف المتاخمة لمكة المكرمة، وقد كانت العلاقة بين المعسكرين تؤكد الصدام الوشيك لا محالة، فقد كان النبي ﷺ عازما على تطهير الجزيرة العربية من الشرك؛ لأنها التي لا يجتمع فيها دينان.

ومن ناحية أخرى فقد دوّت أنباء فتح مكة في أنحاء الجزيرة العربية، وتركت أصداء واسعة النطاق، وخاصة في ديار هوازن وثقيف القريبة من مكة، حيث علمت يقينا أنها الوجهة القادمة لجنود الإسلام لما تمثله من وثنية، ولما كانت تحالف جنود الشرك في حربهم ضد النبي ﷺ كما في غزوة الأحزاب وغيرها، فما كان منها إلا أن ائتمرت فيما بينها لتدرس موقفها مما يجري حولها من أحداث، وكانت النتيجة أن قررت أن تهاجم المسلمين قبل أن يهاجموها، وأخذت تعد لذلك العدة، حتى إنها حشدت كل قوتها المادية والبشرية المتاحة لديها لهذه الموقعة الفاصلة.

قال ابن إسحاق: «ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ، وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النصري، اجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت نصر وجشم كلها وسعد بن بكر، وناس من بني هلال وهم قليل، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء، وغاب عنها فلم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب، ولم يشهدها منهم أحد له اسم، وفي بني جشم دريد بن الصمة شيخ كبير

ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخا مجربا، فلما أجمع مالك السير إلى رسول الله ﷺ، ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وذراريهم»(١).

كان لا بد ـ والحال هذه ـ أن يبعث النبي ﷺ من يستطلع له أخبار هذه الجموع الحاشدة التي أعدها عوف بن مالك، والطوائف التي معه، فأرسل عينا له ليستطلع له الأخبار، وهو عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي فقال: «اذهب فادخل في القوم، حتى تعلم لنا من علمهم».

امتثل ابن أبي حدرد لهذا الأمر، فذهب حتى وصل إلى جيش هوازن وثقيف، «فدخل فمكث فيهم يومًا أو يومين، ثم أقبل فأخبره الخبر، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: ألا تسمع ما يقول ابن أبي الحدرد؟ فقال عمر: كذب ابن أبي الحدرد، فقال ابن أبي الحدرد: إن كذّبتني، فربما كذبت من هو خير مني، فقال عمر: يا رسول الله ألا تسمع ما يقول ابن أبي الحدرد؟ فقال رسول الله ﷺ: قد كنت يا عمر ضالا، فهداك الله عز وجل. ثم بعث رسول الله ﷺ إلى صفوان بن أمية، فسأله أدراعا مائة درع وما يصلحها من عدتها فقال: أغصبا يا محمد؟ قال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك. ثم خرج رسول الله ﷺ سائرا»(٢).

(٢) خروج الجيش المسلم:

لم يكن بد بعد الذي قدمناه من خروج هوازن وثقيف وأتباعهما إلا أن يخرج النبي ﷺ لملاقاتهم، وقام النبي ﷺ بتعبئة أصحابه للخروج إلى حنين(٣) لصد هجوم هذه القبائل المحتشدة قبل أن يداهموا المسلمين في مكة المكرمة.

(١) ابن هشام: السيرة، (٥/١٠٤).

(٢) المستدرك، برقم (٤٣٦٩)، قال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، البيهقي: الدلائل، (٥/١٢١).

(٣) حنين: واد قريب من الطائف على بعد ثلاثة أيام من مكة.

وسارع النبي ﷺ في إعداد جيشه وتوفير العتاد اللازم لهذه، وقد سبق أنه استعار أدراعا من صفوان بن أمية، وذكر ابن عبد البر في ترجمة حويطب بن عبد العزى أنه ﷺ استقرضه أربعين ألف درهم[1]، وأن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم أعان رسول الله ﷺ يوم حنين بثلاثة آلاف رمح، فقال له رسول الله ﷺ: كأني أنظر إلى رماحك يا أبا الحارث تقصف أصلاب المشركين»[2].

وانتهى النبي ﷺ من إعداد الجيش، حتى اجتمع له اثنا عشر ألف مقاتل، عشرة آلاف من الذين دخلوا معه مكة فاتحين، وألفان ممن أسلم من أهل مكة، وخرج بهم لملاقاة هذا العدو المحتشد.

عُجب ومحنة:

كان جيش المسلمين الذين اجتمعوا في هذه الغزوة، هو أكبر تجمع خرج في غزوة مع النبي ﷺ، بل ربما أكبر تجمع لجيش في هذه المنطقة منذ زمن بعيد، فقد كانت الحروب آنذاك بين القبائل مجرد نزاعات قبلية محدودة، ولذا فقد كان ﷺ يخشى أن يغتر المسلمون ويعجبوا بكثرتهم، كان يدعو أيام حنين: «اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل». كل هذا خوفا من أن يغتر بعض جنوده، وينظر إلى كثرة الجيش، ولا ينظر إلى أن النصر من عند الله العزيز الحكيم، يهبه لمن يشاء من عباده، إذا ما أخلصوا الجهاد في سبيله، وعملوا لرفع راية التوحيد.

روى أحمد وغيره: "أن رسول الله ﷺ كان أيام حنين يحرك شفتيه بعد صلاة الفجر بشيء لم نكن نراه يفعله، فقلنا يا رسول الله: إنا نراك تفعل شيئا لم تكن تفعله، فما هذا الذي تحرك شفتيك؟ قال: إن نبيا فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب في تمييز الأصحاب، (١/ ٤٠٠).
(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب في تمييز الأصحاب، (٤/ ١٥١٢).

أمته، فقال: لن يروم[1] هؤلاء شيء، فأوحى الله إليه أن خير أمتك في إحدى ثلاث: إما أن نسلط عليهم عدوا من غيرهم فيستبيحهم، أو الجوع، وإما أن أرسل عليهم الموت. فشاورهم فقالوا: أما العدو فلا طاقة لنا بهم، وأما الجوع فلا صبر لنا عليه، ولكن الموت، فأرسل عليهم الموت، فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفا. قال رسول الله ﷺ: فأنا أقول الآن ـ حيث رأى كثرتهم ـ: «اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل».

وهذا الحديث الصحيح "يبين مدى صلة رسول الله ﷺ بربه، وافتقاره إليه في جميع حركاته وسكناته، وأنه يستبعد منه أن يغتر بكثرة من معه، بل كان دأبه الخضوع والتواضع لله، والتوكل عليه في كل شؤونه، ومقام النبوة أعلى وأرفع من أن يتصور وقوع مثل هذا منه ﷺ.

واستقراء سيرته ﷺ وغزواته يدل على أن ما أصاب المسلمين من انكسار أمام أعدائهم كان مصدره مخالفة بعض أتباعه ﷺ لأوامره وتوجيهاته العسكرية، كما حصل في غزوة أحد، فإن الروايات صحت أنه ﷺ وجه النصح والتنبيه للمسلمين أن لا يغتروا بكثرة عددهم كما في هذا الحديث"[2].

ولكن هذا لم يمنع أحد جنود المسلمين الذين كانوا في الساقة أن ينظر إلى هذا الجيش بمقاييسه المادية فيأخذه العجب بكثرة الجيش، والفخر به.

عن الربيع: أن رجلا قال يوم حنين: "لن نغلب من قلة، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]"[3].

(١) لن يروم: لن يكافئهم، ويتطلع لقتالهم.
(٢) إبراهيم قريبي: مرويات غزوة حنين، (١/ ١٣٩)، ط١، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢ هـ.
(٣) دلائل النبوة، (٥/ ١٢٣)، وما بعدها.

عن أنس بن مالك قال: "قال غلام منا من الأنصار يوم حنين: لم نغلب اليوم من قلة، فما هو إلاّ أن لقينا عدونا فانهزم القوم"[١].

ولم تقف الروايات الصحيحة على تحديد قائل هذه العبارة، يقول الدكتور إبراهيم قريبي: "والخلاصة أن هذه الآثار الواردة في تعيين القائل يوم حنين «لن نغلب اليوم من قلة» كلها ضعيفة مع ما حصل فيها من الاختلاف في تعيين القائل ـ كما أوضحت ذلك ـ ولكنها تتفق في شيء واحد وهو حصول هذا القول من أحد أفراد الجند الإسلامي، بغض النظر عن تسمية قائله وهي بمجموعها يؤيد بعضها بعضا ويزيدها قوة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾"[٢] [التوبة: ٢٥].

ولكن هذه المقولة كانت سببا لأن يلقن الله عز وجل المسلمين درسا لن ينسوه أبدا، حيث تعرضوا لمحنة شديدة في بداية المعركة، ولم تغن عنهم هذه الكثرة شيئا، كي يعلموا أن النصر من عند الله عز وجل، يمنحه لمن ينصر دينه، ويتواضع له سبحانه.

موقف جيش العدو:

لقد عبأت هوازن وثقيف ومن تابعهما على حرب النبي ﷺ جنودهما، ليس ذلك فقط، بل إن عوف بن مالك جمع كل رجال القبيلة ونسائها وأطفالها وأموالها، حتى يحمس الجيش، ليقول له: إن فررت فإن نساءك وأطفالك وأموالك سيكونون سبايا، فيستميتون في القتال، وهذه عملية انتحارية أكثر منها تحميسا للجيش، وقد حاول بعض ذوي الرأي إثناءه عن ذلك، فلم يقدر.

(١) الهيثمي: كشف الأستار عن زوائد البزار، (٢/٣٤٦)، وما بعدها.
(٢) إبراهيم قريبي، (١/١٣٩).

يقول ابن إسحاق: "فلما نزل بأوطاس، اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصمة في شجار[١] له يقاد به، فلما نزل قال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم مجال الخيل؛ لا حزن ضرس، ولا سهل دهس، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم. قال: أين مالك؟ قيل: هذا مالك ودعي له. فقال: يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟ قال: سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم. قال: ولم ذاك؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم. قال: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك، فضحت في أهلك ومالك"[٢].

ثم أخذ يسأله عمن حضره من الجنود، وعن استعداداته، ثم قال له: "يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم البيضة ـ بيضة هوازن ـ إلى نحور الخيل شيئًا. ارفعهم إلى ممتنع بلادهم، وعلياء قومهم. ثم القِ الصباء على متون الخيل، فإن كانت لك: لحق بك من ورائك. وإن كانت عليك: ألفاك ذاك، وقد أحرزت أهلك ومالك. قال: والله لا أفعل، إنك قد كَبِرْت وكبر عقلك. والله لَتُطيعُنَّني يا معشر هوازن، أو لأتّكئنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر، أو رأي. قالوا: أطعناك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده، ولم يَفُتْني.

يا ليتني فيها جذع ... أخُبُّ فيها وأضَع
أقود وَطْفاء الزمع ... كأنها شاة صدع

(١) شجار: شبه الهودج مكشوف الأعلى.
(٢) ابن هشام: السيرة، (٥/١٠٥).

ثم قال مالك: إذا رأيتموهم، فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد»[١].

لقد عصى عوف بن مالك نصيحة شيخ كبير مجرب، له حنكة في الحرب وأخلاق الرجال، فإن الجبان المنهزم، الذي يفر من أمام السيوف، لن يلوي على شيء، وسيترك أمه وأباه، وزوجه وولده، وماله وضياعه، ولن يرده شيء، ولما لم يستمع عوف إلى صوت العقل والحكمة من قومه، خسر خسارة شديدة، حيث لقي هزيمة نكراء في هذه الغزوة، وأصبح كل ما ساقه من نساء وصبيان وأموال سبيا للمسلمين غنموه منه ومن قومه.

عوف بن مالك يستطلع الأخبار:

بعث عوف بن مالك عيونًا من رجاله، يستطلعون له جيش رسول الله ﷺ، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم من الرعب والهلع. فقال لهم: ويلكم، ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالًا بيضًا على خيل بُلْق. والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى[٢].

كانت هذه المقولة كافية لأن تثني عوف بن مالك عن وجهته، وأن ينصرف عن قتال النبي ﷺ، أو أن يرسل إليه ليصالحه ويجنب قومه ويلات القتال، ولكنه مضى على ما يريد من لقاء جيش المسلمين، ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

المعركة:

خرج جيش المشركين فاستقبلوا وادي حنين، حيث يتوقع أن يمر جيش المسلمين من هذا الطريق، وقاموا بعمل كمائن بالشعاب المحيطة به، ومنحنياته ومضايقه المؤدية إليه، حيث لا يستطيع أن يراهم أحد، وهم أعلى هذه الشعاب،

(١) ابن هشام: السيرة، (١٠٦/٥).
(٢) ابن هشام: السيرة، (١٠٧/٥).

ومختبئون بهذه المنعطفات والمضايق، وبالتالي يسهل إمطار جيش المسلمين بوابل من السهام، وهو يمر بهذا الوادي، فيصيبون منهم غرة، ولا يستطيع المسلمون اللحاق بهم في الشعاب، وبالفعل قد أحرزوا تقدما جزئيا في بداية المعركة بهذه الخطة المحكمة، ولكنهم لم يستطيعوا مواصلتها حتى النهاية، حيث تراجع المسلمون إلى الخلف، وانحازوا إلى رسول الله ﷺ، وأعاد النبي ﷺ ترتيب الجيش، وكروا على عدوهم كرة ضعضعت مفاصل عدوهم، وولوا منهزمين لا يلوون على شيء.

قال أنس رضي الله عنه: «لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد أجوف له مضايق وشعاب، وإنما ننحدر فيه انحدارا، وفي عماية الصبح، وقد كان القوم سبقونا إلى الوادي، فمكثوا في شعابه وأجنابه ومضايقه وتهيّأوا، استقبلنا من هوازن شيءٌ، لا والله ما رأيت مثله في ذلك الزمان قط، من كثرة السواد، قد ساقوا نساءهم وأبناءهم وأموالهم ثم صفوا صفوفا، فجعلوا النساء فوق الإبل، وراء صفوف الرجال، ثم جاؤوا بالإبل والبقر والغنم، فجعلوها وراء ذلك لئلا يفروا بزعمهم، فلما رأينا ذلك السواد حسبناه رجالا كلهم، فلما انحدرنا في الوادي، فبينا نحن في غبش الصبح إن شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادي وشعبه، فحملوا حملة رجل واحد، فانكشفت أوائل الخيل ـ خيل بني سليم ـ مولية وتبعهم أهل مكة، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شيء، وارتفع النقع فما منا أحد يبصر كفه»[١].

وقد زاد الأمر سوءا واضطرابا أن الذين كانوا في مقدمة الجيش هم الشباب والأغرار الذين لا علم لهم بالحرب؛ لأنهم إنما ساروا ولم يبلغوا عدوّهم بعد، فما كان هناك تنظيم لعملية السير، بل طبيعة المكان بمنحدراته ومنعطفاته تفرض عليهم أن يسيروا بطريقة معينة، يقول البراء بن عازب، وقد سأله أحد الناس

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٣١٨/٥).

أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين، فقال: «أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يُوَلِّ، وَلَكِنْ عَجِلَ سَرَعَانُ الْقَوْمِ، فَرَشَقَتْهُمْ هَوَازِنُ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ آخِذٌ بِرَأْسِ بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ يَقُولُ:

أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ   أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»(١)

وكان العبّاس بن عبد المطلب رجلا جسيما جهوري الصوت قويّه، فنادى بما أسمع الناس جميعا من كل فجّ يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة إن محمدا حيّ فهلمّوا! وكرر العباس النداء حتى تجاوبت في كل جنبات الوادي أصداؤه. وهنا كانت المعجزة: سمع أصحاب العقبة اسم العقبة فذكروا عهودهم وشرفهم. وسمع المهاجرون، فذكروا تضحياتهم وذكروا شرفهم. وسمع هؤلاء وأولئك بسكينة النبي ﷺ وثباته في نفر قليل من المهاجرين والأنصار، كثباته يوم أحد، في وجه هذا العدوّ الزاحف، صوّرت لهم نفوسهم ما قد ينشأ عن خذلانهم إياه من تغلّب المشركين على دين الله، وكان نداء العباس أثناء ذلك ما يزال يدوّي في آذانهم وتهتزّ لأصدائه أوتار قلوبهم.

هنالك تصايحوا من كل صوب: لبّيك لبّيك! وارتدّوا إلى المعركة مستبسلين.

رجوع المسلمين واستماتتهم:

بدأت الطمأنينة تعاود النبي ﷺ حين رآهم يعودون؛ فقد انحدرت هوازن من مكامنها وأصبحت وجها لوجه مع المسلمين في الوادي، وقد أضاء النهار وطغى النور على عماية الفجر، واجتمع حول رسول الله ﷺ بضع مئات استقبلوا القبائل وصبروا لهم، وقد أخذ يزداد عددهم وتشتدّ بعودتهم عزائم من خارت من قبل عزائمهم وجعل الأنصار يتصايحون يا للأنصار! ثم تنادوا: يا للخزرج والنبي ﷺ

(١) البخاري، برقم (٤٣١٥)، باب رقم (٥٤)، ولم يسمه.

ينظر إلى تناحر القوم؛ حتى إذا رأى الصّدام اشتدّ ورأى رجاله تسمو نفوسهم ويطيحون بخصومهم، نادى: الآن حمي الوطيس، إن الله لا يخلف رسوله وعده. ثم طلب إلى العباس فناوله حفنة من الحصى ألقى بها في وجوه العدو: قائلا: شاهت الوجوه.

واندفع المسلمون إلى المعركة مستهينين بالموت في سبيل الله، مؤمنين بأن النصر لا محالة آت، وأن من استشهد منهم فله من النصر أكبر من نصيب من بقي. وكان البلاء شديدا؛ حتى إن هوازن وثقيفا ومن معهم ما لبثوا، حين رأوا كل مقاومة غير مجدية وأنهم معرضون للفناء عن آخرهم؛ أن فروا منهزمين لا يلوون على شيء، تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين الذين أحصوها يومئذ اثنين وعشرين ألفا من الإبل وأربعين ألفا من الشاء وأربعة آلاف أوقية من الفضة. أما الأسرى وعددهم ستة آلاف فقد نقلوا محروسين إلى وادي الجعرانة حيث أووا إلى أن يعود المسلمون من مطاردة عدوّهم ومن حصار ثقيف بالطائف.

تعقب المسلمين عدوهم:

وتابع المسلمون مطاردتهم لعدوهم، وزادهم إغراء بهذه المطاردة أن أعلن الرسول ﷺ أن من قتل مشركا فله سلبه، وأدرك ابن الدّغنّة جملا عليه شجار (١) ظن به امرأة طمع في سلبها، فأناخ الجمل فإذا شيخ كبير لا يعرفه الفتى هو دريد بن الصمّة. وسأل ربيعة: ما يريد به؟ قال: أقتلك، وأهوى عليه بسيفه فلم يغن شيئا. قال دريد: "بئس ما سلّحتك أمك! خذ سيفي هذا من مؤخّر الرحل. ثم اضرب به، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ فإني كذلك كنت أضرب به الرجال. ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب والله يوم قد منعت فيه

(١) شجار: مركب مكشوف دون الهودج، و يقال له مشجر.

نساءك». ولمّا رجع ربيعة إلى أمه وأخبرها خبره قالت له: «حرق الله يدك، فإنما قال ذلك ليذكرنا نعمه عليك. فوالله لقد أعتق لك ثلاث أمهات في غداة: أنا وأمي وأمّ أبيك».

وتبع المسلمون هوازن حتى بلغوا أوطاسا، وهناك أوقعوا بهم وهزموهم شرّ هزيمة، وسبوا من احتملوا من النساء والأموال وعادوا بهم إلى النبي ﷺ. أما مالك بن عوف النصري فقد ثبت هنيهة ثم فرّ وقومه مع هوازن حتى افترق عنهم عند نخلة، ثم ولى وجهه نحو الطائف فاحتمى بها[(١)].

هزيمة المشركين تامة:

وكذلك كان نصر المؤمنين مؤزّرا، وكانت هزيمة المشركين تامّة بعد ذلك الفزع الذي أصاب المسلمين في عماية الصبح، وحين شدّ المشركون عليهم شدّة رجل واحد ضعضعت صفوفهم وخلطت حابلهم بنابلهم.

كان نصر المسلمين مؤزّرا بفضل ثبات النبي ﷺ، وثبات الفئة القليلة التي أحاطت به. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٨][(٢)].

---

(١) ابن هشام: السيرة، (١١٤/٥).

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية، (٦٤٢/٣).

على أن المسلمين لم يحرزوا هذا النصر المؤزّر رخيصا، بل دفعوا ثمنا غاليا لعلهم لم يكونوا يدفعونه لولا تخاذلهم الأوّل وتدافعهم مهزومين، ليقول فيهم أبو سفيان: إنهم لا يردّهم إلا البحر. دفعوا الثمن غاليا من مهج الرجال وأرواح الأبطال الذين استشهدوا في الموقعة. ولئن لم تحص كتب السيرة كلّ القتلى، لقد ذكرت أن قبيلتين من المسلمين فنيتا أو كادتا، وأن النبيّ ﷺ صلى على أرواحهم رجاء أن يدخلهم الله الجنة، لكنه كان النصر على كل حال: النصر التّامّ تغلّب فيه المسلمون على خصومهم وغنموا منهم وأسروا ما لم يغنموا ولم يأسروا من قبل.

والنصر هو كل شيء في النضال أيّا كان الثمن الذي يدفع فيه ما دام نصرا شريا. لذلك اغتبط المسلمون بما جزاهم الله، وظلّوا يرتقبون قسمة الفيء والعود بالغنيمة.

معجزات أثناء المعركة:

حدثت بعض المعجزات للنبي ﷺ في هذه المعركة، كلها تؤكد حفظ الله لنبيه ﷺ، ولهذا الدين إلى يوم القيامة، فقد كان في صفوف الجيش بعض المنافقين الذين يريدون أن يلتمسوا غفلة من النبي ﷺ ويقتلوه، ويتخلصوا بذلك من رجل الدعوة الأول، وينهون هذه الدعوة التي جاء بها، ولكن الله حفظ نبيه ﷺ، من هذه المحاولات، كما أنه أخبر بعضهم بما يدور في نفوسهم.

روى ابن سعد عن شيبة بن عثمان الحَجبي. قال: «لما كان يوم الفتح قلت: أسير مع قريش إلى هوازن، لعلي أصيب من محمد غِرَّة. فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا تبعه، ما اتبعته أبدًا. فلما اختلط الناس، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، وأصْلَتُّ السيفَ، فدنوت أريد ما أريد، ورفعت سيفي حتى كدت أسَوّره. فرفع لي شواظ من نار كالبرق، كاد أن يمحَشني، فوضعت يدي على بصري خوفًا عليه. فالتفت إليّ رسول الله ﷺ. فناداني: يا شيبُ، أُدْنُ. فدنوتُ، فمسح صدري. ثم قال: «اللهم أعِذْه

من الشيطان. فوالله لهو كان ساعتئذ أحبَّ إليَّ من سمعي وبصري ونفسي. ثم قال: أُدن، فقاتل. فتقدمت أمامه أضرب بسيفي. اللهُ يعلم أني أحب أن أقِيه بنفسي، ولو لقيت تلك الساعة أبي لأوقعت به السيف. فجعلت ألزمه فيمن لزمه، حتى تراجع الناس، وكروا كرة رجل واحد.

وقُرِّبت بغلة رسول الله ﷺ فاستوى عليها. وخرج رسول الله ﷺ في أثرهم حتى تفرقوا، في كل وجه، ورجع رسول الله ﷺ إلى معسكره، فدخل خباءه. فدخلت عليه، ما دخل عليه غيري، حبًا لرؤية وجهه، وسرورًا به. فقال: يا شيب، الذي أراد الله لك خير من الذي أردت لنفسك، ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي مما لم أذكره لأحد قط، فقلت: بأبي أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، ثم قلت: استغفر لي يا رسول الله، قال: غفر الله لك»[(١)].

كما كان من شأن النبي ﷺ في هذه المعركة أن ثبت أمام جيش العدو وحوله نفر قليل من المسلمين، كما سبق بيانه، فأخذ النبي ﷺ حفنة من التراب، ورمى بها في وجوه القوم، فانهزموا على إثر ذلك، ففي صحيح مسلم من حديث ابن عباس: «ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: انهزموا ورب محمد.

قال ابن عباس: فذهبت أنظر، فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدهم كليلا، وأمرهم مدبرا»[(٢)].

غزوة الطائف:

كان النبي ﷺ يريد نصرا أكثر روعة وأعظم جلالا. وإذا كان مالك بن عوف هو الذي قاد هذه الجموع، ثم احتمى بعد هزيمتها مع ثقيف بالطائف، فليحاصر المسلمون الطائف وليضيقوا عليها الحصار.

(١) السيوطي: الخصائص الكبرى، (ص٤٥١).
(٢) مسلم، برقم (١٧٧٥)، باب في غزوة حنين.

وتلك كانت خطّته ﷺ في خيبر بعد أحد، وفي قريظة بعد الخندق. ولعله ادّكر في موقفه هذا يوم ذهب إلى الطائف لسنوات قبل الهجرة يدعو أهلها إلى الإسلام، فسخروا منه وقذفه صبيانهم بالأحجار، حتى اضطرّ إلى الاحتماء من أذاهم بحائط فيه كرم [(١)].

ولعله ادّكر كيف ذهب يومئذ منفردا ضعيفا، لا حول له ولا قوّة إلا حول الله وقوّته، وإلا هذا الإيمان العظيم الذي ملأ صدره والذي يدكّ الجبال. وها هو ذا الآن يذهب إلى الطائف في جمع من المسلمين لم تشهد جزيرة العرب في ماضي تاريخها جمعا مثله.

سار النبي ﷺ بنفسه إلى الطائف، ليتتبع فلول هؤلاء الفارين من معركة حنين قبل أن يستفحل خطرهم، فمضى حتى نزل قريبا من الطائف، فضرب به عسكره، فقتل ناس من أصحابه بالنبل، وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف، فكانت النبل تنالهم ولم يقدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم، أغلقوه دونهم، فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنبل وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم، فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة، وقيل بضع عشرة ليلة، ثم رجع ﷺ دون أن يقاتل القوم، لأنه رغب في إسلامهم. وقد كان مع النبي ﷺ امرأتان من نسائه إحداهما أم سلمة فضرب لهما قبتين، ثم صلى بينهما، فلما أسلمت ثقيف، بنى عمرو بن أمية على مصلاه ذلك مسجدا.

معجزات للنبي ﷺ في حصار الطائف:

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن عروة قال: «استأذن عيينة بن حصن رسول الله ﷺ أن يأتي أهل الطائف يكلمهم لعل الله أن يهديهم فأذن له، فأتاهم فقال: تمسكوا بمكانكم، والله لنحن أذل من العبيد، وأقسم بالله لو حدث به حدث لتمسن العرب

(١) الحائط: البستان.

www.almoslih.net

عزا ومنعة، فتمسكوا بحصنكم، وإياكم أن تعطوا بأيدكم، ولا يتكاثرون عليكم قطع هذه الشجرة، ثم رجع فقال له رسول الله ﷺ: ماذا قلت لهم؟ قال: قلت لهم وأمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه، وحذرتهم النار ودللتهم إلى الجنة. قال: كذبت، بل قلت لهم كذا وكذا. فقال: صدقت يا رسول الله أتوب إلى الله وإليك من ذلك».

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن ابن عمرو: «سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال: هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه، فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن»[١].

السبي والغنائم:

تقدمت الإشارة ـ غير مرة ـ أن عوف بن مالك قائد جيش المشركين قد ساق معه في هذه المعركة نساء القوم وأطفالهم وأموالهم جميعا، حتى لا يفر الجيش ويترك هذا كله، ومع ذلك كان هو أول الفارين في هذه المعركة، إذ توجه عقب هزيمة الجيش مباشرة نحو الطائف، وحاز النبي ﷺ كل ما كان مع الجيش من غنائم ونساء وأطفال، وقد تبعهم النبي ﷺ إلى الطائف ثم حاصرهم قرابة عشرين ليلة على خلاف بين الروايات في ضبط المدة، كل ذلك وغنائم هوازن وحلفائها لم تُقسم.

وقد ذكر المؤرخون وكتاب السير أن الغنائم كانت كالتالي:

كان السبي ستة آلاف إنسان، ما بين أسير وامرأة وصبي، فيهم الشيماء أخت النبي ﷺ من الرضاعة[٢].

---

(١) البيهقي: السنن الكبرى، (٤/١٥٦).
(٢) ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، (ص٢٤٥).

والإبل: أربعة وعشرين ألف رأس.

والغنم: أربعين ألف شاة.

وأربعة آلاف أوقية فضة.

فانتظر النبي ﷺ أن يأتي كبار القوم مسلمين حتى يترك لهم هذه الأموال والذرية، فما كان النبي ﷺ يقاتل حتى يفني مخالفيه، ولا يريد أن يسترقهم، بل يقاتل حتى ينشر كلمة ربه، ويدافع عنها، فإذا ما تحقق هذا الغرض، فكل شيء بعد ذلك هين، وظل النبي ﷺ منتظرا بضع عشرة ليلة، فلما لم يأت أحد بدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، وأجزل لهم العطاء، فمنهم من كان عطاؤه مائة من الإبل، ومنهم من كان عطاؤه خمسين، كل ذلك ليحبب الإسلام إلى قلوبهم، ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم والناس، ثم فضها على الناس.

يقول ابن عبد البر: "فلما قسمت الغنائم هنالك، أتاه وفد هوازن مسلمين راغبين في العطف عليهم والإحسان إليهم، فقال لهم: قد كنت استأنيت بكم، وقد وقعت المقاسم وعندي ما ترون، فاختاروا إما ذراريكم ونساءكم، وإما أموالكم، فاختاروا العيال والذرية، وقالوا: لا نعدل بالأنساب شيئا، فقال لهم رسول الله ﷺ: إذا صليت الظهر فتكلموا، واطلبوا حتى أكلم الناس في أمركم. فلما صلى الظهر تكلموا وقالوا: نستشفع برسول الله ﷺ على المسلمين، فقال النبي عليه السلام: أما ما كان لي ولبني عَبْد المطلب وبني هاشم فهو لكم.

وقال المهاجرون والأنصار: أما ما كان لنا فهو لرسول الله عليه السلام، وامتنع الأقرع بْن حابس وعيينة بْن حصن في قومهما أن يردوا عليهم شيئا مما وقع لهم في سهامهم، وامتنع العباس بْن مرداس السلمي، وطمع أن يساعده قومه كما ساعد الأقرع بْن حابس وعيينة قومهما، فأبت بنو سليم، وقالوا: بلى ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله عليه السلام: من ضن منكم بما في يديه فإنا نعوضه منه.

فرد عليهم رسول الله ﷺ نساءهم وأبناءهم، وعوض من لم تطب نفسه بترك نصيبه أعواضا رضوا بها»[1].

ليس هذا فحسب بل إنه «سأل وفد هوازن عن مالك بن عوف، فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: «أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل»، وكان قد حبس أهل مالك بمكة عند عمتهم أم عبد الله بهمة ابنة أبي أمية، ووقف ماله فلم تجر فيه السهام[2]. فأتى مالك بذلك، فخرج إليه من الطائف، وقد كان مالك خاف ثقيفا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال، فيحبسوه، فأمر براحلته فهيئت له، وأمر بفرس له، فأتى به إلى الطائف فخرج ليلا، فجلس على فرسه فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس فركبها، فلحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة أو بمكة، فرد عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل وأسلم فحسن إسلامه فقال مالك بن عوف حين أسلم:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله	في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى	ومتى تشأ يخبرْك عمّا في غد
وإذا الكتيبة عردت أنيابها	بالسمهري وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله	وسط الهباءة خادر في مرصد

فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه وتلك القبائل ثمالة وسلمة وفهم»[3].

وهذا التصرف من النبي ﷺ يبين بجلاء أنه ﷺ لم يكن يحارب من أجل الدنيا، ولا السبي والغنائم، وإلا لما رد على أحد شيئا، كما يبين عدالة النبي ﷺ

---

(١) ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، (ص٢٤٥).
(٢) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢/٣٤).
(٣) ابن هشام: السيرة، (٥/١٦٧).

في القضاء بين الناس، فلم يشأ أن ينزع من أحد شيئا يستحقه، على الرغم من كونه النبي الذي يأتيه الوحي من السماء، وهذه أخلاق تسمو فوق أخلاق البشر، فما عرفت الدنيا بأسرها أطهر ولا أنبل من شخصية النبي محمد ﷺ، لا في حربه ولا في سلمه.

محنة الأنصار:

علمت ممّا سبق أن النبي ﷺ قد قسم الغنائم التي استفادها جميعا يوم حنين ـ وقد كانت كثيرة ـ لبعض قريش من المؤلفة قلوبهم وغيرهم، ولكنه لم يعط الأنصار شيئا منها، وهنا ظن الأنصار أن النبي ﷺ قد أخذه الحنين إلى قومه، وأنه عما قليل سوف يرجع إليهم، حتى همس بعضهم لبعض: «لقي والله رسول الله قومه»! وسار الخبر في معسكر الأنصار، حتى وصل بهم الأمر إلى أن مشى سعد بن عبادة ليقول للنبي ﷺ: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم!

يا لها من كلمة خطيرة في هذا الموطن، الأنصار تشعر بشيء في صدرها تجاه رسول الله ﷺ، إنه لأمر ما ينبغي السكوت عليه، ولا بد من تطييب نفوسهم، ولكن قبل ذلك معرفة الأسباب التي أدت بهم إلى هذا الشعور الذي وجده الأنصار في نفوسهم، فقال النبي ﷺ: فيم؟

فقال: فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك، وفي سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شيء.

فقال رسول الله ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟

فقال سعد: ما أنا إلا امرؤ من قومي.

إذن .. إن الموقف خطير، فقد ترجم الأنصار هذه القسمة إلى معان أخرى، فقد ظنوا أن الأمر فيه محاباة من الرسول ﷺ لأهله من قريش، أو لبعض قبائل

www.almoslih.net

العرب الأخرى، أو نسجت وساوسهم أن النبي ﷺ قد اصطلح مع قومه، وفتح الله عليه مكة، فعما قليل سوف يرجع إليهم، وينتهي بذلك دورهم معه، وهم الذين جاهدوا معه، ونصروا الدعوة حتى انتصر النبي ﷺ وصار للإسلام قوة تُرهب، ودولة محترمة الجناب، وهذه طبيعة البشر في كل مكان وزمان، يتأثرون بالمخاوف والهواجس، وتسيطر عليهم لحظات ضعف في حالات معينة، تتخللها أفكار غريبة إذا صادفت بعض الشبهات، ولو كانت من نسج الأوهام، كما هو الحال الآن.

وأدرك النبي ﷺ حقيقة الأمر، وعلم أن هذا الشعور لم يساور فئة قليلة من الأنصار، بل هذه الوساوس والهواجس قد أزعجت القلوب المؤمنة من الأنصار، وكان لا بد من استئصال هذه الهواجس من جذورها، ووضع الأمور في نصابها، وتبيين الحقائق في سفور تام.

فيقول لسيدنا سعد بن عبادة: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فإذا اجتمعوا فيها فأعلمني.

فخرج سعد فصرخ فيهم، فجمعهم في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين، فأذن لهم فدخلوا، وجاء آخرون، فردهم، حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له، أتاه فقال: يا رسول الله، قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار حيث أمرتني أن أجمعهم، فخرج رسول الله ﷺ ليقف فيهم خطيبا، وإليك أيها القارئ الكريم نص هذه الخطبة التي تفيض بهاء وجلالا، وعظمة من رسول الله ﷺ.

قال ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: «يا معشر الأنصار، ما قالة[1] بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضُلاَّلًا فهداكم الله بي،

(١) قالة: مقالة.

وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسوله أمنُّ وأفضل، ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل، قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقْتم ولصُدِّقْتُم: أتيتنا مكذَّبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلا فآسيناك. أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء[1] والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة، لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وواديًا، وسلكتْ الأنصار شعبًا وواديًا لسلكتُ شعب الأنصار وواديها، الأنصار شعار والناس دثار[2]، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًّا، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا[3]، وفي رواية: «إنكم ستلقون بعدي أَثَرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»[4]. أي اصبروا حتى تموتوا فإنكم ستجدونني عند الحوض، فيحصل لكم الانتصاف ممن ظلمكم، والثواب الجزيل على الصبر ولاتخرجوا على ولاتكم الجائرين[5].

إننا لا نريد أن نعلق على هذا المشهد الذي يفيض جلالا وبهاء حتى لا نفسده بتعليقنا، ولكنني أقول لك صادقا إنني ما قرأت هذه الحادثة يوما وتدبرتها إلا

(١) بالشاء: أي الشياه وهي الأغنام.
(٢) دثار: هو الثوب الذي يكون فوق الشعار.
(٣) انظر القصة كاملة في مسند الإمام أحمد، برقم (١١٧٣٠)، قال مخرجوه: "واسناده حسن من أجل محمد بن إسحق، وقد صرح بالتحديث هنا، فانتفت شبهة تدليسه، وبقية رجاله رجال الصحيح".
(٤) صحيح البخاري، (٤٣٣٠).
(٥) فتح الباري، (٨/٥٢).

www.almoslih.net

أُخِذْت بهذا الجلال والبهاء، وترقرقت عيني بالدموع، وتمنيت أن أكون أحد الذين أخضلوا لحاهم من شدة البكاء أمام رسول الله ﷺ، وهم يرددون في ثبات ويقين، وقوة إيمان: رضينا بالله ورسوله قسما وحظًا.

ثم خرج رسول الله ﷺ معتمرًا من الجعرانة إلى مكة، وأمر ببقايا الفيء، فخُمِّس بناحية مر الظهران، فلما فرغ رسول الله ﷺ من عمرته، انصرف إلى المدينة، واستخلف على مكة عتاب بْن أسيد بْن أبي العيص وهو ابن نيف وعشرين سنة، ودخل رسول الله ﷺ المدينة لست بقين من ذي القعدة، وكانت وقعة الطائف في ذي القعدة المؤرخ من السنة الثامنة من الهجرة، وكانت غيبة رسول الله ﷺ منذ خرج من المدينة إلى مكة فافتتحها، وأوقع بهوازن، وحارب الطائف إلى أن رجع إلى المدينة شهرين وستة عشر يوما[1].

(١) ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، (ص٢٥٢).

دُرُوسٌ وعِبَرٌ

❶ ضرورة أن يتولى القيادة ذوي الكفاءة والأمانة، وتقديمهم على من سواهم، فإن النبي ﷺ قد ولى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص قيادة السرايا، على الرغم من تأخر إسلامهما، لما يمتلكان من خبرات حربية، وإمكانيات لخداع العدو، بل أطلق على خالد لقبه الذي يذكر به في كتب السير والتاريخ، "سيف الله المسلول".

❷ تضمنَّت وصايا النبي ﷺ الحربية أرقى قانون للحرب العادلة، قانون عجزت حتى الآن كُلّ النُّظُم والتشريعات أن تصل إليه من حيث الإنصاف في معاملة الأعداء، واجتناب الأعمال غير الإنسانية من التعرُّض للنساء والأطفال والعَجَزَة، ورجال الدين المعتَزلين بأي نوعٍ من أنواع الأذى، فكانت دروسا في الشرف العسكري، وأُسُسًا راسخة في المعاملة الإنسانية.

❸ بطولة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وبسالتهم في الدفاع عن هذا الدين، وعدم تهيبهم من الأعداء مهما بلغ عددهم، وقل عدد المسلمين، فقد أصر المسلمون على ملاقاة جيش الروم في مؤتة على الرغم من الفارق الشاسع في عدد الجنود لصالح الروم، فكان عددهم قرابة مائتي ألف، وجيش المسلمين ثلاثة آلاف فقط.

www.almoslih.net

٤ لا يجوز للمؤمنين أن يوالوا عدوهم، أو يطلعوه على بعض أسرارهم، مهما كان السبب الذي يدفع إلى ذلك، فإن العدو عدو حيثما كان، وموادّة العدو خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين.

٥ عِظَم قدر أهل بدر عند الله عز وجل، حيث غفر الله عز وجل لهم، وتاب عليهم، حتى عن بعض أخطائهم الكبيرة التي تنجم عنهم بلا قصد للخيانة، كما فعل حاطب بن أبي بلتعة حينما أرسل إلى المشركين بكتاب يحذرهم فيه من مجيء رسول الله ﷺ إليهم.

٦ كان حرص النبي ﷺ على صون الدماء شديدا، وما كان يحارب إلا إذا اضطر إلى ذلك، فهو يوم فتح مكة نزع اللواء من سعد بن عبادة ودفعه لابنه قيس رضي الله تعالى عنهما، لما علم أنه قال: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، وقال: اليوم يوم المرحمة، مما يعني أنه ﷺ كان يعمل على صون الدماء قدر الجهد والطاقة.

٧ كان النبي ﷺ المثل والقدوة في التواضع والعفو عن المذنبين، حيث دخل مكة وهو قائد منتصر نصرًا مؤزرًا، ومع ذلك دخل خاشعا مكبًّا وجهه على رحل ناقته تواضعًا لله عز وجل، شاكرًا له سبحانه على ما أنعم به من هذا الفتح المبين، ولم يفعل كما يفعل المتكبرون من الغزاة وأصحاب المطامع، فالتاريخ الإنساني كله يقف خاشعا أمام هذه اللحظة الجليلة، عندما وقف ﷺ أمام الذين أذاقوه وأصحابه مر العذاب، وشردوهم، وقتلوهم بل مزقوا أجسادهم بالسياط، وأفنوها بلهيب مكة وصحرائها الحارقة، وأخذوا ديارهم وأموالهم، ومع هذا كله، يقول لهم: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم.

٨ ضرورة اللجوء إلى الله عز وجل في كل حال وعدم الاغترار بالقوة، فعندما قال بعض المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، كانت هذه المقولة سببا لأن يلقن الله عز وجل المسلمين درسا لن ينسوه أبدا، حيث تعرضوا لمحنة شديدة في بداية معركة حنين، ولم تغن عنهم هذه الكثرة شيئا، كي يعلموا أن النصر من عند الله عز وجل، يمنحه لمن ينصر دينه، ويتواضع له سبحانه.

٩ كان النبي ﷺ مثالا في العدل والرحمة ولم يكن يحارب من أجل الدنيا، ولا السبي والغنائم، كما يقول المغرضون، وإلا لما رد سبي هوازن عليهم، ومن عدالته ﷺ أنه لم ينزع من أحد شيئا يستحقه، إلا بطيب نفس منه على الرغم من كونه النبي الذي يأتيه الوحي من السماء، وهذه أخلاق تسمو فوق أخلاق البشر، فما عرفت الدنيا بأسرها أطهر ولا أنبل من شخصية النبي محمد ﷺ، في حربه وفي سلمه.

www.almoslih.net

هذا محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٦

أَحداثُ عَامَي التَّاسِع وَالعَاشِرِ الهِجرِيَّين

أَوَّلًا
أَحدَاثُ العَامِ التَّاسِعِ الهِجرِي

غزوة تبوك:

كان كل ما يحدث في جزيرة العرب من تطورات تصل أخبارها أولًا بأول إلى من يحيطون بالعرب من الأمم كالفرس والروم وكذلك أتباعهما من الغساسنة والمناذرة، وكانوا ينظرون إلى هذه الحوادث نظرة توجّس وخوف، خاصة الروم، فقد كانت لهم مصالح شتى بالجزيرة العربية، وهذه المصالح لا بد أنها سوف تتأثر بتلك القوى الجديدة الصاعدة في الجزيرة، خاصة بعد توحّد كثير من القبائل العربية تحت راية جديدة، وأصبحت لهم قيادة عامة ينضوون تحت لوائها، ودين يحاربون من أجله.

وعلى الجملة أصبحوا دولة صاعدة، لا مجرد مجموعة من الأعراب الحفاة الذين لا وزن لهم في القضايا الدولية المتعلقة بمصير الأمم كما كانوا من قبل، ومن ضمن هذه المصالح أنّه كانت تجارتهم تمر خلال الجزيرة بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، كما كان لهم أتباع من العرب في شمال الجزيرة، ولضمان ولاء هذه القبائل العربية لهم فقد نشروا بينهم النصرانية كما في قبائل غسان أحلاف دولة الروم في ذلك الوقت.

وقد علم هذه الحقيقة هرقل ووعاها جيّدا، وأدرك خطرها على ملكه، كما قدمنا لك طرفا من حديثه مع أبي سفيان بن حرب الذي كان في ركب من قريش، وكانوا تجارا في المدة التي كان فيها رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش عندما وصلت إليه رسالة رسول الله ﷺ التي يدعوه فيها إلى الإسلام، وإليك طرفا آخر من هذا الحوار والنتيجة التي انتهى إليها، يقول هرقل لأبي سفيان بعدما سأله مجموعة من الأسئلة:

"... سَأَلْتُك عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا: وَسَأَلْتُك هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ؟ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُك هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ. وَسَأَلْتُك هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ، وَسَأَلْتُك أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُك أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُك أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُك هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ. وَسَأَلْتُك بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ"[1].

(١) البخاري، برقم (٧)، باب كيف كان بدء الوحي على رسول الله ﷺ.

إذن.. لم تكن دولة الروم بعيدة عما يجري على أرض الجزيرة العربية من أحداث، بل كانت تضعها في حجمها الصحيح، وتقدّر الخطورة التي تمثلها هذه الدعوة، وتعلم أنها سوف تتعارض مع مصالحها في المنطقة تعارضا مباشرا وكبيرا، وقد كانت واقعة مؤتة بالونة الاختبار الأولى لتقدير قوة هذه الدولة الوليدة، وأول اصطدام مباشر مع تلك القوى في المنطقة.

ولقد كان للروم عيون كثيرة في المدينة ينقلون لهم كل ما يجري فيها من أحداث، وهناك شواهد كثيرة على ذلك، ولعل من أهمها قصة مسجد الضرار؛ إذ إننا نجد أن السبب الرئيس لبناء هذا المسجد هو أن يكون مركزا تجسسيا على النبي ﷺ، واختباء المنافقين فيه من ناحية، ومن ناحية أخرى يستقبلون فيه وفود الروم الذين استنصرهم أبو عامر الراهب لحرب النبي ﷺ.

يقول الطبري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]: "وذلك أن أبا عامر هو الذي كان حزّب الأحزاب؛ لقتال رسول الله ﷺ، فلما خذله الله، لحق بالروم يطلب النَّصْر من ملكهم على نبي الله، وكتب إلى أهل مسجد الضِّرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه، فيما ذكر عنه، ليصلي فيه، فيما يزعم، إذا رجع إليهم. ففعلوا ذلك. وهذا معنى قول الله جل ثناؤه: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ﴾"[1].

وإمعانا في الكيد والتدليس، فقد طلب هؤلاء من النبي ﷺ أن يصلي في مسجدهم لتحصل لهم البركة، ولكن الوحي عصمه ﷺ أن يصلي في هذا المسجد، وأخبره سبحانه وتعالى بحال أهل المسجد والغرض الدنيء الذي بني من أجله، فأرسل النبي ﷺ إليه بعض أصحابه، فهدموه وأحرقوا ما بقي منه.

(١) الطبري، (١٤/ ٤٧٠).

والشاهد الثاني على وجود عيون للروم في الدولة الإسلامية هو وصول نبأ تخلّف كعب بن مالك عن غزوة تبوك، وغضب النبي ﷺ عليه لهذا الغرض، ففي هذا دلالة قوية وواضحة على وجود هذه العيون في المدينة، كما أنه دليل على اهتمامهم الشديد لما يدور فيها، ومحاولة اصطناع بعض المغضوب عليهم من النبي ﷺ؛ ليكونوا طابورًا خامسًا لهم في صفوف المسلمين، فقد ورد في الصحيح أن مَلِك غسان ـ التابع للروم ـ بعث إلى كعب بن مالك بكتاب يقول فيه: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ، وَلَا مَضْيَعَةٍ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ»(١).

كانت دولة الروم آنذاك ما تزال في نشوة فوزها الساحق على الفرس واسترداد مستعمراتها في سورية وفلسطين ومصر التي استلبها منهم الفرس، ولم يمض على ذلك سوى سبع سنوات، كما كان لها جيش نظامي قوي، كثير العدد والعتاد، متمرس بفنون القتال، ومن هنا فقد قررت بيزنطة (الروم) سحق هذه القوة الوليدة قبل أن يستفحل خطرها أكثر مما هو حادث، وتتعرض مصالحهم في جزيرة العرب للانهيار، بل إن وجود الدولة الرومية أصلًا سيكون مُهدّدًا أمام هذا الدين الجديد، الذي يجتذب كل يوم أرضًا جديدة وأتباعًا جددًا. فأعدّ الروم عدتهم وأرادوا أن يهاجموها في عقر دارها، ليقطعوا دابرها، وبالتالي فقد جمعوا ما استطاعوا من الجموع، وجهزوهم بما يحتاجون من العتاد لهذه الموقعة المهمة.

وبلغت الأخبار رسول الله ﷺ وهو في المدينة، بأن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه من قبائل العرب لخم وجذام وعاملة وغسان، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء، وعسكروا بها، وتخلف هرقل بحمص(٢).

---

(١) البخاري، برقم (٤٤١٧)، باب غزوة تبوك.
(٢) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢/٤٧).

بعد وصول هذه الأنباء إلى النبي ﷺ كان لِزامًا أن يفكر في دفع هذا العدوان عن أمته، وليس أمامه سوى حلين لا ثالث لهما:

أوَّلًا: أن يترك جنود الروم يخرجون من بلادهم، ويجمعون معهم الجموع الغفيرة، ويقطعون الصحراء الواسعة، ثم بعد ذلك يقابلهم في أي مكان يريد من هذه الصحراء الواسعة.

ثانيًا: أن يُكوّن جيشًا جرارًا بسرعة شديدة ثم يتوجه إليهم بنفسه، قبل أن يخرجوا من بلادهم، فيكون هو البادئ بالهجوم.

ومن خلال منهج النبي ﷺ في التعامل مع الغزوات فيما سبق، نعلم أنه ﷺ كان يفضّل الخيار الثاني دائما، فإنه ﷺ لم يترك عدوًّا قطّ علم أنه يُعدّ له العدة إلا وخرج إليه، ولكن الأمر هنا يختلف فلا بد من تقدير الحسابات بشكل صحيح، ومعرفة المكاسب والمخاطر، فإن انتظار جيش الروم حتى يخرج فيه من المخاطرة الشيء الكثير، حيث إنه من المتوقع أن تغدر كثير من قبائل العرب التي تحالفت مع النبي ﷺ في تلك الأطراف البعيدة، وتنضم إلى جيش الروم، كما أن خروجه ﷺ من المدينة في هذا التوقيت، والعام عام جدب وقحط، وكان لا بد من تجهيز عدد كبير من الجيش لملاقاة الروم يحتاج إلى وقت ومال، كما أنه مخاطرة كبيرة أن يسير الجيش في هذه الصحراء المهلكة في فصل الصيف، وهو شديد الجفاف.

وبعد دراسة الموقف جيدا، اختار النبي ﷺ ـ كعادته ـ الخيار الثاني مع ما به من مخاطرة.

مواقف رائدة:

نظرا لضيق الوقت وقلة الزاد في تلك الآونة، وكان العام عام جدب وقحط، وحاجة النبي ﷺ إلى حشد كبير من المقاتلين لدرء هذا الخطر الداهم عن المدينة، فقد كان أكبر جيش خرج به رسول الله ﷺ لملاقاة عدوّه هو يوم حنين، وبلغ اثني عشر

ألف جندي فقط، ولكنهم اليوم يحتاجون أضعاف هذا العدد، فقد كان جيش الروم في غزوة مؤتة يقارب المائتي ألف مقاتل كما تقدم. وهو رقم ضخم بكل تأكيد يوجب على المسلمين أن يجمعوا له كل ما يستطيعون جمعه.

كل هذه العوامل مجتمعة أدت في النهاية إلى أن النبي ﷺ أذاع خبر هذه المعركة على المنبر على غير عادته وندب الناس للدفاع عن الدين والعقيدة، وحثّهم على التصدق بأموالهم لإعداد الجيش، وبعث إلى قبائل العرب الذين أسلموا يستنفرهم، ويطلب منهم المشاركة بالمال والسلاح والنفس.

روى الإمام أحمد عن كعب بن مالك: "كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها، حتى كان غزوة تبوك فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد استقبل سفرا بعيدا ومفازا، واستقبل غزو عدوّ كثير فجلى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة عدوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد"[١].

ولقد ضرب المسلمون الأوائل الأمثال الخالدة في التصدق لنصرة هذا الدين، والدفاع عن حرماته، وتنافسوا في الخير، حتى كان الرجل يأتي بما قدر عليه من مال وسلاح، على الرغم مما بهم من الحاجة، وكانوا نماذج رائعة، سمت بأنفسها عن وهدة هذه الحياة الدنيا، وإليك قائمة بهذه النماذج الرائعة الرائدة.

جاء أبو بكر رضي الله عنه بأربعة آلاف درهم هي كل ماله، ولما سأله النبي ﷺ: هل أبقيت شيئا [أي لأولادك]؟ رد بهذا الجواب الذي ما زالت الدنيا تردده: أبقيت لهم الله ورسوله ﷺ[٢].

(١) مسند أحمد، برقم (١٥٧٨٢)، وقال المحقق: "إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير عتاب بن زياد: وهو الخراساني فمن رجال ابن ماجة وهو ثقة. وأخرجه مسلم مطولا، برقم(٢٧٦٩)(٥٣)..".

(٢) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢/٤٧). وغيره وأخرجه الترمذي، (٣٦٧٥)، قال الألباني: "حسن".

وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله، فلما علم أن أبا بكر تصدق بماله كله، قال كلمته الشهيرة، التي يعبر بها عن تقديره وحبه للصديق رضي الله عنه: ما استبقنا إلى خير إلا سبقني إليه[١].

أما عثمان رضي الله عنه فإنه صاحب النصيب الأوفر في هذه الغزوة، فقد جهز رضي الله عنه في رواية للنسائي "نصف الجيش"[٢] وفي رواية أبي عبد الرحمن السلمي ثلث ذلك الجيش[٣].

فهذا عبد الرحمن بن حباب يحدثنا عن نفقة عثمان حيث قال: شهدت النبي ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله، عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه[٤].

وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: "ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم ـ يرددها مرارًا ـ"[٥].

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢/٤٨).

(٢) سنن النسائي، (٣٦٠٩)، قال الألباني: "صحيح بما قبله"، ومسند أحمد، (٤٢٠)، قال مخرجوه: "حديث صحيح".

(٣) فضائل الصحابة، (٨٤٩)، قال مخرجه: "إسناده صحيح".

(٤) سنن الترمذي، مناقب، برقم (٣٧٠٠).

(٥) مسند أحمد، (١٦٦٩٦)، قال مخرجوه: "حسن".

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ رأيت رسول الله ﷺ من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه الكريمتين يدعو لعثمان بن عفان يقول: اللهم هذا عثمان رضيت عنه، فارض عنه[١].

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية من الفضة. وحمل العباس بن عبد المطلب مالًا يقال إنه تسعون ألف درهم، وحمل طلحة بن عبيد الله وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالا كثيرا، وتصدق عاصم بن عدي بتسعين وسقا من التمر[٢].

وللنساء نصيب:

وساهم النساء في التصدق لتجهيز هذه الغزوة بكل ما قدرن عليه من حليّهن، فكنّ يلقين في ثوب مبسوط بين يدى رسول الله ما بأيديهن من المسك[٣] والمعاضد[٤] والخواتيم. وما بأرجلهن من الخلاخيل والخَدَمات[٥]، وما بآذانهن من الشُّنوف والأقراط، وما بأعناقهن من العقود والقلائد[٦].

وظل المسلمون يتنافسون في تجهيز الجيش حتى لم يبق منهم من يستطيع أن يبذل المزيد، وعجز نفر من فقراء المسلمين عن تجهيز أنفسهم، ولم يجدوا لهم ظهرا يركبونه، فقد سبقهم آخرون إلى ركوب الظهور للحرب، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يحملهم بأي طريق كان، والنبي ﷺ يصرفهم ويقول لهم: «لا أجد ما أحملكم عليه». فانصرفوا وأعينهم تفيض من الدمع على ما فاتهم من الخير وشرف الجهاد، ولكن الله الذي لا تخفى عليه خافية، قد قدر لهم هذه المشاعر

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/١٠٠).
(٢) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢/٤٨).
(٣) المسك: أسورة تلبس في معصم اليد.
(٤) المعاضد: أسورة تلبس في المعضد.
(٥) الخدمات: أنواع من الخلاخيل.
(٦) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢/٤٨).

النبيلة، ودموعهم الغالية، وأنزل قرآنا يُتعبّد بتلاوته إلى يوم القيامة يبين عذرهم ويرفع الحرج عنهم، ويضعهم في مكانهم الصحيح.

يقول تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩١ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢].

وجعل فريق من المنافقين يتعللون بالأعذار الواهية؛ ليتخلفوا عن الركب، فمنهم من يقول: لا تنفروا في الحر، ومنهم من جاء يعتذر للنبي ﷺ ويستأذنه في التخلف عن الغزو، ومنهم من أخذوا يثبطون الناس ويخوّفونهم لقاء الروم، ويشيعون الأراجيف والدعايات الكاذبة فيقولون: "يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر، والبلد البعيد؛ أي مالا طاقة له به، يحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال"[١].

إن هذه الأقوال التي تكلم بها المنافقون آنذاك، لا تزال تردد إلى يوم الناس هذا، وكأن التاريخ يعيد نفسه، فالكفار هم الكفار، والمسلمون هم المسلمون، والمنافقون في بلاد الإسلام اليوم ـ وما أكثرهم ـ ينظرون بعين العجب والانبهار إلى الحضارة الغربية ومنجزاتها، ويخافون من قوتها وعدتها وعتادها، ويشيعون ذلك في المسلمين، ولا ينظرون إلى عظمة هذا الدين، وأن الله ناصره ومؤيده ومظهره على الدين كله، ولو كره الكافرون، لا يعلمون أن الله ناصر من ينصره، ويخلص الجهاد لدينه، فما أشبه الليلة بالبارحة، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وقد أنزل الله عز وجل في هؤلاء المنافقين قرآنا يتلى إلى يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/١٠٢).

وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٣ – ٩٦].

تمت تعبئة الجيش حتى بلغوا قرابة ثلاثين ألفًا من الناس، وفيها من الخيل عشرة آلاف فرس، وخرج النبي ﷺ من المدينة وضرب عسكره على ثنية الوداع، ثم شرع في عقد الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكر، ودفع راية المهاجرين إلى الزبير، ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير، وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر، وأمر كل بطن من الأنصار وقبائل العرب أن يتخذوا لواء أو راية[1]، ثم مضى لسبيله متجهًا إلى ناحية الشام، وقد انخذل عبد الله بن أبي بن سلول، ورجع بمن معه من المنافقين، كما انخذل عنه يوم أحد.

مضى الجيش في سبيله، يعاني جفاف الصحراء الشاسعة، مع الحر الشديد، ابتغاء مرضاة الله ونصرة دينه، ولذا فقد قاسى المسلمون في هذه الغزوة، ولقوا فيها مشقة بالغة، وعنتًا كثيرًا، فقد اجتمع فيها عوامل كثيرة ساعدت على ذلك كله، من بعد المسافة وشدة الحر، وجدب العام، وقلة المئونة، وقلة الظهر؛ ولذا فقد سماها الله تعالى ساعة العسرة.

روى البيهقي: "خرجوا في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير، وخرجوا في حر شديد فأصابهم يومًا عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم ليعصروا أكراشها، ويشربوا ماءها؛ فكان ذلك عسرةً من الماء، وعسرةً من النفقة، وعسرة من الظهر"[2].

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢/٥٢).
(٢) البيهقي: دلائل، (٥/٢٢٧).

وعلى الرغم من هذا كله فما كان المؤمنون الصادقون ليتكاسلوا عن الجهاد، مهما كانت الأسباب أو الظروف غير المواتية، يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠ – ١٢١].

انطلق الجيش يشقّ الفيافي متجهًا إلى الشام، وكان الصحابة أثناء السير يتفقدون من غاب منهم، ويقولون للنبي ﷺ: لقد غاب فلان وفلان، فمنهم من يتدارك أمره، ويخف مسرعًا فيلحق برسول الله ﷺ، ومنهم من تأخر تماما حتى أخلد إلى الدعة، ثم ندم على ذلك.

قال ابن إسحاق: "ثم مضى رسول الله ﷺ سائرًا، فكان يتخلف عنه الرجل فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان. فيقول: دعوه فإن يك فيه خير، فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه". وتَلَوَّمَ[1] أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه، فحمله على ظهره، ثم خرج يتتبع أثر رسول الله ماشيًا.

ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله: إن هذا لرجل يمشي على الطريق وحده. فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذر. فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو ـ والله ـ أبو ذر. فقال رسول الله ﷺ: رحم الله أبا ذر! يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده"[2].

وقد تحققت نبوءته ﷺ، حيث مات ﷺ في الربذة وحيدًا، ولم تجد زوجه أحدًا يدفنه فأوصاها أن تغسله وتكفنه ثم تضعه على قارعة الطريق تنتظر أن يمر

(١) تلوم: تأخر.
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/١٠٨).

www.almoslih.net

بهم ركب يقومون على دفنه، حتى مر به عبد الله بن مسعود وصلى عليه ودفنه، وترحم عليه، وذكر لمن كان معه ما قاله رسول الله ﷺ عنه في غزوة تبوك، فرضي الله عن صحابة النبي ﷺ جميعا[1].

ومنهم أيضًا أبو خيثمة وعمير بن وهب الجمحي، قال ابن إسحاق: «إن أبا خيثمة رجع ـ بعد ما سار رسول الله أياما ـ إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريش لهما في حائطه[2]، قد رشّت كل منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعاما، فلما دخل قام على باب العريش فنظر الى امرأتيه وما صنعتا له فقال: رسول الله في الضَّحّ[3] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم؟ ما هذا بالنَّصَف[4]! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ! فهيئا لي زادًا. ففعلتا. ثم قدم ناضحه فارتحله[5]، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ، حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله ﷺ فترافقا حتى دنوا من تبوك»[6].

وصول الجيش إلى تبوك:

وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك، وبذلك أصبح على حدود الدولة الرومية، ومع ذلك لم يجد جيش العدو، بل لم يجد أثرا يدل أن هناك جيشا أتى أو سيأتي فعسكر في هذا المكان وظل ينتظر قدوم جيش الروم، ومع ذلك لم يأت أحد.

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (١٠٨/٣).
(٢) الحائط: بستان من نخيل له سور.
(٣) الضح: لهيب الشمس.
(٤) النصف: العدل والإنصاف.
(٥) الناضح: الجمل المعد للسير.
(٦) ابن هشام: السيرة، (٢٠٠/٥).

وفي تفسير عدم وجود جيش الروم على الرغم من الأخبار التي وصلت النبي ﷺ وتقول إنهم يعدّون العدة للقاء المسلمين احتمالان، ذكرهما المؤرخون المعاصرون والقدماء:

الأول: أن يكون الروم آثروا الانسحاب إلى داخل بلاد الشام، ليتحصنوا بحصونها حين بلغهم أمر هذا الجيش وقوته.

فقد ترك هذا الانسحاب في نفوس قبائل العرب المحتفظة بكيانها وبدينها أثرا عميقا، وترك في نفوس قبائل الجنوب باليمن وحضرموت عمان أثرا أشدّ عمقا.

أليس الروم هؤلاء هم الذين غلبوا الفرس، واستردّوا منهم الصليب، وجاءوا به إلى بيت المقدس في حفل عظيم؟ وفارس كانت صاحبة السلطان على اليمن، وعلى البلاد المجاورة لها أزمانا طويلة! فإذا كان المسلمون على مقربة من اليمن ومن غيرها من البلاد العربية جمعاء، فما أجدر هذه البلاد بأن تنضامّ كلها في تلك الوحدة التي تستظلّ بعلم النبي ﷺ، علم الإسلام، لتكون بمنجاة من تحكم الروم والفرس جميعا!

وماذا يضرّ أمراء القبائل والبلاد أن يفعلوا وهم يرونه ﷺ يثبّت من جاءه معلنًا الإسلام والطاعة في إمارته وعلى قبيلته؟! فلتكن السنة العاشرة للهجرة إذن سنة الوفود، وليدخل الناس في دين الله أفواجا، وليكن لغزوة تبوك، ولانسحاب الروم أمام المسلمين من الأثر أكثر مما كان لفتح مكة والانتصار في حنين وحصار الطائف»[1].

الثاني: أن هرقل هو الذي أشاع أنه سيجهز جيشا لغزو المدينة، لإرهاب المسلمين فيها، وطلب من بعض التجار أن يذيعوا تلك الأخبار في المدينة ليبثوا فيها الرعب، ولكنه في الواقع لم يجهز جيشا، ولا فكر في غزو المدينة.

(١) هيكل: (ص٢٩٢).

www.almoslih.net

وقد ذهب إلى هذا الرأي المقريزي في الإمتاع، حيث يقول معلقًا على إخبار التجار بتجهيزات هرقل وحلفائه: "ولم يكن ذلك، إنما ذلك شيء قيل لهم فقالوه"(١).

والواقع أن المصادر التاريخية تقف أمام هذا الحدث موقفا حياديًا تمامًا، فلم نستطع من خلالها أن نتبين أي القولين أرجح في هذه القضية، وعلى كل فإن النبي ﷺ لم يجاوز تبوك، ولم يتوغل في حدود الروم، بل ظل في مكانه، بضع عشرة ليلة وقيل عشرين ليلة(٢)، فوفد عليه بعض القبائل التي حول تبوك من النصارى العرب التابعين للدولة الرومية، فصالحهم على أن يعطوا الجزية، ويدخلوا في أمان الإسلام.

فقد كتب لصاحب أيلة كتاب أمان، ونصه: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ﷺ ليوحنًا بن رؤبة وأهل أيلة: سفنهم وسيَّارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ﷺ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه لَطيبةٌ لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحلّ أن يُمنعوا ماء يردونه، ولا طريقًا يريدونه من بر أو بحر"(٣).

وأعطى النبي أهل أيلة بردة مع كتابه الذي كتب لهم أمانًا لهم، فاشتراه أبو العباس عبد الله بن محمد بثلاثمائة دينار(٤).

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٤٧/٢).
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (١١٩/٣).
(٣) البيهقي: دلائل النبوة، (٢٤٧/٥)، وما بعدها، الحلبي: السيرة الحلبية، (١١٧/٣)، وقد رسمت يوحنا: يحنة، فغيرناها إلى الرسم المتعارف عليه الآن.
(٤) البيهقي: دلائل النبوة، (٢٤٨/٥)، الحلبي: السيرة الحلبية، (١١٧/٣).

وعاهد أهل أذرُح وجرباء، وكتب لهم كتابا، جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ لأهل أذرح وجرباء، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ﷺ، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة"(١).

وصالَح أهل مَيْناء على ربع ثمارها(٢).

رجوع جيش المسلمين:

أقام رسول الله ﷺ مع جيشه بتبوك ينتظر قدوم الروم، فلم يأت أحد، وطال به المقام، فاستشار أصحابه في أن يكمل المسير حتى يتوغل في بلاد الشام معقل الدولة الرومية آنذاك حتى يلقى عدوّه، ولكن المسلمين أشاروا عليه بالرجوع إلى المدينة، حيث قال له عمر: يا رسول الله، إن كنت أمرت بالسير فسر، فقال ﷺ: لو كنت أمرت بالسير لم أستشر فيه. فقال: يا رسول الله، إن للروم جموعا كثيرة، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم، وقد أفزعهم دنوّك، فلو رجعت هذه السنة، حتى ترى، أو يحدث الله أمرا"(٣). فقبل عليه السلام مشورة عمر، وأمر الجيش بالرجوع إلى المدينة.

وقد وصل النبي ﷺ إلى المدينة في رمضان سنة ٩ هـ، أي أن الغزوة بأكملها قد كانت قرابة ثلاثة أشهر، وخرج الناس لتلقيه، والصبيان والنساء والولائد، ينشدن ويغنين، فرحا بعودة رسول الله ﷺ(٤).

(١) البيهقي: دلائل النبوة، (٢٤٨/٥)، الحلبي: السيرة الحلبية، (١١٨/٣).
(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، (١١٨/٣).
(٣) الحلبي: السيرة الحلبية، (١١٩/٣).
(٤) الحلبي: السيرة الحلبية، (١٢٣/٣).

فضحُ المنافقين:

كانت غزوة تبوك بكل الملابسات التي رافقتها اختبارا إيمانيا صادقا، ميّز الله عز وجل به المؤمنين الصادقين عن المنافقين الكاذبين، ثم نزلت فيهم بعد ذلك آيات بينات فضحهم الله عز وجل بها، حتى سميت سورة التوبة بالفاضحة، أي الفاضحة للمنافقين، الكاشفة عن أحوالهم وأعمالهم، حيث جاءت الآيات تتحدث في سفور تام، بل بتقريع وإهانة لكل طلاب الدعة والراحة المادية، الذين آثروا التخلف عن الجهاد في بيوتهم وحقولهم انتظار الثمار ورفاهية العيش، على وعثاء السفر، ومشقة الجهاد.

يقول تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٨١ - ٨٥].

فهذه الآيات أشد ما نزل من القرآن في شأن المتكاسلين المتخلفين عن القتال في الغزو، حتى إنها لتحكم صراحة على قطاع كبير منهم بالكفر والنفاق وهذا أقسى حكم يمكن أن يوجه إلى هؤلاء.

على الرغم من أن هذه الغزوة لم يقع فيها قتال، ولكن الأمر هو أبعد من ذلك، إنه أمر طاعة الله ورسوله، ونصرة هذا الدين، وعدم التخلف عن الدفاع عن بيضة الدين، ودولة الإسلام.

ولذا كان التخلف عن الجهاد في هذه الغزوة بغير عذر نفاقا، ونكولا عن أداء الواجبات المفروضة، وتعريضًا لأمن هذا الدين للخطر، وتخلفا عن نصرة الجماعة المؤمنة، وإخلادًا إلى متع الحياة الدنيا، وتفضيلها على الحياة الآخرة، وانخذالًا عن الحق، والتخلي عن المؤمنين وإسلامهم للعدو في وقت الشدة والحرج؛ فكان لِزامًا بعد هذا كله أن يكشف أمرهم للجماعة حتى لا تنخدع بهم بعد ذلك.

وبناء على ذلك كله نفهم لماذا حمل القرآن الكريم على هؤلاء المتخلفين هذه الحملة الشديدة، وفضحهم على رؤوس الأشهاد، ووصفهم بما وصفهم به من الكفر والنفاق والخسة وسقوط الهمة، وعبادة الدنيا.

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (٤٢) عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (٤٩) إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٤٢ - ٥٠].

وقد استثنى الله عز وجل من هؤلاء المخلفين ثلاثة صدقوا رسول الله فلم يختلقوا له أعذارًا، بل إنهم تكلموا بالحق، وقالوا: إنهم ما تخلفوا لعذر ولا نفاق،

ولكنهم أبطأ بهم الكسل فقط، ولم يكن ذلك منهم شكًّا ولا جبنًا، فأجل النبي ﷺ النظر في أمرهم حتى يقضي الله فيهم بما يشاء، وهؤلاء الثلاثة هم: هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، فتاب الله عز وجل عليهم، بصدقهم، وسابقتهم في الإسلام، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أنزل الله عزوجل توبتهم في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

[التوبة: ١١٧ – ١١٨].

مُعجِزاتٌ فِي الطَّرِيق

كانت هذه الغزوة حافلة بكثير من المعجزات التي أكرم الله عز وجل بها نبيه ﷺ، وتدل على نصر الله عز وجل لنبيه، ولهذا الدين، وفي هذا بشارات للمؤمنين في كل زمان ومكان، أن دين الله سيظهر على الدين كله، وما علينا إلا أن نخلص له السعي، ونؤمن به حقا، والله عز وجل تكفل بنصر المؤمنين.

ولكثرة هذه المعجزات فإننا سوف نقسمها إلى عناوين رئيسة ثم نذكر منها ما يندرج تحتها، كما يلي:

(١) إغاثة المسلمين من الموت جوعا وعطشا:

حدث ذلك في هذه الغزوة مرات عديدة، وكان الله عز وجل يمنّ على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين بمعجزة من عنده، ينجي بها المؤمنين من ناحية، ويثبت قلوبهم من ناحية أخرى، نظرا لما كان يعانيه صحابة رسول الله ﷺ في هذه الغزوة من جفاف وشدة حر، وقلة ماء، فأكرمهم الله عز وجل ببركة النبي ﷺ، تخفف عنهم بعض ما يجدونه من الألم.

وذلك كما يأتي:

(١) إمطار السماء ببركة دعائه:

روى ابن حبان وغيره من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا، وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا

www.almoslih.net

ستنقطع.. وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه[1] فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عوّدك في الدعاء خيرا، فادع الله لنا، فقال: أو تحب ذلك؟ قال: نعم. فرفع رسول الله يديه إلى السماء، فلم يرجعها حتى قالت السماء ـ أي آذنت بمطر ـ فأطلت ثم سكبت[2]، فملأوا ما معهم. ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر»[3].

ب تكثير الماء القليل :

وحدث منه ﷺ مرات عديدة فهي معجزات يتلو بعضها بعضًا، وليست معجزة واحدة.

الأولى: وهم على مشارف الوصول إلى تبوك، حيث أخبرهم النبي ﷺ أنهم سيصلون غدا، وأنهم لن يأتوها حتى يضحى ضحى النهار.

روى مسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك فكان يجمع الصلاة فصلى الظهر والعصر جميعا والمغرب والعشاء جميعا، حتى إذا كان يوما أخّر الصلاة ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعا ثم دخل ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعا، ثم قال: إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها منكم، فلا يمسّ من مائها شيئا حتى آتي، فجئناها، وقد سبقنا إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء قال فسألهما رسول الله ﷺ هل مسستما من مائها شيئا؟ قالا: نعم، فسبّهما النبي ﷺ، وقال لهما: ما شاء الله أن يقول، قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا حتى اجتمع في شيء، وغسل رسول الله ﷺ فيه يده ووجهه

(١) الفرث: بقايا ما في الأمعاء.
(٢) الطل: المطر الخفيف، والسكب: المطر الدافق.
(٣) صحيح ابن حبان، برقم (١٠١)، البيهقي: السنن، برقم (٢٠١٣١).

ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر، أو قال غزير ـ شك أبو علي أيهما قال ـ حتى استقى الناس»[1].

الثانية: حينما كانوا في طريق عودتهم، يقول البيهقي: «ثم انصرف قافلا إلى المدينة، وكان في الطريق ماء يخرج من وَشَل ـ وهو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره ـ فلا يروي إلا الراكب والراكبين والثلاثة، في وادي المشقق.

فقال رسول الله ﷺ: من سبقنا إلى ذلك الماء فلا يستقين منه شيئا، حتى نأتيه، فسبقه إليه نفر من المنافقين، فاستقوا ما فيه، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه، فلم ير فيه شيئا. فقال: من سبقنا إلى هذا الماء؟ فقالوا: يا رسول الله، فلان وفلان. فقال: أولم أنههم أن يستقوا منه حتى آتيه. ثم لعنهم ودعا عليهم. ثم نزل فوضع يده تحت الوشل، فجعل يصبّ في يده ما شاء الله أن يصب، ثم نضحه به، ومسحه بيده، ودعا بما شاء الله أن يدعو، فانخرق من الماء، كما يقول من سمعه: ماء له حسّ كحس الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه»[2].

الثالثة: كانت في طريق عودتهم أيضًا، حيث إنهم نزلوا مرة على غير ماء، «فبعث أبا قتادة وأبا طلحة وسماك بن خرشة وسعد بن عبادة يلتمسون الماء، فغابوا إلى قائم الظهيرة ثم رجعوا و لم يجدوا شيئا، وبلغ العطش من الناس والخيل

(١) مسلم، برقم (٧٠٦)، باب في معجزات النبي ﷺ. وقد تكرر ذلك في عدة مواطن ففي صحيح البخاري وردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من المتواتر المعنوي، فتح الباري، (٦/٥٨٥). باب علامات النبوة، فقد نبع الماء من بين أصابعه ﷺ بالزوراء، وتوضأ منه زهاء ثلاثمائة، (٣٢٢٧)، فدعا بماء فمضمض ومج في البئر، فشرب الناس وركائبهم، وكان عددهم أربع عشرة مائة، (٣٥٧٧)، إلى آخر ما ورد في هذا الباب.
(٢) ابن هشام: السيرة، (٥/٢٠٨)، ابن كثير: السيرة النبوية، (٤/٣٢)، السهيلي: الروض الآنف، (٤/٣٠٠).

www.almoslih.net

والدواب فصلى بأصحابه متيمما، فلما فرغ شكوا إليه العطش فبعث أسيد بن حضير وأسامة يلتمسون الماء من الأعراب، فقال المنافقون: إن محمدا يخبر بأخبار السماء، وهو لا يدري الطريق إلى الماء.

فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره بقولهم وسماهم له، فشكا ذلك إلى سعد بن عبادة فقال سعد: إن شئت ضربت أعناقهم. فقال: لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، ولكن نحسن صحبتهم ما أقاموا معنا.

ثم قال لأبي الهيثم بن التيهان وأبي قتادة وسهيل بن بيضاء يستعرضون الطريق، ويأخذون على الكثيب، فتقفوا ساعة، فإن عجوزا من الأعراب تمر بكم على ناقة لها معها سقاء من ماء فأطعموها، واشتروا منها بما عز وهان، وجيئوا بها مع الماء، فمضوا حتى بلغوا الموضع الذي وصف لهم، فإذا بالمرأة فقالوا: تبيعنا هذه الماء؟ قالت: أنا وأهلي أحوج إلى الماء منكم، فطلبوا إليها أن تأتي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع الماء، فأبت، وقالت: إن هذا لساحر، خير الأشياء أن لا أراه ولا يراني، فشدوها وثاقا، حتى جاءوا بها مع الماء، فلما وقفت بين يدي رسول الله ﷺ قال: خلوا عنها، وقال لها: تبيعين هذا الماء؟ قالت: إن أهلي أحوج إليه منكم.

قال: فائذني لنا فيه وليصيرن ذلك كما جئت به قالت: شأنكم. فقال لأبي قتادة: هات الميضاة، فقربت إليه، فحل السقاء وتفل فيه، وصب في الميضاة ماء قليلًا ظنا أن يكون نصف الميضاة، فوضع يده فيه ثم قال: ادنوا فخذوا، فجعل الماء يزيد، والناس يأخذون حتى ما أبقوا معهم سقاء إلا ملأوه وأرووا خيلهم وإبلهم، والميضاة ملأى، ثم زاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في السقاء حتى ملأه، وبقي في الميضاة ثلثاه، ثم توضؤوا كلهم حين أصبحوا، وهو يزيد ولا ينقص»[١].

---

(١) الماوردي: أعلام النبوة، (ص١٢١)، الحلبي: السيرة الحلبية، (١١٥/٣). وانظر: نحو ذلك في صحيح مسلم، (١٧٢٩)، وصحيح البخاري، (٣٢٧١).

ج تكثير الطعام بين يديه ﷺ:

روى الإمام أحمد: «لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا، فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وادهنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: افعلوا فجاء عمر فقال: يا رسول الله إنهم إن فعلوا قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع لهم عليه بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك.

فدعا رسول الله ﷺ بنطع، فبسطه ثم دعاهم بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكف الذرة، والآخر بكف التمر، والآخر بالكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، ثم دعا عليه بالبركة، ثم قال لهم: خذوا في أوعيتكم. قال: فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا من العسكر وعاء إلا ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت منه فضلة، فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بها عبد غير شاكّ، فتحجب عنه الجنة»[١].

٢ الإخبار بالغيب[٢]:

حدث ذلك منه ﷺ كثيرا في هذه الغزوة، فهذه معجزات منفصلة، آثرنا أن نكتبها تحت عنوان واحد، طلبا للاختصار، وقد كان ذلك بهدف الرد على المنافقين مرة، وعلى بث الأمل والبشرى في صفوف المسلمين مرات أخرى،

---

(١) مسند أحمد، برقم (١١٠٩٥)، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وانظر نحو ذلك في صحيح البخاري، (٣٤٤)، ومسلم، (٦٨٢)، لكن ذكرا ذلك بلفظ «كنا في سفر» بدون ذكر غزوة تبوك، قال الكتاني: «أحاديث تكثير الطعام ببركته ﷺ وردت في رواية جماعة من الصحابة، حتى قال بعضهم: إنها متواترة معنويا»، نظم المتناثر من الحديث المتواتر، رقم (٢٦٧).

(٢) عد العلماء أكثر من ألف إخبار عن الغيب له ﷺ. انظر: فتح الباري، (٥٨٢/٦)، وصحيح مسلم بشرح النووي، (٢/١)، طبعة أولى المصرية.

وكل ذلك مما يدل على نبوته ﷺ. وقد ألف أبو العلاء القشيري "ما في القرآن من دلائل النبوة" وفي سورة الفتح عشر مغيبات صريحة انظرها في تفاسير هذه السورة.

وقد تتابعت هذه المعجزات كالتالي:

أ معرفته بمضمون رسالة هرقل:

بعث النبي ﷺ وهو في تبوك برسالة إلى هرقل، فلما وصلته وقرأها أرسل لرسول الله ﷺ كتابا مع رجل من تنوخ، عربي جيد الحفظ، وأوصاه بأن يحفظ عن النبي ﷺ ثلاثة أشياء:

- هل يذكر رسالته إلي السابقة؟
- إذا قرأ كتابي هل يذكر الليل؟
- وانظر في ظهره هل به شيء يريبك؟

فلما سلّم الرسالة لرسول الله ﷺ وضعها في حجره، فقال النبي ﷺ: يا أخا تنوخ إني كتبت بكتاب إلى كسرى، فمزقها والله ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها، والله مخرقه ومخرق ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة، فأمسكها فلم يزل الناس يجدون منه بأسًا، ما دام في العيش خير.

فقال التنوخي: هذه واحدة من الثلاث التي أوصاني بها هرقل، ثم كتبها في جنب سيفه.

ثم فض النبي ﷺ الصحيفة، فإذا فيها: تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض، أعدت للمتقين.. فأين النار؟

فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله، أين الليل إذا طلع النهار؟

فأخذ التنوخي سهما من جعبته، فكتبه في سيفه وقال: هذه الثانية.

ولما خرج مع مضيفه الأنصاري.. ناداه رسول الله ﷺ فقال: تعال يا أخا تنوخ. فلما أقبل ووقف بمجلسه عليه الصلاة والسلام، ومثل بين يديه ﷺ، حل النبي حَبْوته عن ظهره، وقال: هاهنا، امض لما أمرت به. فجال بنظره في ظهر رسول الله ﷺ، فإذا هو بخاتم النبوة في موضع غضون الكتف، مثل الحُمَمَة الضخمة[1] أي موضع شديد السواد.

فمن الذي أعلم النبي ﷺ أن هرقل قال لرسوله أن ينظر بين كتفيه، حيث يوجد خاتم النبوة[2]، حتى إذا لم يتمكن من ذلك، دعاه النبي ﷺ وحل له حَبْوته، وأراه ما بين كتفيه، ثم قال له: امض لما أمرت به؟

ب إخباره بحال أكيدر دومة:

في هذه الغزوة، عندما لم يجد النبي ﷺ جيش الروم، أخذ يبعث سراياه لتأمين المنطقة وإخضاعها لسلطان المسلمين، وكان من بين ذلك، أنه "بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة ـ وكان ملكا عليها ويعتنق النصرانية ـ وقال رسول الله ﷺ لخالد: **إنك ستجده يصيد البقر**. فلما وصل خالد إلى حصنه إذا هو محكم، وهو فيه في ليلة مقمرة، وكان على السطح ومعه امرأته، فجاء بقر الوحش إلى باب قصره، وباتت تحك باب القصر بقرونها، وكان مغرما بالصيد.

(١) مسند أحمد، برقم (١٥٦٥٥، ١٦٦٩٣)، وقال مخرجوه: حديث غريب وإسناده ضعيف لجهالة سعيد بن أبي راشد فلم يرو عنه غير عبد الله بن عثمان بن خثيم، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان وباقي رجاله عدا التنوخي رجال الصحيح... والتنوخي كان كافرا حين لقى النبي ﷺ، ثم أسلم بعد وفاته، وحدث بما سمعه ..بالاتصال لا بالإرسال".

(٢) في صحيح البخاري، (١٩٠)، وصحيح مسلم، (٣٣٤٥)، عن السائب بن يزيد ".. فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زر الحجلة، وفي صحيح مسلم، (٢٣٤٤)، عن جابر بن سمرة "... ورأيت الخاتم عنه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده"، برقم (٢٣٤٦)، "عن عبد الله بن سرجس.. فنظرت إلى خاتم النبوة.. عند ناغض كتفه اليسرى، جمع عليه خيلان (خال، وهو الشامة في الجسد، كأمثال التأليل".

فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟. قال: لا والله. قالت: فمن يترك هذا؟ قال: لا أحد. فنزل فأمر بفرسه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخ له يقال له: حسان. فركب وخرجوا معه يطاردون البقر، فتلقاهما خالد بن الوليد، فأخذوا أكيدر الدومة، وقتلوا أخاه.

وكان على أكيدر قباء من ديباج مخوص بالذهب، فاستلبه خالد، وبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه. فجعل المسلمون يتعجبون منه، فقال ﷺ: أتعجبون من هذا، فوالذي نفسي بيده، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة، أحسن من هذا»[(١)].

فمن الذي أخبر النبي ﷺ أنه خالد بن الوليد سيجد أكيدر دومة قد خرج من بيته، ليصيد البقر.

إنها معجزات من الله عز وجل للنبي ﷺ، ليثبت بها قلوب المؤمنين.

ج إخبار النبي ﷺ بمكان ناقته :

لقد حدث ببعض الطريق أن ضلت ناقة رسول الله ﷺ فذهبوا في طلبها، ولم يجدوها، فقال رسول الله ﷺ لعمارة بن حزم الأنصاري وكان عنده: «إن رجلا قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويخبركم خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ وإني والله لا أعلم، إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، هي في الوادي قد حبسها شجرة بزمامها». فانطلقوا فجاءوا بها.

فرجع عمارة إلى رحله، فحدثهم عما جاء رسول الله ﷺ من خبر الرجل، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة، إنما قال ذلك: زيد بن اللصيت وكان في رحل عمارة، قبل أن يأتي، فأقبل عمارة على زيد، يجأ في عنقه، ويقول: إن في رحلي لداهية، وأنا لا أدري، أخرج عني يا عدو الله فلا تصحبني»[(٢)].

(١) ابن هشام: السيرة، (٥/٢٠٧)، وما بعدها، الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/٦٧٣)، ابن كثير: السيرة النبوية، (٣/٢٤٨).
(٢) الماوردي: أعلام النبوة، (ص١٢١).

وهذه الحادثة غير الحادثة الأخرى التي تكلمنا عنها في غزوة بني المصطلق.

د إخبار النبي ﷺ بأسماء المنافقين الملثمين :

إن النفاق دائما هو السوس الذي يفت في عضد الأمم، فقد أجمع نفر من المنافقين على خطة شيطانية للفتك برسول الله ﷺ، وذلك بأن يطرحوه من رأس العقبة، في الطريق أثناء العودة من تبوك، فأطلعه الله عز وجل على أمرهم، فأمر الناس بالمسير من الوادي، وصعد هو من العقبة، وأخذ معه بعض كبار الصحابة الذين يثق بهم مثل عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان.

ومع أوامر النبي ﷺ الصريحة للمسلمين بعدم سلوك هذه العقبة التي يمر بها النبي، وعليهم أن يسيروا من بطن الوادي، فقد جاء ذلك النفر واعترضوا طريق رسول الله ﷺ وهم ملثمون، وكان عددهم اثني عشر رجلا، وأمر رسول الله ﷺ عمارا وحذيفة أن يمشيا معه: عمار آخذ بزمام الناقة، وحذيفة يسوقها، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم قد غشوهم، فغضب رسول الله ﷺ ونهرهم، وأبصر حذيفة غضبه، فرجع إليهم ومعه محجن، فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنه، فأسرعوا حتى خالطوا الناس.

فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: هل عرفتهم؟

قال: لا؛ لأنهم متلثمون وعرفت رواحلهم.

فقال ﷺ: هل علمتما ما كان من شأن هؤلاء الركب؟

قالا: لا. فأخبرهما بما كانوا تمالؤوا عليه، وسماهم لهما.

فقالا: يا رسول الله أفلا تأمر بقتلهم؟ فقال: أكره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه[(١)].

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، (٤/٣٥).

ويرى ابن هشام أنه ﷺ سماهم لحذيفة بن اليمان وحده، ولذا كان حذيفة يسمى أمين سر رسول الله ﷺ، حيث أعلمه بالمنافقين في المدينة كلهم فيما بعد.

فكان بعض الصحابة لا يصلون على من توفي إلا إذا رأوا حذيفة صلى عليه، فإن لم يصل عرفوا أنه من المنافقين فتركوا الصلاة عليه(١).

وقد ورد في هؤلاء المنافقين قوله ﷺ: «في أصحابي اثنا عشر منافقا، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة، حتى يلج الجمل في سم الخياط»(٢).

وفي حديث آخر أخبر ﷺ بطريقة هلاكهم فقال: «في أمتي اثنا عشر منافقا، لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم يكفيكهم الدُّبيلة وأربعة لم أحفظ ما قال شعبة فيهم»(٣).

وفي رواية من وجه آخر عن قتادة: «إن في أمتي اثني عشر منافقا لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبيلة، سراج من النار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم»(٤).

٥ إخباره ﷺ بحال مسجد الضرار:

تكلمنا عن مسجد الضرار فيما سبق وبيّنا أن الله عز وجل أخبر نبيه ﷺ بما تآمر به المنافقون، وأوحى إليه بشأنهم، فأمر النبي ﷺ بهدمه وإحراقه، فلا نعيد الكلام فيه، ولكن نذكر الآيات التي أنزلها الله على نبيه يخبره فيها بحال هذا المسجد. قال تعالى:

(١) البيهقي: السنن، برقم (١٦٦٢٢).
(٢) مسند أحمد، برقم (٢٣٣١٩)، قال مخرجوه: «الإسناد صحيح على شرط مسلم، فأخرجه مسلم، (٢٧٢٩)...».
(٣) مسلم، برقم (٢٧٧٩)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.
(٤) ابن كثير: السيرة النبوية، (٣٧/٤).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠].

٣ بشارات نبوية:

بشر النبي ﷺ أصحابه في هذه الغزوة ببعض البشارات التي تحققت جميعًا، فأصبحت علما من أعلام نبوته ﷺ، وهي:

أ تحول أرض تبوك إلى بساتين خضراء:

بينما المسلمون في شدة من العطش والقيظ، وجفاف الصحراء القاحلة، فإذا بالنبي ﷺ يبشر أصحابه بأن هذه المنطقة التي هم فيها سوف تتحول إلى بساتين وجنان خضراء، فقال لمعاذ رضي الله عنه: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جنانا»(١).

ب البشارة بأن وادي المشَقَّق سيكون خصبا:

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه عندما مر على وادي المشَقَّق: «لئن بقيتم، أو من بقي منكم ليسمعن بهذا الوادي، وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه»(٢).

(١) مسلم، (١٧٨٤/٤)، برقم (٧٠٦)، باب في معجزات النبي ﷺ. ومسند أحمد، (٢٢٠٧٠)، قال مخرجوه: «إسناده صحيح على شرط مسلم».
(٢) ابن هشام: السيرة، (٢٠٩/٥).

www.almoslih.net

والذي يزور المملكة العربية السعودية هذه الأيام، ويذهب إلى تبوك وما حولها يرى بعينيه ما صارت إليه هذه المنطقة؛ فقد تحولت من صحراء جرداء جافة إلى جنان وارفة، وبساتين خضراء، ومياه جارية، بل إنه يرى تنوع المحاصيل الزراعية ووفرتها، حتى إن محاصيل هذه البساتين تغذي كثيرا من مدن المملكة، بل إنها أصبحت مركزا للصادرات الزراعية إلى خارج المملكة. بل إنك لتسمع الآن وأنت في أقصى بلاد العالم عن مزارع استرا، وشركة تبوك الزراعية وغيرهما وحصولهما على سمعة طيبة في جودة ثمارها وبخاصة الفواكه، حتى تفوقت على نظائرها في بلاد الشام وغيرها.

فهذا كله مصدق لما أخبر به رسول الله ﷺ صحابته، وما بشر به أهل هذه البلاد، وعسى أن يكون المستقبل أكثر خيرا، وأعظم بركة مما هي فيه الآن، والله المستعان.

ج البشارة بفتح الحيرة :

روى البيهقي، عن خريم بن أوس بن حارثة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وهو في تبوك: هذه الحيرة البيضاء رفعت لي بقصورها البيضاء، وهذه الشيماء بنت نفيلة الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود، فقلت [أي الصحابي راوي الحديث]: يا رسول الله إن نحن دخلنا الحيرة، فوجدتها كما تصف فهي لي؟ قال: هي لك»[١].

فدارت الأيام دورتها وارتد من ارتد من العرب، فقاد خالد بن الوليد حروب الردة في عهد أبي بكر الصديق ﷺ، ودخلوا الحيرة فكان أول من تلقاهم حين دخلوها الشيماء بنت نفيلة، كما قال رسول الله ﷺ على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود، فتعلق بها الصحابي الجليل وهو يقول لخالد: هذه وهبها لي رسول الله ﷺ، فطلب منه خالد البينة، فجاء بشاهدين هما: محمد بن مسلمة، ومحمد بن بشير الأنصاري فدفعها إليه[٢].

---

(١) البيهقي: الدلائل، (٥/٢٦٨).
(٢) المرجع السابق، (٥/٢٦٩).

د البشارة بركوب البحر :

روى الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد الأنصاري: غزونا مع النبي ﷺ غزوة تبوك، فجهد بالظهر جهدا شديدا؛ فشكوا إلى النبي ﷺ ما بظهرهم من الجهد، فتحين بهم مضيقا، فسار النبي ﷺ فيه، فقال: «مروا بسم الله. فمر الناس عليه بظهرهم، فجعل ينفخ بظهرهم: اللهم احمل عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس، في البر والبحر. قال: فما بلغنا المدينة حتى جعلت تنازعنا أزمتها قال فضالة: هذه دعوة النبي ﷺ على القوي والضعيف، فما بال الرطب واليابس! فلما قدمنا الشام غزونا غزوة قبرس في البحر، فلما رأيت السفن في البحر وما يدخل فيها، عرفت دعوة النبي ﷺ»[١].

---

(١) مسند أحمد، برقم (٢٣٩٥٤)، وقال مخرجوه: «حديث صحيح وهذا إسناد قوي».

www.almoslih.net

ثانيًا
أحداثُ العامِ العَاشِرِ الهجرِي

عام الوفود:

لقد كان فتح مكة مقدمة تمهيدية لدخول الجزيرة العربية كلها في الإسلام، يقول ابن إسحاق وهو يتحدث عن إسلام قبائل العرب: «كانت العرب تربّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك.

وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله كما قال الله عز وجل: أفواجا، يضربون إليه من كل وجه»[١].

كان العام التاسع الهجري في حياة النبي ﷺ مناط الفخر وذروة القوة، ففيه خرج ﷺ إلى تبوك على مشارف الشام، ليلتقي بدولة الروم التي كانت تهدد حدود الجزيرة العربية، فتهيب الروم لقاءه، ولاذوا بالفرار ليتحصنوا داخل بلادهم، فكان هذا النصر الأبيض ـ لأنه تم بدون قتال ـ على دولة الروم العظيمة تطورًا كبيرًا وتحولًا عجيبًا يعتز به المسلمون في تاريخهم.

(١) انظر: ابن هشام: السيرة، (١٨٦/٤)، ابن سعد: الطبقات، (٣١٤/١)، الطبري: تاريخ الرسل، (١٣٦/٣)، وغير ذلك.

وفيه تتابعت الوفود من سائر الجزيرة العربية لتعلن الولاء والطاعة له ﷺ، ولتؤمن مستقبلها قبل أن يصل إليها المد الإسلامي ويكتسحها تياره القوي، وكانت هذه الوفود في كثرتها وتتابعها حَرِيّة بأن تجعل هذا العام عام الوفود، كما كانت هذه الوفود هي الثمرة الطبيعية لكفاح المسلمين الطويل؛ لأنها البرهان الواضح على أن صوت الإسلام قد أصبح مسموعًا في كل مكان، وأن الناس حينما سمعوه واطمأنوا إليه لبوا النداء واستجابوا للدعاء.

وإذا كان من حق القارئ أن يتعرف على هذه الوفود، فإن من واجبنا أن نتحدث عنهم؛ لأنهم كانوا ـ في جملتهم ـ سفراء أمناء حملوا رسالة الحق منه ﷺ، وبلغوها كاملة إلى أهلهم وذويهم، فشرح الله صدورهم للإسلام، ودخلوا في دين الله أفواجًا.

فمن هذه الوفود وفد عبد القيس[١]، وكان من خبرهم أن النبي ﷺ كان جالسًا بين أصحابه يومًا فقال لهم: «سيطلع عليكم من هنا ركب من أهل المشرق، لم يُكرهوا على الإسلام، قد أنضوا الركائب[٢] وأفنوا الزاد، اللهم اغفر لعبد القيس». فلما أتوا ورأوا النبي ﷺ رموا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد، وتبادروا إلى رسول الله ﷺ يسلمون عليه.

فقال ﷺ: «مرحبًا بالقوم غير خزايا ولا ندامى»[٣].

فقالوا: يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة، وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر فصل.

فقال: «آمركم بالإيمان. أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس، وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت».

(١) ابن هشام: السيرة، (٢٤٩/٥).

(٢) أي: أهزلوها من كثرة السير.

(٣) أي: لا يلحقهم خزي ولا ندم.

www.almoslih.net

والمراد هنا النهي عن شرب الأنبذة التي توضع في هذه الأوعية كما جرت عادتهم بذلك، فقال أحدهم واسمه الأشج: يا رسول الله إن أرضنا ثقيلة وخمة، وإننا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا، فرخص لنا في مثل هذه، وأشار إلي يده، وهو يقصد أن يرخص الرسول ﷺ في شرب القليل منها.

فأومأ ﷺ بكفيه وقال: «يا أشج إن رخصت لك في مثل هذه شربته في مثل هذه ـ وفرج بين يديه وبسطها ـ حتى إذا ثَمِل أحدكم من شرابه قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف»[(١)].

ومن هذه الوفود وفد تميم[(٢)]: وكان من خبرهم أنهم جاءوا إلى رسول الله ﷺ فلما خرج إليهم تعلقوا به وقالوا: نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك، فقال لهم ﷺ: «ما بالشعر بُعثنا ولا بالفخار أمرنا». ثم صلى الظهر، واجتمع حوله رجال الوفد يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم، وطلبوا من النبي ﷺ ـ أن يأذن لخطيبهم وشاعرهم بذلك، فأذن له ﷺ.

فأما خطيبهم فكان عطارد بن حاجب، وقد قال في خطبته:

الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن وهو أهله، الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالًا عظامًا نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عددًا وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم، فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا.

فقال النبي ﷺ لثابت بن قيس: «قم فأجب الرجل في خطبته».

فقام ثابت فقال: الحمد لله الذي في السموات والأرض خلقه، قضى فيهن بأمره، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولًا..

(١) ابن كثير: البداية، (٥/٤٧)، البيهقي: دلائل النبوة، (٥/٣٢٧)، وأصل الحديث في صحيح مسلم، (١/٤٨)، وغيره.
(٢) ابن الأثير: «الكامل في التاريخ»، (٢/١٩٥)، ابن هشام: السيرة، (٢/٣٣٣).

فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به فآمن برسول الله المهاجرون من قومه، ثم آمنا نحن الأنصار، أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا... أقول هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات.

فقام الزبرقان بن بدر وأنشد بين يدي رسول الله ﷺ والمسلمين قصيدة قال في أولها:

نحن الكرامُ فلا حيٌّ يعادلنا ... منا الملوكُ وفينا تُنصب البِيَعُ
فمَنْ يفاخرُنَا في ذاك نعرفُه ... فيرجعُ القوم والأخبارُ تُستمعُ
إنا أبينا ولا يأبى لنا أحدٌ ... إنا كذلك عند الفخرِ نرتفعُ

ولما انتهى الزبرقان من قصيدته وفيها يرفع قومه إلى درجة الملوك، ويبين أنه لم يرتفع إلى مكانتهم أحد. قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: «قم يا حسان فأجب الرجل»، فقام حسان فقال:

إن الذوائبَ من فهر وإخوتهم ... قد بَيّنوا سنة للناس تُتّبع
يرضى بها كل من كانت سريرتُه ... تَقوىٰ الإله وكلَّ الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضرُّوا عدوهمُ ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
إن كان في الناس سباقون بعدهمُ ... فكل سبقٍ لأدنى سبقهم تَبَعُ
أعفّةٌ ذُكرت في الوحي عفتهم ... لا يطمعون ولا يرديهمُ طمَعُ
أكرم بقومٍ رسولُ الله شيعتُهم ... إذا تفاوتتِ الأهواءُ والشّيَعُ[(١)]

(١) انظر الخبر في "سيرة ابن هشام"، (٤/١٧٨)، و"البداية"، (٥/٤٢)، و"الكامل"، (٢/١٩٥)، و"دلائل النبوة"، للبيهقي، (٥/٣١٣)، وتمام هذه القصيدة لحسان ـ ﷺ.

وقد أسلم هؤلاء القوم وحسن إسلامهم، وأقاموا مدة يتعلمون فيها القرآن ويتفقهون في الدين.

ومن هذه الوفود رسول بني سعد بن بكر، ويقال له: ضمام بن ثعلبة، وموقف هذا الرجل يدل على أنه جاء إلى الرسول ﷺ مطمئن القلب بالإيمان، وأن غرضه من هذه الوفادة هو زيادة اليقين والاطمئنان، وأنه كان مسموع الكلمة لدى قومه، ولذا لبوا رغبته واستجابوا له حينما دعاهم إلى الإسلام بعد رجوعه من مقابلة رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: "بعث بنو سعد بن بكر إلى رسول الله ﷺ رجلًا منهم يقال له ضِمَام بن ثعلبة، فقدم على رسول الله ﷺ وأناخ بعيره على باب المسجد، ثم عقله، ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلًا جلدًا أشعر ذا غديرتين، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ ـ فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب». قال: أمحمد؟ قال: «نعم»[1].

قال: يا ابن عبد المطلب، إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن بها عليّ في نفسك[2]، قال: «لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك» قال: أنشدك الله إلهك وإله من قبلك وإله من هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولًا؟ قال: «اللهم نعم» قال: أنشدك الله، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده، ولا نشرك به شيئًا، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: «اللهم نعم».

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الزكاة والصيام والحج، وشرائع الإسلام كلها، ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ

(١) "سيرة ابن هشام"، (١٨٤/٤)، و"طبقات ابن سعد"، (٢٩٩/١)، و"عيون الأثر"، (٢٩٧/٢)، و"البداية"، (٦٠/٥)، والبيهقي في "دلائل النبوة"، (٣٧٤/٥).

(٢) أي: لا تغضب.

قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف إلى بعيره راجعًا.

فقال رسول الله ﷺ: «إن صدق ذو العَقيصتين[1] دخل الجنة».

قال: فأتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى. قالوا: مه يا ضِمَام. اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون، قال: ويلكم إنهما ـ والله ـ لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولًا، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه.

قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره[2] رجل أو امرأة إلا مسلمًا.

وهكذا كانت وفادة ضِمَام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ وفادة ميمونة مباركة حتى يقول ابن عباس رضي الله عنهما:

ما سمعنا بوافد كان أفضل من ضمام بن ثعلبة.

ومنهم وفد ثقيف، وكان من خبرهم أن النبي ﷺ لما رجع من الطائف بعد حصارها، تبع أثره عروة[3] بن مسعود الثقفي حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم، ثم طلب من النبي ﷺ أن يأذن له بالرجوع إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام.

(١) العقيصة: الشعر الملتوي المعقود.

(٢) أي: ممن عنده.

(٣) الذي عند موسى بن عقبة، وفي مرسل عروة بن الزبير كما روى ذلك عنهما البيهقي في "الدلائل"، (٢٩٩/٥)، أن قدوم وفد ثقيف، كان بعد حجة أبي بكر، وأما عند ابن اسحاق فقبلها كما في "سيرة ابن هشام"، (١٥٢/٤)، وقد رجح الحافظ ابن كثير في "البداية"، (٢٩/٥)، ما عند ابن اسحاق.

www.almoslih.net

فقال له ﷺ: «إنهم قاتلوك».

فقال: أنا أحب إليهم من أبصارهم.

فخرج إلى قومه يرجو منهم طاعته لما كان يعرفه فيهم من الإخلاص له، ولكنه أخطأ في تقديره، وصدقت نبوّة النبي ﷺ وذلك أنهم لما رأوه يدعوهم إلى ترك دينهم ولا يحيد عن ذلك، لم يطيقوا صبرًا وأحاطوه به ورموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه[1].

وأحست ثقيف بعد قتل عروة أن هناك خطرًا يهددها من القبائل المجاورة التي دخلت في الإسلام، وأدركت أنها مهما قاومت قوة المسلمين فإنها سوف تصير بعد حين من الزمان إلى الانهيار والدمار، ومن أجل ذلك استقر رأيهم على إرسال وفد إلى النبي ﷺ يعرض عليه صلحهم معه ومسالمتهم إليه، ووصل هذا الوفد إلى المدينة، فشرح الله صدورهم للإسلام، وعادوا بعد ذلك إلى أهلهم وذويهم في الطائف لينشروا الإسلام بينهم.

هدم اللات:

وجه رسول الله ﷺ مع هذا الوفد أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ـ وكان لهما بثقيف مودة واحترام ـ ليقوما بهدم اللات.

وكان شديدًا على ثقيف أن يتم الإجراء ويهدم الإله الكبير الذي كانوا يلجأون إليه في النوائب، ويرونه الملاذ الذي كان يحميهم من كوارث الدهر وخطوبه، ولكنهم كانوا مضطرين إلى الإذعان لأمر النبي ﷺ حتى لا يتعرضوا لهلاك محقق، فقام المغيرة بهدم هذا الإله المزعوم بينهم، كان رجال ثقيف واجمين، ونساؤهم متحسرات يبكين.

(١) أي: ممن عنده.

وبهدم اللات وبإسلام الطائف كانت الحجاز كلها قد أسلمت، وغدا سلطان النبي ﷺ ونفوذه يمتد ذات اليمين وذات الشمال، والوفود تتابع من كل مكان لتعلن الطاعة والولاء له ﷺ.

ومنهم وفود اليمانيين، وقد استقبلهم النبي ﷺ في المدينة وأحسن استقبالهم، وكان منهم الأشعريون، وهم قوم أبي موسى الأشعري، وقد أسلموا وحسن إسلامهم وبايعوا النبي ﷺ.

قال رسول الله ﷺ ـ في حقهم: «أتاكم أهل اليمن كأنهم السحاب، وهم خيار من في الأرض»[1].

ومنهم وفود حضرموت والبحرين وعمان.

وقد قدم هؤلاء جميعًا أفواجًا أفواجًا ليدخلوا في دين الله، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون [2].

حج أبي بكر:

عاد النبي ﷺ في رمضان سنة تسع، فلما حان موعد الحج في نهاية شهر ذي القعدة وبداية ذي الحجة أرسل سيدنا أبا بكر أميرًا لبعثة الحج هذا العام.

وقد كان رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه سورة براءة، قد عاهد ناسًا من المشركين عهدًا، فكره أن يخرج ذلك العام حتى ينبِذَ إلى كلّ من عهد إليه من المشركين عهده[3]. فخرج أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ في ثلاثمائة رجل.

(١) البيهقي: دلائل النبوة، (٥/٣٥٣)، البخاري: الصحيح، (٤٣٨٦).
(٢) ذكرت محمد الطيب النجار في كتابه "سنن النبي ﷺ وأيامه"، (١/٦٤١- ٦٩٤)، نحو ثمانين وفدًا، وذلك مما جاء عند ابن سعد في طبقاته.
(٣) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢/٩٣).

وأرسل ﷺ الهدي أمامه عشرين بدنة، فقلدها النعال، وأشعرها بيده في الجانب الأيمن وأهلّ ﷺ من ذي الحليفة.

لقد كانت هذه أول حجة في الإسلام، وكان لهذه الحجة دلالتها القوية على مدى النفوذ الذي أصبح للمسلمين بعد الفتح الأعظم لمكة، حتى أصبح البلد الأمين مثابة للناس وأمنًا، وأصبحت أبوابه مفتوحة للمسلمين يغدون ويروحون ويحجون ويعتمرون[١].

ولعل كراهية النبي ﷺ للحج بنفسه هذا العام راجع إلى ما سبق ذكره علاوة على أنه كان المشركون يحجون مع المسلمين، فإذا قال المسلمون: "لبيك لا شريك لك"، عارضهم المشركون بقولهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك، عالية أصواتهم ليغلّطوهم بذلك، وعلاوة على أنهم كانوا يطوفون عراة، ليس على أحد منهم ثوب، يعظمون بذلك الحرمة، ويقول أحدهم: أطوف بالبيت كما ولدتني أمي ليس عليّ شيء من الدنيا خالطة الظلم[٢].

ومثل هذه المهاترات كان ينبغي لها أن تنتهي، فلا ينبغي أن يجتمع في جزيرة العرب الشرك والتوحيد، ولا ينبغي أن يكون معقل التوحيد منذ عهد إبراهيم عليه السلام تشوبه هذه الشوائب الشركية، والأفعال والأقوال الوثنية.

فلما مضى أبو بكر الصديق ﷺ في طريقه حتى إذا كان بالعَرْج في السّحر سمع رغاء ناقة القصواء رسول الله ﷺ، فالتفت وقد عرف الصوت، فإذا علي بن أبي طالب ﷺ عليها، فوقف أبو بكر وقال: قد استعملك رسول الله ﷺ على الحج؟ قال: لا ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس، وأنبذ إلى كل ذي عهد عهده.

(١) الطيب النجار، (ص٣٨١).
(٢) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢/٩٣).

وكان العهد بين رسول الله ﷺ، وبين المشركين عاما وخاصا؛ فالعام: أن لا يصد أحد عن البيت جاءه، ولا يخاف أحد في الأشهر الحرم. والخاص: بين رسول الله ﷺ وبين قبائل العرب إلى آجال مسماة[١].

وقد نزلت هذه الآيات بعد خروج أبي بكر الصديق ﷺ، فقيل للنبي ﷺ: لو بعثت بها إلى أبي بكر. فقال: لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي، ثم دعا ﷺ عليا كرم الله وجهه، فقال: اخرج بصدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، فقرأ علي بن أبي طالب ﷺ براءة يوم النحر، الذي هو يوم الحج الأكبر عند الجمرة الأولى، وقال: لا يحج بعد العام مشرك، ولايطوف بالبيت عريان"[٢].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: «مرني علي كرم الله وجهه أن أطوف في المنازل ببراءة، فكنت أصيح حتى صَحُل حلقي. فقيل له: بماذا كنت تنادي؟ قال: بأربع:

أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن.

وأن لا يحج بعد العام مشرك.

وأن لا يطوف بالبيت عريان.

ومن كان له عهد، فله عهد أربعة أشهر، ثم لا عهد له. وأول تلك الأربعة يوم النحر من ذلك العام، ومن لا عهد له، فعهده إلى انقضاء المحرم»[٣].

وقد حرص النبي ﷺ أن يعهد إلى أبي بكر ﷺ بمخالفة المشركين، وشرح له مناسك الحج.

يقول المقريزي: "كان رسول الله ﷺ عهد إلى أبي بكر ﷺ أن يخالف المشركين، فيقف يوم عرفة بعرفة ولا يقف بجمع، ولا يدفع من عرفة حتى تغرب

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/٢٣٢).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.

الشمس، ويدفع من جمع قبل طلوع الشمس، فخرج حتى أتى مكة وهو مفرد بالحجّ، فخطب قبل التروية بيوم بعد الظهر، وطاف يوم التروية ـ حين زاغت الشمس ـ بالبيت سبعا.

ثم ركب راحلته من باب بني شيبة! وصلّى الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والصبح بمنى، ولم يركب حتى طلعت الشمس على ثبير، فانتهى إلى نمرة، فنزل في قبة من شعر، فقال فيها، وركب راحلته لما زاغت الشمس، فخطب ببطن عرفة، ثم أناخ فصلّى الظهر والعصر بأذان وإقامتين.

ثم ركب راحلته فوقف بالهضاب من عرفة، فلما أفطر الصائم دفع يسير العَنَق حتى نزل بجمع ـ قريبا من النار التي على قزح، فلما طلع الفجر صلّى الفجر ثم وقف، فلما أسفر دفع، وجعل يقول في وقوفه: يا أيها الناس. أسفروا، ثم دفع قبل الشمس.

وكان يسير العَنَق حتى انتهى إلى محسّر فأوضع راحلته، فلما جاز وادي محسّر، عاد إلى مسيره الأول حتى رمى الجمرة راكبا بسبع حصيات، ثم رجع إلى المنحر فنحر ثم حلق»[(١)].

وبهذا البيان الكريم تخلصت مكة كلها من الشرك والوثنية، وأصبحت دار توحيد خالص، لا يجوز أن يدخلها الشرك بحال من الأحوال، ويوشك أن تأتي وفود قبائل العرب التي كانت بعيدة عن هذا الصراع بين مكة والمدينة لتعلن ولاءها لهذا الدين، وتصير الجزيرة العربية كلها دار إسلام وتوحيد، وأعلنت ولاءها لله عز وجل ولرسوله ﷺ.

محمد ﷺ وأهل الكتاب:

منذ تلا عليّ بن أبي طالب صدر سورة براءة على الحاجّ من مسلمين ومشركين حين حجّ أبو بكر بالناس، ومنذ أذّن فيهم بأمر النبي ﷺ حين اجتمعوا بمنى

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، (٢/٩٣).

أن لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدّته، أيقن المشركون من أهل بلاد العرب جميعا أن لم يبق لهم إلى المقام على عبادة الأوثان سبيل، وأنهم إن يفعلوا فليأذنوا بحرب من الله ورسوله.

وكان ذلك شأن أهل الجنوب من شبه جزيرة العرب حيث اليمن وحضرموت؛ لأن أهل الحجاز وما والاها شمالا كانوا قد أسلموا واستظلّوا براية الدين الجديد. وكان الأمر في الجنوب مقسّما بين الشرك والمسيحية.

فأمّا المشركون فأقبلوا كما رأيت من قبل، يدخلون في دين الله أفواجا ويبعثون وفودهم إلى المدينة، فيلقون من النبيّ كل حفاوة بهم تزيدهم على الإسلام إقبالا، وتردّ أكثرهم إلى إمارته فتجعله أشدّ على دينه الجديد حرصا.

وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد نزلت فيهم مما تلا عليّ من سورة التوبة هذه الآيات: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٤-٣٥].

إن تتبع التاريخ والتدقيق في أحوال نزول الآيات وأسباب نزولها، لا يدع محلا للريب ألبتة في وحدة موقف الإسلام، وموقف النبي ﷺ من الأديان الكتابية منذ بدء رسالته إلى ختامها.

www.almoslih.net

فالمسيح ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، والمسيح ابن مريم عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيّا وجعله مباركا وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيّا؛ ذلك ما نزل به القرآن منذ بدء الرسالة إلى ختامها.

والله أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد؛ ذلك روح الإسلام وأساسه منذ اللحظة الأولى، وذلك روح الإسلام ما دام العالم.

ولقد ذهب وفد من نصارى نجران إلى النبي يجادلونه في الله، وفي بنوة عيسى لله من قبل أن تنزل سورة التوبة بزمن طويل، ويسألون محمدا: إن عيسى أمه مريم فمن أبوه؟ وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ
خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (٦٠)
فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا
وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَٰذَا
لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ (٦٣) قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا
ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٤].

وفي هذه السورة، سورة آل عمران، يتوجّه الحديث حديثا معجزا إلى أهل الكتاب يعاتبهم لِمَ يصدّون عن سبيل الله من آمن، ولِمَ يكفرون بآيات الله وهي التي جاء بها عيسى وجاء بها موسى وجاء بها إبراهيم، قبل أن تحرّف عن مواضعها وقبل أن يوجهها التأويل بما تهوى أغراض هذه الحياة الدنيا ومتاعها الغرور.

وفي كثير من السور توجيه للحديث على النحو الذي وجه به في سورة آل عمران. ففي سورة المائدة يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ
ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ

مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ
نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٣-٧٥]. وفي سورة المائدة كذلك يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦]. إلى آخر الآيات التي نقلنا في تقديم هذا الكتاب.

وسورة المائدة هي التي من بين آياتها الآية التي يحتج بها المؤرخون من النصارى، ويتّخذونها دليلا على تطوّر موقف محمد منهم لتطوّر أحواله السياسية؛ إذ يقول تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

والآيات التي نزلت في سورة براءة، وتحدّثت عن أهل الكتاب لم تتحدّث عنهم في إيمانهم بالمسيح بن مريم، وإنما تحدّثت عنهم وعن شركهم بالله، وفي أكلهم أموال الناس بالباطل، وفي كنزهم الذهب والفضة.

والإسلام يرى ذلك خروجًا من أهل الكتاب على دين عيسى، يجعلهم يحلّون ما حرّم الله، ويصنعون صنيع من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وهو مع ذلك يجعل من إيمانهم بالله، على الرغم من ذلك كله، شفيعا لهم لا تجوز معه مساواتهم بالوثنيين، ويكفي معه، إن هم أصروا على أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة، وعلى أن يحلوا ما حرّم الله، أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

كانت هذه الدعوة التي أذّن عليّ بها، يوم حجّ أبي بكر بالناس، آية إسلام الناس من أهل الجنوب في شبه الجزيرة ودخولهم في دين الله أفواجا، فقد توالت الوفود تترى على المدينة كما قدّمنا من قبل، ومن بينها وفود من المشركين ووفود من أهل الكتاب.

وكان النبيّ يكرم كل وافد عليه ويردّ الأمراء مكرمين إلى إماراتهم.

من ذلك ما سبق لنا ذكره في الفصل الماضي، ومنه أن الأشعث بن قيس قدم في وفد كندة في ثمانين راكبًا، دخلوا المسجد على النبيّ ﷺ وقد رجّلوا لممهم وتكحّلوا ولبسوا جبب الحبر بطّنوها بالحرير، فلما رآهم النبي ﷺ قال: ألم تسلموا؟ قالوا: بلى. قال: فما هذا الحرير في أعناقكم، فشقّوه، وقال له الأشعث: يا رسول الله، نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار، فتبسم النبيّ ﷺ ونسب ذلك إلى العبّاس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث.

وقدم وائل بن حجر الكنديّ مع الأشعث وكان أمير بلاد الشاطئ من حضرموت فأسلم، فأقره النبي ﷺ في إمارته على أن يجمع العشر من أهل بلاده ليرده إلى جباة الرسول ﷺ.

وكلّف النبي ﷺ معاوية بن أبي سفيان أن يصحب وائلا إلى بلاده. وأبى وائل أن يُردفه أو أن يعطيه نعليه يتقي بهما حمّارّة القيظ مكتفيا بأن يدعه يسير في ظلّ بعيره، وقبل معاوية ذلك على مخالفته لما جاء به الإسلام من التسوية بين المسلمين، ومن جعل المؤمنين إخوة، حرصا على إسلام وائل وقومه.

ولما انتشر الإسلام في ربوع اليمن، أوفد النبي ﷺ معاذًا إلى أهله يعلّمهم ويفقههم وأوصاه قائلا: «يسّر ولا تعسّر، وبشر ولا تنفر، وإنك ستقوم على قوم من أهل الكتاب يسألونك: ما مفتاح الجنّة؟ فقل: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

وذهب معاذ ومعه طائفة من المسلمين الأولين ومن الجباة يعلّمون الناس، ويقضون بينهم بقضاء الله ورسوله.

وبانتشار الإسلام في ربوع شبه الجزيرة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، أصبحت أمة واحدة يظلها لواء واحد هو لواء محمد رسول الله ﷺ، وتدين كلها بدين واحد هو الإسلام، وتتجه قلوبها جميعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ هذا بعد أن كانت إلى ما قبل عشرين سنة قبائل متنافرة، تشن إحداها الغارة على غيرها كلما وجدت في ذلك مغنما.

وبانضوائها تحت لواء الإسلام طهُرت من رجس الوثنية واستراحت إلى حكم الواحد القهار، وبذلك هدأت الخصومات بين أهلها، فلم يبق لغزو أو خصومة موضع، ولم يبق لأحد أن يستلّ سيفه من قِرابه إلا أن يدافع عن وطنه أو يدفع المعتدي على دين الله[١].

إسلام بعض أهل الكتاب:

على أن جماعة من نصارى نجران احتفظوا بدينهم، مخالفين في ذلك الأكثرين من قومهم بني الحارث الذين أسلموا من قبل.

إلى هؤلاء وجّه النبي ﷺ خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام كي يُسلّموا من مهاجمته ولم يلبثوا حين نادى فيهم خالد أن أسلموا؛ فبعث خالد وفدا منهم إلى المدينة لقيه النبي ﷺ فيها بالترحيب والمودة.

ثم إن جماعة من أهل اليمن عز عليهم أن يخضعوا للواء الإسلام؛ لأن الإسلام ظهر بالحجاز، ولأن اليمن اعتادت أن تغزو الحجاز فلم يغزها الحجاز من قبل قط.

إلى هؤلاء أرسل النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب يدعوهم إلى الإسلام، وقد استكبروا أول الأمر وقابلوا دعوة عليّ بمهاجمته، ؛ فلم يلبث عليّ أن شتتهم على صغر سنه وإن لم يكن معه إلا ثلثمائة فارس، وارتدّ المنهزمون ينظمون من جديد صفوفهم.

بيد أن عليّا أحاط بهم وأوقع في صفوفهم الرعب، فلم يجدوا من التسليم بدّا، وسلّموا وأسلموا وحسن إسلامهم، وأنصتوا إلى تعاليم معاذ وأصحابه، وكان وفدهم آخر وفد استقبله النبي ﷺ بالمدينة قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى[٢].

(١) ابن هشام: السيرة، (١٥٧/٤)، والبيهقي: دلائل النبوة، (٢٩٣/٥)، وغير ذلك.
(٢) "سيرة ابن هشام"، (١٨٤/٤)، و"طبقات ابن سعد"، (٢٩٩/١)، و"عيون الأثر"، (٢٩٧/٢)، و"البداية"، (٦٠/٥)، والبيهقي في "دلائل النبوة"، (٣٧٤/٥).

دروس وعبر

❶ ضرب المسلمون الأوائل رجالا ونساء المثل الخالد في نصرة هذا الدين، والدفاع عن حرماته، بالنفْس والنفيس، خاصة في غزوة تبوك، فقد تنافسوا في الخير والصدقة لإعداد الجيش في هذا العام القحط، حتى كان الرجل يأتي بما قدر عليه من مال وسلاح، على الرغم مما بهم من الحاجة، كانوا نماذج رائعة، سمت بأنفسها عن وهدة هذه الحياة الدنيا.

❷ لم يخل عصر من العصور من وجود المنافقين المتخاذلين، وأقوالهم التي تكلموا بها على عهد النبي ﷺ، لا تزال تردد إلى يوم الناس هذا، وكأن التاريخ يعيد نفسه.

فالمنافقون في زماننا ينظرون بعين العجب والانبهار إلى الحضارة الغربية ومنجزاتها، ويخافون من قوتها وعدتها وعتادها، ويشيعون ذلك في المسلمين، ولا ينظرون إلى عظمة هذا الدين، وأن الله ناصره ومؤيده ومظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

❸ كانت غزوة تبوك حافلة بالمعجزات التي تدل على نصرة الله عز وجل لنبيه ﷺ، ولهذا الدين، وفيها بشارات للمؤمنين في كل زمان ومكان، أن دين الله سيظهر على الدين كله، وما علينا إلا أن نخلص له السعي، ونؤمن به حقا، ثم ننتظر النصر من السماء.

❹ بعد أن أتم الله عز وجل فتح مكة، ودخل أهلها في دين الله عز وجل، كان ينبغي أن تتخلص مكة كلها من بقايا الشرك والوثنية، ومن ثَم نزلت أول سورة براءة لتعلن ذلك للناس، ولتصبح مكة دار توحيد خالص، لا يدخلها الشرك.

❺ كانت حَجة أبي بكر الصديق سنة تسع لها دلالتها القوية على مدى النفوذ الذي أصبح للمسلمين بعد الفتح الأعظم لمكة، حتى أصبح البلد الأمين مثابة للناس وأمنًا، وأصبحت أبوابه مفتوحة للمسلمين يحجّون ويعتمرون، ولعل كراهية النبي ﷺ للحج بنفسه هذا العام راجعة إلى أن المشركين كانوا يحجون مع المسلمين، ويرتكبون كثيرا من الأفعال الشركية.

هذا محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٧

الوَدَاع

حَجَّة الوَدَاع

لمّا جاء موسم الحج من العام العاشر الهجري، كان البيت العتيق قد تخلص من شوائب الشرك وأرجاسه، فتجهز النبيّ ﷺ لأداء فريضة الحج في الحجة الأولى في حياته، وقد شاء الله أن تكون الأولى والأخيرة، ومن أجل ذلك سميت: حجة الوداع[1].

وقد سرت الأنباء بحجه ﷺ في كل مكان، وتسمعت الصحراء لهذه الأنباء في زهوٍ وطرب، وتجمعت القبائل العربية من كل صوب وحدب، حتى لقد بلغت عدة المسلمين حينئذٍ مائة ألف أو يزيدون جاءوا يتسابقون ركضًا لينالوا شرف الحج معه ﷺ وليروا عن كثب تلك المناسبات المقدسة كما يؤديها الرائد الأكبر والقائد المظفّر، وكما تقضي بها تعاليم الدين الحنيف.

(١) انظر تفاصيل حجة الوداع في: "سيرة ابن هشام"، (٢١١/٤)، "طبقات ابن سعد"، (١٧٢/٢)، "صحيح مسلم" بشرح النووي، (١٧٠/٨)، "تاريخ الطبري"، (١٤٨/٣)، "عيون الأثر"، (٣٤٥/٢)، "البداية"، (١٠٩/٥)، "نهاية الأرب"، (٣٧١/١٧)، "دلائل النبوة"، للبيهقي، (٤٣٢/٥)، "ثقات ابن حبان"، (١٢٤/٢)، "الكامل في التاريخ"، (٢٠٥/٢).

www.almoslih.net

ولم يكد يأتي اليوم الخامس والعشرون من ذي القعدة، حتى بدأ الركب يولّي وجهه شطر المسجد الحرام[1]، ويحثّ الخطا لبلوغ تلك الغاية الكريمة، وأخذ النبيّ ﷺ معه جميع نسائه، وكأنه كان يحس بقرب الأجل ونهاية المطاف، وكأنما ألهمه الله أن هذا الموسم من الحج هو آخر العهد به في هذه الحياة الدنيا، فلم يشأ أن يخصص واحدة من نسائه بفضل صحبته في هذه الحجة الأولى والأخيرة، حتى لا تضيع الفرصة على غيرها من أمهات المؤمنين.

ولقد أنصت التاريخ في إكبار يسجل هذا المشهد الحافل، وتساءل الناس وهم يتبعون النبي ﷺ وكأنهم في حلم عجيب.

ما هذه الجموع الحاشدة؟ وإلى أين تسير؟ ومن ذلكم القائد الكبير؟ ثم طفقوا يسترجعون الذكريات القريبة، كلما أغذُّوا السير في الطريق من المدينة إلى مكة وأطلّت عليهم جبالها، وانبسطت بين أيديهم رمالها.

وفي الطريق إلى مكة؛ كان الناسُ حولَ رسول الله ﷺ من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن يساره مَدَى البصر[2]!.

وقد كان من قبل، خرج من مكة، متخفيًا، مهاجرًا، مطارَدًا، لا يملك إلا نفسه وصاحبه، وها هو اليوم يدخلها دخولًا مهيبًا، لم يتغير شيء في جوهر الدعوة ولا شخص الداعي، إنما صار الواحد مائة ألف أويزيدون.

فمن هذا الطريق سار ﷺ منذ أربع سنوات في جمع قليل[3] يريدون أن يؤدوا نسك العمرة، فوقفت قريش في سبيلهم ولم تمكنهم من دخول المسجد الحرام في ذلك العام.

(١) وكان ذلك يوم الخميس، فوصل لذي الحليفة فيه، وبات ليلة الجمعة فيها.
(٢) يخطىء بعض الكتاب ويكتبها (مد البصر) قال ابن قتيبة في أدب الكاتب، (٣١٨): هُوَ مِنِّي مَدَى البصرِ، ولا يقال مدَّ البصرِ وَالمَدَى: الغاية قال القُحَيْفُ:
بَنَاتُ بَنَاتِ أَعْوَج مُلْجَماتٌ ... مَدَى الأَبْصَارِ عِلْيَتُهَا الْفِحَال
(٣) يعني: عام الحديبية.

ومن هذا الطريق سار ﷺ منذ ثلاث سنوات ليؤدي عمرة القضاء بعد صلح الحديبية في جمع من أصحابه بلغت عدتهم قرابة الألفين، فصدق الله رسوله ﷺ الرؤيا بالحق، ودخل المسلمون المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصّرِين.

ثم شهد هذا الطريق النبي ﷺ وأصحابه منذ عامين اثنين[1] يخرجون لنصرة المظلوم وردع الظالم، ولرد قريش عن البغي والعدوان بعد أن بالغت في الاستهتار وأمعنت في العناد، ولم تكترث بوعد ولم ترعَ حرمة لعهد، وكان المسلمون في جيش كبير بلغت عدته عشرة آلاف، فجاء نصر الله، ودخل الناس في دين الله، وخنس الشيطان، وزالت دولة الأوثان، ودوى صوت المؤذن بالتكبير في أرجاء البلد الأمين.

والآن وبعد عامين من هذا الفتح العظيم يشهد هذا الطريق النبي ﷺ وأصحابه يتوجهون إلى مكة وقد أصبح العشرة آلاف مائة ألف أو يزيدون، وهكذا ينتصر الحق فينمو ويزيد، وهكذا يزهق الباطل، وما يبدئ الباطل وما يعيد.

ولم تطل بنفوس المسلمين هذه الخواطر حتى وصلوا إلى ذي الحليفة فنزلوا بها وأقاموا ليلتهم، حتى إذا ما أصبحوا أحرم النبي ﷺ وأحرم المسلمون معه، وبدت هذه الألوف المؤلفة في زي واحد، ومظهر واحد، ومنطق واحد، قد كشفوا عن رؤوسهم الغطاء، ولبسوا الإزار والرداء، وانطلقوا يهتفون من أعماق قلوبهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

فيا لله لعظمة الحق والإيمان، وما أروعه من نبأ اهتزت له البطحاء، وسبحت به الحصباء، وباركه رب الأرض والسماء.

(١) أيام فتح مكة.

ولما بلغ القوم سَرِف[١] قال النبي ﷺ لأصحابه: «من لم يكن منكم معه هَدْي[٢] فأحبّ أن يجعلها عمرة فلْيفعلْ، ومن كان معه هدي فلا». ثم بلغ الحجيج مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة[٣]، وأقبل ﷺ والمسلمون من بعده إلى الكعبة، فاستلم الحجر الأسود وقبله، ثم طاف بالبيت سبعًا، هرول في الثلاثة الأولى منها، ثم صلى عند مقام إبراهيم، ثم عاد فقبل الحجر مرة ثانية، ثم خرج من المسجد إلى ربوة الصفا حيث سعى بين الصفا والمروة.

ولما انتهى من سعيه نادى في الناس ألا يبقى على إحرامه من لا هدي معه.. وقال صلوات الله وسلامه عليه: «لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لما سُقت الهْدي ولجعلتها عمرة وتحللت منها»[٤].

وقد تحلل كثير من المسلمين الذين لم يسوقوا الهدي معهم، وتبعت البقية الأخرى رسول الله ﷺ على إحرامه.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة، ذهب ﷺ إلى منى، فقضى بها طول يومه وقضى الليل كله حتى مطلع الفجر، ثم أدى صلاة الفجر وركب ناقته القصواء، حتى بزغت الشمس ثم قصد إلى عرفات.

وهناك وعلى هذا الجبل الخالد[٥] وقف صلوات الله وسلامه عليه وأحاط به المسلمون يلبون ويكبرون وتسمو أرواحهم إلى الملأ الأعلى فينسون الحياة، ولا يفكرون إلا في مرضاة الله [٦].

---

(١) مكان على ستة أميال من مكة.
(٢) المراد: من ساق الهدي، وليس المراد امتلاك ثمنه.
(٣) في "صحيح البخاري": أنه قدم مكة لخمس خلون من ذي الحجة.
(٤) انظر "صحيح مسلم" بشرح النووي، (٨/١٧٠)، وغيره.
(٥) الباقي بقاء الدنيا.
(٦) أي: في عظمة الإله، وأما التفكير في ذات الإله فمنهي عنه بنص الأحاديث الكثيرة التي أوردها أبو الشيخ في أول كتابه "العظمة"، (ص٥)، وما بعدها.

فيا له من مجتمع كريم يتلاقى فيه المسلمون من كل فج وقد وحّد بينهم الهدف والغاية، وألّف بين قلوبهم دين أغناهم عن الأحساب والأنساب، وأنساهم الحميّة الجاهلية، والعصبية القبلية.

ويا له من مؤتمر عظيم يُعقد في كل عام، ويضم المسلمين في أرجاء الدنيا على اختلاف أجناسهم، ليتعارفوا ويتآلفوا ويحققوا معنى الوحدة والتضامن، ويتشاوروا فيما يكفل لهم الخير ويمكنهم من الأعداء، حتى يعملوا على تلافي النقص وبلوغ الكمال.

وأقام ﷺ بمكة أربعة أيام: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، يتعبد، ويؤدي المناسك، ويعظ الناس، حتى إذا كان يوم الخميس، توجه بمن معه إلى منى وهو يوم عرفة، وفي هذا اليوم الخالد وقف ﷺ وألقى على المسلمين خطبته التاريخية الجامعة.

وكان يؤكد على معانيها مرارًا على مدار أيام الحج، وتكاد تكون خطبته يوم النحر مطابقة لخطبته يوم عرفة ـ وكذلك خطبة أخرى ألقاها في أوسط أيام التشريق ـ، وذلك ليؤكد على أهمية هذه التعاليم، ويرسخ في الأذهان هذه الأحكام، وينْحَتَها نحتًا في ذاكرة التاريخ!.

أمانة التبليغ:

«أيها الناس! إني والله لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد يومي هذا، بمكاني هذا، فرحم الله من سمع مقالتي اليوم فوعاها، فربّ حامل فقه ولا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[١].

---

(١) الدارمي: (٢٢٧)، إسناده حسن والحديث صحيح.

الدماء والأموال:

«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ـ وكان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هُذَيْل ـ وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله»[(١)].

الوحدة الإسلامية:

«لا ترتدوا بعدى كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض»[(٢)].

«لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، ولا يُؤخذ الرجل بجريرة أبيه ولا بجريرة أخيه!»[(٣)].

«ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعضُ من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه .. ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟»[(٤)].

الإخلاص والدعوة والجماعة:

«واعلموا أن القلوب لا تَغُلّ على ثلاث: إخلاصِ العمل لله، ومناصحةِ أولي الأمر، وعلى لزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»[(٥)].

---

(١) مسلم: (٣٠٠٩).

(٢) البخاري: (٧٠٧٩).

(٣) النسائي: (٤١٢٧)، عن ابن مسعود، الصحيحة، رقم (١٩٧٤).

(٤) البخاري: (٥٥٥٠).

(٥) الدارمي: (٢٢٧)، إسناده حسن والحديث صحيح.

حقوق المرأة:

«فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فُرُشكم أحدًا تكرهونه، فإنْ فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف...»[(١)].

الميراث والأسرة:

«إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث. فلا يجوز لوارث وصية، الولد للفراش وللعاهر الحجر، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله، والملائكة والناس أجمعين. لا يُقبل منه صرف ولا عدل»[(٢)].

التوحيد والصلاة والصيام والدولة:

«أيها الناس! إنه لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم. واعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم وصوموا شهركم، وأطيعوا ولاة أمركم؛ تدخلوا جنة ربكم»[(٣)].

التحذير من مداخل الشيطان:

«إن الشيطان قد أيِس من أن يُعبد في بلادكم هذه أبدًا، ولكن ستكون له طاعةٌ فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به»[(٤)].

---

(١) مسلم: (١٢١٨).

(٢) ابن ماجه: (٢٧١٢)، عن عمرو بن خارجة، وصححه الألباني.

(٣) الطبراني: الكبير، (٧٦١٧)، عن أبي أمامه. وقال الألباني: صحيح، ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم، رقم (١٠٦١).

(٤) الترمذي: (٢١٥٩)، وصححه الألباني.

المساواة ورفض العنصرية:

«يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»(١).

الإسلام هو سبيل النجاة:

«... وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به.. كتاب الله»(٢).

الإقرار بإستلام هذه التعاليم:

«وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟» .

قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، ويَنْكُتُها إلى الناس: «اللهم اشهد!!» ثلاث مرات(٣).

يعلق "هربرت جورج ولز" على هذه الخطبة فيقول: "إنّ أول فقرة فيها تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء، وتجعل الفقرة الأخيرة منها الزنجي والعربي عدلًا للخليفة.

إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي، عما في أي جماعة أخرى سبقتها"(٤).

---

(١) أحمد: (٢٣٥٣٦)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(٢) مسلم: (١٢١٨).

(٣) ابن حبان، عن جابر، (١٤٥٧)، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٤) هربرت جورج ولز: معالم تاريخ الإنسانية، (٣/٦٤٠- ٦٤١).

كانت هذه هي الوصايا الأخيرة التي أوصاها النبي ﷺ لهذا الجمع الكريم، فقد استغل هذا الحشد الكبير، لأنه لا يدري هل يراه مرة ثانية أم لا؟، فأراد أن يركز تعاليم الإسلام، وأهم وصاياه في هذا اللقاء، لأن الأمة الإسلامية سوف تتكيف بعد ذلك تكيفا دوليا، وتظهر في الوجود الإنساني باعتبارها دولة لها كل المقومات التي تحفظ كيانها، وتضمن سلامتها، وتحميها من كل ما يُعوّق سيرها وتقدمها.

لم يكن المراد من هذه الخطبة أن تكون أمة الإسلام أمة عادية كسائر الأمم، إنما كان المراد أن تكون خير أمة أخرجت للناس، مهمتها أن تصلح الفساد وتقوّم العوج، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقيم شريعة الله، وتحمل رسالة السماء إلى العالمين، يدفعها إلى ذلك إيمانها وحده، ورغبتها في أن تقوم الحياة في هذه الأرض على الأساس الذي وضعه الله لعباده، وأن تسير في الطريق الذي يحبه ويرضاه لهم، ومن هنا كانت أهمية هذه الوصية الغالية، التي تبين للناس معالم الطريق.

وعلى هذا الأساس النوراني قامت دولة الإسلام في الجزيرة العربية، ولأجل هذه الغاية وضع لها النبي ﷺ القواعد التي تضمن سلامة مجتمعها من كل آفة، وحماية أرضها من كل عدو، وإعداد أفرادها للنهوض بأعباء الأمة المثالية الخيرة.

ولاحتمال كل ما ينشأ عن مقاومة الظلم وإقامة العدل من تبعات، وما يترتب على مطاردة الشر، وإشاعة الخير من تكاليف، وهي مهمة ثقيلة التبعات باهظة التكاليف، ولكنها المهمة التي ندب الله لها أمة الإسلام، وجعلها من أجلها خير أمة أخرجت للناس.

بَعثُ أُسَامَة

بعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد إلى الشام، وأمره أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، وقد أشارت الروايات التاريخية التي نقلت خبر هذه السرية، إلى أنّها كانت لتأديب القبائل وأهل القرى في تلك المنطقة الذين شاركوا في معركة مؤتة ضدّ المسلمين.

أمره رسول الله ﷺ أن يغير على مؤتة، وعلى جانب فلسطين، حيث أُصيب زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة. وقال له الرسول ﷺ: «سِر إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل»[١].

ربّما يكون ذلك أحد أسباب بعث هذه السرية، ولكن لا يمكن بأي حال من الأحوال حصرها بهذا السبب وحده، فنظر النبّي ﷺ أبعد من مجرّد الانتقام وإدراك الثأر، لأنّ استراتيجيته ﷺ كقائد للأمّة الإسلامية، وبشير ونذير للناس كافّة، كانت بعيدة المدى جدًا.

وقضايا الثأر والانتقام من القضايا التي عفا عليها الزمن في الإسلام، وكانت من أدران الجاهلية التي قضى عليها الإسلام، وتركها المسلمون وراءهم، وإنّما كانت تلك السرية تدخل ضمن نطاق التمهيد الذي بدأه رسول الله ﷺ للفتوح في الشام، فكان لا يمكن القفز من على تلك المناطق التي لم تخضع لسلطان المسلمين بعد، والتوغل في مناطق الشام الداخلية قبل تمهيد الطريق إليها.

(١) الواقدي: المغازي، (١١٧/٣)، وابن هشام: السيرة، (٦٤١/٤).

وخرج أُسامة بن زيد ﷺ: "بلوائه معقودًا، فدفعه إلى بُريدة بن الحصيب الأسلمي، وعسكر بالجُرف، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأوّلين، والأنصار، إلاّ انتُدب في تلك الغزوة، فيهم أبو بكر الصّدّيق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجرّاح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم بن حريش.

فتكلّم قوم، وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين؟!، فغضب رسول الله ﷺ غضبًا شديدًا، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثُمّ قال: «قد بلغني أنّكم قلتم في أسامة»[١]. و«إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ، وإنّ هذا لمن أحبّ الناس إليّ بعده»[٢].

وهنا قد يسأل سائل: إذن .. لماذا أمّره النبّي ﷺ على مثل هؤلاء السابقين؟

والجواب لإدراك ثأره، ومن ذلك بيان فضله ومنقبته العظيمة بمحبة النبّي ﷺ له، استمرارًا لحبه أباه من قبل والأهمّ من ذلك كلّه، أن النبي ﷺ "بَعَثَ زيدًا أميرًا على عِدَّة سرايا وأعظمها على جيش مؤتة، وسار تحت رايته فيها نجباء الصحابة، وكان خليقًا بذلك لسوابقه وفضله وقربه من النبّي ﷺ، ثُمَّ أَمَّرَ أُسامة في مرضه على جيشٍ فيه جماعة من مشيخة الصحابة وفضلائهم، وكأنّه رأى فيه ذلك، سوى ما توسَّم فيه من النجابة أن يُمَهد الأرض، وتوطئة لمن يلي الأمر بعده لئلاّ ينْزع أحد يدًا من طاعة، وليعلم كلٌّ منهم أنّ العادّة الجاهلية قد عميت مسالكها، وخفيت معالمها"[٣].

(١) البخاري: صحيحه، (١٤٥/٥)، من حديث موسى بن عقبة، عن سالم، عن أبيه.
(٢) البخاري: صحيحه، (١٤٥/٥)، من حديث مالك، عن عبد اللّه بن دينار، عن ابن عمر.
(٣) البنا: الفتح الرباني، (٢٢٢/٢١)، الزرقاني: إرشاد، (١٢٧/٦)، شرح المواهب، (١٠٩/٣).

www.almoslih.net

يتبيّن من إصرار النبي ﷺ على بعث هذه السّريّة، حتّى وهو في أشدّ حالات المرض مدى ما كان يعلمه ﷺ من الأهمية الاستراتيجية تعبويًا لإرسالها إلى تلك المنطقة، ربّما محاولة منه ﷺ لإحكام تثبيت سلطان المسلمين في تلك المنطقة الحيوية بالنسبة للدولة الإسلامية، والتي أصبحت تمثل تطلّعات المسلمين لنشر الدّعوة الإسلامية، بعد أن ضرب الإسلام بجرانه في أرض الجزيرة العربية، فبدأوا يتطلّعون لنشر الإسلام خارجها من خلال البوابة الشّمالية للجزيرة التي كانت منفذًا حيويًا وهامًّا وكبيرًا لانطلاق الدعوة.

ولكن كانت هنالك قوى سياسية وعسكرية جاثمة بقوّةٍ تسد ذلك المنفذ الحيوي، وتقف بصلابة في وجه نشر الدّعوة الإسلامية، فكان من الطبعي أن يتحرّك النّبيّ ﷺ باعتباره القائد للأُمّة الإسلامية، بل باعتباره المعنيّ بالأمر بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من أبعاد، وذلك بموجب التكليف الإلهي المُناط به: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

فكان لا بُدّ له من التحرّك سريعًا وبقوّةٍ لإفساح الطريق أمام الدّعوة الإسلامية، لكي تنساح في الأرض بسلاسةٍ وانسيابٍ بعد القضاء على العقبات، وإزالة المعوقات التي كانت تقف في طريقها لتبلغ مداها الذي قدّره الله عز وجل لها.

في تولية أُسامة بن زيد ﷺ على جيشٍ مُطعّم بكبار الصحابة وفضلائهم، وهو في تلك المرحلة المبكّرة من عمره، تَبْرُزُ لنا عِدّةُ أُمور مهمّة:

أوّلًا: الطريقة القويمة والرائعة التي كان المربّي الأوّل ﷺ يُربّي بها أصحابه، ومن بعدهم أُمّته على طاعة أولي الأمر منهم مهما كانوا.

ثانيًا: كان في ذلك تأكيد وتوضيح على أنّ الإسلام يمحو ما قبله من أنظمة وعادات وتقاليد جاهلية تختصّ بشروط الرئاسة والقيادة، فالسنّ، والشرف، والجاه، والمال، التي كانت تعدّ شروطًا أساسية

لا يمكن إغفال شيءٍ منها فيمن يُراد توليته، أصبح بدلًا عنها في الإسلام التقوى، وحُبّ النّبيّ ﷺ، والكفاءة القيادية، والنّجابة، والحِنْكة القتالية.

ثالثًا: ثالثًا: الأدب الجمّ العظيم الذي كان يتمتّع به أصحاب النبيّ ﷺ، وحُسن انقيادهم له، وطاعتهم وتوقيرهم لأمره حتّى بعد وفاته.

قال الحلبي: «كان عمر بن الخطّاب ﷺ حتّى بعد أن ولي الخلافة إذا رأى أُسامة ﷺ قال: السلام عليك أيُّها الأمير، فيقول أُسامة: غفر الله لك يا أمير المؤمنين. تقول لي هذا؟ فيقول: لا أزال أدعوك ما عشت الأمير. مات رسول الله ﷺ وأنت عليّ أمير»(١).

كلّ تلك الأمور السابقة كانت عواملَ إيجابيةً وبنّاءةً في تحقيق ذلك النجاح العظيم، وتلك النتائج الإيجابية الرائعة التي حقّقتها تلك السرية.

يقول الحلبي: «وكان في خروج هذا الجيش نعمة عظيمة، فإنّه كان سببًا لعدم ارتداد كثير من طوائف العرب أرادوا ذلك»(٢).

قال أبو هريرة ﷺ في سياق حديثه عن البَعْث وذلك تقرير لهذه الحقيقة: «فجعل لا يمرّ بقُبيل(٣) يريدون الارتداد إلاّ قالوا: لولا أنّ لهؤلاء قوّة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتّى يلقوا الروم، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام»(٤).

كما كان في خروجه إرعاب لأعداء الله عز وجل، وأعداء رسوله ﷺ وتثبيط لمعنوياتهم، ومحق لإرجافهم، وغبطتهم وسرورهم بموت النّبيّ ﷺ. قال ابن تيمية: «كان ذلك مِمَّا أيّد الله به الدين، وشدّ به قلوب المؤمنين، وأذلّ به الكُفّار والمنافقين»(٥).

(١) الحلبي: السيرة الحلبية، (٣/٢٣١).
(٢) المصدر السّابق.
(٣) قبيل: تصغير قبيلة.
(٤) سبق تخريجها برقم: [٢٩].
(٥) منهاج السنة، (١/٤١٢).

ومِمَّا يدلّ على ذلك ويؤيّده هو اندهاش الروم وتعجُّبهم من فعل المسلمين، وقوّة تماسُكِهم رغم فداحة المصاب.

أخرج ابن سعد بسنده عن هشام بن عروة قال: «قُدِمَ بنعي رسول الله ﷺ على هرقل، وإغارة أُسامة في ناحية أرضه خبرًا واحدًا، فقالت الروم: ما بال هؤلاء بموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا»[(١)].

وقد يسأل إنسان: كيف يحول مرض رسول الله ﷺ دون مسيرة جيش أمر بجَهازه وسفره؟

لكن مسيرة جيش إلى الشام يقطع البيد والصحاري أيامًا طويلة ليست بالأمر الهين ولم يكن يسهل على المسلمين، والنبي ﷺ أحبّ إليهم من أنفسهم، أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض وهم لا يعلمون ما وراء هذا المرض.

ثم إنهم لم يعرفوا قط من قبل أنه شكا مرضًا ذا بال، فهو لم يصب من المرض بأكثر من فقد الشهيّة في السنة السادسة من الهجرة حين قيل إن اليهود سحروه، ومن ألم أصابه واحتجم من أجله حين أكل من الشاة المسمومة في السنة السابعة من الهجرة.

ثم إن حياته وتعاليمه كانت تنأى به وبكل من يتّبعها عن المرض. فهذا الزّهد في الطعام ونيل القليل منه، وهذه البساطة في الملبس والعيش، وهذه النظافة التامة نظافة يقتضيها الوضوء ويحبها هو ﷺ ويحرص عليها، حتى ليقول: إنه لولا خيفته أن يشق على قومه لفرض عليهم السّواك في اليوم خمس مرات، وهذا النشاط الدائم؛ نشاط العبادة من ناحية ونشاط الرياضة من ناحية أخرى.

وهذا القصد في كل شيء، وفي الملذات قبل كل شيء. وهذا السموّ عن عبث الأهواء، وهذه الرفعة النفسيّة لا تدانيها رفعة، وهذا الاتصال الدائم بالحياة

(١) سبق تخريجها برقم: [١٤].

وبالكون في خير صور الحياة وأدق أسرار الكون ـ هذا كله يجنب صاحبه المرض ويجعل الصحة بعض حظه.

فإذا كان سليم التكوين، قوي الخلق، كما كان ﷺ، جفاه المرض ولم يعرف إليه سبيلا، فإذا مرض كان طَبَعيًا أن يخاف محبوه وأصحابه، وكان طَبَعيًا أن يخافوا وهم قد رأوا ما عاناه من مصاعب الحياة خلال عشرين سنة متتابعة.

فهو منذ بدأ يجهر بدعوته في مكة مناديا الناس بعبادة الله وحده لا شريك له وبترك الأصنام مما كان يعبد آباؤهم، قد لقي من العنت ما تنوء به النفوس مما شتّت عنه أصحابه الذين أمرهم فهاجروا إلى الحبشة، وما اضطرّه للاحتماء بشعاب الجبل حين أعلنت قريش قطيعته.

وهو حين هاجر من مكة إلى المدينة بعد بيعة العقبة قد هاجر في أدقّ الأحوال وأشدها تعرّضا للخطر، وهاجر وهو لا يعرف ما قُدّر له بالمدينة.

وقد كان بها في الفترة الأولى من مقامه موضع دسّ اليهود وعبثهم، فلما نصره الله وأذن أن يدخل الناس من أنحاء شبه الجزيرة في دين الله أفواجا، ازداد عمله وتضاعف مجهوده، وظلّ تعهّد ذلك كله يقتضيه من بذل الجهود ما ينوء بالعصبة أولي القوة.

وإن له ﷺ في بعض الغزوات لمواقف تشيب من هولها الولدان، وأيّ موقف أشدّ هولا من موقفه يوم أحد حين ولى المسلمون، وسار وهو يصعد في الجبل ورجال قريش يشتدّون في تبعه، ويرمونه حتى كسرت رباعيته!

وأيّ موقف أشدّ هولا من موقفه يوم حنين حين ارتدّ المسلمون في عماية الصبح مولّين الأدبار، حتى قال أبو سفيان: إن البحر وحده هو الذي يردّهم، ومحمد ﷺ واقف لا يتقهقر ولا يتراجع وينادي في المسلمين: إلى أين، إلى أين! إليّ، إليّ، حتى عادوا وحتى انتصروا!.

والرسالة! والوحي! وهذا المجهود الروحي المضني في اتصاله بسرّ الكون وبالملأ الأعلى، هذا المجهود الذي روي بسببه عن النبيّ أنه قال: شيبتني هود وأخواتها! رأى أصحابه ﷺ هذا كله، ورأوه يحمل العبء صلبا قويّا لا يعرف المرض إليه طريقا.

فإذا مرض من بعد ذلك، فمن حق أصحابه أن يخافوا وأن يتمهّلوا في السير من معسكرهم بالجرف إلى الشام، حتى تطمئن نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله في نبيه ورسوله ﷺ.

بل الرفيق الأعلى:

كانت مناسك الحج هي آخر الشعائر الدينية التي لم يكن النبي ﷺ قد بيّنها للناس بيانا عمليا، وما إن أدى هذه الشعائر الدينية وفصلها للناس، وبين لهم أحكام هذا الركن العظيم من أركان الإسلام، إلا ونزل قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، فتبين هذه الآية كمال الدين، وإتمام نعمة الله على عباده، فلم يبق شيء من الإسلام لم يبلغه النبي ﷺ لأتباعه، فكل العقائد قد كمُلت وتعلمها الصحابة رضوان الله عليهم، وجميع الشرائع والأحكام قد وضُحت لمن أراد الدخول في هذا الدين، الذي هو دين الله عز وجل الذي اختاره للبشرية كلها.

وقد جعل الله الذي يقدر الليل والنهار حياة النبيّ ﷺ موقوتة بإتمام رسالته، فلما تمت الرسالة ونزلت الآية الكريمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

كان ذلك آية على أن اليوم الذي قدره الله لرسوله ﷺ في هذه الدنيا يوشك أن تغرب شمسه، وقد أحس ﷺ بذلك، فجلس على المنبر في أخريات أيامه وقال

لأصحابه: «إن عبدًا خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده»[(١)].

فبكى أبو بكر حينما سمع هذا الكلام وقال: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا.

فأثنى رسول الله ﷺ على أبي بكر وقال:

«إن أمنّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، فلو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام».

ثم بدأت أعراض المرض تظهر عليه ﷺ في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة[(٢)]، وكان حينئذٍ في بيت ميمونة بنت الحارث، وأخذ ينتقل بين بيوت أزواجه، فلما اشتد عليه المرض استأذن منهن أن يمرض في بيت عائشة، فأذِنَّ له.. ولما دخل إلى بيت عائشة واشتد عليه الوجع قال للحاضرات من زوجاته: «هريقوا [(٣)] علي من سبع قرب لم تُحلل أوكيتهن لعلي أعهد إلى الناس».

فأجلس في مخضب[(٤)]، وصُبّ عليه الماء حتى شعر بشيء من الراحة، فأشار إليهن بالاكتفاء[(٥)]. ثم خرج إلى الناس متوكئًا على علي بن أبي طالب والفضل بن

(١) صحيح، أخرجه مالك والشيخان والترمذي وغيرهم، وانظر طرقه وألفاظه في "إتحاف السادة المتقين"، (٢٨٧/١٠)، و"صحيح البخاري"، (٧٣/٥)، و"سنن الترمذي"، (٣٦٦٠)، و"مصنف عبد الرزاق"، (٩٧٥٤)، و"فتح الباري"، (٥٦٩/١٠)، وغير ذلك.

(٢) وحدد ذلك، ابن حبان في ثقاته، (١٣٠/٢)، فقال: بدأ الوجع يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر، وانظر "تاريخ الطبري"، (١٨٨/٣)، و"السيرة"، (٦٧/٣)، و"مسند أحمد"، (٤٣١/٦).

(٣) صبوا.

(٤) مثل المغطس في أيامنا وهو حجر منقور يجلس فيه المرء ليجتمع الماء المصبوب حوله ولا يتفرق.

(٥) الحديث أخرجه البخاري، (٤٨٢/٣)، وغيره.

العباس، وتقدم العباس أمامهم، وهو ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر، وثار الناس إليه، فحمد الله وأثنى عليه.

نظرة الوداع:

استمر مرضه ﷺ ثلاثة عشر يومًا[1]، ولما كان اليوم الثالث عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، وحينما كان المسلمون يؤدون صلاة الفجر، وإذا بهم يفاجأون به ﷺ يسعى إليهم في هدوء ويطلع عليهم من باب حجرة عائشة، وقد أشرق وجهه بالسرور، ولمعت بين ثناياه ابتسامة، فهمّ أبو بكر ـ وكان يؤم المسلمين في الصلاة ـ بأن يخلي مكان الإمامة للرسول ﷺ، وظن أنه يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمّ المسلمون أن يُفتنوا بصلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ ولكن الرسول ﷺ أشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل إلى الحجرة وأرخى الستر على الباب[2].

فكانت هذه هي نظرة الوداع، وكان مشهد المسلمين وهم في صلاة الجماعة هو المشهد الذي سُر به رسولُ الله ﷺ حتى تبسم وضحك.

شاء اللهُ ـ عز وجل ـ أن يريه ثمار دعوته قبل أن يرقد رقدته الأخيرة.

شاء الله ـ عز وجل ـ أن يكون المشهد الأخير الذي يجمع المسلمين بنبيهم هو مشهد الصفوف المتراصة، والقلوب المخبتة المتحدة، فاطمئن قلبُ رسول الله ﷺ في هذه اللحظة لحال الجماعة التي ربّاها، وسُر وفرح وضحك أن رأى المسلمين متراصّين خلف أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(١) قال القسطلاني في "المواهب اللدنية"، (٤/٥١٦): اختُلف في مدة مرضه، فالأكثر أنها ثلاثة عشر يومًا، وقيل أربعة عشر، وقيل اثنا عشر، وقيل عشرة أيام، وبه جزم الهيثمي، وأخرجه البيهقي بإسناد صحيح، انتهى. "منتقى القاري"، (ص٢٨٩).

(٢) أخرجه البخاري، كما في "الفتح"، (٢/١٦٤)، و"مسلم"، (١/٣١٥)، وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

السواك الأخير:

قالت عائشة رضي الله عنها: إنَّ مِنْ نِعَمِ الله عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ الله جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ، عِنْدَ مَوْتِهِ.. دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ [بن أبي بكر] وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ الله ﷺ فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ أُلَيِّنُهُ لَكَ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ[1]، فَأَخَذْتُ السِّوَاكَ فَقَصَمْتُهُ، وَنَفَضْتُهُ، وَطَيَّبْتُهُ ثُمَّ دَفَعْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَنَّ بِهِ فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ اسْتَنَّ اسْتِنَانًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ[2]، وَاسْتَنَّ بِهِ وَهُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى صَدْرِي[3].

استن استنانًا شديدًا استعدادًا للقاء ربه. فما أطهرَ المؤمن، وما أحرصه على الطهر وهو في أحرج ساعته.

ثم هي الفطرة الكريمة التي أحبها رسول الله ﷺ وحرص عليها، ورغّب أمته فيها، وهو القائل: «لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي ـ أَوْ عَلَى النَّاسِ ـ لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاةٍ»[4].

فهي النظافة المستمرة عند كل صلاة، نظافة الظاهر من وضوء واستياك، ونظافة الباطن من ركوع وسجود وخشوع.

"إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ":

حصلت لرسول الله ﷺ أحوال مثيرة وهو في أنفاسه الأخيرة وفي أثنائها كان يوصي أمته ببعض الوصايا، كان منها قوله:

(١) البخاري: (٤٠٩٤).

(٢) البخاري: (٤٠٨٤).

(٣) البخاري: (٤٠٩٥).

(٤) البخاري: (٨٣٨).

❶ «لَعَنَ الله الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا».. قَالَتْ عَائِشَةُ: لَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ.. خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا[(١)]، فقد كان رسول الله ﷺ يخشى من أن يُجعل قبره ضريحًا يُعبد من دون الله، فردد هذه الكلمة مرارًا.

❷ «الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، فَجَعَلَ يَتَكَلَّمُ بِهَا وَمَا يَكَادُ يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ[(٢)].

وكان من جملة ماقاله مترجمًا حبه لربه وإيثاره الدار الأخرة:

Ⓐ «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى سَكَرَاتِ الْمَوْتِ»[(٣)].

Ⓑ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأعلى»[(٤)].

Ⓒ وأخذته بحّة، وهو يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩][(٥)].

Ⓓ «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى ﷺ اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى!».

قالت عائشة: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ ـ وَهُوَ صَحِيحٌ ـ إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرَ، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي؛ غُشِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى سَقْفِ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى»، فَقُلْتُ إِذن لا يَخْتَارُنَا وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ.. فَكَانَتْ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى»[(٦)].

---

(١) البخاري: (١٢٤٤). (٢) أحمد: (٢٦٦٥٧)، وهو صحيح.
(٣) أحمد: (٢٤٣٥٦)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة.
(٤) البخاري: (٤٠٨٦).
(٥) المصدر السابق.
(٦) البخاري: (٤١٠٤).

فجعل يرددها، وهو ينصِب يده، حتى مالت، وفاضت روحه الشريفة، فجعلت عائشةُ ﷺ تبكي بملءِ نفسها، فدخلت فاطمة وعاينت أباها، فقالت وهي تبكي: «يَا أَبَتَاهُ! أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ! يَا أَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ! يَا أَبَتَاهُ! إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهُ!»[(١)].

وهكذا ترجع النفس المطمئنة إلى ربها راضية مرضية لتدخل في عباده، وتدخل جنته، وهكذا تنتهي حياة سيدنا محمد ﷺ، ولكن لتبدأ من جديد في مبادئ الإسلام الخالدة، وكتاب الله الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

وبذلك يكون النبي صلوات الله وسلامه عليه قد مضى في هذه الدنيا ثلاثًا وستين سنة قمرية وثلاثة أيام، وهو يوازي بالسنين الشمسية واحدًا وستين عامًا وأربعة وثمانين يومًا.. وقد كانت الوفاة في ضحى يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة.

وقع الصدمة على الصحابة:

وفوجئ المسلمون بالمسجد بهذه الضجة؛ لأنهم رأوا النبيّ ﷺ في الصباح وكل شيء يدلّ على أنه عوفي، مما جعل أبا بكر يذهب إلى زوجه بنت خارجة بالسنح.

لذلك أسرع عمر إلى حيث كان جثمان النبيّ وهو لا يصدّق أنه مات. ذهب فكشف عن وجهه فألفاه لا حراك به، فحسبه في غيبوبة لا بدّ أن يفيق منها، وعبثا حاول المغيرة إقناعه بالحقيقة الأليمة؛ فقد ظلّ مؤمنا بأن محمدا ﷺ لم يمت فلما ألحّ المغيرة قال له: كذبت.

---

(١) البخاري: (٤١٠٣).

www.almoslih.net

وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح "إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي؛ وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات. والله ليرجعنّ رسول الله كما رجع موسى، فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات".

واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر يرسل الواحدة تلو الأخرى وهم في حال أشبه شيء بالذهول، ألا إن كان قد مات حقّا فواحر قلباه؟ ويالَلْهمّ الناصِب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له، وآمنوا بالله الذي بعثه بالهدى ودين الحق، همّ يذهل القلب ويذهب باللب. وإن كان قد ذهب إلى ربه، كما يقول عمر، فذلك أدعى للذهول؛ وانتظار أوبته حتى يرجع كما رجع موسى أشدّ إمعانا في العجب[1].

لذلك أحاطت جموعهم بعمر وهم أدنى إلى تصديقه وإلى الإيمان بأن رسول الله ﷺ لم يمت، وكيف يموت وقد كان معهم منذ ساعات يرونه ويسمعون إلى صوته الجهوري وإلى دعائه واستغفاره!.

وكيف يموت وهو خليل الله الذي اصطفى لتبليغ رسالته، وقد دانت له العرب كلها، وبقي أن يدين له كسرى وأن يدين له هرقل بالإسلام!. وكيف يموت وهو هذه القوة التي هزّت العالم مدى عشرين سنة متوالية، وأحدثت فيه أعنف ثورة روحية عرف التاريخ!.

ولكنّ عمر هنا في المسجد ما فتئ ينادي بأنه لم يمت، وبأنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وبأن الذين يقولون بموته إنما هم المنافقون؛ هؤلاء المنافقون الذين سيضرب ﷺ أيديهم وأعناقهم بعد رجعته.

(١) ابن هشام: السيرة، (٦/٧٥)، وما بعدها "بتصرف".

أي الأمرين يصدّق المسلمون؟ لقد أخذهم الفزع أول الأمر، ثم ما زالت بهم أقوال عمر تبعث إلى نفوسهم الأمل برجعة النبي ﷺ حتى كادوا يصدّقون أمانيهم، ويصوّرون منها لأنفسهم حقائق يكادون يستريحون إليها.

وإنهم لكذلك إذ أقبل أبو بكر آتيا من السنح وقد بلغه الخبر الفادح، وبصر بالمسلمين وبعمر يخطبهم، فلم يقف طويلا ولم يلتفت إلى شيء، بل قصد إلى بيت عائشة فاستأذن ليدخل، فقيل له: لا حاجة لأحد اليوم بإذن. فدخل فألفى النبيّ ﷺ مسجّى في ناحية من البيت عليه برد حبرة [1]، فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبله وقال: ما أطيبك حيّا وما أطيبك ميتا!.

ثم إنه أخذ رأس النبي ﷺ بين يديه وحدّق في معارف وجهه التي بقيت لم ينكرها عدوان الموت عليها، وقال: بأبي أنت وأمي! أمّا الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا. ثم أعاد الرأس إلى الوسادة وردّ البرد على وجهه وخرج وعمر ما يزال يكلم الناس ويقنعهم بأن لم يمت.

وفسح الناس لأبي بكر طريقا. فلما دنا من عمر ناداه: على رسلك يا عمر! أنصت!. لكن عمر أبى أن يسكت أو ينصت واستمر يتكلم. فأقبل أبو بكر على الناس وأشار إليهم بأنه يكلمهم.

ومن كأبي بكر في هذا المقام؟! أليس هو الصّدّيق صفيّ النبيّ ﷺ ومن لو اتخذ خليلا لاتخذه خليلا؟! لذلك أسرع الناس إلى تلبية دعوته وانصرفوا إليه عن عمر.

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

(١) برد حبرة (بالوصف وبالإضافة): برد يمان موشى مخطط.

www.almoslih.net

وكان عمر رضي الله عنه قد أنصت حين رأى انصراف الناس إلى أبي بكر رضي الله عنه؛ فلمّا سمع أبا بكر يتلو هذه الآية خرّ إلى الأرض ما تحمله رجلاه موقنا أنّ رسول الله قد مات.

وأمّا الناس فقد أخذوا من قبل بأقوال عمر، حتى لقد ألفوا أنفسهم إذ سمعوا هذه الآية يتلوها أبو بكر وكأنهم لم يكونوا يعلمون أنها نزلت، وكذلك زايل القلوب كل شك في أن محمدا ﷺ قد اختار جوار الرفيق الأعلى، وأن الله قد ضمّه إليه(١).

وكانت وفاته ﷺ يوم الاثنين حين اشتد الضحى، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول في السنة الحادية عشرة من الهجرة، وغسل وكفن يوم الثلاثاء، فلما فرغ الصحابة رضي الله عنهم من تجهيزه، وضع على سريره، ودخل الناس يصلون عليه أرسالا، الرجال ثم النساء ثم الصبيان.

في سقيفة بني ساعدة:

وكان أسامة بن زيد قد رأى النبيّ صباح ذلك اليوم حين خرج إلى المسجد وظن كما ظن المسلمون جميعا أنه تعافى، فذهب ومن كان قد عاد إلى المدينة من الجيش المسافر إلى الشام ولحق بالمعسكر بالجرف، وأمر الجيش بالتجهز للمسير. وإنه لكذلك إذ لحق به الناعي نذيرا بوفاة النبي، فعاد أدراجه وأمر الجيش فرجع كله إلى المدينة؛ ثم ذهب هو فركز علمه عند باب عائشة، وانتظر ما سيكون من أمر المسلمين من بعد.

وفي الحقّ أنّ المسلمين كانوا من أمرهم في حيرة. فهم لم يلبثوا حين سمعوا أبا بكر وحين أيقنوا أن محمدا ﷺ قد مات، أن تفرّقوا، فانحاز حيّ من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوّام

(١) ابن هشام: السيرة، (٦/٧٥)، وما بعدها «بتصرف».

وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز المهاجرون ومعهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل إلى أبي بكر.

وإن أبا بكر وعمر لكذلك إذ أتى آت ينبئهما بنبإ الأنصار الذين انحازوا إلى سعد بن عبادة، ثم يردف النبأ بقوله: فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله ﷺ في بيته لم يفرغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله. قال عمر موجها حديثه إلى أبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه.

وإنهم لفي طريقهم إذ لقيهم من الأنصار رجلان صالحان، فذكرا للمهاجرين ما تمالأ عليه القوم وسألاهم: أين يريدون؟ فلمّا علما أنهم يريدون الأنصار قالا؛ لا عليكم ألّا تقربوهم؛ يا معشر المهاجرين اقضوا أمركم.

قال عمر: والله لنأتينّهم. وانطلقوا حتى نزلوا بهم في سقيفة بني ساعدة فإذا بين ظهرانيهم رجل مزمّل، قال عمر بن الخطاب: من هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة، به وجع.

فلما جلس المهاجرون قام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفّت دافّة من قومكم وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر.

وكانت هذه روح الأنصار أثناء حياة النبيّ ﷺ. لذلك لم يكد عمر يسمع هذا الكلام حتى أراد أن يدفعه: فأمسك به أبو بكر مخافة شدّته وقال: على رسلك يا عمر! ثم قال موجها كلامه للأنصار: «أيها الناس! نحن المهاجرين أوّل الناس إسلاما، وأكرمهم أحسابا، وأوسطهم دارا، وأحسنهم وجوها، وأكثرهم ولادة في العرب، وأمسّهم رحما برسول الله: أسلمنا قبلكم، وقدّمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار؛ إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدوّ. وأما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعا.

فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش. فمنّا الأمراء ومنكم الوزراء". هناك استشاط أحد الأنصار غضبا وقام فقال: "أنا جُذَيلها المحكّك، وعُذيقها المرجّب[1]. منّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش". قال أبو بكر: بل منا الأمراء ومنكم الوزراء، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم؛ وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبي عبيدة بن الجرّاح وهو جالس بينهما.

هنالك كثر اللغط وارتفعت الأصوات وخيف الاختلاف؛ فنادى عمر بصوته الجهوريّ: أبسط يدك يا أبا بكر. فبسط أبو بكر يده فبايعه وهو يقول: "ألم يأمرك النبي بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين! فأنت خليفته؛ ونحن نبايعك فنبايع خير من أحبّ رسول الله ﷺ منا جميعا".

ومست هذه الكلمات قلوب الحاضرين من المسلمين أن كانت معبّرة حقّا عما ظهر من إرادة النبي ﷺ حتى هذا اليوم الأخير الذي رآه الناس فيه؛ فقضى ذلك على ما بينهم من خلاف، وأقبلوا فبايع المهاجرون ثم بايع الأنصار.

وإذ كان الغد من ذلك اليوم، جلس أبو بكر على المنبر، وتقدّم ابن الخطاب فتكلّم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إنّي قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهدًا عهِده إليّ رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله سيدبّر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا.

(١) الجذيل: تصغير الجذل وهو أصل الشجرة. والمحكك: الذي تتحكك به الإبل الجربى. والعذيق: تصغير العذق (بفتح العين) وهو النخلة. والمرجب: الذي جعل له رجبة وهي دعامة تبنى حوله من الحجارة، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوفوا عليها أن تنقعر من الرياح العواصف. يريد أنه قد جربته الأمور وله رأي وعلم يشتفى بهما، كما تشتفي الإبل الجربى باحتكاكها بالجذل.

وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى رسوله، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه". فبايع الناس أبا بكر البيعة العامّة بعد بيعة السقيفة[1].

وقام أبو بكر بعد أن تمّت البيعة فألقى في الناس هذا الخطاب الذي يعتبر آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب.

قال رضي الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أما بعد، أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.

لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ﷺ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله"[2].

أين يدفن جثمان الرسول ﷺ؟

وبينما المسلمون يختلفون ثم يتفقون على بيعة أبي بكر بيعة السقيفة ثم البيعة العامّة، كان جثمان النبي حيث كان على سرير موته يحيط به الأقربون من أهله، فلما تمّت البيعة لأبي بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ كي يدفنوه. وقد اختلفوا فيما بينهم أين يدفن؟

قال جماعة من المهاجرين: يدفن في مكة مسقط رأسه وبين أهله، وقال غيرهم: بل يدفن في بيت المقدس حيث دفن الأنبياء قبله، وما أدري كيف قال

(١) ابن هشام: السيرة، (٦/٧٩)، وما بعدها "بتصرف".
(٢) ابن هشام: السيرة، (٦/٨٠).

أصحاب هذا الرأي، وبيت المقدس كان ما يزال بأيدي الروم، وكان بين الروم والمسلمين عداوة منذ مؤتة وتبوك حتى جهز رسول الله ﷺ جيش أسامة للثأر.

ولم يرض المسلمون هذا الرأي ولا هم رضوا أن يدفن النبيّ بمكة، ورأوا أن يدفن بالمدينة التي آوته ونصرته، والتي استظلت قبل غيرها بلواء الإسلام. وتحدثوا أين يدفن؟

قال فريق منهم: يدفن بالمسجد حيث كان يخطب الناس ويعظهم ويصلي بهم؛ ورأى هؤلاء أن يدفن حيث يقوم المنبر أو إلى جانبه. لكن هذا الرأي لم يلبث أن رُفض؛ لما روي عن عائشة أن النبيّ ﷺ كان عليه رداء أسود حين اشتدّ به وجعه، فكان يضعه مرّة على وجهه ويكشفه عنه مرة وهو يقول: قاتل الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد! ثم قضى أبو بكر بين الناس إذ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قبض نبيّ إلا دفن حيث يقبض، ثم تقرر أن يُحفر له مكان الفراش الذي قُبض فوقه[1].

غسل النبي ﷺ ووداع الجثمان الطاهر:

وتولى غسل النبيّ ﷺ أهله الأقربون، وفي مقدمتهم عليّ بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وولداه الفضل وقثم وأسامة بن زيد.

وكان أسامة بن زيد وشقران مولى النبيّ ﷺ هما اللذان يصبّان الماء عليه، وعليّ يغسّله وعليه قميصه؛ فقد أبوا أن ينزعوا عنه القميص.

وكانوا أثناء ذلك يجدون به طيبا حتى كان عليّ يقول: بأبي أنت وأمي! ما أطيبك حيّا وميّتا!. ويذهب بعض المستشرقين إلى أن هذه الرائحة الذكية ترجع إلى ما اعتاد النبيّ ﷺ طوال حياته من التطيّب حتى كان يرى الطيب بعض ما حبّب إليه من هذه الحياة الدنيا.

(١) البيهقي: الدلائل، (٧/٢٥٠)، وما بعدها.

فلمّا فرغوا من غسله وعليه قميصه كُفّن في ثلاث أثواب: ثوبين صحاريّين [1] وبرد حَبِرة أُدرج فيه إدراجا.

ولمّا تمّ الجهاز على هذا النحو ترك الجثمان حيث كان، وفتحت الأبواب للمسلمين يدخلون من ناحية المسجد يصلّون على النبيّ ﷺ، ثم يخرجون وقد هوى الحزن بنفوسهم إلى قرار سحيق.

وامتلأت الحجرة حين دخل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يصليان مع المسلمين لا يؤمّهم في صلاتهم هذه أحد، فلما استوى الناس بالمكان وقد علاهم الصمت قال أبو بكر: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. نشهد أنك نبي الله ورسوله قد بلّغ رسالة ربّه وجاهد في سبيله حتى أتمّ الله النصر لدينه، وأنه وفى بوعده، وأمر ألّا نعبد إلا الله وحده لا شريك له.

وكان المسلمون يجيبون عند كل جملة من كلام أبي بكر في هيبة وخشوع: آمين آمين، فلما فرغ الرجال من صلاتهم وخرجوا أدخل النساء، ثم أدخل الصبيان من بعدهم، وهؤلاء وأولئك جميعا قد كلّ واجف قلبه محزون فؤاده، يفري الأسى كبده لفراق رسول الله ﷺ خاتم النبيين، وتُساوِرُه على دين الله أشد الخشية من بعده[2].

وإذا استعدنا الساعة، بعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة من ذلك اليوم، صورة هذا المشهد الرهيب المهيب لامتلأت نفوسنا هيبة وخشوعًا ورهبة.

هذا الجثمان المسجّى في ناحية من الحجرة التي ستصبح غدًا قبرًا والتي كانت إلى أمس بساكنها حياة ورحمة ونورا؛ وهذا الجثمان الطاهر لذلك الذي دعا الناس

(١) صحارى: نسبة إلى صحار قرية باليمن، و قيل: هو من الصحرة و هي حمرة خفيفة كالغبرة، يقال: ثوب أصحر وصحارى.

(٢) البيهقي: الدلائل، (٧/٢٥٠)، وما بعدها.

www.almoslih.net

إلى الهدى والحق، وكان لهم المثل والقدوة في البر والرحمة والإقدام والإباء وإنصاف المظلوم، كل رجل وكل امرأة وكل صبيّ يذكر في هذا الرجل الذي اختار جوار ربه أباه وأخاه وصاحبه ووفيه ونبيّ الله ورسوله ﷺ!

أيّ شعور تمتلئ به تلك القلوب العامرة بالإيمان الممتلئة إشفاقا مما يخبئ الغد بعد موت الرسول ـ أستعيد الساعة صورة هذا المشهد الرهيب، فأراني شاخصا له مأخوذًا به ممتلئ القلب من جلال هيبته، أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه سبيلاً.

وكان من حق المسلمين أن تساورهم الخشية، فمنذ ذاع النّبأ بموت النبيّ ﷺ في المدينة وترامى إلى قبائل العرب المحيطة بها، اشرأبّت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وتبلبلت عقائد المستضعفين من العرب.

وهمّ أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، بل أرادوا ذلك، حتى خافهم عتّاب بن أسيد عامل النبي على أمّ القرى فتوارى منهم. ولولا أن قام سهيل بن عمرو بينهم، فقال بعد أن ذكر وفاة النبي ﷺ: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه؛ ثم قال: يا أهل مكة، كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أوّل من ارتدّ، والله ليتمّنّ الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله ﷺ، لما رجعوا عن ردّتهم؟[1].

وقد كان للعرب في حفر قبورهم طريقتان: إحداهما لأهل مكة يحفرون القبر مسطّح القاع، والأخرى لأهل المدينة يحفرونه مقوّسا، وكان أبو عبيدة بن الجرّاح يضرح كحفر أهل مكة، وأبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة.

وحار أهل النبي ﷺ أيّ الطريقتين يسلكون في حفر قبره، فبعث عمه العباس رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة ويدعو الآخر أبا طلحة، فأمّا المبعوث إلى أبي عبيدة فلم يعد به وجاء المبعوث إلى أبي طلحة به، فلحّد لرسول الله ﷺ على طريقة أهل المدينة.

(١) السيوطي: الخصائص، (٢/٢٧٨).

فلمّا كان المساء وبعد أن مرّ المسلمون بالجثمان الطاهر وودّعوه الوداع الأخير، اعتزم أهل النبيّ ﷺ دفنه، فانتظروا حتى مضى هزيع من الليل، وفرشوا القبر برداء أحمر كان النبيّ ﷺ يلبسه، ثم أنزله الذين تولّوا غسله إلى المقرّ الأخير لرفاته، وبنوا فوقه باللبن وأهالوا التراب فوق القبر.

قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل، وقالت فاطمة مثل هذا القول.

وكان دفنه ليلة الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول، أي بعد يومين من اختياره الرفيق الأعلى[1].

وظلّت عائشة من بعد ذلك تعيش بمنزلها في الحجرة المجاورة لحجرة القبر سعيدة بهذا الجوار الكريم.

ولمّا مات أبو بكر دفن إلى جوار النبيّ ﷺ، كما دفن عمر إلى جواره من بعد.

ويروى أن عائشة كانت تزور حجرة القبر سافرة إلى أن دفن عمر بها إذ لم يكن بها يومئذ غير أبيها وزوجها، فلما دفن عمر كانت لا تدخل إلا محتجبة لابسة كامل ثيابها.

ولم يكد المسلمون يفرغون من جهاز رسول الله ﷺ ودفنه حتى أمر أبو بكر أن ينفذ جيش أسامة لغزو الشام تنفيذا لما كان قد أمر رسول الله به.

وقد أبدى بعض المسلمين من الاعتراض على ذلك ما أبدوا أيّام مرض النبيّ، وانضم عمر رضي الله عنه إلى المعترضين ورأى ألا يشتّت المسلمون، وأن يحتفظ بهم في المدينة مخافة أمر قد يدعو إليهم، لكن أبا بكر رضي الله عنه لم يتردّد لحظة في تنفيذ أمر الرسول ﷺ، ورفض أن يستمع إلى قول الذين أشاروا بتعيين قائد أسنّ من أسامة وأكثر منه في الحرب دربة.

(١) ابن كثير: البداية، (٥/٢٧٢).

وتجهّز الجيش عند الجرف وأسامة على رأسه، وخرج أبو بكر ﵁ يودّعه. هنالك طلب إلى أسامة أن يعفى ابن الخطاب من الذهاب معه ليبقى بالمدينة يشير على أبي بكر.

ولم تمض عشرون يوما على مسيرة الجيش حتى أغار المسلمون على البلقاء، وحتى انتقم أسامة للمسلمين ولأبيه الذي قتل بمؤتة أشدّ انتقام. وقد كانت صيحة الحرب في تلك الأيام المظفّرة: "يا منصور أمت".

وكذلك نفّذ أبو بكر ﵁ ونفّذ أسامة أمر النبي ﷺ، وعاد بالجيش إلى المدينة ممتطيا الجواد الذي قتل أبوه بمؤتة عليه، يتقدمه اللواء الذي عقده رسول الله ﷺ بيده[1].

توفي النبي الخاتم ﷺ، فانقطع الوحي إلى الأبد.. تمت الرسالة، لكنْ المسيرة لم تتوقف.. واقتضت حكمةُ الله أن تبقى البشرية بعد محمد ﷺ دون رسول أو نبي حتى قيام الساعة.

ومن ثم انتقلت تبعة التبليغ عن كاهل رسول الله ﷺ إلى كل مسلم ومسلمة في كل زمان ومكان، وبهذا فُضلت الأمةُ الإسلامية على سائر الأمم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[آل عمران: ١١٠].

بخلاف الأمم السابقة، التي كتمت، وحرّفت، ونبذت، وتاجرت في آيات الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

(١) الطبري: تاريخ الرسل، (٣/١٨٨).

دروس وعبر

١ الأخوة في الله هي العروة الوثقى التي تربط بين جميع المسلمين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ. أَيُّ يَوْمٍ هَذَا». قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ. قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا». قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ. قَالَ: «فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا». قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ. قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا». فَأَعَادَهَا مِرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ «فَلْيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[1].

٢ الوقوف بجانب الضعيف حتى لا يكون هذا الضعف ثغرة في البناء الاجتماعي، فأوصى ﷺ في خطبته بالمرأة والرقيق على أنهما نموذجان للضعفاء، فقد شدد ﷺ في وصيته على الإحسان إلى الضعفاء، وأوصى خيرًا بالنساء، وأكد في كلمة مختصرة جامعة القضاء على الظلم البائد للمرأة في الجاهلية، وتثبيت ضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية.

(١) صحيح البخاري، (١٧٣٩).

www.almoslih.net

❸ التعاون مع الدولة الإسلامية على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بشرع الله، ولو كان الحاكم عبدًا حبشيًّا، فإن في ذلك الصلاح والفلاح، والنجاة في الدنيا والآخرة فقد بين ﷺ العلاقة بين الحاكم والمحكوم بأنها تعتمد على السمع والطاعة ما دام الرئيس يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإذا مال عنهما فلا سمع ولا طاعة، فالحاكم أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى.

❹ المساواة بين البشر: فقد قال ﷺ: «إنَّ الله يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ فَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ فَضْلٌ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ فَضْلٌ، وَلَا لِأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ فَضْلٌ، إِلَّا بِالتَّقْوَى»(١).

حيث حدد أن أساس التفاضل لا عبرة فيه لجنس، ولا لون، ولا وطن، ولا قومية، وإنما أساس التفاضل قيمة خلقية راقية ترفع مكانة الإنسان إلى مقامات رفيعة جدا.

❺ تحديد مصدر التلقي: وقد حدد ﷺ مصدر التلقي والطريقة المثلى لحلّ مشاكل المسلمين التي قد تعترض طريقهم في الرجوع إلى مصدرين لا ثالث لهما، ضمن لهم بعد الاعتصام بهما الأمان من كل شقاء وضلال، وهما: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وإنك لتجده يتقدم بهذا التعهد والضمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده، ليبين للناس أن صلاحية التمسك بهذين الدليلين ليست وقفًا على عصر دون آخر، وأنه لا ينبغي أن يكون لأي تطور حضاري أو عرف زمني أي سلطان أو تغلب عليهما.

(١) الطبراني: المعجم الكبير، (١٢/٣٦٠)، برقم (١٤٤٤٤)، وأحمد، (٣/٤١١)، وهو صحيح لغيره.

لقد وصف ﷺ الداء والدواء، ووضع العلاج لكل المشكلات بالالتزام التام بما جاء من أحكام في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ الله وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»(١) هذا هو العلاج الدائم، وقد كرر ﷺ نداءه للبشرية عامة، عبر الأزمنة والأمكنة، بوجوب الاهتداء بالكتاب والسنة في حل جميع المشكلات التي تواجه البشرية، فإن الاعتصام بهما يجنب الناس الضلال ويهديهم إلى التي هي أقوم في الحاضر والمستقبل.

لقد اجتازت تعاليم رسول الله ﷺ وهديه حدود الجزيرة، واخترقت حواجز الزمن، وأسوار القرون، وظل يتردد صداها حتى يوم الناس هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلم يكن يخاطب سامعيه فيقول لهم: أيها المؤمنون، أو أيها المسلمون، أو أيها الحجاج.. بل كان يقول لهم: يا أيها الناس، وقد كرر نداءه إلى الناس كافة مرات متعددة دون أن يخصصه بجنس أو بزمان أو مكان أو لون، فقد بعثه الله للناس كافة وأرسله رحمة للعالمين.

❻ ما يلفت النظر في حجة الوداع هذا الخطاب القوي الحكيم الذي خاطب به رسول الله ﷺ الناس أجمعين، وتلك المبادئ التي أعلنها بعد إتمام رسالته ونجاح قيادته، مؤكدة للمبادئ التي أعلنها في أول دعوته، يوم كان وحيدًا مضطهدًا، ويوم كان قليلًا مستضعفًا، مبادئ ثابتة لم تتغير في القلة والكثرة، والحرب والسلم، والهزيمة والنصر، وإعراض الدنيا وإقبالها، وقوة الأعداء وضعفهم.

بينما عرفنا في زعماء الدنيا تقلبًا في العقيدة والمبدأ، وتباينًا في الضعف والقوة، وتغيرًا في الوسائل والأهداف، يظهرون خلاف ما يبطنون، وينادون بغير ما يعتقدون، ويلبسون في الضعف لبوس الرهبان، وفي القوة جلود الذئاب، وما ذلك إلا لأن هؤلاء رسل المصلحة، وأولئك رسل الله، وشتان بين من يحوم فوق

(١) موطأ مالك، برقم (١٦٢٨)، (٢/٩٠٠)، صحيح لغيره.

الجِيَف، وبين من يسبح في بحار النور، شتان بين الذين يعملون لأنفسهم، وبين الذين يعملون لإنسانيتهم، شتان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٧ لم يتوفّ النبي ﷺ إلا بعد أن أتم تبليغ الدين كاملًا، وتمت نعمة الله على العالمين، بشهادة قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] وفي هذا أبلغ رد على الكذابين المفترين الذي يتهمون صحابة رسول الله ﷺ بكتمان أمره في شأن توريث الخلافة لآل البيت رضي الله عنهم.

فقد قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩] وكرر هذا النص الصريح القاطع أربع مرات في القرآن الكريم، وفي الخامسة ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾ [الصف: ٦] هذا عدا الكثرة الكاثرة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ و(ال) التعريف هي للعهد أو للمعهود ﷺ، ولكن لم ينص القرآن على اسم علي رضي الله عنه، وأنه الخليفة من بعده أبدا.

٨ أن الصحابة دُهشوا لموت الرسول ﷺ، حتى لكأن الموت لا يمكن أن يأتيه، مع أن الموت نهاية كل حي، وما ذلك إلا لحبهم لرسول الله ﷺ حبًا امتزج بدمائهم وأعصابهم، والصدمة بفقد الأحباب تكون على قدر الحب، ونحن نرى من يفقد ولدًا أو أبًا كيف يظل أيامًا لا يصدق أنه فقده، وأي حب في الدنيا يبلغ حب هؤلاء الصحابة الأبرار له ﷺ، وقد هداهم الله به، وأنقذهم من الظلمات إلى النور، وغير حياتهم، وفتح عقولهم وأبصارهم، وسما بهم إلى مراتب القادة العظماء.

ثم هو في حياته مربيهم وقاضيهم ومرشدهم يلجأون إليه في النكبات، ويسترشدونه في الحوادث، ويأخذون منه خطاب الله لهم وحديثه إليهم وتعليمه لهم، فلما مات ﷺ انقطع ذلك كله، فأي صدمة أبلغ من هذه الصدمة وأشدها أثرًا.

٩ أن موقف أبي بكر دل على أنه يتمتع برباطة جأش وقوة أعصاب عند النكبات لا يتمتع بها صحابي آخر، وهذا ما جعله أولى الناس بخلافة الرسول محمد ﷺ، وقد أثبت ذلك في حركة الردة في جزيرة العرب.

هذا محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم

المصلح

الخَاتِمة

فَضلُ مُحمَّد ﷺ علىٰ العَالَم

خرج رسول الله ﷺ من هذه الحياة الدنيا لم يترك شيئا من عَرَضها الزائل لأحد بعده؛ خرج منها بعد ما ترك فيها للناس هذا الدين القيّم، ومهّد فيها لهذه الحضارة الإسلامية الكبرى التي تفيّأ العالم ظلالها من قبل، وسيتفيأ ظلالها من بعد، وأقرّ فيها التوحيد، وجعل فيها كلمة الله العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وقضى فيها على الوثنية في كل صورها ومظاهرها القضاء المبرم، وعلّم الناس فيها أن يتعاونوا على البرّ والتقوى لا على الإثم والعدوان، ترك من بعده كتاب الله هدى للناس ورحمة، وكان فيها المثل الأسمى والأسوة الحسنة.

لقد وضع الرسول ﷺ القواعد والأسس التي ارتقى بها العرب إلى مستوى التحضّر، فقد وحّد صفهم وأقام لهم دولة وجعل منهم أمة، وصفها القرآن بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠].. إن في ذلك لرحمة! رحمة أن يعيش العالم في ظلال دولة مدنية، وأمة متحضرة، وفي سبيل فكرة مستنيرة، لا أن يعيش في صراعات قَبَلية، واقتتال على الناقة والشاة، في سبيل أفكار رجعية أو عصبية منتنة، كما كان يسميها النبي ﷺ «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»[١].

(١) صحيح البخاري، برقم (٤٥٢٥)، قال هذه الكلمة عندما ضرب رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلا مِنْ الأَنْصَارِ «فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا للأَنْصَارِ!! وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ!! فَسَمِعَ =

www.almoslih.net

هذا، ولم يقتصر ميراثه ﷺ على العرب وحدهم، بل يمتد خيره ونوره إلى الشعوب والأمم الأخرى.

أولًا: فضله على العرب:

لم يعرف العرب الوحدة الحضارية قبل النبي ـ ﷺ ـ، وفي ذلك يقول رودي بارت(١): "كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة، يعيثون فيها فسادًا. حتى أتى محمد ﷺ ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد، خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد متجانس"(٢).

ويقول رودي بارت، في موضع آخر، مفصلًا: "جاء محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ، النبي العربي وخاتم النبيين، يبشر العرب والناس أجمعين، بدين جديد، ويدعو للقول بأنّ الله هو الواحد الأحد، كانت الشريعة (في دعوته) لا تختلف عن العقيدة أو الإيمان، وتتمتع مثلها بسلطة إلهية ملزمة، تضبط ليس الأمور الدينية فحسب، بل أيضًا الأمور الدنيوية، فتفرض على المسلم الزكاة، والجهاد ضد المشركين.. ونشر الدين الحنيف.

وعندما قُبِض النبي العربي ـ ﷺ ـ، عام ٦٣٢م، كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيرًا فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل.."(٣).

= ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ!!» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله: كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ. فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ» يعني العصبية والتفاخر بالقبائل.

(١) مفكر وباحث ألماني، عكف على الدراسات الشرقية في جامعة هايدلبرج، وكرس حياته لدراسة الإسلام، وصنف عددًا كبيرًا من الكتب والأبحاث، منها ترجمته للقرآن الكريم، التي أصدرها في عامي ١٩٦٤ و١٩٦٥، وله كتاب عن النبي محمد ﷺ.

(٢) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، (ص٢٠).

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

وقد بذل النبي ﷺ جهودا مضنية، فكما علمنا حياة العرب لها طبيعة خاصة، فالقبيلة هي التنظيم الاجتماعي والسياسي الذي يصمم حياة الفرد في القبيلة، فكان انتماء العربي الجاهلي انتماء قبليًا، وليس هناك أية رابطة عملية توحد القبائل وتجمعها، بل على العكس كانت القبائل متناحرة متحاربة، وإذا ما قامت أحلاف قبلية، فلمناصرة قبيلة على أخرى، وبالتحديد كانت القبيلة العربية تشكل وحدة سياسية مستقلة.

ومن هنا كان الانقلاب الذي أحدثه ﷺ عميقًا في حياة الجزيرة العربية إذ استطاع بسياسته الكفاحية التي تمليها روح الإسلام أن يحوّل هذه الوحدات القبلية المستقلة ويرتقي بها لتظهر في إطار الأمة الإسلامية(١).

ويبين لنا "فيليب حتي" هذا الانقلاب الذي أحدثه محمد ﷺ، فيقول: "إذا نحن نظرنا إلى النبي ﷺ من خلال الأعمال التي حققها، فإنه الرجل والمعلم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد؛ يبدو لنا بكل وضوح واحدًا من أقدر الرجال في جميع أحقاب التاريخ.

لقد نشر دينًا هو الإسلام، وأسس دولة هي الخلافة، ووضع أساس حضارة هي الحضارة العربية الإسلامية، وأقام أمة هي الأمة العربية. وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالة في حياة الملايين من البشر"(٢).

وعن ضخامة هذا الجهد العظيم الذي بذله ﷺ لإحداث هذا التحول في المجتمع العربي الجاهلي، يقول إميل درمنغم: "إن النبي ﷺ لم يعرف الراحة ولا السكون بعد أن أوحي إليه في غار حراء، فقضى حياة يعجب الإنسان بها، والحق أن عشرين سنة كفت لإعداد ما يقلب الدنيا، فقد نبتت في رمال الحجاز

(١) انظر: محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الاستشراقة المنصفة، (ص٦٨)، وما بعدها.

(٢) فيليب حتى: الإسلام منهج حياة، (ص٥٦).

الجديبية حبة سوف تجدد، عما قليل، بلاد العرب وتمتد أغصانها إلى بلاد الهند والمحيط الأطلنطي.

وليس لدينا ما نعرف به أن محمدًا ﷺ أبصر، حين أفاض من جبل عرفات[١]، مستقبل أمته وانتشار دينه، وأنه أحس ببصيرته أن العرب الذين ألّف بينهم سيخرجون من جزيرتهم لفتح بلاد فارس والشام وأفريقية وإسبانية»[٢].

ويبين آرنولد توينبي[٣] أن النبي ﷺ قد كرّس حياته لتحقيق رسالته في كفالة مَظهرين أساسيين في البيئة الاجتماعية العربية؛ هما الوحدانية في الفكرة الدينية، والقانون والنظام في الحكم. «وتم ذلك فعلًا بفضل نظام الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معًا.. فغدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة، بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة، واستولى على العالم السوري بأسره من سواحل الأطالسي إلى شواطئ السهب الأوراسي»[٤].

ويناقش المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار فكرة «الأمة الإسلامية» ومغايرتها المفهوم الغربي، فيقول: «ليس لفكرة الأمة الإسلامية مقابل في فكر الغرب ولا في تجربته التاريخية، فالجماعة الإسلامية، وهي تجمّع من المؤمنين يؤلف بينهم رباط سياسي وديني في آن واحد، ويتمحورون حول كلام الله القدسي..

---

(١) يقصد حجة الوداع، في اليوم التاسع من ذي الحجة، في العام العاشر من الهجرة، (٦مارس٦٣٢م).

(٢) إميل درمنغم: حياة محمد.

(٣) آرنولد توينبي: المؤرخ البريطاني، الذي انصبت معظم دراساته على تاريخ الحضارات، وكان أبرزها مؤلفه الشهير (دراسة للتاريخ) الذي شرع يعمل فيه منذ عام ١٩٢١ وانتهى منه عام ١٩٦١، وهو يتكون من اثني عشر جزءًا عرض فيها توينبي لرؤيته الحضارية للتاريخ.

(٤) سومر فيل، وإشراف: آرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، (١٠/٣٨١).

والفرد يندمج في الإسلام بالجماعة المؤمنة بالتساوي عن طريق شهادته الفردية، واستبطان إرادته وصفاته الخاصة كمؤمن، فالنية المعلنة والجهر بالكلام شرطان من شروط الانتماء إلى المجتمع.

وبصورة تلازمية يحدد الامتثال لمشيئة الله البنية الاجتماعية، وهكذا تكون النظم التأسيسية للجماعة مشروطة بالعبادة الواجبة عليها نحو الله»[١].

إذن .. ليس لفكرة الأمة الإسلامية ما ينافسها في تجارب الغرب على مدار تاريخه.. فتاريخ الغرب عبارة عن مجموعة إمبراطوريات متتابعة قائمة على الطبقة والعرق واللون.. ولم تقم لهم حضارة في تاريخهم تقوم على أساس الرباط الإيماني، اللهم إلا حضارة الإسلام!. ولم يحدث أن دولة من دول الغرب في عصور الظلام، أن سوّت بين أفراد الشعب في المعاملة وتوزيع الثروة والسلطة، اللهم إلا دولة الإسلام!

وقد أثار موضوع فضل الرسول ﷺ على تحضر العرب، اهتمام علماء الغرب وغيرهم، فهو الذي وحّد الجزيرة العربية أول مرة في التاريخ في ظل حكم إسلامي، متنور نقل العرب من الجاهلية إلى الحضارة والمدنية.

يقول الباحث الروسي آرلونوف: «في شبه جزيرة العرب المجاورة لفلسطين ظهرت ديانة أساسها الاعتراف بوحدانية الله، وهذه الديانة تعرف بالمحمدية[٢]، أو كما يسميها أتباعها الإسلام.

وقد انتشرت هذه الديانة انتشارًا سريعًا، ومؤسس هذه الديانة هو العربي محمد ﷺ، وقد قضى على عادات قومه الوثنية، ووحّد قبائل العرب، وأثار

---

(١) مارسيل بوزار: إنسانية الإسلامية، (ص١٨٢-١٨٣).

(٢) خطأ! بل الإسلام، أما مصطلح المحمدية، فيستخدمه المعادون للإسلام على أساس أنه دين من اختلاق محمد ﷺ.

www.almoslih.net

أفكارهم وأبصارهم بمعرفة الإله الواحد، وهذب أخلاقهم وليّن طباعهم وقلوبهم وجعلها مستعدة، للرقي والتقدم، ومنعهم من سفك الدماء ووأد البنات، وهذه الأعمال العظيمة التي قام بها محمد ﷺ تدل على أنه من المصلحين العظام، وعلى أن في نفسه قوة فوق قوة البشر، فكان ذا فكر نير، وبصيرة وقيادة»[1].

وهكذا فإن فضل الرسول ﷺ على العرب لا حدّ له، إذ أخرجهم من الجاهلية إلى نور الإسلام.

ويضيف «هنري سيرويا»[2» أن «محمدًا ﷺ لم يغرس في نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضًا المدنية والأدب»[3].

ويتحدث الباحث الأمريكي «جورج دي تولدز»، عن فضل الرسول ﷺ على العرب حين نقلهم من الهمجية إلى المدنية، وعن دور الرسالة في تبديل أخلاق عرب الجاهلية، حين عمر ضياء الحق والإيمان قلوبهم، فيقول: «إن من الظلم الفادح أن نغمط حق محمد ﷺ، والعرب على ما علمناهم من التوحش قبل بعثته، ثم كيف تبدلت الحالة بعد إعلان نبوته، وما أورثه الديانة الإسلامية من النور في قلوب الملايين من الذين اعتنقوها بكل شوق وإعجاب من الفضائل؛ لذا فإن الشك في بعثة محمد ﷺ إنما هو شك في القدرة الإلهية التي تشمل الكائنات جمعاء»[4].

(١) آرلونوف: مقالة «النبي محمد»، مجلة الثقافة الروسية، (ج٧، عدد ٩).
(٢) مستشرق فرنسي، من آثاره: (موسى بن ميمون: ترجمته وآثاره وفلسفته) (١٩٢١)، (الصوفية والمسيحية واليهودية)، (فلسفة الفكر الإسلامي).
(٣) هنري سيرويا: فلسفة الفكر الإسلامي، (ص٨).
(٤) محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، (١٨٢).

ويؤكد ذلك القس السابق ـ دُرّاني[1] بقوله: «.. وأخيرًا أخذت أدرس حياة النبي محمد ﷺ فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني الذي أقام مملكة لله بين أقوام كانوا من قبل متحاربين، لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقترفون كل الأفعال الشائنة، فغيّر طرق تفكيرهم، لا بل بدل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة وقانون واحد ودين واحد وثقافة واحدة، وحضارة واحدة وحكومة واحدة.

وأصبحت تلك الأمة، التي لم تنجب رجلًا عظيمًا واحدًا يستحق الذكر منذ عدة قرون، أصبحت تحت تأثيره وهديه تنجب ألوفًا من النفوس الكريمة التي انطلقت إلى أقصى أرجاء المعمورة تدعو إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه ونظام الحياة الإسلامية وتعلم الناس أمور الدين الجديد»[2].

كان فضل النبي ﷺ في تحضّر العرب من العمق وبُعد الأثر لا يحصره زمان أو يحدّه مكان.

يقول الباحث قسطاكي حمصي[3]: «إذا كان سيد قريش نبي المسلمين ومؤسس دينهم، فهو أيضًا نبي العرب ومؤسس جامعتهم القومية، وكما أنه من الحمق والمكابرة أن ننكر أن ما لسيد قريش من بعيد الأثر في توحيد اللهجات العربية، وقتل العصبيات الفرعية في نفوس القبائل، بعد أن أنهكها القتال في الصحراء،

(١) سليل أسرة مسلمة منذ القدم، أصبح نصرانيًا في فترة مبكرة من حياته وتحت تأثير إحدى المدارس التبشيرية المسيحية، وقضى ردحًا من حياته في كنيسة إنكلترا، حيث عمل قسيسًا منذ عام (١٩٣٩)، وحتى عام (١٩٦٣)، ثم عاد إلى دين الإسلام.
(٢) عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، (٤/٢٨- ٢٩).
(٣) قسطاكي بن يوسف بن بطرس بن يوسف بن ميخائيل الحمصي (١٨٥٨-١٩٤١م) شاعر، من الكتاب النقاد. من أهل حلب، مولدًا ووفاة. أصله من حمص هاجر أحد جدوده إلى حلب في النصف الأول من القرن السادس عشر للميلاد.

وتناحر ملوكها في الشام والعراق تناحرًا أطال أمد الحماية الرومانية والفارسية في البلدين الشقيقين حتى الفتح الإسلامي.

فمن الخطأ أن ننكر ما للرسول العربي الكريم ﷺ وخلفائه من يد على الشرق!.. والمنافحة لتحرير الشرق من رق الرومان وأسر الفرس.

إن سيد قريش هو المنقذ الأكبر للعرب من فوضى الجاهلية، وواضع حجر الزاوية في صرح نهضتهم الجبارة المتأصلة في تربة الخلود!!»[١].

ثانيًا: فضله على العالم:

لم يقتصر فضل النبي ﷺ على الفضل في رقيّ العرب فقط، بل فضله كبير في رقي العالم كله حتى اليوم، فيقول المستر سنكس[٢]: «ظهر محمد ﷺ بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة، وكانت وظيفته ترقية عقول البشر، بإشرابها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة، وبإرجاعها إلى الاعتقاد بإله واحد، وبحياة بعد هذه الحياة..».

إلى أن قال: «إن الفكرة الدينية الإسلامية، أحدثت رقيًا كبيرًا جدًا في العالم، وخلّصت العقل الإنساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهان، ولقد توصل محمد ﷺ بمحوه كل صورة في المعابد وإبطاله كل تمثيل لذات الخالق المطلق، إلى تخليص الفكر الإنساني من عقيدة التجسيد الغليظة»[٣].

وبيّن «برتلي سانت هيلر»[٤] أن فضل النبي محمد ﷺ، يمتد إلى كل شعوب العالم، بقوله: «وقد كان دينه ﷺ الذي دعا الناس إلى اعتقاده، جزيل النعم على

(١) قسطاكي حمصي: مجلة الفتح القاهرية، عام ١٩٣٠، نقلًا عن: محمد شريف الشيباني، (١٨٣).
(٢) المستر سنكس الأمريكي: مستشرق أميركي ولد في بلدته بالاي عام ١٨٣١، توفي ١٨٨٣.
(٣) انظر: آن بيزينت: حياة وتعاليم محمد، (ص٥).
(٤) برتلي سانت هيلر الألماني مستشرق ألماني ولد في درسدن ١٧٩٣ ١٨٨٤.

جميع الشعوب التي اعتنقته»[١].

وأكد موريس بوكاي أن الشعوب الغربية هم أكثر الشعوب استفادة من حضارة الإسلام، فيقول: «إن الإسلام ينظر إلى العلم والدين كتوأمين، وأن تهذيب العلم كان جزءًا من التوجيهات الدينية منذ البداية، وأن تطبيق هذه القاعدة أدى إلى التقدم العلمي العجيب في عصر الحضارة الإسلامية العظمى، التي استفاد منها الغرب قبل نهضته»[٢].

ويؤيده المفكر «سان سيمون»[٣] في كتابه «علم الإنسان» بقوله: «إن الدارس لبنيات الحضارات الإنسانية المختلفة، لا يمكنه أن يتنكر للدور الحضاري الخلاق الذي لعبه العرب والمسلمون في بناء النهضة العلمية لأوربا الحديثة»[٤].

ويقارن «ويليام»[٥] حال العالم بعد عهد محمد ﷺ وبين عصر الجاهلية فيقول: «لما شرف محمد ﷺ ساحة عالم الشهود بوجوده الذي هو الواسطة العظمى والوسيلة الكبرى إلى اعتلاء النوع الإنساني وترقيّه في درجات المدنية، أكمل ما يحتاجه البشر من اللوازم الضرورية على نهج مشروع وأوصل الخلق إلى أقصى مراتب السعادة بسرعة خارقة.

(١) انظر: محمد شريف الشيباني، الرسول في الدراسات الإستشراقية المنصفة، (ص٢٠٤).
(٢) انظر: موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، (ص١٤).
(٣) هو الكونت كلود هنري دورفروا (Saint Simon)، الباريسي النشأة، ولد عام ١٧٦٠م، وكان فيلسوفا فرنسيا.
(٤) انظر: رشدي فكار: نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع خلال القرن الرابع عشر الهجري، (ص٣١).
(٥) ولد ويليام هنري كويليام عام ١٨٥٦ لوالد ثري يعمل بصناعة الساعات درس ويليام في معهد الملك ويليام العالي في جزيرة مان وبدأ العمل كمحام في ١٨٧٨ أنشأ كويليام أول مسجد في بريطانيا والذي أقيمت فيه الصلاة أول مرة عام ١٨٨٦توفي سنة ١٩٣٢.

www.almoslih.net

ومن نظر بعين البصيرة في حال الأنام قبله ﷺ وما كانوا عليه من الضلالة، ونظر في حالهم بعد ذلك وما حصل لهم في عصره من الترقّي العظيم رأى بين الحالين فرقًا عظيمًا كما بين الثريا والثرى»[1].

ويبين إدوارد رمسي[2] أن الإسلام منح «المدنية والحضارة قوة جديدة وشجّع العالم على درس العلوم باتساعٍ متناهٍ، وهكذا خرّج إلى الدنيا فلاسفة وخطباء وأطباء ومؤرخين يفخر بهم الإسلام أمثال: أبي عثمان ـ الجاحظ ـ والبيروني والطبري وابن سينا وابن رشد والفارابي وابن باجه والغزالي وغيرهم.

والمسلمون بلا نزاع هم مخترعو علم الكيمياء ومؤسسوه، أما علم الطب والصيدلة فقد حسنوهما تحسينًا عظيمًا، وبواسطة المسلمين تقدم علم الفلك سريعًا حتى الطيران، وهم مخترعو علم الجبر ومكتشفو علم الطيران»[3].

دفعت هذه الشهادات جوستاف لوبون[4] إلى أن يدعو أبناء عصره إلى الاقتداء بمحمد ﷺ، واعتناق دعوته لأن فيها صلاح المجتمعات الإنسانية، فيقول في كتابه «الحضارة الإسلامية»: «إنني لا أدعو إلى بدعة محدثة، ولا إلى ضلالة مستهجنة، بل إلى دين عربي قد أوحاه الله إلى نبيه محمد، فكان أمينًا على بث دعوته بين قبائل تلهت بعبادة الأحجار والأصنام، وتلذذ بترّهات الجاهلية، فجمع صفوفهم بعد أن كانت مبعثرة، ووحّد كلمتم بعد أن كانت متفرقة، ووجّه أنظارهم لعبادة الخالق، فكان خير البرية على الإطلاق حبًا ونسبًا وزعامة ونبوة.

(١) انظر: عبد الله كويليام: أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا، (ص٢١، ٢٢).
(٢) مستشرق أمريكي.
(٣) انظر: محمد عثمان عثمان: محمد في الآداب العالمية المنصفة، (ص١٠٧).
(٤) غوستاف لوبون (٧ مايو ١٨٤١ - ١٣ ديسمبر ١٩٣١) هو طبيب ومؤرخ فرنسي، عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، كتب في علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية. من أشهر آثاره: حضارة العرب وحضارات الهند و«باريس ١٨٨٤» و«الحضارة المصرية» و«حضارة العرب في الأندلس».

هذا هو محمد الذي اعتنق شريعته أربعمائة مليون مسلم، منتشرين في أنحاء المعمورة، يرتلون قرآنًا عربيًا مبينًا».

«فرسول كهذا جدير باتباع رسالته، والمبادرة إلى اعتناق دعوته، إذ إنّها دعوة شريفة، قوامها معرفة الخالق، والحض على الخير والردع عن المنكر، بل كل ما جاء فيها يرمي إلى الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، وهو الذي أدعو إليه جميع النصارى»[1].

وأخيرا فإن هذه الرسالة التي مات عنها رسول الله ﷺ هي أمانةٌ في أعناقنا جميعًا، أمانةٌ أن نبلغها، أمانةٌ أن نَحُوطَها، أمانةٌ أن نتحاكم إليها فيما شجر بيننا، أمانةٌ أن نؤسس بها الإنسان، وأن نبني بها البيت، وأن ننشىء بها المجتمع، وأن نؤسس بها الدولة، وأن نعيد بها الخلافة، وأن نقصد بها في كل الأحوال جنة الله ورضوانه.

اكتمل القرآن، واكتملت السنة، وترجم في السيرة النبوية ـ واقعًا عمليًا وأنموذجًا ناجحًا يُقتدى به، وهكذا خرج الإسلامُ للعالمين نصًا وتطبيقًا، فمن أراد الرفعة والنصر والتمكين والفلاح فعليه به.

دعوةً نرسلها إلى البشر في جميع أصقاع الأرض ـ شعوبًا ودولًا ـ إذا أردتم الدنيا فعليكم بالإسلام، وإذا أردتم الآخرة فعليكم بالإسلام، وإذا أردتموهما معًا فعليكم بالإسلام.

إن دين الله مؤيَدٌ منصورٌ، فمن لاذ به فقد انحاز وثاب إلى النجاة.

لذا لا نقول تعالوا أنقذوا الإسلام ! بل نقول: تعالوا أنقذوا أنفسكم!

(١) جوستاف لوبون: الحضارة الاسلامية، (ص٦٧).

المَصَادِرِ وَالمَرَاجِع

- أروع القيم الحضارية - انجوغو صمب .
- أعداء البشر - بنت الشاطئ .
- إعجاز القرآن الكريم - الرافعي .
- إمتاع الأسماع - المقريزي .
- الأبطال - توماس كارليل .
- الأساس في السنة وفقهها - سعيد حوى .
- الأنساب - البلاذري .
- الإدارة في عصر الرسول ﷺ - أحمد عجاج الكرمي .
- الإسلام دعوة عالمية - العقاد .
- البرهان بورود اسم محمد في الأسفار - المستشار الطهطاوي .
- البشارة بنبي الإسلام - السقار .
- التاريخ الإسلامي - عبد العزيز الحميدي .
- التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق - ابن البطريق .
- الثقات - أبي حيان .
- الجامع لأحكام القرآن - القرطبي .

- الجواب الصحيح - ابن تيمية .
- الحرب النفسية ضد الإسلام - عبد الوهاب كحيل .
- الدرر في اختصار المغازي والسير - ابن عبد البر .
- الرحيق المختوم - صفي الدين المباركفوري .
- السلسلة الصحيحة - الألباني .
- السيرة النبوية - أبو الحسن علي الحسن الندوي .
- السيرة النبوية - ابن كثير .
- السيرة النبوية الصحيحة - أكرم ضياء الدين العمري .
- السيرة النبوية دروس وعبر - مصطفى السباعي .
- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث - الطلابي .
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - محمد أبو شهبة .
- الشفا بحقوق المصطفى - القاضي عياض .
- الغرباء الأولون - سلمان فهد العودة .
- الفتح الرباني - الساعاتي .
- القطع والائتناف - النحاس .
- القول المبين في سيرة سيد المرسلين - محمد الطيب النجار .
- الكامل - ابن الأثير .
- المطالب العالية - ابن حجر .
- المعجم الأوسط - الطبراني .
- المعجم الكبير - الطبراني .
- المغازي - الواقدي .
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي .
- المقتفى من سيرة المصطفى - ابن حبيب .
- المنهج الحركي للسيرة النبوية - عماد الدين خليل .

- المواهب اللدنية - القسطلاني .
- الوحي وتبليغ الرسالة - يحيى اليحيى .
- انجيل برنابا .
- انجيل لوقا .
- انجيل متى .
- انجيل يوحنا .
- بذل المجهود في إقحام اليهود - السموأل بن يحيى .
- بشاير الأسفار - ثامر مير مصطفى .
- تأملات في الأناجيل والعقيدة - بهاء النحال .
- تاريخ الإسلام - حسن إبراهيم حسن .
- تاريخ الرسل - الطبري .
- تاريخ العرب - سيديو .
- تاريخ اليهود في جزيرة العرب - ولفنسون .
- تاريخ دمشق - ابن عساكر .
- تفسير ابن كثير - ابن كثير .
- تنقيح الأبحاث للملل الثلاث - ابن كمونة .
- تهذيب سيرة ابن هشام - عبد السلام هارون .
- جامع الأحاديث - السيوطي .
- جامع المسانيد والسنن - أبو نعيم .
- حدائق الأنوار ومطالع الأسرار - ابن الربيع الشيباني .
- حياة محمد - هيكل .
- حياة محمد - وليام موير .
- دراسات في السيرة النبوية - لجنة من جامعة الأزهر .
- ديوان النابغة - النابغة .

- رؤيا يوحنا – عمر أحمد عمر .
- ربحت محمداً ولم أخسر المسيح – عبد المعطي الدالاتي .
- رحمة للعالمين – محمد سليمان المنصور فوري .
- رسالة الأنبياء – علي بن خضير الخضير .
- رسالة الغفران – المعري .
- روح الدين الإسلامي – عفيف طبارة .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والمثاني – الألوسي .
- زاد المسير – ابن الجوزي .
- سفر التكوين .
- سفر ملاخي .
- سلسلة تاريخ المصريين .
- سنن الترمذي – الترمذي .
- سير أعلام النبلاء – الذهبي .
- صبح الأعشى – القلقشندي .
- صحيح ابن ماجه – الألباني .
- صحيح البخاري – البخاري .
- صحيح السيرة النبوية – إبراهيم العلي .
- صحيح السيرة النبوية – الألباني .
- صحيح مسلم – مسلم .
- صور من حياة الرسول ﷺ – أمين دويدار .
- عبقرية محمد – العقاد .
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير – ابن سيد الناس .
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير – فتح الدين بن محمد .
- غزوة بدر الكبرى – أبو فارس .

- فتح العرب لمصر – الفريد ج بتلر .
- فقه السيرة – السيوطي .
- فقه السيرة – منير الغضبان .
- في ظلال القرآن – سيد قطب .
- قاموس الكتاب المقدس – بطرس عبد الملك وآخرون .
- كتابنا المقدس ومسيحنا القدوس – الأنبا يوأنس .
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – الندوي .
- ماذا يقول الكتاب المفسرون عن محمد – أحمد ديدات .
- محمد في الكتاب المقدس – عبد الأحد داود محمد .
- مسند أبي يعلى – أبو يعلى .
- مسند الإمام أحمد – الإمام أحمد .
- مع المصطفى – بنت الشاطئ .
- معجم ابن عساكر – ابن عساكر .
- معجم الصحابة – البغوي .
- معجم الطبراني الصغير – الطبراني .
- مقارنة الأديان – أحمد شلبي .
- مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ﷺ – أحمد إبراهيم الشريف .
- من إعجاز القرآن العلم الأعجمي في القرآن مفسراً بالقرآن – رؤوف أبو سعدة .
- منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية – سليم عبد الله حجازي .
- نساء النبي – بنت الشاطئ .
- نضرة النعيم – مجموعة باحثين .
- نور اليقين – الخضري .
- هداية الحيارى – ابن القيم .
- وفاء الوفاء بأخبار مدينة المصطفى – السمهوري .

www.almoslih.net

فِهرَسُ المَوضُوعَات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
مقدمة	٧
١ - البشارات بنبينا ﷺ	**١٣**
● البشارات بالرسول ﷺ	١٥
● دروس وعبر	٢٨
٢ - حاجة العالم قبل البعثة إلى الرسالة الخاتمة	**٣١**
● أحوال الإمبراطوريات القديمة	٣٣
إمبراطورية الروم	٣٤
إمبراطورية الفرس	٣٩
إمبراطورية الهند	٤١
اليهود	٤٢
● جزيرة العرب	٤٩
● مكة والبيت العتيق	٥٢

www.almoslih.net

الموضوع	الصفحة
إعادة حفر بئر زمزم	٦٧
الذبيح الحبيب	٦٨
عام الفيل والطير الأبابيل	٧١
● دروس وعبر	٧٩
٣- من المهد إلى البعثة	٨١
● اليتيم الهاشمي	٨٣
نسبه	٨٣
خؤولته من الأوس والخزرج	٩١
عروس العرب	٩٢
محمد ﷺ حملاً	٣٣
مولده	١٠٠
تسمية المولود الجديد	١٠٥
شق الصدر للمرة الأولى	١١٠
● ابتلاء ومعاناة	١١٧
كفالة جده عبد المطلب	١١٧
في كفالة عمه	١٢٠
شق الصدر للمرة الثانية	١٢٢
حياة الكدح	١٢٣
رحلة الشام ولقاء الراهب بحيرى	١٢٥
حرب الفجار	١٣٠
حلف الفضول	١٣٢
شاب في ظلال الله	١٣٥

الموضوع	الصفحة
مع خديجة رضي الله عنها	١٣٧
رحلة وزواج	١٣٨
أولاده ﷺ	١٤٣
الكعبة	١٤٥
مكة بين انحلال السلطة الوثنية وإيمان الحنفاء	١٥٠
الحنفاء في مكة	١٥٣
الرجل الأمة زيد بن عمرو بن نفيل	١٥٥
● على مشارف النبوة	١٥٩
● دروس وعبر	١٧٢
٤- بداية الوحي والدعوة السرية	١٧٧
● نزول الوحي	١٧٩
في غار حراء	١٧٩
الرؤيا الصادقة	١٨٣
نزول ضيف حراء	١٨٦
سماء العزة في قلب النبي ﷺ	١٨٥
أبشر يا محمد	١٨٦
فتور الوحي	١٩٠
أهليته ﷺ لتحمل الرسالة	١٩٣
● الدعوة الإسلامية في خطواتها الأولى	١٩٥
السابقون الأولون: خديجة رضي الله عنها	١٩٧
علي بن أبي طالب	١٩٩
زيد بن حارثة	٢٠١

www.almoslih.net

الموضوع — الصفحة

بنات النبي ﷺ ٢٠٢
أبو بكر الصديق ٢٠٣
عبد الله بن مسعود ٢٠٦
السرية التامة ٢٠٧
• مدرسة دار الأرقم ٢١١
دار الأرقم مركز للدعوة ٢١١
• دروس وعبر ٢١٩
٥- الدعوة العلنية والهجمة الوثنية ٢٢٥
• فاصدع بما تؤمر ٢٢٧
الدعوة العامة وإزالة العراقيل ٢٣٤
• الصدام مع الجاهلية ٢٤١
الإسلام والحرية ٢٤١
• العرب أمام معجزة القرآن الكريم ٢٦٨
لماذا كل هذا التعنت من قبل الكفار ٢٨٠
• مساومات قرشية ٢٨٥
المساومات مع عمه أبي طالب للتخلي عنه ٢٨٥
مساومات هزلية ٢٩٠
• الاضطهاد والتنكيل ٢٩٣
الإيذاء الجسدي الذي لحق بالرسول ٢٩٤
صور من إيذاء قريش للمسلمين الأولين ٣٠٠
• دروس وعبر ٣٠٩
٦- اغتراب السالكين وابتلاءاتهم ٣١٣

الموضوع — الصفحة

• هجرتان إلى الحبشة ٣١٥
الهجرة الأولى ٣١٥
إسلام حمزة وعمر بن الخطاب ٣١٨
مهاجروا الحبشة وإسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما ٣٢٤
الهجرة الثانية ٣٢٥
الهجرة والجهاد الدبلوماسي ٣٢٨
• ثلاثية الخطر ٣٣٤
بين شهم ولئيم ٣٣٦
بداية الانفراجة ٣٣٨
المعجزة ٣٤١
الجزاء من جنس العمل ٣٤٢
التفاعل مع السياسة الدولية ٣٤٢
• عام الحزن ٣٤٧
أبو جهل يحاول اغتيال النبي ﷺ ٣٥٢
• النبي ﷺ بين عقلية النصارى واليهود ٣٥٤
نصارى نجران ٣٥٤
يهود يثرب ٣٥٦
• البحث عن أنصار ٣٦١
رحلة الطائف ٣٦١
نسمات إيمانية في الطائف ٣٦٨
إسلام الجن ٣٧١
بين خيام الحجيج ٣٧٤

www.almoslih.net

الموضوع | الصفحة

زواج وخطبة ٣٨٣
• دروس وعبر ٣٨٦
٧- نفحات قدسية لنصرة خير البرية ٣٨٩
• ممهدات على الطريق ٣٩١
شق الصدر للمرة الثالثة ٣٩٤
الإسراء والمعراج ٣٩٥
• بشاير النصر من الأنصار ٤٠٩
بشريات من يثرب ٤٠٩
بيعة العقبة الأولى ٤١٤
بيعة العقبة الثانية ٤٢٢
علاقات اليهود بالعرب في المدينة ٤٣٧
• دروس وعبر ٤٤١
٨- وداعاً مكة ٤٤٥
• حول باب الهجرة ٤٤٧
أسراب مهاجرة ٤٤٨
قريش تنتبه للنبي ﷺ ٤٥٠
الأمر بالهجرة ٤٥٢
خروج على أعين المشركين ٤٥٣
من حديث الغار ٤٥٦
الخروج إلى يثرب ٤٦٢
شاة أم معبد ٤٦٣
حديث سراقة ٤٦٥

الموضوع | الصفحة

طلع البدر على يثرب ٤٦٨
في قباء ٤٧١
• دروس وعبر ٤٧٧
٩- بناء الدولة ٤٨٣
• وصول الركب المبارك ٤٨٥
لا وقت للراحة ٤٨٨
بناء المسجد ٤٨٩
تشريع الأذان ٤٩٣
إتمام زواج الرسول ﷺ بالسيدة عائشة ٤٩٥
وعكة خفيفة ٤٩٨
• المؤاخاة ٥٠١
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ٥٠١
المؤاخاة بين الأوس والخزرج ٥٠٤
دستور المدينة ٥١٠
ردود فعل الوثيقة على مجتمع المدينة ٥١٩
مجادلة اليهود للنبي ﷺ ٥٢٤
• دروس وعبر ٥٣٠
١٠- تشريع الجهاد وحرب الاستنزاف ٥٣٣
• تهديدات متعددة ٥٣٥
• تشريع الجهاد ٥٤٤
• السرايا الاستطلاعية ٥٤٧
صرف القبلة إلى الكعبة ٥٥٢

www.almoslih.net

الموضوع	الصفحة

وفد نصارى نجران ٥٥٤
مؤتمر الأديان الثلاثة ٥٥٥
غزوة بدر الكبرى ٥٥٧
الغنائم والأسرى ٥٦٥
الموقف من الأسرى ٥٦٧
وفود التهنئة ٥٧١
• حملات الردع بعد بدر ٥٧٣
دواعي حملات الردع ٥٧٣
• حملات الردع ضد المشركين وحلفائهم وقطاع الطرق ٥٧٩
غزوة بني سليم عند ماء الكدر ٥٧٩
غزوة ذات السويق ٥٨٠
غزوة ذي أمر (غزوة غطفان) ٥٨٥
غزوة بحران ٥٨٨
سرية زيد بن حارثة إلى القردة ٥٨٨
تعقيب عام على هذه الحملات ٥٨٩
• حملات الردع ضد اليهود ٥٩١
إجلاء بني قينقاع ٥٩٢
قتل كعب بن الأشرف ٥٩٤
مقتل أبي عفك اليهودي ٥٩٦
مقتل عصماء بنت مروان ٥٩٦
• دروس وعبر ٥٩٩
١١- حول أحد ٦٠٥

الموضوع	الصفحة

• حول أحد ٦٠٧
موقف النبي ﷺ والمسلمين ٦٠٨
المعركة ٦١٠
صور من البطولة والإيمان ٦١١
الرماة وتغيير الوضع ٦١٣
رسالة من شهيد ٦١٥
نتيجة غزوة أحد ٦١٦
• غزوة حمراء الأسد ٦٢٠
أحوال المدينة بعد أحد ٦٢٤
وقع الحدث على طوائف المدينة ٦٦٤
موقف المنافقين ٦٢٥
موقف اليهود ٦٢٦
موقف الأعراب والقبائل الوثنية ٦٢٦
سرايا تأديبية ٦٢٧
سرية أبي سلمة لتأديب بني أسد ٦٢٧
سرية عبد الله بن أنيس ٦٢٨
أساليب الغدر الوثنية ٦٣٠
حادثة يوم الرجيع ٦٣٠
موقف وفد الصحابة من هذا الغدر ٦٣٢
كرامة من الله لعاصم بن ثابت ٦٣٣
موقف نبيل وكرامة من الله لخبيب بن عدي ٦٣٤
ثبات الصاحبين الجليلين عند القتل ٦٣٥

www.almoslih.net

الموضوع — الصفحة

غزوة بني النضير ٦٤٠
• دروس وعبر ٦٤٩
١٢- حملات وفتن ٦٥٥
• حملات أخرى للردع ٦٥٧
غزوة بدر الثانية أو بدر الموعد ٦٥٧
غزوة دومة الجندل ٦٦١
غزوة بني المصطلق (المريسع) ٦٦٣
فتنة عبد الله بن أبي سلول ٦٦٦
مثال رائع من الإيمان ٦٦٨
زواج النبي ﷺ من ابنة قائدهم ٦٧٠
حديث الإفك ٦٧٢
• بين حصارين ٦٧٩
تحالف يهودي وثني ٦٧٩
غزوة الأحزاب (الخندق) ٦٨٠
موقف المسلمين في المدينة من الأحزاب ٦٨١
حفر الخندق ٦٨٢
من المعجزات النبوية ٦٨٥
الأحزاب أمام الخندق ٦٨٧
من روائع علي بن أبي طالب ٦٨٨
مؤامرة بني قريظة ٦٩١
الحرب خدعة ٦٩٤
الفرج بعد الشدة ٦٩٦

الموضوع — الصفحة

عاقبة الظلم ومصير بني قريظة ٦٩٧
دم بني قريظة في عنق حيي بن أخطب ٧٠١
قسمة أموال بني قريظة ٧٠٢
• دروس وعبر ٧٠٣
١٣- أحداث العام السادس الهجري ٧٠٧
• مناوشات تأديبية خارج المدينة ٧٠٩
سرية محمد بن مسلمة ٧١٠
غزوة بني لحيان ٧١٢
مناورة حربية لأهل مكة ٧١٢
غزوة ذي قرد ٧١٢
سرية زيد بن حارثة إلى العيص ٧١٦
بعوث تأديبية متفرقة ٧١٨
سرية زيد بن حارثة إلى بني ثعلبة ٧١٩
سرية زيد بن حارثة إلى بني فزارة ٧٢٠
سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر ٧٢٠
سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل ٧٢٠
مقتل أبي رافع بن أبي الحقيق اليهودي ٧٢٣
مقتل اليسير بن رزام اليهودي ٧٢٤
• صلح الحديبية ٧٢٧
صد المسلمين عن المسجد الحرام ٧٢٧
شوق المسلمين إلى مكة ٧٢٨
العرب والبيت العتيق ٧٢٨

www.almoslih.net

الموضوع	الصفحة

المسلمون والبيت العتيق ٧٢٩
أذان الرسول في الناس بالخروج ٧٣٠
قريش وحج المسلمين ٧٣١
معسكران يلتقيان ٧٣٢
حرص رسول الله ﷺ على السلم ٧٣٣
تفكير المعسكرين ٧٣٧
سفارة عروة بن مسعود ٧٤٠
سفارة الحليس بن علقمة ٧٤١
سفارة مكرز بن حفص ٧٤٣
سفارة الرسول ﷺ إلى قريش ٧٤٣
سفارة عثمان بن عفان ٧٤٤
بيعة الرضوان ٧٤٥
رسالة قريش إلى الرسول ﷺ ٧٤٧
المفاوضات بين الفريقين ٧٤٧
أبو بصير في المدينة وقيادته لحرب العصابات ٧٥٨
المهاجرات المسلمات ٧٥٩
ما صنع الرسول ﷺ ٧٦٠
● فتح مبين ٧٦١
● دروس وعبر ٧٦٧
١٤- أحداث العام السابع الهجري ٧٦٩
● غزوة خيبر وتوابعها ٧٧١
اختيار المكان ٧٧٦

الموضوع	الصفحة

تساقط المناطق العسكرية اليهودية ٧٧٨
خروج لم يتم ٧٨٣
موقف القرى اليهودية الأخرى ٧٨٦
محاولة سم النبي ﷺ ٧٨٩
عودة جعفر بن أبي طالب من الحبشة ٧٨٩
● حوار لا صدام ٧٩٠
● اتخاذ الخاتم ٧٩٣
ردود الفعل الدولية على خطابات النبي ﷺ ٧٩٥
حملات بين خيبر وعمرة القضاء ٨٠٠
غزوة ذات الرقاع ٨٠٠
مواقف من هذه الغزوة ٨٠١
سرايا تأديبية صغيرة ٨٠٣
سرية عمر بن الخطاب ٨٠٤
سرية أبي بكر الصديق إلى بني فزارة ٨٠٤
سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بفدك ٨٠٤
سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى عيينة بن حصن الفرازي ٨٠٥
سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني عوال ٨٠٥
سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني مرة ٨٠٥
سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الحرقة ٨٠٦
● عمرة القضاء ٨٠٧
● دروس وعبر ٨١٢
١٥- العام الثامن الهجري ٨١٥

www.almoslih.net

الموضوع	الصفحة

● أحداث متفرقة ٨١٧
إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ٨١٧
سرية مؤتة ٨١٩
أسباب الغزوة ٨١٩
القادة والوصايا ٨٢٣
قوة غير متكافئة ٨٢٤
استشهاد القواد الثلاثة ٨٢٦
تولي خالد القيادة ٨٢٧
نتيجة المعركة ٨٢٩
بكاء النبي ﷺ المستشهدين ٨٣١
أثر مؤتة واختلافه ٨٣٢
الفوائد التي اكتسبها المسلمون من نتائج غزوة مؤتة ٨٣٤
● فتح مكة ٨٣٦
نقض قريش عهد الحديبية ٨٣٦
مخاوف حكماء قريش ٨٣٧
أبو سفيان يبحث عن مجير ٨٣٨
تجهيز المسلمين لفتح مكة ٨٣٩
مسيرة جيش المسلمين ٨٤١
خروج بني هاشم إلى النبي ﷺ وإسلامهم ٨٤١
أبو سفيان في حضرة الرسول ٨٤٣
عدته ﷺ لدخول مكة ٨٤٥
العفو العام ٨٤٨

الموضوع	الصفحة

تطهير الكعبة من الصور والأصنام ٨٤٩
مخاوف الأنصار وتبديدها ٨٥٠
العفو عمن أمر النبي ﷺ بقتلهم ٨٥١
تحريم مكة على الناس جميعاً ٨٥٢
● غزوة حنين ٨٥٦
خروج الجيش المسلم ٨٥٧
عُجب ومحنة ٨٥٨
موقف جيش العدو ٨٦٠
عوف بن مالك يستطلع الأخبار ٨٦٢
المعركة ٨٦٢
رجوع المسلمين واستماتتهم ٨٦٤
تعقب المسلمين عدوهم ٨٦٥
هزيمة المشركين تامة ٨٦٦
معجزات أثناء المعركة ٨٦٧
غزوة الطائف ٨٦٨
معجزات للنبي ﷺ ٨٦٩
السبي والغنائم ٨٧٠
محنة الأنصار ٨٧٣
● دروس وعبر ٨٧٧
١٦- أحداث العام التاسع الهجري ٨٨١
● أولاً: أحداث العام التاسع الهجري ٨٨٣
غزوة تبوك ٨٨٣

الموضوع	الصفحة
مواقف رائدة	٨٨٧
وللنساء نصيب	٨٩٠
وصول الجيش إلى تبوك	٨٩٤
رجوع جيش المسلمين	٨٩٧
فضح المنافقين	٨٩٨
معجزات في الطريق	٩٠١
● ثانياً: أحداث العام العاشر الهجري	٩١٤
عام الوفود	٩١٤
هدم اللات	٩٢٠
حج أبي بكر	٩٢١
محمد ﷺ وأهل الكتاب	٩٢٤
إسلام بعض أهل الكتاب	٩٢٩
● دروس وعبر	٩٣٠
١٧- الوداع	**٩٣٣**
● حجة الوداع	٩٣٥
أمانة التبليغ	٩٣٩
الدماء والأموال	٩٤٠
الوحدة الإسلامية	٩٤٠
الإخلاص والدعوة والجماعة	٩٤٠
حقوق المرأة	٩٤١
الميراث والأسرة	٩٤١
التوحيد والصلاة والصيام والدولة	٩٤١

الموضوع	الصفحة
التحذير من مداخل الشيطان	٩٤١
المساواة ورفض العنصرية	٩٤٢
الإسلام هو سبيل النجاة	٩٤٢
الإقرار باستلام هذه التعاليم	٩٤٢
بعث أسامة	٩٤٤
بل الرفيق الأعلى	٩٥٠
نظرة الوداع	٩٥٢
السواك الأخير	٩٥٣
إنك ميت وإنهم ميتون	٩٥٣
وقع الصدمة على الصحابة	٩٥٥
في سقيفة بني ساعدة	٩٥٨
أين يدفن جثمان الرسول ﷺ	٩٦١
غسل النبي ﷺ ووداع الجثمان الطاهر	٩٦٢
● دروس وعبر	٩٦٧
الخاتمة	**٩٧٣**
● فضل محمد ﷺ على العالم	٩٧٥
المصادر والمراجع	**٩٨٧**
فهرس الموضوعات	**٩٩٣**

www.almoslih.net